الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع البدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦٠ — ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ — ١٥ يولية سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد

ماذا رأى فاسيلي ؟

للمرحومة مارى ملكة رومانيا

بقلم الأستاذ سعد حسين سعد

كان الوقت ليلاً وكان البرد قارساً والريح تعصف بشدة فوق السهل ، والنجوم تبدو صغيرة وهى تومض على علو شاهق فى السماء كأنما قد تباعدت ما استطاعت من البرد الجاثم على الأرض . وكان الثلج الكثيف المغطى للسهول من شدة البياض بحيث كان يعكس بعض الضوء . ومن حين لآخر تثير الريح المسطح الثلجى النائم وتطارده على هيئة سحاب صغير يطير فى الهواء ملتمساً الخلاص منها

ليلة كئيبة ساقطة النواحى ، من تلك الليالى التى يخال المرء فيها أشباحا هائمة . وكلما خفت عواء الريح سمع صوت مشؤوم يهدر من آن لآخر خلال الظلمة ، صوت بعيد يحمل فى موجاته دوىّ الحرب . وعلى مقربة من الطريق الذى يلوح حتى فى الليل كخط ضعيف أسود حيث تلوث فيه بياض الثلج بالأقدام الكثيرة جلس جمع من الجنود يرتجفون حول نار كادت تخبو

وكأنما اصطلحت عليهم هوج الرياح فراحت ترميهم بأكوام الثلج كما تترامى الأمواج المزبدة على إحدى الصخور . فشد الجنود بنيقاتهم إلى ما فوق آذانهم وأنزلوا قلانسهم حتى غطت جباههم . لكن لا الفرو ولا القماش استطاع أن يحميهم من تلك الزوبعة الثلجية

كان الجميع زهاء اثنى عشر جندياً ، من بينهم أربعة رجال ملتحون وشاب حديث السن ، يحرس بضعة أسرى جالسين فى أسمال رثة حول جمرات النار الأخيرة وعليهم ذلة محزنة . كانوا جالسين القرفصاء ورؤوسهم ناكسة على ركبهم ، قد أخفوا وجوههم الأجنبية من الثلج كما أخفوها من نظرات الآخرين التى كان ملؤها مزيجاً من الشفقة والاحتقار ؛ وكانت أيديهم العارية مشققة وارمة من الصقيع ، وأجسامهم تنتفض فى تشنجات ، إما من البرد أو الحزن أو الخوف — أو منها جميعاً !

لم يلق حراسهم إليهم بالاً ، وإنما جعلوا يتحدثون فى جمل قصيرة خيل إليهم أن الريح تمزقها ، إلى رفيقهم الشاب الوحيد الذى وقف متكئاً على بندقيته كما يتكئ الرعاة على عصيهم . كان فتى صغيراً فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة تقريباً . وكان يحدق فى دجى الليل بنظرة حالمة تبدو فى عينيه الخضراوين الواسعتين ، وفيما حوله تتراقص ندف الثلج ثم تسكن على فرو قبعته وعلى أهدابه الطويلة ، مما جعله يمر بيده من وقت لآخر على وجهه

قال رجل من أكبرهم سناً :

« فاسيل ، إن النار آخذة فى الانطفاء . وسنموت من البرد قبل انقضاء هذه الليلة اللعينة »

ودمدم آخر قائلا : كان علينا ألا نضل الطريق

فعاد الأول يقول : لم نأت ذلك عن قصد .

وكان هذا هو قائد تلك الثلة الصغيرة من الجنود المنوطة بأولئك الأسرى، وكان يدعى أندريه سكرتو، وهو جاف الطبع، ينقاد إليه الآخرون على كره منهم

قال : كيف يمكن الإنسان أن يقطع أية مسافة وقدماه متجمدتان حتى ولو لم يكن معه سوى الأسرى ؟ كان علينا أن نبلغ القرية قبل الليل ، لكنا وا أسفا لم نفعل . وقد نصبح قليلاً من كثير إذا بقينا هكذا حتى الصباح ، ولن يكون هذا ذنبنا ولا نقمة الله

فسأل أحدهم : ذنب من إذن ؟

فقال رجل مسنّ يدعى بيتر باسكا : ذنب الحرب

فدمدم سكرتو : الحرب ، الحرب ! إن الحرب تأتى كالصيف القاحل أو كالفيضان الجارف عند ما يكون النبت صغيراً

فقال آخر وهو يحاول عبثاً إذكاء النار الخامدة : إن هؤلاء الأعداء الألمان هم أعوان الشيطان !

فقال سكرتو : ألا فليتخبطهم الشيطان إذن ! ثم بصق فى الجمر توكيداً لكلماته

فاتجه فاسيل إليهم بوجهه الصغير المثلوج ثم قال : إنى أرثى لهؤلاء الأسرى

فارتفعت أصوات كثيرة محتجة : ترثى لهؤلاء الكلاب الأجانب !

فأوضح فاسيل : إنهم حديثو السن بعيدون عن وطنهم

— ونحن ، أين نحن إذن ؟

— نحن لم نزل فى الأراضى الرومانية !

— إذا كنا كذلك فليس هذا ذنبهم !

وهبت نفحة من الريح هيجت موجة عظيمة من الثلج فولوها ظهورهم يتقون بها هجومها

قال أحدهم : ليلة ذئاب

وقال ثان : ليلة شياطين

وقال ثالث : « ليلة أموات »

ثم عاد سكرتو يقول : « فاسيل ، سنتجمد إن لم نجد خشباً »

فأجاب فاسيل وهو معتمد بندقيته كعصى الراعى: أين يمكن العثور على خشب فى هذا القفر ؟

فقال بيترباسكا : إن رجليك فتيتان ، ومع ذلك فالليل ليس حالك الظلمة ...

فقال شخص من الجانب الآخر : أجل ، ليس حالك الظلمة بسبب الثلج !

وكرر آخر وهو يئن : هذه ليلة شياطين !

فعاد بيتر باسكا يقول : فاسيل ! إن رجليك فتيتان . . .

فرفع سكرتو عينيه . وكان يحاول إشعال لفافة تبغ . ثم قال : نعم . نعم . إن رجليك فتيتان فلماذا لا تذهب للبحث عن بعض من الخشب ؟

فاحتج فاسيل قائلا : إنى هنا لحراسة الأسرى . وضرب قدميه إحداها فى الأخرى دون أن ينتقل من مكانه !

فصاح سكرتو: إن كلباً يمكنه حراستهم. وفوق ذلك فإنى هنا لآمر !

فضحك أحدهم ضحكة خشنة وقال : لسوف تزهى امرأتك العجوز بمفاخرك

— دع امرأتى وشأنها . لقد كانت صغيرة فى أيامها ، وها هى ذى قد أنجبت لى أطفالاً كثيرين معظمهم صبيان

— وأين هم ؟

فهز سكرتو كتفيه ورفع يديه فى ابتهال . ثم قال فى غموض : الله وحده يعلم نهاية هذه الحرب .. وهؤلاء الألمان

فقال أحدهم : هم يعرفون كيف يقاتلون

وردد صوت من الظلام : هم أعوان الشيطان

فقال آخر : لا فائدة لنا من هذا

فقال سكرتو فى سخرية : بل من مدافعهم !

وكان أثناء ذلك يحاول أن يشعل بالزند لفافة تبغ رطبة

فسألهم فاسيل : ألا تسمعونها الآن أيضاً ؟

فقالت عدة أصوات معاً : سحقاً لها !

وأعقب ذلك صمت شامل لم يكن يقطعه سوى عواء الريح فى الليل

وبدأ بيتر الكلام وكان ملحاحاً : فاسيل ، إن رجليك فتيتان والخشب لا بد موجود فى مكان ما ؛ ثم إن الليلة ليست حالكة الظلام

فأمن سكرتو على ذلك قائلاً : إن لم نجد شيئاً نشعله فسنهلك جميعاً قبل الصباح . احمل بندقيتك يا فاسيل وامض للبحث . أقل شيء يكفينا

فهز فاسيل كتفيه قائلاً : ليكن ما شئت ثم احتمل بندقيته على ظهره دون أن يبدى اعتراضاً آخر ، ومضى لطيته يخوض الثلوج الكثيفة الوعثاء فى خطوات جامدة لا يبالى فى أى طريق ذهب ، إذ لم يكن يدرى فى الواقع أين يجد الوقود ... فالوقت ليل ، والسهل أجرد . وليس ثمة أكواخ ولا أشجار ولا أسوجة ولا أى شيء ... بل ولا بئر خشبية فماذا يستطيع أن يجد ... ؟ فاستسلم للمقدور وراح يخبط فى غياهب الليل المترامية

وبينما كان يدب فى الظلام مرت به أفكار كثيرة مضطربة ، ورأى رؤى سعيدة لا تمت للحرب أو الشتاء بصلة . رأى وادياً خصيباً يخترقه طريق طويل مترب يؤدى إلى قرية اختفى نصفها بين أشجار الفاكهة ، وكان الوقت عند الغروب وقد عاد قطيع من الثيران خلال الطريق يتبعه شاب يمشى الهوينى وبيده عود أخضر .. كان يصفر لحناً شجياً هادئاً لا يفتأ يردده مرة بعد أخرى

حاول فاسيل على غير وعى أن يصفر اللحن لكن شفتيه كانتا مشققتين من الصقيع فلم يخرج منهما سوى بضع نغمات سحرية رنت فى الظلمة

غير أن الشاب لم يزل يسير الهوينى ، والوقت مغيب والثيران تثير غباراً يعفر يديه ووجهه ...

كان الطريق طويلاً ، لكن لم يكن هناك داع للعجلة فلم يحفل بالوقت أحد لا الشاب ولا الدواب...

وعند ما بلغت الثيران الرمادية الرزينة القرية مال كل منها إلى مقره . . . وأخذ القطيع يتناقص بينما كان الشاب يسير ، وهو لا يزال يصفر أغنيته ويلوح بالعود فى الهواء

وكان هناك بضعة أطفال صغار وطائفة من الخنازير الداكنة تنكث فى الأرض ، فلما مر الشاب والثيران جرت وتفرقت فى كل جهة ... وكانت الخنازير ذات ذيول قصيرة جعدة ، وحركاتها فى طفراتها جامدة مضحكة . وكان الأطفال صخابين نصف عارين لا تكاد تغطيهم قمصانهم البالية .

وأمام كل منزل تقريباً تكونت كومة عظيمة من القرع ، وتدلت على طنف البيوت قلائد طويلة من نبات أرجوانى اللون ، وانتشر غبار خفيف فوق القرية ، وسرى فيها كسل الرضى ، وخيم عليها جميعاً السلام ...

عثرت قدما ڤاسيل فى شىء فسقط على ركبتيه سقطة لينة إذ كان الثلج عميقاً ؛ غير أن تلك الرؤى السعيدة لم تلبث أن اختفت وعاد كما كان وحيداً يرتعد فى الليــل ، على حين أقبلت أصوات المدافع البعيدة تزجى إليه الحقيقة وتؤكدها .

قال مدمدما : « الخشب ، الخشب ! إنى لأعجب كيف أجد خشباً فى هذا القفر اللعين ! يا لها من ليلة ! فالريح تمزق كالسياط ، والثلج الذى تقذف به فى وجهى يخز كالإبر . فأين قدر لى أن أجد الخشب ! »

ثم وقف وطفق يضرب جانبيه بيديه الخدرتين . ولما كان سيره اعتسافاً فإنه لم يلزم الطريق ، بل جعل يتخبط فى الظلام . ولم يستطع أن يبصر كثيراً ، لكنه كان يتبين من حين لآخر هنا وهناك بقاعاً قاتمة حيث يخف الثلج فوقها ، وربى غير محدودة الشكل وركاماً من الحجارة وحصاناً ميتاً وكوماً من القش العفن ··· وهذه جميعاً ربما كانت تنطوى فى وحشة الليل على معنى مخوف ، فكل شىء جائز فى زمن الحرب

فارتجف وقام أمامه ثانية خيال القرية الهنيئة ، وعاد يرى كومة القرع البرتقالى ، ومن وراء أحد الأسوجة أرسلت فتاة صوتهـا العذب بالأغنية التى كان الشاب يصفرها . فصرخ ڤاسيل مقصياً تلك الرؤى السعيدة : « لـكن لا بد أن أجد خشباً ! الآخرون يتجمدون ولا يمكن أن أمضى سواد الليل جائلاً »

عاد ينعم النظر حوله فلاح له الخط القاتم من الطريق المعبد غير بعيــد . وبدا له من الأسهل أن يمشى فوقه فيمم شطره فى بطء وعناء ، إذ كانت الأرض وعثاء ، وكان فى حالة إعياء ، وقدماه باردتان بدرجة مخيفة ، وفجأة جمد فى مكانه وأجفل : ما ذاك الذى يرى هناك ؟ فقــد وقفت ثلاثة أطياف عجاف جنباً إلى جنب ··· ثلاثة هيا كل عظمية منعزلة قائمة فى غموض خلال الليل

تخفق قلبه ، وتبللت راحتاه بعرق فجائى : ما هذه يا ترى ؟ ما أرهب وحشة الليل ! ومع ذلك لماذا يفزع ؟ فالأشباح أشباح — قلما تؤذى — وشر منها حقاً ملاقاة ألمانى حى ! غير أنه فى تلك اللحظة أيضاً لم يكن على يقين : هل الأفضل أن يكون أحد الألمان ؟

تغلب ڤاسيل على إحجامه بمشقة ، وخطا نحو الأطياف الثلاثة التى كانت واقفة بغير حراك ، وهو يدنو منها ... لم تكن إلا ثلاثة صلبان ! ثلاثة صلبان خشبية منعزلة قد أثرت فيها الأنواء ! ثلاثة قبور مهجورة !

فرسم ڤاسيل علامة الصليب بوحى الغريزة . . . وصلى وهو يلهث صلاة على أرواح الموتى . وقف يتفرس فى هذه الدمى الـكئيبة ، وقد دار رأسه : هل هى قبور جند ؟ أم قبور نساء ؟ أو لعلها قبور أطفال صغار ... أطفال صغار ماتوا جوعاً وبرداً ؟ فمذ بدأت الحرب كثير من الأطفال مات جوعاً وبرداً .

وعندئذ أدرك ، وقد أجفل ، أن الصلبان مصنوعة من الخشب . . . من الخشب الثقيل ! أو لم يرسل فى هذا الليل ليبحث عن خشب ؟ ...

لبث واقفاً أمام الصلبان الثلاثة كمن يحــدق فى كنز استكشف على غير انتظار ، ولا يجرؤ أن يأخذه . كان الخشب يغريه ، لـكنه لم يجرؤ أن يلمس الصلبان ، ولم يشأ فى الوقت نفسه أن يبرح !

واستبد به إغواء شديد : لم لا ينتزع أحد هذه الصلبان ، ويعود به لإطعام النار الخامدة التى تركها ! فالأموات هم أموات مهما يكن من الأمر ! ونومهم

من العمق بحيث لا يسمعون ما يجرى فوق رؤوسهم ! والحمد لله على أنهم ينامون هذا النوم العميق؛ وإلا من كان يمكن أن يمر بفكره مثل هذا الخاطر !

فتقدم بضع خطوات وألقى يده على أول صليب، وعندئذ استولت عليه كزازة نفسية عظيمة — كلا ! إن مثل هذا العمل انتهاك حرمة. إن الأموات يجب احترامهم ، بل ويجب احترامهم أكثر من الأحياء. سيقابل هذا العمل بالاستهجان من الله والإنسان . إن الأموات لا يملكون الدفاع عن أنفسهم ولكنهم تحت رحمة من يمر بهم — لهذا وجب احترام القبر كهيكل الكنيسة ... كان من المستحيل حقاً أن يضع يديه على الصليب الذى هو آخر هدية لعزيز طواه الفناء

وارتفع صوت الإغواء ثانية فى نفس فاسيل . فالأموات هم أموات ، وقد زالت آلامهم بينا هناك رجال يتجمدون لنفاد الخشب، رجال شجعان يؤدون واجبهم . إن انتهاب الأموات ولا شك خير من ترك الأحياء يموتون وهم الجنود البواسل الذين يذودون عن وطنهم ! ولو قدر الموتى على الكلام لصاحوا به أن يأخذ صلبانهم — جميع صلبانهم ! ليصطلى بها حماة الوطن الشجعان الذين يموتون من البرد . . .

وفى حركة سريعة أمسك فاسيل بأول صليب وحاول أن ينزعه من الأرض المتجمدة . . . لكن الصليب قاوم — قاوم كأنه شجرة راسخة عميقة الجذور ، كأنه مخلوق حى يحمى حرماً مقدساً . فغلى الدم فى عروق فاسيل ، إذ نبهت فيه المقاومة غريزة النضال الكامنة فى كل رجل . وانقلب الصليب العنيد خصماً له يجب أن يغلبه

وعندئذ جرى فوق ذلك السهل المقفر الصراع ، بينما كانت الريح تعوى عواء مخيفاً والشاب ينازل الصليب الخشبى ! وأبدى الصليب مقاومة تكاد تكون بشرية ، واستقتل الشاب فى العراك كأنه بإزاء عدو يجب قهره ؛ فلف ذراعيه حول الصليب وجعل يجذبه ويدفعه ويهزه والنصب العنيد لا يلين. فجرى العرق غزيراً على وجه فاسيل وكان قد ألقى قلنسوته وألقى البندقية عن ظهره ، فاستمر يناضل ويناضل بكل قواه فى إصرار مشوب بالمقت

وعلى حين فجأة أذعن الصليب فهوى فاسيل معه إلى الأرض حيث بقى ممدداً فوق خصمه الصريع — خصمه الذى لم يكن سوى صليب خشبى ! — وجعل فاسيل يلهث بعض الوقت وما برح ضوء المعركة فى عينيه ، والريح تعوى حوله وتلطم وجهه بقذائف من الثلج ... لكنه انتصر ! لقد استأصل الصليب ووجد خشباً لنار الأحياء .. وفى هذا كل مبتغاه ...

كانت النار قد خبت حتى الجمرات فقد خمدت بخمدمها الحديث وجلس حولها الأسرى والآسرون فى استسلام صامت كأنهم أكوام من الملابس القديمة الملقاة ، لا يميزهم فى تلك الليلة الأليمة بعضهم عن البعض إلا اختلاف بسيط فى الهيئة

وسمع خلال الظلمة صوت ضعيف لشخص يقترب منهم ، ولم يمكن تبين شىء منه أول الأمر . وعلى حين فجأة تراءى فاسيل أمامهم يجر خلفه شيئاً ثقيلاً أسود كالشبح

خشب !

ارتفعت صيحة فرح من حلقة الجمع الجالسين

حول الرماد ورنت أصواتهم المبحوحة تحي عودة فاسيل ، ونهض بوحي الغريزة عدد منهم يبحث عن الزند بأصابع خدرة لا تكاد تطيع

لم يقل فاسيل شيئاً . كان يلهث . كانت عودته خلال الليل أشبه بمعركة ـ معركة مع الريح والثلج والبرد ـ وبالأخص مع ضميره . لهذا لم يقل شيئاً ، وإنما طرح الصليب الثقيل بحركة ختامية عند أقدام هؤلاء الذين كانوا بانتظاره ...

كان سكرتو أول من أدرك حقيقة الوقود الذى أتى به فاسيل

فأفلتت من شفتيه شبه لعنة وغمغم : «هذا صليب صليب ... صليب ! »

وقام آخرون لفحص الخشب المنتظر ، فارتفعت منهم صيحات مختلفة .

رفع الأسرى وجوههم وحدقوا بعيون منكسرة فى المتكلمين ؛ لكن فاسيل كان صامتاً قد أضناه التعب فتهالك على الثلج .

صاح سكرتو : « صليب ! كيف يجرؤ أن يأتى بصليب ! » .

فغامر أحدهم قائلاً : « ولكنه خشب ونحن نرجف من البرد »

— فلتكن مشيئة الله . ولكن لا يمكن أن نحرق صليباً !

— هذا انتهاك

— لو فعلنا لحلت علينا لعنة الله !

— والأموات أيضاً !

— لكننا نرجف من البرد ، وإن الأموات أموات ...

— ما الذى يفيد الأموات لو تجمدنا ؟

— الوطن فى حاجة إلينا للدفاع عنه

— يوجد أموات كثيرون جداً بدون صلبان !

— يا للعار ! منذا الذى يجرؤ أن يحرق صليباً ؟

وسرعان ما تصاعدت الصيحات من الجميع ما عدا فاسيل والأسرى فكانوا صامتين . واستحوذ على فاسيل حياء وإعياء وامتلأ صدره حنقاً . ما ذا كان يمكنه أن يفعل ! لم يجد شيئاً آخر ...

وارتفعت أصوات الرجال واحتدم بينهم النزاع . وكانت الريح تعصف بعنف وتعلو على الأصوات البشرية الضئيلة

صاح سكرتو فى غضب : « لن أسمح بذلك ! أهون عندى أن نهلك جميعاً من البرد من أن نحرق صليب المسيح ! »

لم يتزحزح الرجل العجوز عن موقفه وألقى عليه زملاؤه نظرة فيها تحفز وسخط ، وتكاثف الثلج المتساقط عليه ، وعلت سحنته الدميمة زرقة من شدة البرد فجعل يضرب قدميه المتجمدتين فى الأرض ويصفق بيديه ويضرب بهما جانبيه وهو يحاول عبثاً التغلب على الصقيع . ونظراً لأنه كان رئيس الفرقة فلم يمكن الإقناع ولا التهديد أن يحوله عن رأيه : « أهون على أن نموت وأن تجمد دماؤنا من أن نقترف إثم إحراق شارة المسيح المقدسة ! »

وساد الصمت تلك الجماعة المعذبة التى كادت تتجمد . كانوا مكدسين ناكسى الرؤوس حول الرماد البارد ، عدو إلى جانب عدو يقاسون ويتعذبون بعد أن فشلت كل محاولة — ولكنهم بعدُ رجال والله موجود عليم بأهوال ليل الشتاء !

وكان فاسيل قد انتحى جانباً ورقد معتمداً رأسه فوق الصليب الذى بذل جهداً عظيماً فى حمله

من مسافة بعيدة . ونفر عنه النوم فأخذ يفكر فى مشاكل الحياة بالرغم من أن البرد قد خدر مداركه التى لم تكن قط بهذه الحدة

لماذا الحرب؟ لماذا نتعذب ونقاسى البرد ونضحى بينما العيش خفض — لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا اجتوتنا رحمة السماء ؟ لماذا الرموز والخرافات والعصبيات التى ليس لها معنى واضح ولا منفعة حقيقية ؟ لماذا العداء بين الأمم ؟ لماذا الموت والفظائع من كل نوع ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

وزمجرت الريح حوله ، وكان من آن لآخر يرفع يده وقد تحجرت من البرد ليمسح الثلج من على عينيه

لماذا يتعاقب الشتاء والصيف ؟ لماذا البعد والحنين والأمور التى تذهب ولا تعود ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

لم يستطع فاسيل أن يفهم

ونصب جسمه حتى قعد ؛ لماذا الليل حالك الظلمة ؟ ما معنى كل ذلك ؟

آه ! هنالك ، كان يلوح ضوء خافت ؟ هل الفجر أقبل ؟ هل تلك الليلة القاتلة أوشكت على الانتهاء ؟

راقب فاسيل بانتباه ذلك الضوء الذى خيل إليه أنه يراه إلى اليمين على البعد (هل هو الفجر ؟ هل أتى أخيراً ؟ لكنه لم ينتشر ، بل أخذ يتحرك) أجل كان يتحرك ! كان يقترب . . . كان يتجه نحوه !

ولما أشرق الصباح وحاول فاسيل أن يقص ما قد رأى ، كان من الصعب على الآخرين أن يصدقوا قصته تصديقاً تاماً ؛ بيد أن هؤلاء الآخرين كانوا نائمين وكان فاسيل وحده مستيقظاً ! لكن هكذا شأن الانسان : لا يصدق إلا بالعيان ...

أما الذى رآه فاسيل فكان صورة آتية فى ثبات نحوه على الثلج ، صورة ناصعة ملتفة فى غلالة من النور . وكانت الصورة هى النور نفسه ، وكانت من شدة البهاء والإشراق بحيث لم يدر فاسيل لِمَ لم توقظ الآخرين من نومهم

وتخلف فى أعقاب الصورة أثر طويل من الضياء طريق من الجلال عليه آثار أقدام مقدسة ... فهو يسوع الذى كان مقبلاً نحو فاسيل . . .

أتى من جوف الليل . كانت صورته من الروعة والجلال بحيث تهالك فاسيل على ركبتيه يعزق قلنسوته من فوق رأسه وتشد يداه الخدرتان إحداهما الأخرى

لقد نسى أوصابه وعذابه ، نسى الشكوك والأسئلة التى ساورته وبهظت نفسه . وجعل ينظر خلال الظلمة ، وامتلأ كيانه بذهول لا يوصف فقد كان رجل النور قادماً نحوه ، نحو فاسيل الجندى الذى سرق صليب الموتى !

لكن ما هذا الذى كان يحمله يسوع على كتفيه؟ هذا الشيء الأسود الثقيل الضخم

إنه صليبه ! حتى المسيح يحمل صليبه ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ...

كم يسير بخفة فوق الثلج ، والصليب على كتفيه يبدو كأنه بغير وزن ، مع أن كتفى فاسيل ما زالتا تحسان الثقل الذى آذاهما

لم تقف الصورة المضيئة أمام الجندى الشاب وإنما مرت بعينيه ومضة خاطفة من الرحمة الملائكية واجتاز المسيح فى تؤدة البقعة التى كان فاسيل راكعاً فيها ويمم شطر حلقة الجنود النائمين فخطا بينهم . ورأى فاسيل بعينى رأسه ، رأى المسيح يلقى صليبه على الجمرات فيندلع منها شواظ رائع أخذ

يأكل جوانب الصليب حتى صار الصليب نفسه شعلة هائلة من النور !

لقد جاء المسيح بصليبه ، جاء به ليوقد منه ناراً لكيلا يهلك من البرد حماة الوطن البواسل !

ولم يذكر فاسيل مما حصل بعد ذلك إلا قليلا فقد زحف على ركبتيه نحو الشعلة المقدسة ... وسقط منشياً عليه بجانب الشواظ المنقذ ...

تبلج الصباح واستيقظ النائمون واحداً بعد الآخر . يا للعجب ! إن الجمرات التي كانت في أول الليل خامدة باردة غدت الآن حمراء حامية يشع منها وهج مبارك ، وهج من الشدة وقوة الإنعاش بحيث لم يعد برد الشتاء سوى طيف مخيف أدبر وولى

أخذ كل رجل يثوب تدريجياً من دولة الأحلام وهو يشعر أن شيئاً عجيباً قد حدث ، فقد كان جسمه دفاقا وروحه تفيض بجذل لم يستطع تفسيره . حتى أن الأسرى ذوى الوجوه الشاحبة كان يبرق في عيونهم إحساس غريب أشبه بالفرح ...

وصاح سكرتو ينادى فاسيل بصوت فيه تهديد ووعيد : هل خالف أوامره ؟ هل أحرق الصليب بينما كان رئيسه نائماً ؟

ولكن ، لا ! هنالك الصليب راقد أشبه بميت مبسوط الذراعين ، وإلى جانبه جثا فاسيل على الثلج مشبك الذراعين ، يحدق في الشمس الطالعة ...

فرسم سكرتو علامة الصليب

ثم هتف: «فاسيل ! فاسيل! ماذا ترى في وجه الشمس ؟ »

فاتجه إليه فاسيل ، كان في عينيه ضياء عجيب ، لكنه لم يجب ، ولم يعرف سكرتو أية رؤيا كان فاسيل يتبعها نظره وهو يحدق في وجه الشمس الطالعة .

سعد حسين سعد

الذكرى الخالدة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب م. عبد القادر المازني

— هل تؤمن بالشياطين يا كامل ؟

فنحى كامل الصحيفة عن وجهه ودقق النظر قليلاً فى وجه زوجه ثم ابتسم وعاد يطالع فى الصحيفة دون أن ينطق بلفظ

فاغتاظت تحية من صمته وحدجته بنظرة فاحصة ثم قالت بحدة :

— إن لى ساعة أتكلم فيها وأطرق شتى الموضوعات وأنت ساكت لا تكلف نفسك غير الابتسام فماذا دهاك ... هل قطع لسانك ؟

فلم يفه كامل بكلمة أيضاً بل راح يتابع قراءته فى صمت وسكون . فانتفضت تحية واقفة واختطفت الصحيفة من يده وهى تقول :

— يجب أن تعرف أن من أبسط قواعد اللياقة أن ترد على محدثك

فتجهم وجه كامل ثم نهض واختطف طربوشه من فوق المنضدة وهم بالخروج ، فأسرعت إليه تحية وأمسكت يده وبسمت فى وجهه وهى تقول :

— هل أغضبتك يا كامل ؟

ثم أصلحت له سترته وتناولت وجهه بين يديها وطبعت على فمه قبلة وقالت :

— تستطيع الآن أن تخرج

بيد أن « كاملاً » لم يخرج بل تناول زوجه بين ذراعيه وضمها إلى صدره بحنان عظيم ثم قال بعد أن رد لها قبلتها

— هل يروق لك أن تشاهدى السينما اليوم ..

فابتسمت تحية وقالت :

— إنى لا أرفض لك طلباً يا كامل ليس يغضبنى أن تأمرنى يا كامل فأنت رجلى و ... حياتى

فابتسم كامل بإشراق وقال :

— يحببنى فيك يا تحية لباقتك وجمال ألفاظك.

فازدادت به تحية التصاقاً وقالت :

— لقد أسعدتنى يا كامل وصنعت كل ما يرضينى ويقر عينى ، وكنت دائماً مثال الرجل الكامل والزوج العطوف . ولقد استطعت أن تفتح ذلك الصندوق المغلق وتتمتع بما فيه ، فحبى لك يا كامل هو صدى عطفك ورعايتك ، وهو صدى حنانك وحدبك علىّ فأنت صاحب الفضل ...

ثم ألقت برأسها إلى الخلف فى تدلل وعطفت تقول :

— والمرأة يسعدها فى الحياة شيئان :

قلب الرجل ورعايته ...

وقد فزت بهما معاً . . . فماذا أطلب بعد ذلك ؟

فانحنى عليها كامل وقبلها ثم قال :

— تطلبين يا تحية أن يديم الله بيننا الحب والوفاق ؟

فتشبثت به كطفلة وقالت :

— نعم يا كامل ... هذا ما أطلبه دائماً

فاشتد كامل فى احتضانها وقال وهو يلثم فاها :

— إنى سعيد

فقالت تحية على الفور :

— ليس أسعد منى ... ولكن ...

فسألها كامل بلهفة :

— ولكن ماذا يا تحية ...

فتطلعت تحية إلى عينيه ، وأطالت فيهما النظر. ثم قالت :

« لست أدرى يا كامل ، ولكنى واجفة القلب ونفسى تحدثنى . . . ولكن لا . . . إنه الشيطان الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ... ولكنه شيطان بارع ، فقد استطاع أن يدخل فى روع تحية وهى التى لا تؤمن بكلام الشياطين بأننا نحن الشياطين . . . »

فضحك كامل وقال :

— وهم ؟

فقالت « تحية » وهى تضحك :

— ملائكة يا حبيبى !

فقال كامل :

— أنت تكثرين اليوم من الحديث عن الشياطين فماذا هناك . . . ؟ هل صادقت شيطاناً . . . ؟

— ربما ! ...

ثم أفلتت من بين ذراعيه برشاقة وخفة ، وركضت إلى مخدعها ... فتابعها كامل بنظراته حتى اختفت . . . ثم ابتسم فى نفسه ابتسامة الرضى والشكر !

***

وقف كامل قبالة النافذة يتسلى بالنظر إلى الطريق حتى تعود زوجه

وطالت وقفته ولم تعد « تحية » ولم يكن من عادتها الإبطاء أو التلكؤ فخطر له أن يستحثها فخف إليها وهو ينادى ويتصنع الغضب :

— تحية . . . ألا تنوين الخروج . . . ما هذا الإبطاء ؟

ولم يكد يطأ باب الحجرة حتى وقف مشدوهاً ..

كانت تحية واقفة وسط الحجرة وفى يدها ورقة تقرأ فيها والدموع تتساقط من عينيها بغزارة . وكانت مصفرة الوجه بادية الإعياء ، تتطلع بين كل لحظة وأخرى إلى فراشها الذى رقد فيه طفل حديث الولادة

واستطاع كامل أن يتكلم فقال :

— ما هذا ؟

فأفاقت تحية على صوته والتفت إليه ببطء وأطالت النظر فى وجهه ثم حولت وجهها عنه فلم يطق كامل صبراً فعاد يسأل بلهفة :

— قلت ما هذا ...

فقالت تحية دون أن تنظر إليه :

— ابنك

فخطا إليها وهو يقول بجزع :

— ابنى ... مستحيل

فارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة وقالت :

— هل عودتك تحية الكذب ؟

— لا ولكن مستحيل أن يكون هذا ابنى ... من أين جاء ؟

— إنه هدية فخذ واقرأ

ودفعت إليه بالورقة التى كانت فى يدها وأسرعت بالخروج من الحجرة، فنشر كامل الرسالة وراح يقرأ:

سيدى :

إن هذه مفاجأة لم تخطر لك على بال؛ ولعلها الأولى من نوعها ... وهى أيضاً جرأة، أو إن شئت فقل إنها مغامرة جريئة . وأصح من هذا وذاك فهو عدل وإنصاف، وقد تدعوه انتقاماً ولكنه انتقام فيه رحمة ... قد تخسر بسببه كثيراً وقد لا تخسر شيئاً والواقع أنك ستكسب ابنا ...

ولا أظن أنه يزعجك كثيراً يا سيدى أن تنظر فى وجه ابنك فإنه يشبهك كثيراً بل هو صورة طبق الأصل منك .

سيدى : اسمح لى أن أعيد على مسامعك بعض ما تعرف أو بعض ما تناسيته وتجاهلته. ولست ألومك، وكنت لا أحب إزعاجك ولكن الظروف القاسية والأيام العصيبة هى التى أوحت إلى بهذا الذى صنعت ، وهى التى اضطرتنى أن أبعث إليك بطفلك وثمرة جرمى وجرمك فى سكون وسلام .

واسمح لى ياسيدى أيضاً أن أرتد إلى الماضى قليلاً لأنشر أمامك بعضه فقد تلتمس لى العذر كما التمسته لك، وقد تشفق علىّ كما أشفقت عليك وعملت على إخفاء سرك وتلافى ما قد ينتج من الكشف عنه وإذاعته .

نشأت فقيرة، ولم يكن الفقر يضيرنى فقد كنت غنية بكرامتى وشرفى . ولقد انحدرت من سلالة كريمة أنى الفقر عليها ، واستطعت فى حياة أبى أن أنال قسطاً من التعليم ، ولكن الأيام قست على بعد موته، والأيام أكثر قسوة على الفقير، فالاحتياج ذلة والخصاصة ضعة . ولما اشتد بى السغب لم يكن بد من العمل لكسب قوتى وقوت أمي المريضة، فالتمست طرق العمل فسدت فى وجهى منافذه ... ثم ساقتنى الأقدار إليك فأشبعتنى بعد جوع وخلعت على رداء عطفك وكرمك فتوردت بعد اصفرار ، وأحسست الحياة تدب فى جسمى مرة أخرى ؛ فلعنت إذ ذاك الفقر وما يجره على الناس من شرور .

واستطبت الحياة فى بيتك . وكانت زوجك ، عافاها الله ، دائمة الرعاية لى والعطف علىّ . وكانت كريمة فى معاملتى فلم أشهد منها قسوة ، ولم أسمع منها كلمة نابية، فحفظت لها الجميل وشكرتها فى نفسى وتفانيت فى خدمتها ورعايتها . وكنت فى كل يوم أشهد منكما ضرباً جديداً من ضروب الرعاية ولوناً جديداً من ألوان العطف والحنان فاستطعت أن أشعر أنى فى بيتى وبين أهلى ، وتيقظ قلبى فأحببتكما ، وأخلصت لكما .

وفى يوم سافرت سيدتى إلى الأسكندرية لتعود أمها المريضة وكان قلبى كان يحدثنى بما سيحدث لى

فقد فكرت فى السفر إلى بلدتى لأقضى مع أهلى المدة التى تقضيها سيدتى فى سفرها ولكنك تشبثت بى وألححت علىّ فى البقاء وازددت رعاية لى وعطفاً علىّ فرأيت إرضاء لك أن أظل فى خدمتك حتى تعود زوجك ...

وفى اليوم الموعود أو فى يوم الجريمة كما أحب أن أسميه عدت إلى بيتك متأخراً ، وكنت ثملاً ... فاشتهيت امرأة ولم تجد أمامك غيرى ، فنفرت منك وحذرتك العاقبة ، ولكنك لم تستمع لى . والواقع يا سيدى كنت كأنك تضرب فى قلعة محطمة لا تقوى على المقاومة . لم أكن محصنة يا سيدى فسرقت منى فى لحظة أعز ما أملك وأثمن ما كنت أتحلى به

وراحت السكرة مع الصباح

وها لك ما صنعت

وكنت أنتظر أن تشفق علىّ وتنظر فى أمرى بحكمة وتعقل ، ولكنك تسرعت فبادرت بطردى من البيت فى غير شفقة ولا رحمة ولا حتى ترضية ، فقد كان كل همك أن تبعد عن نفسك ذلك الكابوس الذى يجثم على صدرك ويضيق أنفاسك

وعلى الرغم مما حل بى كنت أتشبث بالشرف الضائع والكرامة المهيضة والعزة المفقودة فرحت أكافح فى الحياة وأتستر على نفسى جهد الطاقة حتى أذن لى الله فوضعت

ولقد حرت فى أمرى بعد هذا يا سيدى . أين أخفى طفلى ... وكيف أربيه إذا استطعت أن أخفيه وأنا الفقيرة المعدمة ، ولم أجد وسيلة غير الالتجاء إليك ورأيت أن خير طريقة هى أن أهدى إليك طفلك تفعل به ما تشاء

(فاعتزمت التسلل إلى بيتكم وفى غفلة منكم أدخل من باب الخدم وأترك لكم الطفل)

فتستطيع يا سيدى أن تعلن بنوته وتسهر عليه وترعاه فهو ولدك وأحق برعايتك وعطفك ، وليس دخيلاً عليك كما قد تتوهم لأول وهلة ، وتستطيع كذلك أن ترسله إلى ملجأ أو إلى الجحيم فلست أبالى ولن أكون أكثر عطفاً عليه منك

ولقد تحملت يا سيدى نصف الجرم فتحمل أنت نصفه الآخر . تحمل مسؤولية عملك وادفع ثمن جرمك واحمد الله على الستر

وحسبى أنى فقدت مكانتى فى الهيئة الاجتماعية كفتاة شريفة؛ وحسبى كذلك أنى سأقضى حياتى الباقية محرومة مما حلله الله فلست أعرف رجلاً يطيق امرأة فسدت ، فالرجال يا سيدى لا يغتفرون جرم المرأة ولا يسعون لإصلاح ما أفسدوا ؛ ولن أصلح أنا الكون أو أغير شيئاً فى طبيعة البشر فحسبى هذا ...

ولست أستطيع أن أسعى لرزقى ومعى طفل

وقد لا تقبل سيدتى أو تستكثر على نفسها أن تتبنى ابن خادمة ولكنه ابنك أيضاً . فابذل يا سيدى المستحيل فى سبيل إقناعها ودعها تتبناه ، ولا تحرم هذا الطفل البرىء من أبويه معاً ، ويكفى أنى حرمته.

وليس لهذا الطفل الذى جئنا به إلى الدنيا من ذنب، فلا تقض عليه باليتم والتشرد وكن حكيماً يغفر الله لك

وادع لى يا سيدى بالرحمة فما أشد حاجتى إليها

وسامحنى فوالله ما أردت بك شراً ولا رمت انتقاماً وإنما هو الفقر وهى الحاجة ثم هى الحكمة التى تقضى بذلك خادمتك (بسيمة)

انتهى كامل من تلاوة الرسالة فطواها ثم عاد فنشرها أمام عينيه مرة أخرى وراح يقرؤها بشىء من التأنى حتى إذا أتى على آخرها تقدم من الفراش بخطى متئدة وكانت تلوح على وجهه آيات الجزع والمرارة ، ولم يستطع أن يطيل النظر فى وجه ابنه الذى علا بكاؤه فى تلك اللحظة فدار كامل على عقبيه بسرعة وهم بالخروج من الحجرة ؛ فإذا بتحية تدخل وهى تقول :

— ألم تسمع بكاء الطفل ؟

ثم تقدمت من الفراش وحملت الطفل وأسرعت بالخروج فتهالك كامل على مقعد وغاب فى لجة الفكر

لقد كانت حقا مفاجأة لم تخطر له فى بال ، بل لم يكن يظن قط أن هذه الخادم الريفية التى كشفت عن نفسها بوضوح فى هذه الرسالة تستطيع أن تدرك كل هذا وتستطيع أن تطمنه هذه الطمنة التى أصابته فى الصميم

إنه أجرم ... هو لا ينكر هذا ... الآن على الأقل . ولكن هناك ما يقلقه أكثر من كل هذا فإنه يستطيع أن يتخلص من هذا الابن بأية وسيلة . نعم ... هذا مستطاع ... وإنما زوجه ... هو يخشى أن يفقدها . وليس من شك عنده فى أنه فقد ثقتها به . ولكن ... هل يمكن أن تغتفر له ... ؟ هذا مستحيل . فالمرأة تغتفر للرجل كل شىء وتنسى له كل إساءة ... إلا الخيانة

بيد أنه لم يخنها ، فقد كان ثملاً وحدث ما حدث فى ساعة كان فيها فى غيبوبة لا يعى ما يصنع ولا يستطيع أن يتمالك زمام نفسه ... ولكنها غدت خيانة فى نظر زوجه ــ سواء أكانت عمداً وبقصد ، أم سهواً وبلا سابق تدبير ــ فالجرم فى الحادثة وإن اختلفت طرق إتيانه واحد. ولن يشفع له سكره أمام امرأته فهو جرم آخر طالما ردته عنه ...

وأحس كامل بالدماء تغلى فى عروقه فنهض عن كرسيه وخرج من الحجرة وهو مطأطىء الرأس ، يتعثر فى مشيته تعثر الملتاث

ودخل حجرة الاستقبال فألفى زوجه جالسة والطفل على ركبتيها يغط فى نوم عميق . وكانت تحية هادئة هدوءاً عجيباً ؛ ولم يكن يظهر على وجهها ما يشى بما فى نفسها . وكان سكونها هذا يزيد فى اضطراب كامل . فلو أنها ثارت وأرعدت وتوعدت لاستطاع أن ينفس عن نفسه بعض ما تمانى وقد يسعفه الخيال بما يهدىء من ثائرتها ، ثم إنه شهد ما أذهله ، فلو كانت غيرها لحاولت قتل هذا الطفل بدلاً من الحنو عليه ونهنهته . ولقد كان يعتقد أنه يفهم زوجه جيداً . أما الآن فإنه لم يعد يفهم شيئاً من تصرفاتها ...

— فما هذا يا تحية ؟

نطق كامل بهذه الكلمات دون وعى فنظرت إليه تحية نظرة هادئة ثم قالت بعد لحظة :

— ماذا ... هل كلمتنى ؟

فاضطرب كامل وهو يقول :

— كنت أظنك ستقذفين بهذا الطفل من النافذة ...

فتأملت تحية فى زوجها برهة ثم قالت :

— أقذف به من النافذة . . . وما الداعى . . . ماذنب طفل برىء لا حول له ولا قوة ... وما الذى يزعجنى منه حتى أقدم على هذا العمل ... ؟

فتطلع كامل إليها باستغراب وقال :

— لست أفهمك يا تحية

فابتسمت تحية بمرارة وقالت :

— وهل من الضرورى أن تفهمنى . . . ألا يحسن أن تسكت ... ألا تخجل يا كامل ... كيف تتكلم . . . وبأى وجه . . . وتنهدت تنهدة عميقة ثم استطردت :

— لقد فنيت فى حبك يا كامل وأخلصت لك فماذا كانت النتيجة . . . وبماذا جازيتنى . . . مالك ساكتا . . . سأقول لك . . . قابلت حبى وإخلاصى لك بهذا الجرم وجازيتنى بالخيانة ووصمتنى بالعار وهبطت بى إلى الحضيض . . . كان هذا جزائى وكم وددت لو مت قبل أن أشهد هذه الخاتمة

ويا ليتها كانت فتاة لها مكانة ... أية مكانة ... إذن لالتمست لك العذر .. ولكنها خادم .. ما أكبر الفرق بين كامل الذى عرفته وكامل الذى أعرفه الآن . . .

فانتفض كامل واقفاً وقال :

— تحية . . . أرجوك

فقالت تحية بغضب :

— اسكت

فانحط كامل على كرسيه وقد انقد وجهه . وعطفت تحية تقول :

— إنى مسرورة إذ ألحظ على وجهك دلائل الخجل، ومذهولة إذ أشهد فى عينيك آيات الغضب. ترى أينا أحق بالغضب . . . ومع ذلك لماذا نتحدث فى هذا ، فلتغضب ولتخرج عيناك فماذا يهم . . . هل تظن أن لك فى نفسى تلك المكانة القديمة . . . وهل تحسب أنى إذ أراك تغضب أهتم بأمرك كما كنت أفعل قبلاً ... ؟ لا يا كامل ، لقد انتهى كل شىء ولست آسفة ، فوالله لا آسف على فراق من يخوننى ويعبث بكرامتى

فهتف كامل دون وعى :

— تحية . . .

— مالك مذهولا . . . ألم تتوقع ذلك ... هل زين لك عقلك أنى أقنع بمخادع . . . برجل غادر ماتت فى نفسه الفضيلة . . . هل تظن ذلك ؟... ليس هاهنا مكانى يا كامل ولكن هاهنا مكان تلك الخادم التى استهوتك فاستعضت بها عن زوجك ... هنا مكان بسيمة تلك الفتاة التى شردتها وكانت فى خدمتك وفى كنفك وتحت رعايتك . . . تلك التى قضيت عليها بالموت وقذفت بها إلى الشارع . . . اذهب إليها وادعها لبيتك

وكأنما وخز كامل بسكين فوقف وهو يصيح :

— أتزوج بسيمة . . .

فقاطعته تحية بقولها :

— وما الذى يمنعك ... هل تأنف من تزوجها الآن . . . ولماذا لم تأنف من القضاء عليها . . . لماذا لم تترفع عن مجرد النظر إليها والتفكير فيها ؟

فقال كامل بإعياء :

— أقسم لك يا تحية أنى لم أخنك ولم أفكر قط فى خداعك ... أنت تعرفين ذلك

— إنى لا أتحدث الآن عن الخيانة والخداع فقد فرغت منهما ولا تتوقع منى يا كامل أن أثق بكلامك فقد ضاعت هذه الثقة وتلاشت

إنى أراك لأول مرة وإنى أتأمل فى هذا الرجل الذى استطاع أن يخدعنى عاماً كاملاً ... لقد غررت بى وكذبت علىّ ولست تستطيع أن تعاود هذا مرة أخرى فأنا الآن مبصرة وإنى سعيدة بما تكشفته فيك ... وهى أيضاً تجربة

وكان كامل ما يزال واقفاً فاقترب من زوجه وهو يقول :

— إسمعى يا تحية ... لقد قلت ما فيه الكفاية ويكفينى الآن تبكيت ضميرى فلا تزيدى فى آلامى

فنظرت إليه تحية باستغراب وقالت :

— ضميرك ... أين هو ... أين كان وقت الجريمة ولماذا لم يبكتك ساعة الخيانة وفى ساعات الكذب والنفاق ... أين هذا الضمير الذى تتحدث عنه ...؟ لا يا كامل ... أنت واهم فليس لك ضمير

— أرجوك يا تحية أن تكفى فإنى لا أتحمل زيادة

— أنت لا تتحمل الكلام فماذا أقول أنا . . وماذا تقول تلك الضحية المسكينة ... تلك الفتاة الشردة ... كيف احتملت هى الجريمة ... هل عنيت بها ... هل فكرت فى مساعدتها والأخذ بيدها حتى تستطيع أن تنهض على قدميها مرة أخرى وتواجه الحياة من جديد ... لم تفكر فى شىء من هذا وكان أول ما فكرت فيه أن تقذف بالطفل « بابنك » من النافذة . هذه هى الرحمة كما تفهمها وهكذا تستطيع أن تقدر الأشياء .

فرجع كامل إلى مقعده ، وتهالك عليه دون أن ينطق بلفظ . فقد أحرجته زوجه حتى أنه لم يستطع المقاومة ، أو حتى الدفاع عن نفسه دفاعاً مشرفاً ، وهو المحامى اللبق .

لقد أخذ على غرة منه ، ولكنه لا يستطيع أن يسكت ؛ فالمقاومة واجبة . ولكن ما الفائدة ؟ إنه لوفعل ذلك يفقد زوجه ، وهوأحرص ما يكون عليها ! ... إذن ! فوسيلته الوحيدة هى الاعتذار ، وهو يعلم جيداً أن تحية طيبة القلب رقيقة المشاعر ؛ وليس من شك فى أنها ستصفح إذا أحسن الاعتذار

ورفع رأسه ، وتحول بأنظاره إلى زوجه فألفاها تدقق فيه النظر . فتصاعد الدم إلى رأسه ، وسرت البرودة فى مفاصله ، واهتز قليلاً وهو يقول :

— لو كنت شربت دنّا من الخمر لما شعرت بما أشعر به الآن !

فأخفت تحية ابتسامة كادت ترتسم على شفتيها وهمت بالكلام ، ولكن كاملاً سبقها إليه فقال :

— إنى أقدر شعورك يا تحية وأستطيع كذلك أن أقدر مبلغ ما سببته لك من الألم . ولست ألومك على ماقلت لى فإنه صدى هذا الألم وردفعل مافوجئت به

وكانت تحية تستمع إليه فى سكون ، فاستطرد كامل وقد اطمأنت نفسه قليلاً :

— لقد أجرمت يا تحية وصنعت ما سيظل وصمة فى جبينى إلى الأبد ، ولكنه جرم لم يسبقه تفكير ولم أتعمده . ولقد عاشت هذه الخادمة بيننا شهوراً

عديدة فلم تستهونى مرة ولم تخطر لى على بال، ولكنه الظرف السيئ ... وحكمة القدر . بل هذا ما قدره الله لى وما كتبه على جبينى قبل أن أولد وأخرج إلى الحياة . الأقدار هى التى تسيرنا يا تحية وما نحن إلا دمى تتحرك فى الاتجاه الذي تريده لنا وترسمه لخطواتنا. ولو استطعنا أن ندفع عن أنفسنا الشرور لفعلنا ، ولكننا لا نفكر فى دفعها عنا إلا بعد أن نحترق بنارها ونتلظى فى سعيرها لأننا ضعفاء وإن أغرتنا القوة التى نتوهمها فى أنفسنا. ولو تأملنا قليلاً لأدركنا أنها قوة الشيطان الذى يركبنا فيسوقنا إلى الضلال

فقالت تحية :

— إنى لا أستسيغ هـذه الفلسفة ودعنى بربك من الأقدار التى يعتذر بها كل من تركبه الغواية . إنى لا أنكر يد القدر فقد جمعتنى بك

— تحية ... كونى منصفة

فعادت تحية تقول :

— لما كنت فى المدرسة سمعت مرة مدرسة تقول : لا أمان للرجل ... فاحذرنه

فقال كامل :

— وسمعت أنا مثل هذا القول عن المرأة ... فى المدرسة أيضاً

فقالت تحية تكمل كلامها :

— وقلت لنفسى يومئذ ... لاحق لهذه المدرسة أن تقول هذا وقلت لعلها مخطئة أو لعل حادثاً ما أحفظ قلبها على الرجل

— قلت ذلك أنا أيضاً ولكنى لما خرجت إلى الحياة عرفت أن المرأة سر غواية الرجل

— يا سلام !

— نعم ... هذا حق لا سبيل إلى الجدال فيه

— وكنت أستثنى من هـذا الحكم بعض الرجال ، ولكنى شهدت ممن ظننتهم ملائكة ورسل هداية وفضيلة ما لا كنت أستطيع أن أشهده من شيطان ...

وسكتت لحظة عادت بعدها تقول :

— لست أنكر يا كامل أنك أسعدتنى وقد قلت لك ذلك من ساعة ، ولست أنكر أنى أحببتك ... ولكنك أضعت يا كامل فى لحظة ما ادخرته فى عام ، وهدمت ما بنيته فى عام الخطوبة وعام الزواج ، بل خلعت شجرة الحب التى كانت آخذة فى النمو والتفرع من جذورها ... نعم ... قضيت على هذا الحب الذى كان مفخرتى ومفخرتك

وكنت أحب أن أنصفك كما طلبت منى منذ لحظة ، وكنت أود أن ألتمس لك العذر ؛ ولكن كيف أستطيع ذلك ... إنى آسفة يا كامل إذ أقول لك إنى لا أحس نحوك الآن بحب ، ولكنى لست أكرهك ولست ألعنك . وكنت أحب أن أنسى لك هذه الخطيئة ولكن قلبى يقف حائلاً بينى وبينك. إنى أصارحك بكل هذا لأنى لا أحب الخداع وأربأ بنفسى عن الخداع والغش. وكنت أستطيع أن أخدعك وألعب بك كما يلعب الطفل بالكرة ، وأظنك تدرك أن المرأة إذا قصدت التغرير ، وإذا شاءت الانتقام

لا يستطيع أى رجـل على وجه الأرض أن يقف أمامها أو يسد عليها طريقها . كنت أستطيع الانتقام منك يا كامل ، وكان يسهل علىّ أن أغشك وأخدعك وأسود عيشك ، وأقلب سعادتك جحيماً ، وأريك قرص الشمس فى حلـكة الظلام ، ولـكنى أحببتك يوماً ، وسعدت بقربك زمناً ، ولم تصنع معى فى طول تلك المدة التى قضيتها معك ما أنكره فيك .

كنت نعم الزوج ونعم الرفيق ، ومثال الرجل الـكامل — ولو كان على غش — فأنا أحفظ لك الجميل الذى أحب أن أرده لك فى ساعة بأسك حتى لا أكون مدينة لك بشىء .

لقـد انحدرت يا كامل من سلالة طيبة وتأصل فى عائلتى الـكرم وامتزجت بنفوسهم الطيبة وامتلأت قلوبهم بشتى العواطف السامية النبيلة ولست أحب أن أخرج على عائلتى فى هـذا وأشذ عنهم فى حب الفضيلة والخير .

وستكون حياتى معك يا كامل حيـاة امرأة تجد فى ذكرى حبها سلوى لها وبلسما لجراحها وتجد فى رعاية طفل زوجها إيفاء لدين عليها ـ فى عنقها ـ وكثير من الناس يسعدهم قدرتهم على رد الجميل فى وقت الشدة والبأس وأنا منهم .

وكان كامل يعجب من هذا الحديث الطويل ولم يشأ أن يقاطع امرأته ويسد عليها طريق الفضفضة. فلما سكتت وطالت فترة الصمت بينهما لم يجد مفراً من الـكلام فقال :

— هل تشكين فى حبى لك يا تحية ؟

— ليس يمنينى حبك الآن يا كامل فجبنى إن شئت ، وا كرهنى إن شئت، بل اصنع ما تجده خيراً لك وما قد يعوضك عن حبى وعن قلبى .

وحب غيرى إذا أردت فلن ألومك ولن أحقد عليك . وابحث عن قلب آخر يحنو عليك ويسعدك ولـكن ، لئن فقدت فى زوجك حبها وقلبها فلن تفقد رعايتها وعطفها .

كانت الصدمة شديدة الوقع على نفسى وعلى قلبى فلا تستغرب أن يحدث هذا كله . ليست لى تجارب فى الحياة ولم أحب غيرك. ولو كان الأمر على عكس ذلك لخفت على نفسى الصدمة ولـكنى كنت فتاة غريرة ساذجة وضعت أملى فيك وكرست حياتى لك ورضت نفسى على حبك والوفاء لك . . . كنت مجنونة بك تائهة فى خضم عاطفتى لا يملأ قلبى سوى حبك ولا يخطر ببالى سواك، ورسمت لك فى نفسى صـورة تغاير صور البشر ورعيتك بكل ما أستطيع أن أرعاك به ووهبتك كل ما تستطيع امرأة أن تهبه لرجل ووضعت فيك ثقتى ... كانت هذه سيرتى معك فهل تستغرب بعد الذى حدث إذا تلاشت كل هـذه الصور وانتسخت العاطفة وحدث الصد

قد أعود فأحبك وقد لا أحبك أبداً

فوقف كامل واقترب من زوجه وقال :

— إنى فى حاجة إلى العطف يا تحية ، ولو كنت تحسين ما أعانيه من آلام لأشفقت علىّ بل لأحجمت عن كل ما قلت . . . إنى آمل يا تحية فى المستقبل ،

وآمل فى استطاعتى التكفير عن خطيئتى وسأكون لك كما تحبين وترضين .

— أستطيع أن أفهم هذا ولكن ليس الآن... المستقبل بيننا يا كامل ، ولن أقاوم نفسى فى حبك إذا كان لحبى لك رجعة .

وسكتت برهة ثم قالت :

— سأتبنى هذا الطفل وسأرعاه ؛ وسيكون كولدى وفلذة كبدى . ولست أريد من هذا تبكيتك أو تذكيرك بجريمتك دائماً فليست هذه طريقتى ولكنه سيكون لى أنا الذكرى الخالدة ... ذكرى خيانة زوجى لى

فجلس كامل وهو يقول :

— ما أطيبك يا تحية وما أكرمك

— لست أعد هذا كرماً وليس هو من الطيبة فى شىء، ولكن الحكمة كما قالت بسيمة تقضى بذلك. ثم إنى أريد من هذا الطريق أن أفى لك بوعدى . . هذا كل ما هنالك

فقفز كامل وهو يقول :

— دعينى أقبلك يا تحية

فأشارت إليه بيدها وهى تقول :

— لست أحب قبلاتك الآن يا كامل فاحفظها لولدك ... وبهذه المناسبة ماذا نسميه ؟

— نعم ... ماذا نسميه ... فهمى ... على ... أى اسم

فقالت تحية :

— إنى لا أتنازل عن تسميته بكامل، فإنى أريد أن يكون كاملاً ... ليس فى كمال أبيه ولكن من ضرب آخر سأدله عليه وأرشده إليه، وسأبث فى نفسه نزعة أمه ، وأقصد نفسى فقد صرت أمه

تعال يا كامل وقبل ولدك .. وأقسم لهذا الملاك بأنك ستجمل نفسك وحياتك لخدمته وتربيته

فقام كامل وانحنى على الطفل وطبع على جبينه قبلة أبوية تفيض بالعطف والحنان. ثم لما هم بالارتداد عنه قالت تحية :

— خذ أيضاً قبلة أمه ... منه

فابتسم كامل وأطاع .

م . عبد القادر المازنى

السفينة السوداء

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت تحب الأطفال حباً ملك عليها قلبها فلم تر صغيراً إلا ووجدت من نفسها دافعاً قوياً إلى حمله بين يديها ومداعبته . وكانت تعلو ثغرها عند ذلك ابتسامة مؤلمة

وكانت « لينا » على الرغم من سعادتها الزوجية لما بينها وبين قرينها من الحب المتبادل تشعر بأنها تعسة لأنها لم ترزق قط مولودا يملأ منزلها مرحاً وسروراً . وكانت تتمنى لو أنها فقيرة معدمة تتوسد التراب وتأكل خبز الصدقات على أن يكون بجانبها طفل ينظر إليها نظرة أحن من نظرات الملائكة

وكانت تفكر فى ذلك تفكيراً يستغرق الساعات الطوال ولحظها فى هذه الأثناء معقود بنقطة لا تتغير من أرجاء الغرفة . ولقد يحسبها من رآها على هذه الحال تمثالاً لولا أن لونها الدائم التبدل يدل على أنها مستغرقة فى التفكير . لكنها كانت حريصة على ألا يطلع زوجها على اشتغال بالها وعلى وجهة تفكيرها، فهى أمامه تضحك وتلعب وتقترح التنزه والتلهى وتزعم أنها سعيدة . وكانت تدعى أنها لا تميل إلى النسل ولا تبالى أن تقضى بقية العمر كما هى الآن

ولقد كان صواحبها يقلن لها فى السنوات الأولى من الزواج إنها سترزق بالأبناء فى الوقت المناسب . وكانت تعلل نفسها بذلك . ولكن لما انقضى العام بعد العام وكاد يجف عودها ولم يثمر دب فى نفسها دبيب اليأس وظلت فى وحدتها تعانى ألمها الخفى. وكانت فى بعض الأحيان تأنس بالوحدة لتستمتع بلذة هذا الألم . ولكنها فى أحيان أخرى تهرب إلى الضجيج والزحام من آلام الوحدة وكان ملجؤها الأول فى الحالات الأخيرة فى الحفلات الراقصة ففيها لا يسمع القلب مناجاة نفسه

وكان زوجها يسر من مرافقتها إلى تلك الحفلات لأنه يحب أن يراها سعيدة . وكانت تقدر له هذا الشعور نحوها وتتمنى له لو تستطيع أن تخلى له قلبها من كل حب لولا أن حب النسل كان مالئاً فراغ هذا القلب .

والأطفال إن لم يوجدوا فهم معان . ولا بد لتعلق القلب أن يكون بشىء ملموس. ولا بد لكل إنسان من تعليق قلبه بإنسان أو بشىء آخر. ولكن « لينا » كانت ترى من حولها من الرجال بلداء وما يحيط بها من الأشياء لا يطاق. فبعد أن جالت جولة فى ميدان الطراد انتهى بها المطاف إلى حب نفسها ، وأخذت تعامل نفسها كأنها تعامل طفلاً مدللاً فهى تهدى إلى نفسها الهدايا من الجواهر إلى الأزاهير .

وكانت تجلس الساعات الطوال أمام المرآة تبادل وجهها النظرات ، وتقبل صفحة المرآة حيث يرتسم ثغرها . وبودها لو تستطيع تقبيل خدها فى المرآة . وكانت تناجى نفسها بأعذب الكلمات وتفزع عند ما

تسمع بعض الأصوات ، ثم تفكر فى أيام الدراسة وفى الأشهر الأولى من عهد الزواج فتحس بحاجة قوية للبكاء .

وكانت نتيجة هذا التطور فى عهود حبها أنها رأت جسامة الفروق بين طفولتها اللاهية وبين شبابها الحزين ، فبدأت نفسها المشوقة تخاف من نفسها العاشقة

وبدأت كذلك تشعر أنها بعد ازدواج نفسها صارت أكثر وحدةوأشد وحشة ، ولجأت من حب نفسها إلى حب زوجها فوجدت فيه ذلك المهذب الذى لا ينسى واجبه والذى يفهمها حق الفهم ويعطف عليها أبلغ العطف

ولكنه بعد مدة لم يعد يستطيع التفرغ لها فقد كان محامياً واشتغل أخيراً بالسياسة وسعى لترشيح نفسه للعضوية فى مجلس النواب ، وكان لذلك كثيراً مايتخلف عن منزله أسبوعاً أوأسبوعين.

وكان الزوجان فى ذلك الوقت يقيمان فى مغنى صيفى مجاور للبحر ؛ وقد أنست الزوجة بالسكنى فى هذا المكان طلباً للوحدة فيه وفراراً مما تشعر به فى المدينة من الإغراء ، وكان الهواء الخالص فى ذلك المصيف يهدئ من أعصابها ، ولكن مشغول البال بخاطر واحد لا يمكن أن يستريح سواء أقام فى جوار البحر أو فى ذروة الجبل

وكان لا يزورها فى هذا المغنى إنسان ولا تزور إنساناً، ولولا زوجهاالذى يأتى بين فترات انقطاعه لكانت من هذا المسكن فى وحدة كاملة

واعتادت أن تقضى أوقاتها فى هذه الوحدة جالسة فى حديقة المنزل وفى يدها كتاب تمر بنظرها فوق سطوره ولا تقرأ شيئاً منه أو ماشية فى الأدغال المجاورة تقطع الوقت الذى لا تشعر بمروره أو جالسة شاردة الذهن فى خواطرها وأمانيها. وكانت ترى بين حين وحين سفينة سوداء فيها صياد شاب تتمنى أن يكون الابن الذى ترزقه مخلوقاً على مثاله . وكانت تطرب إلى الصوت الذى يحدثه مجدافه فى الماء، لكنها إلى جانب هذا الطرب كانت تشعر بشيء من الخوف وتسرع بالعودة إلى منزلها كأنما رؤية هذا الصياد الفرد تضيع عليها سرور الوحدة

وكانت كثيراً ما تفكر فى معيشته فتقول : إن صياداً وزوجته لا يكاد رزقهما المحدود يكفيهما ؛ ولكن إذا كان بينهما ابن صغير فقطعة من الخبز عندها ألذ من مأدبة ، والكوخ الضيق أرحب بهما من ملكوت السماء... ثم تذكر حظها وتتنهد .

وكانت فى كل ليل يتلو رؤية الصياد تصاب بالأرق وتشتد عليها وطأة الهم حتى تكاد تلق بكل أثاث المنزل من النافذة فى البحر لتكون حياتها بسيطة كحياة الصيادين . .وكانت تشعر فى هذا الحين كأن إنساناً ينتظرها أو أنها على موعد فهى لذلك تترقب وهى لا تعرف مدى ترقبها ، ولا من هو الطيف الذى تنعكس أحلامها عليه

وكان شعورها جلياً صريحاً فهى تدرك كنهه وإن كانت تجهل سببه . وكانت تدرك أن ذلك الإنسان الذى يصوره لها الشعور مرتبط بها من عهد بعيد وأنها قضت كل هذا العمر فى انتظاره

وكانت فى ساعات وحدتها تخاطبه بأعذب الجمل

وأرقها ، وتخال أنها تسمع من فمه السحر الحلال . وأى ضرر فى التمادى فى حبه ؟ أليس شخصاً خفياً يحبها سراً فما يشعر بحبه إنسان ؟

وسواء قضت ليلها ناعسة الطرف ، أو مؤرقة ، فقد كانت تقوم فى الصباح مبكرة ، فتسقى أزاهير الحديقة ، وتتعهد حديث النبت منها كأنه مولود جديد. وتهش إلى الفراش الطائر . ثم تجلس فى الظلال بين الألوان الزاهية ، والروائح العطرة ...

وفى يوم من هذه الأيام ، سمعت طلقة عيار نارى . ثم وقع تحت قدمها عصفور مصاب بهذه الطلقة . ففزعت ووقفت فى مكانها ، وقد امتقع لونها ... وبعد لحظة جرى نحوها كلب من كلاب الصيد فاختطف العصفور وظهر على الأثر ذلك الصياد صاحب السفينة السوداء . فلما رآها رفع قبعته محيياً ، وهمّ بأن ينطق بكلمات الاعتذار ... ولكن ألفاظه اختنقت ! ... فنظرت إليه نظرة طويلة دون أن تتحرك . ومشى نحوها الشاب وقال : « إننى آسف ياسيدتى ! لأنى ما كنت أحسب هذا المغنى معموراً . وقد كنت أصطاد فى الأدغال المجاورة فأصابت طلقتى طائراً هنا ، ولولا اعتقادى أن المكان خال لما دخلته . ولو كنت أستطيع عقاب نفسى على إزعاجك لعاقبتها . . . »

فلم تجبه « لينا » ! ولكنها أشارت إلى باب الحديقة ... فأحنى الرجل رأسه ومشى نحو الباب ! فلما وصل إليه التفت مرة أخرى وأحنى رأسه ...

وكانت فى هذه الأثناء قد عادت إلى الجلوس ، وتظاهرت بأنها تقرأ ، ولكن نظرها لم يرتفع عن الصياد ، وقد أعجبها صوته الرخيم الذى لم تسمع مثله قبل الآن ، والذى دلت عذوبته على انسجامه مع حسن منظره .

وكانت توازن بين هذ المنظر وبين الرجل الذى تتوهمه وتشعر بأنها مرتبطة به من سالف السنين فلا تجد فى الموازنة إلا انطباقاً ؛ فخرجت من الباب الذى خرج منه باحثة عنه وقضت فى البحث طول النهار فلم تجده وكانت تسائل نفسها : هل يعود ؟ وتجيب على هذا السؤال بأنه لا يمكن أن يعود بعد طردها إياه عند ما طلب إليها العفو . وكانت تخجل كلما فكرت فى لقائه مرة أخرى لشعورها بأنها ستلقاه ، وستعتذر إليه لأنه ليس غريباً عنها ولأن لقاءه كان هو الموعد المنتظر .

وفيما هى تفكر على هذا النحو إذ سمعت صوت مجذافيه فى الماء وهو يمر بسفينته أمام المغنى فأطلت من النافذة ورأته يقف لحظة لينظر إلى الحديقة ، وأحست بأن ألسنة تصيح فى قلبها بصوت مفرح : « هذا هو ! هذا هو ! »

ووقع نظره عليها فحدق فيها ، وكأنه هو الآخر كان يحلم بها مثل حلمها به . وكان يشعر بضعة مكانته وسمو مكانتها فلم يجرؤ على مطالبتها بأن تحبه ولكنه تشجع فطلب إليها أن تصفح عنه .

وجرت بينهما جمل قصيرة يسمع الناس مثلها كل يوم ولكن «لينا» تبينت فى لهجة هذه الكلمات حباً خالصاً وهوى مشبوباً ، ونسيت فى هذه اللحظة كل الماضى بل نسيت الحاضر أيضاً .

وسكت كلاهما ، ولكن نظراتهما كانت أبلغ

فى الخطاب من كل بيان . وقرأت فى عينيه تضرعه فى الاعتذار فقالت : « لقد عفوت عنك »

ثم ذهبت بعد ذلك منهوكة القوى فألقت نفسها على السرير .

وبعد تلك الليلة كانت السفينة السوداء تأتى كل يوم إلى المنزل فتنزل لينا لاستقبال الصياد فى الحديقة وتترك يدها البيضاء بين كفيه وثغره يقبلها كيف يشاء . ولم تعده بشيء آخر ولكنها سمحت له بأن يؤمل أنه قد يجوز فى المستقبل أن ...

وفى أحد الأيام وصل الزوج بعد غيبة طويلة . وكان مهتاجاً مشغول القلب والذهن لأن الوزراء سيزورونه فى المساء فى مغناه وسيكون للوليمة التى سيقيمها لهم شأن عظيم يدنو به من مجلس النواب

وجرى الاستعداد للحفلة على ساق وقدم . وأضيئت المصابيح على شاطئ البحر وعلى جوانب الحديقة . وجاء الوزراء واشتركت لينا فى الجزء الأول من الحفلة ... فلما دب دبيب الخمر فى بدنها وأبدان الزوار غادرت المغنى إلى الشاطئ وركبت فى السفينة السوداء مع الصياد للتنزه ساعة أو بعض ساعة تاركة زوجها والزوار ...

ولما عادت إلى المنزل كانت أضواء الحفلة قد خمدت وأوشك الصبح أن يبزغ . وكان الزوج نائماً يحلم بأنه صار عضواً فى البرلمان

فنامت لينا وهى تحلم بالسفينة السوداء وبمولود جميل ستضعه بعد تسعة أشهر

عبد اللطيف النشار

حيلة ممثل

عن الانجليزية
بقلم الأديب مصطفى صبحي

وقف ألبر فورس كرام أمام المنضدة ونشر فوقها إحدى المجلات الأمريكية وشاعت في وجهه ابتسامة وهو يرى صورته تملأ الصحيفة وتمثله في أحد مواقفه التمثيلية وقد كتب تحتها : « الممثل الأشهر البر فورس كرام الذى تنطبع صورته فى كل الأذهان ، ويقلده فى زيه وهندامه أكثر الشبان ، ننشر صورته بمناسبة استدعائه من انجلترا ليشترك فى تمثيل إحدى الروايات الكبرى بعد أن أخفق فى القيام بهذا الدور كثير من أساطين الفن المحليين »

التفت الممثل إلى صديقه كلارك الذى نزل بضيافته فى أمريكا وقال : « النجاح والشهرة شيئان ما أعجبهما ! يقاسى المرء الشدائد والأهوال حتى يظفر بهما حتى إذا نال منهما ما أراد وجدها لا شيء ... كسراب كاذب أو كفقاعات الماء ، لها انتفاخ وبريق ورواء ، لكن ماذا بداخلها ؟ لا شيء ... »

ولم يجبه صاحبه على الفور لأنه كان واجماً مشغول البال وكانت أصابعه ترتعش على ركبته ؛ على أنه تكلم أخيراً فقال : « البر فورس ! ! ماذا كنت تقول ؟ ليست الشهرة شيئاً ! كيف هذا يا صديق وهى التى حملتك على جناحها من بلادك إلى هنا ومهدت لك طريق العمل والكسب ؟ هل نسيت أن شهرتك اكتسحت أمامك بعض الضحايا من الزملاء ؟ ألا ترى أندريا لا يجد شركة يتعاقد معها بعد أن اختاروك مكانه »

— لا ينبغى أن ييأس ، فأنا لن أبقى بأمريكا ساعة واحدة ، وهأنذا قد انتهيت من هذا « الفلم » وسأعود فوراً إلى بلادى .

— أود من صميم قلبي أن تكتب لك السلامة فى عودتك !

— ماذا تعنى بذلك يا كلارك ؟ هل أنا فى خطر ؟

— نعم يا صديق . إن قلبي يتمزق بين أن أصارحك بالواقع وبين أن يفاجئك الخطر ...

— ما هذا الذى تقول ؟ زدنى ربك إيضاحاً

عندئذ تبسط كلارك فى الحديث فقال : « أنت يا البر فورس لا تعرف أمريكا ولا تفهم الأمريكيين على حقيقتهم ، فالحياة عندنا غيرها عندكم . هناك الوداعة واحترام القانون والتزام حدود النظام ، أما هنا فنحن قبائل وعشائر متناثرة امتزجت بحكم الضرورة وخرجت من ظهورها ذرايات وسلالات ليست متجانسة ولا منسجمة . احترام القانون هنا غير متغلغل فى نفوس الناس ، والأخذ بالثأر تتوارثه دائماً الأقوام التى تنشأ من الدم الممتزج ؛ والغرائز الهمجية التى عاش بها الإنسان الأول ماتزال محتدمة فى أفئدتنا لم تفلح فى حكمها وتهذيبها الأنظمة الحديثة التى تواضع عليها المتحضرون ، وغريمك أندريا يحقد عليك ويتربص بك وقد سلط عليك عصابة الفهد »

— عصابة الفهد ؟ !

— نعم . هى عصابة مروعة سفاكة ، لا تنجو من بطشها ضحية . فإذا حكمت على أحد بالموت . فإنه يموت أنظر ! ها هو ذا إنذار منهم وصلنى صباح اليوم ، وفيه يقولون إنك تفارق الحياة حالما تبرح هذه الدار !

— عجباً ! لكنى لا أرى حولى شيئاً مريباً . فأين هؤلاء الأشقياء ؟

— هم حول الدار بالمرصاد . وقد رأيت بعضهم يحومون .

— وإذا استدعيت البوليس لحراستى ...

— فى هذه الحالة يطلقون عليك النار وأنت بين حراسك .

وبان التفكير على وجه الممثل ومشى إلى النافذة ونظر من وراء الزجاج . فلمح صعلوكاً يتسكع عند الباب ، وآخر عند عمود النور ، وثالثاً يطل من شرفة بيت مقابل ؛ فعاد إلى صديقه مقطب الجبين ، وحك ذقنه بأنامله ، وفجأة أبرقت عيناه ، وأشرقت ملامحه ، وقال :

« إسمع يا كلارك ! أظن أنى اهتديت إلى حيلة طريفة أنجو بها ... كلا ! ليس الآن ... ستعرف كل شىء فيما بعد ؛ إذ لو شرحت لك خطتى لاعتبروك شريكى وحلت عليك نقمتهم ... »

وذهب الممثل إلى غرفة « التلفون » وأمسك بالسماعة ، وأدار القرص عدة دورات ، واتصل بمدير أعماله مستر توم هول ، ودار بينهما حديث طويل لم يسمعه أحد . على أنه رجع إلى كلارك وهو يقول : « بعد ثلاثة أيام تودعنى وأسافر » .

انقضى يومان والبيت ساكن كالقبر ! ... وانفض المعارف والأصدقاء عن الدار التى تحاصرها (عصابة الفهد !)

وأقام الرجلان فى وحشة ... لكنهما تناولا الطعام فى موعده ، وبقى كلارك فى وجومه وخشيته والممثل فى بهجته ومرحه ... واستمرت (عصابة الفهد) فى مرابضها تترقب !

أقبل اليوم الثالث ! وانزوى الصباح ليفسح مكاناً للظهيرة . ثم أقبل الأصيل ...

وعندما غربت الشمس دق جرس « التلفون » وهب الممثل بسرعة وأمسك السماعة ، واشتبك فى حديث جديد مع مدير أعماله ... ثم عاد إلى صاحبه كلارك وهو يكاد يرقص طرباً وقال :

« تصور يا كلارك ! إنى سأنصرف من لدنك فى مدى نصف ساعة ، وربما فى أقل ... ولا بأس أن تعلم الآن أنى سأنزل السلم بعد عشرين دقيقة ، وأفتح الباب ، وأستقبل من يجىء من الناس ... وعليك يا صديقى أن تودعنى الآن ... وفى هذه الغرفة ... ! »

وبعد دقائق وضع الممثل قبعته على رأسه ، وهبط الدرج إلى الطابق الأرضى ، وفتح الباب بيده وعلى مصراعيه ! ...

وانكمش كلارك فى موضعه وكله آذان مرهفة وارتجفت أوصاله وهو يسمع صوت الباب الكبير يفتح وجلبة كبيرة وأصواتاً مختلطة كثيرة فى الطابق الأرضى ثم صوت الباب نفسه يغلق ثانية ؛ ثم انتهى كل شىء وعاد الصمت والسكون يشملان البيت . ودخل الغرفة رجل طويل القامة ضخم الجثة وخطا إلى كلارك فى ثبات وهو يقول : « ليلة سعيدة يا سيدى

إسمح لى أن أقدم إليك نفسى فأنا توم هول »

— مستر توم هول مدير أعمال الممثل ألبرفورس ؟

— نعم ، أنا هو يا سيدى

— مرحباً بك ... لكن أين مستر ألبر فورس وكيف خرج وماذا أصابه ؟

— هو الآن فى طريقه إلى بلاده دون أن تسقط من رأسه شعرة واحدة ؛ وإنها لحيلة عجيبة فى بابها التى لجأ إليها صديقك الذكى . تصور يا سيدى أنه منذ ثلاثة أيام اتصل بي تليفونيًّا وشرح لى موقفه واقترح أن أعلن فى الصحف عن شبان يلحقون بالعمل فى شركة التمثيل بأجر باهظ واشترط فى الإعلان أن يكونوا جميعاً فى مثل قامته وزيه وهندامه ولهم مثل شاربيه وشعره وبالاختصار لا بد أن يكونوا صورة طبق الأصل منه ، وحدّد هـذه الساعة لاستقبالهم فى مكتبى . فلما نشرت الصحف ذلك وأقبل الموعد تقاطر إلى المكتب مئات من الشبان قد لبسوا مثل ثيابه وبدوا فى مثل قامته وحركاته ؛ وصدقنى ياسيدى أنهم أدهشونى ولم أدر كيف أفضل بعضهم على بعض . غير أنى بعد فحص دقيق أخذت منهم عشرين شابا لا يفترقون عن ألبر فورس فى شىء . واتصلت به تليفونيا وأطلعته على ما قد تم ، فدعانى معهم فى الحال إلى هنا فوضعت هؤلاء العشرين فى ثلاث سيارات وجئت بهم إلى هنا ونزلنا جميعاً من السيارات فى وقت واحد ودخلنا البيت فى اللحظة التى فتح فيها الباب على سعته

ومن السهل أن تدرك بعد ذلك ما حدث ، فقد استقبلهم صديقك وهو يكاد لا يصدق ما يرى ، على أنه ابتسم لهم ورحب بهم واعتذر لهم عن الشركة زاعماً أنها قد شغلت الوظيفة الخالية هذا الصباح ، ثم دفع لكل منهم نفقاته وعوض ما ضاع من وقتهم وجهدهم وصرفهم فى الحال فخرجوا إلى الطريق وخرج هو بينهم فكان منظرهم كتلاميذ مدرسة ينطلقون من قاعات الدرس إلى الشارع عند الانصراف يمشون زرافات ووحداناً فى جهات متفرقة ونواح مختلفه على أنهم جميعاً فى هيئة واحدة وزى واحد ...

ولا شك أن عصابة الفهد قد أسقط فى يدها واختلط عليها الأمر ولم تدر مَن مِن هؤلاء المقصود بالموت . ولا جرم أنهم وقعوا فى حيرة كبيرة ولم يجسروا على قتل هذه الطائفة من الشبان جملة واحدة ... وهكذا مر البرفورس من بينهم وهم مشدوهون منذهلون لا يحركون ساكناً . كنت أحسب الإنجليز قد استسلموا للحياة الوادعة وجهلوا المغامرات فإذا هم رجال حرب كما هم رجال سلام

مصطفى صبحى

حاجة فى نفس يعقوب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عز العرب على

يعقوب الذى نقصد إليه غير نبي الله يعقوب أبي يوسف عليهما السلام . وإنما هو رجل موسيقى عاش إلى مستهل القرن العشرين فى مصر ، واتخذ من مناعمها ومسارها رفاهية ورغداً

أقبلت عليه الدنيا ، وتوافرت المناعم ؛ وكلما زهد فيها وتواضع لها ، تزاحمت عليه بخيراتها ، وأقضت مضجعه ببركاتها ... فإذا رغب فى سكون النفس وطمأنينتها نزل عما أفاض الله عليه من خير إلى المحتاجين والمحرومين والسائلين وذوى المتربة من فقراء الدنيا ...

ولكن الأيام مجنونة وهى به مشغوفة ؛ فما إن ينزل عن مرافهها حتى تزيده منها وتغمره فيها ؛ حتى ألفت نفسه الجشع ، واستولى عليها الحرص ، وملكها الشح

هنالك هدأت ثائرة الأيام أن بلغت بتلك النفس المتواضعة أسباب الجشع ومناحى الصلف وتصعير الخد ، وألقت به فى تيار الحوادث يتقاذفها وتتقاذفه فتكاد تغرقه

هو رجل موسيقى كما أسلفنا ، وإن لم يشتهر له دور ، أو يتداول له لحن ، أو يعرف عنه أنه عزف بآلة ، أو تغنى بموشح وموال أو حتى صاح : « يا ليل »

وقد يبدو هذا عجيباً ، وهو فى الحق عجيب فى غير مصر ، فمصر بحمد الله مكتظة بهذا الصنف من الموسيقيين ، أو أدعياء الموسيقى على الأصح ، ومذهبهم فى هذا أن ليس من الواجب الحتمى أن يلم الموسيقى بأى لون من ألوانها أو يتعرف ناحيـة من ثقافتها ، أو أن يتفهم حتى مذهباً من مذاهبها ؛ وبحسبه أن يحشر فيها حشراً ، فإذا هو بماله وثروته شيخ من شيوخها ، يعقد له فيها لواء ، ويقام له تمثـال ، ويزين صدرها بصوره الفوتوغرافية والمائية والزيتية ، وهدمت دارها إن لم تتسع لما ينفخ الشيطان به صدره من ألوان الهذيان

وإذن فصاحبنا يعقوب موسيقى ، وموسيقى من الطراز الأول ، أليس جاهلاً بفنون الموسيقى ؟ ثم أليس هو موفور الجاه موفور الثراء ؟ وما دخل العلم فى حياة الموسيقى وهى أشـد ما تكون حاجة إلى المال، وأهل العلم فى هذا الفن مفاليك مغمورون؟ ثم أليس المال يبنى الدور ويبتاع الآلات الموسيقية من عود وكمان وناى وقانون ودف وطبلة ومزمار وصاجات ، وكذلك كتب الموسيقى . وإذا كانت الدار مشيدة وفيها آلات الموسيقى على اختلاف أنواعها ، وفيها أيضاً كتب فى الموسيقى للخلعى وأشباهه من العلماء ، فما الذى يعجز الموسيقى أن تذاع ؟ وماذا يقعد بها أن تنتشر ؟

أنا أميل لمذهب صاحبنا يعقوب رضى الموسيقيون

أم غضبوا ، فلقد طالت عليهم العصر وما ابتنوا للموسيقى كوخاً ، ولا شيدوا لها عشا

ليختف العلم الفقير إن أراد الجهل الغنى أن يخفيه. وليخرس العلماء المدققون إن شاء الجهلاء المثرون أن تقطع ألسنتهم ، فالدنيا للمال ، والحياة لأصحاب المال ، وعند الله أجر العلماء ، وهو أجر لا يغنى فإنه لا يتجاوز بضع صفحات فيما يسمونه التاريخ

وفى التاريخ صحف مدخولة ، وحوادث مدسوسة ومفاخر مزورة ، ومآثر مرتجلة تسجلها الرشا ، وتدونها الولائم ، ويسطرها البذل الوضيع ، ويحبرها العطاء المسف ؛ ووسيلة هذا كله ميسورة لصاحبنا يعقوب ، موفورة له لا تثقله ولا تشق عليه

وأراد صاحبنا أن يطمئن أيضاً إلى هذه الناحية من التاريخ ، فأسدى إلى أحد المؤرخين يداً هزيلة عدّها له مكرمة وأثبتها له حسنى

وانقضى يوم وبعض يوم ولما يهضم المؤرخ المضغة ، وإذا بصاحبنا تحف به شيعة من مموهى الحق ، مزينى الباطل ، كسالى فارغين ، تكفى إحدى الولائم لخراب ذممهم وبيع ضمائرهم

واختلى الجميع بالمؤرخ ، وتناوب الرهط المتعطل ذكر مآثر الموسيقى يعقوب ، فهذا ينوه بأياديه على الفن ويذكر فى هذا قصصاً ، وذلك يعدد تضحياته فى الموسيقى ويرتجل لذلك حوادث ، وهذا يسهب فى مواهبه الموسيقية ويخترع لذلك روايات ، وذلك يطيل فى عبقريته الفنية ، ويصطنع فى ذلك خرافات. وهكذا تناوبوا المفاخر والمآثر ، وصاحبنا يستغفر الله بخجل التواضع ، وكلما تصنع التعفف عن المدح والزهد فى الثناء زادوا الكيل حتى أصبح حمل بعير

هناك نبتت فكرة تاريخ هذا العبقرى المتفرد ، فزينوا للمؤرخ نهز الفرصة واقتناصها وصاحبنا يتأبى ويتصنع العفة ، حتى إذا خضع لسلطان التواضع نزل على رغبة صحبه وشيعته احتراماً لجمع الكلمة ، وغلبة الرأى ، ونفح المؤرخ بدرة من المال يستعين بها على رأب الصدع ونفقات الطبع

استخار المؤرخ ربه فأخاره ، واستمانه فأعانه ؛ وشرع يمهد للتأريخ ببحوث فنية فى الموسيقى آدابها وفلسفتها وتاريخها وتطوراتها حتى قطع فى ذلك شوطاً بعيداً نقع الغلة وشفى الأوار .

ولكن العلم دائماً ظالم جبار ، يستهوى أهله ، ويتملك مشاعرهم ويستحوذ عليهم ، ثم يبطش بهم ويهلكهم ...

وكذلك كان شأن المؤرخ ، استهواه البحث فأشبع منه نهمته ، وأغفل غير عامد صاحبه يعقوب إلى حين .

يا غضبة السماء ، ويا نقمة الأرض ، ما هذا الذى يقترفه المؤرخ ؟ أيطغى العلم فينسيه شخصية شيخ الموسيقى ؟ ما العلم ؟ ما البحث ؟ ما الفلسفة ؟ أمام بانى البناء ، ورافع اللواء ، ومقيم الحيطان ، ومشترى العيدان ؟

— الويل لك أيها المؤرخ ، كيف لم تستخدم علمك وتستعبد مواهبك فى وصفى والإشادة بذكرى ؟ أعميت عن صورتى ؟

— رفقاً أيها الفنان ، سيأتى الوقت الذى أنصفك فيه ، وأشيد بذكرك فى مجاليه ، متى فرغت من حق العلم وتقصّيه

— علم ! وهل للعلم حق يتطاول إلى عظمتى ؟ وأى علم هذا الذى لم يلهمك مفاخرى ، ويوحى إليك

ماترى؟ ما نفحتك المال لتنصر العلم وتؤدى أمانته وتغفل أمرى وتنسى مكانتى ؟ خسئ العلم وخسئ أهلوه ...

— أيها الفنان ، حذار عاقبة الطغيان ، فلئن جنت الدنيا بك اليوم فبسمت لك وترامت عليك لقد تكشر لك غداً وتنقلب عليك ، والأيام قلب والزمن غدّار

— أترى هذا طغياناً أيها المؤرخ ؟ شهد الله ما أسمع منك إلا خَرَفاً . ما كان هذا طغياناً وإنما هو وفاء للنفس ولا لوم أن يكون الإنسان لنفسه وفياً ، ومن الوفاء للنفس أن يؤثرها صاحبها بالعظمة كلها ، ويختصها بالإجلال أجمعه ، فإذا استطاع أن ينصب لها فى كل حى تمثالاً ويقيم لها فى كل منفذ نصباً ، وقصر فى ذلك كان قصوره كفراً وجريمته نكراً

والعجب العاجب أنك تجهل هذا وتدعى العلم ؛ وأعجب منه أن يتحرك لسانك بين شدقيك ، ثم يرمينى بالطغيان ، يا خجلة الحياء ، ويا ضيعة الأدب

— أيها الخِرِف ! إن لم يكن هذا الذى تقترف طغياناً وعنتاً ، فما هو الطغيان والعنت إذن ؟ لقد جاوزت المدى ، وأسرفت فى ...

— يميناً لأقطعن مِقولك ، وأخرسن لسانك ، وأحطمن قلمك . فما ترفع بعد اليوم صوتاً ، ولا تخط حرفاً .

هنالك ملك الغضب صاحبنا يعقوب فخار خوارا زعزع جوانب المكان ، وفزعت الشيعة . فجاءوا يهرعون إليه ، ينهنهون من غربه ، ويطفئون نار غضبه ، حتى إذا سكن هائجه ، وهدأ فائره ، تباكى وبدا له شهيق أغرق الشيعة فى دموع الكذب والنفاق

ما بك يا سيدنا ؟ أنفسنا الفدا إن أجدت

فقال فى تيه المكظوم وعبرة المختنق :

ضحيت بشبابى وأرقت ماء حيائى ، واستجديت كرم الناس وسخاءهم للفنون وخدمتها والموسيقى ، ونهضتها ، فكان أن أهمل شأنى ، وغمط قدرى ، وأغفلت حتى صورتى . وها أنتم أولاء ترون أنى وإن لم أبذل فى هذا المجهود من مالى درهماً أو ديناراً رغم ما أفاض الله به علىّ من الثراء والنعيم ، فإنى توسلت بجاهى للشحاذة واستعنت بحيلى للاستجداء فجمعت للموسيقى ما جمعت ، وهيأت لها ما هيأت

ثم سحت عيناه وخنقته العبرة فاحتبس صوته..

يا للهول

هلعت قلوب الشيعة وانخلعت أفئدة الرهط ...

أيبكى السيد وما يزال المؤرخ يتنسم رَوح الحياة ؟

الموت ... الموت ... أهون العقاب موته وتحريق مخلفاته

وانتهوا فى ذلك إلى قرار ما كاد يجف لعابه حتى كان نافذاً ، هنالك قاموا إلى آثار المؤرخ فحرّقوها وإلى مؤلفاته فمزقوها ، وظنوا أنهم بذلك يطمئنون وتسكن أفئدتهم ويستريحون ، ولكن عزة العلم تأبى الاستكانة والخنوع ، وكرامته ترفض المذلة والخضوع ، فسجلت تاريخ يعقوب وجعلته فى الموسيقيين مثلاً . ووالله ما تخطى المؤرخ الحق ولا تعدى الصواب ولا خان أمانة العلم

عز العرب على

هِنْدِيَّة

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

على وجهها معانى وجوه كثيرة تحمل من الكآبة مسحة بادية ، ويروعك هذا الجرى المتواصل وراء ألفاظها التى تحتبس وراء شفتيها كلما همت بأن تتكلم

هامت بدنيا مجهولة غير محدودة ، تتبرم بدنياها وتنشد فى أحلامها ما عجزت عن تحقيقه فى يقظة العيش ، وهذا من وحى الغريزة الفكرية .

تعيش فى دنيا فنية ابتكرتها لنفسها اعتقاداً منها أن الفن مفزع الإنسانية فى مختلف أدوارها ومنجاتها من شرور الدنيا وسطوة الأقدار — والدين الوضعى كما قال «جوركى» أول مظهر فنى ابتدعته القريحة البشرية — ابتدعته بعد أن راعتها تفاهة الحياة وسطوة العدم ؛ لذا خلقت لها دنيا ثانية ، تنعم فى أجوائها بفكرة الخلود ، وصفاء العيش الهنىء بعد أن أمعنت بها صفعاً قسمة الموت ، وسلاطة السلطان فى أيدى القدر

وهى فى مفزعها هذا تحاول تلمس الروح السرمدى بأصابعها العشر ، وهى ليست شاعرة أو فنانة فحسب بل هى راهبة ، لا تقنع بنشد الطمأنينة والصفاء فى هيكل واحد . . . ولكنها تنتقل من دير إلى دير تجر وراءها أثقالاً من الشجن ، وكأنها تخشى أن تهوى ثانية إلى عالم الماديات والحب الضائع ، والحسنة التى تجزى بالشر . . .

وإذا حادثتها تدرك وراء ذلك كله ظمأ لا تنقع له غلة ، يحدوها ارتياد المجهول ، تتلمس فيه قبض الريح — فتتألم لها ، وتخالجك نزعة من الإشفاق عليها ، ولكنك تكبر فيها الألم الكبير الساجى ، وتباركه كأنك صهرت معها فى بودقته .

تعذب نفسها وتشقيها ، وفى يدها خلاصها ! وكأنى بها واحداً من أولئك الشهداء الذين أبوا إلا أن يعيشوا شهداء ، ويقضوا شهداء ؛ معمودين فى سبيل غاية ، وتحقيق أمل بعيد . . .

لذا كان من العسير أن يفهمها أى رجل ؛ وكذلك من العسير أن تحب أى رجل ، لأنها تتعالى عن التجارة بالحب أو تكلفه .

عاشت العشرين من عمرها بل أكثر مجنحة حالمة تنتقل بين الأرض والسماء . عذاب لا ينتهى ، وظمأ لا تنقع غلته . هى مشبوبة القلب ، تحلق ولكن سرعان ما تجتذبها الأرض فتجثم على صفائها منتفضة الأوصال ، بادية الأشاجع ، ناحبة متبرمة . . .

ثم تدوى فى أذنيها أناشيد الرجاء ، ويختلجها الحنين إلى المجهول النائى ، إلى الغامض الذى لا يفسر ، ولا يسقط عنه قناع . فتضرب الهواء بجناحيها ، ويحلق عقلها ، وهو نور ونار ، محوماً محوماً فى السماء . غير أن الجناحين جبلا من صلصال مهين . . .

لها الله . . . لها الله . . .

تنشد حياة الروح مجردة من المادة . . .

بأى عقل تطلب ذلك ؟ . . .

وقد أبت الطبيعة عليها ذلك بعد أن لقحت إنسانيتها السامية بغرائز ترابية في حمأتها تتوالد جراثيم اللذة ... لذة الجسد ولذة القلب !

ثم ترجو الحب الروحي البعيد عن الماديات . فهل نسيت أن القلب البشرى يتفجر دماً يغذى معين البهيمية فى نفوسنا . . . وأن هذا الخافق المتغلغل ملول مضطرب متقلب كصفحة الماء ؟ !

يحرق ما يعبد ليعود ثانية إلى عبادة ما يحرق !

ثم تثور غرائزها بغير حق ولا داع ! محاولة الترفع على ما منيت به من ضعف متمنية أن تكون أسمى من امرأة !

امرأة بما يصطخب فى قلبها من تيارات فائرة ، وينابيع صافية ساجية ، ولو أنها أخذت الحياة كما هي وفاقاً لناموسها الأزلى ، فتكون إنسية آدمية قبل كل شيء . ثم تسبح بعد ذلك كما يحلو لها فى أخيلتها ، وتعيش بأنوثتها ... لها دفء الجسد ، وطراوته وجاذبيته ... ولها أيضاً قداسة الروح وسحرها

أبسط الأشجار ظلالاً وأعلاها رءوساً هى تلك التى تغور جذورها بعيداً فى جوف الأرض

أجل لو أنها أخذت الحياة كما هى لما تنكرت لها الأشياء فى وجهها وهى جامحة تجرى وراء تحقيق مثل عليا

الجبل عال ، والشقة بعيدة إلى القمة ، والقمة تغطيها الثلوج ... ولو كتب لها الوصول إليها فهناك البرد القارس الذى يحولها إلى كائن ثان يتجمد على مهل . وهناك الدوار ، وهناك التجرد من حالة للدخول فى حالة أخرى لا تعرف كنهها تماماً ، ولكن أبين مظاهرها موت الغرائز الدافئة !

لقد أرهفت حسها تحت مؤثرات مجهولة حتى من نفسها ، ومن هنا انبعث عذابها الدائم وانطلاق تبرمها بالناس فتحولت الحياة فى ناظريها إلى كائن بغيض وهى جمة المحاسن وافرة الرواء . وغالباً يلبس هذا المرض فئة من الشعراء فيحيلهم شكاة متبرمين بالحياة الدنيا يتلمسون بلا طائل السعادة فى المجهول فيما ضنت به الأرض عليهم

ولطالما حاولت أن تكون فتاة حياة تعيش على الأرض التى جبلت من طينتها ، وحاولت أن تخلط ذهب روحها بشيء من النحاس ليصلب عوده ويقوى على احتمال ما يرتطم به من الماديات لعلمها أنه لو لم يخلط الذهب بالنحاس فى الجنيه لتلاشى بين أصابعنا

على أنها لم توفق فى محاولتها لأن الخيال ملك ذهنها وزج بها فى مفاوز موحشة لا حد لها ... مع أنها فى مقتبل الشباب ولها من هذا الشباب وسامته وعبقته ولم تأبه لزهرة هذا الشباب أن تصوح تحت رياح الصحراء ... كل من يعرفها ويلمس روحها يحار فى تفهمها ولا يدرى باعث تبرمها من الحياة !

أمن وحدة روحها ؟

أم من خيبة حب ؟

أم من غرام بلا أمل ؟

أم من حرمان بعد متعة طاغية ؟

لا هذا ولا ذاك ...

ولو أنها كانت كذلك لما أدى ذلك إلى قنوطها الجاثم على صدرها فى عنف غير لين ... ثم إن الأمل الذى سعدت به فى ماضيها يظل يعاودها من حين إلى حين مهما قست الأيام عليها

ولو شاءت العبث بالحياة والرجال لهان عليها الأمر لأنها محبوبة مغرية مرغوب فيها ... ولكنها تريد أن تكون همزة الوصل بين الإيمان والحب والسمو

المفقود خلف العدم ... راغبة فى أن تشاهد دخان نفسها وهى تحترق فى بطء لتسجل شجوها فى سطور وترسمها فى خطوط وظلال ، ثم تصورها فى نغم وألحان ، شاعرة بأنها تغتسل بالألم وتتطهر بالحرمان وهى بهذا وذاك كلة الخلود على شفتى الأزل

* * *

وأخيراً سجنت نفسها ، ومحبسها شبكة وشائجها من نسج روحها وهى روح طغت عليها لذة الألم حتى ألفتها فغدت بهجة الدنيا فى عينيها أحلاماً زائفة ، ولم يشفع أنها ما زالت فى عمر الزهرة التى خرجت من برعمها تستقبل النور

وسجانها حس مرهف فيه شحذت غراره المحن فصار دقيقاً يؤثر فيه عبر النسائم

آدمية حائرة ، وفيلسوفة شاعرة ... هذه هى الهندية الساحرة

الورد فى عينيها إذا لم يرتعش للنسيم شوك على غصن !!

وتغريد البلبل فى سمعها إذا لم يطرب له السكون الحزين ، ترتيلة الفناء !

وفى سبيل إيمانها وعقيدتها تشد إلى العذاب مسلمة جسدها الثعبانى المتيقظ إلى مسامير الموت الحادة

كل معنى من معانيها مأساة ، وكل لفظ من ألفاظها جرح يدمى ، وفى كل جرح من جروحها إنسانية تنتحب

وليس ألمها لمصيبة حلت بها ... إنما تتألم بإحساس قلوب جميع المتوجعين المظلومين المفجوعين المحرومين ... ترى مآسى الإنسانية كلها من وراء عينيها، ويا ويحها من إحساسها وألمعيتها ...

كبرت روحها دون جسمها وأثقل قدميها حمل رأسها فتألمت حتى بكت

وهى لا تدرى أن الأرواح تحوم حواليها وأن العيون ترصدها ...

وكل الرجال تخافها بقدر ما ترغب فيها وتحبها عدا ذلك الرجل الذى حاول أن يتقرب إليها فصدته فى كبرياء وأنفة ...

تولد من حبه الوليد مقت شديد ... ففكر فى التغرير بها لكى تحبه فإذا استسلمت له انتقم لرجولته المهانة ...

إنما الفتاة ذكية حساسة ومثلها لا يهبط إلى الحضيض ...

وقف الرجل فى طريقها متأهباً لكفاح وهو على يقين من أن النصر حليفه ... وكيف يشك فى قدرته وقد حبته الطبيعة قدرة الرجولة الصارمة وهى امرأة ضعيفة لينة

إنما كيف السبيل إليها ؟

هذه هى المشكلة ؟ ...

رجولة تحارب أنوثة

الرجولة تحارب بعقلها

والأنوثة تحارب بقلبها

ترى لأيهما الغلبة ...

فى مقدور الشيطان أن يدخل إلى المابدليوسوس فى الصدور ... ولكن ليس فى مقدوره أن يزعزع الإيمان الثابت ...

كان الرجل شيطاناً ... والمرأة مؤمنة ...

والحرب ستقوم بينهما ...

ترى لأيهما الغلبة

مهنة الرجل التمثيل وهو يجيد عمله كفنان حاذق

ودعا الفتاة عن طريق صديقة لها لتحضر رواية ستمثل على مسرح الأوبرا ...

أجاد تمثيل دوره وقد كان بطل المسرحية ... حتى خيِّل إلى الفتاة وهى تتأمله عن كثب أنه خلق ليكون زاهداً وأنه يتحرك ويتكلم على المسرح فى غير كلفة . . .

يفعل الفن بالنفوس ما لا يفعله سلطان القدر

وهمست صاحبتها فى أذنها ... ألا يجدر بنا أن نهنئ البطلة والبطل ؟ لقد أجادا

فوافقت الفتاة راضية ...

وذهبا خلسة ...

ابتسم الرجل الفنان ... إذ بدأ نصره يبدو

ولكنه لم يكد يحملق فى وجه الفتاة الحالم الهادئ حتى خشع أمام العبقرية المسجونة ...

وشكرها فى تأدب على تشجيعها وأكد لها أنه بفضل هذا التشجيع سيبلغ قمة الفن عما قريب

فنان زاهد ...

كان هذا الخاطر شاغل ذهن الفتاة على أثر مشاهدة الممثل البارع ...

أيمكن أن يكون قلبه عفا بريئاً طاهراً أبيًّا حقاً ...

لابد . . . لابد . . . إنه لم يتكلف الصناعة مطلقاً ... ولكن ألا يحتمل أن يكون مجرد تمثيل؟

ولكن ما الذى يعنيها ... ليكن زاهداً أو غير زاهد

بهذه الهواجس المتناقضة المتباينة شغلت نفسها حتى دعتها الصديقة لزيارتها ولقيته هناك فتحدثا حديثاً طبيعياً لا كلفة فيه ولا حذر وقد تلاشى كل ما كان يحفزه إلى الهجوم، وشعر أنه أمام قوة هائلة قادرة على تحطيمه ...

أخيراً قال :

— يا آنستى أمامك سبيلان لا ثالث لهما : إما إلى الموت أو الانقطاع عن العالم، وإما أن تسلمى رأسك إلى مبضع الجراح يزيل ما يثقله من أورام الألم وطفيليات العدم ...

أنت فى إبان شبابك وحرام أن تكون الدنيا فى خاطرك وباصرتك متشحة بأكفان الموتى

فنظرت إليه صامتة وهزت كتفيها فى بطء ثم غمغمت :

— ليكن ... إن فى الموت بداية حياة أخرى على أى حال ...

فابتسم فى مرارة قائلاً :

— أعرف أن النبوغ اتخذ كمينه فيك . . . لكن تنفسى ... تنفسى لينطلق حسك

قالت : من أدراك أنى أختنق ... الزهر يتنفس أبداً أمام النسيم ... لكن أين من يشم العبير العاطر فيفهمه ؟ أين ؟ ... أين ؟ ...

وأحس الرجل أنه شد إليها بحبل متين فارتعد لخذلانه وأطرق برأسه واجماً .

بينا انسحبت الفتاة فى سكون ...

ظنها ستعود ... ولكنها غابت ...

سأل صديقتها ... فخرجت تبحث عنها فى المنزل فلم تجدها ...

خرجت دون استئذان ولا تحية ...

وتمتمت الصديقة: ظبى نافر. فلزم الرجل الصمت الحزين ولم يتكلم ...

قالت الصديقة : ماذا جرى ... أتفكر فيها ؟

قال : أجل ...

قالت : ولكنك تعبث بالقلوب وهى فتاة حذرة

تخطف القلب وتدع صاحبه صريعاً

قال : حسبه أن ينعم بالخلود فى قلبها ...

وعادت . فابتسم الرجل وانطلق وجهه ...

قالت صديقتها : كذبت عليك .

وأعقبت الفتاة : هيه ماذا تقول بعد أن قلت ، إما إلى الموت أو أسلم نفسى لمبضع الجراح ؟

قال : وما زلت أقول ذلك

فابتسمت على مضض قائلة : إلى الموت ياسيدى إلى الفناء ، لكن لأخلد الآخرين ! .

سأفنى نفسى فى ذات الإنسانية كلها موزعة قطرات دمى ونور روحى وصفاء ذهنى على كل بائس محروم ، إلى هذا الموت سأذهب

ولكن لأخلد من هم بالخلود أولى وأجدر .

فقال الرجل بصوت الهاجع : تغريدك يا آنستى يثير مكامن النفس وينزع كل خاطر من كينه ، وأناشيدك مأدبة فاخرة تقدمينها للسابلة ولكنها تحمل عصارة روحك ...

وأولئك السابلة العابرون يسلمونهــا إلى الفناء البطىء المباكر لينعموا بهذا التوقيع المروع، أتركى غرائزك الفطرية تقدك ولكن أحسنى تلجيمها .

هنا انتصبت الفتاة ، وقد تلون وجهها بظلال الألم مستأذنة ، ثم انصرفت بعدأن ألقت عليه ابتسامة موشاة بالقلق .

ولما خلت إلى نفسها انمحى من ذهنها كل خاطر عدا كلمة الرجل « أتركى غرائزك الفطرية تقدك ، ولكن أحسنى تلجيمها »

حكمة لها معناها .

ما ضرها لو تمتعت بالحياة وخافت الله ! ...

وقضت الليل تفكر فى هذا المصير ...

بينا راح الرجل يناجيها بروحه ، ولكنه يخاف أن يقتل الرقاد فى عينيها فتفزع من نومها بتأثيرمن مغناطيسية روحه التى تسربت إليها ولكنه مرغماً يفكر فيها ويتخيلها فى ثيابها السود ككاهنة لإله جرت عليه تقاليد هذا العصر المادى ذيل الفناء .

ويتخيل نفسه شيطاناً غير متأثم يحاول أن يخرجها من صومعتها العاجية إلى الغوص فى أوحال هذا العالم

شد ما هى عظيمة فى وحشة روحها !

وشد ما هى فاتنة بنفورها !

وشد ما هو صغير بفلسفته الجافة !.

إن مثله ومثلها لا يجتمعان فى صعيد واحد ، وإذا اجتمعا فللنضال،إذ يحاول كل منهما أن يخضع صاحبه لاعتناق عقيدته .

وساءل نفسه :

أين الحقيقة فى روع كل منا ؟!

ومن منا على صواب فى نظرته إلى الحياة ؟

هى تأبى إلا أن تكون معلقة من شعرها بين الأرض والسماء ، وهوغائص بأقدامه فى جوف الأرض ...

كل منهما يمت إلى دنيا صاحبه ، وأى العالمين يجب أن يستقرا فيه ؟ ...

إن الحقيقة تبدو لهما كالشعاع من بعيد ولكن تتراءى لكل منهما على صورة مخالفة للأخرى ، إنها مركزة هنالك أحياناً ، وتجرى أمامهما آنا .

وهب أنهما قطعا الليالى الطوال جرياً وراءها فهل يمكن أن يأخذا غير قبض الريح ؟

يشعر بأنه يقضى حياته متخبطاً فى الظلام رغم تهاويل مباهج الحياة ...

فهل يمكن أن يجتاز الظلام إلى عالم النور من عاش فى بطن أمه وهى ظلام فى ظلام وخرج منها يدب فى الظلام وسوف يدخل القبر فى الظلام !

فأحس برغبة جامحة للتصوف واستسلم بكليته إلى المجهول وأنكر ذكاء العقل البشرى واقتدار القوة الإنسانية

وتصور هواجسه هذه تطرقها فى محرابها وهى بين يدى الله ...

فارتد عنها متمنياً غفوة تنسيه ما هو فيه راجياً لها نوماً هادئاً ويقظة فرحة تطالع النور معها بجبينها العالى ونفسها القانعة قائلاً لنفسه : هنيئاً لها ما هى فيه ... وويلى مما أنا فيه

وكلانا أضحوكة فى فم الزمن وألعوبة فى يد القدر

وما كاد يتنفس لينام حتى أحس بضوء الفجر الوردى يلمس روحه بعد أن أكسب ظلمة الليل وهج الحريق

فتنفس الصعداء وتمتم :

ترى أينا يكسب نفس صاحبه وهج نفسه ؟

* * *

فى الواقع لم يتعمد الرجل أن يحبها ولكنه منذ رآها لم يعد يملك رد تفكيره عنها وراح يشعر أن تفكيره فيها نوع من الابتهال أو الإيحاء الساجى الوديع ...

وانزوى على نفسه فى صومعته تاركا كل شىء فى الوجود — عداها — شاعراً أنها هى دنياه الحافلة بمباهج الوجود ، وأن أحلامه وأمانيه تعمقت روحها وأحس عن يقين بأن حبه صادر من معين خصب يفور بعاطفة صادقة حلوة

لطالما أحب أو هكذا خيل إليه ...

لكنه الآن يشعر أن جميع عواطفه التى مرت بقلبه نسمات عابرة بددتها أعاصير الزمن ... عدا المرأة التى أحبها منذ سنين وبادلته الحب صرفاً ثم ماتت شهيدة بيد مجرم أثيم ...

تذكر هذه المرأة فتألم فى حرارة ثم تلاشى هذا الطيف وراء الدخان المتصاعد من أنفاسه اللامرئية ثم عاد يتكون حتى جسم طيف الفتاة فأحس بالدفء يلبس جسمه البارد وشعر بأطراف أناملها السحرية تمر برقة النسيم العاطر على شعره فتبث فى كيانه حيوية الانتعاش المحبب ...

اقترب منه الطيف فى شبه نور انبثق من وراء الأفق ... حتى واجهه ...

الحيوية تشع من عينيها والتوثب قائم على شفتيها وحرارة روحها تهب من طيات كلماتها الغامضة المبهمة التى ما تكاد تخرج من صدرها حتى تلتوى بين شفتيها فتبدو كظل مموج أكسب جسمها حرارة الجسد الإغريقى

ووقف الطيف أمامه صامتاً فأحس الرجل بأن الرهبة تلبست جسمه وانسرح بروحه فى ذلك المعنى الذى لا يدرك وتلك الروح الوالهة الظمأى التى لم تنهل بعد من موارد الحياة ولذائذها ولاح له شغفها الذى لم يسأم يطل عليه من وراء كل جانحة فيها ...

كل ما فيها يقظ متوثب للعراك وللعناق وللفناء فى الجوهر الأسمى نور الحياة الذى يسمونه الحب

وطاب له أن يراها أمامه تمسك له المشعل مشعل الحب والأمل مجتازاً بأحلامه مراحل جديدة يسمع خلالها صوتاً منشداً أناشيد الأمل وأهازيج الغبطة يشدو الحنين وفى يمينها قيثارة ذهبية توقع عليها لحناً بغير كلام ...

نشيد جديد كلماته دم وأعصاب، وجرسه نبض قلب الهندية المدوى

وذاك اللحن يدوى ويصمت ويرتفع ويهبط وينكمش وتنفرج أساريره

وطغى عليه الخيال حتى ظنها حقيقة ملموسة فاقترب منها. وما كاد يمد يده ليصافح اليد الناعمة العازفة حتى جرت من أمامه ولحها تجرى لاهثة تبغى الألم للذة وتسعى للذة ولتتألم، وترامى إليه صوت القمر يدوى منغماً فى شبه حذر :

(إجرى ... إجرى ... يا فتاة سيكون فى أوجه الرحلة أوج مجدك ومنها تصلين إلى القمة فترسلين إلى الإنسانية أشعة النور وتكونين أنت الشعاع المذاب فى قلب الوجود)

وانتبه بعد إغفاءة لا يدرى مداها تخيل إليه أنه ولد من جديد

تمنى لو يلقاها ... ولكنه لا يريد أن يراها. المرء لا يكتب شيئاً على الرمل ساعة هبوب الأعصار وهو لا يريد أن يراها خوفاً من أن تحرقه، وإذا احترق فسيكون احتراقه بدون لهب لأنها ليست امرأة عادية تقنع بمادة الحياة

هى امرأة تمر بالبرودة ناراً لافحة وتمر بالنار برودة مثلجة

مزيج عجيب من الحس المرهف والجمود المطلق

***

جاءها ليزورها مع صديقتها — فى الواقع جاءها ليدفن روحه طى روحها فوجدها جالسة فى معبدها وهى غرفة جمعت فيها ينابيع الفنون

قيثار اضطجع على مخدع وثير من ريش النعام كأنه حبيب استند إلى صدر ناعم وسنان، وفى ناحية أخرى مكتب متواضع تناثرت عليه أوراق احتفظت بخواطرها من النسيان، وبالقرب منها صور رمزية رسمتها فى مواقيت مليئة بالحسن المنوع. دخلا عليها وهى عاكفة على رسم زهرة تتيه بألوانها الزاهية يحوم حولها فراش

ونظر الرجل إلى الصديقة كأنه يقول لها : أنظرى لقد جذب الرسم نفسها من حيث لا تدرى ونظرت إليه الصديقة بمعنى : أن لها على كل شىء طابع الصدق والصراحة. وقف الرجل يتأمل الرسم ثم مد يده فى بطء وطمس الزهرة بالقلم الأسود وراح يدمدم : الآن ... لن تفزع الفراشة الوادعة وهى تدوم حوالى الوردة الناعمة وتحوم، ورسم بيده وهو لا يدرى كيف رسم — لأنه لا يجيد فن الرسم وإن كان يحبه — رسم زهرة (التوليب السوداء) التى إذا أطبقت أكمامها على الفراشة الحائمة حجبت عن عينيها وضح النهار وأوقعتها على رحيق لا تفيق منه أبداً

ونظر إليها مترقباً ما تقوله فلم تتكلم، وتلهت عنه بمخاطبة صديقتها :

فاغتاظ إذ كان يريد أن تعاتبه وتغضب، فلما خرجت صديقتها لشأن لها اقترب منها مشيراً إلى الرسم بطرف إصبعه قائلاً :

— ما رأيك فيما فعلت ؟

قالت — فهمت ما تعنيه

قال — أريد أن أفهم ما عنيته

قالت — حسبك أن أفهمك

قال — وأنا أريد أن أفهمك ؟

قالت — لن تفهمنى إلا إذا فنيت فىّ وهذا لن يحدث أبداً

فتغابى وتمتم : وما ذنبى حتى أموت ؟

فابتسمت قائلة : إنك ستحيا إنما على صورة أبهى وأروع ، سيموت كيانك وتخلد روحك

فقال فى حدة : هندية — هندية — هندية كيف ولدتك أمك المصرية ؟

قالت — ولم أسميتنى كذلك ؟

قال — إنك تفهمين فلماذا تسألين ؟

قالت — آه ... معك الحق ... أجل أنا هندية أومن بخلود الروح وأميل إلى أن يموت حبيبى من أجلى لأعيش من أجله

فاحتد قائلاً : هذا فظيع ، فظيع جداً ، هذه أنانية لا تتفق مع ابنة الإنسانية

قالت — أبداً ... إذا مات الإنسان فى سبيل الحق والشرف والصدق عاش على ضوء هذه الفضائل خالداً بخلود الأجيال ، راسماً على جبين الزمن نجماً لا يخبو أبداً ...

قال — وهل الحب يستحق الموت ؟ وإذا عجز الحب عن تخليد الإنسان أيسهل على الإنسان تخليد الحب ؟ لا أظن

قالت — لو فهمت الحب صحيحاً لعرفت أنه مكيف المثل العليا وخالق الفضائل السامية . . . إنه كلمة الله الصريحة التى نطق بها يوم خلق الضميرين الخالدين ... (هو — هى) ...

قال — إنك تبالغين فى تعزيز الحب ... مع أن أصل البلاء منه

قالت — كل فساد خلعت عليه لباس الحب كذباً لا ينتمى للحب الأكيد بصلة ، اسمع ، إنكم تموتون فى اليوم أكثر من مرة ... تموتون بالكذب والخداع وأنتم لا تدرون ... ومن يموت فى سبيل الكذب يكون أشبه بالوقود ... ينتهى بانتهاء اللهب

أما من يموت فى سبيل الصدق فيكون أشبه بالنور يتلاشى فى الأفق ولكنه يضىء الكون للعالمين ... فلماذا لا تتخير الحياة العليا ؟ فقال مستخفاً : النهاية مرسومة منذ الأزل. فقالت : حسن... لكن لماذا لا يذهب المرء إلى نهايته راضياً مطمئناً على شفته بسمة الإيمان بدل أن يذهب قلقاً خائفاً فى عينيه دمعة الكفر. كانت تتكلم بصوت عميق ... عميق . . . فيه حرارة الإيمان الأكيد

فخشع الرجل وقال : إرفعينى إلى سمائك إن كانت لك سماء لم أتعرفها بعد، ولن أحاول أن أنزلك إلى أرضى أيتها الهندية المجنحة . وقبض على يدها فى احترام مردفاً : صفاء عينيك ونقاء روحك أسكبيهما فى بسماتك ونظراتك « دائماً » لتعاودني ذكري هذه الساعات العامرة بالإيمان الحلو الرطيب ولكى تردنى إلى كثير من أحلام الحماسة الأولى ...

وانحنى فى خشوع مقبلاً طرف رداءها متمتماً والدموع تراود عينيه ...

إنى أفعل ذلك طاهراً متطهراً من كل شائبة، فمثلك جدير بهذا التقديس حتى من أمثالى الأبالسة..

فأطرقت مليا مفكرة ... ثم رفعت اليه بصرها وقد فاضت دموعها قائلة : أيها الشيطان الشقى . . . سأحبك لأهديك ... وأقتلك لأخلدك

« المنصورة » جميلة العلايلى

الرجوع إلى القرية

أقصوصة واقعية

بقلم الآنسة نعمة المغربي

هذه القصة يا قارئي ليست من نسج الخيال ومبتكرات القريحة بل قصة واقعية حدثت في إحدى قرى الشام . ولم يزل أهالي تلك القرية والقرى المجاورة يتحدثون بها ويروونها بحزن وكآبة لكل زائر غريب

***

هناك على هضبة مرتفعة تقوم قرية صغيرة تطل على سهل فسيح أفرغت عليه الطبيعة أجمل حللها السندسية وأرق غلائلها المبرقشة الزاهية . وقد نثرت بيوت تلك القرية على منحدرات الهضبة نثراً بديعاً حتى يخال الناظر لأول وهلة أن تلك البيوت إنما تزحف رويداً رويداً إلى أحضان ذلك السهل . وفي ذروة هذه القرية الهادئة يقوم بيت صغير يشرف على ذلك السهل الفاتن طليت جدرانه بلون أسمر داكن . ولكنه لم يستطع إخفاء ماقرضت منه نيوب السنين وهشمته يد الخصاصة والعدم

في ذلك البيت الحقير نشأت بطلة قصتنا (وطفاء) وقد نعمت جدرانه بمشاهدة طفولتها المرحة ورنين ضحكاتها الموسيقية . ولم تتجاوز طور الحداثة وتستقبل عهد الشباب حتى أخذ جمالها الفطري يبدو بصورة تخلب الألباب ، فكانت ممشوقة القامة ذات وجه جميل وعينين تفيضان سحراً وعذوبة ، وكأن العناية الإلهية أرادت فوق ذلك أن تسبغ عليها كل نعمها فحبتها بصوت غرد جميل إذا سمعته حسبته سجع الحمام أو شدو العندليب

ويتوسط تلك القرية الهادئة عين ماء يستقي منها أهلها تظللها شجرة توت ضخمة باسقة الأغصان ممتدة الفروع اتخذها صبايا القرية محلاً لاجتماعهن وسمرهن . وعندما تنهض ذكاء من مرقدها تجر ذيلها الذهبي وترسل نورها المنعش إلى حجراتهن الضيقة ، يحملن الجرار على أكتافهن المكتنزة ويسرعن إلى العين لملئها من مائها العذب النمير . فهناك يحلو لهن الحديث والسمر ، وتفيض مخيلتهن الخصبة بأحاديث فاتنة من أحاديث الصبا والشباب . أو يشدون غناء ساحراً تسيل من نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وكثيراً ما يرقصن رقصهن القروي الفاتن فيؤلفن حلقة ويتشابكن بالأيدي ويتمايلن بأثوابهن الفضفاضة وقدودهن السمهرية تمايل الأغصان اللدنة حركها نسيم السحر . وكانت وطفاء واسطة عقدهن بحكم ما وهبت من ليونة في الجسم وخفة في الحركة ، فضلاً عن ذلك الصوت الشجي الذي كانت بتموجاته الموسيقية تحدوهن إلى الإمعان في الرقص بوجوه تطفح بالبشر والسعادة ، وتفيض بالابتسامات المشرقة العذاب

وكان معظم أولئك القرويات يجئن المدينة القريبة لتصريف حاصلاتهن من أثمار ولبان فيمتلك مشاعرهن ويثير إعجابهن ما يشاهدنه فيها من سحر

وجمال . فتيات بملابس زاهية خلابة حسرن عن صدورهن وصبغن وجوههن بمختلف الألوان . ومركبات تجري وحدها بواسطة أشباح غير منظورة أو بواسطة طائفة من السحرة والجان . وصناديق خشبية حبس المغنون أنفسهم فيها عن الأعين وأرسلوا منها أجمل الأغانى وأعذب الألحان . وقصور شاهقة فى الهواء . تتلألأ فيها مصابيح الكهرباء فتخالها قطعة هبطت من السماء . وغير ذلك من المشاهد الرائعة التى يرتد عنها الطرف ويقصر عن وصفها اللسان

وبجانب تلك العين وفى ظل شجرة التوت كانت تلك الفتيات الطروبات يتبارين فى وصف سحر المدينة ومفاتنها . وكانت وطفاء قلما تشترك معهن فى أحاديثهن عن المدينة بل كانت تطرق برأسها وتغوص فى لجج الأحلام . كأنها تفكر فى حقارة قريتها وما يحيط بها من عيش زرى وحياة متجهمة عابسة وتقارن بينها وبين جمال المدينة ومناظرها المغرية وحياتها البراقة الضاحكة فتود لو تهجر القرية وتقطع صلتها بتلك المناظر الكامدة الموحشة وتفارق هذه الصور التى اعتادت مشاهدتها صباح مساء

أقبل الشتاء بقارس برده وقد لمس بأصابعه الخشنة شجرة التوت فتناثرت أوراقها وتجردت أفنانها . وأقفرت العين من أليفاتها اللواتى هجرنها وقد قبعن فى زوايا بيوتهن بجانب مواقد النار يصطلين بلهيبها الوردى ودفئها الجميل . وخلت أزقة القرية من أصوات الفتيات ورنين ضحكاتهن وهن غاديات رائحات . وأشد ما أوحش القرية غياب (وطفاء) ذلك البلبل الصداح الذى كان يشدو بصوته السحرى متنقلاً من غصن إلى غصن ومن فنن إلى فنن . فيملأ جو القرية طرباً وسروراً . ومن كان يظن أن اسم وطفاء أصبح بغيضاً إلى أهل القرية إذا ذكر فى مجالسهم تقطبت أساريرهم وتجهمت وجوههم وتمتمت شفاههم بعبارات خافتة مبهمة قد تكون عبارات لعنة وازدراء أو رحمة ورثاء ؟ وقد كان أكثر السكان اهتماماً بخبر وطفاء الفتيات اللواتى كن يتحدثن عن غيابها ، ويتهامسن بما سمعنه من أن أحد شباب القرية نزل المدينة فرآها ترقص فى أحد مسارحها بثياب شفافة وقد صبغت وجهها بمختلف الأصباغ ووزعت ابتسامتها المشرقة على الجمهور الذى كان يسمعها كلمات المديح والإطراء وينثر عليها الرياحين والورود

انزلقت وطفاء فى حياة المدينة الصاخبة واستهواها بريقها الساطع وجوها المفعم بالفتنة والسحر . وملكت أعنة القلوب بصوتها الشجى المطرب ورقصها الفاتن الرشيق ، وأصبحت درة ساطعة اجتذبت روعتها لب الجماهير وألهبت أكفهم وحناجرهم بالتصفيق والهتاف

لشد ما أخطأت المسكينة فيما اختارته لنفسها من الغوص فى خضم المدينة الزاخر ، والاندفاع فى آذيه المتلاطم ، ولشد ما أخطأت مذ آثرت هذا الجو المملوء بالرياء والملق على جو قريتها الهادئ وحياتها الطيبة ونسيمها العليل . وغاب عنها أن الجمال ظل زائل ، وأن الشهرة التى نالتها مثيلاتها رسم حائل ، والوردة الغضة العطرة ، التى زينت الحسناء بها صدرها سرعان ما تزوى فتتناثر وريقاتها وتدوسها الأقدام ، وأن الشجرة الوارفة الظلال التى تثمر ثمراً شهياً يتلذذ المترفون بطعمه ويزينون به موائدهم الأنيقة قد يطرأ عليها الجفاف فتجتثها فأس البستانى من أصولها وتقذف بها فى النار ،

وهكذا كان شأن وطفاء التى سحرتها بهارج المدينة فقد اجتواها الجمهور وملّها حسب عادته وأعرض عنها إلى غانية سواها ظهرت حديثاً على المسارح كانت أوفر جمالاً وأنضر شباباً ، وأشد فتنة وإغراء ولما شعرت القروية المخدوعة بأفول نجمها وارفضاض المعجبين من حولها ورأت نفسها وحيدة منبوذة تتقاذفها اللجج وتلعب بها الأهواء عاودها الحنين إلى قريتها وأخذت تستعيد ذكريات حلوة عن ذلك الماضى البعيد عند ما كانت تنعم بحياة هادئة ساذجة فتمنت لو ترجع إلى قريتها وترتوى من مائها العذب وتتفيأ شجرة التوت ذات الأغصان الباسقة والظل المديد ، ولم تلبث أن أصبحت هذه التخيلات حقيقة واقعة فأعدت عدتها وارتدت ثوبها الأحمر القروى الذى احتفظت به كأثر محبوب وأسرعت تغذ السير إلى قريتها وموطن أسرتها

***

تراجعت الشمس بوجه أصفر حزين أمام كتائب الظلام ، واستترت وراء الأفق لتلم شعثها وتعيد الكرة والوثوب ، وتجمعت سحب كثيفة تنذر بعاصفة هوجاء فسربلت السماء بغشاء قاتم مهيب ، وأخذت الرياح تعصف بشدة ، وتملأ الفضاء بعويلها الرهيب ، وقد اختلط صوتها بعواء ذئاب عضها الجوع فخرجت من أوجارها . لتبحث عن فريسة تطفئ سغبها وتعلل بها صغارها . فى ذلك الحين كانت وطفاء قد عجزت عن مواصلة السير وبلغ الإعياء والجوع من جسدها ونفسها مبلغهما وقد رأت من بعد طلائع قريتها كما تبدو بارقة الأمل فى ظلام الحيرة الدامس فخرت على الأرض وجعلت تتراقص أمام عينيها خيالات براقة من صور الحداثة وتمر أمام بصرها المترجرج أطياف ترنو إليها بعطف وحنان ، ثم تغيب فى الأفق البعيد ، وجسم لها الخيال سرباً من الفتيات الحسان يضربن على الدفوف ويشدون الأغاريد. وقد عصبن رؤوسهن بعصائب زاهية مختلفة الألوان وحلين معاصمهن وأجيادهن بأساور وعقود تجتذب بسنائها العيون والأبصار . وتمنطقن بمناطق ذهبية ذات بريق ولألاء . وقد انبرت من بينهن فتاة ذات شعر أسود حالك وقوام لدن ممشوق فأخذت ترقص وتشدو بصوت عذب حنون ، أغرودة تطفح بالحزن وتفيض بالشجون ، حتى إن الرياح الثائرة كفت عن ثورتها وأنصتت بسكون إلى رقيق شجوه وعذب نغماته . وأطل القمر من خلال السجف يرنو بلحظه الساجى ويصيخ بسمعه إلى رقة كلماته وآهاته ، وتمايلت أغصان الشجر طرباً تتهامس عن سحر هذا الصوت وحلو نبراته . ثم لم تلبث تلك الأشباح الراقصة أن ارتفعت فى الفضاء شيئاً فشيئاً فينأى طيفها وتختفى بين طيات الغمام . وبينما كانت وطفاء بين الحلم واليقظة تتبع تلك الأشباح وتودعها بالنظر الباكى الحزين شعرت بهمهمة خافتة بالقرب منها فأغمضت عينيها واستسلمت إلى غيبوبة حلوة هانئة

وفى اليوم التالى حمل فتيات القرية سلالهن وقصدن المدينة القريبة فإذا بهن يلمحن بقايا جثة آدمية نهشتها الذئاب وتبعثرت أشلاؤها هنا وهناك ولم يسلم من عبث الضوارى الجائعة سوى ثوب أحمر ورأس جميل بشعره الأسود وعينيه الساجيتين . وقد افتر ثغره عن ابتسامة عذبة وتطلع بيأس وحنين إلى جهة ... القرية

« دمشق » نعيمة المغربى

عروس البحر

للكاتب الدانمركي " اندرسن "
بقلم الأديب كمال الحريري

. . . هناك . . . هناك فى عرض البحر المحيط كان الماء يحكى فى زرقته المشربة بالخضرة لون ورق الأعرج ، ويشبه فى صفائه وشفافته ذوب البلور . ولكنه كان بعيد الغور بحيث لا تبلغ قرارته مرساة مهما طالت . . . وهناك كان يسكن شعب الماء . . .

ويجب ألا يذهب بنا الظن ، مع ذلك ، إلى أن ليس هناك فى تلك المملكة المائية غير الرمال العارية البيضاء ! كلا . إنه لينبت فيها أشجار سحرية عجيبة ، ونباتات جدّ لينة ملساء لطيفة الجسّ ، حتى أنها لترتعش ككائنات حية لأدنى حسّة من حسات الماء ، أو لمسة من لمسات الموج ... ومن خلل هذه الأفنان ، وفجوات هذه الأغصان المائية ، كانت أنواع السمك صغيرها وكبيرها ، تحوم وتدور حول هذه الأشجار ، كما تحلق وترفرف عندنا عصافير الشجر وطيور الدوح سواء بسواء ...

فى غور المحيط كان يقوم قصر ملك الدأماء : جدرانه من نفيس الدر والمرجان ، وشبابيكه من عبق العنبر وشذى الند ، وسقفه من ثمين الصدف وغالى الدر . . . وكان السقف يغلق وينفتح حسب حركة الماء واتجاه الموج ...

ولقد كان يزين صدر كل صدفة أو محارة لؤلؤة كريمة أو مرجانة يتيمة ، تكفى واحدة منها لو ازدان بها تاج مملكة أرضية ، لأن تدر على خزائنها الذهب . . .

لقد ترمل ملك هذا القصر العجيب منذ زمن طويل ، وكانت أمه العجوز تدير شئون المنزل . وهى امرأة حكمة ورأى ، ليس عليها من مأخذ إلا تعصبها لعراقة أصلها ونبل محتدها الذى خولها من دون أفراد الأسرة جميعها أن تزين ذنبها السمكى باثنى عشر عقداً فريداً ، بينما بقية أفراد العائلة المالكة لا يزدان ذنبهم بغير عشرة عقود فقط . وفيما عدا هذا المأخذ وهذه الميزة كانت الأم العجوز من أعطف الأسرة على الأميرات الست بنات ابنها عرائس الماء الجميلات . لقد كن ستًّا ، ما منهن إلا حسناء فتانة ، ولكن الصغيرة منهن ، كانت أجملهن قداً وأشدهن سحراً وفتنة ، ذات بشرة ناعمة ناضرة كأنها ورقة وردة ، وعينين زرقاوين صافيتين تحكيان ماء بحيرة زرقاء عميقة ، إلا أنها كبقية أخواتها كانت لا تسعى على رجلين إنسانيتين ، إنما ينتهى جسمها بذنب سمكى

لقد كان هؤلاء العرائس الجميلات يمرحن ويلهون أكثر النهار فى باحة القصر ، حيث الجدر كانت تنبت أزاهير يانعة رائعة هى أبداً فى تموج وترجرج وكانت نوافذ القصر العنبرية الندية مفتوحة غالباً ، فكان السمك لا يفتأ يروح ويغدو من البحر إلى غرف القصر وأبهائه كما تلج وتخرج عندنا أسراب السنونو من الغرف حين نفتحها لهواء الربيع ، وكانت

صغار السمك تسبح بين أيدي الأميرات وتترك العرائس الست يداعبنهن دون خوف . ولقد أحيط قصر ملك البحر ببستان أنيق وسيع يانع الشجر رائع الزهر ذي أزاهير ملونة مبرقشة فيها الأحمر الأرجواني واللازوردي الداكن والأخضر الفاتح ومن خلال الشجر كان يلتمع الثمر كقناديل الذهب ويتوهج الورق مثل مشاعل مضيئة ذات ألوان وشيات مختلفات . أما الأرض فقد كانت مغطاة برمل أزرق أملس ناعم

كل شيء هناك في الأعماق كان غارقاً في أضواء زرقاء ساحرة عجيبة ، حتى ليظن أن المكان في الهواء الطلق ، من تحته سماء ومن فوقه سماء زرقاء أيضاً

وفي أوقات الصحو الجميلة ، كان يطل قرص الشمس على مملكة البحر فيظهر كزهرة كبيرة أرجوانية ، يتألق ويسطع حول كأسها أمواج من أضواء وأنوار

لقد كان لكل واحدة من عرائس البحر الست أميرات القصر مكان في بستان القصر الوسيع ، اختارته لنفسها تزرع فيه وفق ذوقها ورغبتها ، فاختارت واحدة منهن لقطعة أزاهيرها شكل حوت « البالين » ، وأحبت أخرى أن يكون شكل قطعة أزاهيرها يشبه عروساً من عرائس الماء . أما الأميرة عروس البحر الصغيرة فقد نسقت قطعة حديقتها وأزهارها مدورة على شكل قرص الشمس ولم ترصعها إلا بأزهار حمراء مشتعلة مثل الشمس

لقد كانت عروس الماء الصغيرة بنتاً غريبة الطبع ميالة إلى الهدوء والتفكير ، بينما بقية أخواتها كن يلهون ويلعبن بألعاب وأشياء متباينة يهديها البحر إليهن من غرقى المساكين . لم تكن هذه العروس الصغيرة لتلهو ، ما خلا أزهارها الحمراء التي تشبه قرص الشمس ، بغير تمثال مرمري أنيق سقط إليها من أعلى البحر وكان يمثل فتى جميلاً رائع الحسن

لم يكن أجلب لسرور الفتاة ولا أبعث لانشراحها من إصغائها لكلام من يحدثها عن سكان البر ، لهذا كانت جدتها مضطرة دائماً إلى أن تقص على مسامعها كل ما تعيه حافظتها عن السفائن الجواري والمدن العامرة ، وعما يعيش عليها من أناس وحيوان. ولقد كان أكثر ما يجتذبها من الأقاصيص أن يقص عليها أن هناك على اليابسة ، تكون الأزهار دوماً عبقة بالأرج شذية بالعطر ، بخلاف أزاهير البحر التي ليس لها عطر ، وأن هناك أيضاً تكون الغابات والأدواح في خضرة دائمة ، تتطاير عليها أجناس من الأسماك من خاصتها الغناء الطرب الشجي الذي يشعر المصغي إليه بلذة ونشوة ساحرة . ولقد كانت جدتها تسمى هذه العصافير عندنا أسماكاً كي تقرب صورتها إلى ذهن الأميرة عروس البحر الصغيرة ، لأنها لم تر في حياتها عصافير أو طيوراً قط . كانت الجدة تكرر على مسمع حفيدتها :

— إنك حين تبلغين الخامسة عشرة يا بنيتي ، سيكون لك الحق أن تعتلي سطح الماء وتصعدي إلى وجه البحر وتجلسي على صخوره الملس الناعمة وتبصري السفائن الكبيرة والدوارع العظيمة التي تخطر على سطحه في ضوء القمر . نعم وستنعمين حينذاك بمشاهدة المدن والأمصار والغابات والبساتين التي تتوقين لرؤيتها . كانت الأميرة البكر ستكمل سنيها الخمس عشرة بعد عام ، وكل من الأميرات الست تكبر أختها بسنة واحدة . وإذن فستمضي

على عروس الماء الصغيرة أصغر أخواتها خمس سنين حتى تستطيع بعدها الصعود إلى وجه البحر واكتشاف عجائب اليابسة. ولكنها أذن للأميرة البكر أن تصف لأخواتها ما جذب عينيها وسحر فؤادها من مشاهد ومرائي غريبة تشاهدها فى اليابسة لأول مرة من صعودها. وذلك أن الجدة لم تقل كل شيء لحفيداتها اللائي كن ينتظرن بنافد الصبر أن يعرفن كل شيء عن اليابسة ولم يكن أكثر ولوعاً بالمعرفة وتشوفاً للاطلاع من عروس الماء الصغيرة، ومع ذاك كانت نوبة سياحتها إلى الأعلى آخر أخواتها ...

وغالباً، حين يسدل ستار الظلام، كانت الصغيرة تظل مرتفقة قاعدة نافذتها المفتوحة، تتملى بمشاهدة لازورد الماء الداكن حيث الأسماك المختلفة الحجوم ما تنى عن الطواف والحومان، محركة أذنابها أو راقصة بزعانفها . . . كانت العروس الصغيرة تبصر القمر، والنجوم من خلل أطباق الماء مصفارّة كابية الوجه مطموسة الأثر، ولكنها كانت تلوح أكبر حجماً مما تبدو لأعيننا. وفى بعض الأحيان، كان يُخيل للفتاة، أن سحابة من السحب تحجبها عن عينيها، فتعلم حينذاك بأن صوت « البالين » يمر فوق رأسها، أو أن هناك على سطح البحر سفينة مشحونة بالأموال والرجال تمخر فى الدأماء أو تتصور أن هناك فى الأسفل منها، عروساً للماء صغيرة كانت تمد يديها البيضاوين إليها فى لهفة واشتياق.

وأخيراً أقبل اليوم الذى بلغت فيه الأميرة عروس البحر الكبرى أعوامها الخمسة عشر، والذى تستطيع بعده أن تصعد لسطح البحر. وفى عودتها كانت حافظتها تختزن لأخواتها ألف شيء ومشهد يستحق الذكر. ولكن كان أحب شيء إليها وأفتن مشهد لعينيها التمدد فى ضوء القمر على بساط الرمل الأبيض الناعم بجانب بحر هادىء صاف، ومشاهدة الساحل الواسع، وقد احتضن المدينة الكبرى التى كانت أضواؤها ومصابيحها تلمع فى حلك الليل كثات من النجوم الزواهر، ثم الإصغاء إلى عزف الموسيقى الشجى، ودوى العربات ولغط الجماهير، وأخيراً تأمل الأبراج الشماء والقباب الباذخة يتردد فى جنباتها قرع نواقيس الكنائس الشيدة . . .

كانت عروس الماء الصغيرة، تصغى لسرد مشاهدات أختها فى شغف، ومنذ ذلك لم تنقطع عن الجلوس إلى نافذتها المفتوحة على عجائب البحر ومناظره، ولم تفتر عن التفكر فى هذه المدينة العجيبة ذات الضوضاء المرتفعة والمصابيح المتوهجة التى لا تعد.

بعد مرور سنة جاء دور الأخت الثانية للصعود إلى سطح البحر والسياحة فيه حيث يطيب لها الانتقال ولقد صعدت إلى سطح الدأماء فى الوقت الذى كانت الشمس تميل للغروب ...

وحينئذ رأت من مشاهد الروعة والفتنة والنور مالم تره سابقاً فى حقيقة أو تتصوره فى وهم وخيال. كانت تقص على أخواتها :

لقد كانت السماء بأجمعها قطعة من ذهب، وقطع السحائب مموهة بألوان من الحمرة والبنفسج زاهية رائعة ليس فى الإمكان وصفها ولا تصورها. ولقد كان يحلق فوق رأسى ويرفرف، ولكن فى سرعة تفوق سرعة السحب المطرزة الغارقة فى ألوان الطيف، سرب من الإوز المائى كان يطير فوق الماء فى نفس

المكان الذى كانت تغوص فيه عروس النهار فى جوف البحر . لقد أردت أن أسبح صوب قرص الشمس الغريق ، ولكن الشمس توارت وتوارى بعدها كل ما فى السحب من ألوان زاهية متموجة وما على سطح البحر من أطياف ملتهبة متوهجة

بعد سنة جاء دور الأميرة الثالثة للصعود إلى سطح البحر . وبما أنها كانت شجاعة القلب جسورة فقد امتطت غارب تيار نهر كبير يصب فى البحر . وهناك أبصرت آكاماً ممرعة بعاطر النبت ، وتلاعاً مستورة بناضج الأعناب . فوقفت تصغى لغناء الطير وترجيع العصافير ، ولكن أشعة الشمس كانت من التضرم وشدة الحرارة بحيث كان عليها كل فترة أن تغوص فى الماء كى تبرد من لافح حرها وجهها الحران . ولقد شاهدت فى حمام بحرى على الساحل طائفة من صغار الأطفال ينغمرون فى الماء ، فأحبت أن تلهو معهم وتشترك وإياهم فى اللعب والسباحة ، لولا أنهم فزعوا منها ولاذوا بالفرار . وحينئذ أقبل حيوان أسود اللون ــ وكان كلباً لم تعرفه وتبصر مثله عروس الماء فى حياتها ــ أخذ يصيح وراءها صياحاً شديداً مزعجاً حتى أخافها وألجأها إلى الاحتماء فى أعراف الموج .

لم يكن عند عروس الماء الرابعة شجاعة كافية لهذا ظلت فى وسط البحار المنعزلة عن الناس فقصت على أخواتها أن المناظر هناك كانت أيضاً أروع وأبدع

وأزف اليوم الذى تستطيع فيه الأميرة الخامسة من عرائس البحر أن تصعد إلى وجهه ، وبما أنها ولدت فى قر الشتاء لهذا كانت شهيدة لمناظر أخرى. كان سطح البحر الوسيع غارقاً فى خضرة لازوردية زاهية ، و فى كل جهة ؛ كانت تطفو وتتراقص أمواج هائلة كالجبال فى لون اللؤلؤ اللماع وبريق الماس الوضاء ، على أشكال مختلفة جبارة الحجم ، فى حين أن قطائع السفن والمراكب كانت تفر منها وتتجنبها هولاً وفزعاً

ظلت عروس الماء متربعة على إحداها تداعب خصائل شعورها الطويلة المغدودنة نسائم البحر . وفى المساء تغطى أديم السماء بقطع السحب السود ، وأخذ البرق يلتمع والرعد يقصف من آفاق السماء ، وارتدت الأجواء والسماء والدأماء طيلساناً أسود مهيباً من الظلمة ، فريعت السفائن والمراكب وطوت شرعها ولجأت إلى الساحل ، إلا عروس الماء فقد لبثت هادئة على ظهر البحر تنظر فى اطمئنان وثبات جأش إلى زمجرة الأواذى وقصف الرعد وثورة الطبيعة

وفى الغالب كان عرائس البحر يأخذ بعضهن فى المساء أيدى بعض ويخرجن معاً إلى وجه البحر . لقد كان لهن صوت شجى حنون أشجى وأطرب من الأصوات التى تطلقها حناجرنا على الأرض

وحينما تزأر عواصف البحر وتصطخب أمواجه الهوج فتضطر السفائن إلى الإخلاد إلى موانيها ، كان العرائس الخمس يحمن حول السفائن ويسبحن تجاهها متغنيات بأصواتهن الحلوة الموسيقية على جمال وفتنة هوى البحر وحفره وأغواره ودواماته ، داعيات الملاحين إلى النزول إليها دون خوف . ولكن الملاحين لم يكونوا يفقهون لهذه الأرانيم معنى لأنهم كانوا يظنونها عويل الرياح أو زمجرة العاصفة

حين كان العرائس الخمس يصعدن هكذا إلى وجه البحر كل واحدة يدها بيد أختها كانت أختهن

عروس الماء الصغيرة تظل وحدها تتبعهن نظراً حزيناً متوسلاً مشوقاً وتكاد تتفجر من مآقيها دموع الحزن لولا أن نعمة تذراف الدموع كانت من النعم المحرومة إياها منها عرائس البحر وذلك ما كان يزيد نار حزنهن اضطراماً . لقد كانت تناجي نفسها في أسى ولوعة :

— أوه ! متى أبلغ الخامسة عشرة من عمرى !

إنى لأحس أني سأعشق العالم الأرضى وسأهيم بمن يسكنه من الرجال ...

وأخيراً ... بلغت أعوامها الخمسة عشر . فقالت لها جدتها :

— حسن ، ها أنت ذى حرة طليقة فتعالى أجمّلك وأزينك كما فعلت بأخواتك . . . وفعلاً وضعت على رأسها إكليلاً من زنبق اللؤلؤ كل ورقة منه كانت نصف لؤلؤة مكنونة ، ثم ناطت بذنبها المياس ثمانى أصداف لؤلؤية ومرجانية رمزاً لعراقة أصلها . وقالت عروس الماء الصغيرة لجدتها :

— إلى الملتقى . ثم عرجت إلى سطح البحر في خفة فقاعة الصابون . كانت الشمس على وشك الغروب حين أبرزت العروس الصغيرة رأسها من غمر الماء . ولكن السحب كانت مغمورة بلون الورد والذهب . وفى وسط سماء باهتة كانت نجمة المساء تلتمع فى أبهة وروعة . وقريباً منها شاهدت عروس الماء سفينة كبيرة تتأرجح على أعراف الموج وقد استراح الملاحون عليها يصغون لعزف الموسيقى ولحن النشيد اللذين أخذا يترددان من أطرافها . ولما كان الليل قد بسط جناحه فقد أضيئت فى السفينة مئات من المشاعل مختلفة الألوان والحجوم حتى لكنت تحسبها جميع أعلام دول الأرض ترفرف فى الهواء

سبحت عروس الماء الصغيرة حتى حدود نوافذ «صالون»[1] السفينة وفى كل مرة ترفعها فيها موجة كانت تتبصر إلى الصالون من خلال زجاج النافذة الشفاف فتشاهد جماعة من الرجال فى هيئة الزينة وتحضير « التواليت[2] »

وكان أول من استرعى اهتمامها فتى رائع الحسن مليح الوجه أسود العينين فى السابعة عشرة من سنيه . ولقد كان هذا اليوم ذكرى يوم ميلاده ، لهذا فإن رهط المجتمعين كان محتفلاً والحفلة مقامة لعيد ميلاده . وكان حين يظهر شخص الفتى بين الجمع ، تطلق تحفياً به مئات من السهام النارية فى الفضاء فتضيئه وتجعله كأنه فى وضح النهار . لقد ذعرت عروس الماء أولاً لهذا النور الوهاج فغطست رأسها فى الماء ؛ ولكنها ظهرت ثانية ، نخيل لها حينئذ بأن جميع شهب السماء ونجوم الفلك تتساقط وتتهاوى على البحر . أبداً لم تبصر عيناها شبيهاً لهذه الأضواء الساطعة الباهرة ، ولا مثيلاً لهاتيك الشموس المتوهجة الدائرة ، ولا نظيراً لتلك الأسماك النارية الخطارة التى جعلت عنان السماء الزرقاء مسبحاً لها وبحراً ، كل هذه المشاهد الألقة الوهاجة كانت تنعكس على صفحة البحر وتتكرر على أديمه آلافاً من الأشعة والأضواء . آه لشد ما كان منظر الأمير الفتى رائعاً جذاباً . إنه ليسلم على كل شخص ويحييه بينما ألحان الموسيقى الشجية تملأ أذن الليل .

وتقدم الليل وعروس الماء الصغيرة لم تستطع

---

(١) ، (٢) ليعذرنا القارئ فى استعمال هاتين الكلمتين وإن كبر الأمر على مجمعنا اللغوى الملكى .

أن تنتزع نظراتها من السفينة الجذابة ولا من الأمير الجميل . على أن المصابيح اللألاءة قد انطفأت أنوارها والسهام النارية الوهاجة انقطع طعنها أديم السماء . ولكن ما زال يتردد الآن فى أعماق البحر وعلى حواشيه زمجرة الأمواج وصخب اللجج . لقد امتطت عروس الماء الصغيرة صدور الأمواج وراحت تتأرجح عليها ، بصورة كانت تستطيع معها من حين لآخر أن تلقى نظرة من نوافذ السفينة وكواها على من فيها من الركاب . ولكن لجأة أخذت قطع جسيمة من السحب تتراكض فى ميدان السماء ، بينما سنا البرق بدأ يلتمع ويومض فى حاشية الأفق البعيد . ثم تضخمت الأمواج وعلت كالجبال منذرة بهبوب العاصفة العاتية . وراح اللاحون يطوون الشرع المنصوبة وتتذاك ويخففونها ولكن السفينة كانت تدور كالدوامة بسرعة هائلة وسط هذا البحر اللجى المزبد واللجج تعلو وتعلو كأنها جبال هائلة سود تريد أن تسحق السفينة إلا أن السفينة اللدنة الميساء ، كانت تغوص فى بطون الأثباج ، كى تعود وترتقى بعد لحظة قمم الأمواج العالية . ولقد وجدت عروس الماء الصغيرة فى ارتكاض السفينة وتأرجحها فى أحضان الموج منظراً مسلياً جذاباً ، ولم يكن ذلك رأى اللاحين المذعورين . فلقد كانت السفينة تعول وتئن لأن أخشابها الرقيقة كانت هدفاً لصدمات الأمواج الطاغية المنيفة التى كانت تحدق بها من كل مكان . وأخيراً تكسرت ساريتها الكبيرة مثل جذع شجرة خاوية هرمة ، ثم مالت السفينة من جهة بينما أخذ الماء يستولى عليها وتتدفق لججه إليها من كل مكان . حينئذ فقط شعرت عروس البحر بالخطر وأدركت هوله . فلقد كان عليها هى نفسها أن تتجنب الاصطدام بقطع السفينة المحطمة وأخشابها المتكسرة العائمة . ثم هبط الليل فأصبحت الظلمة من الكثافة بحيث لم تعد تبصر شيئاً . اللهم إلا ما يلتمع من حين لآخر من سنا البرق فيظهر الفتاة على ما يحدث هناك فى الشاطئ . وقبل كل شىء بدا لها أن تفتش عن الأمير الفتى الجميل . فأبصرته فى نفس الوقت الذى انشقت فيه السفينة إلى شطرين وهوت فى أعماق البحر . لقد كانت جد مرتاحة مسرورة حين خطر لها أن الأمير الجميل سوف ينزل إليها فى موطنها البحرى ، ولكنها سرعان ما ذكرت أن جنس البشر الأرضى لا يقدر على العيش داخل الماء . وإذن فلا بد أن يصل إلى قصر أبيها فى أعماق البحر ميتاً ! أوه ، ولكن لا ، إنها لا تريد أن يموت أو يمسه سوء . وهكذا تناست فجأة كل خطر كان يحيط بها بسبب الاصطدام بقطع السفينة العائمة ، فقذفت بنفسها إلى البحر سابحة بين بقايا السفينة وأخشابها . . . وأخيراً لحقت بالأمير المليح ، فإذا هو هامد فاقد لشعوره لا مقاومة فيه ولا حراك . كانت يداه ورجلاه كقطع من جليد ، وعيناه مغمضتين غمضة الموت ، ولقد كان على وشك الهلاك لو لم تداركه عروس الماء الصغيرة التى أسندت رأسه إلى صدرها الناهد ، تاركة جسمها يعوم على هوى الأمواج .

وفى الصباح هدأت ثورة العاصفة ، ولكن لم يبق من السفينة الغريقة أى أثر أو دليل . ثم ظهرت الشمس وراء البحر حمراء وهاجة ، وكأنها بحرارتها قد أعادت الحياة والدماء إلى خدى الأمير الجميل ! ولكن عينيه ظلتا مغمضتين . قبلت عروس البحر الصغيرة جبينه الوضاء ، ورتبت شعره الأثيث

الكستنائي . وحينئذ بدا لها أنه يشبه كل الشبه التمثال المرمري الذي أقامته هناك في حديقة أبيها وأولعت به الولوع كله، فقبلت الأمير ثانية ، وودت من كل قلبها لو أفاق من غشيته .

وألقت نظرة على ما حولها ، فإذا بها تشاهد البر فسيحاً رائعاً ، وجبالاً شماء زرقاء مستورة القمم بتيجان الثلج الملتمع الأبيض ؛ وعلى طول الساحل تمتد غابة كثيفة لفاء يبدو بجانبها بناية ضخمة . لم تدر أهي كنيسة أو دير ! ولقد كان يحتاط هذه الكنيسة حديقة غناء شجراء من شجر الليمون والبرتقال ، وأمام بابها تنتصب شجرة من النخيل . ولقد كان البحر ينتهي هناك بخليج هادىء عميق ، تحتاطه حصى لماعة جميلة ورمال ناعمة صفراء بهيجة . فسبحت عروس الماء إلى ذلك الخليج حاملة على صدرها الأمير الجميل المغشى عليه . ثم أنامته على الرمل الأملس واضعة رأسه أعلى من جسمه ، ومديرة وجهه صوب الشمس . وأخذت نواقيس الكنيسة الكبرى البيضاء تتجاوب أرانينها في الفضاء ، فبرز في حديقة الكنيسة سرب من غيد حسان ، وحين مشاهدتهن توارت عروسنا الصغيرة خلف صخرة بارزة هناك ، وقد سترت صدرها ورأسها بزبد البحر كيلا يبصرها أحد . ومن مخبئها راحت ترقب الكواعب الحسان ، وفجأة اقتربت منهن فتاة من الأمير النائم ، فبدا على وجهها الذعر أولاً ، ولكن خوفها لم يلبث طويلاً ، فقد نادت رفيقاتها إليها ، وعندئذ رأت عروس الماء أن الأمير قد أفاق من غشيته وراح يبتسم في سرور إلى من التف حوله من الفتيات . ولكن لم يجد على العروس الصغيرة بابتسامة واحدة . . . إنه ليجهل أنها هي التي أنقذت حياته من الغرق . عند هذا شعرت عروس البحر بالأسى يرمض حشاها ، ونار الغيرة تكوى أضالعها ... وحين حملنه إلى الكنيسة الكبرى ، انغمرت عروس الماء في أعماق البحر جد مبتئسة حزينة ، وأخذت طريقها إلى قصر أبيها

لقد كان من عادتها السهوم والتفكير والجد في تصرفاتها . أما الآن فقد تضاعفت هذه الخصال فيها ، وأخذ أخواتها يسألنها عما شاهدته فوق البحر ، ولكنها لم تقص عليهن شيئاً

كانت تصعد في الصباح إلى المكان الذي تركت عنده أميرها الجميل الغائب . فكانت تشاهد نضوج فاكهة البستان وقطافها ، ثم تبصر ذوبان الثلوج وانحدارها إلى بطون الأودية . ولكن الأمير الجميل حبيبها الفاتن لم تره أبداً ويا للأسف . فلا تعود في كل مرة إلا وقد تضاعف أساها وتزايد شجاها . فتكون سلوتها عند أحزانها أن تظل في بستان قصرها العجيب الرائع ، جالسة بجانب التمثال المرمري ، تحيطه بذراعيها وتلثم بشفتيها جسمه الذي يشبه الأمير الحبيب كل الشبه

وفي النهاية لم تستطع أن تحتفظ بسرها ، فأنهته إلى واحدة من أخواتها ، وهذه بطبيعة الحال أطلعت عليه أخواتها الأربع . إلا أنها أخذت عليهن موثقاً أن يكتمنه عن جميع عرائس البحر . فكتم السر فعلاً ، إلا عن عروسين من خلص الصديقات ، كانت واحدة منهن تعرف الأمير ورأته سابقاً على السفينة ، ثم إنها كانت تعلم في أي مملكة من الأرض يقيم

قال الأميرات الأخوات لأختهن عروس البحر الصغيرة :

تعالى معنا يا أختاه . ثم عقدت كل واحدة منهن يدها فى يد أختها وصعدت إلى وجه البحر كشريط من « الريبان » تماماً أمام قصر الأمير . والآن قد عرفت عروس المـاء الصغيرة منزل الأمير ، فقد كانت تتردد دائماً إليه في الصباح وفى المساء ، وتتقدم بجرأة المستهام إلى أمكنة أبعد مما وصلت إليها أخواتها بل إنها تشجعت مرة فامتطت القناة الصغيرة ، حتى بلغت أسفل الشرفة المرمرية البيضاء التى كانت تلق على سطح البحر ظلها الطويل . وهناك لبثت تحت ضوء القمر تتأمل الأمير وقد ظن نفسه وحيداً ...

كانت تراه غالباً يتنزه فى الماء على ظهر زورق خفيف ، فكانت ترقبه وقت ذاك من خلال العواسج والقصب البحرى .

ومرات عديدة حينما ينسدل ستار الليل ويسهر الصيادون على غوارب مراكبهم يصطلون النار ، كانت عروس البحر الصغيرة تسمعهم يقولون مئات من الأحاديث الجميلة عن الأمير الفتى ، فكانت تسر وتزهى حين تفكر في أنها هى وحدها التى نجت حياته حين كانت تتقاذفه اللجج . وتذكر أيضاً كيف أسندت رأسه الجميل إلى صدرها المشوق وطبعت على جبينه قبلة مشتعلة ... ولـكنه هو لا يدرى من هذا شيئاً ، حتى إنه لا يستطيع أيضاً أن يفكر فى وجودها

وراحت عروس البحر شيئاً فشيئاً تهيم بعالم اليابسة ورجاله وتود وتتمنى أن تندمج بأهله . لقد كان يخيل إليها أنه أكبر من عالمها ما دام يُستطاع المخور فى عباب البحر على ظهر السفائن والارتقاء إلى قمم جباله الشم التى تطعن فى صدور الغيوم كما يُستطاع الإطلالُ من هناك على بلاد عجيبة وغابات شجراء لفـاء وحقول وسيمة منبسطة .

إن فى نفس عروس البحر عدة أشياء تتوق إلى الاستعلام عنها ، ولـكن أخواتها ما كن يعلمن كل شىء . وحينئذ كانت تسأل جدتها التى كانت قد خبرت الشىء الـكثير عن العالم « العلوى » كما كانت تطلق على الدنيا التى توجد فوق الماء . وكثيراً ما كانت العروس الصغيرة تسأل جدتها :

— حينما لا يموت الناس غرقاً أيحيون دائماً أم أنهم يموتون كما نموت نحن ساكنى البحر ؟ فكانت جدتها تجيبها :

— إن الموت شىء لا مفر منه أيضاً عندهم ، ثم إن حياتهم أقصر من حياتنا إذ بإمكاننا أن نعمر ثلاثمائة سنة . ولـكن حين ينتهى أجلنا لا نتحول مع الأسف إلى أكثر من رُغاء من الزبد يطفو على وجه البحر ، وليس لنا قبر يضم جسدنا بجوار من أحببناهم كثيراً فى حياتنا ، ولا روح خالدة لنا لأنه لن يكون لنا معاد ولا حياة ثانية ، فمثلنا كمثل هذا القصب البحرى والعواسج التى إن قُطع شىء منها فلن يعود . أما الرجال هناك فعلى العكس منا ، إنهم يملـكون أرواحاً خالدة باقية تنبعث ثانية حين يصبح جسدها رمياً فتمرج حينذاك إلى السماء المضيئة وتعيش سعيدة بين جماعات النجوم اللوامع . قالت عروس الماء وقد أثر فيها حديث جدتها :

— آه . لم كنا نحن عرائس الماء لا نملك أرواحاً خالدة لا تفنى ؟ إنى لأتنازل راضية عن الثلاثمائة السنة التى سأعيشها كى أنعم يوماً واحداً بين هذه المخلوقات البشرية ، وكى أنال حظي من الخلود بعد ذلك فى عليا السموات . فأجابتها جدتها :

— لا تفكرى فى أمثال هذه الخواطر يا صغيرتى إننا هنا أكثر سعادة وأرغد عيشاً منهم هناك

— ومع كل هــذا سيكون نصيبي الموت والتلاشي يوماً ما حين أغدو قطعة من الزبد تطفو على البحر دون أن تستطيع سماع موسيقى الأمواج ولا رؤية الأزاهير الأرجة الجميــلة ، ولا مشاهدة الشمس الساطعة . آه يا جدتي العزيزة، ألا أستطيع عمل شيء في سبيل الحصول على روح خالدة ؟ فقالت لها جدتها :

كلا يا صغيرتي ، إلا أن يتدلّه بحبك رجل من هناك ، فتصبحي أعز عليه من أمه وأغلى من أبيه . فإذا اختص بك وتعلق بحسنك قلبه وفكره ، وإذا ذهب هو بنفسه إلى الـكنيسة عاقداً يده بيدك كما يحلف أمام الراهب يمين الإخلاص والمحبة الأبدية لك، حينئذ فقط تمزج روحه الباقيــة بروحك الفانية فتنالين قسطاً من سعادة خلود الروح . ولكن هذا يا بنيتي لن يتأتى لك بحال ، لأن ذنبنا الذى نعتبره نحن هنا فى البحر من أثمن الحلى وأبدع الزينة الطبيعية يجدونه هناك مشوهاً للجمال وقذى فى العين؛ وكى تروقيهم وتعجبيهم ، ينبغى لك أن تستبدلى بذنبك أوصالاً يدعونها رجلين . فتأوهت الفتاة فى التياع وهى تنظر أسوانة إلى ذنبها السمكى . فقالت الجدة :

— ومع ذلك لم الحزن والتشكى ؟ إننا جد سعداء ما دام أمامنا ثلاثمائة عام من الحياة وهذا يكفى

وبعــد أيام أخذت عروس الماء تفكر فى العالم العلوى . لم تكن تستطيع أن تنسي وجه الأمير الجميل ولا أن تطرد من ذهنها أسى حرمانها الروح الخالدة مثل روحه . لهذا خرجت من لدن جدتها ذات يوم ، وتوجهت إلى بستانها الصغير . وما كادت تبلغه وتطل من نافذته حتى طرق مسامعها دوى أبواق صيد . وعندئذ فكرت

— لا ريب أنه هو الأمير الذى يمر الآن فوق بأبواق صيده وعدة قنصه ... هو الذى أعزه وأحبه أكثر من أبي وأمى ، هو الذى تتوجه صوبه جميع أفكارى وهواجسى وبه وحده أعلق حبي وقلبي . إنى لأخاطر بكل شيء عزيز فى سبيل إحرازه وفى نفس الوقت إحراز الروح الخالدة . سأذهب إلى عرّافة البحر بينما أخواتى يرقصن ويهزجن فى القصر نعم إنها طالما أفزعتنى ، ولـكنها ربما تقدر على أن توليني نصيحة أو مساعدة . وحينئذ انطلقت عروس الماء الصغيرة من بستانها الأنيق متوجهة جهة الدوار البحرى الهائل الذى تسكن خلفه العرافة . أبداً لم تطرق قدماها هذا الطريق المرعب ، فليس هناك زهور ولا حشائش بحرية . إنما هناك الرمل العارى الذى يمتد حتى الدوار البحرى الذى يرغى فيه الماء ويفور ويصخب ويثور كأنما هو منقذف من فوهة طاحون هائل جارفاً إلى الأعماق كل ما يقع تحت متناوله من عرائس وأسماك ، ولم يكن لعروس البحر الصغيرة مندوحة ، كى تصل إلى منزل العرافة من عبور هذا الدوار الهائل ثم المشى طويلاً خلال مسافة واسعة من الزبد الفائر الجارف الذى يحدثه هذا الدوار ، وإلى الوراء فى وسط غابة غريبة بحرية كان يوجد منزل العرافة . لقد كانت كل أشجار الغابة وجميع أدواحها مؤلفة من أخطبوطات بحرية وهى كائنات حيوانية نباتية تشبه أفاعى ذات مائة رأس تنبت من الأرض ، وأما أغصان هذه الأشجار فكانت فى هيئة أذرع جبارة طويلة لزجة ذات أصابع طويلة ملساء كالبلور ، ومن جذور ، حتى قمم هذه الأشجار الهائلة كان كل مفصل منها ومقطع فى حركة وارتجاج. لقد كانت تزدرد كل شيء يوقعه سوء حظه

بين أطرافها الجبارة . وحينئذ تلتف حوله ولا تدعه أبداً . لم تستطع عروس البحر الصغيرة أن تتقدم أكثر مما تقدمت . فلقد كان قلبها يخفق رعباً وفزعاً وهمت بالعودة لولا أنها أعادت الفكر فى الأمير الجميل وفى الروح الباقية فتشجعت . ربطت حول رأسها غدائرها الطويلة كيلا تستطيع الأخطبوطات أن تتلقفها وتتشبث بها ، ثم عقدت يديها على صدرها وقذفت بنفسها إلى ما بين الأخطبوطات فانزلقت على الماء كما تنزلق سمكة رشيقة، وعبثاً حاولت الأخطبوطات وقفها أو جذبها إليها بأرجلها الكريهة المرنة اللدنة

وبلغت أخيراً بقعة واسعة لزجة زلقة ، حيث شاهدت أفاعى بحرية جبارة تتحوى وتتلوى على ظهورها وبطونها الكريهة الصفراء المبرقشة . وفى وسط هذه البقعة ، كان يوجد بيت مشيد بعظام وهيا كل وجثث الغرقى فى البحر . ولقد كان هذا هو بيت العرافة الساحرة . لقد كانت هذه العرافة تطعم من فمها الكريه الواسع ضفدعاً بحرياً بشعاً كما كانت أيضاً تدعو الثعابين والأفاعى الهائلة بلفظ « أفراخى » سامحة لها بأن تلتف وتتجمع على صدرها . قالت العرافة حين أبصرت الفتاة :

— إنى أعلم جيداً ما ترغبين منى ، ومع علمى بأن ما تريدينه ضرب من الحماقة ، أوافق عليه . إنك تريدين أن تعتاضي من ذنبك أطرافاً كأطراف البشر ، كى يتدله بك الأمير ، فتتمكنى من الحصول على روح خالدة . وفى أثناء تكلم العرافة هكذا ، كانت تنطلق من شدقها ضحكة هائلة مرعبة سقطت لاهتزازها على الأرض الثعابين والضفادع الواحد بجانب الآخر . ثم استأنفت الساحرة قولها :

— لقد جئت فى وقت ملائم لأنه لو طلعت عليك شمس الغد لما استطعت أن أساعدك حتى مرور سنة على الأقل ... لسوف أركب لك شراباً تحملينه إلى الأرض قبل انبلاج الفجر ، وسوف تجلسين على الشاطئ وتتجرعينه هناك . وحينئذ يسقط عنك ذنبك السمكى وينقلب إلى ما يسميه الرجال هناك رجلين جميلتين . ولكن هذا سوف تتحملين فى سبيله صنوفاً من الأوجاع ، حتى لتظنين نفسك من الألم قد تشطرين شطرين بسيف قاطع . ولكن سوف يعلن كل من يراك أنك أجمل وأفتن مخلوقة وقعت عليها عينه . ثم إنك سوف تحافظين على مشيتك المتموجة المتأودة التى ستحسدك عليها أرشق الراقصات هناك، وكل خطوة تخطينها ستؤلمك كما يؤلمك المشى على سكاكين مرهفة . إنك إن ترضى بكل هذه الاختبارات والآلام ، أساعدك كما تشائين . فأجابت العروس الصغيرة بصوت مرتجف وهى تفكر فى لقيا الأمير ونشوة الحصول على روح خالدة :

— رضيت

قالت العرافة :

— واذكرى أيضاً أنك منذ الحين الذى تتشكلين فيه بشكل فتاة بشرية لن تستطيعى أبداً أن تعودى عروساً للماء ، ولا أن تنزلى إلى أعماق الماء بين أخواتك وأهلك فتبصرى قصر أبيك . ولئن لم تكتسبى محبة الأمير وتشغفيه حباً لدرجة أن ينسى لأجلك أباه وأمه ويرتبط معك روحاً وجسداً كما يرتبط الأزواج المحبون المتيمون بعضهم ببعض ، إن لم تحصلى على هذا فثقى أنك لن تحرزى أبداً روحاً خالدة . أما إذا تزوج الأمير واحدة من جنسه ولم يحفل بك فسوف تتحطمين

وتنقلبين إلى رُغاء طائش من الزبد على البحر

فقالت عروس البحر الصغيرة وقد امتقع وجهها امتقاع وجوه الموتى :

— إنى لأرضى بكل ما ذكرت

قالت العرافة :

— وإذن فيلزم أن تدفعى لى شيئاً . وما أطلبه سوف يكلفك غالياً وعزيزاً . إنك لتنعمين بصوت ساحر شجى ما سمعتْ بمثل عذوبته ورنينه أذن عروس بحر . وبه تستطيعين بسهولة أسر قلب الأمير . وعلى هذا فستمنحيننى إياه لأنى أودُّ أن أحوز أحسن ماعندك من مِنح إلهية ، فى مقابل الشراب الذى سأصنعه لك والذى سأمزج فى تركيبه شيئاً من خالص دمى كى يزداد فعله .

قالت عروس البحر الصغيرة :

— ولكن إذا سلبتنى صوتى البديع فماذا يبقى لى بعد ذاك ؟

قالت الساحرة :

— قدك الأهيف ومشيتك الراقصة المتموجة ثم عيناك الساحرتان الناعستان . وذلك كاف لأن يَسبى قلب الأمير . ولكن ماذا ؟ أراك تفقدين شجاعتك ؟ هيا مدى لسانك كى أستلّه ثمن تحضير شرابك السحرى

قالت عروس البحر الصغيرة :

— ليكن ما تشائين

فوضعت العرافة قدراً على النار لإنضاج هذا الشراب العجيب ، ثم قالت :

— إن النظافة تجب فى مثل هذه الأشربة .

قالت هذا وطفقت تدلك القدر بثعبان هائل عقدته على يديها كحزمة أو مسّاحة . ثم إنها حفرت فى صدرها ثغرة راح يندفق منها دمها غزيزاً فى القدر ؛ فأخذ الدخان المتصاعد من القدر أشكالاً وتهاويل سحرية . . . ولم تكن تغفل العرافة لحظة عن إلقاء عقّار جديد أو دواء غريب فى القدر . وحين بلغ المركب الجهنمى درجة الغليان ، راحت تنبعث لنشيشه زمجرات كزمجرات التماسيح ... وأخيراً أصبح الشراب مضيئاً شفافاً كالماء ، قالت العرافة :

هاك هو ... ثم ... ثم اجتثت لسان عروس البحر الصغيرة التى أصبحت بعد ذلك لا تستطيع نطق حرف ولا ترجيع لحن . ثم قالت العرافة :

— إذا حاولت الأخطبوطات أن تتعلق بك وتقبض عليك حين اجتيازك الغابة المخيفة ، فما عليك إلا أن تلقى عليها قطرة من هذا الشراب ، فإذا أرجلها وأيديها تتمزق وتتطاير فى عرض البحر ...

لكن لم تكن عروس البحر محتاجة إلى شىء من هذا ، لأن الأخطبوطات الهائلة تقهقرت مذعورة حين أبصرت هذا الشراب الساحر الذى كان يلتمع ويضىء فى يد عروس الماء كما يضىء البدر فى غيهب الليل . . . وهكذا عبرت عروس البحر فى رشاقة الغابة فالمستنقع الوبئ فالدوّار المزبد الهائل ...

ولاح لها بعد ذلك قصر أبيها وقد انطفأت أنواره وغرق كل من فيه فى بحر من نوم عميق . ولما لم تستطع وهى خرساء أن تلجه ، اكتفت وقلبها يكاد يتصدع ألماً وهى تغادر قصر أبيها إلى الأبد أن ترسل من يديها قبلاً مشوقة حارة إلى كل واحدة من أخواتها ، ثم رقت إلى سطح البحر الأزرق الداكن

لم تكن الشمس أشرقت بعدُ حين شاهدت

قصر الأمير وجازت سلالمه المرمرية بجانب البحر تحت ضوء القمر . هناك تجرعت الدواء المرعب الكريه فدارت بها الأرض ، وأحست كأن جسمها الرقيق ينشطر بسيف ماض إلى شطرين ، ثم أخذتها غاشية الألم فغابت عن الوجود ... وحين بدت تباشير الصبح تنبهت من إغمائها شاعرة بآلام لا توصف ، فإذا الأمير منتصب أمامها يرمقها بعينيه الحوراوين الساحرتين . وأغضت الفتاة حياء فإذا بها ترى نفسها بغير ذنب وإذا مكان الذنب ساقان بيضاوان غضتان ناعمتان تتمناهما لنفسها كل فتاة . . . وحين شاهدت نفسها عارية أمامه لا يستر جسمها الفاتن غلالة أسبلت على قدها المياس غدائرها الطويلة الغزيرة....

وسألها الأمير : من هي ؟ وكيف جاءت إلى هذا المكان ؟ فأثبتت فيه نظرات من عينين زرقاوين فاتنتين هادئتين ولم تحر جواباً لأنها كانت خرساء . فتناول الأمير يدها وقادها إلى قصره كما تكهنت سابقاً بذلك العرافة . وفى الطريق كانت عروس الماء تحس كل خطوة تخطوها كأنها تدوس على سكاكين ونصال حادة ولكنها كانت تتحمل هذه الأوجاع فى استسلام وجلد . ولما بلغت مع الأمير القصر كانت تمشى إلى جانبه فى رشاقة فقاعة الصابون . فأعجب هو وكل من فى القصر لهذه المشية الراقصة المتموجة

وألبست عروسُ الماء الصغيرة ثوباً قشيباً من الحرير فبدت فى أبهاء القصر أجمل وأفتن غادة فيه لولا أنها كانت خرساء لا تستطيع نطقاً ولا غناء .

وذات ليلة ، تقدمت جوقة من مغنيات قصر الأمير ، فتغنين أمامه أعذب ما يكون الغناء . وتفوقت واحدة منهن على زميلاتها فيه ، فصفق لها الأمير وهتف باسمها وابتسم فى وجهها . وحينئذ بدا حزن صامت مؤلم على عروس البحر ، حين ذكرت أنها لو كانت تملك حنجرتها الشجية الآن لأزرتْ بكل المغنيات وأخجلتهن بحنو صوتها . بعد ذلك أخذن المغنيات ، فى رقصات رشيقات مثيرات ترافقها نغمات شجيات من الموسيقى . وعند هذا لم تملك عروس الماء نفسها ، فانخرطت فى سلكهن وحملت جسمها على أطراف أصابعها الدقيقة ، ثم انزلقت على بلاط القاعة ترقص رقصات لم ترقص مثلها راقصة . وكانت كل حركة منها ولفتة تبرز تقاسيم ساقيها الجميلتين ، بينما عيناها توحيان إلى القلوب من المعانى الصامتة ما لا تفصح عنه لغة الغناء . كل من حضر هذه الحفلة ملكته الدهشة وأسره الإعجاب برقصاتها المدهشة المتأودة ، خصوصاً الأمير . ولقد استمرت عروس البحر الصغيرة فى دورات رقصاتها رغم أن كل خطوة أو لفتة كانت تسبب لها آلاماً لا تطاق ...

وأذن لها الأمير أن تظل دائماً بقربه وسمح لها أن ترقد بجانب باب غرفة نومه على وسادة الديباج والمخمل . ولكن ذكرى أخواتها وقصرها البحرى العجيب ، ما كانت تبارح ذهنها . ففى ذات ليلة ، ظهر أخواتها عرائس البحر على وجه الدأماء ، وهن متعاقدات الأيدى وسابحات يرددن نشيداً مؤلماً مشجياً . فنادتهن عروس البحر الصغيرة بكلمات لا تبين ، وكانت إذ ذاك واقفة فى شرفة قصر الأمير وعرفنها أخواتها بعد جهد ، فرحن يحدثنها ويبثثنها لوعة النوى وجوى الفرقة ...

ومن ذلك الحين كن يترددن إلى أمام شرفة قصر الأمير فى أكثر الليالى، وذات مرة شاهدت عروس الماء جدتها العجوز التى لم تصعد منذ سنين إلى سطح البحر . وفى مرة أخرى شاهدت أباها ملك البحر قد صعد إلى وجه الماء بتاجه النفيس ...

كان حب الأمير يزداد يوماً عن يوم ، ولكنه كان حب إعجاب وإشفاق فقط. فلم يدر له فى خلده مرة أن يتخذ منها أميرة لقصره . مع أنه كان ينبغى لها أن تكون امرأته الشرعية ، كى تمنح نعمة الروح الخالدة. أما فى اليوم الذى يقترن الأمير بغادة غيرها، فإنها لن تكون يومذاك ويا للأسف غير رغاء من الزبد الفاشى على وجه البحر . وكانت عيناها تقولان للأمير حين يضمها إلى صدره ويقبلها فى جبينها :

— ولكن ألا تؤثرنى يا سيدى على كل غادة فى قصرك ؟ فكان يجيبها :

— أوه نعم ، إنى لأفضلك على كل فتاة ، لأن قلبك أطهر ولأنك أخلص لى حباً ، ثم إنك تشبهين كاعباً حسناء شاهدتها فيما سلف من أيامى ، ولكنى لن أكحل عينى برؤيتها يوماً . لقد كنت ذات يوم على سطح سفينة مشرفة على الغرق ، فقذفتنى الأمواج إلى شاطئ البحر بقرب كنيسة كانت تلميذاتها غيدا حسانا ، فأنقذتنى من الغرق أفتاهن سناً وأملحهن وجهاً . ومع أنى لم أرها إلا مرتين فقط ، فإنه لم يتصب قلبى سواها من الغيد الأماليد . ولكنك أنت تشبهينها وتكاد صورتك أن تطمس صورتها من صفحة قلبي . إنها تخص الكنيسة ، وقد نذرت نفسها لها ، لهذا فإن حظاً حسناً قادك إلى هنا فى قصرى فلن نفترق أبداً .

فكانت عروس الماء حين تسمع هذا القول تفكر :

— آه ، إنه لا يدرى بأنى أنا التى نجيت حياته وحملته على صدرى فوق أعراف الموج إلى دير الغابة !

وذات يوم أذيع أن الأمير عزم أن يتزوج أميرة فاتنة حسناء هى بنت ملك مجاور لأبيه ، وأن الفتى سيبحر إلى عروسه فى سرب رائع فاخر من الزوارق ورهط ممتاز من الحاشية والأتباع

وحين استقل الأمير السفينة التى كانت تحمله إلى بلاد عروسه وخطيبته ، أخذ يخاطب عروس الماء الصغيرة التى أبي إلا أن تصحبه فى سفرته ، فكان يقول لها :

— كيف لا تفزعين يا حسنائى الخرساء من ركوب البحر ؟

فكانت عروس البحر تبتسم فى وجهه حزينة أسوانة ، لأنها تعلم أن ليس أحد على وجه اليابسة يبزها أو يضاهيها فى السباحة والعوم

وفى صبيحة صافية جميلة رست سفينة الأمير فى ميناء بلاد الملك الذى سيصاهره الأمير فكان لخبر قدوم الأمير لخطبة الأميرة احتفالات شائقة رائعة ، ومهرجانات حماسية قرعت فيها نواقيس الكنائس وصدحت ألحان الموسيقى وسرت معالم الزينة والابتهاج فى كل محل . ولكن الأميرة العروس لم تكن إذ ذاك فى المدينة . إذ كان أبوها الملك أرسلها منذ زمن إلى دير على شاطئ البحر لتهذيب نفسها وتنوير روحها بضياء الدين والمعرفة . وكانت عروس البحر الصغيرة خلال ذلك تتشوق إلى رؤية جمال هذه الأميرة الفاتنة ... وأخيراً وصلت الأميرة إلى المدينة ، وحين أبصرتها عروس الماء اعترفت لنفسها بأنها لم تر فى حياتها أجمل منها ولا أشد سحراً وجاذبية . وحين أبصرها الأمير الجميل طوقها بذراعيه وهتف فى ابتهاج :

— آه إنك أنت بنفسك التى أنقذت حياتى حين كنت مصطرعاً بين الأمواج كجثة لا حراك فيها !
ثم قال لعروس الماء :

— إن سعادتى بلقيا التى طالما بحثت عنها لا يعدلها سعادة . ألا فافرحى لى وانشرحى يا فتاتى ، لأنك تحبيننى أكثر مما يحبنى شخص فى هذا العالم.
فأهوت عروس البحر على يديه تقبلهما وقلبها يتصدع ألماً ونفسها تسيل حسرات . لأنها استيقنت أن مساء يوم الزواج سوف لا يبقى من جسمها الفاتن إلا رغاء من الزبد يطفو على وجه البحر

وفى مساء يوم الزواج ركب العروسان الفتيان زورقاً رائع الزينة للنزهة ، فقصفت عند ركوبهما أصوات المدافع ودوت أبواق الجند، ثم خرج زورق العروسين يتخطر على أديم الماء ، وقد نصب فى وسطه سرادق ملوكى أرجوانى مذهب الحاشية فرشت أرضه بالوسائد والنضائد الوثيرة التى كان ينام عليها الأمير والأميرة تحت جنح ليل معتدل الهواء وفوق سطح بحر هادئ الريح . وحين هبط الليل أشعلت على ظهر السفينة الملوكية مئات من المشاعل الملونة ، بينما أخذ ربانوها يرقصون ويقصفون على نخب أميرهم الهانئ رقص الحبور والطرب . فكانت عروس البحر وهى على ظهر السفينة تفكر فى أول مرة من حياتها صعدت فيها إلى سطح البحر وكيف أن هذا المنظر بذاته اجتذب نظرها وفتن لبها ، وحينئذ اندمجت مع الراقصين والراقصات على ظهر السفينة ، وطفقت ترقص وتتأود كما يتراقص « السنونو » فى أجوائه فصفق لها جميع الموجودين . أبداً لم تتقن الرقص وتتفنن فى أساليبه تفننها هذه المرة . لقد كان يخيل إليها أن قدميها الطريتين الصغيرتين تتمزقان وتتقطعان برهفات النصال ، ولكن آلام نفسها كانت من المرارة والجسامة بحيث لم تشعر معها بآلام جسدية . لقد كانت تتيقن جيداً أنها تشاهد الآن لآخر مرة ذاك الذى هجرت من أجله أهلها وفارقت موطنها ونزلت مختارة فى سبيل اللحاق به عن جمال صوتها النادر . هى آخر ليلة تتنسم فيها نفس الهواء الذى يتنسمه الأمير ، وتتملى بمشاهدة السماء المزدانة بالزواهر والشهب . إن ليلاً سرمدياً خالداً من غير حلم ، طويلاً من غير يقظة أو حس ينتظرها هناك على وجه البحر حين تنقلب رغاء طائشاً لأنها لم تستطع أن تقترن بالأمير الحبيب فتنال معه نعمة الروح السرمدية الآبدة

كل شىء على ظهر سفينة الأمير كان يمثل السرور والسعادة ... ومضى نصف الليل وعروس الماء الصغيرة ترقص وتغنى ولكن مأتم الحزن كان يعول وينوح فى قلبها الحزين . لقد كان الأمير فى تلك الساعة غارقاً فى لذة عناق زوجه ، والأميرة تداعب خصلات شعره الرخو الحالك ، ثم ... ثم تشابكت منهما الأيدى وتلاقت الشفاه فغرقا تحت السرادق فى خلوة وجلوة ما أحلاها لأنها جلوة العرس ...

وحينئذ غمر سكون الليل وسجو البحر جو السفينة فما كان متيقظاً عليها إلا ربان الإدارة والدفة وإلا عروس البحر المرزأة وقد أسندت ذراعها على « درابزين » السفينة وأخذت ترقب تبلج الفجر وصبغه وجه الأفق بلونه الوردى اللازوردى ، وقد علمت أن أول شعاع من أشعة شمس هذا النهار سيكون فى إشراقه هلاكها وتلاشيها من الوجود

وفجأة أبصرت على أعراف الموج أخواتها الخمس وقد امتقعت وجوههن وتجردن من شعورهن الطويلة فقلن لها :

— لقد أعطينا شعورنا الطويلة للعرافة الساحرة كى ترق لك فتخف لمساعدتك وتؤجل موتك هذه

الليلة ... ورضيت الكاهنة بعد لأى فأعطتنا مدية هى هذه، وأنت ترين كم هى حادة رهيفة... يجب عليك يا أختنا العزيزة أن تغرزيها قبل انفلاق الصبح فى قلب الأمير، وحين يسيل دمه تحت قدميك، سوف تلتصق رجلاك وتكونان لك ذنباً سمكيا ، وحينئذ تعودين عروساً للبحر كما كنت وتنعمين فى الموج وتعيشين ثلاثمائة سنة قبل أن تفنى وتصيرى زبداً عائماً على البحر ... إن الأمر خطير يا أختاه ، فيجب أن يقضى الأمير قبيل شروق الشمس ، ولم يبق لذلك غير لحظات . إن جدتنا العزيزة ألحّ عليها الحزن حتى أسقط شعورها البيضاء ، كما سقطت شعورنا الجميلة كما ترين تحت مقص الكاهنة الشرهة القاسية لأجلك ... اقتلى الأمير وأسرعى بحياتنا عليك ... انظرى ، لقد اصطبغ وجه الأفق بوهج الشفق الأحمر ، وما هى إلا هنيهات حتى تبرز الشمس وأنت تعلمين أن هلاكك فى إشراقها . قلن ذلك ، ثم تنهدت العرائس أميرات البحر تنهدات حارة ، وغطسن فى غمر الأثباج ...

وحسرت عروس البحر الصغيرة ستار الخيمة الحمراء ، فإذا الأمير والأميرة نائمان ، وقد أراحت الأميرة رأسها على صدر الأمير . واقتربت عروس البحر منهما ، ثم انحنت على الشاب واقتطفت من جبينه قبلة هيمانة والهة ، ثم علق نظرها بالسماء حيث موكب عروس النهار بدأ فى الارتفاع . ونظرت إلى المدية، ثم عادت فنظرت إلى الأمير. فإذا به يردد فى أحلامه اسم زوجه الأميرة ، الشخص الوحيد الذى تهجس به أحلامه وتتناغى أمانيه . لقد كانت السكين ترتجف وتلتمع بين يدى عروس الماء ، ولكنها سرعان ما قذفتها إلى عرض البحر . . . ونظرت مرة أخيرة بعينيها الناعستين إلى الأمير الناعم الحالم

ثم قذفت بنفسها من أعلى السفينة إلى أعماق البحر حيث شعرت بأن جسمها يذوب وينحلُّ إلى قطع من زبد البحر

فى عين اللحظة ، ارتفعت الشمس عن الأفق فداعبت أشعتها الدافئة وجه البحر المقرور... ولكن عروس الماء أحست بأنها لم تمت حتى الآن ... لقد أبصرت توهج الشمس وائتلاقها ، وتراءى لعينيها السماء كأنها كائنات لا تحصى ذات جمال لا يوصف: جمال نورانى شفاف . حتى لكانت عروس البحر تميز خلال أجسام هذه المخلوقات بياض شراع السفينة واحمرار شفق الأفق . لقد كان لأصوات هذه الكائنات الجميلة السحرية رنات أين منها رنات المثالث والمثانى ، بل كانت عذوبة حناجرها من الرقة والحنو واللطافة بحيث لا يتسنى لأذن بشرية سماعها ولا لعين إنسانية رؤية أشكالها النورانية. لقد كانت هذه المخلوقات العجيبة ترف وترف فى الهواء دون أجنحة للطيران . بل كانت تحلق فيه بخفة أجسامها ولدونتها. ولكن المدهش أن عروس البحر شاهدت نفسها هى أيضاً ذات جسم مثل هذه الأجسام الشفافة النورانية وترف بينهن فى جو السماء دون جناح . سألت مستفهمة :

— ولكن إلى أين أسير ؟ فإذا صوتها الأخرس رن ويُشجى كهذه الأصوات السماوية التى أبداً لن تستطيع نقلها إلى آذاننا موسيقى أرضية . فأجابت عروس الماء أصوات أخرى حولها :

— إنك عندنا نحن عرائس الهواء والأجواء .. إن عروس البحر لا تملك روحاً خالدة ولا تستطيع الحصول على واحدة إلا أن تكتسب محبة رجل من الأرض اليابسة . وإذن فحياتها السرمدية الخالدة تتعلق بإرادة الآخرين

أما نحن عرائس الأجواء فكذلك لا نملك روحاً باقية ولكننا نستطيع أن نحوزها بأعمالنا الصالحات الباقيات . إننا نطير دوماً إلى البلاد الاستوائية ذات الإقليم الحار المشتعل المزهق للأنفاس فننقل إلى سكانه البرودة والطراءة ، وننشر في رحب أجوائهم عطوراً منعشة مؤرّجة ، كي تخفف وطأة الإقليم عن سكانه ، ونفس هناك هواءهم المحتبس المخنوق الحار ... وبعد قضاء ثلاثمائة سنة في مثل هذه الأعمال التي نأخذ أنفسنا نحن عرائس الجو بإنجازها لسكان الأقاليم الحارة نحظى بروح خالدة ونشترك في سعادة الخلود مع بني البشر ، وأنت الأخرى يا عروس البحر الصغيرة المخلصة ، لقد جهدت في فعل الخير وتألمت في سبيله ألماً تستحقين معه بعد مضي ثلاثمائة عام أن تعيشي وتنعمي بروح خالدة آبدة ...

وهنا رفعت عروس البحر في دهشة وحيرة عينيها إلى السماء شاكرة ، فتحدرت على خديها دموع الحمد والاعتراف . وكانت أولى دموع عرفتها في حياتها .

كانت الحياة والحركة على شاطئ البحر في ذلك الحين تموج وتنبعث فشاهدت عروس البحر حبيبها الأمير وعروسه يبحثان عنها في كل مكان ... ثم ينظران في حسرة إلى البحر كأنما عرفا أمر إلقاء نفسها في أحضانه ...

وذون أن تراها عين بشرية طبعت على جبين الأمير قبلة مخلصة حارة . ثم تبلج وجهها وأضاء ، وانقذفت مع زميلاتها عرائس الأجواء في غمرة أمواج الضياء ، ترفُّ وإياهن في مملكة الهواء ...

كمال الحريري

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين ﴾

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦١ — ١٥ جمادى الآخر سنة ١٣٥٨ — أول أغسطس سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العدد

آدم آخر

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ رضوان شهتال

ودوى مزمار بائع التذاكر معلناً أولى قاطرات الصباح ، فانقضت يد العم إبرهيم على المقود النحاسي الباهت ، واندفعت القاطرة تسابق سيول الأمطار المتدفقة على حضيض الشارع المقفر !

كان الفجر قد انبثق منذ برهة ؛ غير أن الظلام وقد التجأ إلى ظلال الأبنية ومنعطفات الأزقة ، كان لا يزال يصارع ذرات النور التي كانت تنفثها في الفضاء الأغبر جوانب الأفق !

واطمأن العم إبرهيم إلى قاطرته الجامحة في صراطها السوى ، فأفلت المقود وتناول من جيبه العلبة السوداء حيث كان يدخر لفائف التبغ تحضير أنامله في ساعات الفراغ . وأشعل منها واحدة وعاد إلى شأنه بعد أن مكن الصابة الملتفة حول طربوشه الأسود وجبينه وأذنيه . فقد كان الصقيع على أشد ما يكون في تلك الصبيحة القارسة من آذار وأرياح الفجر ما تكل من صراع القاطرة العنيدة ، وقد راحت تمعن في فلولها المولولة شاقة سبيلها في صميم الدغش على ضوء مصباحها الهادى

وكأنما آنس العم إبرهيم من كآبته الزمنة ميلاً إلى الانكماش في قرارة نفسه ؛ فأطلق للقاطرة عنانها غير عابئ بالشارات الحمر ، وغير حاسب لداهمات المفتش حساباً ، وراح يحدق دون ما وعى إلى الصراط الحديدى اللماع وقد خيل إليه لأول وهلة أنه ثعبان من ثعابين الفجر ، فاجأه الصقيع وتركه جثة باردة في متسحم العجلات الطائشة المربدة

ولقد انقضت خمس عشرة سنة والثعبان مازال في مرمح العجلات ، يمتد كلما استقام الشارع أمامه ويستطيل كلما صار إلى منعطف . والعم إبرهيم لا يزال منذ خمس عشرة سنة يجرى وراءه وهو لتعاقب الليل والنهار ، كأنما ينهب الأرض في سبيل لا حد له ولا نهاية .

هذا ما كان يراود مخيلة صاحبنا في ذلك الصباح الكئيب لدى هذا التصور الغريب . ولعله كان محقاً فيما قد خيل إليه أنه رأى

أو لم يكن الثعبان الأرقط أول من استدرج قدميه إلى هذا المصير ؟

أو لم يطوح بالإنسانية الأولى في قديم الزمان فأودى بها من خمائل الجنة إلى جرداء الأرض يوم كانت الأرض لا تزال نطفة من جهنم ؟

غير أن الجد آدم كان أوفر حظاً وأسعد آخرة من حفيده إبرهيم ، فلقد رضي الله عنه في آخر

الأمر فأعاده من وساوس الثعبان وأعاد إليه فردوسه الضائع !

* * *

ويرجع صاحبنا إلى ذكريات سحيقة لم تستطع كأس العرق فيما مضى أن تمحو أشباحها من مخيلته وأن تذر على وجهها بعض الرماد . بل إن كأس العرق الناصع كانت أقرب ما تكون فى ذهنيّتـه إلى جو تلك الليلة المقمرة من ليالى الربيع

فلقد كان ذلك فى ليلة مقمرة من ليالى الربيع وفى جنة من جنان صيداء ، عند ما قدّر على إبراهيم أن يضيع إلى الأبد فردوسه وحوّاءه

ليلة أنصع من براعم الليمون وأنقى من فضة القمر وأندى من حشائش الجنة . غير أن الثعبان الأزلى أبى إلاّ أن ينفث فيها سمّه الناقع ، وإذا فضة القمر نجيع ، وإذا الجنة بلقع أجرد

وها هى ذى الذكرى الأليمة قد طفت على سحنة الم إبرهيم الكئيبة المنقبضة . فلندعه يسر بقاطرته مستعرضاً مراكب أيامه الخاليات ، وقد أخذت تتتابع أمام عينيه ، على زجاج القاطرة الموشوم برذاذ الأمطار المنهمرة

* * *

فتح إبرهيم عينيه الوجود وهو لا يعرف له أمّاً ولا يعرف له أباً . فقد انتزعه الأثيان من أحضانهما وطرحاه لرحمة الصدف فى إحدى ليالى كانون العاتية عند بوابة بستان الحاج أبى سليم

ويشاء ربك أن يحل الرحمة فى قلب هذا الحاج فيحتضن اللقيط ويتبناه ، ويذهب فى العناية به كل مذهب هارفاً على قدميه آخر ما أبقته الشيخوخة فى قلبه الذابل

وينشأ إبرهيم ويترعرع وهو لا يعرف من حنان الأم ورحمة الأب غير رحمة الغريب وعطفه

ورغم هذه الرحمة وهذا العطف ، كانت العشرون سنة التى قضاها إبرهيم فى كنف وليه الحاج سبحة من الآلام والمشاق والمتاعب

فمن ذلة اللقيط وسخرية الرفاق فى مدرسة الحى ومن شر الأستاذ وشر قضيب الرمّان ، إلى حياة فى البيت مضطربة ، ليس فيها دفء لقلبه الصغير ولا طمأنينة

وإلى ذلك ليال باردة سوداء كان يقضيها وحيداً إلى قرب الموقد فى الكوخ الموحش . وكان عليه أن يحيا فيه الليل كله ، يحرس البستان من شر أبناء الحرام

وعند الفجر صقيع يفل حديد المسمار ، وأرياح حانقة لا تبقى ولا تذر ، وجليد يشل الساقية ، وهو بين ذلك يودى بكفيه فى مخاوض الماء ، يغسل قطاف الليمون المتراكم على مقربة منه ؛ ويزفه بعد ذلك إلى الصناديق الخشبية المرصوفة هنا وهناك أمام بوابة البستان العتيقة

وفى الربيع ، والصيف ، والخريف وحدة قاسية تغمر فضاء نفسه ، وهو يعمل أبداً « فى البستان المقفر ، ما بين سقى الطاعيم وتفريع الأغصان الجدبة ، واستئصال طفيلى الحشائش ، أو ساعياً

وراء أجام البقلة يبتغيها طعاماً للعشاء

غير أن حادثاً ما لبث أن لوى السبيل أمام وجه ابرهيم وانتزعه من أقبية هذه الحياة ذات الوتيرة الواحدة

كان ذلك ليلة أبصرت عيناه للمرة الأولى أمون الفاتنة خادمة البيك . فقد استدعاه هذا ليطرب الحضور فى عرس ابنه البكر . ولطالما سمع البيك عن ابرهيم وعن صوته السحرى الجميل

وغنى ابرهيم فى تلك الليلة . وكان غناؤه أحسن ما يكون فى آذان السامعين . وكان أحسن فى أذن أمون منه فى أى أذن أخرى . فلقد سربلها وتغلغل فى أعماق أعماقها مستبيحاً كل ما خفى فيها من طلسم وما وورى فيها من دفين

ولم يخف على ابرهيم فى تلك الليلة الزاخرة من أمرها شىء ، ولعلها أدركت هى من أمره كل شىء أيضاً . ولقد كانت تلك اللحظة الشاردة فى مجاهل الصدف ملتقى سبل فى صراط حياة الاثنين ، ملتقى سبل لم يمكثا فيه إلا ما تدوم النظرة الخاطفة وأختها ، ليصيرا بعد ذلك إلى حيث كانت تستحثهما سياط حبهما الوليد

وكأن مظاهر النعمة المسبغة على منزل البيك ما لبثت أن استهوت ابرهيم . وإن الحب لكافر أعمى . ففى إحدى الأماسى غادر منزل وليه على ألا يعود إليه ، وعبثاً حاول الحاج أبو سليم أن يستقطر الرحمة من قلب ربيبه المقوق ، وعبثاً حاولت شيخوخته المقعدة أن تستدر منه بعض الحنان

وكان أمراً مقضياً . وإن أمون لعلى مقربة منه ، وإن عيشته لراضية

وهكذا شعر ابرهيم للمرة الأولى منذ أن فتح عينيه للوجود بصيص من الأمل المشرق يخترق ظلمة حياته ، وبشماع من السعادة يتلمس كآبة نفسه ويبعث الدفء فى زواياها الرطبة

وللمرة الأولى أيضاً شعر بالطمأنينة الحلوة تغمر فضاء قلبه وتطامن على وحدته القاسية

وتناسى ابرهيم آلام أيامه ولياليه الخاليات !

غير أن الثعبان ! الثعبان الأزلى أبى إلاَّ أن يفاجئهما فى إحدى الليالى وهما فى الخلوة الأولى من أيام الغرام المعدودات . وقد انقضى الهزيع الثانى من الليل ورقد منزل البيك على نهود عرائس الشجر المضمخة بعبير زهر الليمون . وقد هدأ الليل إلا من صفير الريح ونجوى الحبيبين

وعبثاً حاولت أمون أن تتمنع ، وعبثاً حاول ابرهيم أن يرتدع ، وكأنما بخور التراب المنبثق من رحم الأرض ، وكأنما نفح الهواء المضمخ ، وكأنما فضة القمر السحرى قد تواطأت على العاثرين فى تلك الليلة الحلال ، وراحت تلهب مشاعرهما بلهث الشهوة الحمراء .

وكان لا بد لآدم أن يقاسم حواء تفاحتها المحرمة ففعل ومضى فى سبيله تاركاً حبه الفتى النضر ، أشلاء ممزقة على حضيض البستان بين أكوام البراعم المحتضرة ضحايا النسيم الأرعش اللاعن

وكان لا بد للربيع أن ينقضى فانقضى وغمره

النسيان ، ومرّ الصيف وغمره النسيان أيضاً .

وها هو ذا الخريف قد بدت طلائعه وأخذت أرياحه الداتية تعصف فى أرجاء البستان ، وتبعث بخضرته الذابلة المصفرّة ، هشيماً إلى هوة العدم

ولقد دبّ الخريف إلى قلب ابرهيم أيضاً ، فها هو ذا حبه القديم جثة صفراء باردة ، وما هى إلاّ أن تهب الأرياح وتذروه هشيماً إلى هوة العدم أيضاً

أما أُمُون العاثرة ! وأنى لها أن يعصف الخريف بما قد أثمر الربيع فى أحشائها ، فقد هرعت إلى ابرهيم تستحلفه باسم غرامهما وتتوسل إليه أن يقاسمها ضرّاء حملها كما قاسمها السرّاء . إلاّ أنه سرعان ما تنصّل من الأمر وجحد كل ما كان بينها وبينه منتحلاً لذلك شتى الأعذار

أوليس من الممكن أن يكون أحد أنجال البيك قد أنشب معوله فى هذه الأرض المشاع ؟ ولمَ يحملُ وحده تبعة الأمر وهو البستانى المملق الذى لا يملك شروى نقير ، وما دام البيك فى سعة من النعمة يستطيع أن يحل هذه المشكلة التى قد يكون لأحد أنجاله أصبع فى عقدها

غير أن شيئاً لم يكن قط في حسبان ابرهيم . فقد أوى فى مساء أحد الأيام إلى المنزل وسمع فى عائلة البيك همساً ، وإذ استفسر من أحد الخدم ، أخبره هذا أن أمون قد هربت فى المساء نفسه إلى حيث لا يعلم أحد

وانقض النبأ على ابرهيم كالصاعقة ، وأدرك غور الهوة التى قذف بأمون إلى أعماقها . ولقد قضى الليل كله هائماً على وجهه فى الأزقة وشواطئ البحر وضواحى المدينة ، يبحث عن أمون ويسأل عنها التارة إلاّ أن محاولاته كلها ذهبت أدراج الرياح …

* * *

كلا ! لم تذهب محاولات ابرهيم كلها أدراج الرياح . فقد عثر على أمون أخيراً . وكان ذلك فى ليلة حالكة من ليالى الشتاء . وكان اليأس قد طغى فى قلبه كأشد ما يكون ، وقنط من العثور على ضالته فراح ينشد عزاءه بين كأس من العرق وأحضان بنت هوى

وتشاء الصدفة التى جمعت بينهما للمرة الأولى أن تجمع بينهما مرة ثانية . وكانت بنت الهوى المختارة لهذه الليلة أمون العاثرة

لم يصدق ابرهيم ما رأت عيناه . وخيّل إليه أنها رؤيا كالرؤى الأخر التى باتت تلاحقه منذ اقترف خطيئته تلك الكبرى . ولكن سرعان ما أرجعته إلى الحقيقة المؤلمة قهقهة أمون وقد راحت تتلوى عارية على فراشها المضمّخ ، وتنفث طيبها الفوّاح فى أرجاء الغرفة العابقة بوهج القنديل الأحمر

إنها أمون بعينها . وأطرق ابراهيم تعباً خافض الجناح ، مثقل القلب .

— نعم أمون بعينها يا إبراهيم ! ولكن شتان ما بينى وبينها أيضاً ! أليس كذلك ؟

وانفرجت شفتاها القرمزيتان عن ابتسامة ساخرة منكرة . وامتد ساعدها إلى المنضدة بقرب السرير وتناولت المرآة . وراحت تسرح أنظارها

فى أرجاء جسدها المنسجم اللعوب .

— أنت على حق يا إبراهيم! ولعلها المرة الوحيدة .

أجل ! لقد تغيرت كثيراً عما قبل ... فها قد أصبحت أنهد صدراً ... وأثقل ردفاً .. وأدق حاجباً .. وألمع هدباً وأزهى شفة ... وأشهى للوصال ... وها هو ذا الذهب يشع فى أناملى، وساعدىّ وأذنى، ومن قبل كنت لا أعهد غير الحلى الزجاجية التى كنت تنفحنى بها من حين لآخر ... ها ... ها ... ها ... ها . ألا تذكر ؟ ... أما روائح البصل والثوم فقد استبدلتها بهذه الطيوب الشهية ... أو لا يتفتح قلبك لها ؟ قل لى بربك ... ولكن ما بالك صامتاً لا تتكلم ؟ قل، لا تستح . . . قل ما يبدو لك . . . حدثنا عن صيداء ، وعن لياليها المقمرة ... فى أيام الربيع ... وعن زهر الليمون ... والنسيم العليل ... والمستقبل الزاهر الجميل ... أو عن « العرزال[1] » الذى ستبنيه فى شجرة المشمش ... لعروسك ... فقد سمعت حقاً أنك ستتزوج عما قريب ... أصحيح ما يقولون ؟ أو حدثنا عن البيك وزوجته أو عن نجله . أو لا ترى أنه نادم على ما قد فعل بى ؟.. ها ! ها ! ها ! ها ! ها ! ولكن ما بالك ؟ حقاً لقد أصبحت غريب الأطوار يا إبرهيم ... تعال داعبنى على الأقل ... وإلا فلأى شىء أتيت ؟

— لأى شىء أتيت ؟

ونهض إبراهيم كمن مسته جنة ، وأهوى بكفه على وجه أمون بصفعة رادعة أليمة !

— جئت لأتمتع بمرأى هذه الدمعة تتحدر من مقلتك ، أعرفت لماذا أتيت ؟

صدمة عنيفة أعقبتها زوبعة جامحة ، زاخرة بشتى العواطف وشتى الأهواء .

وكانت أمون تنتفض على فراشها حتى القدمين وقد انهمرت الدموع من عينيها كأشد ما يكون ، وتوالت الشهقات من صدرها مجفلة . . . متقطعة ، لاهثة ...

واقترب منها ابراهيم وعانقت ذراعاه جسدها وراح يتلقط بشفتيه المستغفرتين حبب الدموع المتحدرة على وجنتيها وعنقها وصدرها والكتفين .

— عفوك يا أمون . لم أستطع أن أفعل غير ما فعلت . إنى ما أزال أحبك : أحبك أقصى ما يستطيع رجل أن يحب امرأة . ستة أشهر يا أمون طفت بها المشارق والمغارب أبحث عنك فى كل زاوية وفى كل مخبأ حتى كانت هذه الليلة السعيدة ... أنا مخطئ يا أمون، ولكن أو تعرفين من البشر من لم يخطئ ؟ وقديماً أخطأ الحاج أبو سليم فى رحمته لى ، وكان عليه أن يدعنى عند الساقية حتى تجىء الزوبعة وتنتزعنى جثة باردة من قبضة الوجود . وأنت ؟ ألم تخطئى ؟ ولقد نال كل منا نصيبه من العذاب . ولقد طهرتك دموعك وطهرتنى ، فهيا ندخل طاهرين إلى جنتنا الصغيرة ، ولتغمرنا الأيام بعد ذلك ، ولتطونا فى غياهب النسيان ! اضحكى لى يا أمون ، فقد مضى زمن طويل لم أر فيه أسنانك اللؤلؤية !

وابتسمت أمون وغمرتها سكينة هادئة عميقة وكأن هذه الموجة العاطفية التى اجتاحتها منذ

(١) العرزال بيت يصنع من الأغصان والورق ويبنى فى الشجر .

حين ، ما لبثت أن لمست فى قلبها الحد الأقصى ، وإذا بها ترتد فجأة على أعقابها وتبعث فكرة صارخة : لقد حطم هذا الفتى كبرياءها فى المرة الأولى . وها هو ذا قد أجهز عليها مرة ثانية، وقد يعبث بها مرة ثالثة ورابعة ، ولكن لن يحطمها إلى الأبد

لا ! لن تعود إليه ! لقد بدأت قصتهما فى تلك الليلة من ليالى الربيع وانتهت هناك ويجب أن ينتهى كل شيء بينهما . فليالى الشتاء قد نسخت ليالى الربيع ، ودفنت معالمها فى ثلوج النسيان . لا ! لن تعود إليه ! بل سوف تسحق كبرياءه وتجعله عبداً لها

أجل ! سوف تغرق قداسة حبه فى لجة حبها الدنس الأثيم ، وتبعث بثعبان شهوتها ساعياً فى كل أرجاء جسده ينهش العافية المزدهرة والشباب الغض وينفث سمه فى معالمه الخضر حتى تستحيل إلى قاع صفصف ، ثم تلفظه بعد ذلك بعيداً إلى حضيض الشارع هيكلا متهدماً قذراً ينهشه الجوع ويلذعه البرد ...

وكأنما هذه الفكرة الجهنمية ما لبثت أن طغت على كل مشاعر أمون ، فإذا بها تنقلب فجأة إلى حيث كانت فى مجونها الساخر وعبثها المستهتر

وتملصت من ذراعى إبراهيم وشفتيه ، وانقلبت إلى أقصى الفراش تتمرغ على حشيته الوثيرة الدافئة وتبعث النداء إلى جسد إبراهيم سامتاً صارخاً ، وبكل ما يستطيع نهدها المرتج وبطنها الخافق وهدبها المرتعش ، وبكل ما تستطيع الطيوب المنبعثة من جسدها الشهي اللعوب .

وكالمرة الأولى حاول إبراهيم أن يرتدع . ولكن سرعان ما أسدلت على بصيرته السجف فهوى على فراش أمون ، والتحم الشقيان فى وصال عاصف طويل ...

— تعال يا حبيبى ... واجعلنى قطعة منك ، تعال ... ولينتظر عند الباب عشاق الآخرون

— ماذا تقولين ؟ ... عشاقك ؟

— أجل ! أولا تسمعهم وراء الباب يحتسمون. ها ! ها : ها ! ها ! ولكن .. ابرهيم، ما أصابك ؟

— ستكونين لى وحدى ... لى وحدي ... لى . . .

— كلا ! لن أكون لك ...

وجن ابرهيم . وحاولت أمون أن تستغيث ، إلا أن يمناه كانت أسرع إلى فمها . وأطبق بالأخرى على عنقها ، وراح يخنق أنفاسها المستغيثة الهلعة .

— سوف لا يتمتعون بعد الآن . . . عشاقك الآخرون ...

ولما نزع ابرهيم كفه كانت الحشرجة الأخيرة تنبعث من أعماق أمون، وكأنها هزيم ريح صرصر عاتية ! ...

وفجأة قرع الباب ! وبأسرع من لمح البصر هرع ابرهيم إلى النافذة فتسلقها وهبط إلى الشارع القفر وتغلغل فى الظلمة حيث اختفت أشباح الأبنية ومداخل الأزقة الحالكة .

* * *

والقاطرة ما تزال جامحة فى صراطها السوى ، وأرياح الفجر ما تزداد إلا صخباً . وسيول الأمطار ما تزال تتدافع على حضيض الشارع المقفر واللفافة الرابعة أوشكت أن تنتهي ، وما هى إلا أن تلحق بأخواتها الراحلاتَ ...

خمس وعشرون سنة مرّت على هذه الفاجعة ، وكأنها كانت البارحة ، وكأنها منذ لحظة . فكثيراً ما فاجأت ذكراها مخيلة العم ابرهيم . فأقضّت عليه مضجعه أوعكّرت عليه صفوساعة هادئة أوأيقظت فى مشاعره الراقدة إلى حين ذكرى الشباب المعوق الخائن المجرم .

ولكم حاول فى خلال السنوات الأول أن يدفع عن نفسه شر هـذه الرؤى . فراح يعاقر الخمر ويستعيض عن دنياه بدنيا أخرى من ضباب الحشيش والأفيون . غير أنه ظل أبعد ما يكون عن الفلاح . فكأنما الله قد حتم على عبده أن يجعل شبح أمون أبداً أمام عينيه ، يصطحبه أينما حلّق ، وحيثما حلّ ، وأنى اتجه ...

فى ذلك الحين اندلعت نيران الحرب الكبرى . وخيل إلى ابرهيم أن أبواب الفرج تفتحت أخيراً أمامه ! وبين جماهير الألوف من الوجوه المقطبة والوجلة والدامعة السائرة فى موكب الرديف الزاحف إلى الجبهة ... كان وجه ابرهيم الوجه الوحيد الذى تهلل للواقعة واستبشر خيراً !

ها قد دنت اللحظة الرهيبة المنتظرة حين تبعث كبرياء ابراهيم لتهمس فى أذن ضميره كلمة الخلاص : « ها قد كفّرت عن خطيئتى » ثم لتدخل راضية مرضية إلى قدس أقداس الطمأنينة !

وراح ابراهيم يجد فى طلب هذه اللحظة الغالية فى أول صفوف القتال ، وفى مخاطر التجسس ، وفى كل ما يستشعر عنده الخطر . لكنه ظل أبعد ما يكون عن الفلاح أيضاً . فقد انتهت الحرب ، وعاد ابرهيم كما ذهب .

وأخيراً ، ولما أعياه الأمر ، استسلم لمشيئة الأيام علّها توفق إلى ما لم تقو عليه الحيل الأخرى

ولقد كانت الأيام أرفق الجميع به فاستطاعت فى فترة من الزمن يسيرة أن تخرس فى سمعه صراخ ضميره المشوش ، وأن تهديه إلى الصراط المستقيم !

أجل فلقد أوصله الصبر والهدوء اللذان فرضهما عليه استسلامه ، إلى حقيقة منطقية كانت حتى تلك اللحظة ضائعة فى ظلمة مصيبته

هذه الحقيقة هى أن العم ابرهيم برىء كل البراءة مما قد اتهم به نفسه

لا ، ليس هو الذى جحد فيما مضى وليه الحاج أبا سليم ، ولا هو الذى قذف بأمون العاثرة إلى هوة العدم !

كلا ! إنما هو شخصية وليدة ، شاء القدر أن يجعلها آخر حلقة من سلسلة تلك الحياة الطائشة !

أما المجرم الحقيقى ، فهو ابرهيم القديم ، ابرهيم الفتى الطائش المجنون ، ابرهيم الذى ما يزال ألزم له من ظله ومن الثوب الذى يرتديه ، والذى ما يزال حياً يعيش فى هيكله ، ويسير بقدميه ، ويلمس بيديه ،

ويتنفس بصدره ويحس بمشاعره

ابرهيم ! تلك الجبلة من الطين المعجونة بنزيز الإثم والتى قد حدرتها صروف الزمن حتى الدرك الأسفل من بهيميتها ، وإذا هى هيكل من الرجس ، وإذا هى سجن مظلم ، لا ترجع جدرانه الصماء صدى للرحمة المستغيثة ولا للانسانية المستجيرة

***

وهكذا شعر ابرهيم بوطأة هذا السجن وأضحى هدفه الأوحد أن يحطم جدرانه ، ويطلق نفسه السجينة نحو مهابط الطمأنينة

أجل ! يجب أن يسحق هذه الطينة المعجونة بنزيز الإثم ويردها إلى رحم الأرض فتيتاً من التراب، ولكن عن غير السبيل الذى سلكه فيما مضى يوم طلب الانتحار مكللا بالغار تحت راية الاستشهاد

فقد كان يومئذ لا يزال قريب العهد بالفاجعة ، والذكرى وقتئذ كانت على أشد ما يكون وطأة فى قلبه القانط

أما الآن فلم يعد له قلب . أو قل إن الأيام قد استنزفت من قلبه هذا آخر نقطة من رحيق الشفقة والرحمة .

وهل بلغ به الجبن أن يجرع كأس العذاب جرعة واحدة ، والعمر أمامه طويل بأصباحه وأمسائه وأيامه ولياليه ؟

وهل بلغ به الجبن أن يتجنب الألم ، والألم كان أول ما شهدته عيناه . وحياته كلها كانت سلسلة من الآلام !

ولم لا يجعل الآخرة جحيماً أيضاً ؟ لا بأس وليكن هذا كفَّارة عن تلك الليلة من النعيم

وراح العم ابرهيم يقدم نفسه قرباناً على مذبح الألم ، واثداً جسده بين قضبان القاطرة الغاشمة ، ذلك الصراط القفر الذى يشق سبيله فى صميم الحياة اليومية الصاخبة .

خمس عشرة سنة كانت حقًّا أشدّ هولاً من الجحيم وأطول من صراط الحشر . ولقد قضاها العم ابرهيم شجاعاً رابط الجأش ، رغم المتناقضات الألمية التى حتمتها عليه مأساة حياته

[illegible] الأا فه حتى الغيبوبة ، ونفس جبارة هوجاء [illegible]

إلا لحشرجة العذاب ، والعم ابراهيم بين ذلك يبكى مرغماً مع جسده العاثر ، ومرغماً يقهقه مع نفسه السكرى، وهو فوق ذلك وفوق هذه الحياة النفسية المضطربة ، هادىء مطمئن إلى هاراض عنها كل الرضى

خمس عشرة سنة كانت نفياً مؤبداً على هامش الحياة ! ولقد قضاها العم ابراهيم صابراً أمام مقوده النحاسى الباهت ، ليقود الحياة نفسها فى كل صباح وفى كل مساء ، وهو كأنما لا يقود غير نفسه التائقة إلى مستقر من الحياة بعيد .

خمس عشرة سنة ، كانت صحراء من الضجر ، تغمرها الوحدة ويكتنفها الصمت !

أو ليس هذا السبيل الصراط الأوحد الذى لا بد أن يقوده يوماً ما إلى المرفأ الأمين ؟

***

والقاطرة ما تزال جامحة فى صراخها الأسوى ، وأرياح الفجر ما تزداد إلا صخباً ، وسيول الأمطار ما تزال تتدافع على حضيض الشارع المقفر

أما اللفائف فلم يبق منها فى العلبة السوداء غير فتيت مبعثر

وفجأة استولى على العم ابراهيم ذهول غريب وأحس برعشة هادئة حلوة تدب فى أرجاء جسده ، وشعر كأنما نور مشرق ساطع قد أخذ يبدد دغش الصباح ، وكأنما الفضاء قد عج بأجنحة بيضاء ذات رفيف ...

وانعقل لسانه أمام هذه الرؤيا الن... ضاع فى بصيرته الذاهلة كل إدراك ويقين بما يحيط به غير أن وميض الصراط الحديدى ما لبث أن أرجعه إلى الحقيقة ، وإذا القاطرة على قيد كرتين أو أدنى من نهاية الخط . وبأسرع من لمح البصر ، أهوى بكفه على المقود النحاسى فشلّ حركة القاطرة ، وإذا بالعم ابراهيم يترنح وقد زعزعته الصدمة . . . وخرّ على الأرض جثة هامدة !

***

وفى مؤخرة القاطرة كانت صفارة بائع التذاكر تلعلع بين عويل الريح وصخب المطر معلناً آخر المرحلة!

رضوان شهال

التل الكبير

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

كم هي كئيبة مقفرة بلدة التل الكبير ! ... لا أظن أنها تطيب لإنسان إلا إذا كان من أبنائها الذين لم تقع أعينهم على غيرها من البلدان ، ولكن ما كان أثقل وطأتها على سالم صابر الشاب المترف المدلل الذي عاش خمسة وعشرين عاماً في القاهرة ذات الأنوار والمسرات والحدائق ؛ وهو ما كان يرضى بهجر الملاهي وسباق الخيل وموائد القمار والصالات ... لولا أنه ذاق مر العطلة سبعة أعوام بعد حصوله على البكالوريا . فكان ينبغي له أن يفرح لفوزه بوظيفة كاتب بمأمورية الأوقاف ، وأن يحمل حقيبته راضياً — وهي أول مرة يحملها ووجهته غير الإسكندرية — ويمم شطر التل الكبير .

وقد وجم وانقبض صدره للنظرة الأولى ، وفاق ما رآه جميع ما تصوره خياله المترف من السوء والوحشة ... أحقاً أن البلدة تتلخص في هذا الطريق الترابي الذي ينتظم مركز البوليس ودار المطافيء وبقالة فرنج وبقالة مانولي ؟ ... أهذه البيوت القائمة على الجانبين التي تبدو في ألوان جدرانها الباهتة ونوافذها المتآكلة كالثكنات القديمة هي خير بيوت البلدة المهيأة خاصة لسكنى الموظفين ؟ ... أحقاً أن أجمل ما فيها هو الضريح الذي تقوم به مقبرة الجنود الإنجليز الذين سقطوا قتلى في المعركة المشئومة التي انتهت باحتلال مصر ؟ كيف يعيش أهل هذه البلدة .. ألا يسمرون .. ألا يلهون .. ألا يعشقون ؟ .. هنا وا أسفاه قضي عليه أن يقيم إلى أجل غير مسمى لا يعلم مداه إلا الله ! ...

وعلى تفاهة البلدة تبين له لأول وهلة أن السكنى فيها من أشق الأمور ، وبدا له أن أصحاب البيوت يتوجسون خيفة من الأعزبين ويسيئون بهم الظنون . نعم سر لذلك سروراً خفياً ، واستبشر به خيراً ، وحسبه دليلاً محسوساً على وجود أثر للحواء في هذا المنفى الغريب ، ولكنه تعب طويلاً قبل أن يهتدي إلى مالك قبله بعد أن أخذ عليه المواثيق بالاستقامة ومجانبة الريب . . .

وفي اليوم الأول لاستلامه العمل وقع له حادث « حكومي » كان له أثر عظيم في حياته . فقد أدخل إلى حجرة يوجد بها أربعة موظفين ، وجلس إلى مكتب صغير رث الهيأة ؛ ومضى يقلب عينيه في الوجوه الغريبة ، وهو يعاني وحشة وارتباكاً ! ولم يدعه واحد منهم يستريح ... فتقدم منه ورمى على مكتبه ملفاً بعنف ، وأمره أن ينسخ منه نسخة على وجه السرعة ! وبوغت الشاب مباغتة شديدة ، واستاء من عمل الرجل ولهجته ... فألقى عليه نظرة تأفف وازدراء . وكان قميئاً [illegible] العينين صغيرهما ، [illegible] الناس [illegible] الكراهية ، وكان سالم مازال محتفظاً بروح الاستهتار ، فقال له بتحد غريب :

— استرد ملفك فلن أنسخ منه شيئاً …

وأحدث قوله موجة اضطراب عنيفة سرت من عيني الرجل المختلجتين إلى الرؤوس المنكبة على الأوراق فارتفعت في دهشة وحدقت أعينها في وجه الشاب الناضب ثم تبادلت نظرات عجب وشماتة وجمدت مرة أخرى عليه ثم ارتدت إلى انكبابها !

ولم ينبس الرجل بكلمة ولا بدا على وجهه أي أثر للانفعال سوى اختلاج العينين ، واسترد ملفه في هدوء وعاد به إلى مكتبه

ولم يقنع سالم بما قال فأردف بصوت متهدج :

— قبل كل شيء ينبغي أن تتعلم كيف تخاطب الناس بأدب

ولم يعره الرجل أدنى التفات ولازم الصمت كأنه أصم أبكم !

وعلم سالم بعد ذلك أن ذلك الرجل هو الكاتب الأول في المأمورية وأنه يدعى أحمد علوان وقد ظن أن ما حدث سيكون حتماً فصل الخطاب بينهما ، ولكن خاب ظنه ، فقد اعتذر الرجل وأكد له أنه لم يقصد المساس بكرامته بتاتاً ، ومال إلى محادثته بداع وبلاداع وأبدى له المودة والعطف ، وتقبل الشاب ذلك منه بقبول حسن في الظاهر ، ولكن قلبه لم يرتح إليه قط . وتنوسي الحادث وكادت تعفر آثاره ، وانحصر هم سالم في مسألة واحدة هي كيف يمضي وقت فراغه الطويل ؟ كان الوقت يمر ثقيلاً كأنه محمول على سلحفاة عرجاء ، وكان المكان أجدب من أن يعده بتسلية تخفف عنه أهوال الملل ، فرمى به اليأس إلى بقالة مانولي وجعلها مجلسه المختار يأوي إليه ما بين العصر والمساء ، وربما ألح عليه الضيق فيبتاع زجاجة أوتار صغيرة وقطعة من الجبن الرومي ويمضي يرشف في حذر بعد أن يلقي نظرة خائفة على الطريق ونوافذ الدور المغلقة .

ثم ثبت له بعد قليل أن دكان مانولي يستطيع أن يقدم له ما هو أطيب من الجبن والأوتار ، وذلك أنه كان مطمئناً إلى مجلسه عصر يوم ، وإذا به ينتبه من سهوة على صوت رقيق يحادث مانولي ، والتفت بسرعة إلى مصدر الصوت فاستقرت عيناه على امرأة كانت ملفوفة بملاءة سوداء لا تخفي مقاطع جسمها الممتلىء ، وعلى وجهها برقع أسود تبدو منه عينان واسعتان في هالتين من كحل ، وخدان محمران يذكران بخدود عرائس الموالد ، وكانت هيئتها لا تدل على الصون أو الكرامة فأحس بارتياح وهمس بفرح: وأخيراً ! ولكن ما السبيل إلى مغازلة مثل هذه المرأة ؟ كيف يتقرب الإنسان إلى حسان التل الكبير؟ وكيف يمكن اقتفاء أثرهن والبلد من الصغر والتزمت كأنه عين ترى أو يد تقبض على الأعناق ؟

وفتح الله [illegible] لمانولي وهو ما يزال يلتهم المرأة بعينيه:

— خذ بالك يا مونولي ! …

فهز الخواجة رأسه بمكر وقال :

— هذه زبونة قديمة لا تحتاج إلى توصية من غريب مثلك !

ونظرت إليه المرأة بدهشة وقالت :

— غريب !

ثم أردفت وكأنها تنشد :

— يا ناس دنا غريب والغربة كيداني !

فقفز قلبه في صدره والتهب دمه بالأمل وقال لها :

— أنا غريب حقاً ! ولكن ليست الغربة بشر ما ابتليت به ! …

فسألته بإنكار :

— وهل هناك ما هو شر من الغربة ؟

— هل يشكو (الجدى) من الغربة إذا وجد إلى جانبه (معزاته) ؟ ...

فنظرت المرأة إلى مانولى وقالت ضاحكة :

— دونك ومانولى فإنه كالمعزاة سواء بسواء .

ولكن مانولى قال لها بغيظ :

— هو عاوز معزة مش مانولى. أنت لازم يفهم! أنا فاهمة يا مونولى ! ولكن أ كلما جئتك طالبة جبناً تعطينى رجلاً ؟

فانتبه الشاب إلى قولها وسأل بتهكم :

— أيبيع لك رجالاً إذاً ؟

فقالت على الفور وهى تلحظه بخبث :

— صدقت ! ولكنه يبيع أحياناً خنازير !

وضحك الشاب وهم بالرد عليها . . . ولكن سمعت حركة فى الطريق . فأدار رأسه ... وتحركت المرأة ! فخشى أن تفلت من بين يديه . فقال همساً :

— ألا تنتظرين ؟

فسألته وهى تسوى برقعها :

— ماذا تريد ؟

— أنسيت الجدى والمعزاة ؟ !

— قل لى : أين زريبتك ؟

— إنتظرى حتى يسترنا الظلام !

— أنا لا أنتظر أبداً .

— إنتظري مرة ... الصبر طيب !

وبدا على المرأة الجد فقالت وهى تسير :

— إنتظر أنت ... سأعود !

هل تعود حقاً ؟ ... إنها أعجوبة فى التل الكبير هى سفيرة دولة الأنس العامرة بالقاهرة فى هذا البلد الجدب . لا تعد بلا شك جميلة ، ولكنها صبحة خفيفة ... بل هى امرأة وكفى ... ترى هل تعود ؟ لقد أيقظت قلبه وخياله وإحساسه فينبغى أن تعود وإلا تركته لشر الليالى وألم السهاد ... والتفت إلى مانولى وسأله باهتمام :

— هل تعود يا ترى ؟

فرفع الرجل حاجبيه الغليظين وقال :

— سلنى ماشئت عن جبن عن زبد عن سردين .

ومع ذلك أسألك أنا ... لماذا لا تأتى ؟

نعم لماذا لا تأتى ؟.. وداخله شيء من الاطمئنان ولكنه لم يجد فتيلاً فى تهدئة الجزع المستولى على أعصابه . كان لا يفتأ ينظر إلى السماء يستصرخ الظلماء ويضرع إلى الليل العزيز ...

وكان مانولى يراقبه بعينين ساخرتين فى هدوء وعدم اكتراث ويلقى نظرة فاحصة — بين الحين والحين — على الطريق الذى أخذ يشمله الظلام ، وقد قال بعد فترة انتظار وهو يشير بيده :

— أنظر !

فنظر بسرعة ثم تنهد بارتياح عميق حين رأى شبحاً أسود يدنو منه فى خفة

كل شيء نائم والظلام يخفيه عن عينى البلدة الثاقبتين ، وهنالك باب خلفى للبيت يقع فى الطريق الزراعى ، فجعل هدفه إليه وتبعته المرأة فى سكون

وفى صباح اليوم الثانى استطاع أن يذهب إلى المأمورية كعادته ولكنه كان مصدوع الرأس منهوك القوى فجلس إلى مكتبه جامداً لا يبدى حراكاً ، وافتقدت عيناه علوان أفندى فلم يجده فارتاح إلى غيابه واطمأن إلى خموده ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن زملاءه فى الحجرة يرمقونه بنظرة غريبة تدل على

الإنكار والدهشة ، فأحس بأن فى الجو شيئاً ، ترى ما عسى أن يكون ؟ .. وبلغت به الضايقة والاستياء أن همّ بسؤالهم ولـكنه عدل عن ذلك فى اللحظة الأخيرة ، وفتح دفتراً وانكب عليه متظاهراً بالاهتمام ولكنه لم يعمل شيئاً ، كان فكره لا ينفك متعلقاً بتلك الجماعة الغريبة الحساسة ، ولم يترك فى هدوء ، فدلف إليه كاتب المستخدمين وقال له :

— سالم أفندى !

فرفع رأسه إليه وسأله :

— نعم ؟

— أحقاً ما يقولون ؟

— وماذا يقولون ؟

— ألا تعلم !

— لا علم لى بشىء . . . . خير ؟ !

فتردد الرجل لحظة ثم سأله بصوت خافت :

— ماذا صنعت بالأمس ؟

فاضطرب قلبه ، واشتد به الذهول ، ولـكنه تظاهر بالاستهانة . وقال بدهشة متكلفة :

— الأمس ! كان كأول أمس وكـكل أماسى مللاً ونوماً ! ...

فهز الرجل رأسه آسفاً وقال :

— كلا يا سالم أفندى ! ليس التل الـكبير بالذى يحفظ سراً أو يتستر على فضيحة ، وليست هـذه المأمورية بالتى تتساهل فى أمثال هذه الهفوات .

— أى فضيحة ؟

— امرأة الأمس !

— أى امرأة ؟ . . ومن قال لك هذا ؟

— حامد أفندى !

وقام الشاب بسرعة عنيفة وذهب إلى مكتب كاتب الحسابات وسأله بغضب :

— ما هذا الذى تقوله يا حامد أفندى ؟

— فقال الرجل بخوف :

— أنا لم أفتر عليك كذباً ... هذا ما سمعت طه أفندى يقوله ...

وتحول الشاب حانقاً إلى كاتب المخازن ، وكان الرجل يستمع إلى الحديث فقال :

— معذرة يا سالم افندى أنا لم أقل ما قلت لأشنع بك ولـكنى سمعت وكيل المأمورية يحادث حضرة المأمور فى هذا الشأن صباح اليوم فأشفقت عليك من عواقبه وكاشفت الزملاء بما ساورنى . أنا آسف جداً يا سالم افندى . أنت شاب أحدث منا سناً ولكن كان ينبغى أن تأخذ حذرك ... فهذه الهفوة تعد هنا جريمة لا تغتفر !

فكاد سالم أن يجن من الغضب والحنق ، وعاد إلى مكتبـه لا تبصر عيناه من الغيظ وقال وهو لا يدرى :

— أنا لا يهمنى ... فليفعلوا ما يشاؤون !

وجلس ساهماً قلقاً يسأل نفسه : كيف اشتهر أمره وكيف ذاعت فضيحته ؟ . . . كان الظلام شاملاً ... والليل ستاراً كثيفاً ... والطريق خالياً ، وكان يتقدمها بعدة أمتار ، وأتيا البيت من بابه الخلفى ، فهو على يقين من أن عيناً لم تره ، وقد غادرت المرأة البيت فى منتصف الليل والدنيا غارقة فى نوم عميق .. فمن أى منفذ تسربت الفضيحة على هذا الوجه المزرى ؟ ومن الذى سعى بها إلى الموظفين والرؤساء ؟..

وانتبه من أفكاره على صوت معروف يقول

«سلام عليكم» ، ورأى علوان افندى يدخل الحجرة مهرولاً . كان قلبه لا يرتاح إليه ، أما اليوم فهو يسيء به الظنون ولا يستطيع أن ينظر إلى وجهه من شدة المقت :

وتظاهر الرجل بالأسف وهو يقول :

سالم أفندى . الوكيل يريد أن تقابله . ما هذه الحكاية التى يتحدثون بها ؟ . إنى أعجب لهؤلاء الناس الذين يضمون أنوفهم فى كل شيء ! . . . أهفوة شباب ؟ ... فلتكن ؛ ولكنها ليست بالشرك والله لا يغفر لمن يشرك به ، ولكنه عز وجل يغفر ما دون ذلك ... أعوذ بالله ...

ولم يرض سالم أن يشمت به إنسان ؛ فتظاهر بالاستهانة وصار بخطوات ثابتة إلى مكتب الوكيل ، وإن كان قلبه يخفق بشدة وعنف ، ولم يمهله الرجل فابتدره قائلاً :

— ما هذا الفعل الشائن يا سالم أفندى ؟

فقال بصوت منخفض :

— لم أفعل شيئاً شائناً .

— ما فائدة الإنكار ؟.. لقد شاهدوك بأعينهم وأنت تسوق الفاجرة إلى بيتك ، ولا أخالك تجهل أن هـذا المنكر يكفى لفصل أى موظف من خدمة المأمورية ...

— من هم الذين شاهدونى يا بك ؟

— أنت هنا لتجيب لا لتسأل .

— أليس من حقى أن أعرف ؟

— كلا . . . أنا واثق من المعلومات والمصادر على السواء .

— ولكن ...

— لا لكن ألبتة ... وينبغى أن تعلم أن خطاباً من أربعة أسطر يكفى لفصلك .

واضطر الشاب إلى الصمت قهراً ، وداخله الخوف ، ولاح له شبح اليأس يهم بخنق مستقبله الشاحب ويرده إلى المطلة البائسة التى لم يخلص منها إلا بشق الأنفس .

وعاد الوكيل يقول وهو يحدق فى عينيه :

— ولكن المأمور لا يرغب فى البطش بمستقبل شاب فى مقتبل العمر ، وهو يرى رأياً عسى أن ينقذ الموقف .

فتساءلت عينا الشاب الحائرتان ولم ينبس بكلمة فاستطرد الرجل :

— أطلب النقل إلى مأمورية قنا .

— قنا !

— نعم . وينبغى أن تطلب النقل بنفسك لأنه لا يستطيع أن يطلب نقلك بغير ذكر الأسباب . وهذا يضر بك ، فاذكر فى طلبك أنك اتفقت مع على علوان الكاتب بمأمورية قنا على تبادل النقل ... وعلينا الباقى . . .

على علوان ! لقد دوت كلمة (علوان) فى أذنه كالرصاص . هل يكون علوان هـذا المنفى فى قنا أخا الكاتب الأول ؟ ... إنه يشعر شعوراً قوياً بأن هذه هى الحقيقة . ترى هل أتى هذا الرأى عفواً ، أم بعد تدبير بليل ؟ هل يفسر هذا ذيوع فضيحة الغريب ؟ بل إنه يظن أنه يفسر وقوعها ! واحتدم الغيظ فى قلبه وتجمعت فى صدره ثورة جامحة ولكن الخوف أحكم صمام مرجله . فألجم لسانه ، ولبث صامتاً واجماً ...

واستثقل الوكيل هذا الصمت . فقال بلهجة تهديد :

— مالك لا تتكلم ؟ الظاهر أنه لا يهمك حقاً أن نفعل ما نشاء !

وسرت في جسمه رعدة خوف ودهشة ، وذكر أنه نطق بهذه العبارة : « أنا لا يهمني فليفعلوا ما يشاؤون » تحت تأثير الغضب ، هل نقلت إلى الوكيل . إن لهجته ونظرته تدلان على ذلك

وخرج عن الصمت وقال بذل :

— سأكتب الطلب ...

وغادر الحجرة ، وعاد إلى مكتبه محزوناً مغيظاً وكان الزملاء يشتغلون في صمت ، فألقى عليهم نظرة نارية وتساءل : ترى مَن مِن هؤلاء الذى نقل عبارته بسرعة البرق إلى الوكيل ؟ من هو هذا الثعبان ليسحق رأسه ؟ ودنا منه علوان أفندى وهو يتظاهر بالإشفاق وفتح فمه هاماً بالكلام ، ولكنه أشار إليه بأصبعه بحركة عصبية وانفجر قائلاً :

— من فضلك لا تكلمني ! . . . لا أريد أن يكلمني أحد منكم . . . سأترك دياركم وعزائي أني لا أترك بها ما يستحق الأسف عليها ... بلد ملعون وأناس ملعونون !

هل يمكن أن يقع كل ذلك مصادفة . . . كلا . . . إنه يستشف وراء الرياء الناعم تدبيراً نذلاً ويشعر شعوراً قوياً بأن ذلك الزميل الجهنمي علوان أفندى دبر فأتقن التدبير ، وأنه انتقم لنفسه منه شر انتقام ، أما هو فقد وقع بسهولة ، ولم يقاوم الإغراء ، فراح ضحية للزملاء ولهذا البلد العجيب !

نجيب محفوظ

الفتنة

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف
بقلم الأستاذ فخري شهاب السعيدي

كل ذلك مما غبر عليه الزمان البعيد ، فقد كانت هي يومئذ أنضر وأصغر ، وكان عشيقها « نيقولا بيترويتش كولبا كو » في زيارتها بدارها في الريف ؛ وكان الجو حاراً مشبعاً بالرطوبة

وكان « كولبا كو » قد انتهى من غدائه وشرب زجاجة كاملة من شراب الموانئ الردىء فلم يكن في حالة من صحة الإدراك جيدة ، وكانت السآمة وقلق البال قد استحوذا عليه وعلى صاحبته فقد كانا ينتظران مقدم المساء اللطيف البارد ليخرجا للنزهة

وفجاءة دق جرس الباب ، وكان « كولبا كو » قد بقي في قميصه ، فقام من مقعده وتساءل (بنظره) عن القادم فأجابته صاحبته وكان اسمها « پاشا » قائلة :

— ربما كان هذا ساعي البريد ، أو بنت إحدى الصديقات

غير أن « كولبا كو » لم يبال (ساعي البريد) أو (بنت إحدى الصديقات) المزعومين وإنما تناول (سترته) وذهب إلى الغرفة المجاورة بينا كانت « پاشا » ذاهبة لفتح الباب

وما كان أشد دهشتها حين لم تجد الطارق ساعي البريد ولا بنت إحدى الصديقات ، بل كانت سيدة جميلة شابة عليها لباس أنيق من طراز قديم ، وكان منظرها ينم عن طيبة نفس وحسن أخلاق . كانت القادمة شاحبة الوجه ، وأنفاسها ثقيلة كمن نزل من عدة طوابق عالية ، وقد ابتدرتها « پاشا » قائلة :

— ماذا تريدين ؟

غير أن السيدة لم تحر جواباً بل دخلت المكان ونفضت أثاثه بنظرة فضول ؛ وكان مظهرها ينم عن ألم في نفسها ، وقد مضت عليها فترة أعدت فيها نفسها للكلام ، فجلست ثم سألت أخيراً رافعة عينيها المحمرتين من البكاء قائلة :

— هل هنا زوجي ؟

فأجابتها « پاشا » :

— زوج مَنْ ؟

وكان قد استولى عليها خوف مباغت بردت له يداها ورجلاها ، ثم كررت سؤالها قائلة في انفعال بيّن :

— زوج مَن ؟

— زوجي أنا « نيقولا بيترويتش كولبا كو »

— لا أيتها السيدة ، إني ... إني لم أعرف زوجاً !

ثم مضت فترة صمت بينهما كانت السيدة خلالها تجفف ما كان بعينيها من دموع بمنديل كان بيدها وكانت « پاشا » واقفة لا تجسر على الجلوس تنظر إلى الزائرة في ذعر وقلق شديدين ! ثم إن السيدة

سألت « باشا » فى صوت هادئ وقد علت شفتيها بسمة فضول قائلة :

— إذاً فقد ذكرت أن زوجى ليس هنا ؟

— لا أفهم قصدك !

فنظرت السيدة إليها فى احتقار وهزء ، وغمغمت قائلة : « إنك امرأة سوقية لا خلاق لها ، نعم ... نعم إنك لسافلة حقاً ، وإنى لسعيدة إذ أصك وجهك بهذا الآن ! » فشعرت « باشا » بأنها لم تحسن السلوك قط إزاء هذه السيدة وأنها لا بد أن تكون قد آلمتها بشىء وضيع ارتكبته . فخجلت من خديها المصبوغين بصباغ أحمر ومن أنفها الذى كان يعلوه الوشم ، ومن القُصَّة [1] المتموجة مرحاً على جبينها ، وقد رأت أنها لو كانت نحيفة الجسم ، بلا صباغ ومسحوق وقصة لسهل عليها إخفاء كونها امرأة « رديئة » ، ولقابلتها مقابلة الند للند ولجرؤت على الجلوس على كرسى فى جانب المنضدة الآخر ، وقد أعادت السيدة هذا السؤال :

— وأين زوجى ؟ ثم استأنفت قائلة : « على أنه لا بأس من وجوده هنا ، أو من عدم وجوده — سيان — وغاية ما هنالك أنه قد اكتشف لديه اختلاس ، وأنهم الآن يبحثون عنه لإلقاء القبض عليه ، وتبعة ذلك كله إنما تقع عليك وحدك ! »

ثم إن السيدة قامت فمشت فى الغرفة وقد اشتد هياجها ، وكانت « باشا » ترقبها فى دهشة واستغراب فما كانت تستطيع أن تفهم شيئاً من كل ذلك . ثم قالت السيدة :

— سيجدونه اليوم وسيقبضون عليه ! وإنى لأعرف مَنْ ذا الذى قاده إلى ذلك كله ، ذلك هو أنت ... أيتها السوقية القبيحة ! أنت أيتها المخلوق السافل ! . . . وكانت أمارات وجهها تعبر عما فى نفسها من شعور نحو « باشا » بل كان منظرها يدل على أنها كانت تود أن لو بصقت فى وجهها ، ثم أردفت :

— إنى ضعيفة ، أتسمعين أيتها الفظة ؟ إنى عاجزة لا حيلة لى وأنت أشد منى قوة ؛ غير أن هنالك من سيعنى بأطفالى . إن الله بكل شىء بصير ! إنه عدل وسيجزيك على ما أنزلت من دمى ، وعلى ما حرمتِنى من نوم ليالٍ طويلة بما تستحقين ! وسيجىء الوقت الذى فيه تذكريننى . ثم إن السكون العميق خيم تارة أخرى طويلاً ، وكانت السيدة تخطر فى الغرفة بينا كانت « باشا » تطيل فيها النظر غير فاهمة شيئاً ، وكانت تتوقع ـ فى كل لحظة ـ حدوث شىء مخوف . هنالك بدأت « باشا » الكلام قائلة :

— إنى لا أعرف شيئاً عن كل هذا أيتها السيدة ! قالت ذلك وأجهشت بالبكاء المر من قلب كسير . فردت عليها السيدة تقول :

— إنك لتكذبين ، إنى لأعرف كل شىء ، لقد عرفتك من أمد بعيد ، وقد جاءنى أنه لم يمض يوم واحد من الشهور الأربعة البارحة لم يقضه زوجى معك !

(١) القصة : خصلة الشعر المقصوصة بشكل خاص تعلو الجبهة وتتدلى على الجبين

— نعم ، وأى شىء فى ذلك ؟ أى شىء تنكرين ؟ إن هنا لك جمهرة تجىء إلىّ وتخرج للزيارات معى ، وما كنت التي أجبرتهم على المجىء إلىّ وإنما هم يأتون بمحض رغبتهم

— أقول لكِ إنهم قد اكتشفوا اختلاساً لديه ؛ لقد اختلس من دائرته من أجلك أنت ، من أجل امرأة مثلك قارف ذنبه ! فأصغى إلىّ . ثم إن السيدة قامت — قبل إتمام كلامها — فوقفت أمام « پاشا » واستأنفت ما قطعت قائلة :

— لستِ يا هذه من صاحبات المبادئ فإن من دأبك إيذاء غيركِ وذلك كل بغيتك التى تريدين ! إلا أنى لا أستطيع أن أصدق أنك امرأة أضعتِ كل شىء حتى ومضات الإنسانية الأخيرة . إن عنده — يا هذه — زوجاً وبنين ! فلو أنهم حكموا عليه بالإبعاد إلى سيبريا فإنى والأطفال سنموت حتماً من الجوع ! حاولى أن تتفهمى هذا ، غير أن هنا لك طريقاً ما تزال أمامنا تنقذنا من البؤس والحطة ، فلو أنى اهتديت إلى « تسعمائة روبل » اليوم فإنه لن يحاكم ... تسعمائة فقط !

فسألتها « پاشا » فى هدوء :

— تسعمائة روبل فقط ؟ إنى لا أعرف عن هذا المبلغ شيئاً

— إنى لا أستجدى منك تسعمائة روبل ، فليس لديك أنت نقود ، ولا أنا بحاجة إلى نقودك ، وإنما أسأل عن شىء يختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد اعتاد الرجال إعطاء أمثالك من الفتيات حلياً ، فأعيدى إلىّ ما كان أعطاك زوجى

فصرخت « پاشا » وقد أدركت قصد السيدة :

— ما أعطانى شيئاً من حلى ، أيتها السيدة !

— فأين هى النقود إذاً ؟ لقد بذّر نقوده ونقودى ونقود آخرين غيرنا ، فأصغى إلىّ ، لقد أفرطت إذ نعتك بكثير مما لا يليق ولكنى أستغفرك . إنه لا شك فى أنك تكرهيننى ، إنى أدرى ، غير أنك إن كنت رحيمة فحاولى أن تتفهمى موقفى ؛ أتضرع إليك أن تعيدى لى الأشياء !

هنا هزت « پاشا » كتفيها وقالت :

— حسن ، سأفعل ما أردت فى سرور ، ولكن هل ترين الله سيعاقبنى إن كانت هذه الحلى هدايا قدمها ـ هو ـ لى ؟ فأرجو أن تصدقينى ... إنك على حق ... وأوشكت أن تمضى فى الكلام لولا أنها استدركت وقالت :

— لقد جاءنى مرة بهاتين الحليتين اللتين أعيدهما إليك الآن فى سرور إن رضيت

قالت ذلك وفتحت خزانة ثياب وسلمت إلى ضيفتها سواراً وخاتماً صغيراً فيه فص أحمر . فثارت السيدة ، وقالت وقد تجهم وجهها وظهرت عليه آثار الاستياء :

— ما هـذا الذى تعطيننى ؟ إنى لا أسألك صدقة ولا إحساناً ، بل أسألك عن أشياء ليست ملك يمينك ، أغريت زوجى ـ ذلك المخلوق التاعس البائس فسلبته إياها ، أنت التى تعرفين كيف تكون الاستفادة فى مثل هذه الأحوال . لقد كنت يوم الخميس البارح ، يوم رأيتك مع زوجى فى الشارع متحلية بأثمن الخواتم والدبابيس وما أريدك أن تمثلى لنفعتى دور حمل وديع ! إنى لأسألك آخر مرة : هل ستعيدين إلى تلك الحلى أم لا ؟

فساء كلامها « باشا » فأجابتها قائلة :

— ما أسخفك ! أؤكد لك أن زوجك نيقولا بترويتش ما أعطانى سوى هذا السوار وهذا الخاتم . وشىء آخر هو الكعك الذى كان يأتينى به !

فاستضحكت السيدة فى صوت متهدج وقالت :

— الكعك ؟ إن أطفاله فى الدار لا شىء عندهم يطعمونه ، وأنت هنا يولم لك على الكعك ؟ إذاً فأنت مصرة على عدم إعادة الحلى ؟ .

غير أنها لم تتلق من « باشا » جواباً فجلست على كرسى مريح هزاز وأثبتت نظرها فى نقطة واحدة وظلت تفكر ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

— ما العمل ؟ إذا لم أستطع الحصول على هذا المبلغ من المال فإنا حينئذ من الهالكين أنا وهو والأطفال معنا ، أأقتل هذه المخلوقة الفظة أم ترى أن من الخير أن أركع أمامها ؟ . ثم إن السيدة وضعت المنديل على وجهها وأخذت فى الانتحاب ! ثم وجهت خطابها إلى « باشا » قائلة فى حسرة :

— أتوسل إليك ، لقد هدمت كياننا ، أتلفت زوجى ، وخربت حياته فأنقذيه ، إني أدرى أنك لا تعطفين عليه ، ولكن فكرى فى صبيته الصغار ما ذنب هؤلاء الأطهار فى تحمل الشقاء ؟

ففكرت « باشا » ، وخيل إليها أن أولئك الصغار الآن على قارعة من قوارع الطرق يتضورون جوعاً وأن أمهم معهم تشاركهم فى العويل ! فقالت تسائل السيدة فى حنو وضعف ظاهرين :

— وماذا أستطيع أن أعمل يا أيتها السيدة العزيزة ؟ لقد قلت إننى وحش وإنى قضيت على نيقولا بيترويتش ، ولكنى أقسم لك ، وأشهد الله على أنى لم أجن منه مالاً ؟ بل إنه ليس فينا — نحن جماعة القيان — من لها حبيب غنى غير « موتجا » وأما نحن الأخريات فإنا نقاسى مرارة الجوع نصف أعمارنا ! إن نيقولا بيترويتش فتى أنيق لطيف المعشر وذلك ما دعانى إلى قبوله صديقاً . إنا قل أن نكون مدققات فى اختيارنا الصحاب !

— إنى لا أسألك غير تلك الحلى . أعيديها إلى . إنى أستصرخك وأضع نفسى أمامك ، وإن شئت فسألقى بنفسى على قدميك ، فأرجوك ... أرجوك »

فصرخت « باشا » رعباً واستنكاراً وشعرت أن هذه السيدة الحسناء التى كانت تتكلم بلهجة البطلة على المسرح على استعداد للانحناء على قدميها بكل ما أوتيت من ملكات الفخر والنبل لتذل نفسها أمامها ، ولتذلها — هى أيضاً — بذلك . ثم إنها قالت للسيدة وهى تجفف دموعها فى صوت مبحوح :

— حسن ، سأعطيك الحلى ، وأرجو ألا تظنين أنها من زوجك نيقولا بيترويتش وإنما كنت أخذتها من أخيار آخرين . وفتحت « باشا » الخزانة تارة أخرى وأعطت للسيدة دبوساً ماسياً وبضعة خواتم وعقود قائلة :

— خذى هذا أيضاً ، وهذا ، إنها ليست من زوجك ! خذيها جميعاً واجعلى بها من نفسك غنية من الغنيات — قالت كل ذلك متأثرة بما رأت من محاولة السيدة الانحناء على قدميها ! ثم قالت تستأنف كلامها : « وإذ كنت فى مثل هذا اللطف فعليك أن تحتفظى بزوجك خالصاً لنفسك ، وتعملى على ذلك فما أنا التى دعته إليها ، وإنما هو الذى جاء »

فنظرت السيدة من خلال دموعها إلى تلك الحلى المنثورة على المنضدة وقالت: «ليست هذه كل الحلى. إن قيمة كل هذا لا تعدل خمسمائة روبل!» فذهبت « باشا » إلى خزانتها بسرعة ورمت لها بساعة ذهبية ، وعلبة سكائر وزرين مما تُزَرّ به الأكمام ، وما إلى ذلك من أشياء ، ثم قالت وقد تأثر صوتها بقوة عزم ظاهرة : « إنى لا أملك غير ما ترين شيئاً وإنك تستطيعين التأكد بنفسك ! »

فتحسرت السيدة وجمعت تلك الحلى ووضعتها فى منديلها وخرجت لا تنبس ببنت شفة ، بل إنها لم تحن رأسها تحية توديع ! وهنالك فُتح الباب الموصل إلى الغرفة المجاورة وظهر نيقولا كولباكو وكان شاحب الوجه ، يهز رأسه فى حركة عصبية كأنه قد جرع جرعة من شراب مر المذاق ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه ، فابتدرته « باشا » قائلة :

— ما هى تلك الأشياء التى زُعِمَ أنك قدّمت إلىّ ؟ وإذا كان يحق لى أن أسأل فتى كان هذا ؟

فأجابها كولباكو هازاً رأسه :

— أشياء ؟ إنما هذا هذيان ! يا إلهى ! أتراها قد انتحبت أمامك ؟ وأذلت نفسها ؟

فصرخت « باشا » :

— إنى أسألك عن تلك الهدايا التى يقال إنك قد قدمت إلىّ ، ما هى ؟

— إلهى ! تلك النقية النبيلة الفخور تكاد ترتمى على قدمى هذه المخلوقة ؟ إنما جاءت بها إلى هنا أعمالى ! أنا الذى أقررت ذلك !

ثم إنه أسند رأسه إلى يديه وأنّ قائلاً :

لا . . . لن أغتفر لنفسى ذلك ، اغربى (أيتها الوحش عن وجهى) قال ذلك ورمى « باشا » بنظرة احتقار بينا كانت يداه المرتجفتان تشيران إليها بالابتعاد عنه

آه . لقد أوشكت أن ترمى نفسها عند قدميها ، وعند قدمىْ مَنْ ؟ عند قدميك أنتِ ؟ ويلاه ! آه ... يا إلهى !

ثم إنه أسرع فارتدى ثيابه وخرج من الدار متجنباً أن تمس « باشا » يديه !

فلما خرج طرحت « باشا » نفسها فوق كرسى وأخذت تبكى فى صوت رفيع . لقد كانت آسفة لأنها أعطت حليها

ولقـد كان منظراً بشماً كريهاً ذلك الذى شاهدته ! إنها قد تذكرت الآن كيف أن أحد التجار كان قد غلبها من ثلاث سنوات لغير ما سبب فأجهشت بالبكاء أكثر من ذى قبل ! ...

(بغداد) فخرى شهاب السعيدى

وكنت أريد قتلها

عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« نسمع هذه الأيام الحديث عن قتل الشفقة وهناك فريق من الناس ينشرون الدعاوة لهذا النوع من القتل ، ولكن هل كان لأى إنسان فى أى وقت أن يتولى ما هو من حق الله وحده ؟ هنا قصة مثيرة عن أم كادت تحت حكم الاغراء القاسى أن تقتل ابنتها ولكن ... »

***

بينما كنت أعد الدواء لابنتى الطفلة خطرت لى على حين فجأة فكرة القتل للشفقة

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء وكان اليوم مطيراً قابضاً ، وكان الطبيب قد أمرنى أن أسقى طفلتى فى الساعة الخامسة من مساء كل يوم عشر قطرات من الدواء الذى وصفه لها ، ونزولاً على هذا الأمر تناولت الزجاجة وشرعت أعد القطرات التى أصبها منها فى الملعقة

« واحدة ... اثنتان ... ثلاث ... »

على هذه الحال كل مساء فى الساعة الخامسة ويجب أن أستمر على ذلك الأسابيع والأشهر والسنوات؛ كل ذلك لأبقى على الأنفاس الضعيفة التى يرددها صدر طفلة مشوهة كسيحة — إنها لحياة مظلمة أشبه بهذا اليوم المطير القابض وهى مثله محرومة من ضياء الشمس

تحت تأثير هذا التفكير المظلم وبينما أنا أعد قطرات الدواء وقفت يدى وبقيت جامدة لا تتحرك ، فقدخطرت لى فكرة ملتهبة سريعة أشبه بضوء البرق الخاطف ومثله فى بساطته . لنفرض أننى أخطأت فى عد قطرات الدواء العنبرى واستمر السائل ينصب فى الملعقة حتى يغمرها ، أو لنفرض أننى تناولت عن خطأ غير مقصود زجاجة أخرى تشبه فى منظرها زجاجة الدواء ، ولكنها تحتوى مادة سامة . أليس ذلك ما يحدث بعض الأحيان فتنشر الصحف خبره تحت عنوان : « أم تخطئ فتناول السم بدل الدواء ، ويؤدى خطأها إلى قتل طفلتها »

بمثل هذه السهولة يمكن أن ينتهى كل شىء ! أيعد ذلك جريمة ؟ لا ! فما أنا إن فعلت إلا مؤدية واجباً تحتمه الشفقة الإنسانية إذ أنقذ طفلة مشوهة كسيحة عديمة الحول من حمل حياة مقضى عليها بالشقاء والتعاسة ! فما يخرج عملى عن أنه القتل باسم الرحمة والشفقة !

وإذ تدور هذه الأفكار فى رأسى يدب فى أذنى صوت ابنى ينادينى من الطابق الأرضى : « أماه ! أأنت فى الطابق الثانى ؟ » . وابنى كريستوف طفل فى السادسة من عمره قوى البنية قوى الصوت

فأجبته فى صوت آلى :

— نعم يا كريستوف

وبهذه الكلمات المسموعة مرت النوبة الجنونية التى أغرتنى فى صوت غير مسموع بارتكاب جريمة القتل . فعدت إلى الدواء أعد القطرات التى أفرغها منه فى الملعقة فى عناية وحذر . وذهبت والدواء

فى يدى إلى مهد الطفلة فنظرت إلى وجهها الشاحب المجرد من كل معنى

أهذه هى طفلتى ! هذه القطعة العاجزة التى تنبض بها الحياة ، كتلة مشوهة من الجسم الملتوى . هذه هى طفلتى !

لقد أصدرت أعلى الهيئات الطبية قرارها النهائى فى أمر هذه الطفلة العاجزة وهو :

« أنها لن تستطيع المشى يا مستر شلتون ، ولن تكون أبداً طفلة طبيعية »

وما زال نذير هذا القرار يزعجنى ويقض مضجعى وعبثاً بكيت هذا الحظ التعس . وكنت أسأل القدرة الإلهية فى صمت : لم هذا ؟ لقد كان طفلاى الآخران مثلين جميلين للصحة الكاملة . كان كريستوف صبياً طبيعياً عنيداً . وكانت لولا صبية جميلة محبوبة فى الرابعة من عمرها ، فلم نزل هذا المصاب بالطفلة الثالثة؟ لماذا ؟ أليس ثمت من علاج ، أما هناك من أمل ؟

لقد كان الجواب القاطع على هذا التساؤل : أنلا أمل على الإطلاق ... فليس فى قدرة أى مخلوق أن يعمل شيئاً حيال هذا المصاب . عندئذ طرأ فجأة ذلك الحل الذى يلح بارتكاب جريمة القتل ، القتل الرحيم الذى يخلص الفتاة من شقائها ويخلصنى من آلامى .

لا يكلفنى هذا الحل إلا أن أزيد بعض قطرات من الدواء على القدر المعين ، أو أن أخطىء فى تناول الزجاجة الثانية !

وسمعت فى الطابق الأول باباً يفتح ، ثم يغلق فى غير عناية . فيدل ذلك على أن كريستوف و(لولا) قد انتهيا من لعبهما خارج البيت . ولم يلبث الجو الداخلى أن ملىء بضحكاتهما وصخبهما ؛ ثم سمعت صوتاً مألوفاً لى هو صوت مفتاح الباب الخارجى ، وخطوات زوجى السريعة وصوته الطروب يدعونى :

— أأنت فى الطابق الثانى يا آن ؟

فأجبته :

— سأنزل بعد دقائق قليلة يا فيليب !

ثم أحكمت غطاء الطفلة وسويت وسائدها ، وكانت يداى مضطربتين . ثم هبطت إلى الطابق الأول ، وبعد فترة وجيزة جلسنا إلى مائدة العشاء ، واشتغل كريستوف ولولا بحديث لعبهما ، وشرع فيليب يحدثنى عن حوادث اليوم ويعلق على الأخبار الرياضية ... لقد كنا دائماً مثلاً وسطاً للأسرة العادية المتمتعة بنعمة الصحة التامة . بل لعلنا كنا فوق المثل العادى كما كنا شديدى النشاط . فقد كان الناس يقولون عنى وعن فيليب إننا نتقدم دائماً إلى الأمام، لا نبالى شيئاً ، وكنا نضحك من هذا الكلام ولا نندم على شىء !

لقد نشأت أنا وفيليب معاً ، ثم غدونا متحابين، وكنا نشترك فى الرحلات الخلوية ، وفى جماعات السباحة ، والألعاب الرياضية ، وكنا نركب السكك الحديدية الجبلية الملتوية ، وفى المنحنيات الخطرة يتعلق كل منا بالآخر ضاحكين مستبشرين ، وكنا أكثر من أى رفيقين غيرنا اندفاعاً فى الرياضة واللعب ، والرقص ، ثم ابتاع فيليب سيارته فكان يسرع بها أكثر من غيره من الرفاق .

وكان رفاقنا يطلبون منه دائماً أن يكون أشد حذراً فى قيادة السيارة ، فكان فيليب يضحك ويقول :

« بحذر ! سنعرف الحذر بعد مائة سنة ، أما الآن فإننا نمتع أنفسنا بأقصى ما نستطيع »

وإنى لأسأل نفسى دائماً ماذا كنا نفعل لو أننا

اطلعنا فى تلك الأيام السعيدة على ما يجيء لنا المستقبل.

وقد نشأ كريستوف ولدنا الأول شبه والده فى جسمه القوى وفى تفوقه السريع فى الألعاب الرياضية ، وكانت (لولا) المجعدة الشعر أصغر من أخيها بعامين شديدة الحرص على مجاراته فى حركاته .

وكان فيليب يعمل موظفاً فى محل تجارى ولم يكن يربح كثيراً ولكننا نعيش عيشة حسنة جداً ، وكانت دارنا بسيطة فى مظهرها ولكنها كانت مريحة وكانت من النوع الذى يلائم حياتنا الطروب المرحة

وكان انتظارنا طفلاً ثالثاً أمراً يدعونا إلى التفكير فى الاقتصاد على أننا لم نكترث لهذا الأمر . فقد رحب فيليب بالخبر ترحيباً قلبياً وقال :

— هـذا حسن جداً وسنرتب أنفسنا بحيث نوسع مكاناً للغريب الصغير

ودعيت أنا وفيليب إلى إحدى الحفلات ، وكان ميزان الحرارة ثابتاً على خط الجليد ، وكانت الشوارع مغطاة بالثلج فحذرتنى مسز فيرجسون جارتى من الخروج فى تلك الليلة قائلة : « إنك حامل يا مسز شيلتون ويجب عليك أن تحترسى »

فضحكت وقلت : إننى لا أحب أن أكون من القعيدات يستدفئن على الكراسى

فقالت السيدة :

— ولكن فى مثل هذا الجو ...

فقاطعتها قائلة :

— إنه طقس جميل جداً وأنا أحب البرد . وأنت ما رأيك فى نفسك يا فيليب ؟

فقال مبتسماً :

— إن هذا الجو يناسبنى جداً ، وأنا لا أشكو أبداً من الشتاء

وذهبت أنا وفيليب إلى الحفلة فى سيارتنا وكانت سيارتان أخريان قد تقدمتانا ، فقال فيليب :

— فلنسرع لنلحق بهما

فقلت مبتهجة :

— نعم لنلحق بهما ولنتقدمهما

ولم تمض فترة قصيرة حتى رأينا السيارتين المتقدمتين ثم أدركناهما فصاح فيليب ونحن نمر بهما ونتركهما وراءنا :

— انظرى ما تثيره سيارتنا فى الجو من غبار ثم قال فخوراً :

— إنى أراهن على أننا سنصل قبلهما بوقت طويل وسنـ . . .

وفجأة انزلقت السيارة على الجليد واضطربت حركتها ثم دوى الجو بصوت صدمة قوية

وأصيب فيليب برضوض خفيفة أما أنا فلم يظهر أننى قد أصبت بأى أذى ، وقلت لفيليب مؤكدة :

— كن واثقاً أننى لم أشعر إلا برجة خفيفة وبشيء من الخوف وليس هناك ما يدعو إلى الاهتمام

ولكن فيليب كان شديد الخوف شديد الندم وكان يقول من حين إلى حين :

— لا أستطيع أن أسامح نفسى يا آن ، لقد كان جنوناً مطلقاً منى أن أعرض لخطر القيادة السريعة الطائشة لغير داع إلا أننى كنت أريد مجرد التظاهر ... لا أستطيع أن أسامح نفسى .

فكنت أحاول أن أخفف من أثر الحادث فأقول :

— ليس فيما حدث ما يدعو إلى الندم مطلقاً ،

فكل إنسان معرض للحوادث الطارئة ؛ فلا يزعجك هذا الأمر .

وعندما ولدت ابنتنا كنت قد نسيت الحادث نسياناً تاماً ، وكان أول ما شعرت به بعد الوضع أن هناك شيئاً غير طبيعى ، وجاءنى هذا الشعور من أن الممرضة كانت ترفض باستمرار أن ترينى الطفل الجديد

وقد كان فيليب هو الذي أجابنى عندما فتحت عينى وسألت عن المولود . فقال لى :

— إنها نائمة

وكان فيليب جالساً إلى جانبى وكنت لا أزال تحت تأثير المخدر فلم ألاحظ أن هناك شيئاً غير طبيعى ، وقلت :

— إذن هى فتاة

فهز فيليب رأسه إيجاباً

فقلت :

— إذن ليكن اسمها جانيت

ولم ألبث أن وقفت تدريجاً وفى تأن على الحقيقة ، فقد أخبرونى أول الأمر أن الطفلة مريضة قليلاً ، ثم قالوا بعد ذلك إنها قد نقلت إلى مصحة خاصة لتكون تحت إشراف بعض الاختصاصيين . فلما عادت إلى قواى علمت الحقيقة . لقد ولدت الطفلة مشوهة ، وجلست يوماً فى مكتب طبيب اختصاصى كبير فى أمراض الأطفال فسمعت رأيه الأخير فى قوله :

— إنها لن تستطيع أن تمشى ولن تكون أبداً فتاة طبيعية

على أننى لم ألبث مع الزمن أن استسلمت للواقع ولكن فيليب ما زال متألماً يلوم نفسه ويعنفها ألف مرة ومرة ، وقد أصبح رجلاً مقهوراً معذباً ، وكان ذلك من الأسباب التى زادت الحمل الملقى على عاتقى فقد كنت أحب زوجى حبًّا شديدا ، وكان تألمه يدمى قلبى ، وأصبح الهيكل الصغير المحزن الراقد فى المهد شبحاً عابساً مخيفاً ملأ البيت صمتاً وتجهماً . وأثقل نفس فيليب ونفسى ، وخيل إلى أن لا أمل هناك فى تغير هذه الحال إلى أن كان ذلك المساء المطير المقبض وخطرت لى فكرة التخلص فى سهولة من حياة الطفلة ، فكانت هذه الفكرة هى الحل الوحيد للمشكلة التى اعترضت طريق حياتنا

ولازمتنى هذه الفكرة ملازمة غريبة . فقد كنت أتبع أوامر الطبيب فى دقة وحذر شديدين ، وإذا خرجت أنا وفيليب من البيت لأمر ما تركنا فى غرفة الصغيرة من يلازمها ويعنى بها ، وإذا هى بكت فى المساء أسرعت عند سماع صيحتها الأولى فتركت فراشى وحنوت عليها أنظر ما بها . وعلى الرغم من ذلك كانت فكرة القتل للشفقة تملأ رأسى ولا تفارقنى ليل نهار . وإذا كنت بين أصحابى أو فى غرفة الجلوس مع أفراد أسرتى وجدتنى على حين فجأة أفكر فى طفلتى المريضة وفى العمل الوحيد الذى يضع حداً لآلامها . وفى بعض الأحيان كان يبدو لى أن هذه الفكرة غير معقولة وخيالية . ولكننى إذا انفردت بالطفلة ورأيت وجهها الصغير التعب الشاحب وأعضاءها العاجزة المشوهة بدا لى أن فكرة القضاء على هذه الحياة المحزنة فكرة تتفق مع الحق والعدل ، فكانت تستحوذ على جميع مشاعرى وتدفع يدىَّ المضطربتين إلى التنفيذ

وإنى لأعلم يقيناً أن ملازمة هذه الفكرة لرأسى لم تكن نتيجة اضطراب نفسى . بل إنى لأعترف مخلصة أننى لم أكن واقعة تحت تأثير عصبى ، بل

كنت امرأة عملية اتخذت وجهة نظر هادئة واقعية فى موقف تعيس . إذ أية فائدة تجنيها ابنتى المريضة المشوهة من الحياة ؟ والحياة على أحسن التقديرات جهاد مر ومنافسة حادة مندفعة لا يفلح فيها غير الأصلح . فماذا تستطيع أن تفعل فى الحياة فتاة مريضة مشوهة عاجزة ؟! وهل يمكن أن تكون هذه المخلوقة إلا عبئاً على الآخرين تثقل عواتقهم ، دون أن تشترك فى شىء من نعم الحياة ، فهى قعيدة تسترعى الشفقة والعطف . تنتظر انتظاراً موجعاً أن يجيئها الموت وكلما طالت بها الحياة ازدادت آلامها ومتاعبها ؟ أليس من الإنسانية ومما هو أقرب إلى العدل أن يضع الإنسان حداً لهذا الانتظار المؤلم وأن يخلص ذلك الجسم العاجز من السلاسل المتعبة التى تربطه بالحياة المحرقة ؟

مثل هذه الأفكار هى التى كانت تساورنى فأخذت بها نفسى سراً يوماً بعد يوم وأنا أفكر فى الجريمة التى لا إثم فيها ، الجريمة التى لن تكون إلا عملاً من أعمال الشفقة والرحمة . ولم يكن الكتمان من طبيعتى فكان فيليب دائماً موضع سرى ، أفضى إليه بكل مشكلة تواجهنى وبكل قضية حيوية أفكر فيها . ولكننى لم أجسر أن أحدث زوجى بهذه المسألة الجديدة المتصلة بقضية الحياة والموت

وفى ذات مرة عرضت لهذا الموضوع عرضاً غير مباشر إذ قلت :

— إنى لأشعر أحياناً أنه كان خيراً لطفلتنا لو أنها ماتت . إذ أية فائدة هناك من إطالة حياة مريضة كهذه ؟

فنظر فيليب إلى نظرة عطف وإشفاق وقال :

— إنه لفظيع يا آن أن تعيشى مقيدة بلازمة طفلة مشوهة عاجزة وأنت المملوءة حياة وقوة

قلت :

— إن مخاوفى ليست من أجل نفسى ولكن من أجلها .

فقال :

— لم أقل لك من قبل يا آن إننى كثيراً ما ذهبت إلى المستشفيات ومصحات الأطفال لأبحث عما إذا كان هناك كشف حديث يفيد فى علاجها ، ولكننى لم أعثر على شىء من هذا القبيل ، ومن المحتمل أننا لو كنا أغنياء ...

فقاطعته فى شىء من العبوس :

هذا هو الموضوع ، فلو أننا على الأقل كنا أغنياء لاستطعنا أن نحيطها بأسباب العناية ... وإنى لأفكر دائماً فى المستقبل : مستقبلها هى ...

فتنهد زوجى وقال :

— وكذلك أنا ... ولكن ليس هناك ما يمكن عمله .

ولقد وددت لو قلت له :

— هناك شىء أستطيع أن أعمله ، ولسوف أعمله يوماً ما

ولكن هذه الكلمات لم تخرج من بين شفتى

نعم سيأتى اليوم الذى فيه أعمل هذا العمل ، وقد خيل إلىّ أحياناً أن هذا اليوم قد دنا ، وذلك عندما كانت تمرض الفتاة وتبكى وتئن أنيناً موجعاً مستمراً . فى مثل هذه الحالات كنت وأنا أغسل الطفلة العاجزة وأسمع أنينها أشعر بأن الخيط الفاصل بين الفكرة والتنفيذ قد أصبح دقيقاً جداً ، وعلى الرغم من ذلك بقى هذا الخيط الدقيق الفاصل قائماً وكان بعض الأحيان أقوى ، فى منع يدى من العمل ،

من جميع الآراء التي تساورني ومن العزيمة التي تدفعني إلى التنفيذ

وبلغت جانيت السنة الثانية من عمرها ، وكان نموها الطبيعي بطيئاً جداً . كذلك خيل إليّ أنها لا تنمو مطلقاً من الناحية العقلية ، فلم يبد منها أى دليل على الذكاء مثل الذى بدا من كريستوف ولولا حتى فى السنة الأولى من حياتهما . فقد كانت الطفلة كتلة مشوهة من الحياة لهـا عينان لا معنى فى نظراتهما ووجه لا يستطيع أن يتبين فيه الإنسان أى أثر من آثار الحيوية ولها أعضاء عاجزة معدومة النفع ... فهى مجموعة فيها حياة تدعو إلى الشفقة الممزوجة بالألم . وحتى ولداى الصغيران كانا ينظران إليها بين الرأفة والحنو

وكان من النادر أن يقترب كريستوف ولولا من أختهما ، وإذ كانا يشعران بأن كل شيء حولها غير عادى فقد كانا يمران بالغرفة على أطراف أصابعهما ويلقيان عليها نظرة عطف خاطفة ثم يسرعان إلى حيث يلعبان .

وفى ذات مساء تركت الطفلين وحدهما فى البيت فترة قصيرة من الوقت ، فلما عدت وجدت كريستوف فى الطابق العلوى وعند ما سمع حركة دخولى إلى البيت صاح بي :

— أنا هنا مع جانيت . لقد كانت تبكي فهززت مهدها فسكتت

واستمر الطفل يرقص فى غرفة أخته المريضة ، ثم صاح مبتهجاً على حين فجأة يقول :

— أسرعى يا أمى بالصعود ، وتعالى انظرى ، إنها تبتسم يا أمى

وإذ دخلت الغرفة أشار إلى أخته وقال : (أنظرى)

وحقاً رأيت لأول مرة دلائل الانتباه بادية على وجه الطفلة . فكانت محدقة فى كريستوف وعلى فمها ابتسامة هى أولى ابتسامات الطفولة العذبة وكان كريستوف مبتهجاً فكان ينقلب فى الهواء ويحرك أذنيه ويديه حركات بهلوانية ، وكانت عينا الطفلة الصغيرة تتبعان حركاته والابتسامة ملازمة فمها

وقد أسرت هذه الابتسامة قلب كريستوف ، وأصبحت ملاعبة جانيت أهم تسلياته من ذلك اليوم وكان يقول لى فى كبرياء :

« أنظرى كيف أحملها على الابتسام »

ثم تضيء عيناه ببريق الانتصار ويبدأ سلسلة من ألعابه البهلوانية ويقول :

« أنا الوحيد الذى يستطيع أن يضحكها »

وأصبحت جانيت من ذلك التاريخ فى حماية كريستوف فإذا هى بكت لاعبها فى أناة وفى غير ضجر حتى يرضيها ، وإن هى امتنعت عن تناول الدواء أو الطعام استطاع أن يحملها على تناولها ، وكان يقول مفاخراً :

« إننى أستطيع أن أجعلها تعمل أى شيء أريده »

والواقع أن جانيت كانت تطيع كريستوف فى كل ما يأمرها به

وكان يحضر لها اللعب وعرائس من الورق وقطعاً من السكر الخالص فإذا عاد من المدرسة دخل مباشرة إلى غرفتها وقال :

« إليك يا جانيت أنظرى ما أحضرته لك »

وكان يسره أن يشرح لها فائدة كل لعبة من هذه اللعب ويقول لى فى لهجة التوكيد :

« إنها تفهم ، تفهم كل شيء أقوله لها »

ولقد شعرت ، حيال ما رأيت من عناية

كريستوف بأخته وإخلاصه لها ، بالخجل من موقفي منها ، ولكن عقيدتي في أن الموت كان خيراً لها من الحياة مازالت متمكنة من نفسي

وكان الأصدقاء يسألونني في عجلة من باب أداء الواجب :

« كيف حال الطفلة ؟ »

فكان جوابي القصير :

— على ما كانت عليه

وكنت أزيد على ذلك في سري :

— وستبقى على ذلك دائماً قعيدة عاجزة

وبلغت جانيت السنة الثالثة قبل أن تنطق بكلمة واحدة وكانت أول كلمة نطقت بها وأول اسم ذكرته هو « كريستوف »

فازداد كريستوف كبرياء وقال :

— أنظري كيف أعلمها الكلام ، قولي ياجانيت ما هو اسمي ؟

فتكرر الطفلة قولها :

— كريستوف !

وإذا نطقت بهذا الاسم أشرق وجهها وأبرقت عيناها

هذه هي العلامات التدريجية البطيئة التي كانت تنم عن التقدم الطبيعي في حالة الطفلة . ولكن المحنة بقيت على حالها ، وكنت آخذها معي في الطريق للتروض فترقد في عربتها كتلة جامدة هادئة ، وكنت كلما نظرت إليها تولاني الخوف من مستقبلها . كنت أسائل نفسي ماذا يكون إذا هي كبرت وأدركت أنها ليست مثل غيرها من الفتيات ؟

وكان الناس يتمتمون إذا ما رأوها :

— مسكينة هذه النفس الصغيرة !

وكنت أردد صدى هذه الكلمات متنهدة تنهداً عميقاً . نعم مسكينة هذه النفس الصغيرة التعيسة ، لماذا خرجت إلى هذا العالم ؟ ولأي غرض كان مجيئك ؟

على أنني لم ألبث أن تلقيت الجواب سريعاً على هذا السؤال

أحييت أنا وفيليب أمسية أحد أيام السبت . وكان الجو دافئاً ، فتعشينا عشاء بارداً في الحديقة الخلفية وكان ضيوفنا مرحين مبتهجين ، وعند منتصف الليل بلغ الابتهاج غايته ، وإذ لم أكن متعودة كثرة الشرب فقد شعرت بالنشوة بعد كأسين من الكوكتيل . وحوالي منتصف الليل بدأت جانيت تبكي ...

وكنا قد سمحنا لكريستوف ولولا أن يسهرا قليلاً في هذه الليلة ، وبعد أن انصرفا إلى فراشهما بوقت غير طويل سمعنا بكاء جانيت ، فلم نهتم به أول الأمر ، فقد كان من المألوف أن تستيقظ فتبكي قليلاً ثم تسكت وتعود إلى النوم ، ولكن بكاءها هذه الليلة استمر أكثر من المألوف وازداد ارتفاعاً ، ثم صرخت صرخة موجعة حملتني على الإسراع إلى داخل البيت وصعود السلم وثباً ، فسمعتها تصيح منادية باسم أخيها : كريستوف ! كريستوف !

وشعر عقلي المضطرب بشيء من الخطر ، ولكنني لم أستطع تبينه ، فأسرعت داخلة إلى غرفة النوم ، وهناك وقفت جامدة من الرعب ، فقد كانت عينا جانيت محدقتين بباب الغرفة التي ينام فيها كريستوف ولولا ، وكان الدخان مندفعاً من ذلك الباب ، فقد كان هناك شيء يلتهب على مقربة من سريري الطفلين النائمين ، وجلبت صرخاتي المتوالية كل من في الدار ،

فاستطاعوا اختطاف الصغيرين من وسط الغرفة الملتهبة

فقال فيليب وهو يرتجف :

ماذا كان يحدث لو لم تستيقظ جانيت وتبكى .

إنها الصدفة السعيدة وحدها التى أيقظتها !

ولكننى أنا التى رأيت صورة الجزع مرسومة على وجه الطفلة ومعنى الفزع ينطق من عينيها المحدقتين فى الغرفة الملتهبة ، أنا التى رأيت ذلك أعرف أن صرخاتها لم تكن مجرد مصادفة . فهى قد أحست بالخطر يدنو من كريستوف ، فصرخت تطلب النجدة إلى أن نجا حبيبها كريستوف من الخطر .

هذا هو الجواب على سؤالى . فإن بعض الذين يقضى عليهم سوء الحظ بالعجز والقعود عن الحركة تبقى أرواحهم حرة طليقة ، وهذه الأرواح تستطيع أن تضطلع ببعض أعمال البطولة والشجاعة ذات الفائدة العظمى . لقد قضى على طفلتنا بأن تحيا حياة المرض والعجز ولكنها أنقذت حياة أخويها

بالغ كريستوف فى عرفان الجميل الذى أولته إياه أخته ، ونشرت الصحف المحلية خبر الحادث ، فأحضر هذه الصحف إلى البيت وأطلع جانيت على الصور وما حولها من تعليق ، وأخذ يشرح لها فى أناة معنى ما كان يقرأه بصوت مرتفع ويقول لى مؤكداً :

— إنها تفهم وهى مدركة أنها قد أنقذت حياتنا ، انظرى إليها كيف يطفح وجهها بالسعادة !

قوى هذا الحادث روابط الصداقة بين كريستوف وجانيت ، فضاعف جهده فى إرضائها والعناية بها وحملها على الابتسام والشعور بالسعادة ، وكان يقضى الساعات فى الغرفة الصغيرة فوق السطح فى صنع اللعب التى يقدمها لها فكان يصنع الكراسى والموائد والأصونة ويعهد إلى لولا بدهانها وتزيينها .

وكانت لولا غير مهتمة أول الأمر بحركات أخيها ، ولكنها لم تلبث بحكم مجاراتها له أن تعمل تحت إشرافه فى مساعدته بصنع العرائس وخيط الملابس ، وقطع الصور . وكانا فى أثناء عودتهما إلى البيت بعد انصرافهما من المدرسة يلتقطان بعض الأزهار فيجعل كريستوف منها باقة يقدمها إلى جانيت وهو ينحنى أمامها محيياً فى صورة تمثيلية ظريفة . ولم تكن جانيت لتسر بشىء مثل سرورها بهذه الباقة من الزهر . ولما أدرك الطفلان ذلك كانا يقتصدان كل ما يستطيعان من نقودهما القليلة ليشتريا لها بعض الأزهار من حانوت الزهار إذا لم يجدا شيئاً منها فى طريقهما .

وكما تنمو الزهرة فى حرارة الشمس إذا عنى بأمرها عناية كافية فكذلك كان شأن ابنتى الشاحبة المريضة ، إذ بدأت تنمو وتقوى رويداً وتبدو عليها معالم الحياة . واختفت من وجهها نظرة الخمول ، والغباوة التى كانت تغشيه وحلت محلها عذوبة جذابة وأصبح وجهها الرقيق بما فيه من عينين زرقاوين فتانتين أشبه بصورة رائعة يحيط بها إطار من حلقات الشعر الجعد فلم يكن الإنسان ليملك نفسه من النظر إليه مأخوذاً ، وكان تقوس شفتيها البديع ومظهر الألم البادى فى عينيها الجميلتين مما يبعث العطف إلى قلب الناظر إليها ويملأه حباً لها وحدباً عليها ، وقد طهر هذا النظر نفسى مما كان يداخلها من الشعور بالمرارة والحنق . وكان ما فى عينيها من معنى الصبر والاحتمال يوحى إلى النفس برسالة سماوية أشعرتنى بالخجل الشديد كلما ذكرت فلسفتى الجاحدة

التى كنت أناجى بها نفسى فى أيامها الأولى.

***

أحسست حيال ذلك بأن نفسى تفيض بعاطفة رقيقة قانعة جددت شبابى الروحى . ولم يغب عنى أن ضعف جانيت وضرورة اعتمادها على غيرها هما اللذان حركا عوامل الرحمة والمحبة وكرم المعاملة فى نفسى كريستوف ولولا . ولقد كان كريستوف فى سنواته الأولى صعب المراس لا يسهل ترويضه وكانت طبيعته صلبة أنانية ، فلم يغب عنى الآن أن ابنتنا الصغيرة كان لها الفضل الأكبر فى تهذيب هذه الطباع وتحويلها إلى خلق رقيق وديع

ولما التحق كريستوف بالمدرسة الثانوية تحدث إلينا عن مطامعه فى لهجة مازحة قصد بها إلى إخفاء ما وراءها من انفعال فقال :

— أريد أن أبحث معكما فى أمر يتصل بى وبمستقبلى

فقال أبوه فى لهجة ساخرة بعض الشىء :

— أسمعنا قصتك !

فأجاب كريستوف :

— حسن ... لقد فكرت — منذ زمن بعيد — فى أننى راغب فى أن أكون طبيباً : لأننى ما كدت أتبين حالة جانيت حتى استقر رأيى على أن أصبح يوماً ما طبيباً — وطبيباً ماهراً — وإننى عند ذلك أستطيع أن أشفيها .. فالذى أريد أن أحدثكما فيه هو هذا ... وأنا عالم طبعاً أن ماليتك محدودة يا أبى ولكننى فكرت فى أننا نستطيع نحن الثلاثة أن نجد طريقاً ما لتحقيق هذه الغاية »

فأجابه أبوه :

— إذا كنت قد اعتزمت أن تدرس الطب ، فصمم على عزمك يا بنى ، وسنجد طريقاً لنفقات تعليمك . فهناك دائماً طريق مفتوحة لمن يبحث

قال الفتى :

— هذا بديع جداً يا أبى

وهكذا وجهنا جهدنا أنا وفيليب وكريستوف إلى توفير الأسباب التى تمكن كريستوف من درس الطب . فحصل كريستوف على عمل يشتغل به بعد انصرافه من المدرسة ، وكذلك حصل فيليب على عمل إضافى ، أما أنا فوضعت نظاماً جديداً للنفقات المنزلية ، وبذلك حققنا أمنية كريستوف فى درس الطب .

وأصبح كريستوف فى الثامنة عشرة من عمره على استعداد لدخول مدرسة الطب ، وكان حاد الرغبة فى تحصيل العلم حتى لقد أدهشنا أن ينقلب الغلام الشاكس الميال إلى اللعب إلى فتى شديد الانكباب على الدرس ملتهب الرغبة فى تحقيق مطامعه العلمية ، وإذا أنت لاحظته عن كثب تبين لك ما فى نفسه من إصرار على الوصول إلى هدف وضعه نصب عينيه ولا يريد عنه تحولاً

ولقد قال لى مرة :

— إنه ليصعب على يا أمى أن أنتظر حتى أصبح طبيباً لأستطيع عمل شىء لجانيت . على أننى مقتنع بأننى قادر على أن أساعد فى تخفيف متاعبها ، فلقد كنت دائماً قادراً على أن أعمل لها شيئاً ، فكنت أول من حملها على الابتسام وأول من علمها الكلام ودربها على فهم ما يقع تحت حسها . وسأشفيها !

وكانت جانيت قد بلغت الثانية عشرة عند ما دخل كريستوف مدرسة الطب ، ولما كانت قد ازدادت رقة وضعفاً فقد كانت تضطر أحياناً للبقاء فى فراشها

عدة أيام ، وكان كريستوف فى هذه الحال يسهر عليها فى لهفة شديدة . وكان يقول لها مازحاً :

— اسمعى يا زرقاء العينين . إنك لن تبقى مريضة إلى أن أصبح طبيباً . فلقد قضت الظروف بأن أكون طبيبك منذ عهد طويل ، فأنا لا أريد منك أن تناصرى منافسى

فسألته جانيت فى صوتها الرقيق :

— وكم أمامك من الزمن حتى تصبح طبيباً ؟

— عدة سنوات ، ولكنها ليست طويلة بقدر ما يتوهم الإنسان ، فإن الوقت يطير

فابتسمت جانيت وقالت :

— سأجتهد فى أن أبقى قوية إلى ذلك الحين يا كريستوف . وأنت تعلم أننى سأجتهد فى عمل أى شىء يرضيك

فقال أخوها :

— يالك من فتاة طيبة ... وأنا من أجلك سأبذل جهداً مضاعفاً لأنتهى من الدرس على عجل

وإذا كان كريستوف قد أظهر قدرة فائقة فى الدرس وإذا كان قد حصل على درجات أعلى بكثير من درجات رفاقه فإن الفضل فى ذلك لا يعود إلى ذكاء خارق، ولكن إلى اعتقاده أنه متى أتم درس الطب سيصبح قادراً على تطبيق علمه على حالة أخته ، وإلى خوفه من أن تجىء معرفته وقدرته على شفائها متأخرتين عن الوقت المناسب

وكانت جانيت تسير فى طريق الانحلال، وكنا كلنا نعلم ذلك وقد قال الأطباء إن قلبها لابد أن يقف فى أى لحظة من اللحظات . وكانت الفتاة تجلس إلى جانبى خاملة ساكتة بينما أعزف لها على البيان أو أقرأ لها قطعة ما بصوت مرتفع ، وكانت تسند رأسها المتنقل إلى ركبتى . وكان كريستوف وحده هو الذى يستطيع أن يضحكها ويبعث بمعنى السعادة إلى عينيها، إذ كان لا يزال قادراً على تمثيل بعض الألعاب البهلوانية ، فإذا رآها متعبة أسرع بتمثيل بعض هذه الأدوار . وكانت تقضى النهار كله فى انتظار عودته إلى البيت

أما (لولا) فكانت أشد تحفظاً، وكان لها كثير من الأصدقاء الذين كانوا يجتمعون فى بيتنا ، وكانوا جميعاً يحبون جانيت ويتحدثون عنها ، ومع ذلك فقد كانت وسط هذا الجمع الطروب تبدو وحيدة متحفظة وقد شعرت بأن جانيت كانت تبغض — على نوع ما — ما يبدون نحوها من شفقتهم الظاهرة . ولم تكن (لولا) ولا أصحابها بأهل لتلك الرفقة البهيجة التى كان يخلقها كريستوف بينه وبين جانيت بأسلوبه الطليق البسيط

وقد نظرت جانيت إلىّ مرة بعد انصراف فريق من أصدقاء « لولا » وقالت :

— لم يشفقون علىّ يا أمى ؟ أذلك لأنى لست كغيرى ؟ إنهم جميعاً ينظرون إلىّ بعين الشفقة .

فقلت فى حيرة :

— قد يظن بعضهم أنك غير سعيدة .

فبدت الحيرة فى عينيها وقالت :

— ولكننى سعيدة ، ولم لا أكون سعيدة ؟ وإنه ليخيل لى أحياناً من الأسلوب الذى يعاملنى به الجميع أننى أميرة صغيرة مدللة .

ثم فكرت قليلاً وعادت فقالت :

— أظن أن هناك نقصاً فى ناحية ما من نواحى حياتى ، ولكن هناك مقابل ذلك أشياء كثيرة

تعوضنى من ذلك النقص ، فإنى لأعلم ما تحمل لى قلوب الجميع من العطف وأشعر باستعداد الجميع لمساعدتى فى كل ما أريد .

ثم أضافت إلى هذه الكلمات إحدى خطراتها التى تنم عن الفلسفة والشعور الدقيق والتى طالما أدهشتنى بها فقالت :

— إن بعض الناس يقضون حياتهم، وقد تكون طويلة، دون أن يقفوا على مواطن الشفقة والحنان. أما أنا فقد رأيت دائماً الشفقة وروح المساعدة . . . ونعمت بذلك .

فقلت :

— إن تبين ذلك لا يغيب عن الناس ... ولكن فى نفوسهم خوفاً طبيعياً من الضعف ...

فأجابت جانيت فى بساطة :

— أنا لا أشعر مطلقاً بشىء من الخوف ، ولا أفهم معنى الخوف . فإن الشفقة موجودة دائماً فى الحياة ؛ ثم إنى لا أخاف الموت ، وإنى لأعرف أنى لست قوية ، وربما مت قريباً جداً ، ولكننى عندما أفكر فى الموت لا أشعر بشىء من الخوف ، وفكرتى عن الموت أنه نوم مريح غير متقطع .

إنقبض صدرى عند سماع هذه الكلمات ، وأحسست بأن الموت غير بعيد عنها. فطوقتها بساعدى فى حركة عصبية لا إرادة لى فيها ، فمال جسمها على جسمى وكان ضعيفاً بارداً . . . وكان عزيزاً علىّ

وبعد أشهر من هذا الحديث كررت قولها :

— لا أحب أن أراك غير سعيدة يا أمى فأنت تعلمين أننى لا أخاف الموت . . .

فحاولت عبثاً أن أحبس الدمع وأن أبتسم وأتشجع فأكون على الأقل فى مثل شجاعة ابنتى الصغيرة . ولكن الموت كان قريباً ، وكنت أفزع من اقترابه

ووقف كريستوف إلى جانبى ، وقد طفحت عيناه بمعنى الألم ، ولكن صوته كان قوياً ، ينم عن الشجاعة وهو يقول لأخته :

— أنظرى إلى يا جانى . . . إنه لا يزال أمامى عامان قبل أن أنتهى من الدرس ، ولقد وعدتنى بأن تبقى قوية إلى ذلك الحين فلتحرصى على وعدك . ويجب أن تتعلقى بالحياة أيتها الفتاة الشجاعة .

وكانت جانيت تلفظ أنفاسها الأخيرة وهو يلفظ من خلال الدموع المنهمرة قوله : « يجب أن تتعلقى بالحياة أيتها الفتاة الشجاعة »

وصاح كريستوف باسم أخته الحبيبة « جانيت » فتمثل فى هذه الصيحة كل ما حمل قلبه الكسير لصاحبة هذا الاسم المحبوب من الحب والحنان

وحاولت الفتاة المحتضرة أن تفتح جفنيها لتنظر إلى أخيها المحبوب ونطقت باسمه « كريستوف » ومرت على شفتيها ابتسامة سريعة تشبه ابتسامتها الأولى التى أثارت عواطف أخيها الصغير . ثم أطبقت عينيها وتنهدت فى ضعف وسكنت حركتها

فطوقنى كريستوف بساعديه وهو يزفر زفرات شديدة ويقول : « لماذا تموت ؟ لماذا ؟ »

وبعد عامين من موت جانيت أصبح كريستوف الدكتور شلتون ، فما كان أشد فرحنا وافتخارنا بذلك . لقد كانت سعادتنا أكبر من أن يصفها الكلام ، وقد قال فيليب :

— إنه لما يفخر به الإنسان أن يكون له ابن كهذا

وامتلأت عيناى بالدموع : دموع السعادة والشكر

وأولنا وليمة عشاء احتفالاً بنجاح كريستوف الذى كان أشد المجتمعين ابتهاجاً . ولكن بعد أن انصرف المدعوون وجدته واقفاً وحده فى الغرفة التى لفظت فيها جانيت أنفاسها الأخيرة . وكانت عيناه مبللتين بالدموع

فلما رآنى أمسك بيدى وقال :

— تعالى معى يا أمي غداً إلى المقبرة ، فإنى أريد أن أضع زهوراً ندية على قبر جانيت ، فأنت تعلمين أنها كانت دائماً تحب الأزهار ، وأنا أريد أن تشترك معنا فى احتفالنا

وعدنا من المقبرة مثقلى القلب . وقال كريستوف متنهداً :

— لو أنها عاشت بضع سنوات أخرى ! نعم قد لا أكون قادراً على أن أعمل لها شيئاً كبيراً ولكننى كنت أستطيع على الأقل أن أسهل عليها الحياة وأجعلها أكثر احتمالاً ، على أننى سأمضى فى الدرس فإنى أريد أن أختص بعلاج الأطفال الضعفاء ، وسأكرس حياتى لهذا الغرض

وأبرقت عيناه وهو يقول :

— إننى حباً فى جانيت سأكرس حياتى لمساعدة الأطفال الضعفاء ، وإنى لأشعر أنها ستعرف ذلك وتفهمه على نوع ما

وفى أقل من خمس سنوات ارتفعت سمعة كريستوف وأصبح الدكتور كريستوف شلتون موضع احترام زملائه وإعجابهم وموضع ثقة مرضاهم وشكرهم

وإنى لأعلم أن نجاح كريستوف يتصل اتصالاً شديداً بحبه الشديد لأخته . فإن روح البطولة التى تمثلت فيها قد أوحت إليه بأن يعنى بأمر الأطفال التعساء فدفعته بذلك إلى أن يصبح طبيباً ممتازاً فى تخفيف آلام الطفولة المعذبة

لقد ماتت طفلتى المريضة ، ولكن قصة حياتها القصيرة كانت أقوى من أية موعظة تلقى من على المنابر فى تقرير حق كل إنسان فى أن يعيش وسواء كانت الخيوط من التراب أم من الذهب وسواء أكانت خالصة أم معقدة ، فإن لكل نفس الحق فى أن تنسج حظها إلى أن تتم حياكة الثوب كله

عبد الحميد حمدى

أغرب من الخيال !

عن الانجليزية

بقلم السيد ناصر عزيز منصور

[قصة تمثيلية مؤلمة — تجارب مذهلة — وإلهامات مثيرة — تقرأ جميعها فى كلمات معدودة — طريقان للمعيشة ! ...]

* * *

أذهلنى ما كنتُ أكابد من شدّة التعب وألم الطوى عمّا يحدق بى ، عند ما ألقى الشرطى القبضَ علىّ لتشردى . . . حتى لقد هان عندى الذهاب إلى السجن فعلى أى حال سأصيب هنالك بعض الطعام !

تزاحمت الأفكار فى رأسى ... وتصورتُ بمرارة أنى فى الوقت الذى حملتُ فيه نفسى على سلوك طريق الصواب يكون السجن موئلى ! ... آه لو كنتُ قد قنعتُ بالبقاء فى (انكلترا الجديدة) ؛ إذاً لأمنتُ شرّ المتاعب ولعشت طوال حياتى سعيداً . ولكننى لم أرد ذلك ... أردتُ أن أعمل ، ولمّا لم أجد إليه فى محلى سبيلاً شرعتُ فى الذهاب إلى (كاليفورنيا) يحدونى أمل العثور على شغل مربح هنالك ، وقد كنت صغير السن وأعزب .

سافرتُ إلى كاليفورنيا جاهلاً أن فيهـا من المتشردين أمثالى من تغص بهم الأزقة . فلما وصلتُ إليها لمستُ هذه الحقيقة المؤلمة ، ووجدتُ لديهم قوانين صارمة جداً تجاه المتشردين ، بحيث لو كان هنالك شغل لما وجدتُ إليه سبيلاً ...

وفضلاً عن ذلك ، فقد أُنذرت بترك المدينة أو التفضل للإقامة فى السجن !

وعلى ذلك سافرت إلى (جامل) المدينة الصغيرة الناعسة جنوبى كاليفورنيا — والتى تبعد عن الساحل قرابة الثمانين ميلاً . وما وطئت قدماى أرضها حتى ندمت على القدوم إليها إذ وجدتُنى منهوك القوى شريداً . فأخذت أهيم على وجهى فى الطرقات باحثاً عن محسن يُلقمنى بعض الطعام ، وقد وجدت المحسن أخيراً ؛ وكان ذلك الشرطى الذى ألقى القبض علىّ !

قادنى الشرطى إلى بناء خشبى صغير ، يدل مظهره على قدمه ؛ وأخذنا نرتقى سلّماً خشبيًّا تئن ألواحه كلما اعتلتها أقدامُنا ، وما انتهينا منه حتى دلفنا إلى غرفة صغيرة كان أثاثها منصّة وكرسيين !

متشرد آخر أيها القاضى ! . . . فاه الشرطى بهذه الكلمات للشخص الوحيد الذى كانت تحويه تلك الغرفة . ثم أردف : لقد تبينت فى مشيته تلكؤاً فاعتقلته !

نظرت إلى الحاكم بفضول ، فوجدته قصير القامة ، يدل محياه على حنان كامن فى ثنايا قلبه ! ... رفع الحاكم رأسه إلىّ ، وكان نصف مستيقظ . فقال بتراخٍ : حسن ! هل لك أن تدافع عن نفسك قبل أن تسجن عشرة أيام ؟ ...

وأمام هـذا الإنصاف الذى أولانيه القاضى لم أتمالك من الابتسام ... ولم يلبث هو نفسه أن ابتسم لابتسامى ، ولم يبد عليه أنه يزدرينى رغم تشردى . ولقد تبينت فيه من الحنوّ والعطف ما خفف بعض مابى من حزن ، وما جعلنى أجد الحياة أقل مرارة !

لم يكن لدى ما أقوله ! فصحبنى الشرطى إلى السجن وهو بناء خشبى فسيح ، ذو زوج من الغرف المألوفة تناسبها تلك الأقفال الكبيرة المعلقة بها ، والتى لا يستغرق كسرها أكثر من دقائق ثلاث !

قال الشرطى بعد ولوجى السجن : هاتان سنتان لم يشرفنا خلالهما سوى اثنين ... لقد كانا فى حالة سكر شديد أفقدهما الصواب ! وأنت . . . أرجو ألا تفكر فى الهرب . فإنك ستنتقل إلى محل غير هذا بعد بضعة أيام ...

***

حقـًا ! ما أشـد غرابة طريقة هؤلاء الناس فى معاملة المسجونين ! هذا ما خطر لى بعد ذهاب الشرطى عنى وبقائى وحيداً . تراءى لى موقفهم نحوى فوجدتهم قد أنصفونى فى قضيتى ... لقـد وفروا لى الطعام والمأوى ... وبفضلهما دبت الراحة فى أنحـاء جسمى وأخذتُ فى تحسّن مستمر . أما ذهنى فكانت تزدحم فيه الأفكار الطائشة ، حتى لقد ارتبتُ فى إمكانى المحافظة على الشرف والاستقامة اللذين قطعتُ على نفسى عهداً أن أتمسك بهما ! لقد أشرفت على نهاية اعتقالى ، ولم أكن أنتظر أن أجد لى شغلاً فماذا تُرانى فاعلاً ؟ هذا ما كان يقض مضجعى ولـكن الأمور لم تلبث أن تغيرت تغيراً تاماً فتغير بذلك مجرى حياتى !

كان ذلك فى صباح اليوم الثامن من دخولى السجن . . . إذ أبصرت تزحزح باب غرفتى ، ثم أبصرت الشرطى يدخل كالثمل زاعقاً فى وجهى أن أخرج ! وفى ثانية واحدة كنتُ بجانبه متعجباً لتلك الثورة التى تجلت فى نبرته ، وأشد تعجباً لامتقاع وجهه ! تُرى أتكون فاجعة ؟ نظرت إليه وسألته باستغراب : ماذا دهى ؟ ... ما الأمر ؟ ... فكان جوابه أن جذبنى بعنف ... ثم دفعنى إلى الشارع الرئيسى المغبر ، ذلك الشارع الذى كان خلواً من الناس فى هـذا الوقت من الغرابة حقاً ! وبأصبعه المرتجفة أشار نحو الجبال الكائنة خلفنا . وقال بصوت أجش :

— ذلك هو السبب !

نظرتُ إلى الجهة التى أشـار إليها ، فلم أقدر على تمييز شىء سوى سحابة قاتمة معلقة فى السماء . التفتُّ إليه وأخبرته بما رأيت . فكان جوابه :

— ليس ما رأيته سحابة ، وإنما هو دخان سببه حريق فى الغابة !

ولقـد صرّح جوال الغابة بأنه أعظم وأفظع حريق شوهد إلى الآن !

— هل فى ذلك خطر على أحد؟ فنظر إلى بغرابة وقال :

— لقد نسيت أنك من الشرق ... إذاً فاعلم أنه إذا كان هنالك ما هو أشد رهبة وأعظم هولاً من

الجحيم ، فذلك هو حريق الغابة فى الجبال حول هذه المحلات ، صيفاً ، فى مثل هذه الرياح العاتية ! وذلك ما هو حال بنا الآن ! ...

وبتر حديثه فجأة ، وبعد هنيهة قال بتصميم :

— ليس من اللائق أن نواصل الكلام هنا ... يجب علينا أن نكون بجانب الحريق فى أسرع وقت ... وعلينا فى الوقت نفسه إيقاف من نراه فى الطريق ، هيا بنا ...

ولكننى لبثت فى مكانى جامداً ولم أتحرك . فإن لهجته الآمرة لم تعجبنى ، فصرخت فى وجهه :

— لماذا يجب أن أذهب ... أنا لست من هذه الأطراف ؟ !

وكان جوابه أن ثبت على وجهى عينيه المتقدتين ثم سحب مسدساً من الجراب المتدلى إلى جانبه . وقال بسماجة :

— إذا أبيت الذهاب بإرادتك ذهبت تحت ضغط المسدس . فاختر ما تريد ، واعلم أن مئات الأنفس حياتهم فى خطر ! !

طغت على نفسى حينئذ موجة جارفة من الخجل فأجبته بسرعة :

— عفواً . هيا بنا !

— هذا أكثر مما أردته . ثم أرجع المسدس إلى جرابه ، وأخذنا نسير بخطى واسعة إلى سيارة قديمة . وبصوت آمر قال : إقفز إليها ! وفى لحظة واحدة كنا نسابق الريح !

مرت ساعة ... سلكنا أثناءها طرقاً صخرية ملتوية ... وفجأة شعرت بأن حرارة الحريق أصبحت لا تطاق ، والطريق لم تزل طويلة ... وقفنا السيارة وفى دقيقة أخليناها ، وأخذنا نسرع فى اتجاه مصدر النار !

وقفنا من النار عن كثب فوجدنا حوالى خمسين رجلاً يحاولون مكافحتها عبثاً ، كما تراءى لى . . . تلك النار التى كان قطرها يقارب ربع الميل ، تزحر فى زحفها بجانب الجبل قاصدة الحقول المترامية القريبة !

طمأنت نفسى قليلاً إذ توهمت أن لا خطر من النار . فقد أجلتُ الطرف أمامى فلم أجد ما يمكن أن يكون صالحاً للاشتعال سوى أعشاب ونباتات غابية لا يعدو ارتفاعها خمسة أقدام ؛ ولكننى لم ألبث أن أدركت مدى ذلك الخطر عندما صوبت نظرى نحو الرجال . فرأيت نظراتهم التائهة الوانية ، واستلقاء بعضهم على بعض إعياء حاملين أكياس البارود المبتلة ! ثم إن حرارة الغابة المشتعلة أخذت تتعاظم حتى أصبحت أعلى ما يمكن أن تكون !

***

رجعتُ بذاكرتى إلى ما قبل سنين معدودة ! فتجسم لى ذلك الحريق الذى شب آنذاك فى (جريفين پارك) بلوس انجلس ، والذى ذهب ضحيته عشرون رجلاً غريباً أثناء اجتماعهم هناك ... وأدركت حينئذ كيف يكون الموت ، رغم أن تلك النار لم يتجاوز ارتفاعها أربعة أقدام !

إنتهيت من خواطرى فإذا بى أبصر شخصاً قادماً وهو يلهث، وقد بدا الإنهاك جلياً على قسمات وجهه ، ومن حوله كيس البارود المبتل يتأرجح ، ويضرب جانبيه !

أنعمت النظر فى ذلك الرجل فعرفته ، وكذلك عرفه الشرطى الذى كان بجانبي، وفى لحظة استلقينا على الأرض لئلا يرانا !

كان القادم هو القاضي بعينه ... ولم نكن نجسر على إنقاذه تاركين باقى الرجال يكافحون النار الجائعة لإخمادها ، وتطهير الأرض منها إبقاء لحياتهم ! وكانت رغبتنا إطفاء اللهيب بأسرع وقت (أولاً) ، والابتهال إلى الله أن يبعث إلينا بإمدادات أخرى (ثانياً) ! !

أخذت سحب الدخان تهاجمنا فتسيل من أعيننا دموعاً كثيرة حتى أنى لم أعد أقدر على النظر إلا بصعوبة ، أما قلبى فكانت ضرباته القوية تصل مسمعى كلما لهثت فى التنفس ! ومع هذا الإنهاك الشديد لم يكن أحدنا يجسر على التوقف عن العمل لحظة واحدة حتى أننا كنا نتناول الماء بسرعة ونحن نلهث !

خذلتنا النار بلا رحمة ولا شفقة ، وأجبرتنا على التقهقر ، وامتزجت فرقعة الشعلة بأنفاس الرجال المبهورة ، وأصواتهم المبحوحة ، يتخلل ذلك أنين مؤلم ، صادر ممن وهنت قواهم أو لفحتهم ألسنة النار! وعلى ذلك ... تراجعنا ، وأخلينا السبيل للنار تلتهم ما شاءت ! وبعد الظهر وصلت النار لأول بيت من بيوت المزارعين المتناثرة هناك ؛ ففزع الناس وأسرعوا فى الخروج من دورهم لا يلوون على شيء ! وقد كنت متشاغلاً عما حولى بالآلام المبرحة التى حدثت فى معدتى من جراء تعرضها للنار طوال هذه المدة .

وفجأة ! أبصرت امرأة ممتقعة الوجه، مضطربة الأعضاء ؛ تخرج من الدار التى جاورها اللهيب، وتقف بالقرب منى . تكلمتْ فأصغيتُ إليها . . . وتمنيت ألا أحظى برؤية مثل تلك الصورة الحزينة ثانية !

كان هذا البيت وحديقة الخضراوات الصغيرة المحيطة به ، كل ما تملكه تلك البائسة من حطام الدنيا ! اقتربت منها النار وأخذت تتأجج بعنف لحظة ... ثم اكتسحتها كالنهوم ، وبعد دقائق ... كان الرماد الأسود ، ورائحة الخضراوات المحترقة ، كل ما خلفته !

مرت ساعة أخرى التهمت النار خلالها ثلاثة بيوت أخرى ، وما يقارب الفدان من الخضراوات !

ثم ... لم يبق سوى بضع مئات من الياردات إلى حيث تقوم مجموعة بيوت المزارعين والأبنية الكائنة على الشوارع المتقاطعة ، ولم يبق هنالك أمل بنسبة واحد فى الألف لصد النار عنها !

* * *

بعد الشدة يأتى الفرج ! هذا ما أخذت أتمتم به حينما أبصرت ما يقارب أربعة وعشرين سيارة كبيرة تقدم نحونا مارقة كالسهم ، ولما حاذت الشوارع المتقاطعة وقفت جميعها دفعة واحدة . فأحدثت أصواتاً شديدة ؛ ثم قفز منها ما يقارب مائتى رجل بملابسهم الرسمية . . .

جنود من (كامب هكلنج) شكراً لله ! صرخ الرجل الواقف بجواري ، فسألته بلهفة :

— ألم يفت الأوان ؟

— بلى، إذا استطعنا إخماد النار قبل أن تتعاظم.

وفجأة ، تضافرت قوى الطبيعة مع الرجال

لإيقاف النار الطاغية عند حدها ، فقد أصبح الهواء مضاداً لألسنة النار فدبت العزيمة فى قلوب الجنود فقذفوا بأنفسهم فى ممعمة النيران يكافحونها بجنون ويسمون فى تطهير الأرض الكائنة أمام بيوت المزارعين . ولم نلبث أن تبعناهم بحماس شديد لإخماد النار التى أخذت فى تلك اللحظة تزأر زئيراً مخيفاً !

وأمام عزيمتنا الجبارة تخاذلت ألسنة النار وما لبثت أن خبت ، ولكن بعد أن لم يبق فى إمكان أحدنا المقاومة لحظة واحدة ... وهكذا فى ظرف نصف ساعة فاز الجنود أخيراً ورجحت كفتهم !

***

أبتُ إلى (جامل) بنفس السيارة التى رجع بها القاضى . . . وفى الطريق قال لى القاضى برقة : « يجب أن تأتى إلى دارى أيها الصغير . . . لقد استرقتُ إليك النظر اليوم ، فوجدتك قمت بعمل تشكر عليه . . . ولن تبقى فى السجن لحظة أخرى بعد الآن ! »

لقد غمرنى السرور لدعوة القاضى . . . فقد كنت أشعر بضعف بالغ وبتفكك فى جميع أعضائى ، وكان وجهى شبيهاً بوجه مريض متألم . ولم أسبر غور ما أنا فيه من هزال إلا بعد نزولى من السيارة ، فقد شعرت فجأة بطنين فى أذنى ... ثم أخذت أضواء السماء تتضاءل أمام ناظرى حتى زالت !

ثبت إلى رشدى فى غرفة واسعة مريحة على صوت نسائى رقيق كتغريد المنادليب ، ولما فتحت عينى أبصرت أجمل وجه وقع عليه نظرى حتى الآن !

وأفقت من نشوتى على صوتها الملائكى وهى تقول بمرح : أنا زوجة القاضى . عليك بالهدوء والراحة فقط وستكون جيداً بعد يوم أو يومين على الأكثر وسيحضر زوجى حالاً لرؤيتك .

وما انقضت دقائق معدودة حتى ولج غرفتى القاضى وجلس على طرف سريرى ثم سألنى : هل تشعر بتقدم حسن ؟ ثم أضاف : فى الخارج لم يزل الشرطى بصحبة بعض الأولاد يستطلعون ويفتشون عن الأشخاص الذين سببوا الحريق

انتصبت مصعوقاً وقلت : « الأشخاص الذين سببوه ؟ هل تعنى أن هنالك حقاً بعض السفلة ممن سولت لهم أنفسهم إضرام تلك النار عمداً؟ ولكن لماذا ! ؟ » أجاب بجفاء : لأن الحكومة تدفع ثلاثة دولارات فى اليوم لكل متطوع فى إطفاء الحريق ! لذلك ، فمن لم يجد له شغلاً ، وأراد الحصول على عمل ليعيش فما عليه إلا أن يضرم النار ثم يتعاون لإطفائه ! وليست هذه أول مرة يلوذ فيها بعضهم للمعيشة بهذه الطريقة؛ ولقد أبصرت أخيراً أشخاصا ممن لا يرتاح إليهم، يحومون حول هذا المحل، ومن المحتمل جداً أنهم مسببو هذا الحريق ، ومع ذلك فإنهم لم يتوقعوا بالطبع أن تأخذ النار ذلك المجرى ، بل كل ما أرادوا هو أن تبقى النار مضطرمة بهدوء ما يقارب الأسبوع أو أكثر . وتوقف القاضى لحظة ثم قال : هذا هو الطريق الوحيد لمعيشتك إذا لم تقدر أن تجد لك شغلاً! وما سمعت كلامه الأخير حتى صحت فى وجهه بغضب :

— ماذا تعنى ؟ أتعتقد أننى سافل إلى الدرجة التى أعمد فيها إلى إضرام النار ؟

— كلا ... ولكن الإنسان عند ما يجد نفسه متشرداً لا قدرة له على جلب قوته إبقاء لحياته عن طريق الشغل ... تنبتُ في رأسه كمية من الأفكار الجنونية وقد ينساق وراءها مرغماً ! أما أنت . . . فحاشاى أن أكون قد فكرتُ لحظة واحدة في إمكان انسياقك مع تيار تلك الأفكار . . . لأنني أعتقد أنك ما خُلقت إلا لتكون مثال الرجل المدني العاقل ، وإنني لمسرور بإخبارك أنني وجدتُ عملاً لك

فأجبته بحماسة وحرارة :

— ذلك أعظم ما أسمعه ... وإنني أود لو علمت كيف أعبر لك عن شكرى !

— حسن ... إن عملك هذا ليس أكثر من شغل بسيط عند صاحب المخزن الذى تحتنا وهو رجل كبير السن تعمل عنده ، وكما ترى إن هذا خير من لا شيء !

— سأنزل عند رغبتك ، وربما أمكنني الصعود إليكم دائماً بارتقائى السلم من محلى ! حقا ؛ إن هذا المحل سيخلق منى خير مدنى مجد في (جامل) !

* * *

وقد بت جاهلاً مقدار ما حزر الحاكم مما أضمرته قبل أن تفقدني النار صوابي . . . ولكنني لاحظت أنه لما انحنى ليصافحني ، شد على يدى بقوة !

(بغداد) ناصر عزيز منصور

من روائع الأدب الفرنسي

سوء تفاهم

للكاتب الفرنسي أندريه موروا

بقلم الأديب محمود المرصفي

عند ما كنت فى العشرين من سنى حياتى كنت أتردد كثيراً على شيخ هرم كريم النفس كان لجدى صديقاً حميماً وافر الإخلاص لصداقته وثيق الصلة بصحبته . كان هذا الشيخ الجليل يدعى « م . نيفيل » وليس من السهل أن يجد شاب فى مقتبل العمر مثلى أى لذة فى حضرة هذا الشيخ الكريم الذى قارب الثمانين ، بل لا يستطيع أن يأخذ بأطراف الحديث الذى اعتاده بين أصدقائه وأترابه من الشباب . وأنا أحرص الناس على هذا النوع من الحديث الذى أرى فيه لذة لا تعدلها لذة وغبطة دونها كل غبطة ، وهو حديث النساء .

على أنى مع ذلك كنت لا أسعى إلى هذا الرجل لشىء فى نفسى كنت أستشعره نحوه من شفقة أو مصلحة مادية ، وإنما كنت أنشد صحبته لجمال سحنته ووقار جلسته وشدة ذكائه وقوة حجته ، وسعة اطلاعه وتجاريبه فى الحياة ومنطقه فى تحليل الأشياء ، وإدراكه الصادق فى تتبع الحوادث مع مزاج من التفكه البرىء والتظرف المحتشم ، والمزاح الرقيق . وليت شعرى من ذا الذى يجد مثل هذا النوع من الناس ولا يسعى إليه شيخ قعدت به السن العالية عن العمل يعانى آلام المرض القاسى الذى حطم جسمه والذى عز على الأطباء علاجه حتى أصبح هو من برئه يائساً مسكيناً منزوياً فى عقر داره يتحمل بؤس الحياة بنفس راضية وقلب صبور ، وحيداً يقاسى جوى الوحدة المبرح فى غير تبرم أو تملل

كان هذا الشيخ فى ربيع حياته من الرجال الرسميين لدى الدول الأخرى مقرباً إلى الدوق «دى بروجلى» اختلط بالعظماء من رجال الإمبراطورية الثانية ، وعرفهم عن قرب وتسامر معهم وساهم بقدر كبير فى تأسيس الجمهورية الثالثة . وعاصر جاليفيه والمركيز « دى لو » وكان أولها صديقاً فرنسياً لولى عهد انجلترا من النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

وأنت إذ يتحدث إليك هذا الرجل عن المؤرخ العظيم « تيرس » يملك عليك حسك وشعورك ، ولا يفتر عن موازنته بمن عاصروه من الرجال فلم يجد منهم من يدانيه فى علم أو يبزه فى ميزة . وهو يجيد الحديث عن رجال هذا العصر أيما إجادة مثل الوزير الكبير « ماكهون » وجول جريفى الرئيس الثالث للجمهورية الفرنسية الثالثة ، فهو لا يكاد يبتدىء بسيرتهم وما قاموا به من الأعمال العظيمة خلال النصف الأخير من القرن الغابر حتى يدخل بك فى تحليل شخصياتهم الفذة سلس التعبير فى قوة بيان رائعة ، ساحر اللهجة شديد التأثير فى غير مشقة ... !

وأشهد أنى لم أر شيخاً أوفر جمالاً ولا أوفى نشاطاً مثل هذا الشيخ الجليل ! وقص علىّ جدى

فيما قص علىّ من أمر هـذا الشيخ أنه كان معبود النساء فى عصره يتودد إليه النساء الرفيعات فى الهيئة الاجتماعية إذ ذاك ويجتهدن أن ينلن الحظوة عنده . وذات الحظ منهن هى التى تستطيع أن تجره إلى شباكها . وكانت تلك التى لا يخصها بحبه وإعزازه تعتقد أنهـا دميمة الخلقة ثقيلة الظل غير محتملة ؛ وسرعان ما تيأس من الحياة وتجنح إلى العزلة والانزواء !

وهكذا يمتاز كل عصر برجل لا يقاربه أحد فى نباهة صيته ولا يساويه فى شدة نبوغه وقوة سحره ، يكاد يستأثر بكل عظمة ومجد ؛ وذلك لأن من ورائه امرأة وافرة الحسن بارعة الجمال تحفزه إلى الأعمال الخارقة وتلهمه النبوغ والعظمة ... ! فمثلاً كان يمتاز القرن الثامن عشر بالمرشال العظيم الدوق ريشيليو والتاسع عشر باللورد بيرون فى انجلترا ونصفه الأخير بأدمون نيفيل فى فرنسا بطل هذه القصة

كان الرجل لا يشغل وظيفة حينما تعرفت به . وكان يسكن باريس فى شارع « داستورج » فى بيت قائم وسط فناء وسيع تحيط به التحف الفنية الثمينة التى أحضرها معه من مختلف البلدان والممالك خلال تجواله متنقلاً فى وظائفه التى تقلب فيها . وهو كلف بالفنون الرفيعة كلفاً عظيما . لذلك ترى بيته وكأنه دار للعاديات والتحف الفنية الخالدة والصور الرائعة الجميلة . فتجد عنـد مدخل البهو الـكبير الأرائك الهندية المزركشة بالطنافس المطرزة بخيوط الذهب والأغطية الصينية البديعة . وترى على النوافذ تلك الستائر الحريرية مرسوما عليها آيات من فن التطريز الرائع ، محلاة فى حواشيهـا بقطع من القطيفة السميكة ترفرف على أطرافها قطع من الحرير الصافى فى لون أزرق جميل . وفى وسط هذا البهو العظيم تجد منضدة ذهبية بديعة الصنع عليها صف من الصور الشمسية لغادات فاتنات فى أزياء من تلك الأزياء التى كانت شائعة فى منتصف القرن التاسع عشر ، تحيط بهذه الصور إطارات مطعمة بالأحجار الكريمة ذات الألوان الجميلة

أخذت ذات مرة إحدى هذه الصور الضاحكة وسألته أن يقص علىّ قصة صورة هذه الحسناء التى طالمـا استرعت بصرى بجمالها ورواثها من خلال زجاجها ! ولـكن ما كدت أنتهى من سؤالى حتى قطع علىّ سبيل الحديث وهو مقطب الجبين ساهم الوجه تبدو على محياه دلائل التأثر العميق كمن نابه خطب جلل ، وبعد هنيهة عاوده الـكلام فى صوت متهدج ولسان متلعثم وقال لى : « آه ! ليتك تسدل على قصة هذه الصورة حجاب الماضى وستار النسيان ! وقد حرصت أشد الحرص على إنكاره وتناسيه طيلة نصف قرن تقريباً . هذه الصورة لماريا بافلوفنا التى ملـكت علىّ قلبى وكان بينى وبينها علاقة وثيقة وهوى عذرى حيناً من الدهر — ثم أشار إلى سورة أخرى قائلاً : وتلك صورة السيدة « بارشتسر » نعم كانت معرفتى بها أيام كانت المرأة تلعب دوراً عظيم الخطر جليل الأثر من وراء ستار كثيف فى السياسة الإنجليزية

دعانى ذات ليلة رقيقة النسيم قد أشرق القمر فى سمائها فاختفت النجوم فى أرجائها ليملى علىّ فصـلاً من وصيته المـكتوبة فجلست إلى مكتبه واتكأ هو على كتبه أمامى كاسف الوجه مشرد الفكر ، ومع ذلك كان يمـلى علىّ جمـلاً متزنة

فى منطق سليم ، وكان يحدثنى فى فترات الراحة القصيرة فى رزانة فائقة وسلاسة بالغة عما كان يأتيه وهو فى ميعة الصبا وصرح الشباب مع النساء فى مختلف الأنحاء التى كانت تتردد عليها الطبقة المتسيطرة والهيئات الرسمية لمختلف الدول . وحدث أن طال الحديث وتشعبت أطرافه حتى لم نعد نشعر بمرور الساعات فنظرت فى ساعتى خفية ومن غير قصد فوجدتها قد جاوزت الثامنة فأظهرت دهشتى لفوات الوقت سريعاً هكذا وصحت قائلا : « الآن يجب أن أرحل لأنى على موعد العشاء فى بهو آل كليرمنت دى سافوا » فنظر إلىّ فى دهشة واستغراب باديين وعطف علىّ قليلاً ليتسمع ما سأفوه به وقال لى : « عند من ستتناول عشاءك هذه الليلة ؟ » فأعدت على مسمعه اسم الأسرة فقال : « السيدة هنرى كليرمنت ؟ » فقلت : « نعم هى بعينها أسرة آل كليرمنت دى فوبورج سانت هونوريه » فقال : « أنا لا أعرف أين تسكن هذه الأسرة الكبيرة ... أما زالت هذه السيدة جميلة كعهدى بها وهى شابة فى ريعان الصبا ... ؟ » فسألته وقد أبديت دهشتى من هذا السؤال : « من هى تلك التى تقصدها ؟ » فقال : « أقصد السيدة دى كليرمنت » فقلت معقباً : « هى كما تعلم يا سيدى الوزير قد قاربت السبعين من عمرها ومع ذلك لم تزل عليها مسحة من الجمال ولمعة من أثر الشباب الناضر ... » فقال : « أليست كذلك كما أظنها وأتصورها فى خاطرى ؟ » قال ذلك وقد انتشر على محياه البشر والسرور وظهر لى كمن يستعرض أمامه ذكريات الماضى الحلوة وتذكاراته السعيدة مع تلك المرأة الحسناء ، وبعد ذلك عاوده الكلام وقال لى : « أليست تشابه السيدة تينج فى جمال الخلقة وبراعة القسمات ؟ » فقلت : « ربما تكون كذلك . . . ولكن السنّ كما تعلم لها أثر كبير فى ذلك » فقال مغمغماً : « أجل ، فأنا لا أكاد أتصورها فى خاطرى وهى امرأة عجوز . ويصعب علىّ جداً تمييزها حين أراها . فصفها لى كيف آلت إلى ما هى عليه الآن من الكبر » فقلت له : « كيف أصف لك جمال هذه المرأة وهى ما زالت تحتفظ بحور عينيها الساجيتين وبقوامها البديع وروائها الوسيم ورشاقتها الساحرة ، وهى ما فتئت شديدة الجاذبية لبقة الحديث حلوة المعشر . لم أر فيما رأيت من النساء جمالاً كجمال هذه المرأة العجوز ولا خفة كخفة هذه السيدة العطوف ... ! وأنت فيما أظن أعرف منى بهذا النوع الساحر من النساء . وأتذكر أنك حدثتنى عنه حينما كانت مدام « دى بورتال » موضع حديثنا ... فقال لى بلهجة الآسف النادم : لقد شاء الحظ فأصبحت فى أخريات أيامها أسعد جدًّا وأوفر هناء مما كانت عليه وهى عذراء طاهرة . كانت يوم عرفتها جميلة فتانة ، ولكن كانت عليها تلك السمة التى يطبعها الشقاء على الوجوه العزوفة وترسمها الفاقة على هيئتها الصبورة ... ! أتم الجملة الأخيرة وصمت مرة واحدة وقال لى : أظنك تريد أن تذهب لموعدك فقد أخذنا من وقتك فترة طويلة ، والآن فلتذهب وإلى اللقاء القريب .. ! فذهبت بعد ما أخذت منه موعداً ليقص على قصته مع هذه المرأة الحسناء ...

تناولت طعام العشاء هذه الليلة عند أسرة آل كليرمنت . ولقد أكثر السيد هنرى كليرمنت

الحديث معى حتى لم يترك لى الفرصة للتحدث مع امرأته فضايقنى بذلك كثيراً ...!

والسيد كليرمنت هذا رجل من رجال الأعمال الكبيرة يملك مصانع كثيرة فى شرق فرنسا لصناعة آلات الحياكة والدراجات بأنواعها ، ويملك بذلك ثروة طائلة ، ويقطن هنرى كليرمنت فى باريس طوال عمره ، وهو كلف بالصناعة والفن كلفاً عظيما يدير مصانعه أكابر الفنانين من المهندسين والخبراء . لذلك ازداد الإنتاج زيادة عظيمة ونال من وراء ذلك ثروة لا بأس بها . وهو يملك علاوة على ذلك قصراً فاخراً فى « نورين » ومنزلاً صغيراً فى « ميدى » ، ويختاً جميلاً يسيح عليه كل عام فى البحر الأبيض . كانت السيدة كليرمنت أثناء حديثى مع زوجها منتبذة مكاناً قصيا من البهو تقوم بواجب المجاملة للمدعوين والمدعوات من ضيوفها وكانت تتحدث أغلب وقتها مع ابنتها الصغيرة ، وكنت ألمح على محياها الساهم تلك السخرية المريرة التى تلازمها دائماً ...!

وبعد ما انفض الضيوف من حول مائدة العشاء استويت على كنبة صغيرة بجانب الموقد فى عزلة من الجمع وقريباً من ربة الدار . ولقد كنت لفتياتها قريناً ملازماً وصاحباً مخلصاً . وكنت ألفت نظرها باهتمامى لها وكثرة مداعباتى البريئة لأطفالها فاستقدمتنى لأجلس بجانبها فاغتبطت لذلك أيما اغتباط ، وبعد بضع كلمات فارغة قلت لها : « لقد أمضيت عصر هذا اليوم عند رجل كريم أضمر له فى قلبى كل عطف ومحبة وأظهر له كل إعجاب ومودة . ولقد تحدث إلىّ عنك حديثاً ملؤه الإعجاب بك والإطراء لك ! » فقالت وهى دهشة ساهمة : « من هو هذا الذى يتحدث عنى بهذا اللسان ؟ » فقلت « هو السيد أدمون نيفيل يا سيدتى وإخالك لا تجهلينه فهو هذا السفير الذى كان صديقاً حمياً لادوارد السابع ... »

فلم أكد أنتهى من اسم هذا الرجل حتى أشرق وجهها كأنما دنا من النار فتورد ، وإذا هى تظهر اهتماماً كبيراً وسروراً عظيماً لهذا الحديث المفاجئ فقطعت علىّ كلامى قائلة : « نيفيل ... ! وا أسفاه ... كيف حدثك عنى ... ؟ وما الذى قاله عنى ... ؟ لم أره ... » ثم توقفت لحظة كمن يبحث فى ثنايا ذاكرته ... منذ أربعين سنة خلت ... فقلت معقباً : « نعم لقد قال لى هو أيضاً ذلك ... ! » فقالت : « وهل قص عليك ما كان من أمر قصتنا ؟ » فقلت : « كلا يا سيدتى ... وإنما لا أخفى عليك أن لهجته وهيئة حديثه القصير جعلتنى أشد فضولاً وأكثر ميلاً لمعرفة هذه القصة التى تبدو لى أنها مشبعة ... ! »

وفجأة ألقت بنظرها إلى الأمام فإذا بها تبصر زوجها منهمكاً فى حديث مع وزير المالية . وقد انعقد هناك فى أقصى البهو جماعة من الرجال يتناقشون فى ضوضاء وجلبة حتى ذهلوا عن التدخين . والتفتت إلى السيدة كليرمنت وقالت لى : « أنا لا أدرى لماذا أستعمل كلمة «قصة» وليس فى واقع الأمر أى نوع من القصص . وليت شعرى ما الذى آل إليه السيد نيفيل بعد ذلك . كنت أطمع فى مقابلته أو رؤيته على الأقل فى أبهاء باريس ولكنى علمت بإحالته إلى المعاش وأنه ملازم داره طيلة يومه وليله لا يكاد يبرحها إلا متريضاً فى حديقته الخاصة ؟ وقيل لى بعد ذلك بمدة قصيرة إنه أصيب بمرض لا أعلم نوعه ولا مبلغ خطورته عليه فحزنت له أيما حزن ... والآن انقطعت أخباره عنى ، كيف حاله الآن ... ؟ »

فأجبتها بلهجة ملؤها التأثر والألم : « نعم يا سيدتى هو مريض أشد المرض وقد بلغ به مرضه حداً خطيراً حتى صرح له طبيبه الخاص بأنه ربما استطاع أن يعيش شهرين أو ثلاثة على أكثر تقدير ... ! »

فقالت بلهجة خانتها العبرات وأرهقها الأسى : « ما أشد حزنى وأعظم ألمى ... لهفى عليه ... ! مسكين أنت يانيفيل ...! ما كان أجمل خلقته وأخلب حديثه وأمتع جلسته ... ! أنا لا أعلم من أخباره شيئاً وهذا ما يؤلمنى أشد الألم » . ثم وجهت إلى بقية حديثها والتفتت إلى وقالت : ألق بالك إلى ... ! ثم ترددت قليلاً ولما تتم جملتها ، ثم عاودت الكلام واستطردت قائلة : « ربما نسى نيفيل كل ذكرياتنا لبعد ما أصابنا من مشقات الفراق وروعات البين الأليمة ... ولا أدرى كيف يكون تأثير رسالة منى إليه ، وإنما أناشدك على أى حال أن تتعرف شعوره نحوى وهو فى هذه السن اليائسة وأت إلى بعد ذلك لتقول لى ما دار بينكما من حديث . والآن اسمح لى أن أقوم بواجب المجاملة نحو ضيوفى »

وفى اليوم التالى قابلت السيد نيفل وقصصت عليه حديث السيدة كليرمنت . وأشهد أنى لأول مرة أرى شيخاً وقوراً فاتراً قد أثر فيه هذا الحديث حتى ملك عليه حسه وشعوره وهز من نفسه فاستولى على قلبه وروحه نخانه وقار الشيخوخة فانهلت مدامعه ومدامعى وخرس لسانانا برهة غير قصيرة لا بد أن ثارت خلالها فى نفسه أحاديث المنى البعيدة ووساوس الأحلام الغابرة فتخيل أيام شبابه وعظمته بين النساء واستعرض تلك الذكريات العذبة ذكريات الصبا والشباب أيام كان يغالب الدهر فى ميادين الحب والغرام فبات وأصبح وكأنه ورقة من أوراق الشجر انتزعتها عاصفة من بستان ثم ألقتها فى صحراء جرداء لا حياة فيها ولا خضرة ... !

فألححت عليه أن يقص على قصته مع السيدة كليرمنت دى سادى وهاك ما قصه على هذا الشيخ قال :

« كنت وأنا فى ربيع عمرى من يسمونه « معبود النساء » لأنى كنت موفقاً فى كل مغامراتى معهن فى هذا العصر . ما أخطرها من كلمة بل وما أرعبها ! أستطيع أن أقولها اليوم فى غير اختيال ولا عجب ، وذلك لأنى قد توج رأسى الشيب وأصبحت أتوقع الموت فى كل لحظة ومع ذلك لا أدعى أنى سبرت غورهن ووقفت على دخيلة أمرهن .. !

اضطرتنى ظروف منصبى أن أعيش متجولاً فى أكبر عواصم أوربا حيث كنت أتصل فى كل منها بأجمل النساء اللاتى بلغن حداً كبيراً من الصيت والذكاء ونلن حظاً عظيماً من سحر الكلام ورشاقة القوام وأناقة الحديث . وكان كل ما يعنينى من شؤون الحياة مغازلة النساء وهواية الجياد وإتقان مهنتى ! وحينما كنت فى السويد والنمسا والروسيا هامت بى كثيرات من فتيات هذه البلاد . وقد كن يأتين الكثير من النزق والخفة والرعونة عسى أن أقع فى حبالهن فأحبهن أو أميل إليهن فأتزوجهن ، وكان كل هذا فى غرام ظاهر وميل برئ خلاف ما تراه اليوم من نساء هذا العصر اللاتى يلعبن دورهن قصد المادة وأغراض الحياة الوضيعة .

كنت فى الثامنة عشرة من عمرى حينما كنت سكرتيراً أول فى سفارة « فيينا » حيث التقيت

عرضاً فى أسرة نمساوية وهى من آل الكونت رابيترج بفتاة فرنسية حسناء قد أتت من باريس لتعليم بنات الكونتس اللغة الفرنسية وآداب الوسيقى وأصولها . كانت تسكن هذه الأسرة الريف الفرنسى الجميل فذهبت إليهم مدعواً لأقضى ردحاً من الزمن ورغبة فى تبديل الهواء وإراحة النفس والجسم من أعباء الحياة الحضرية

وذات ليلة عند ما انتظمت مائدة العشاء واستوينا جميعاً حولها وجلست هذه المعلمة بين فتاتيها الجميلتين كالزهرة الكبيرة تحيط بها صغار الورود نظرت إليها فشعرت نحوها بشعور خفى فى نفسى وإعجاب دخيل فى صدرى وأحسست بانجذاب شديد وبلذة قوية كلما رفعت بصرى إليها . وكانت من دون الجالسات — وكن كثيرات — مثار إعجابى ومحل إجلالى ، وكانت الحين بعد الحين تسترعى عينى بسحرها وتستهوى قلبى بظرفها ، وأغلب الظن أنها كانت واقفة على حقيقة تأثيرها فى النفوس وسحرها فى القلوب فلم تكن متكلفة ولا متأنقة وإنما كانت خلابة فى غير كلفة وفتانة فى غير صلف ولا عجب ، كانت ساذجة كالطفل ، ولم أر فيمن رأيت من النساء أجمل من هذه الفتاة ... !

وكانت ربة الدار كونتس نمساوية نابهة الصيت فى مجتمعات « فيينا » بجمال شعرها الذهبى ورشاقة قدها الغض، قد انطبع على هيئة أولادها سمة جمالها وخلابة قدها وسحر صوتها . وحدث بعد ما تشتت القوم بعد العشاء أن عزمت على التحدث معها فنجحت فى مسعاى ... فإذا بي بجوارها وجهاً لوجه ... أنستنى هذه الحسناء فى لحظة واحدة كل ما كان لى من خايلات واستهوتنى بنضارة وجهها الوسيم وخلبتنى بطبيعة خلقها الساذج وبجمال هيئتها الفاتن !

كانت تدعى « بياتريس دى فادلج » وما كان أحب إلىّ من هذا الاسم الجميل ! كنت أعرف جدتها المركيزة « دى فادلج » إذ كانت تنحدر من سلالة أسرة كريمة فاضلة كانت تقطن بيكاردى وكانت فقيرة الحال اضطرتها ظروف الحياة إلى انتجاع الرزق من الطريق الشريفة المستقيمة وكانت علاوة على ذلك تتحلى بحلية الأدب والعلم والشرف !

طلبت فى اليوم التالى من الكونتس « براتبرج » أن أصطحب أولادها فى نزهة على ظهور الجياد فقبلت فى كياسة وظرف . فخرجت بصحبة « بياتريس »

ولشد ما أعجبت بركوبها الخيل فهى كما رأيت تجيد هذا النوع من الرياضة إجادة تامة فى رشاقة فائقة وخفة ساحرة . كنت متأنقاً متكلفاً فى الأناقة أحاول أن أعجبها فأوقعها فى شراكى وخيل إلىّ أنى ظفرت بذلك أيما ظفر ! وبعد قليل ترجلنا ، وجلسنا على عشب الغابة نتبادل حلو الحديث عن هذه البلاد الساحرة التى اشتركنا فى حبها . كانت « فينا » فى هذا العصر جنة من جنات الله قد لانت فيها العادات والتقاليد بعض اللين ، وأصبح الحب فضيلة فى كل مكان يتذوقه الفقير والغنى على السواء، وكانت الصحف فى ذاك الوقت تدعو جهراً إلى تبادل الحب بين الجنسين على أفواه الطرق وفى المتنزهات العامة فى غير خشية ولا وجل ... ! وذلك لأن تلك البلاد إمبراطور شاب وإمبراطورة فتاة لم تناهز السابعة عشرة من سنها السعيدة ! فسرعان ما لبى الشبان والفتيات هذه الدعوة التى صادفت هوى

كبيراً فى نفوسهم فأتوا فى سبيل مطارحة الحب على هذه الهيئة كل نزق ورعونة … ! وقالت لى الآنسة « بياتريس » إنها لاتقدم على هذا النوع من الطيش بل تراه وهى على بعد منه ، وتشاهده وهى فى منجاة منه … ! ولكنها تعجب بالأمبراطورة الفتاة أشد إعجاب لدمها الأسباني الطاهر ، ورشاقتها الساحرة . وكانت الموسيقى فى جميع أرجاء « فينا » تنفح الأرض بعبير أنفاسها الشجية وتخضل الجو بجميل ألحانها السامية ، وهذا لعمرى أبلغ دليل على نقاء طوية هذا الشعب النبيل وحسه الرهيف وذوقه الجميل… ! وأمضينا على هذا النحو أياماً سعيدة كلها غبطة وسرور مازالت مطبوعة فى ذاكرتى ومرسومة فى ذهنى أجمّل بها أخريات أيامى وأزين بها جيد ساعاتى كلما نزلت بى وافدة أو ألم بى مصاب !

أقبل الشتاء فأصبحت كأنى واحد من أفراد الأسرة فى قصر برايتبزج ، ورفعت الكلفة بينى وبينهم ولم يعد للرسميات موضع بيننا حتى قيل عنى فى فينا كلها إنى عشيق الكونتس والحقيقة كانت غير ذلك فقد كنت عشيق معلمة أولادها وعلى الرغم من وثاقة العلاقة بينناوسرعة الصلة بين قلبينا لم يغمر هذه الرابطة أى سعادة وذلك يبدو غريباً لرجل اعتاد الظفر فى حبه والسعادة فى غرامه — هذا لأن فى القصر جيشاً كبيراً من الخدم والحاشية حتى شق علينا أن نلتقى فى هذا الجمع من الحاشية ، وإذا حاولت أن آخذ منها موعداً للنزهة خارج القصر أبت أو اعتذرت بحجة هذه العيون الساهرة .

وفى اليوم نفسه وكان يوم الأحد لم أظفر بإقناعها لتتريض معى على إحدى الربى الخضرة حيث الطبيعة تغنى بأنغام بتهو فن الشجية . ولكنى رغبت فى أن آراها فذهبت إلى الهيكل الإمبراطورى لأسمع الصلاة والدعاء فى ذلك اليوم المقدس . كان هذا الهيكل قطعة من قصر « برايتبزج » حيث كانت ترتل الكونتس بعض الأناشيد الدينية وكان حرس من الرجال الأشداء واقفين حول المذبح لابسين قلنسوات كبيرة عالية . وكنت الحين بعد الحين ألمح وجه الآنسة « فاولجز » ثم أغرق فى بحر لجى من التأمل العميق . ظلت ملازمة فتاتيها وقتاً طويلاً وخشيت إن أنا بادرتها بالكلام أن تهرب منى معتذرة . فانتهزت ذات مرة فرصة وجودها وحيدة فعرضت عليها أن تذهب معى إلى حفلة موسيقية يقيمها بعض السراة من الأقرباء فاعتذرت إلىّ قائلة إنها لا تستطيع أن تظهر معى على مسرح المجتمع — زاد ذلك فى اعتقادى أن المرأة لا زالت ضعيفة مقصوصة الجناح مهضومة الحقوق … !

ولما قوض الصيف خيامه واستدبر أيامه وأقبل الشتاء وتوجت ثلوجه أرض « ڤينا » استطعت أن أراها وأتبادل معها مختلف الأحاديث البريئة . كانت تجيد اللعب على الثلج بمهارة فائقة ، وتحسن الانزلاق عليه بهيئة رائعة فأثارت إعجاب الحاضرين من مشاهديها . وقد قصت علىّ تاريخ تمرينها وفضل نجاحها فى هذه اللعبة ، وكيف كانت تروض نفسها عليها على بركة بضواحى « أميان » كانت تتجمد فى الشتاء .. ! فهاجت ذكرياتنا لهذه البلاد الفاتنة الجميلة ! كنا نسير فى طريق من الجليد المتجمد فتركتنى أسند قدها الرخص المتمايل فنعمت بذلك وطبت نفساً ، واسترجعت أملاً كان ضئيلاً وعاودنى رجاء كان بصيصاً … !

وبحثتُ لها ذات يوم بأنى أملك فى مكان قصى

من المدينة وفى مأمن من الأنظار بيتاً صغيراً أنيقاً يقع فى كذا ... فشخصت ببصرها إلىّ وقالت وعلى وجهها طابع العفاف الُمهان : « أنا لست ممن تعتقد فيهن الخفة والطيش فيسقطن من عالى هامتهن وليس لهن بعد ذلك من صعود » . فرجعت إلى نفسي ندمان آسفاً على ما أبديت من خِسّة ودناءة أمام هذه المرأة الطاهرة ... ! فعاودت عليها الكرة لأصلح من خطيئتى السابقة بأن أصحبها فى نزهة بريئة بالقصر فأبت أيضاً مستكبرة وقاومت بأنفة نسائية سامية ، وهذا مما جعلنى لا أشك مرة واحدة فى إخلاصها وطهارتها ... !

ولقد عودت نفسي أن تسلك بى أقصى المسالك فى الأمل والرجاء . مرت بضعة أسابيع كنت أرى خلالها «بياتريس» تجول هى وفتاتاها خلال مماشى الحديقة يتريضن فى هدوء ويستنشقن عبيرها فى دعة . . . ففكرت فى نفسى هنيهة فى حبى مع تلك الفتاة فانتهيت إلى أنها هى المرأة الوحيدة التى تستطيع أن تكون لى زوجاً . وقد يبدو لك ذلك غريباً فتذهب مذاهب شتى من التفكير ولا سيما وأنت شاب فى قوة الصبا وحرارة الشباب !

جال فى خاطرى مختلف الهواجس والآمال فتصورت أن بياتريس ربما لا تقبل يدى فتعتذر بأن ذلك فى حكم المستحيل إذ كيف تظهر أمام مجتمع الهيئات الرسمية والدبلوماسية وقد عرفها القوم معلمة لفتيات الكونتس . ولكنى تغلبت أخيراً على هذه العقبة بأن طلب (إذا ما رضيت) نقلى من السلك السياسى إلى وظيفة أخرى فى بلد آخر ولا سيما وأنا غنى وافر الثروة ولى نفوذ ليس باليسير فى وزارة الخارجية .

ونهاية الأمر صَمَّمْتُ فى غير تردد أن أقوم بنفسى وبغير ما أكلف رسولاً من الأهل أو الأصدقاء (وذلك على غير ما درج عليه القوم فى هذا العصر) بأن أبدى لهذه الفتاة التى ملكت على حواسى وقلبى رغبتى فى الزواج منها . فانتهزت أول فرصة عند ملاقاتها وفاتحتها بالأمر فى صراحة ظاهرة ... ! ولم أكد أنتهى من كلامى حتى علا محياها الدهش والتأثر وطلبت منى أن أمهلها وقتاً لتفكر فى هذا الأمر الخطير

وأتذكر أنا أيضاً مبلغ تأثرى وحرج موقفى فى هذه اللحظة وأنا واقف إزاءها أنتظر ما كان يخبئه لى القدر ويستره عنى الغيب ... !

استحال على فى هــذه الفترة من الانتظار أن أقوم بأى عمل أو أن أقابل زائراً ، وظلت عيناى شاخصتين طيلة النهار إلى باب غرفتى أنتظر قدوم الرسول ينبئنى بحظى ! ولكنه لم يأت بعد . فقلت لنفسى : لم هذا الجزع وعلام هذا الفزع ؟ وكيف تقدم الفتاة على الرفض أو القبول دون أن تسترشد برأى أبويها فهى لا بد أنها كتبت لهما وأنها منتظرة رسالتهما فى هذا الصدد ! وبعـد ذلك بأيام قلائل بعثت إلى بكلمة مختصرة جافة فاترة إذ قالت فيها : « أشكرك على عاطفتك نحوى ، ولكنى لا أستطيع قبول اقتراحك ... » . حاولت أن أراها بعد ذلك فعلمت أنها غادرت أسرة (برايتبزج) إلى فرنسا !

لا تسل يا بنى عما صرت إليه من شقاء النفس وجحيم القلب ووخز الضمير ... ! فلأول مرة فى حياتى صادفت المرأة التى سماها «شاتوبريان» سيليفد Sylphide هى التى يتمناها كل رجل لتكون له شريكة فى حياته . وقد أكون خادعاً نفسي بالأحلام

ومدنساً عليها الرأى بالخيال ... ولكن من يدرى لعل الخيال والوهم كانا ولا يزالان أقوى عضداً وأبقى أثراً على مشاعر الإنسان وحسه حتى لا تجرؤ الحقيقة على محوه ولا الواقع على إزالته . وعلى ذلك فالمرأة التى اصطفيتها من دون أترابها قد أفلتت من يدى إلى غير رجعة !

أصبحت بعد ذلك وليس لى أمل غير التمتع بالذكرى العزيزة ردحاً من الزمن ، وأضحت إقامتى فى (فيينا) غير محتملة تثير فى نفسى الهم وتهيج فى صدرى اليأس فطلبت نقلى إلى بلد آخر أياً كان . فكان أن أرسلت سفيراً لبلادى فى روسيا حيث طبيعة المناخ واختلاف البيئة والاجتماع وماريا يافلوفا التى رأيت صورتها منذ قليل ، كل ذلك سوّغ لى جواً يختلف كثيراً عن ذلك الجو الذى اعتدته فى فيينا فى سالف أيامى !

وبعد ذلك بسنوات قليلة سمعت أنها تزوجت هنرى كليرمنت فكان وقع الخبر على مسامعى شديداً وأثره فى نفسى بليغاً لأنى علمت أنها تزوجته لماله وجاهه ليس غير فأضربت عن الزواج لسببها وأصبحت عنه عزوفاً كارهاً

وأخيراً نجحت فى تحاشيها ، فلم أعد أحاول مقابلتها أو أمنى النفس برؤيتها وهأنذا قد بررت بعهدى وصمدت فى عزمى ، وأود أن تخبرنى بحالها وما كانت عليه بالأمس عند ما قابلتها ؟ فوصفت له حالها بكل ما أوتيت من بيان واستطعت أن أصور فى خاطره صورة هذه العجوز الحسناء .. !

فأجابنى قائلاً: « أجل هى كما وصفت ذات عينين صافيتين يفيض منهما الحنان والرقة ، ولكنه حنان كنوه طبيعة الغدر فيها ..! أريد مع ذلك أن أراها ثانية ...!» فحكيت له ما دار بينى وبينها بشأنه فقال بلهجة المهتم :« آه ! وكيف حدثتك عنى وما الذى قالته لك فى أمر قصتى معها ؟» فقلت : هى تقول إنها لم تركَ منذ أربعين سنة خلت ! وطلبت أن أتعرّف مبلغ عاطفتك نحوها الآن ... فقال : « قل لها إنها لا زالت كما هى على حالتها منذ ١٢ يناير عام ١٨٦١ بجانب لهيب الموقد فى ردهة قصر براينبرج » .

فى اليوم التالى ذهبت لزيارة السيدة كليرمنت دى ساذى لأخبرها بذلك فأصغت إلىّ منصتة دون أن تقطع علىّ الحديث ، ولما فرغت من حديثى قالت : رباه ..! ما أغرب الحياة ..! فقلت : أجل ما أغربها !

حقاً أنا لم يدر فى خاطرى أن رجلاً كهذا الرجل يستطيع أن يبقى على ذكرى حب فتاة مخلصاً وفياً هذه الحقبة من الزمن ولا يعتوره أى نسيان أو يشوبه أى إهمال ..!

أما أستطيع فى غير إحراج أن أسألك أنت أيضاً يا سيدتى عما كان يخالجك من شعور نحو «أدمون نيفيل» فى عام ١٨٦٠ ؟ أما كنت تضمرين له الحب كما أضمره لك فى السر والعلن .. ؟ فصاحت صيحة كلها دلال وهيام وتضرج وجهها قليلاً وقالت: أما أنا فكنت أحبه حباً يقرب من الجنون ..! وبعد ما فكرت قليلاً عادت مبتسمة قائلة : ولم أزل أحبه حتى الساعة ! فقلت : ولماذا رفضت اقتراح زواجه بك إذ ذاك ؟ فقالت : لأنى كنت لا أظن لحظة واحدة أن اقتراحه هذا فيه شىء من الجد بل كنت أعتقد أنه يهزأ بى ويستدرجنى لأكون له خليلة لا شريكة ... ! ومما زاد فى اعتقادى هذا أنه عند ما جاء إلينا فى قصر براينبرج قال لى الكونت براينبرج

« تحذار من هذا الرجل الخطير . . ! » هذا فضلا عن علمي بشهرته فى مغازلة النساء والعبث بقلوبهن فى كل مكان . ولما فاتحنى برغبته فى الاقتران بى وسلك تلك الطريقة الشاذة التى لم يألفها مجتمع ذلك العصر . كما تعلم يا صديقى فى مثل هذه الأحوال كان يجب عليه أن يكلف وسيطاً بينه وبين أبوىّ صاحبى الشأن فى مثل هذه الظروف كما تقضى به التقاليد إذ ذاك . وأغلب الظن أنه قام بهذه الخطة اعتقاداً منه أننى ربما تأثرت وخجلت فأقبل طلبه فى غير تردد ولا تفكير ! وا آسفاه . . . ! قد جاءت النتيجة على غير ما أراد إذ لم ترق فى نظرى هذه الخطة وحسبته هازئاً عابثاً . . . ! فاعتذرت له فى غير ندم . . . ! وبعد ذلك بسنوات قليلة شاءت إرادة الله أن أقترن بزوجى « كليرمنت دى ساذى » وبالطبع ليس من اللياقة أن أحدثك عنه وإنما أترك لبصيرتك النافذة لتحكم له أو عليه وأنت الذى طالما بذلت اهتمامك بدراسة النفس البشرية !

ثم عرجت إلى قصة نيفيل قائلة : « مسكين نيفيل ! لهفى عليك ما أقسى الحظ . . . ! ألم يتزوج إلى الآن بسببى . . . حقاً إن الحياة ظالمة غير عادلة قاسية غير راحمة . . . ! ففى لحظة واحدة من الخطأ وسوء التفاهم قضى القدر على رجل كريم وشاب برىء أن يظل فى شقاء مقيم مدة ستين عاماً ! »

ولما انتهت قلت لها : « لقد كلفنى السيد نيفيل أن أدعوك إلى زيارته وأظنك لا ترفضين رؤيته وقد قارب النهاية . . . ! وكم يكون جميلاً إذا جئت فأصلحت فى ساعاته الأخيرة سوء التفاهم الذى فرق بينكم وسبب شقاء حياتيكما ، وتقدمين العزاء الأخير لحبيبك الأول . . . ! »

فلم ترد علىّ وغرقت فى تفكير عميق مؤثر ثم قالت : « أنا لست على رأيك ! دعْ هذا الوجه الوقور يعب الموت هادئاً مطمئناً واترك تذكار حياته مطبوعاً على خاطره ليكون له فى آخرته عزاء وسلوى . . . فلا تزعج صديقك وقل له : إنى آلم له أشد الألم ، وأعتذر له بأنى لا أبرح البيت إلا نادراً ، وربما أستطيع أن أزوره فى الأسبوع المقبل . . . ! »

ولكن لم يكد يأتى هذا الأسبوع حتى زارته المنيةُ فى غيبة عن حبيبته الأولى التى لم تستطع أن تراه إلى الأبد . . . !

محمود المرصفى

مستجيل

عن الانجليزية

بقلم الاستاذ عبد اللطيف النشار

إذا قال لك أى إنسان إن الخصومات العائلية الدموية قد تلاشت فى عهد المدنية الحديثة فأرسله إلىّ لأقنعه بخطئه فإنى نشأت فى جو كله مشاغبات وخصومات ومشاكل ، ولكن كل الفرق بين حالتنا الآن وحالة الأسر فى عهد مونتاجو وكابيوليت هو أن اللسان يستعمل الآن بدلاً من السيف

وليس فى كرينبرج من يستطيع ألا يتصور أن الذى يحب أسرة ديكسون يجب أن يكره أسرة فولر والعكس بالعكس ، أما وقد سافرت من كرينبرج والحمد لله فإنى أضحك من هؤلاء ومن هؤلاء ، وقد كان « دون » خطيبى يضحك على الدوام من تلك الخصومات أو هو على الأقل يقول لى ذلك الآن

ودون هذا من النوع الهادئ الذى لا تستطيع أن تعرف ماذا يجول بنفسه إلا إذا انفعل وذلك لا يحدث إلا نادراً ، ولقد كنت أظنه من المرونة والليان بحيث يستطيع أن يعمل كل عمل يكلف به ، وكان يظن أنى أيضاً شديدة الحياء والخجل وأنى لا أجد مندوحة عن القيام بكل عمل أكلف به

ويبدأ دورى الحقيقى فى هذه القصة منذ الليلة التى تركت فيها مع دون وحده فى شرفة المنزل ، وقد تركنا أبى وأمى وحدنا مجاملة له لأنى كنت مخطوبة إليه

وفى الليلة التى أتحدث عنها كانت الطيور تغنى وكان الجو ربيعياً جميلاً ، وكان كل شىء يتنفس بعبير الحب . وكأن الفكر فى جو كهذا لا يمر به شىء سوى أن موسم الورد سيكون فى هذا العام من خير المواسم

وقلت لدون إننى سأسافر من كرينبرج قريباً فسألنى عن المكان الذى أريده

قلت : لورندا . فأبدى دهشة وسألنى هل سأكون فى ضيافة أسرة ويلكنسون، فقلت : كلا ولكنى سأبحث عن عمل أكتسب منه

قال : « كيف ؟ لقد آن أن نتزوج فإن ستيفنس سيحال إلى المعاش فى شهر يوليو وسأعين فى وظيفته رئيساً للشركة ، وفى الخريف يكون زواجنا »

فقلت : « هل تعنى ما تقول ؟ »

قال : « الأمر يتوقف على رغبتك أنت » وأمسك بيدى فى رفق فلم أستطع الجواب وقال : « لقد تكلمت مع أبيك فى ذلك ليلة أمس وهو موافق كل الموافقة على زواجنا فى الخريف »

قلت وأنا أشعر بغضاضة : « ربما وافقك أبى ما دام الأمر كله دائراً بينك وبينه وأنا كالسلعة بينكما . لكننى تجاوزت سن الولاية ولست من الفتاة بالسكينة التى تقبل فلن أتزوج بناء على اختيار غيرى »



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦٢ — ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد

القبلة عند الغدير

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ يوسف جوهر

رفع وهو يرتدي ملابس الخروج في الساعة الخامسة من الصباح « الفانلة » عن أعلى الجانب الأيمن من بطنه ، ونادى خادمه ، وسأله وهو يشير إلى ذلك المكان قائلاً : « يا عثمان ... أترى هنا ورماً ؟ »

فأخذ الخادم النوبي يحدق في بطن سيده متعجباً ثم هز رأسه سلباً

وكان الفتى ينتظر جواباً غير هذا ، فطلب إلى عثمان أن يدقق الفحص ، ويقارن الجانب الأيمن بالأيسر من البطن وينتبه هل هما متساويان في الارتفاع والانخفاض ؟

فصدع الخادم بالأمر ، ومضي يلتهم بطن سيده بعينيه من جديد ، ثم ومض في عينيه بريق الانتصار أن نظرته الأولى لم تخطئ . لا ورم هناك . وهز وجهه الأسود بالنفي بأكثر إصرار ! ...

وكأنه لم يكن يعجب فوزي أن لا ورم هنالك فاستجمع قواه وصفع الخادم على قفاه

كيف لا يكون هناك ورم ! إن الكبد يقع في الجانب الأيمن من أعلى البطن . ولطالما سمع أن الغيظ (يورم) الكبد . وهو مغيظ . مغيظ . مغيظ ! إنه يحس أن كبده منتفخة بالغيظ كالإسفنجة ، متهرأة من الكمد المستديم . لو مست هذه الكبد أصبع ، أو رميت بنواة تمرة لسقط ميتاً ! ...

فكيف لا يرى هذا الخادم الغبي الانتفاخ الناجم عن تورم كبده ! ...

وأتم ارتداء ملابسه ، ونظر إلى وجهه في المرآة وهم أن يبصق على الصورة التي بدت له فيها . لكنه خشي أن يراه خادمه ، فرد لعابه إلى جوفه ، وهو يقاوم شهوة تقديم هذه التحية الصباحية لمحياه في المرآة . وأخذ ينظر إلى هذا «المحيا» كما ينظر الغريم إلى غريمه ! كان الغيظ قد طفح على سحنته ، وألقى الفتنة والشغب بين معارف وجهه حتى بدت كأنها طغمة متخاصمة .

أدهشه هذا المنظر ! ولم يتمالك أن ضحك ضحكة جوفاء صفراء ! أعبث الغيظ بوجهه كل هذا العبث ؟ وتألقت في عينه دمعة وهو يضحك ...

وجلس إلى المائدة ينتظر ما يعده عثمان من شاي ولبن لإفطاره . ودخل الخادم فإذا بسيده يعقد « الفوطة » من وسطها ويجذبها من طرفيها . وتراجع . وقد أذهله أن سيده يلعب كما يلعب الأطفال ويعقد « الفوطة » .

وأفاق « فوزي » لنفسه وبه خجل أن يكون خادمه قد رآه . ثم اطمأن إلى أنه وإن يكن قد رآه فإنه لن يعرف ما يعنيه بعقد الفوطة وجذبها من طرفيها ، وكان « فوزي » يتصور وهو يصنع ذلك

أن « رقبة » رئيسه فى هذه الخية ، وإن الفوطة تخنقه شيئاً فشيئاً وتوشك أن تريحه منه .

وعرف أنها « أحلام » ، وأن لا خلاص له من رئيسه ، وأن هذا الرئيس سيعيش وسيهلكه وشيكاً بتصرفاته التى تجرعه من الغيظ والكمد ما سيأتى على البقية الباقية من « كبده » ...

كان فوزى يعمل بفرع شركة من شركات التأمين على الحياة . وكان مقياس كفاءة الموظف عند الخواجة «عجان » وكيل الفرع قدرته على إغراء الناس بالتأمين على حياتهم . وكان معجباً بفوزى لفصاحته وذلاقة لسانه وقدرته على « السبك » . وكانت مصيبة الفتى ناشئة من هذا الإعجاب . فما يكاد الخواجه عجان يسمع عن رجل موسر فى الريف أو تاجر معروف حتى يبعث بفوزى إليه يعرض عليه فوائد التأمين ومزاياه .

والزبون المتلكئ فى دفع الأقساط ليس له إلا فوزى يحاوره ويداوره ويتعقبه ويحاصره ويسترضيه ويهدده حتى يؤثر راحة البال ويدفع « المتأخر » صاغراً . فإذا ما عاد فوزى غير موفق فالويل له . فإن الخواجه يهدر ويزمجر ويشتم ويلعن ويهدد بالويل والثبور . فإن أشفق الفتى من نتيجة منتظرة وأبى أن يذهب اعتبر «عجان» ذلك عصياناً يقابله بعصيان أشد هولاً ونكراً لأنه العصيان عن دفع المرتب آخر الأسبوع

لذلك لم يكن فوزى يعرف للراحة طعماً . إن مشاكل «عجان» لا حصر لها . لقد عمل فى الليلة الماضية حتى منتصف الليل وأنجز العمليات الحسابية وسوى الدفاتر بأمل أن يظفر فى اليوم التالى ، وكان يوم أحد، بالراحة. فيدور فى المدينة باحثاً عن النسيم العليل والقوام الرشيق ، وكان يمنى نفسه بنعاس عميق بعد الظهر عقب الجلوس إلى فرخة سمينة وزجاجة من النبيذ ، وهى أشياء ظل يحلم بها من زمن بعيد . لكن أحلامه انتهت كما كانت تنتهى دائماً إلى هذه الخيبة القوية. فقد دخل عليه الخواجة «عجان» يتقدمه كرشه ، وأخذ يسأله عن الصحة والأحوال ويتمنى له أطيب التمنيات ، فعلم أنها مقدمات التكليف بمهمة ثقيلة مضنية يجب أن يذهب إليها فى الصباح ، فلا نسيم عليل ولا قوام رشيق ، ولا فرخة سمينة ولا خمر ولا كأس ، وإنما هو الشقاء الأبدى فى رحاب الخواجة «عجان» . إنه يريد أن يستغل كل قطرة من وقته ومن عافيته، وأحس أن ما بقى من كبده المتلظية فى مرجل الغيظ — قد طاب

ولم تكذبه ظنونه فقد حدثه الخواجة عجان وهو يربت على كتفه ويبتسم له ابتسامة مبطنة بالتهديد أن عليه أن يستيقظ فى الصباح فى الساعة الخامسة ويركب السيارة الوحيدة التى تذهب بعد الخامسة بقليل إلى قرية «السلاهيب» . فإن هناك رجلاً غنياً كتب إليه أنه يريد أن يؤمن على حياته وحياة ابنته والمسافة إلى «السلاهيب» ست ساعات فقط ، وعليه أن يكون السابق إلى توضيب الزبون فقد يكون مندوب الشركة الأخرى على علم فنخطف الصفقة .

كان فوزى يعلم أن المعارضة لا تجدى فترحم على تمنياته التى تخطرت فى رأسه ، ولم يحاول أن يتنصل من الذهاب ، بل حاول أن يتخلص من عجان ويظفر بساعات من النوم بين الساعة الأولى والخامسة من الصباح

كان فوزى وهو يدنى شفتيه من فنجان اللبن يقول لنفسه : أيوجد من هو أشقى منه ؟ عمل بلا انقطاع ولا راحة بأجر هزيل ! وكان يحس أن جنبه يكاد ينفجر

عن فلذات كبده تتطاير كرشاش الماء حتى تضرب الحائط ...

وإذا (بعثمان) يدنو منه ويضع أمامه علبة من الورق فيسأله عما تحوى . فينبهه أنها علبة (الكربونات) ألم يحدثه عن انتفاخ بطنه ؟ إن الكربونات يا سيدى أكيدة المفعول ... إنها تزيل الانتفاخ ...

وتصاعد غيظ فوزى . وقذف الخادم بفنجان اللبن الساخن ... ونهض عن المائدة . ما حاجته إلى اللبن المغلى ؟ إن جوفه يغلى ويقذف الحمم . ليست لديه الرغبة فى أن يبلل شفتيه المحترقتين بما يزيد حرقتهما

وهو ينظف بالفرشاة طربوشه الذى حال لونه من كثرة التجوال تحت الشمس المحرقة ، أسف كثيراً لما أصاب خادمه ... ماذا جنى ؟ إنه لم يكن يقصد النكتة ... من كان يدريه أن الانتفاخ ليس سببه الأكل وإنما سببه الغيظ ؟ إن الخواجه عجان هو الأحق بهذا السائل الحار يسقط فوق رأسه الأصلع

ومر وهو خارج بعثمان ، فمسح بيده على قفاه مصالحاً : « متزعلش . حقك علىّ . أصلى زهقان من نفسى يا عثمان ! ... »

فأزاح الابتسام شفتى الخادم الأمين عن أسنانه البيضاء :

— أبداً ياسيدى، أنا مش زعلان ده أنا اترقيت . زمان كنت بتضربنى بقزازة الحبر ، ودلوقت باللبن الحليب . مين يطول ده ؟ أمى داعيه لى . . . كانت الله يرحمها دايماً تقول : « روح يا عثمان ربنا يبيض وشك ... » ربنا استجاب دعاها . بس ياسيدى اعمل معروف تانى مرة لما تحب تضربنى باللبن تطوّل بالك لمّا يبرد شويه ! . .

وخرج فوزى وقد أضاء قلبه قليلاً تصافيه مع خادمه

* * *

ووجد فوزى نفسه فى السيارة الكبيرة الذاهبة إلى قرية « السلاهيب » . وأخذ يجيل عينيه فى الجالسين : وهم فعَلة ذاهبون مع المقاول لحفر ترعة ، وبعض نسوة زرن أولياء الله الصالحين فى المدينة ثم بكرن عائدات إلى قراهن وفى سلالهن أقماع السكر وكساوى الشيت والحلاوة الطحينية . . . وهؤلاء الحزينات الساهمات لابد أنهن كن بالأمس فى المحكمة الشرعية سعياً وراء حكم نفقة أو تفرقة . وهؤلاء المصبوغات الكفوف بالحناء كن فى المدينة يخترن جهاز عروس ؛ وإلا فما هذا الصندوق المدهون باللون الأحمر الصارخ ؟ وما هذه المرآة ذات الإطار البديع من الخشب الذى تصنع منه صناديق السكر والصابون ؟

وضحك فوزى فى نفسه ، فإن الخواجة عجان لم ينس أن يوصيه بالتحدث إلى المسافرين معه عن التأمين وفوائده ومتانة الشركة ومنشآتها فى بودابست وبلغراد وروما ! ...

وكانت السيارة تمضى فى طريق ردىء مملوء بالأخاديد . فكانت ترتفع وتنخفض ومعها معدة الفتى وأمعاؤه وكبده . . . ورائحة البنزين والشحم المحترق تنبعث من آلاتها الرديئة مختلطة بعثير الطريق تنفذ إلى رئتيه . وشمس الصيف قد أخذت تتسلق السماء وتضرب صاج السيارة وتحيل داخلها شعلة من جحيم

عليه أن يحتمل كل هذا ساعات أخرى . وللخواجة أن يستمتع براحة يوم الأحد . إنه يدرى ماذا يصنع عجان يوم الأحد . إنه يتحرر من (بذلته)

ويجلس فى (براندة) منزله بسرواله الدبلان الفضفاض الذى صاحبه من دمشق . يجلس متنمراً ينتظر قدوم صينية « الكبيبة » من الفرن ، وزجاجة الزبيب الزحلاوى جالسة إلى جواره ، وحوله ابنه الخائب « نايف » الذى لم يفلح فى المدارس قط . وبنته « نجفة » التى ورثت عنه بدانته المفرطة ودمه الثقيل الذى ينفر منها الخاطبين؛ وزوجه... وزوجه « سارة » المهزولة المعروقة التى لم يزر السرور وجهها قط ، العجوز المتصابية التى تزيل الشعر عن حاجبيها وتتركه فوق شفتها العليا وتحت إبطيها ، وتصر مع ذلك على لبس (السواريه) ! ... تلك المرأة التى لم يفهم حديثها قط ، وإن كان يفهم من نظراتها القاسية أنها تستكثر عليه راتبه !

أيخطر ببال هؤلاء الناس السعداء، أتخطر ببالهم رائحة البنزين ، ورائحة القرويين ، ورائحة روث البهائم الذى يجف ويثور مع التراب ؟ أكانت تنطبق الأرض على السماء لو أجلت هذه الرحلة إلى يوم الإثنين ؟ لكن فلتكن مشيئة الخواجة «عجان» ما دام هو الذى يستطيع أن يرفع المرتب . ويخفضه ويعطيه ويمنعه .

وأغمض الفتى عينيه . فإنه سيفتحهما عندما يصل على قذى كثير : العثير المتطاير تحت حوافر السائمة ، والأطفال الذين يرضع الذباب الأوساخ المتراكمة على وجوههم ، وقهوة القرية يجلس عليها آدميون صفر الوجوه يشربون جميعاً من « جوزة » واحدة ، وأمامهم أقداح بها سائل أسود يسمونه الشاى ... وسيفتحها أيضاً على سحنة أخينا الذى يريد أن يؤمن على حياته .

وقد يكون جلفاً وقد يكون هازلاً . وقد تكون حياته لا تساوى شيئاً لأنه بقية من بقايا الأفيون (والنزول) والأنكلستوما والصفراء . وما ابنته هذه التى تريد أن تؤمن على حياتها ! فلاحة لا تعرف كيف تخط الألف ! تظن أن الحياة تحد شمالاً بترعة الناحية ، وجنوباً بمقام سيدى « عز الرجال » حامى القرية وشرقاً بنقطة البوليس مقر الحاكم ذى الدبورتين ، وغرباً بالبندر أو عاصمة المديرية حيث محكمة الجنايات التى يرسل إليها الأشقياء الذين يحرقون زراعات القمح ويقلعون القطن ويسممون المواشى ويزهقون الأرواح ...

ونزل فوزى أفندى قرية السلاهيب ، وأخذ الناس يختفون من طريقه ! فإن فى يده حافظة مملوءة بالأوراق ، فإن لم يكن محضر محكمة مختلطة يحمل ضمن أوراقه هذه تنبيهاً بنزع الملكية فهو على الأقل محضر محكمة أهلية لديه أوامر بالحجز التحفظى ، أو بيع المحصول من أجل كمبيالة تدخلها فوائد ربوية محررة لأمر وإذن أحد تجار القماش من كسوة الشتاء أو أحد تجار السماد من أجل حياة الأرض ! وهو على أى الحالين يريد مرشداً يدله على المدين المسكين . ومن يرضى أن يكون هذا النذير المشؤوم ؟!

***

ووصل أخيراً إلى دار الشيخ « توكل » فإذا بها دار نائية عن القرية مبنية فى وسط حقول صاحبها ، جميلة رائقة المنظر وإن لم تكن ذات شرفات ، فإن نوافذها الواسعة المطلة على بستان تتمايل فيه أشجار النخيل مدهونة بلون أخضر لطيف لا يعلوه الغبار ، وسورها المزهر بالجير الأبيض تطل منه أوراق كرمة باسقة

وفتح الباب ... ولم يكن فوزى يتوقع قط أن يكون ملبى طرقاته هذا الذى رأى ! كان يتوقع أن يطالعه وجه فلاح يطل شعر صدره من خلال جلبابه المفتوح أو خادماً محزومة الوسط بحبل من التيل مبللة الثياب بالماء لأنها تدير (الطلمبة) أو بالعرق لأنها تجرش الفول على الرحى ، أو على الأكثر فتاة صغيرة بطرحة تخفى تحته منديلاً اسطمبولياً مشغولاً (بالأوية) ملوثة اليدين من (تلزيق الجلة)

لم ير شيئاً من هذا ، وإنما رأى فتاة حضرية فى يدها كتاب وعلى فمها ابتسامة وعلى وجهها (تواليت) متقن ! ...

ولما علمت (الآنسة) ما يريد وضعت له كرسياً فى ظل تكعيبة العنب وأدارت كتفيها وسارت قليلاً ، ثم صعدت الدرجات القليلة الموصلة إلى باب الدار . فوجد فوزى الفرصة ليلتقط أنفاسه ويجفف عرقه ، ويغمر قوامها اللدن الرشيق بنظراته ، فإذا ثوبها الحريرى أنيق محكم التفصيل ينم قماشه الخفيف عن ظهر لا ككل الظهور . . .

وعادت تقول له : « لقد سألت عن أبى الآن بالتليفون، فقد سافر إلى المدينة هذا الصباح ؛ لكنى لم أجده حيث كنت أظن . ولست أدرى إن كان فى وسعك أن تنتظر بضع ساعات ؟ ... »

فنظر الفتى فى ساعته . . . أيظل ست ساعات فى السيارة ويأتى إلى هذا المكان السحيق ليظفر بهذه النتيجة السارة ؟ أيعود إلى الخواجة مجان بخفى حنين ؟ إنه إن فعل لغضب ونفر وقذف من عينيه الشرر ، ولرماه بأنه ركب السيارة ثم نزل على مسافة خمس دقائق من المدينة فى أقرب حقل من حقول البطيخ حيث أكل واحدة مثلجة بندى الليل ثم تجشأ ثم استأنف الرقاد تحت فىء جميزة أو شجرة توت . وإن زعمه الذهاب إلى السلاهيب كذبة سمجة جزاؤها أيام خمسة تخصم من مرتبه ...

وتفصّد جبينه عرقاً من هول ما يتوقع. وسأل الفتاة كوب ماء

فصفقت « سماح » فى طلب الماء . وجاءت خادم صغيرة بقلة خيل إليه أنها تضحك من فرط ما هى دقيقة ورقيقة ونظيفة ، وشرب ، وملأت « سماح » الكوب مرة أخرى وأخذت تشرب . وكان الماء البارد العذب قد رطب جوفه وخفف من خفقان قلبه اللاهث الذى أذهله حسن الفتاة ، فوجد الجرأة لينظر إلى نحرها الناصع وهى ترشف الماء . لكأنه يراه وهو ينسكب من فمها الصغير ويترقرق فى هذه القصبة التى إن كانت عند الناس بلعوماً فهى عندها قطعة من البلور الشفيف ! . . .

ولم يفتها تعلق عينيه برقبتها . لطالما رأت الناس يحملقون فى هذه الرقبة . لقد كانت مرة فى حفلة ساهرة فى القاهرة حيث تقيم ، فجاءها أستاذ معمم من أساتذة آخر الزمن ، وكان قد شرب أكثر مما يجب ، وكان يمسك فى يده اليمنى كأساً من الوسكى وفى يده اليسرى عمامته ؛ وكان شعره مصففاً عند الحلاق ومعطراً . جاءها هذا الشيخ وهمس فى أذنها قائلاً : يا غانية . . . إن رقبتك تشبه « كوزاً » من الفضة . . . ذكرت هذا . . . وذكرت أنهم حدثوها أنه شيخ فريد فى بابه وأنهم يسمونه «الشيخ موريس شيڤاليبه » فضحكت . وكانت خلية الفؤاد تهفو للضحك

وأحبت أن تعلل ضحكها فسألته : « إنك تنظر

إلىّ كأنك رأيتنى من قبل ، وكأنك تفتش فى ذاكرتك عن المناسبة التى رأيتنى فيها . . . أنكون قد تقابلنا فى القاهرة ؟ . . . »

فعلم أنها فتاة ماكرة وأنه (ملبوخ لا محالة) وبحث عن صوته فلم يجده . وأخيراً استطاع أن يقول : « كنت أودّ أن أقابل والدك . . . »

ولم تتركه يتم كلامه وقالت : « قلت لك إنك تستطيع أن تنتظره . تكون مشكوراً لو بقيت فإنى لا أجد من أحادثه فى القرية ، ووالدتى مريضة بالنقرس لا تفارق سريرها ، ولا يفارق النعاس جفنيها . وهذه الخادم الصغيرة قد سمعت كل أغانيها ومواويلها وحفظتها وسئمتها . أما خادماتنا الكبيرات فإن حديثهن يفزعنى فإنهن لا يحسن الكلام إلا عن السحر وعن الجنية التى تسكن ساقيتنا البحرية ، والمارد الذى يتجول على شطى الترعة طول الليل ، وعويس شيخ النسر . أما هذا الكلب « حاتم » المربوط عند الباب فبالرغم من أنه يحسن السهر فى الليل ويجيد استقبال اللصوص ولا يعبأ بالجنية ولا المارد ولا الشقى عويس ، إلا أنه بكل أسف لا يجيد محادثة السيدات ولا يحترمهن كثيراً . وكأن أثوابى لا تعجبه أو لا تريح أعصابه فإنه يحب أن ينالها بأسنانه . إنه كلب فلاح ... أوه نسيت أنك ضيفى . . . يا زهرة كوب شربات . . . »

ولم تجب الخادم فانطلقت إلى الداخل تعدو؛ ووجد فوزى الفرصة مرة أخرى ليملأ عينيه من قوامها اللدن الممشوق . وارتفع ثوبها عن ساقيها قليلاً وهى تقفز الدرجات ، فأحس أن ريقه يجف وينضب من حلقه ويصعب ابتلاعه ، وأن ضربات مطرقة تتردد فى صدره ، وأن مقدمات إغماء تتمشى فى جسده لما أتت الخادمة بالشربات أخذ يزدردها بصعوبة وهو يحس أن معدته قد أغلقت وأنه لن يجوع أو يعطش فيما بعد بل يكفيه للرى والشبع أن ينظر إلى وجه « سماح »

وجعلت كرسيها أمام كرسيه وأخذت تحادثه ونظر فى ساعته ، ففطن إلى أنه بقى كثيراً ، وأن الزمن لم يمر فى حياته من قبل بهذه السرعة ، وقام يستأذن ، وقالت له عند الباب : « أترك الأوراق التى تريد أن تتركها وتعال يوم الخميس فتجد أبى ونبتّ فى الأمر . أأنت آت ؟ »

وعادت إلى كرسيها ثانية ، وكان كرسياً طويلاً من القماش فتمددت فيه ، وفتحت كتابها الذى نسيته وحاولت أن تقرأ فلم تفلح ، وألقت كتابها على صدرها وآثرت أن تحلم ...

أخذت أفكارها تجرى وراء مندوب شركة التأمين على الحياة . سيسير طويلاً تحت الشمس المحرقة سيراً حثيثاً حتى يدرك السيارة الكبيرة العائدة إلى المدينة ، وحينما يعود إلى أن يذهب ! أهو حقاً أعزب كما فهمت منه ؟! وأين يسهر ؟! وكيف يعيش ؟!

لقد تحدثت إليه ومست هذه المسائل مساً خفيفاً وحكت له عن حياتها فى القاهرة ، لكنها لم تعرف منه أكثر من أنه فتى متعب صارم لا تعرف البهجة طريقاً إلى قلبه . إن يديه اليابستين الثابتتين يبدو عليهما أنهما مستا الأشواك كثيراً ولم تمسا الورود قط . لقد ربيت فى القاهرة فى بيت أخيها الطبيب وتعلمت فى « المير دى ديو » ومارست حياة اجتماعية كاملة باشتراك الجنسين من الوسط ولقيت شباباً كثيرين يعدون من الصفوة كما يغرق

الأطفال فى أشبار من المـاء ، كان هؤلاء يغرقون تحت نظراتها ويرتبكون ويفقدون ذلاقتهم إذ يجردهم حسنها مما يزعمون لأنفسهم من تأثير وشخصية . كم أحرزت من انتصارات وعبثت بقلوب . كانت لذتها فى الحياة أن تعبث بالرجال ، ولم تعدم قط رجلاً تضحك منه ، ولم تكن تلقى عناء فى ذلك . كان يكفى أن تلقى نظراتها فى عينى رجل وسرعان ما يبدو أمامها لاهثاً مبهور الأنفاس. وسرعان ما ترى الرماد يرين على جذوة الشجاعة والذكاء المتقدة فى عينيه وتتبدل نظراته إلى نظرات غبية بليدة بلهاء ترجو وتتوسل وتسلم القياد ...

لـكن هذا الفتى الفقير! لقد جمعت كل أنوثتها الفاتكة فى عينيها وعرضتها عليـه ، لـكن عينيه لم تطرفا ، ووجهه لم يمتقع وكبرياؤه لم تفارقه ! أهو فتى فظ ؟! لـكن عينيه المتكبرتين فيهما نعومة ورفق وخيال ، وصوته القوى فيه حلاوة وليونة ونغمة محزونة ، ووجهه الجميل النبيل ينبىء عن جرأة قلب وشهامة نفس ..!

وإذا ذكرت وجهه علت فمها ابتسامة . يجب أن يذل هذا الوجه لها ويتصبب لهفة وهياماً وتعنو جبهته المرتفعة وتجرى نظراته تحت قدميها ! . . . يجب أن تضحك منه كما ضحكت من إخوان له من قبل .

لقد طلبت إليه أن يأتى يوم الخميس وهى تبيّت فى نفسها أموراً ثلاثة : فإنها تعلم أن أباها ذاهب إلى القاهرة يوم الخميس ، وأنها ستعدل عن إلحاحها فى الذهاب معه مفضلة البقاء إلى جوار أمها المريضة ، ولن تقول له إن مندوب شركة التأمين آت .

أكانت تلك الإغفاءة الموشاة بالأحلام التى أخذتها وهى فى كرسيها طويلة أم قصيرة ؟ ... لقد استيقظت على نباح حاتم ، فإذا بالشمس قد أشاحت عن القرية مسلمة إياها إلى مسائها الصامت الراكد الحزين . لقد قامت إلى سريرها لتكمل ما عليها من نعاس وأحلام تملأها صورة مندوب شركة التأمين على الحياة

* * *

فى منتصف تلك الليلة كان فوزى جالساً فى حانة من حانات المدينة وكأسه أمامه ملآنة ينظر إليها دون أن تمسها شفتاه كأنه يذيب فيها أفكاره وهمومه. لقد ركب معه من (السلاهيب) صديق قديم عزيز من أصدقاء المدرسة لم يلقه منذ بعيد وأنبأه هذا الصديق أنه أصبح وارثاً ، وأن ضيعته فى القرية المجاورة ... وأخذ فوزى يحدثه عما أتى به إلى هذه الناحية ، وأخذ يطرى جمال ابنة الشيخ (توكل) إطراء شديداً وصديقه يصغى له مبتسماً ثم ينبئه أن الشيخ توكل عمه ، وأن (سماحاً) خطيبته منذ الطفولة ، ويفضى إليه بما يغيظه من هذه الفتاة التى أفقدتها القاهرة رزانتها وأفسدت خيالها الذى يصبو لحياة العاصمة . ومن يدرى لعل عدم ميلها إليه يرجع إلى أن قلبها معلق هناك ... قد تكون نسيت حب ابن عمها الشديد لها ، وداست تقاليد الأسرة التى تحتم زواج بناتها من بنيها حتى لا تتمزق الأرض التى ظلت من قديم وحدة لا تتجزأ ولا تدخلها قدم غريب

فلا يجوز أن يفكر فوزى فى سماح وقد خطبتها التقاليد لصديقه القـديم « مصطفى » ورفعتها مائة فدان ترثها ، درجات عدة عن الحضيض الذى تثوى فيه الجنيهات الستة التى يتقاضاها كل شهر ...

فما لعين سماح تتبعانه ؟ إنه لم يخلفهما فى القرية .

وإنما هما معه تسبقانه أينما ذهب وتنظران إليه أينما ولى وجهه بكل جمالها وسعتهما وسحرهما . ماذا تكن له هاتان العينان ؟ وما ذا يرافق جمالها ويذوب من سوادها العميق ؟ أهو ابتسام أم سخرية أم حنان أم إعجاب أم كبرياء ؟ أما من خلاص من هاتين العينين !.. إن كان لا مفر منهما فماذا تعنى بهذه النظرات ! أهى له أم عليه ؟ ..

أكانت جادة فى سؤالها إياه إن كان قد رآها من قبل ؟ أرآها حقاً ! أين يا ترى ؟ وأخذ يحث ذاكرته حتى هدته إلى أنه رآها فى أحلامه . ليست صورتها إلا الصورة التى صاغها خياله من أمانيه . حقاً لقد رآها من قبل ...

وتسلل إلى أذنيه من جديد صوتها وهى تكلمه عند الباب : « تعال يوم الخميس ؟ تعال ! أأنت آت؟ » لكأن نغمة خاصة تشعشع هذه الكلمات وتسقيها عذوبة تميزها عن سائر ما تحدثت به إليه . لكأنها تعنى أنها بانتظاره فى شوق !.. ثم كان يزجر خياله ويرى لهب الحقيقة يلعق هذه الأمانى بألسنة ساخرة من النار

كان يعتبر الحانة فيما سلف دار الإسعاف والعلاج فيها يخمد ألمه ، ويسكر ما يصرخ فى كبده من جراح . فما له الآن لا يكترث بكأسه ولا يشربها ويؤثر أن يفكر ويتأمل ويتعذب ؟ لكأنه يخشى أن تراه « سماحاً » وقد ثمل فتحتقره وتضحك منه وهو يشعل سيجارة من الناحية التى كان ينبغى أن يضعها فى فمه ، ويضع زر طربوشه فى مقدمة رأسه مثل هؤلاء السكارى الذين « يدندنون » زاعمين أنهم يغنون

وغادر فوزى مجلسه والكأس لم تمس شفتيه !

***

لم يعترض فوزى عند ما طلب إليه الخواجه عجان ليلة الخميس أن يذهب إلى السلاهيب فى الصباح لإتمام الصفقة . وانصرف عجان إلى بيته وهو معجب بقدرته على إملاء أوامره على مرءوسيه ، وراح يسدل سترته على كرشه برفق وحنان متمنياً لنفسه رعاية الله وحفظه فإنه من غير شك أكفأ وكيل لدى شركة التأمين . . .

فهم فوزى لما أبرقت أسارير خادمه عند ما علم أنه ذاهب إلى السلاهيب ولا يعود عند الظهر ــ أن عثماناً يحب ، وفى استطاعته أن يغلق الشقة ويذهب إلى محبوبته (نظيرة) فى طرف البلد ... حتى قلوب الخدم تخفق للحسن ... هذه القلوب التى أنهكها الانحناء لمسح (البلاط) والتسلق لتنظيف السقف ! أهو الهيام الذى يذيع التطلق والابتسام فى قسمات عثمان ؟ أهى القبل العذبة من فم (نظيرة) هى التى تجلو أسنانه فتسفر عن هذه الضحكة المتألقة البيضاء ؟ ليته كان الخادم السعيد ولم يكن السيد المنكود ! لو أن (سماحاً) له كما أن (نظيرة) لعثمان ! لكن أى خيال بعيد لو علم الشيخ توكل أن هذا الموظف الحقير يفكر فى ابنته لأطلق عليه كلبه (حاتم) ينزع عنه بأنيابه هذه السترة التى خرج بها من الدنيا ... ماله وهذه الأمانى الجوفاء والأحلام الضائعة ؟ ليس الغرام فى كل صورة إلا حماقة أبدية لم تنعق فى رأس إنسان إلا أوردته موارد الهلكة والبوار

ظل يدير هذه الخواطر فى رأسه والسيارة تطوى به الطريق إلى السلاهيب . لم يكن باله هذه المرة إلى السيارة ترتفع وتنخفض وتخض أمعاءه وكبده . ولقد استحالت نظرته الشزراء إلى وجوه الفلاحين إلى نظرة حنون مشفقة صافية ... وهو

لا يغمض عينيه اتقاء الغبار ، وإنما هو يغمضهما ليحلم ويغرق فى خياله كل الكائنات بنظرة حب شاملة . حتى (الجوزة) التى يكره أن يراها تمر بأفواه كل الجالسين ليست فى رأيه إلا مزمار الخيال يقبله كل رجل قبلة تسكر وتخدر . وليس حلاق القرية إلا فيلسوفاً « محلياً » لا أخف من يده فى إجراء الموسى . أما الأطفال القذرون فليسوا إلا ملائكة متنكرين فى أسمال . إنها قطعة صابون تعيد إليهم صباحة وجوههم الحنطية التى ذهّبتها الشمس ... إن كل شىء جميل ... فإنه يرى من وراء كل شىء ابتسامة سماح المتخطرة على شفتيها المختالة فى وجنتيها الراقصة فى عينيها تسبغ على الوجود جمالاً وفتنة وضياء . حتى « عجاناً » الذى يحمل له فى قلبه بغضاً لا حد له أصبح مرضياً عنه . فليست لكرشه الهائل وحقيبة الدهن المتدلية تحت ذقنه سماجتها التقليدية ... الآن يلحظ فيها فوزى شيئاً من الظرف والفكاهة ، وأن الصحة والعافية المكتظة فى وجنتى ابنته تحفة تستحق التحية . حتى امرأته سارة يرضى أن يقول لها فى خياله : « إذهبى يا امرأة مغفورة لك خطاياك اللفظية بسبب إتقانك (للكبيبة)

***

قالت له سماح وهى تفتح الباب : « أوه ، لقد نسيت أنك آت يوم الخميس ... لقد سافر والدى اليوم ... هل لك فى كوبة من (الشربات) ... »

ودخلت تجرى ، وأخذ يفكر وهو يحدق فى ساقيها : أحقاً نسيت أن تخبر أباها ؟ ! أحقاً نسيت أنه آت ؟ أهو كم مهمل إلى هذا الحد ؟ أم أن هذه الفتاة التى تتم حركاتها عن إتقانها (للتنس) قد اشتاقت إلى اللعبة وهى فى الريف فأرادت أن تجعل منه كرة تلعب بها وتلهو

وجلست إزاءه فى كرسيها الطويل وأراحت رأسها على ساعديها المتشابكتين فأخذ الذراعان العاريتان المحيطان بشعرها الفاحم يتكلمان عن فتنة مضنية مذيبة ، ويكونان مع الساعدين المتعاقدتين إطاراً ساحراً لصورة ساحرة من فن سحرى لا يعرفه هذا العالم ! . . .

لقد جلست هذه الجلسة ذات مرة أمام فتى قاهرى فسقط عند ركبتيها هامساً : « الرحمة فوق العدل » . فما لهذا الشاب لا يريم من مكانه ولا يتململ ولا يعبر وجهه عن الهزيمة بل يظل ساكناً كأنه قد من ثلج

وتنهدت بعمق وهى تتثاءب فقام صدرها الناهد ثم رقد من تحت ثوبها الشجر ثم قعد كأنه كوكبة من الأزهار تنحنى مع النسيم ثم تقوم

قالت له : « لعل من المؤلم لك أن تأتى مرة ثالثة ... » وتريثت عن تتمة الحديث لعله يقاطعها قائلاً : إن من يراها لا يعرف التعب أو الألم لكنه لم يفعل . فأحنقها هذا وقالت له : « أترك العقد وستجده فى المرة الآتية موقعاً عليه . إن أبى لا ينقض لى رأياً » ... فترك العقد واستأذن للانصراف ومضى ...

ووجدت سماح نفسها وحيدة مرة أخرى وعقد الحزن والتفكير ما بين حاجبيها . لقد انتهى اللقاء الذى مهدت له وظلت تحلم به . ها هو رجل لا يطيق الجلوس مع آنسة جميلة . كانت تظن أنه سيسقط من إغرائها فى بئر ، وأنها ستضحك منه كثيراً هى ولداتها عند ما تعود إلى القاهرة وتقص عليهن قصة (آخر تغفيل) ؛ فقد كانت ترى أن كل الشبان مغفلون يعبث بهم . والآن تتواضع فى مقدراتها ويكفيها

منه أن يعترف بجمالها ويشغف به . لقد رضيت أن لا تصنع به شيئاً لأنها على ما يبدو لا تستطيع أن تصنع به شيئاً

أما هو فقد أدهشته إرادته التى دفعت به إلى الخارج وأعجبته . فقد أحس فى أعماقه وهو ينظر إلى ذراعيها وصدرها بعواء ذئب جائع . ذئب كاد يفلت منه وينقض على سماح وليكن ما يكون . فليقاصها على هذه النظرات التى ترشق بها فؤاده . لقد فهم وأدرك فى اللحظة الحاسمة أن هذا الحب لا جدوى منه وأنه لن ينتهى إلا إلى ملهاة إن كانت سماح تريد أن تسخر منه، وإلى مأساة إن كانت جادة. أليس هياماً بلا أمل ؟ فى الطريق خاطب صديق ومئات من الأفدنة وأب يذود عن التقاليد . . . وهو ما سلامته ! وظيفة بستة جنيهات !..

عندما عاد فى الخميس التالى كان السهاد والصراع مع الأمانى قد أحاله شخصاً ذا إرادة جبارة تستمد قواها من اليأس

وجلس قليلاً ، ثم طلب العقد فجاءت له بالعقد والقسط الأول لعل هذا يرضيه ويسره . لكنه طواها فى جيبه واستأذن ومضى ... وهى تلح عليه أن يبقى .

ووجدت نفسها وحيدة مرة أخرى . لقد جربت معه نظراتها وتنهداتها ، ودنت منه لتسكره بعطرها، ورفعت إلى وجهه شفتين تختلج عليهما قبلة حائرة متلهفة طالبة إليه أن يبقى . فلم يصنع ولم يفكر فى اقتطاف تلك القبلة التى نضجت وأوشكت أن تسقط على كتفه .

أى فتى هذا ! ... إنه يملك الشجاعة والوسامة والفضيلة . لم تر من قبل هذه القوى مجتمعة . رأت الشجاعة مع القحة، والوسامة مع التخنث، والفضيلة ثوباً للعاجزين . لم تكن عادلة يوم طمعت أن يذلها، ولا يوم اكتفت باعترافه بحسنها وشغفه به .. إنها الآن تود لو يمكنها من أن تحبه وإنها لترضى أن تذل له ! ...

* * *

عادت سماح إلى القاهرة لكنها لم تجد لمسرات المدينة طعماً . ولم تعن بما يحوم حولها من فتيان ، ولم تجب الدعوات إلى الحفلات، ولم تصغ لتوسلات طاقات الزهر النضير التى تهدى إليها ...

كانت تؤثر أن تذهب فى اليوم الثالث من كل شهر إلى القرية لأنها كانت تعلم أن فوزى يأتى ليأخذ قسط التأمين ، وحاولت أن تفتح قلبه الحصين غير أنها لم تظفر إلا بصداقته .

وقالت له مرة وهى تصطاد السمك من الغدير المجاور للمنزل : « انظر ! ما أجمل الماء الرائق . إن الإنسان يستطيع أن يرى فيه وجهه ؟ » فقال : « لعله أول نوع من المرايا اهتدى إليه الإنسان » قالت : « أتظن أن الماء كان مرآة أمنا حواء ؟ » قال : « نعم » قالت : « إن هناك نوعاً أقدم من المرايا نعرفه نحن معشر النساء . يخيل إلى أن حواء أول ما رأت صورتها رأتها فى عينى آدم صدفة وهى تتأمل وجهه » قال ضاحكا : « حقاً قد تكون المرآة الأولى للمرأة الأولى » قالت : « وللمرأة الأخيرة . إن المرأة فى كل زمان ومكان تحب أن ترى صورتها فى عينى الرجل الذى تحبه لأنها إذ تنطبع على عينيه تنطبع على قلبه . ليتنى أرى صورتى فى عينيك كما أحس صورتك فى قلبى ! حدق فى عينىّ . أترى صورتك ؟ ... » قال : « إن عينيك مخضلتان بالدموع » قالت : « إن هذا النوع من المرايا يكون أشد إبانة حين يغسل بالدموع .

انظر . . . » وأدنت عينيها من عينيه بأهدابهما الطويلة ، فكأن إطار هذه المرآة سيوف مسلولة

وكان النسيم يغنى إذ ذاك لحناً خافتاً وانياً حالماً يقبل أهدابها . ورأى فوزى كأن على شفتى سماح أمواجا متلاطمة من القبل فلم يملك حواسه وهوى بفمه فى هذه الأمواج يسبح فيها ويعب منها . وجمعها بين ذراعيه ... لقد أفلت منه حبه الجارف ؛ وأحس أنه بحاجة لأن يضع فتاته بين جوانحه . . . ليت قطرات دمها تنزل ضيفة فى قطرات دمه ... ليت كيانها كله يدخل فى إهابه

لكن وجه الخاطب الحزين (مصطفى) مرّ فى خياله فجأة فبدا أمام نفسه كجندى انتصر فى كل المعارك واحتمل المكاره والمهالك والجراح . ثم خان فى اللحظة الأخيرة .. أجل .. فى اللحظة الأخيرة فإن أياماً سبعة قد بقيت على الزفاف ... وأفلت من ذراعى سماح ومضى يعدو ... إن التكفير الوحيد أن يحتجب عنها إلى الأبد

لكنه رآها فى الليل تقرع بابه، وعلم أنها آتية تعلنه أنها لن ترضى بالزواج كما هددته من قبل . وكان قد شرب كؤوساً فراراً من همه . وأوحت إليه هذه الكؤوس أن يبدو أمامها ثملاً جدا ويوهمها أن يخدعه امرأة ... حتى تكرهه ... لعل كرهها إياه يصرفها عنه ويصون لها مستقبلها

ودخلت عليه سابحة العينين فى الدموع وهرعت إلى صدره . لكنه دفعها عنه بغلظة وهو ينفخ فى وجهها نفساً مخموراً كريهاً . ثم استدار إلى باب مخدعه وتحدث وهو يغلقه إلى المرأة الموهومة النائمة فى سريره طالباً إليها أن تتدثر لئلا يؤذيها الهواء

وفرت سماح وهى تجهش بالبكاء . وتم زفافها بعد أيام .

فى ليلة الزفاف جلس فوزى فى الحان يفكر أمام كأس من الخمر: أتدرى سماح أنه ظلم نفسه من أجلها؟ أكان مخطئاً ؟ أكان مصيباً ؟ أجلب إليها الهناء أم الشقاء ؟ ليتها تخفف من مقتها له . ليتها تدرى أنه لم يكن منغمساً مع امرأة . هل قدر له أن يظل دنساً فى عينيها . إنها الآن بين ذراعى زوجها فهل ستذكر القبلة عند الغدير ونحن إلى الحبيب ؟ أقدّر عليها أن تتألق الدموع فى عينيها فى ليلة الزفاف ؟ أم أنها الآن قد نسيت جندى الهناء المجهول ؟ أتدرى أنه يحس الساعة إلى جانب العلة التى تفرى كبده علة جديدة تخرط قلبه ... لقد أقفرت الحانة من الشاربين فنهض ولم تمس شفتاه كأسه . ولما لفح جبهته هواء الطريق البارد سقطت من مقلتيه دمعتان تقولان : « يا سماح ! إنى برىء... »

يوسف جوهر
المحامى

أغرب من الخيال

مال بلا عمل ...

عن الانجليزية

بقلم الاستاذ عبد الحميد حمدى

انحنت « إرما » على المائدة الصغيرة التى مازالت تحمل بقايا القهوة التى شربناها معاً كأنها تريد أن تفضى إلىّ بسر من الأسرار وقالت :

— اسمعى يا «سبو» إن الأمر أبسط مما تتصورين فكل ما عليك أن تفعلى هو ...

فقلت فى لهجة مضطربة :

— لا أستطيع ، فالواقع أن ما تطلبينه مستحيل ، أقصد أنه ... أنه عمل غير شريف :

قالت « إرما » :

— هل لك أن تقولى لى أى شىء فيه يخالف الشرف ؟ أيمكن أن يقبض عليك أحد بسبب ذلك ؟ إنه تصرف فى حدود القانون

ففكرت قليلاً وقلت :

— قد يكون هذا العمل فى حدود القانون ولكن ...

فقاطعتنى إرما بقولها :

— ولكن ... ماذا ؟ أتفضلين أن تعودى إلى بيتك فتخبرى أمك أنك فقدت مركزك ؟

— نعم إننى كنت فى هذه المرة عاطلة من العمل فقد تركت نهائياً مركزى فى شركة ... الصناعية شأنى فى ذلك شأن بقية مستخدمى هذه الشركة الذين خرجوا من عملهم لإفلاس الشركة . ولقد كنت أعلم ما ستقوله أمى متى عرفت هذا الخبر المزعج ، وسينظر إلى إخوتى الأطفال بعين السخرية فلا يزجرهم إلا ما ينهال عليهم من شتائم أمى المحنقة الجازعة

فقد كانت الجنيهات الثلاثة التى أتقاضاها أجراً أسبوعياً عن عملى هى التى تقيم أود هذه العائلة الصغيرة . فضياع هذا المبلغ من أيدينا ...

لم يكن هناك ما يدعو إلى إسراعى فى العودة إلى بيتى فسرت فى الطرقات أتسكع وسط رواد الحوانيت بعد ظهر يوم السبت . وكنت أحمل فى حافظة نقودى تسعة جنيهات هى أجر الأسبوع الأخير وأجر أسبوعين مكافأة . ومن كان يحمل مثل هذا المبلغ لا يكتفى بالنظر إلى ما تحوى واجهات الحوانيت ويعض أنامله أسفاً لعدم استطاعته ابتياع شىء منها . على أن تسعة جنيهاتى لم يكن شأنها معى شأنها مع غيرى من الفتيات السعيدات اللواتى يندفعن غير مباليات إلى داخل الحوانيت

فبعد جولة فى الطرقات قصدت إلى بيت « إرما » وهى فتاة كانت تشتغل فيما مضى كاتبة فى بعض البيوت التجارية ، وقد أخرجت هى الأخرى من عملها من قبل ستة أسابيع . ولم يكن يبدو عليها التلهف للحصول على عمل جديد فهى لا تنتقل من وكالة تخديم إلى أخرى حيث تسأل عن اسمها ونسبها وحيث تقيسها الأعين الجامدة من رأسها إلى قدمها .

فلقد كانت « إرما » فتاة لعوباً وهو الوصف الذى لا ينطبق عليها سواه ، ولقد كانت تحاول أن تغرينى باحتذاء مثالها . فمضت تقول :

— إنك جذابة النظرات يا « سو » وأنت قادرة بما وهبك الله من حسن أن تربحى حوالى عشرة شلنات كل مساء

فقلت مصرة على الرفض :

— أنا لا أستطيع

قالت إرما :

— لا تستطيعين ماذا ؟

— لا أستطيع أن أتصيد الرجال ، وأن أخرج مع رجل لم أقدم له من قبل

قالت صاحبتى :

— أتريدين أن تقولى إنك لم تفعلى ذلك فيما مضى وأنت من فتيات لندن مولداً ونشأة ؟ أظن إذن أن لك كثيراً من الأصدقاء الفتيان فما بك من حاجة إلى السعى للبحث عن غيرهم

قلت :

— أنا لا أعرف كثيراً من الفتيان

قالت إرما :

— اسمعى يا « سو » إن كل ما عليك أن تعمليه هو أن تقفى أمام باب من أبواب دور السينما ، ويحسن أن تكون من الدور التى لا يقل أجر الدخول إليها عن شلنين ، وهناك تتظاهرين بأن صديقك الشاب قد أخل بموعده معك . فماذا يحدث ؟ هناك دائماً كثيرون من الرجال يبحثون عن فتيات يدخلن معهم ، فانظرى إلى أحدهم بعين مغرية ، فلا يلبث أن يقول لك : « أتحبين أن تدخلى ؟ » فتقولين : « لا مانع عندى من الدخول » وأظنك توافقيننى على أن ليس فى ذلك ما يدعو إلى القبض عليك ؟ ثم تدخلين مع الرجل . وعليك كما قلت أن تحملى معك نصف التذكرة ، حتى إذا مضت خمس دقائق على ابتداء السينما ، تستأذنين من صاحبك فى الذهاب إلى غرفة الزينة ، ثم تخرجين وتخبرين فتاة الصندوق أنك قد ابتعت التذكرة منذ لحظة وأنك تشعرين بالتعب وتريدين الانصراف وأخذ ثمن التذكرة ؛ فتنظر الفتاة إلى رقم التذكرة ، وبعد أن تتأكد من أنك دخلت منذ برهة قصيرة ترد إليك الثمن ؛ وقد يصل فى بعض دور السينما إلى خمسة شلنات ، فإذا كررت هذه العملية فى ثلاث أو أربع من دور السينما كل ليلة أمكنك أن تحصلى على مثل الذى أحصل عليه كل ليلة

سمعت هذه الكلمات فقهقهت على حين فجأة لأن ما قالته إرما كان فى نظرى أشبه بالمزاح . ثم قالت إرما :

— وأنا أفعل ذلك فى أمسيات أيام السبت أيضاً . فإذا أردت أن ترى بعينيك عمل خبيرة فى هذا فتعالى معى وقفى على مقربة منى وانظرى ما أصنع

بعد عشر دقائق كنت واقفة فى ظل مدخل من مداخل دور السينما الكبيرة أرقب إرما التى وقفت على مقربة من شباك التذاكر تنظر إلى ساعتها نظرة القلق الذى فرغ صبره مقطبة حاجبيها الجميلين . ولم تلبث أن أفلتت حافظة يدها فسقطت على الأرض ، فالتقطها رجل كان واقفاً على مقربة منها ، ووقف الإثنان يتكلمان بضع لحظات . ونجح مشروعها نجاحاً تاماً فقد تأبط الرجل ساعدها وقصدا إلى شباك التذاكر ثم دخلا معاً الدار ، فنظرت إرما إلىّ من وراء كتفها والتقى ناظرانا فكانت عيناها تقول :

— ألا ترين أن الأمر بسيط لا شيء من الصعوبة فيه ؟

وبعد خمس عشرة دقيقة عادت إرما إلىّ وفى قبضتها جملة قطع من العملة الفضية ، وقالت :

— خمسة شلنات ! فامض بنا الآن من هنا

وقلت فى أثناء الطريق :

— ولكن ماذا يعمل الرجل حين يتأكد أنك لن تعودى ؟

— ماذا عساه يستطيع أن يفعل ؟ سينظر حوله مفتشاً ثم يستقر فى مكانه متمتعاً بمشاهدة الفلم. والحق ياسو أننى لم أشهد السينما منذ عهد طويل ، ويحسن أن أشهد إحدى الروايات فى ليلة من ليالى فراغى

وقهقهت إرما واشتركت معها فى القهقهة فقد كان الأمر غريباً حقاً ، وأى شيء يفعله الناس للتخلص من العمل ؟

عند ذلك ذكرت موقفى ، ذكرت العمل الذى خرجت منه ، ولا يزال أمامى أن أواجه أمى بالخبر ، وسيقع ذلك من نفسها موقعاً شديداً ، ولو أمكننى فقط أن أقول لها : إن أمامى عملاً آخر فلا تجزعى يا أمى ، ولكن الحقيقة أن ليس أمامى من عمل جديد إلا إذا أنا — بطبيعة الحال — أصغيت لما تملى علىّ « إرما » من إغراء

ذكرت قول إرما : «الأمر أبسط مما تتصورين»

فقلت فى نفسى : « لم لا ؟ لم لا ؟ إن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة »

تمشينا أنا وإرما ، ثم أخذتنى إلى دار من دور السينما الكبيرة فى حى آخر ، وهناك تركتنى واقفة فى أحد الأركان .

فشعرت كأننى إحدى العرائس الشمع التى توضع فى واجهات الحوانيت ، واقفة جامدة منبوذة ، تنعكس على وجهى أشعة المصابيح والأضواء الساطعة ولعلى كنت منبوذة حقاً كما هيئ لى .

لقد نصحت لى إرما بأن أقع على فريسة بأسرع ما أستطيع وأن أركز كل قوتى لاجتذابه ، ولكن خيل إلى أن عينى قد فقدتا قوة الأبصار .

ومرة اقترب منى رجل وقال :

— ليلة لطيفة يابنيتى

وكان بدين الجسم أصلع الرأس يمضغ بقايا سيجار قديم ، فهززت كتفى وانتقلت من موقفى ، ورجوت لو إن إرما لم تكن ترقب موقفى .

ثم أبصرت ذلك الفتى الذى يرتدى معطفاً أصفر وقبعة عريضة ، وكان واقفاً بجوار الجدار على إحدى قدميه ثم على القدم الأخرى . وكانت أعقاب السجائر الملقاة تحت قدميه تدل على أنه قضى وقتاً طويلاً فى موقفه هـذا . وكان ينظر إلىّ نظرة المستطلع ولـكن فى غير وقاحة الرجل البدين . فقلت فى نفسى : لعل صاحب المعطف الأصفر يصلح لأن يكون الفريسة المطلوبة. ولقد كان يبدو لى أنه أسلم من من بقيـة الرجال الواقفين حولى . وكان واضحاً أن بعضهم ينتظر فتيات على ميعاد ، وكان البعض الآخر واقفاً لمجرد التطلع أو فى انتظار المصادفة التى تسوق إليهم فتاة ما ، كما خبرتنى إرما من قبل ... فاقتربت قليلاً من صاحب المعطف الأصفر متظاهرة بأنى أنظر الصور الفوتوغرافية لمناظر العرض المقبل. وقد ذكرنى صاحب المعطف الأصفر بجرو صغير أخذته أنا وأمى إلى بيتنا فى إحدى ليالى الشتاء . فأويناه وأطعمناه ، فقد كانت عينا الرجل أشبه بعينى ذلك الجرو ولهما لونهما .

وهنا أفلت حافظة نقودي فسقطت على الأرض فالتقطها صاحب المعطف الأصفر وقدمها إلى فى حذر شديد وهو يقول :

— أليست هذه الحافظة لك أم ترينني مخطئاً ؟

قلت :

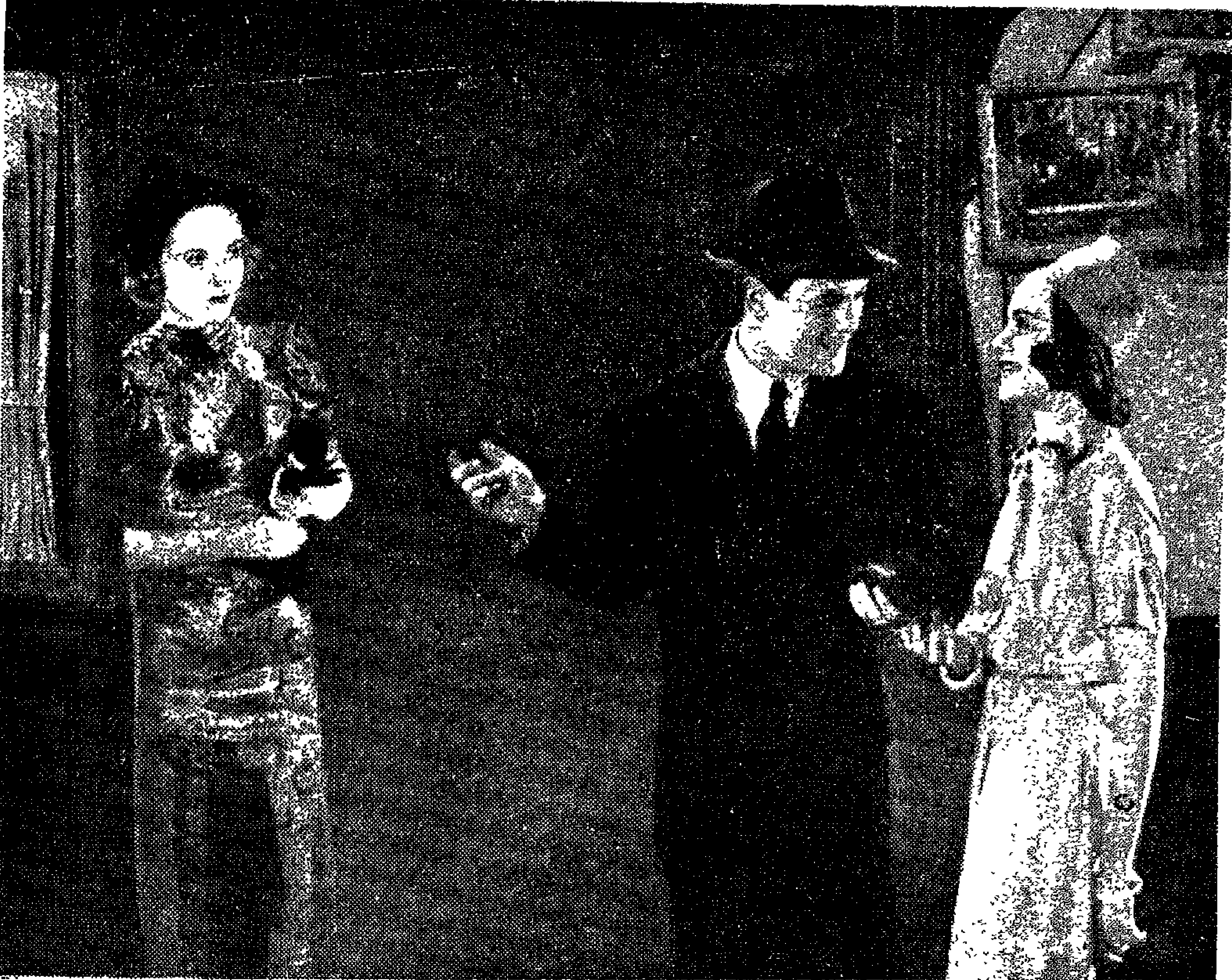
— بلى هى لى

وفى وقت واحد قلت أنا وصاحب المعطف الأصفر :

— وبعد ؟

وأحس الرجل بشىء من الخجل فاعتذر فقلت مبتهجة :

— يخيل إلى أن رواية الليلة جميلة جداً ؟



وأحسست أن الدم الحار قد ملأ وجهى وعنقى وأنا أقول له :

— أعندك ... ساعة ..؟

فأجاب الرجل فى لهفة شديدة :

— الساعة الآن السابعة والربع

فوقفت صامتة وأحدقت فى الأرض بضع لحظات

أجاب الرجل :

— نعم يلوح لى ذلك

وبدأت أظن أننى قد وقعت على رجل فى انتظار فتاة غيرى، فحاولت أن أبتعد عنه ، ولكنه قال على حين فجأة :

— إن لندن بلد عجيب ، فهل لا ترين ذلك ؟ إنه بلد عجيب واسع فارغ

وأقبل فريق من رواد السينما فكادوا يدفعوننى بالمناكب فملت جانباً ، وقلت وأنا أسوى قبعتى التى حرفتها حركة المتدافعين :

— أنا لا أرى لندن فارغة كما تتوهم ؛ غير أننى لا أستطيع بالطبع إلا أن أشعر بالضجر ، فإنه يبدو أن صديقى لن يحضر

فقال صاحب المعطف الأصفر : إن الرجل الذى يتخلى عنك يجب أن يسحق رأسه

فقلت :

— إنك على ما أرى رجل رقيق حريص على مواعيدك ...

قال الرجل :

— أنا لست على ميعاد ، ولكننى واقف هنا لأننى أقيم فى الفندق القائم فى الجانب الآخر من الشارع ، وأنا من أبردين

ويدل الأسلوب الذى ألقى به عبارته على أنه لا يرى بلده كبيراً مثل لندن ولا فارغاً مثلها . ثم قال :

— غير أننى على كل حال لا أعجب الفتيات

فقلت :

— إن أية فتاة تنفر من مصاحبتك تستحق تحطيم رأسها

فابتسم الرجل، ولم يكن حسن المنظر، ولكن عينيه وأسنانه كانت جميلة . ولم يلبث أن قال :

— إنى أسألك إذا كنت تحبين أن تشهدى هذه الرواية معى ؟

قلت :

— لا مانع عندى يا مستر ...

— لك أن تدعينى « بيل »

وفى أثناء اجتيازنا الردهة القصيرة الموصلة إلى صالة العرض أخبرنى الفتى أن أمه ماتت منذ شهر ، وأنه حضر لمشاهدة لندن ، وأن ليس لديه ما يمنع عودته إلى المزرعة التى يملكها ، لو أن فيها من ينتظره ليؤنسه

ثم قال فى شىء من الحزن :

— ولكننى لا أعجب الفتيات فهن ينفرن منى.

فسألته :

— « وهل رأيتنى أنفر منك ؟ »

فضغط الفتى ساعدى فى لطف فعل الصديق وقال:

— أما إلى الآن فلا ...

ووجدنا كرسيين فى مؤخرة الصالة وقد احتفظت بنصفى التذكرتين وجلست ساكنة أحاول النظر إلى الرواية ولكننى لم أشعر بشىء غير ملامسة كتف زميلى لكتفى

وبدت صفحة وجهه فى الظلام غائرة حزينة ، وذكرت أن أمه قد ماتت منذ عهد قريب ، وأنه منبوذ من الفتيات ، حتى لقد نسيت أننى أنا الأخرى منبوذة ، ورأيتنى أدعك شيئاً فى يدى . فذكرت نصفى التذكرتين ، فملت نحوه وقلت مسرعة :

— أتأذن لى بأن أتغيب بضع لحظات ؟

وبدأت أتسرب فى خفة . فقال :

— لا تنسى الكرسى فى الصف قبل الأخير !

واجتزت الردهة مسرعة أكاد أجرى، ولم أجد أية صعوبة فى استرداد ثمن التذكرة !

فسألتنى إرما :

— أراك قطعت وقتاً طويلاً فى حمله على الدخول معك .

وفتحت كفى المبللة بالعرق . فقالت إرما :

— نصف كرون ؟

قلت :

— نعم ... نعم نصف كرون

وصحبتني إرما إلى إحدى المحطات الأرضية لأعود أنا إلى بيتي ، ولتستأنف هي مغامراتها الليلية في حي آخر ...

وقالت إرما متضجرة ونحن ننتظر القطار :

— عجباً ! أنقف هنا الليل كله ؟

أما أنا فقد ارتسمت في مخيلتي صورة العينين اللتين تشبهان عيني الجرو الضال، ومنظر ذلك الشعر الذي لا يستقر راقداً على الرغم من استعمال زيت الشعر. وذكرت أنني أول فتاة لم يخف منها ، فترك لي دون أن أعود إليه ستكون الضربة الأخيرة التي تصيبه ... والفتى لا يزال حزيناً لموت أمه ... وكل الناس ...

وقبل أن أفكر في شيء آخر تركت إرما مسرعة فصاحت بي :

— إلى أين ؟

قلت :

— سأتكلم بالتلفون واذهبي أنت

وصعدت الدرج جارية ، ولم ألبث أن اجتزت الشارع عائدة إلى دار السينما

ووضعت نصف الكرون أمام فتاة الصندوق وقلت :

— تذكرة واحدة من فضلك

وقد دهشت الفتاة ... وخيل إلىّ أنها تسخر بي في نفسها ولكنني لم أبال شيئاً

وتسللت في خفة إلى مقعدي في وسط الصف الثاني في مؤخرة الصالة

وشعرت بيده تلمس ساعدي كأنما أراد أن يتحقق أنني أنا نفسي الجالسة إلى جانبه وقال :

— يا لله ... لقد جزعت عليك

قلت :

— صه فإني أريد أن أشهد التمثيل

وبدلاً من أن أربح نصف كرون أضعت ستة بنسات أجراً للترام ... فيالها من بلاهة ! !

ولكن لم يكن في وسعي أن أتحايل على أي إنسان على تلك الصورة . فذلك عمل دنيء حقير ، وبخاصة مع إنسان ينظر إليك كأنك جون كروفورد ومارلين ديتريش ممتزجتين في شخص واحد ، ثم هو لا يزال ينظر إليك هذه النظرة ...

ومنذ شهر وأنا ألتقي ببيل كل ليلة، وقد حصلت على عمل جديد ، ولكنه وقتي . فستصبح أبردين هي المكان المحبب لأمي ولأخوتي الصغار ولي أنا على وجه أخص !

عبد الحميد حمدي

حادث في الترشناف

للقصصي الفرنسي موبسان
بقلم الأستاذ ناجي الطنطاوي

كان والترشناف ضخم الجثة ثقيل الخطى ، يشكو ورماً فى قدميه يعوقه عن المشى ويمنعه من الحركة ، وكان رضى الخلق ، يؤثر الهدوء ويميل إلى الراحة ، يحب أن يبكر فى النام ويتأخر فى القيام وأن يأكل بهدوء وبطء ويتخير أطايب الطعام ، ويشرب الجعة فى مصانعها . يكره التقتيل ويعاف منظر الدماء ، ويبغض بعقله وغريزته وسائلها وآلاتها من المدافع والبنادق والمسدسات والسيوف . ويزداد بغضه للحراب لأنه يرى ضخامة جثته فيدرك عجزه عن الحركات السريعة التى تتطلبها هذه الأسلحة.

وكان أباً لأطفال أربعة يحبهم أعمق الحب وأشده ... لذلك كله كان يعد نفسه أشقى الناس وأتعس رجل على وجه الأرض منذ وطئ الأراضى الفرنسية جندياً فى الجيش الألمانى الفاتح . فابتعد عن أولاده وعن زوجته الشقراء الجميلة وحرم عطفها وحنوها وقبلاتها وجفا سعادته وهجر راحته .

ولما هبط الليل بظلامه ، تمدد على الثرى متلفعاً بثيابه إلى جانب رفاقه الذين كان يعلو شخيرهم ، وراح يطيل التفكير فى أهله الذين تركهم ، وبالمخاطر التى تتربص به ، وحدث نفسه قائلاً : لو قدر لى أن أموت فمن لأطفالى من بعدى ؟ من يقوم بأودهم وتربيتهم وتنشئتهم ؟ لقد عقد قروضاً قبل ذهابه ، ترك لهم بها قليلاً من المال ، ولكن ذلك المال لن يكفيهم طويلاً ، وكانت هذه النتيجة المحزنة تدفعه إلى البكاء كلما فكر فيها !

وشعر فى بدء الحرب بضعف فى ساقيه كاد يؤدى به إلى السقوط فى الميدان إعياء لولا علمه بأن كل جندى فى الجيش سيطأ آنئذ جثته بقدميه ، وقف شعره لسماع أزيز الرصاص المدوى من كل جانب

ولقد مضت عليه شهور عدة ، وهو يحيا فى جو من الرعب والفزع !

وكانت فرقته تتقدم نحو نورمانديا ، وكلفت يوماً مع كتيبة أخرى صغيرة بكشف طرف من البلاد فرأوا الصحراء هادئة ، ولم يكن هناك ما يدل على مقاومة مدبرة . ولكن لم يكد هؤلاء الروسيون ينزلون وادياً ذا حفر عميقة ، حتى أوقفتهم طلقات عنيفة وألقت عشرين جندياً صرعى ، وبرزت على حين غرة كتيبة من المتطوعين الفرنسيين من غابة صغيرة وتقدموا بخفة وحمية وحرابهم على البنادق !

ظل والترشناف أول الأمر ساكناً ، وبلغ به الذهول حداً لم يفكر فيه حتى فى الهرب . ثم شعر برغبة جامحة فى الفرار ، ولكنه ذكر أنه لا يسبق السلحفاة فى العدو ، ورأى الفرنسيين الضامرين الذين كانوا يقفزون كقطيع من المعزى ، وكادوا يصلون إليه ، فحار فى أمره وحانت منه التفاتة فرأى أمامه على بعد خطوات ست هوة واسعة ملأى بالأعشاب ومغطاة بالأوراق الجافة ، فألقى

بنفسه فيها ضامًّا رجليه غير ناظر إلى بُعد غورها ، قفز كما يقفز المرء إلى النهر من جسر منخفض فهوى فيها واستقرّ جسمه فوق أشواك العوسج الحاد التى تركت فى وجهه ويديه جراحاً تسيل منها الدماء ، وجلس عليها كما يجلس على سرير من الأحجار .

ورفع عينيه ، فرأى السماء من خلال الكوّة التى أحدثها سقوطه ، وخشى أن تشىَ به هذه الكوّة فزحف بحذر يجرّ رجليه حتى بلغ أقصى الهوة مستظلاً بسقفها المؤلف من الأغصان المتشابكة وبذل كل ما تبقى لديه من جهود ليبتعد عن ميدان القتال ونهض ، ثم جلس القرفصاء مرة أخرى كالأرنب وسط الأعشاب الطويلة الجافة .

وظل حيناً من الدهر يصغى إلى أزيز الرصاص ودوىّ المدافع وصيحات الجنود وأنّات الجرحى ثم بدأت الأصوات تخفت والأنّات تضعف ، حتى انقطعت وساد السكون والهدوء .

وعلى حين غِرّة رأى أمامه شيئاً يتحرك ، فخالط قلبه ذعر وهلَع ، ولم يكن ذلك إلا عصفوراً صغيراً حطّ على غصن . فاضطربت من حركته الأوراق الجافة ، وظل قلب والترشناف ساعة كاملة يضرب ضربات حادة قوية سريعة متتابعة !

أقبل الليل وأقبل معه ظلامه الذى ملأ الهوة ! وراح الجندى المسكين يفكر : ماذا يجدر به أن يعمل الآن ؟ ما هى الخاتمة التى تنتظره ؟ أيلتحق بفرقته ؟ ولكن كيف يلتحق بها ... ومن أين ؟ إنه إن فعل ذلك عاود حياة الخوف والقلق الرهيبة ، حياة الذعر والهلع ، حياة المتاعب والآلام التى قاساها منذ بدء الحرب ! ... كلا ! إنه لا يجد فى نفسه الشجاعة على معاودتها ، ولا يحس القوة الكافية لتحمل عناء السير واقتحام الأخطار كل لحظة .

ولكن ماذا يجدر به أن يعمل الآن ؟ ليس بوسعه أن يبقى فى هذه الهوة مختبئاً حتى نهاية الحرب؛ ولو لم يكن من الواجب عليه أن يأكل لما حفل بالبقاء فيها، ولكن يجب أن يأكل وأن يأكل كل يوم .

وألفى نفسه وحيداً بسلاحه وبزّته ، فى أرض العدو ، بعيداً عن رفاقه الذين يستطيعون الدفاع عنه فسرت فى جسمه قشعريرة رهيبة . وصاح فجأة يحدث نفسه : « ليتنى أوخذ أسيراً » وأحس برغبة جامحة فى أن يكون أسيراً لدى الفرنسيين ... وهل هنالك أهنأ من حياة الأسر ؟ سيتخلص من آلامه وسيقدم له طعام ومأوى ، وسيغدو بمأمن من أزيز الرصاص وصليل الظُّبى ، ولن يعرف فؤاده الوجل أو الذعر ، سيضمه سجن محروس حراسة جيدة . أسير ؟ ياله من حلم عذب باسم !

ووطن العزم على تسليم نفسه ونهض ينفذ هذا العزم دون تردّد ولا إحجام .

ولكنه عاد إلى هدوئه ووجومه ، ووثبت إلى ذهنه أفكار محزنة وخالطت نفسه مخاوف جديدة : إلى أين يذهب لتسليم نفسه ؟ وكيف يسلمها ؟ وأى السُّبل يسلك ؟ وازدحمت فى رأسه صور الموت الرهيبة ...

إنه إن سار وحده ، وعلى رأسه قبعته المعروفة ، فسيكون عرضة لأخطار داهمة هائلة ، إذ ماذا بوسعه أن يعمل إذا التقى فى طريقه بفلاحين ؟ إن هؤلاء لا يرون بروسياً ضالاً أعزل إلا ويذبحونه كما يذبحون الكلاب التائهة ! سيمثّلون به بمعاولهم ومناجلهم ومساحيهم ، وسيحيلونه إلى (كبة) من اللحم

أو عجينة تدفعهم شراسة المغلوب الثائر الحانق

وإذا قُدر له أن يلتقي بالمتطوعين الفدائيين فان هؤلاء المستبسلين الحانقين الذين لا يعترفون بقانون أو نظام سيصوّبون عليه بنادقهم قصد التسلي والمزاح والتمتع بسرور ساعة ، وسيكون رأسه الملقى أمامهم موضوعاً لضحكهم. وتصوّر نفسه إذ ذاك مسنداً إلى حائط ، وأمامه اثنتا عشرة بندقية كأن فوهاتها الصغيرة المستديرة السوداء تبادله النظر

وإذا التقى بالجيش الفرنسي نفسه سيظنه أفراد الطليعة مستكشفاً جريئاً ماكراً، وسيرمونه بالرصاص. وتصوّر نفسه واقفاً وسط الحقل مصغياً إلى أزيز الرصاص الذي يوجهه إليه الجنود من خنادقهم منحط القوى مثقب الجسم كالمصفاة. وهوى جالساً كرة أخرى إذ لم يجد من ورطته مخرجاً .

وكان الليل الصامت الكالح قد شمل الأرض ولفها بظلامه . وبقي والترشناف هادئاً صامتاً يرتجف جسمه لكل صوت خافت ولكل همس ضعيف . وأحدث أرنب بجانبه حركة خفيفة فطار لبه شعاعاً . وصاحت بوم فتمزق شغاف قلبه وخالط نفسه فزع أليم له أشد من ألم الجراح . . . وفتح عينيه المتورمتين محاولاً أن يرى في الظلام ، وكان يخيّل إليه في كل لحظة أنه يسمع أصوات مسير بالقرب منه

وقضى ساعات قلقاً مضطرباً ، ثم بدت لعينيه السماء النيرة من خلال كوة سقفه فشعر براحة كبرى ، وتراخت أعضاؤه وسكن فؤاده، وأغمض عينيه وغاب في نوم عميق !

ولما استيقظ رأى الشمس قد أوشكت أن تبلغ منتصف السماء ، فأدرك أن الوقت ظهر ، ولم يكن يعكّر سكون الحقول وهدوءها الحزين أي صوت أو همس ، وأحس بالجوع الشديد ينهك جسمه ، فتثاءب — وتحلب فمه عندما تخيّل « الأكارع » الجيدة التي تُقدم للجنود، وأخذت معدته تؤلمه آلاماً شديدة . ولما نهض وسار بضع خطوات ، شعر بضعف ساقيه فجلس يفكر ، وظل ساعتين أو ثلاثاً يوازن الأفكار في رأسه ولا يستقر على خطة معينة، وكان مغلوباً على أمره يائساً تتقاذفه أكثر الأفكار تناقضاً !

وخطرت له أخيراً فكرة بدت له منطقية وممكنة التطبيق : ذلك أن يرقب الفلاحين ، وعندما يرى فلاحاً سائراً بمفرده أعزل من السلاح ومن أدوات الزراعة الخطرة يركض أمامه ، ويلقي بنفسه بين يديه مشيراً له بالتسليم .

ألقى بقبعته جانباً ، كي لا تشي به ذروتها وأظهر رأسه من الكوة بحذر كثير فلم يبد لعينيه إنسان . ورأى في الناحية اليسرى عند أقصى أشجار الشارع قصراً كبيراً ذا أبراج ، وظل ينتظر حتى المساء ، متألماً ضجراً ، ولم ير إلا أسراب الغربان ، ولم يسمع إلا قرقرة أحشائه . ولما لفّه الليل تمدّد في أعماق مخبئه ونام نوماً متقطعاً مليئاً بالأحلام المزعجة وأحس بالكابوس يجثم على صدره. لقد كان ينام نوم الجائعين. ولما انبلج الفجر ، راح يتربص من جديد ، ولكن البيداء ظلت يباباً كالأمس وعاوده خوف جديد ، الخوف من أن يقضي جوعاً ، وتخيّل نفسه ممدداً في أعماق مخبئه على ظهره مغمض العينين ، تدنو من جثته الفانية كل أنواع الحشرات تلتهمه من كل جانب وتنساب متغلغلة في ثيابه لتنال من لحمه البارد ، وغراب كبير يفقأ عينيه بمنقاره الحاد فأحس بالجنون وخاف أن يغمى عليه من الضعف فلا يطيق السير وصمم آنئذ على أن يقصد القرية مسرعاً ، وعزم على مقاومة كل ما يعترضه دون خوف أو وجل ،

ولكن ثلاثة من الفلاحين بدوا له ذاهبين إلى الحقل متنكبين مساحيهم ففار فى مخبئه . ولما أظلم عليه الليل خرج من الهوة على مهل وسلك طريقه محنىّ الظهر واجب القلب قاصداً القصر البعيد ، وفضّل دخوله على دخول القرية التى بدت له مخيفة كأنها غار ملىء نموراً . وكانت نوافذ القصر السفلى مضاءة وإحداها مفتوحة تفوح منها رائحة الشواء رائحة تأخذ طريقها من الأنف إلى البطن دون أن يعترضها شىء ، فتشنج ولهث وجذبته الرائحة دون أن يستطيع مدافعتها ، وصبت فى أعصابه جرأة المستميت ، فدنا على حين غِرّة من النافذة حتى بدت من الداخل قبعته بوضوح ، وكان فى الغرفة ثمانية من الخدم حول مائدة يتناولون طعام العشاء ، فأبصرته خادمة ففغرت فاها، وأهوت الكأس من يدها ، وجحظت عيناها . فنظروا جميعاً إلى ما وراء النافذة وظلوا شاخصين مخافة هجوم العدو

يا إلهنا ... لقد هاجم البروسيون الحصن ...

وكانت صيحة واحدة خرجت من ثمانية أفواه فى وقت واحد . صرخة رهيبة هائلة ... صرخة الذعر أعقبتها وثبة عنيفة صارخة وتدافع واختلاط ثم انهزموا مأخوذين مشدوهين وابتدروا الباب الداخلى ...

تساقطت الكراسى ورمى الرجال النساء ، ومروا عليهن ، وفى ثانيتين اثنتين أضحى المكان خلاءً مهجوراً ، وفيه المائدة الملأى بالأطعمة أمام عينى والترشناف الذى دهش مما يرى وهو قائم فى شباكه . وبعد تردد ثوان معدودة تسوّر الحائط ، وأقبل على الصّحاف ، وكان يرتجف من جوعه كالمحموم ، ولكن عراه خوف شلّ حركته ، فراح يصغى . وبدا البيت كأنه يهتز ويرتجف : أبواب تُغلق ، خطوات سريعة تنتقل على السقف الخشبى . أرهف البروسى القلق أذنيه إلى هذه الأصوات المختلطة ، ثم سمع هدّة مبهمة كأن أجساماً هوَت من الطابق العلوى ثم انقطع كل صوت ووقفت كل حركة وغدا القصر صامتاً كالقبر ! ...

جلس والترشناف أمام صحن لم تمدّ إليه يدٌ وراح يأكل ويأكل بلقم كبيرة كأنه خشى أن يُقبض عليه قبل إنهاء طعامه ، وكان يلقى باللُّقم بكلتا يديه إلى فمه المفتوح كالغار ، وكانت تنزل قطع اللحم واحدة بعد أخرى إلى معدته . فينتفخ بلعومه أثناء مرورها ، وكان أحياناً يتوقف عن الطعام خائفاً أن ينفجر بطنه الذى كان يشبه أنبوباً ممتلئاً ، ويتناول زجاجة البيرة يصبّ منها فى حلقه يغسل زوره كما يُغسل مجرى مسدود . أفرغ كل الصّحاف وجميع الزجاجات ثم سكِر من الطعام والشراب فتنمّر واحمرّ وجهه وراح يشهق : مضطرب التفكير زفِر الفم . وفكّ أزرار بذلته ليتنفس . ولم يكن بوسعه أن يسير خطوة واحدة فأغمض عينيه وتبلّدت أفكاره ، ووضع ذراعيه على المائدة وألقى برأسه عليها وفقد حسّه تدريجياً . . . ! !

***

كان الهلال الشاحب يلقى نوره الضئيل على هام الأشجار ، وكان ذلك وقت السّحر البارد ، وكانت الظلال تتمدّد فى الحرج كثيرة صامتة ، وفى بعض الأحيان كان ينعكس شعاع من أشعة القمر على قطعة حديد أو زجاج . . . وكان القصر الصامت جاثماً فى الظلام لا يضىءُ فيه إلا نافذتان فى الردهة !

وفجاءة شق السكون صوت عاصف صائحاً : إلى الأمام ... إهجموا يا أبنائى . وفى لحظة واحدة تحطمت الأبواب والنوافذ أمام هذا السيل الآتىّ

من الرجال الذى هجم محطماً كل شىء ، وتواثبوا إلى المطبخ حيث يرقد والترشناف بهدوء ، وصوّبوا إلى صدره خمسين بندقية ، وألقوه أرضاً ودحرجوه ، وأمسكوا به وقيّدوه من قدميه إلى رأسه . . . وكان يلهث دهشاً . وازداد بلادة فما يفهم مما يحيط به شيئاً ، وتحمّل الضربات من أعقاب البنادق مجنوناً من الخوف والرعب ! . . . وفجاءة أقبل ضابط ضخم مزيّن الصدر بالأشرطة والشارات ، فوضع قدمه على صدره وصاح به: أنت أسيرى. سلّم نفسك . فلم يسمع البروسى من كل ذلك إلا هذه الكلمة الوحيدة : أسير ! . . . وأجاب بالألمانية مضطرباً : نعم . نعم ...

فأنهضوه وأوثقوه بالكرسى وفحصه باهتمام كبير هؤلاء المنتصرون عليه الذين كانوا يلهثون كالحيتان ! وجلس منهم كثيرون تملكتهم الدهشة وأضناهم التعب . وراح والترشناف يضحك واثقاً أنه أصبح أسيراً ! ودخل جندى آخر وأعلن قائلاً :

— سيدى الكولونيل ، لقد فرّ الأعداء . ويُظن أن أكثرهم قد جُرح . . . لا نزال سادة الموقف ! ...

فصرخ الضابط الضخم وهو يمسح وجهه قائلاً : « لقد انتصرنا » ... وراح يخطّ فى مفكرة صغيرة :

« بعد نضال مستميت اضطر البروسيون إلى الهرب حاملين موتاهم وجرحاهم الذين قدّروا بعد المعركة بخمسين رجلاً ، وتبقّى كثير منهم بين أيدينا أسرى » !

وتكلم الجندى الشاب مرة أخرى قائلاً :

— بمَ تأمرنى يا سيدى الكولونيل ؟

فأجاب الكولونيل :

— سنحزم أمتعتنا ونرحل قبل أن نهاجم ثانيةً بمدفعية أقوى وأكبر ...

وأعطى الأمر بالرحيل .

فتهيأت الفرقة فى الظلام بين جدران القصر ، وبدأت المسير محيطة بوالترشناف إحاطة السّوار بالمعصم ، وأمسك به ستة محاربين أشدّاء ومسدساتهم فى أيديهم ، وأرسلت طلائع لكشف الطريق ، وتقدم أفراد الفرقة بحذر مستريحين بين آونة وأخرى وبلغوا عند شروق الشمس — مقرّ نائب بوليس بلدة روش ويزل — التى قام حربيها الأهلى بهذه الحملة العسكرية !

كانت الجموع المحتشدة الهائجة تنتظر ، ولما بُصروا بقبعة السجين تعالت من كل الجهات صيحات هائلة ، ورفعت النساء أذرعهنّ وبكى الكهول من الفرح ، وقذف أحد الجدود البروسىّ بمكازه ... وجرح أنف أحد قائديه ، وكان الكولونيل يزمجر قائلاً :

— إسهروا على سلامة الأسير !

وبلغوا السجن الذى كان مفتوح الأبواب ، ودُفع والترشناف إليه طليقاً من القيود ، ووقف مائتا رجل مسلحون يحرسون السجن ، وكاد البروسى يجن فرحاً ، وبالرغم من علائم التخمة التى كانت تضايقه أخذ يرقص جذلاً رافعاً ذراعيه وساقيه . وكان يصيح صيحات حادة إلى أن سقط إعياء إلى جانب الحائط ... لقد سُجن ونجا من آلامه !

وفى تلك اللحظة استردّ الأعداء قصر شامبينيه بعد ست ساعات فقط من احتلاله ، وأبلغ الكولونيل « راتييه » هذا الحادث إلى رئيس الحرس الأهلى فى « روش ويزل » فأنعم عليه بوسام جديد !

وهكذا انتصر الفرنسيون ! ...

« دمشق » ناجى الطنطاوى

"آما" و "فيناياكا"

للشاعر الهندى "طاغور"

بقلم الأستاذ فخرى شهاب السعيدى

(ميدان حرب قد أسبل عليه ظلام الليل الحالك أستاره . « آما » تلقى أباها « فيناياكا » ...)

***

آما — أبتِ !

فيناياكا — أيتها الفاجرة ! يا قليلة الحياء ... أتدعينى (أباكِ ؟) ... أنت التى لم تفرى من الزوج المسلم ... ؟

آما — ولو أنك اغتلت زوجى ، فأنت لا تزال أبى ؛ وإني لأحبس دمع ترمُّلى أن يحل غضب الله عليك ؛ وبما أنا قد التقينا فى ميدان الحرب هذا بعد سِنِى الفرقة فدعنى أنحنى على قدميك ثم أستأذن فى الانصراف الأخير

فيناياكا — وإلى أين تذهبين يا (آما) ؟ . إن الشجرة التى بنيْت عشك الأثيم عليها قد تجدعت ، فإلى أين ستلجئين ؟

آما — إن لى ولداً

فيناياكا — انبذيه ! لا تلقى نظرة حب على ثمرة خطيئة كفِّر عنها بالدم ففكرى إلى أين ستذهبين ؟

آما — إن أبواب الموت المفتحة لأوسع على من حب الوالد

فيناياكا — إن الموت ليمحو الذنوب بابتلاعها . حقًا ... مثله فى ذلك مثل البحر حين يغيب فيه غِرْيَن الأنهار . ولكنك لن تموتى هذه الليلة فى هذا المكان . إبحثى لك عن مرقد قد طهره (شيفا) ناءٍ عن كل الأهل المصطنعين بعيد عن الجيرة ، ثم اسبحى فى (الكنج) المقدس ثلاثاً فى اليوم. هنالك تطرق أذنيك ـ وأنت ترتلين اسم الله ـ آخر دقات جرس المساء ؛ فلعل ذلك الموت وحده ينظر إليك بعين العطف نظرة الأب إلى طفله النائم ما تزال عيناه رطبة بالدموع ! دعيه يحملك فى صمته الفسيحة كما يحمل (الكنج) زهرة ساقطة فى مجراه فيغسلها مما يعلق بها من أدران ليرفعها إلى البحر هدية سنية !

آما — ولكن ولدى ...

فيناياكا — إنى آمرك ثانية ألا تذكريه ببنت شفة ! وألقى بنفسك تارة أخرى بين ذراعى الوالد يا بُنيّتى مثل وليد حديث عهد برَحم (النسيان) أمك الثانية

آما — لقد أصبح العالم عندى خيلاً . إنى أسمع كلماتك ولكنى ما أستطيع أن أدخلها قلبى، فغادرني أيها الأب . . . أتركنى وحدى . . . لا تحاول أن تمسكنى بروابط حبك ، فإن روابطه هذه قد حمّرتها دماء زوجى !

فيناياكا — واحسرتاه ! إن الزهرة التى تسقط من غصنها لا ترجع إليه أبداً ! كيف تستطيعين تسمينه (زوجاً) ، وهو إنما اختطفك قسراً من (جيفا كى) خطيبك الشرعى ؟ لن تبرح تلك الليلة

مخيلتي . لقد كنا جلوساً فى حفلة العرس نرتقب مطلع العروس (الزوج) علينا بشوق منتظرين دنو ساعة السعد تلك ، وإنا لفي هذا إذ ظهر لنا من بعيد تألق المشاعل ، وسمعنا جلبة الزفاف تملأ الفضاء فعلت منا الأصوات ابتهاجاً ، وتجاوبت رنات المحار من أيدى النسوة فرحاً . ثم إن موكباً من المحفات دخل عرصة الدار ، ولكن بينا كان بعضنا يسائل بعضاً قائلين أين (جيفا كى) إذ باغتنا رجال مسلحون من تلك المحفات كالزوبعة وانتزعوك من بيننا قبل أن نفهم شيئاً عن حقيقة الحال . ثم قدم (جيفا كى) ليخبرنا بما كان من أمره مع أحد نبلاء المسلمين من بلاط (ڤيجاپور) الذى كان قطع الطريق وألقى عليه القبض ... فى تلك الليلة ذاتها أقسمنا ـ أنا و (جيفا كى) ـ بنار الزواج المقدسة أن تكون لذلك الوغد منا الموتة الحمراء !

وبعد الانتظار الطويل نتحرر اليوم من عهدنا الأقدس هذه الليلة وأن روح (جيفا كى) الذى استشهد فى الميدان لتطلبنك زوجاً شرعية له

آما — أبت ، ربما أكون خارجة على شعائر بيتك ولكنى ما أزال طاهرة الذيل ، نقية الجيب . لقد أحببته فولدت له ابناً ، وما زلت أذكر تلك الليلة التى استلمت فيها رسالتين سريتين إحداهما منك والأخرى من أمى وقد جاء فى رسالتك هذا : (إني مرسل لك المدية فاقتليه !) وجاء فى رسالة أمى قولها : (إنى أبعث لك السم لإنهاء حياتك !) ولو كانت القوة الرجسة قد عبثت بي لأطعت أمركما على وجهيه ، ولكن جسمى ما كان يخضع إلا لداعى الحب ، الحب الذى هو أعظم من كل شيء وأطهر من كل شيء ، حتى أنه تغلب على نفرة دمنا الموروثة من المسلم !

(تدخل « راما » أم « آما »)

آما — أماه ! ما كنت أحسبنى أن سأراك ثانية ! دعينى أعفر وجهى فى تراب قدميك

راما — لا تمسسنى يداك النجستان

آما — إننى فى مثل طهرك

راما — لمن أسلمت شرفك ؟

آما — لزوجى

راما — (زوجك) ؟ أمسلم زوج برهمية ؟

آما — ليس من حق أن تهزئى بى ، وإنى لفخور بأن أقول إنى ما امتهنت زوجى ، ولو أنه كان من المسلمين . إن الفردوس التى وعدتها على على ولائك لزوجك ستنتظر ابنتك التى كانت زوجة حقاً .

راما — أأنت زوج حقاً ؟

آما — أجل !

راما — فهل تدرين كيف تموتين بعزم وإقدام ؟

آما — أجل أعرف

راما — إذاً فلتوقد لك « نار الإحراق » أنظرى هنالك يثوى جثمان زوجك

آما — جيفا كى ؟

راما — أجل جيفا كي ، لقد كان زوجك تربطك به أقدس العهود وأقواها . إن نيران الزواج المخمدة قد أضرمها الله اليوم فى هيئة نار الموت الجائعة ؛ وأن حفلة العرس المعطلة ستستأنف الآن

فينايا كا — لا تصغى إلى شيء من ذلك ياولدى ،

(٤)

بل عودى إلى ابنك .. إلى عشك الذى خيمت عليه الأحزان . إن واجبى قد أنجز فى نهاية القسوة ولم يبق لك من شىء تصنعين . وأنت أيتها الزوج إن الكمد لا يغنى شيئاً . فلو أن الغصن الذى انتزع من نبتتنا قسراً قد ذوى لكنت أطعمته النيران ، غير أنه قد نشر عروق الحياة فى تربة جديدة فهو ينتج الثمر ويخرج الزهر . دعيها ـ غير نادمة ـ تطع قوانين من كان فيهم حبها . وهلم ـ أيتها الزوج ـ فقد حان الوقت لنفصم كل علاقاتنا بالعالم ، ونمضى الباقى من عمرنا فى عزلة معبد حجاج آمين

راما — إنى مستعدة. غير أن علينا أن نسحق فى الترب كل نابتة من ذنب أو عار مما جاء من أرض حياتنا . إن عار البنت يزرى بشرف أمها . . . إن العار المنكر سيسغم النار المتقدة فى هذه الليلة ويبعث ذكر امرأة صادقة ترف فوق رماد ابنتى

آما — إنك حين توحدين بينى وبين شخص غريب لم يكن زوجى بالموت ستستنزلين عليك اللعنة بتدنيسك حرمة إلـه الموت الأبدى

راما — أضرموا النار أيها الجند ، أحيطوا بالفتاة

آما — أبتاه !

فينايا كا — لا تخافى ؛ واحسرتاه يا بُنيّتى ! على أنك تستنجدين أباك لينقذك من يدى أمك !

آما — أبتاه !

فينايا كا — تعالى إلى يا ولدى الحبيبة ، فهذه الشرائع التى ترين ليست سوى نتاج عنجهية الإنسان تتلاطم تلاطم الأمواج على صخرة الغرض السماوى ، فحب الأب يشبه مزن الله . إنه لا يبدى حكما وإنما يتدفق من معين لا ينضب ! هات ابنك عندى وسنحيا سوية يا ابنتى

راما — إلى أين تذهبين ؟ عودى ! أيها الجند اثبتوا فى إخلاصكم لسيدكم (جيفاكى) وقوموا بآخر واجب مقدس له عليكم .

آما — أبتاه !

فينايا كا — أطلقوها أيها الجند فإنها ابنتى .

الجند — إنها أرملة سيدنا .

فينايا كا — إن زوجها وإن كان مسلماً غير أنه كان صلباً فى عقيدته .

راما — أيها الجند راقبوا هذا الشيخ .

آما — أتحدّاك يا أمى وأتحدا كم أيها الجند ! لأننى سأنال حريتى بفضل الموت والحب ! ...

فخرى شهاب السعيدى

خشية الأهمام

عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

أهدى « تومى دايسون » إلى زوجته « روزينا » عقداً من اللؤلؤ

وكانت روزينا قد أشارت له من قبل إلى أن أحسن هدية تهدى إليها بمناسبة عيد ميلادها هى عقد لؤلؤى يعتبر الحصول عليه نوعاً من الادخار لأنه يحتفظ بقيمته فضلاً عن استعماله للزينة

وكان زواجهما منذ عام، وكان الزوج متفانياً فى حب زوجته ولا يتخير لها غير الأفضل من كل شىء

ونظرت روزينا فى قوائم الأسعار (الكتالوجات) التى يصدرها تجار المجوهرات فعرفت أن قيمة العقد تتراوح بين ثمانمائة جنيه وألف جنيه، ولكنها كانت تزدان به كلما خرجت إلى السوق وتبتسم كلما نصح زوجها لها بتركه فى المنزل خشية سرقته منها وهى فى السوق. ولكنه كان رغم هذا الابتسام يتنبأ بفقده فى يوم من الأيام ويكرر من نصحه لها فتجيبه متحدية : « إن كل النساء يتزين بعقود اللؤلؤ ولا أرى لهندامى وسماً بغير هذا العقد

وفى يوم من الأيام غاب تومى عن عمله فى أجازة مرضية لأصابته بنوع خفيف من الحمى . وكان أشهى شىء إلى نفس روزينا أن تلازم المنزل مدة وجوده فيه لتسليه وتمينه على تحمل المرض .

ولكنها اضطرت فى اليوم التالى إلى الخروج لشراء بعض لوازم الثياب .

وخرجت على عجل لتعود سريعاً وقبل خروجها أعطت زوجها كتاباً ليتسلى بتصفحه ريثما تعود. وأعدت له الدواء على منضدة بجانب السرير وودعته وهى تقبله .

وكان الحانوت الذى ذهبت إليه شديد الزحام، به نساء من جميع الأعمار والأحجام والطبقات .

وكانت روزينا منحنية لتشاهد السلع فى أحد الأدراج ذات الأغطية الزجاجية حينما أحست بيد فى داخل قفاز تلمس عنقها فنظرت إلى أقرب امرأة منها، ووجدت عجوزاً فى ثياب الحداد تبدو عليها علائم الفقر والحزن ، وعلى معطفها آثار الغبار من القدم. وخطر خاطر فجائى بذهن روزينا فوضعت يدها على عنقها لتستوثق من أن العقد لا يزال به ولكن ما أهول الأمر ! إن العقد لم يكن به .

ونظرت إلى العجوز التى كانت بجوارها فوجدتها تمشى نحو الباب ، فأسرعت نحوها وتشبثت بثيابها ، وقالت بصوت منخفض ولكن مع صرامة فى الطلب : « هاتى العقد فلا فائدة فى الادعاء بأنك بريئة . إننى واثقة من أنك أخذت عقدى اللؤلؤى »

قالت العجوز بصوت يشبه البكاء : « ما الذى تعنين ؟ إننى لا أعرف شيئاً عن عقدك » فأصرت روزينا على لهجتها وقالت بصوت أعلى من صوتها الأول : « إننى شعرت بيدك وهى تأخذه من عنقى »

قالت العجوز : « هذه أكذوبة فإنى لم آخذ

عقدك » فقالت روزينا : « لا معنى للمكابرة هنا فإني سأدعو البوليس لاعتقالك وتفتيشك »

ووضعت العجوز منديلها على عينيها وبكت بكاء الطفل الصغير وقالت : « أتوسل إليك ألا تفعلي ! إنني غير سارقة ولكنني في حالة فقر شديد ، وكان الإغراء فجائياً لم أستطع مقاومته »

ثم أخرجت من حقيبة يدها عقداً لؤلؤياً وسلمته إلى روزينا ، فأظهرت روزينا عطفاً شديداً على العجوز وأعطتها كل ما معها من النقود ثم أطلقت سراحها وعادت إلى المنزل وهي تقول : « لقد كاد يضيع العقد ويجب أن أكون في المستقبل أشد حرصاً وأن أنصاع إلى نصائح تومي . إنني حين أخبره بما حدث اليوم سيجيبني بقوله : « لقد كنت دائماً أحذرك من ذلك »

وكان تومي لا يزال نائماً في فراشه وفي يده لفافة من التبغ فلما رآها قال : « أشكرك يا عزيزتي أشكرك على سماع نصيحتي اليوم »

قالت روزينا : « ما الذي تعنيه ؟ » فقال : « لماذا ؟ ألا تذكرين ؟ » ثم أشار إلى المنضدة وقال : « ... على تركك العقد اللؤلؤي هنا فقد رأيته بعد نزولك »

وهكذا كان العقد الآخر الذي حصلت عليه روزينا غير عقدها ، وقد سلمته لها العجوز خشية الاتهام !...

عبد اللطيف النشار

الغرباء الثلاثة

للكاتب الانجليزي توماس هاردي
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

ما يزال الريف الإنجليزي يتسم بسمات لا تستطيع يد الدهر أن تعبث بها إلا قليلاً قليلاً : فتلك هي المراعي من الكلأ والحشائش التي كانت منذ زمان ما تبرح تغطي مساحات واسعة في الجنوب والجنوب الغربي من الجزيرة ، وتتناثر في ثناياها أكواخ منعزلة يأوي إليها الرعاة ، هي مساكنهم لا يجدون عنها متحولاً …

ومنذ خمسين سنة خلت كان في صميم الريف الجنوبي كوخ يبعد عن المدينة بمسافة خمسة أميال فقط ؛ ذلك هو كوخ (هاير كرَوْستيرز) . ولم تكن هذه المسافة ضئيلة والطريق مُعورٍ صعب يرقى في حزن من الأرض تغطيه الثلوج والأوحال شتاء ؛ فإذا هبت نسمات الربيع والصيف بدا وسط جمال يجذب إليه الفلاسفة والشعراء والمفكرين ممن يحلو لهم أن يستمتعوا بجمال الطبيعة عن كثب

ولقد شُيد (هاير كروستيرز) على نشز من الأرض ليكون قبلة الغادي والرائح ، لا يستجن من تقلبات الأرض بجنة ؛ غير أن الرياح وهي تسفمه كلما هبت هوجاء شديدة ، والأمطار وهي تصدمه كلما انهلت متدفقة هتانة ، لم تكن بأقسى عليه منهما في بطن الأرض ؛ ولكن الراعي فينيل — صاحب هذا الكوخ وأسرته ، كانوا كثيراً ما يألمون لما يصيبهم هنا في هذه العزلة فما يجدون شيئاً ينفسون به عن أنفسهم سوى أن يتشكوا لذعات البرد وآلام الصدر ، ثم هم يتمنون أن يستطيعوا فيعيشوا هناك في السهل إلى جانب النهر

* * *

لقد كانت أمسية يوم ٢٨ مايو سنة — ١٨ ليلة تثير في القلوب الرحمة والشفقة ؛ فالأمطار تهطل مدراراً تصفع جوانب الجدران وتتدفق من فوق المنحدرات ؛ والأعاصير تهب عاتية وتصفر صفيراً ينخلع له القلب ؛ وقطعان الضأن والماعز تقف في العراء لا تجد من دون ذلك ستراً ؛ والراعي فينيل يندب حظه التعس في ليلة هي ليلة تعميد ابنته الثانية وميلادها في وقت معاً ، وأصدقاؤه يتوافدون عليه زمراً زمراً يلبون دعوته

لا ضير ، فالضيوف قد بلغوا المكان قبل أن يبعث الغيث بأول قطراته ، واجتمعوا في بهو الدار لا يستشعرون مما وراء الجدران من شيء . وفي البهو شموع كثيرة متناثرة في أنحائه ، ثم الموقد وقد تأججت فيه نار ترسل « بين الحين والحين » فرقعات هينة ضعيفة كأنها ضحكات من به جِنة

تسعة عشر يضمهم البهو بين جدرانه : خمس نساء تزين في أبهى حلل وجلسن في هدوء على كراسي بإزاء حائط ، وجماعة من الأطفال ، وأربعة رجال بينهم شارلي جاك النجار ، وإليجانيو كاتب البيعة ، وجون بيتشر بائع اللبن وجون الراعي … ثم فتى

وفتاة يجلسان فى زاوية يرقبان ما يكون فى لذة وشغف ، ورجل عنـد الخمسين يضطرب بين القوم فى إثر خطيئته الشابة . وشمل المكان سرور ونشوة فانطلقت كل نفس على سجيتها تلتمس الطرب واللذة فى كل ما ترى

* * *

لقد تزوج الراعى فينيل من فتاة ذات ثراء هى ابنة جون بيتشر الذى يعيش فى الوادى ، صحبت معها خمسين جنيهاً ادخرتها لتسد بها خَلّة إن هى عرضت ، وهى فتاة مدبرة مارست أخلاق الناس ، فهى تعلم أن القوم — فى مثل هذا الحفل — ينقسمون إلى شطرين : القوم الجلوس وهم يجدون فى أنفسهم الميل إلى الشراب يجددون به نشاطاً يستله طول البقاء فى مكان واحد ؛ والذين يتراقصون وهم إن نزعوا عن الشراب حيناً فإن نفوسهم لتهفو نحو الطعام ... ولقد كان يفزع السيدة فينيل أن ترى نهم القوم فى الشراب والطعام ، فأوحت إلى الموسيقيين أن تكون أشواط الرقص قصيرة تتخللها فترات من الحديث والغناء ، تريد أن تشغل القوم عن أن يندفعوا فى الطريق الآخر وزوجها قد سيطرت عليه حمى الكرم

وكان العازف على القيثارة صبياً عند الثانية عشرة من عمره فيه الرشاقة والخفة يعزف على قيثارته فى مهارة وإتقان ... وابتدأ الصبى يعزف أول لحن عند السابعة مساء ورفقته إليجانيو كاتب البيعة وكان قد صحب نايه الحبيب إلى نفسه ، وابتدأت أشواط الرقص قصيرة والسيدة فينيل لا تنأى عن الموسيقيين إلا ريث تنفلت إليهم ... غير أن الصبى وإليجا اندفعا لا يلقيـان بالاً إلى أمر السيدة .

وقد نفح أوليفر جيلز — أحد الراقصين — الصبى بقطعة ذهبية ليندفع فى العزف فيستطيع هو أن يظفر بدقائق يقضيها بين يدى صاحبته ؛ وهال ربة الدار ما رأت فانطلقت تمسك بذراع الصبى وتسد طرف الناى بيدها الأخرى فما أمسكا . . . وخشيت غِبَّ الأمر إن هى اندفعت على غلوائها ، فانتحت مكاناً قصياً يتعاورها الأسى واليأس . . . ثم سرت حُمَيّا اللحن فى نفوس القوم فاهتزت أعطافهم وماج البهو بالناس ساعة من زمان

وبينا تلك الحوادث الجميلة تعاقب فى قلب الدار كانت حادثة أخرى تنسج خيوطها فى ضمير الليل على بضع خطوات ، فعلى حين كانت السيدة يزعجها أن ترتفع نغمات الموسيقا فى جنون النشوة كان شبح يسرى نحو التل فى غير أناة ولا مهل ويقترب من المنزل رويداً رويداً

هذا هو البدر يتكبد السماء لا تستطيع السحب المتكاثفة أن تمنع ضوءه أن يكشف عن رجل يدب الطريق وقد جاوز سن الشباب والنشاط ، غير أنه ما يزال متماسكاً قوى العضل طوالاً ، يرتدى لباساً وحذاء عاثت فيهما يد الأيام

لقد بلغ هذا السارى المنزل والمطر يتدفق فى شدة وعنف ، فعرّج على زريبة خاوية عند طرف حديقة الدار ... عرّج عليها يلتمس فيها ملجأ ، وحين اطمأن به المكان سمع رنات الموسيقا تتصاعد شجية من قلب المنزل فتختلط نغماتهـا بصوت قطرات المطر وهى تتساقط على أوراق الكرنب ، وعلى خلايا النحل المرصوصة على حيد الطريق . . . ثم خفت الصوت ، وساد المكان صمت رهيب ، فهب الرجل من مكانه يدلف صوب الباب ، وهو يريد

أن يطرقه . تلبث ريثما ينظر من خلال ثغرة بالباب ليرى وليتخذ لنفسه دريئة يدفع بها سيل الأسئلة التي خالها ستصوب إليه من كل ناحية .

وظلّ في مكانه زماناً ينظر من خلال الثغرة فلا يرى شيئاً ، وينظر إلى وراء فلا يستشف إنساناً ثم طرق الباب في هوادة والقوم يتحدثون بعد ساعة من رقص وسماع ... وصاح رب الدار « أدخل ! » ففتح الرجل الباب في رفق وتقدم خطوة ، وراح الراعي يحدق في الضيف ، فإذا رجل أسمر اللون يرخي طرف قبعته على وجهه غير أن عينيه تبدوان واسعتين حادتين تنفضان المكان نفضاً سريعاً ، ثم ارتسمت على وجهه سمات البشر فرفع قبعته عن شعر جعد كث ، وقال في صوت أجش : يا رفاق ، إن المطر يتدفق في غير رفق ولا هوادة ، فدخلت لألتمس الراحة والاستجمام هنا . فأجابه الراعي : « لا بأس فأنت ذو حظ عظيم لأن القدر ساقك في ساعة جميلة لا تكون في السنة إلا مرة واحدة » قال الرجل : « وماذا عسى أن تكون هـذه الساعة ؟ » فأجابه الراعي : هي عيد ميلاد ابنتي »

وانطلق الرجل صوب الموقد ، وهو يقول : « سآخذ مكاني بإزاء الموقد لأن ملابسي قد بللتها الأمطار » ، والأبصار من حوله ترمقه بنظرات فيها الشك والريبة . وأفسحت السيدة فينيل للطارق مكاناً فجلس إلى جانب الموقد وأرسل يديه ورجليه في غير تحرّج ، ثم أخذ يتحدث إلى السيدة فينيل في صراحة حين رأى عينيها تحدقان في حذائه البالي : « نعم ، لقد تمزق حذائي وأنا لا أجد فضلة من مال فلقد عركتني الفاقة في أيامي الأخيرة فما استطعت إلا أن ألتقط ما أجده من اللباس ملقى على الطريق ، غير أني سأبذل جهد الطاقة لأكون أحسن حالاً »

قالت الزوجة : « أفأنت من قريب ؟ » قال : « لا ، إن قريتي في الشمال » قالت : « لقد تحدثت إلي لهجتك بذلك ، فأنا الأخرى من الشمال » ، ثم راح يدفع عن نفسه سيل الأسئلة الذي حاولت أن تمطره به الزوجة ، ثم انطلق في حديثه « ... غير أن شيئاً واحداً يبعث فيّ روح السرور ... ذلك أن أجد قليلاً من التبغ ، فأنا لم أطعمه منذ زمان » فقال له الراعي : « لا ضير ، فأنا أملأ لك غليونك » فقال له الغريب : « إنني لا أجد بدّاً من أن أسألك غليوناً أيضاً ، لأن غليوني سقط وأنا في طريقي إلى هنا » فملأ له الراعي غليوناً وناوله إياه وهو يقول : « إذن أعطني كيس تبغك لأملأه لك » فأخذ الرجل يفتش في جيوبه في اهتمام فقال له الراعي : « لعله فُقد هو الآخر ! » قال الغريب : « إنني أخشى ذلك » ثم أشعل غليونه من شمعة إلى جانبه ، وراح يدخن في صمت لا يريد أن يعكره بحديث وقد علقت عيناه بالبخار المتصاعد من رجليه المبتلتين ...

***

وانشغل القوم عن هذا الغريب حين اندفعوا في جدال عنيف لا يتناول إلا اللحن الذي يعزف للرقصة القادمة ، وحين أجمعوا أمرهم على لحن هموا يريدون شيئاً لولا أن طارقاً دق الباب . وسمع الغريب الأول صوت الطرقات وهو إلى جانب الموقد فراح يعبث في نار الموقد كأن شيئاً لا يعنيه ، وارتفع صوت الراعي الأجش من أقصى المكان : « ادخل ! » ودلف غريب آخر ...

لقد كان هذا الغريب يختلف عن الأول اختلافاً

يئناً ، فهو يبدو حقيراً ، وفى سمات وجهه أنه أفاق مرح يكبر الأول بسنوات ، أبيض الشعر ، كث الحاجبين ، يتدلى شعر سالفيه على خديه ، فيه القوة والنشاط . وحين دخل خلع معطفه عن سترة رمادية أنيقة وراح ينفض عن قبعته قطرات الماء العالقة بها وهو يقول : « لا بد ، يا صحابتى ، أن أجد مأوى أو ينفذ الماء إلى جسمى قبل أن أبلغ كاستربردج » فقال له الراعى : « خذ قسطك من الراحة يا سيدى فى اطمئنان »

لم يكن الراعى فينيل كزًّا شحيحاً ؛ غير أن الغرباء كانوا يبعثون فى نفوس القوم شيئاً من الاشمئزاز والضيق فى ساعات اللهو والطرب ، وإن الأطفال والنساء لينفرون منهم خشية أن يصيب ملابسهم الزاهية المتأنقة بعض البلل فيطفئ من جمالها

خلع الغريب الثانى معطفه وقبعته ثم جلس فى أقصى النضد ، هناك إلى جانب الأول ، بعد أن حيا كل منهما صاحبه بإيماءة بسيطة . وحين اطمأن الثاني فى مكانه ناوله الأول قدحاً كبيراً من الرحيق زينتها نقوش كثيرة بينها الكلمات :

لا سرور ولا طرب
إلاّ أن أكون أنا

فتناوله وراح يشرب فى شراهة فزعت لها زوجة الراعى وهى تعجب من جرأة هذا الرجل غير أن هذا الغريب التفت إلى الراعى يقول : « لقد كنت أعلم ذلك ، فأنا حين ألفيت خلايا النحل لدى باب الحديقة حدثتنى نفسى بأنه حيث يوجد النحل يوجد العسل ، وحيث يوجد العسل يوجد هذا الرحيق ؛ ولكنه ما كان يجول بخاطرى أن أستمتع بمثل هذا الرحيق فى سنى شيخوختى » ثم علّ بعد نهل ، فأجابه الراعى : « أفيسرك ذلك ؟ » فقاطعتهما الزوجة فى فتور : « نعم ، وإن عمله ليتطلب مجهوداً كبيراً ... وفى الحق إننى لا أستطيع أن أعد غيره لأن شيئاً من العسل لم يبق لدينا » فقال الغريب الثانى بعد أن أتى على صبابة كانت فى غور القدح : « إننى أغرم بهذا الرحيق المخمر كما أحب أن أنطلق إلى كل الكنيسة فى أيام الآحاد ، وكما أهوى أن أسد خَلّة المعوز أنى عرضت (ورن صوت الغريب الأول ها ، ها ، ها !)

وبدا أثر هذا الشراب على الغريب الثانى فتمطى على كرسيه ونشر ذراعيه ورجليه وهو يقول : « نعم ، نعم ! لقد كان علىّ أن أكون الآن فى كاستربردج غير أن المطر حال بينى وبين بغيتى ثم دفعنى إلى داركم لأجد هنا لذة » قال الراعى : « أفتقيم هناك » قال : « لا ، ولكننى سأمكث قليلاً » قال الراعى : « لعلك فى تجارة ! » قالت الزوجة : « لا ، فأنا أرى على السيد أثر الثراء » قال الغريب : « لا ، لست غنياً كما تقولين يا سيدتى ، فأنا أعمل جهد الطاقة ، وإذا بلغت كاستربردج عند منتصف الليل فسأبدأ عملى عند ابتسام الصبح » قالت الزوجة : « مسكين ! فأنت تبدو غير ذلك » قال الغريب : « لا جرم ، فتلك طبيعة عملى ، ولا بد أن أنطلق الآن إلى حيث يناديني عملى ، فهل لى أن أطلب إليكم قدحاً آخر من الشراب قبل أن أبدأ السير ؟ » فأجابته الزوجة : « هاك قليلاً » . فرفض الرجل قائلاً : « لا ، فأنا لا أريد أن ينغص هذا المنع مما لست فى أول الأمر من عطف وكرم » قال الراعى : « نعم ، فنحن لا نحفل هذا الحفل كل يوم » ثم انطلق إلى مكان مظلم تحت السلالم ليملأ القدح من برميل هناك ، وانطلقت الزوجة على أثره تحدثه فى مأمن من كل أذن : « لماذا

تفعل ذلك وهو قد شرب قدحاً كبيراً يكفى رجالاً كثيرين فما قنع ، وهو غريب لا تعرفه ، ولعمرى فأنا أستشعر له الكراهية والمقت » قال الراعى فى رفق : « وماذا يضيرنا إن حبوناه بقدح آخر فى عيد تعميد ابنتنا ، ثم هو ضيفنا يا عزيزتى . والليل ليل قر والسماء قد فتحت أبوابها بماء منهمر » قالت فى غيظ : « ولكن من عساه أن يكون هو فيجلس إلينا فى غير تحرج؟ » قال: « لست أدرى وسأسأله» وبينا كان الغريب الثانى يرتشف هذا الرحيق المز ، كان الراعى يسأله عن أشياء وهو صامت لا يجيب ؛ فاندفع الغريب الأول يقول : « إنه لا يضيرنى أن يعرف كل إنسان صنعتى ، فأنا صانع عجلات » . قال الغريب الثانى : « وأنا لا يضيرنى أيضاً لو أن الحدس يرق إلى عملى » . وقال شارلى جاك النجار : « إنك تستطيع أن تنبئ عن صنعة الرجل إن أنت دققت النظر فى أصابعه ويديه ، فهذه أصابعى فيها آثار المسامير واضحة جلية » . وأخذ الغريب الأول يختلس النظرات إلى أصابعه وهو يداعب غليونه ، والغريب الثانى يجيب النجار : « حقًّا ، غير أن صنعتى لا يبدو أثرها على بقدر مايبدو على زبائنى » وبدا حديث الغريب الثانى أحجية لا يستطيع العقل أن يكشف عنها

وضاقت السيدة فينيل بهذا الجدل ذرعاً فانطلقت تلتمس فى الموسيقى ترفيهاً، ولكن المغنى كان مكدوداً وقد نسى الصبى أول مقاطع اللحن ، غير أن الغريب الثانى رفه عنهم حين طلب إليهم أن يغنيهم هو ، ثم ابتدأ يردد فى صوت شجى :

إن صنعتى نادرة
يا أيها الرعاة البسطاء
إن صنعتى هى مما يرى العين
لأن زبائنى أوثقهم فى قرن وأرق بهم إلى أعلى
ثم أدفعهم إلى البلاد النائية

لقد كانت الحجرة فى صمت عميق والصوت يرن فى أرجائها عذباً حتى بلغ المقطع الأخير فرافقه فيه الغريب الأول فى نغم موسيقى جميل ، ولكن أبصار القوم كانت قد تعلقت بالرجل وقد استولت عليهم الدهشة : أكان الرجل يغنى فى سنى شبابه فهو يردد أغنية قديمة ، أم هو قد صنع هذا الصوت لساعته ؟ واضطربت الفكرة فى رءوس الناس جميعاً سوى الغريب الأول ، فلقد قال فى هدوء : « لحن آخر أيها السيد ! » فاندفع الرجل يغنى :

إن آلاتى هى مما يعرف الناس
يا أيها الرعاة البسطاء
إن آلاتى هى مما يعرف الإنسان
هى حبل صغير من القنب ، وعصا تتذبذب .
تلك آلاتى التى أحتاج

وانجلى الشك ، فلقد كان هذا جواب اللحن الأول . وراح الجمع يتساءلون فى همس : « أوه ، إنه ... سيكون غداً فى سجن كاستربردج ، إنه لص غنم ، إنه هو صانع الساعات الفقير الذى كان يعيش فى شوتسفورد ، هو تيموثى سومرس الذى كانت أسرته تعيش فى شظف فاغتصب — رأد الضحى — شاة بعد أن غلب الراعى وزوجته وابنه على أمرهم . والآن لقد هفا نحو هذه الناحية ليجترم هنا مثل ما اقترف هناك ... »

وأحس الغريب الثانى الهمسات تضطرب حواليه فما أعارها التفاته ، ثم انطوى على الغريب الأول يحدثه لأنه كان يشاركه مرحه وأغنياته ، وشخصت

الأبصار إلى الرجل وهو يهم أن يغنى لحناً ثالثاً غير أن دقات خافتة اخترقت مسامع الحاضرين . . .

واستولى الرعب على الجمع ، ورمى الراعى الباب بنظرة وهو يقول : « أدخل ! » وانفتح الباب فى هدوء ودلف غريب ثالث ... لقد كان قصيراً ضئيلاً فيه الجمال والأناقة ؛ وردد بصره فى أنحاء البهو وهو يقول : « أفيستطيع واحد منكم أن يدلنى على الطريق إلى . . . ؟ » ووقع بصره على الرجل الذى يغنى مندفعاً لا يلوى على شيء والناس من حوله يموج بعضهم فى بعض :

إن غداً هو يوم عملى
يا أيها الرعاة البسطاء
إن غداً هو يوم عملى
لأن غنم الفلاح قد سلخت ، ولكن الصبى الذى سلخها قد اختفى
وعلى روحه رحمة من الله !

واندفع الغريب الأول يردد المقطع الأخير وهو يلوّح بكأسه كأنه يوقع نغم اللحن ...

كل هـذا والغريب الثالث لدى الباب لم يبرح مكانه ، ولم يتمم حديثه والقوم يرمقونه بالنظر الشزر لأنه بدا جباناً متخاذلاً ينتفض كمن تعركه الحمى ، وقد اصفر وجهه ، وخارت قوته ، وتعلق بصره بالغريبين حيناً ، ثم ... ثم ارتد على عقبيه وطار ..

لشد ما عجب الراعى حين رأى الرجل يضطرب ثم يتفلت من بين أيديهم ! فقال : ماذا عسى أن يكون هذا الرجل ؟

وتوزعت هذا الناس خواطر سوداء متناقضة ، وساد السكون فما تسمع إلا قطرات المطر المتساقطة على خشب النوافذ ، وإلا هبات النسيم تداعب غصون الشجر ، وإلا صوت نفثات الدخان ينفخها الرجل الجالس إلى جانب المدفأة .

وتصرمت ساعة من زمان ثم دوّى فى الجو صوت طلق نارى ، ارتفع من ناحية المدينة ، فهب الغريب الثانى من مكانه صائحاً : «يا لله» وصاح جماعة: «ماهذ؟» فقال الغريب الثانى : « إن سجيناً قد فر ، وليس سوى ذلك !؟ وإننى أخشى أن يكون هو الرجل الذى كان هنا منذ دقائق ! » قال الراعى فى أناة : « لا ريب فهو . . . هو الرجل الذى اضطرب حين رآك وسمع أغنيتك » ، وانطلق كل واحد يعلق على كلام الراعى غير أن طلقاً آخر ربط على قلوبهم فألقى بهم فى قرارة صمت عميق .

وتكررت الطلقات فانتفض الغريب الثاني من مكانه يسأل فى صوت أجش : « هل هناك شرطى ؟ إذا كان هنا واحد فليتقدم خطوة إلى الأمام ! » فتقدم الرجل ذو الخمسين وهو يرتعد ويقول : « أنا يا سيدى ! » قال : « إذن فانطلق على آثار المجرم الفار ... انطلق أنت وبعض زملائك وُعدْ به إلى هنا فهو ما يزال قريباً منا » قال العجوز : « سأفعل يا سيدى بعد أن أحضر هراوتى» قال الغريب الثانى: « هراوتك ؟ إذن سيفر المجرم فلا نستطيع أن نعثر عليه ! » قال العجوز : « ولكنى لا أستطيع أن أتقصص الجانى دون أن أصحب عصاى وهى كل سلاحى » قال الغريب الثانى وهو يحدث القوم : الآن وأنا جندى من جنود الملك ، آمركم جميعاً أن تصحبونا، نعم فليقم معنا كل من يستطيع الذهاب باسم القانون

وهب الجميع يطلبون الطريدة ، وفى أيديهم المصابيح ، خيفة أن يندس فى غمار الظلام فيفلتهم

وتدافعوا نحو الباب وقد هدأ المطر قليلاً قليلاً

وعلى حين فجأة فزعت الطفلة التي يحتفلون بعيد ميلادها ، وهزت الصرخة النساء جميعاً فانطلقن إلى حيث الطفلة في الطابق العلوي وخلّفن البهو من ورائهن خلاء

* * *

هدأ المكان إلا من وقع أقدام الجماعة تتلاشى في ضمير الليل وتبتعد عن المنزل رويداً رويداً ، وإلا من وقع أقدام الغريب الأول يدلف في بطء وحذر إلى البهو ليلتهم الطعام والشراب في شراهة وجشع .

ولبث غير بعيد فإذا صاحبه الغريب الثاني يدلف إلى البهو ؛ وبدت سمات الدهشة على وجهه حين رأى الغريب الأول بإزاء النضد يطعم ويشرب ، ثم قال في هدوء وهو يبسم « لقد كنت أظنك مع الجماعة . لقد رجعت حين تراءى لي أنهم سيؤدون عملهم في دقة وإتقان . ثم إن الليلة غبراء ممطرة وأنا لا أريد أن أرهق نفسي بما لا تستطيع عليه صبراً بين هذه الصخور الصعبة » قال الغريب الأول : « لا جرم ، فهم سيكفونك مئونة التعب والضنى » قال الغريب الثاني : « حقاً ، وإن الطريق من هنا إلى كاستربردج سيبلغ بي الجهد قال الأول : أما أنا فبيتي هناك . وإنه ليخيل إلىّ أنه سينالني الأين حين أحاول أن أبلغه قبل ميعاد النوم ثم سار صوب الباب وإلى جانبه صاحبه يودعه في حرارة

انتشر القوم في كل مكان ينقبون عن المجرم الهارب في غير دقة ولا نظام ، فالتفتوا يفتشون عن الجندي علّهم يجدون منه المعونة فما وجدوه فانشعبوا بَدداً ، ثم أعياهم الجهد، فلموا شعثهم وأطفأوا المصابيح لأنها تنم عليهم أنى ساروا ، وراحوا يفتشون في الناحية الأخرى ، ثم وقفوا قبالة شجرة باسقة هناك أقفرت الأرض إلا منها ، وخيل إليهم أن شبحاً لاصقاً إلى جذعها فانطلق الشرطي إليه يهدده : مالك أو حياتك ! غير أن جون بيتشر همس في أذنه : لا ، لا تقل هذا فتلك ألفاظ السفاكين والمجرمين، أما نحن فنحارب بقوة القانون، قل له : سلم نفسك أيها السجين باسم الإله وباسم الملك !

وبذا الرجل الواقف إلى جانب الشجرة في ذهوله حائراً كأن لم يستشعر وجود القوم إلا في هذه اللحظة فدلف إليهم في بطء ليروا فيه الغريب الثالث ثم قال في رزانة : نعم ، لقد سمعتكم تتحدثون عني فأجابه الشرطي في حدة : نعم ، الآن أنت سجيننا ونحن نقبض عليك لتلقى في سجن كاستربردج فتذوق وبال أمرك في الصباح الباكر . ثم التفت إلى رفاقه وهو يقول : يا رفاق لببوا هذا الفارّ ؟

وسمع الغريب الثالث التهمة في صمت، وأذعن في هدوء ، فساقوه إلى الكوخ ، وهناك وجدوا ضابطين من ضباط سجن كاستربردج ونائباً كانوا قد استشعروا فرار السجين فانطلقوا على أثره فانتهى بهم الطاف إلى هذا الكوخ

ودخل الشرطي يعلن القبض على السجين الهارب ، ثم التفت إلى وراء وقال : يا رجال هاتوا سجينكم ! . فدخل الغريب الثالث ، وحدق ضابط في الرجل في دهشة وهو يقول : من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ . فأجابه الشرطي : إنه هو السجين . فقال الضابط : لا ... أبداً ... ليس هو ! . فذهل الشرطي وقال : كيف لا !

ثم راح يقص القصة كلها ... فقال الضابط فى فتور : ألا تفهم ؟ إنه ليس هو ! ... ثم ابتدأ يصفه فى دقة ويؤنب الشرطى على أن أخطأ ؛ فقال الشرطى فى حيرة: يا لله ! إنه هو الغريب الأول الذى كان جالساً إلى جانب الموقد . قال النائب: هذا جميل، وعليكم الآن أن تبحثوا عنه فى كل مكان

وأخذ الرجل المقبوض عليه يتكلم لأول مرة حين هزّه ذكر الغريب الذى كان جالساً لدى الموقد أكثر مما هزته جميع الحوادث الماضية فقال : « ياسيدى ، إننى لم أقترف جرماً سوى أن الهارب هو أخى، ولقد برحت دارى فى شاتسفورد عند الظهر لأبلغ سجن كاستربردج فأودع أخى ، ولما جنّ علىّ الليل عرّجت على هذه الدار أسأل الراحة والطريق معاً ، فلما ولجت الباب ألفيت أخى هنا حراً بعد أن كان يتراءى لى أنه فى كاستربردج فى قفص الاتهام، لقد كان هنا إلى جانب الموقد ، وإلى جانبه الرجل الذى انطلق يتقصصه ليستل روحه من بين جنبيه وهو يغنى فى طرب ولا يعلم أنه إلى جانب فريسته . ونظر إلى أخى نظرات فيها حديث طويل وعيته كله فانطلقت لا أعقب ... » وكانت سمات الصدق والجد تبدو واضحة فى رنّات صوته، ثم ساد المكان صمت قطعه النائب بقوله : وأنت أفلا تعرف أين أخوك الآن ؟ قال الرجل : لا ، فأنا لم أره منذ أغلقت الباب من ورائى . ولم يشأ النائب أن يلح فى سؤاله فأطلق سراحه ...

ومرت الأيام ، وما يستطيع إنسان أن يعثر على السجين الهارب أو يراه ، والحدس ما يستطيع أن يسمو إلى ما كان منه ...

كامل محمود حبيب

آخر ليالي غرناطة

أقصوصة شرقية

بقلم الأديب محمد سعيد عامر

غرناطة إحدى مدن الأندلس الزاهرة ، تقع على نهر شنيل وتحيط بها الغياض ، والمروج الناضرة والبساتين الغناء ، تملؤها الأثمار والأزهار ، وتغرد على أيكها الأطيار . وفى المدينة الزاهرة يقع قصر الحمراء الشهير ، بناه بنو الأحمر من ملوك العرب فى الأندلس ، وتفننوا فى هندسته وتنميقه فجاء آية فى إتقان الصنعة ، وفخامة البناء ، ورحابة الأبهاء ، ولطافة الزخارف والرسوم فكم أدخل فيه من المرمر والعسجد ، وأدق أسباب الزينة والزخرف . وكان من أهم ما يسترعى النظر فيه السوارى والعمد الرقيقة الرشيقة المفرغة فى أحسن القوالب تحمل سقوفاً كأنها سماء زينت بالكواكب

فى قاعة فسيحة من هذا القصر أثثت بأفخر الرياش والأثاث ، وبثت فى جنباتها الأرائك والنمارق جلست عائشة الحرة أم السلطان أبى عبد الله ، وعلى وجهها دلائل المهابة والوقار ، وتجاهها جلست فتاة فى مقتبل العمر غضة الإهاب ناضرة الشباب، هى ابنتها لمياء . جلستا ساهمتين ، ثم أجالتا النظر فى روضة رسمت على الطنفسة التى فرش بها المكان . وأخيراً قطعت الأم حبل هذا السكوت بقولها :

— علمت يا لمياء ما كان بينك وبين موسى من لقاءات، ولم أرد من زمن، أن أخبرك بما عرفت خوف تكدير صفوك والإثقال عليك ، وإن كان هذا الأمر يضطرب فى نفسى وأحب الإفضاء به

— ومن ذا أخبرك بهذا يا أماه! وما كنت بالفتاة المبتذلة التى تنطلق فى كل طريق وتسير فى كل سبيل ... ؟

وسكتت قليلاً وهى مطرقة ، ثم رفعت رأسها قليلاً وأردفت :

— رأيته لأول مرة بطريق المصادفة حين كنت أسير فى جبال البشرات فقدجمح جوادى وكاديطرحنى أرضاً ، وكان موسى فى جماعة من صحابه ، فلما شاهد ما بى مرق من بين رفاقه وجرى نحوى حتى قبض على جوادى ثم أبدلنى به غيره وسار فى ركابى حتى بلغ بى مأمنى من أرباض المدينة . وأصدقك القول يا أماه أننى وجدت من شهامة هذا الفارس وحسن أدبه وحيائه فى ذلك اليوم ما حببه إلى قلبى ، وجعلنى أستقصى أخباره وأسأل عن شأنه ؛ وأحمد الله على أن فؤادى ما كذب وما غوى ، فقد علمت أنه من فرساننا المعدودين الذين يعتمد السلطان عليهم ، ويثق بهم ، ولأخى فى موسى — على الخصوص — رأى جميل . ولكن قولى يا أماه ! أتعدون حركاتى وتبثون حولى العيون ؟

— إن عين الأم لا تغفل عن بناتها ، وإنه ليهمنى أن أستقصى أخبار أهلى ، وولدى ، وما تجسست عليك ، ولا جعلت عليك عيوناً ولا أرصاداً فكثيراً ما يأتينى بالأخبار من لم أزود ،

ومهما انطلقت فى أية جهة ، وسرت فى كل سبيل فنحن واثقون بشرفك وكرمك وما يمليه عليك محتدك الأصيل من آداب السير ، وجميل السلوك ، ولكن حديثى يا بنيتى عن موسى هذا فربما عرفته من بين الفرسان الذين يترددون على الحمراء ويقومون بالسفارة بين السلطان وجيراننا الأسبان

— إنه رجل لم يجاوز بعد طور الشباب، لا بالطويل ولا بالقصير ، ممشوق القوام، سمح الوجه، لا تفارق الابتسامة شفتيه ، وهو لين الجانب عذب الحديث لا يشبع سامعه من كلامه الذى يطوى أخبار الناس وحوادث القرون ، ويدل على كثير من المعرفة والاطلاع ، وما أحسن منظره ، وأرق نفسه حين يتحدث عن غزوات ابن أبى عامر المنصور فى بلاد الشمال، ويصف بألفاظه الرنانة ونغمه الجميل ما صادف أجدادنا من النصر، وكتب لهم من النجاح وقد رأيته مرة عند وراق فى الربض يشترى بعض كتب ذلك العصر ، ويحدث أصحابه بما فيها . فكان لكلامه فى نفسى أثر باق ، ووقع جميل ...

— أهو محارب أم أديب ؟

— إنه الاثنان يا أماه ، وهو فى الميدانين فارس مغوار ، وبطل لا يشق له غبار . وكثيراً ما يعهد إليه بأعمال السفارة بين السلطان وجيراننا لما عرف عنه من توقد الذهن ، ولطافة المدخل ، ومعرفة آداب المحادثة ، وطرائق السياسة . وكم انتصر فى ميادين الحرب ، وأحرز النجاح فى السلم بحسن لباقته ، ولطافة كلامه . وهو الآن فى سفارة إلى الأسبان واكتشاف لنياتهم وأعمالهم نحونا نرجو أن يعود منها موفور السلامة ، مقروناً بالتوفيق

- إذن هو أهل لبنات السلاطين يا لمياء ، ولقد كانت نفسى تتوق لتزويجك من أحد أشراف بنى نصر حتى تحفظ دماء الملوك لأنجاب نسل نبيل .

— وهل هؤلاء الأشراف دائماً أكفاء لمثلى من بنات الملوك ، وكثيرون منهم يجعلون كل اعتمادهم على دولة دالت ، وعز مضى ، وسمعة طيبة لم تكن لهم ولكن كانت لأجدادهم الغر الميامين . وأى رجل من هؤلاء كفء لامرأة كريمة ، وهم كما تعلمين همهم القصف والشرب والغناء والانتقال فى ربوع الأندلس ، وبين أعدائنا الأسبان يبغون بذلك البحث عن اللذة والمتاع . وأنت تعلمين أن منهم من كان عوناً للعدو علينا ، وكان انتسابه إلينا من أعظم البلاء . إننى أفضل العزوبة على الزواج من هؤلاء الأدعياء الذين لا يعرفون الشرف إلا فى التبطل والعيش على حساب الناس . ومهما يكن من الأمر فليس هذا أوان الكلام فى أمر زواجى فنحن فى وقت عصيب قد انكمشت فيه دولتنا ، وضعفت همتنا ، وأحاط بنا الأعداء ، وأصبح واجبنا الأول الدفاع عن وجودنا ، والذود عن حياضنا ، والإبقاء على حياتنا فى أرضنا العزيزة ، ومهدنا المحبوب . ولولا أن القلب لا ينى عن الخفوق ، ولولا حكم الشباب الذى يقضى على مثلى بأن تصبو وتحب لما وجدت فى نفسى هما غير هم بلادى ، وموطن آبائى وأجدادى ؛ فقد ضاع اتحادنا وتمزقت كلمتنا فى حين توثقت عروة الأسبان ، وصح عزمهم على أخذ ما بقى لنا من أرضنا ، ولا يلبثون أن يستولوا على غرناطه الأمل الأخير والشاهد الحى على مجد العرب ومدنيتهم الزاهرة فى الأندلس .

وبينما كانتا تأخذان فى هذا الحديث كان الفارس موسى يقطع طريق عودته إلى غرناطة بعد رحلة

طويلة شاقة فى البلاد التى صار أمرها إلى الأسبان. ولما أشرف على غرناطة وشاهد مآذنها وقبابها وحصن الحمراء وقصره الباذخ شعر بحنان غريب ، وشوق عظيم ، وألهبت نفسه الذكرى . وأراد أن يتشاغل بما فى طريقه من المناظر الخلابة ومظاهر الطبيعة الساحرة فى هذه البقعة من جنات الدنيا فسار بإزاء نهر شنيل ذى الماء السلسبيل فأظله ما على جانبيه من الأشجار الباسقة وقد تدلت فروعها فى النهر وطفت فوق سطحه أو غاصت فيه . وفى لجة النهر كانت القوارب ذاهبة آيبة تحمل المسافرين والمتنزهين عرف من بينهم جماعة من الشبان أخذوا يتمازحون فى النهر ، ويتسابقون ! فذكر ما كان يقوم به مع رفاقه من نزهات فى نهر شنيل حيث كانوا يقضون اليوم بالتجديف فى النهر جادين متسابقين حتى إذا بلغوا من ذلك غايتهم أخذوا طريقهم إلى الغياض والحدائق التى تحيط بالنهر فقضوا ردحاً من الزمن فى الأكل والقصف ورواية الشعر ، وقص الأحاديث .

وكان أبلغ هذه الذكريات فى نفسه ما كان فى الليالى القمرية الجميلة التى قضاها فى أرباض غرناطة الفيحاء قبل سفره بأيام ، وقد شعر بلذة تلك الليالى ، وفضلها على سابقاتها من ليالى المرح وأيام القصف والسرور، ذلك أنه كان فى أيامه الأخيرة قد عرف لياء فملأت فراغ قلبه ، وجعلت لحياته طعماً أحلى مذاقاً ، ولنفسه قدراً يضن به على الصغار والضياع

ثم هو الآن يرى نفسه غير ذلك الفارس الذى كان يضرب فى كل سبيل ، ويسير مع كل جماعة ، لا يهمه أن يموت أو يبقى على قيد الحياة . بل صار رجلاً آخر ضنيناً بحياته وسلامته ضنيناً بنفسه عن الابتذال والدخول فيما يدخل فيه الشباب من صنوف اللهو وأسباب المتاع . وأحس أن نفسه قد ارتفعت ، ومشاعره قد سمت فى أيام ، وأصبح وكأنه قد علت به السن وتقدمت به الأعوام . وآنس من نفسه الميل إلى التوقر والاحتشام . كل ذلك لأنه عرف لياء وأحبها فأشعرته بحياته وبشمائل نفسه وسمت به مشاعر الحب إلى ما يليق بشرف الرجال ، ويرتفع عن منازع الشبان . ثم أرجع البصر كرتين إلى نهر غرناطة الحبيب ، وإلى أشجاره التى تحف به وكأنها تقيه وتحميه ، وإلى تلك البساتين وما فيها من الأثمار والأزهار فساورته الأحزان، وشعر بهم عظيم يثقل نفسه ويدكها دكا . فقد أدرك حال قومه من الضعف والهوان ، وأدرك ما يهدد غرناطة مهد طفولته ومراح شبابه من الأحداث العظام . أليس هو قادماً من عند الأسبان ، وقد عرف نيات القوم وعزمهم على القضاء على مدينته آخر معقل للعرب فى الجزيرة الخضراء . ساورته هذه الأحزان وطافت بنفسه المخاوف على هذه الأرض العزيزة على نفسه . فهى بلاده التى ولد فيها ونشأ حتى بلغ مبلغ الرجال وهى الأرض التى دفن فيها أمه العزيزة التى خلقت للتضحية بنفسها فى سبيل تربيته وتنشئته ، والتى إذا ذكرها ـ وكثيراً ما يفعل ـ يشعر بوخز فى ضميره وألم فى نفسه لا لموتها ولكن لما نالها فى سبيله من المتاعب والآلام ، وكأنه قد أساء إليها ، وأذنب فى حقها ذنباً غير مغفور . ذكر هذا ، وذكر حبيبته لياء فارتفعت غرناطة فى نظره ، وسمت منزلتها فى قلبه وشعر فى نفسه بشجاعة وإقدام وحماسة قلما تكون فى أهل بلاد صائرة إلى الانقراض، فصرخ فى وسط ما يحف به من مروج هذه البقعة الخضراء :

« محال أن يتغلب علينا الأسبان وفى يدى سيف وفى غرناطة لماء »

ولكنه عاد فقارن بين حال أعدائهم وهم فى أشد حماسهم ، وفى ذروة اتحادهم واجتماع كلمتهم ، وحال قومه فى ضعفهم وتخاذلهم فبردت حماسته وضعفت همته وانقبض صدره وتغلبت عليه السويداء . ثم مال إلى النزول عن جواده والجلوس وسط الغياض

نزل موسى عن جواده وتركه حراً طليقاً فهو جواد كريم لن يهرب أو يجمح بل سينتظر سيده حتى يعتليه . وجلس تحت كرمة هناك بجانب قناة ماء ، وما كان جلوسه عن تعب أو لغوب ولكن شوقاً إلى الأنس بالماء والأشجار ، والتنعم بتحديق العين إليها وإنعام النظر فيها ، وإعمال الفكر فى هذا الفردوس الذى يحيط به ويجعل بلاده من جنات الأرض وأبدع أقاليم الدنيا . نظر إلى ما يحيط به وأطال وكأنه لم يشاهده قبل الآن ، وتلبث قليلاً يفكر ، وقبل أن يمتطى جواده سرح النظر فى هذه المشاهد الفاتنة ، وأطال النظر وكأنه يودع أرضاً سيغادرها فى سفر طويل، أو كأنه عنها مبعد أو ظاعن لن يعود

سار موسى تواً حتى وصل أسوار غرناطة ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، واتشحت المدينة وما حولها بثوب الظلام لولا ما كان يتخلله من مصابيح باهتة ، ضعيفة النور كانت تنير المسالك والدروب وتبزغ فى السجفة المظلمة وكأنها سهام خائرة ضعيفة تحارب الظلام فلا تنتصر عليه إلا لماماً ولا تنال منه إلا التافه اليسير . تمثل موسى هذا المشهد فى نفسه ورأى فيه مثيلاً لحال قومه وهم يحاربون أعداءهم فلا ينالون منهم إلا كما ينال هذا الضوء الضعيف من ذلك الظلام الكثيف

حث جواده إلى بيته ليستريح من وعثاء السفر ويبيت ليلته ، ويستعد لمقابلة السلطان فى الصباح ، وكان يعيش فى بيته وحيداً ويقوم على خدمته غلام صقلبي حسن اسمه صبيح شهد زواج أبيه ومولده وعنى بتربيته ، وكان يحفظ له حب الوالد وإخلاص الخادم الأمين ، وكان هذا الغلام مستنيراً كغيره من غلمان العرب فى الأندلس ، فقد كانوا يعتنون بتربية هؤلاء الغلمان وتعليمهم ، وكثيراً ما كانوا يحذقون بعض الفنون والآداب . فلم يكونوا خدماً جهلاء بل كانوا يعرفون أحوال بلادهم وحوادثها ويبدون كثيراً من المعرفة وحسن الإدراك . ولهذا سأل موسى صبيحاً عما فى غرناطة من جديد الأخبار وآراء الناس فى السلطان ، وآراء القوم فى القصبة وهى دار الحكم فى الحمراء ، وكان صبيح يشرح لمولاه تذمر الناس فى غرناطة من أبى عبد الله سلطانها ، وآراء أهل المعرفة فى خطأ السلطان فى تقربه من الأعداء وانحيازه إلى جانب الأسبان ضد إخوانه العرب فى الأقاليم الأندلسية الأخرى وأضاف صبيح :

ولقد سمعت ابن يحيى الفقيه يقول : « كان نجاح الأندلس فى أن يكون والمغرب بلاداً واحدة ، وإقليماً موحداً ، ولكن ملوك الطوائف أبوا إلا الاستقلال ، وانتحال الألقاب ، والتنازع فيما بينهم فتمزق شملهم وتعلقت بالعدو آمالهم حتى صار أمر الأندلس إلى الضياع » .

أخذ موسى طريقه إلى حصن الحمراء لمقابلة السلطان والإفضاء إليه بما لقى فى أرض الأسبان . قابل موسى أبا عبد الله فألفاه كئيباً حزينا

منقبض النفس ، فرثى لحاله وخشى أن تتحقق فيه نبوءة العرافين ؛ فقد تنبأوا بنحس نقيبته ، وشؤم طالعه ، وشقاء أيامه . وتنبأوا للمملكة بالسقوط على عهده . وكانت هذه النبوءات مما يروع السلطان ويفزعه وينال من نفسه منالاً عظيماً . ولهذا كان يبدو السلطان محزوناً شاحب اللون ضعيف الثقة بنفسه وبالأيام . وما كاد يرى موسى حتى رحب به وهش له ، وأخذ يسأله عن حال الأسبان ونياتهم، قال موسى :

إن الأسبان لا يقنعهم إلا إجلاء العرب جميعاً عن هذه الجزيرة ، وهم ما عقدوا مع أحد من ملوك العرب صلحاً ، ولا كتبوا له موثقاً إلا ليتفرغوا لغيره من إخوانه وأهل دينه حتى إذا فرغوا منه عادوا فخفروا ذمتهم، ونقضوا عهدهم، وبهذا استولوا على ممالك الأندلس واحدة إثر واحدة ، وكنا لهم عوناً ، وعلى إخواننا حرباً . ولقد شاهدت بنفسي فرساناً من الإنجليز والألمان والفرنسيس قد دخلوا فى جيش فرديناند وإزابلا مساعدة لها على حربنا وطردنا من بلادنا . وهو يتأهب لذلك ويستعد له وقد صح العزم على الاستيلاء على مالقة ثغر مملكتنا ومنفذها إلى البحر حتى لا يأتينا المدد من إخواننا فى المغرب أو المشرق .

— الحق أننى يائس من عون المغاربة فهم فى ضعف وتخاذل ، قانط من عطف آل عثمان علينا ومساعدتهم لنا ، فقد شاهدوا الأندلس يتساقط كأوراق الشجر فما مدوا له يداً ، وهم فى الشرق والغرب سادة مسيطرون ، وغزاة فاتحون

فليكن اعتمادنا على أنفسنا ، وتوكلنا على الله القدير .

وخرج موسى من لدن السلطان وهمه الأول أن يلقى لمياء ليجد بقربها جواً رقيقاً ليناً ينسيه شواغل نفسه وآلامها ، ولينعم بطلعتها الباهرة ، ونظرتها الساحرة ،وبسماتها الخلابة التى تفتح القلب ، وتشرح الصدر ، وتحيي الأمل . وما كاد ينزل من الحصن منطلقاً فى مسالك المدينة حتى كانت لمياء تناديه وتحاذيه وتسير إلى جانبه ممتطية جوادها الأشهب قاصدة نزهتها المعتادة فى أرباض المدينة الفيحاء .

قضى موسى معها ساعة أمتع فيها السمع والبصر ببهى طلعتها ، وعذب حديثها، ومتع النفس بمشاعرها الكريمة الصادرة عن نفس شريفة ، وقلب رقيق ، وتزود من هذا كله بما يشد أزره ، ويقوى جنانه ، ويمينه على القدر ، وصروف الزمن

دار الفلك دورته السريعة وتمخضت الأيام عن أحوالها العجيبة وحادثاتها الأليمة ، فاستولى الأسبان على مالقة ثغر غرناطة الجميل ، وأضافوا إلى أرضهم مرجه الأخضر وواديه الخصيب . ومن سخرية القدر أن يرسل أبو عبد الله للملك والملكة يهنئهما بهذا الفتح ؛ فأوغر بذلك صدور شعبه ، ولم يسلم من لوم نساء قصره وتعنيفهن ، وحزنت لذلك أمه عائشة الحرة وعدته نذيراً بالسقوط، وأرسلت لمياء الزفرات وأسالت العبرات وحدثها قلبها بقرب وقوع حادث أليم ، وكأنها شعرت بأن مصابها من انتصار الأسبان ونجاح خطتهم سيكون أفدح وأعظم ، وأنها ستنال من الأحزان والآلام أوفر نصيب

وأخيراً اعتزم الأسبان إنزال ضربتهم الأخيرة على غرناطة آخر معاقل العرب وأملهم الأخير ، فحشدوا جيوشهم فيما يحيط بها من الأرباض والرياض وخرج أبو عبد الله من حمرائه بنخبة جيشه يذب

عن حوضه ، ويدافع عن روضه ، وانتشرت المعارك في البساتين والمروج بظاهر المدينة ، وتحولت هذه الرياض الناضرة التي طالما رفرفت عليها أجنحة الحب والسلام ، والتي كانت موضع سرور العرب وبهجتهم ومثابة متاعهم ولذتهم ، أصبحت ميادين تتصاعد فيها آهات المجروحين وتنهدات المحزونين ، وتخضبت أرضها بدماء زكية استشهدت دفاعاً عن شرفها وحياتها . وكان موسى في طليعة قواد الجيش الدافع فبعث في رجاله من روحه ما شد أزرهم ، وقوى عزائمهم حتى استهانوا بالموت ، وتعجلوا الشهادة

والحق أن مقاومتهم الشديدة كانت دليل ما يحسون من ألم لفراق مروج غرناطة ورياضها الفيحاء التي كانت لهم فردوساً ونعيما ، فبذلوا في سبيل وطنهم العزيز أقصى ما عندهم من حول وحيلة ما أقعدهم عن ذلك إدبار سعدهم ، وضربات عدوهم

جلس الجند ليلاً يتسامرون ويقصون الأحاديث ترفيهاً عن أنفسهم ، وشحذاً لهمتهم قال أحدهم :

إن السلطان قد حارب معنا ببسالة ما كنت أنتظرها منه ، وأبلى في دفع العدو بلاء حسناً ، وكنت أظن سيفه قد صدأ ، ولم يعد يقوى على الطعان

قال آخر : وكيف لا تقوى عزيمته ، وتعظم همته ، وهو يرى شعبه جميعه حتى نساء قصره يبذلون نفيسهم وأنفسهم في هذا النضال . ولقد ذكرت سيف السلطان وصدأه

أتعرف ما كتب على نصله ؟ ... إنهم نقشوا عليه هذه الأبيات :

جرد حسام الفتك من غمد الردى

واضرب به هام الحواسد والعدى

لم ذا التواني عن متابعة الندى

إن السيوف إذا تملاها الصدى

حلفت مضاربها بألا تقطع

وأنت يا حمدون كيف حال زوجاتك فقد بلغني أنك أكلتهن أربعاً ... إني لأشفق عليك (يا أخي) كيف تطيق هذا العيش المضطرب ، وكيف يتسع صدرك للشجار والعراك الذي لا مفر منه في هذه الحال ؟

— إن صدري لينشرح وإن نفسي لتطيب لمعارك نسائي ، وإنه ليحزنني أن أجد الوفاق ساد زوجاتي والسلام خيم على بيتي !

فأومأ القوم متعجبين من كلامه وصاحوا به :

— أتهزل في وقت الجد ؟

— إنني أجد ، فاسمعوا الخبر :

كنت يوماً خارج المدينة لبعض شأني فلما عدت وجدت زوجاتي قد انتقين ما حلا لهن من الأقمشة الحريرية المزركشة من تاجر يحملها من بلنسية ، وانتظرن حتى أعود فأدفع ثمنها ، ولكن الثمن كان باهظاً فرفضت أن أدفع للتاجر شيئاً . وأصر النساء على الاحتفاظ بالأقمشة ، وألح التاجر اللعين في الحصول على ثمنها ولكني بقيت في موقفي لا أتزحزح . ولو أردت القبول لما استطعت فما كنت أملك هذا الثمن الفادح ! واتفق النساء على مغايظتي ومقاومتي فتصافين وعقدن حلفاً . ولما دخلت البيت في المساء وجدت حجراته مغلقة في وجهي وأبين أن يهيئن لي طعاماً فبت على الطوى . وهكذا وجدت الحال في اليوم التالي حتى اضطررت إلى التماس الفداء فصالحتهن بدفع معظم ما طلبن . ومن ذلك اليوم وأنا أنظر بقلق عظيم إلى كل سلام يعقد بينهن

وأجد فيه ما ينغص عيشي ويذهب براحتي وسكوني

ناضل العرب عن مدينتهم ، ودافعوا دونها حتى انهارت قوتهم ، ونفدت حيلتهم فقفلوا راجعين إلى داخل المدينة وتحصنوا فيها ، ونصبوا مدافعهم على أسوارها

وبقى الأسبان حول المدينة لا يريمون حتى إذا جاء الشتاء بنوا معسكراتهم على هيئة مدينة صغيرة وأقاموا فيها . وفى هذه الأثناء احتمل العرب ويلات الحصار من نضوب المؤونة وقلة الغذاء ، وكان أملهم أن يذهب عنهم العدو إذا جاء الشتاء بأمطاره وثلوجه . فلما رأوه قد بنى معسكراته وأقام مطمئناً خيم عليهم اليأس ، وأظلهم القنوط ، وأظلمت الدنيا فى عين أبى عبد الله فعقد مجلساً فى الحمراء من نخبة شعبه وسألهم رأيهم فى التسليم! وبيّن حافظ المدينة الحال السيئة التى وصلت إليها من نفاد الأقوات وموت الخيول والحيوانات جوعاً ، وحاجة الناس إلى الخبز .. مما يضطرهم إلى التسليم .

وهنا قام موسى فقال :

إن وسائلنا لم تنفد بعد وإن لدينا وسيلة فعالة طالما كانت سبباً للفتح وطريقاً إلى الخلاص، ألا وهى الاستماتة . واعلموا أن الموت الأحمر هو أهون ما ستلقون من أعدائكم فموتوا كراماً مدافعين قبل أن تسبى نساؤكم ، ويذبح أطفالكم ، ويعتدى الأسبان على أعراضكم ، ويلوثوا شرفكم . وإنى أعرف أعداءنا لا عهد لهم ولا ذمام ولا هم بالكرام عند المقدرة، فلا تنتظروا وفاءهم ، ولا تطمعوا فى كرمهم

ولكن اليأس كان قد حطم نفوس القوم ، فلم وذهب بعزتها ونخوتها يستجيبوا له ، وأرسل الوزير أبو القاسم لعقد شروط الصلح

خرج موسى من مكان الاجتماع واجماً مطرقاً ، كاسف البال فطاف ببهو السباع وسار فى أبهاء الحمراء الفسيحة ذات العمد الرفيعة ، والزخارف البديعة ، واستعاد فى مخيلته ما كان فى هذا القصر الباذخ من أبهة الملك ، وعزة السلطان ، وما عقد فيه من مجالس العلم والأدب ، فتحسر على ما فات ، وصعد الزفرات ، وكان الليل قد أرخى سدوله فزاد فى انقباض نفسه فلم يطق صبراً على البقاء ، فخرج هائماً على وجهه وقد ملأه الحزن وشمله اليأس لا يدرى ماذا يصنع بنفسه وقد أصبحت حملاً ثقيلاً ، ووقراً لا يحتمل

اعتادت عصبة من جنود الاسبان الخروج ليلاً للنزهة على شاطئ الشنيل، فيهم السكير الذى يترنح والمنتشى بالخمر أو بالنصر يغنى أو يرقص ، وقد يأخذ بعضهم بتلابيب بعض على سبيل المداعبة والمزاح ، وبيناهم فى مرحهم وعربدتهم إذا بفارس عربى يظهر لهم فى دروعه وسلاحه يمتطى جواداً قد غطى مثله بالزرد فنادوه فاستجاب لهم، ودخل فى جلتهم ولكنه طفق يضاربهم ويقاتلهم ، لا يدرى أين مهوى سيفه ، وموقع ضرباته ، وبقى يثخنهم جراحاً حتى أصيب ، وخر عن جواده ، ولكنه استمر يقاتل انتقاماً واشتفاء حتى خارت قواه . وخشى أن يؤخذ أسيراً فزحف إلى النهر وألقى بنفسه فيه ، فغاصت به أسلحته ودروعه ، واحتضنته اللجة ، وواراه الماء .

ذلك هو موسى بن أبى الغسان .

محمد سعيد عامر

صديق جديد

عن مجلة « ترو ستورى »

بقلم الأديب عمانوئيل بطرس ابراهيم

تطلعت من السيارة التى كنت أعمل فيها إلى أعلى ، فوجدت — مانى بيترز — وعلى شفتيه ابتسامة بريئة ، غير أن عينيه الزرقاوين — فى هذه المرة — كانتا تشعان ببريق غريب

خالط عقله مس منذ أن كان فى العاشرة من عمره ، حينما حدث أنْ أصابه أحد رفقائه — دون قصد — بحجارة . ومما يحز فى نفسى ، أن أقول إننى كنت أكرهه بكل ما فى هذه الكلمة من معان ، وإن كنتُ أدعهُ يعبث بأدوات السيارة التى وضعتها فى «جاراج» بمدينة «جيرسى الجديدة» وذلك لمعرفتى أن جنونه من نوع غير خطر ، وأنه محتاج إلى ما يمكنه أنْ يتسلى به ، ولكنه أهاجنى اليوم ، أكثر من أى يوم سبق ، فقد قضيت عشر دقائق فى البحث عن أداة احتجت إليها لعمل مستعجل

تذكرت أن — مانى — أمعن فى العبث أمس — كما يفعل غالباً — فكان السبب فى هذا التأخير فأخذت ألعن الظروف التى خلقت لى مثل هذا المأزق الحرج ، وأخيراً وجدتها

يستطيع الحدادون أن يقسموا على أنْ شيئاً لا يزعجهم مثل اختلاف مواضع الآلات التى يضعونها فى أماكنها

لم أقل لـ « مانى » شيئاً ، إذ أعرف أنّ نتيجة ذلك ستكون سيئة ، وأنه لا يمكنه أنْ يفهم حقيقة الموقف ؛ وإنْ فهم فلا يمكنه أن يتذكر ذلك إلا لمدة خمس دقائق . أقنعت نفسى بالتغافل عن أعماله ، وأن أستمر على عملى ، ولكن نيران الحقد ، ولهيب الكراهية ، جعلا منى مرجلاً ثائراً ... !

نظرت إلى يدى القويتين ، وأحببت أن أداعب بها رأس من تسول له نفسه العبث بأشياء تخصنى ، أما أن يكون هذا الشخص «مانى» فإننى لا أستطيع حتى رفعهما

استمررت فى عملى ، وأنا جد متعجب من سكان القرية . ترى ما الذى جعل « مانى » محبوباً منهم ، وأنا أحمل له من البغض والكراهية ما ينوء تحتهما كاهلى ؟ ! وطبعاً لم يكن الذنب ذنبه ، أحبه الناس أم لم يحبوه ، وشعورى بالكراهية له ناجم عن عدم الإكبار للرجال الضعفاء وغير المرغوب فيهم ، كرهى لكل عضو لا يقوم بعمله تمام القيام

تحملت منه ما لم يتحمله أهل القرية الأنانيون الذين قدت قلوبهم من الصخر ، لا يعرفون قوياً ولا يرحمون ضعيفاً ، وحبى له لم يكن إلا شفقة به ، ورثاء له .

انتهيت من عملى ، ولم أنتبه للشخص المشرئب بعنقه ليرى ما أعمل ، مما سبب اصطدامى به ، وبعدها

ألفيتنى محلقاً فيه . أما هذا الشخص فكان « مانى »

تملكنى الغضب الشديد ، فصحت به : بحق السموات ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ !

ودفعته دفعة قوية لأزيحه عن طريقى .

ترنح إلى الخلف بمجرد اختلال توازنه ، وغارت عيناه الزرقاوان فى محجريهما متعجبتين ، سائلتين ، ولم أكن رأيتهما على هذه الحالة من قبل .

وثم اصطدم ببعض آلات مبعثرة هنا وهناك ، وسقط سقطة أفقدته الرشد .

زاغت عيناى واشتد بى الخوف ، وأحسست بفيض من العواطف يدفعنى إلى مساعدته فى القيام . وفجأة ، رأيتنى ماداً إليه يدى أساعده على القيام .

شعرت وأنا أنحنى إلى الأسفل أن يدى قد بلتا ، ونظرت إلى الأسفل فرأيت قطرات حمرا على الأرض على بعد ست وثلاثين عقدة منى .

حينئذ عرفت أن رأسه قد دق ببعض أدوات سببت شج رأسه ، فظننت أنه مات ، ولكننى شاهدت صدره يعلو ويهبط ، فعرفت أنه لم يفارق الحياة . لم أعر ذلك اهتماماً بادىء ذى بدء ، وطمأنت نفسى بأنه لن يلبث أن يستفيق . وبرغم ما كنت أتظاهر به من الهدوء، كنت معتقداً أن إصابته خطيرة.

سرت نحو التلفون وطلبت الطبيب قائلاً : أصيب مانى بيترز ـ بحادث خطير فأرجو أن تأتى بسرعة. وعلقت « السماعة » ورجعت إلى ـ مانى ـ أسائل نفسى ماذا يمكننى عمله حتى يصل الطبيب. استطعت أن أقف النزيف ، ولكننى لم أعرف ما يجب أن أعمله أيضاً ، وهكذا جلست إلى جانبه . منتظراً مجيء الطبيب ، محاولاً جهدى ألا أفكر فيما سبب هذه الحادثة .

جاء الطبيب فى وقت مناسب ومعه خمسة رجال من أهالى القرية ممن أعرفهم . لقد كانوا فى بيت الطبيب ساعة أن أخبرته بما حدث . ولما سمعوا ما قاله الطبيب بشأن « مانى » أتوا معه ليعرفوا حقيقة ما حدث

وكما قلت قبلاً إن أهل القرية جميعهم يحبون « مانى » ما عداى فتأثروا لما أصابه

لم ينبس أحدنا ببنت شفة ، حتى فرغ الطبيب من الفحص ، فرفع إلينا وجهاً ممتقعاً ، فكان ذلك جواباً كافياً وفر على السؤال

تكلم بهدوء قائلاً : إن إصابته خطرة جداً ، فليخبر أحدكم مستشفى « آردين » ليرسلوا نقالة لحمله . ثم التفت وسألنى عن كيفية وقوع الحادثة فأخبرته بما حدث ، فأومأ برأسه فاهماً

غير أننى لاحظت الخمسة الآخرين ينظرون إلى مستغربين ، ورأيت واحداً أو اثنين ـ لا أتذكر ـ ينظر إلى متشككا

عشر دقائق مؤلمات مرت، حتى وصلت النقالة. ولم تمض دقيقة أخرى حتى كان الطبيب ومانى فى طريقهم إلى مستشفى « آردين »

شعرت بحمى خفيفة ، وذهبت إلى حيث أستطيع أن أتنفس ، لأن هواء « الجاراج » يكاد يخنقنى . وقبل أن أصل إلى حيث أردت ، سمعت قائلاً يقول : فيلد ، دقيقة من فضلك ، لا يمكننى أن أدعك تذهب الآن

فالتفت قائلا : ولم ذلك يا جاك ؟ ألم تصدق ماأخبرت الطبيب به ؟

وظهر فى هذه اللحظة الأربعة الآخرون

ـ لا ، لا ، إن أحداً لم يصدق ذلك لما نعرف من مبلغ حقدك على « مانى »

تملكني غضب مفاجيء . إنهم يظنون أنني فعلت ما فعلت عن عمد وإصرار

ظننتني قادراً على إقناعهم بادئ الأمر بأن ما حدث لم يكن إلا صدفة سيئة ، أما الآن فإن ذلك لا يزيد مركزي إلا حرجاً

انثنيت إلى جاك قائلاً : تظنني حاولت قتل ماني ؟ أليس كذلك ؟ ! حسن ، ظن ماشئت ، فلست أبالي . والآن تفضل بالخروج وإلا أصابك ما لا يعجبك

فكان جوابه أن رفع يده وضربني بقوة ، إلا أنني تحاشيت ضربته بحركة خفيفة من رأسي ، فاستدار حول نفسه وسقط على الأرض يتدحرج

فلما رأى الأربعة الآخرون ما حل بصاحبهم هجموا عليّ دفعة واحدة كالذئاب الكاسرة يريدون تمزيقي . وسمعت « لودين » يقول : آه ... هل تقدر أن تفعل بنا ما فعلت بماني . إيه ؟ حسن ، إنك لاتقدر ، إننا لا نتصارع من أجل جائزة كما تفعل ، ولكننا سنلقي عليك درساً لن تنساه مدى الحياة .

دافعت عن نفسي دفاع المستميت ، ولكن ما حيلتي إزاء خمسة رجال أشداء ؟ نعم أسقطت اثنين منهم ولكن الباقين تمكنوا مني وضربوني ضرباً مبرحاً . وأخيراً وجدتني ممدداً على الأرض مشرفاً على الإغماء

أذكر أنني سمعت « لودين » يتكلم بالتلفون طالباً نقالة أخرى، وبعدها لم أكد أفقه شيئاً مما يدور حولي ، إذ أن الإغماء غلبني

أفقت من الإغماء ، فرأيتني على سرير أبيض من أسرّة المرضى ، ثم رأيت ممرضة منحنية فوقي وكان إلى جانبها طبيب فعرفت أنني في المستشفى .

سأل الطبيب الممرضة عن حالي ، فأجابته أنني أحسن من ذي قبل . ثم التفت إليّ مستفهماً : ما الذي حدث ؟ !

فأجبته بصوت ضعيف: تشاجرت. ثم أردفت: هل كسر شيء ؟ !

تمتم الطبيب : تشاجرت ؟ وتابع فرحاً : آه ، لا ، لم يحدث شيء مما تعني ، إنما كل ما هنالك رضوض لن تلبث أن تزول آلامها فيمكنك أن تخرج بعد يومين . ثم انصرف

أردت أن أسأل عن « ماني » ولكن حالتي كانت من الضعف بحيث لم أستطع معها أن أتكلم . سرى بي التفكير إلى الرجال الذين أشبعوني ضرباً. ومن الغريب أنني لم أشعر نحوهم بذرة من الحقد ، وكأن ما حدث لم يكن إلا خيالات وأوهاماً

غير أنني سعيد ، سعيد لأن عظامي لم يصبها عطب ، وإلا لكانت الدنيا لديّ أضيق من سم الخياط . وأدركت أخيراً أن عملي كان جنونياً . ترى من يصدقني إذا قلت إنني دفعت «ماني» دفعة لم أبغ من جرائها قتله ؟ !

وفجأة وثب إلى ذهني خاطر أذهلني ، واصطكت أسناني رعباً ، وهو ما سيكون شأن الشرط معي إن ... إن هو مات ؟ !

انقبض صدري لهذا الخاطر المروع ، وكدت أصيح بكل ما في حنجرتي من قوة . والفضل في إنقاذي من هـذا الموقف للممرضة التي دخلت في تلك اللحظة فأزمعت سؤالها عن ماني، قلت :

— إن لي زميلاً هنا اسمه « ماني بيترز » كيف حاله ؟

فأجابتني بصوت هادئ :

— إنه فى حالة سيئة ، وإنه الآن فى غرفة الجراحة لإجراء عملية جراحية خطيرة

فسألتها بلهفة :

— هل تدعينني أذهب لأرى ما يعملون ؟

ففغرت فاها متعجبة ، ولكنها لم تلبث أن استمادت ثباتها وتعهدت بأنها ستفعل ، وتركتني وانصرفت …

قضيت مدة أتقلب على فراش الألم خائفاً مذعوراً مما سيحدث لى ولمانى . لم أكن أشتكى فى ذلك اليوم من شيء ، غير أننى كنت منزعجاً مما سيحدث لى

وفى ذلك المساء أقبلت الممرضة قائلة :

— إن الأمل فى نجاح العملية كبير جداً ، ولو أنهم لم يخبروا أحداً ، وإننا سنعرف عنها فى الصباح كثيراً

كنت أريدها أن تقول إنه سيعود كما كان دون أن يكون فى قولها هذا ذرة من الشك . لذا بقيت فى حيرة من أمرى ، مما أثر فى حالتى وأخر شفائى

وفى صباح اليوم التالى رأيت الممرضة مبكرة على غير عادتها ، فأحسست أن دقات قلبي توقفت ، وأن الدم قد جمد فى شرايينى . وتمثل أمامى بعين الخيال مانى ممدداً على السرير جثة هامدة . ياله من منظر مخيف تقشعر منه الأبدان ! وسألتها : ما هذه الضوضاء ؟ هل هو مانى ؟ هل … هل مات ؟

— لا ، ولكنه يسير من سيء إلى أسوأ ، وقد سأل عنك ، فهل باستطاعتك أن تذهب إليه ؟.

لم أجبها على سؤالها ، بل أسرعت فى إلقاء الأغطية عنى ، وحاولت القيام فلم تسعفنى أعضائى المنحطة ، فجلست على مضض

حاولت أن أسترد قوتى ، غير أن رأسى ، كاد ينفجر فأسرعت الممرضة نحوى ، ومددتنى على السرير بهدوء ، ثم قالت بقلق ظاهر : سآتى بنقالة لحملك ، فأخبرتها أننى قادر على المشى على قدمى ، إذا هى ساعدتنى . ففعلت ، ووصلنا إلى غرفة « مانى »

انحنيت فوقه ، وسألته عن حاله ، فأجابنى وفى عينيه تلك النظرة البريئة الطاهرة : إن رأسى يكاد ينفجر ، ولكننى أحببت أن أراك حين علمت أنك أصبت أنت أيضاً ، ورغبت أن أراك سليماً معافى

شعرت بالدموع تجرى على خدىّ حارة غزيرة . يمكن أن يكون معتوهاً ، ولكننى لم أر قلباً بريئاً طاهراً مثل قلبه .

عرفت أنه لم يتذكر ما فعلته به ، ولا كيف كنت أعامله دائماً .

وشعرت لأول مرة فى حياتى منذ أن كنت طفلاً ، بشوق إلى الصلاة ، فأخذت أصلى ، وأصلى بحرارة . صليت وابتهلت إلى الله ، من أجل — مانى — ليشفى ، ولأستطيع أن أدعه فى «الجاراج» . وكأن دعائى أجيب ، إذ أن — مانى — ترك المستشفى بعد شهر منذ دخوله وقد عاد كما كان ، لم يتغير .

إنه الآن يقضى جميع أوقاته إلى جانبى فى الجاراج ، وإنه لم يعد يحدث لى المتاعب ، إننى أرغب أن يكون دائماً هناك ، لأنه يزيل وحشتى فى وحدتى ، وقد جعلنى أشعر بالشفقة والحنان لكل من يكون مفتقراً إليهما .

عمانوئيل بطرس ابراهيم

كل لنفسه !...

للقصصي الكبير اسكندر توما «الأب»

بقلم الأديب عبد المنعم مراد

كان بقرية فولى[1] منذ سنوات فلاح فقير يدعى « جيوم مونا »

وكان هناك دب يسطو على بستانه كل ليلة فيصطفى من شجر الكمثرى ما حملت من الثمار ألذها وأكثرها عصيراً رغم أن هذا الحيوان يستسيغ كل شيء ، فمن يشك إذن فى أن هذا الحيوان له من حاسة الذوق ما للانسان وإلا لما اختار هذا الصنف من الكمثرى التى أغرم بها ذلك الفلاح الذى ظن بادئ الأمر أن ذلك من فعل الأطفال الذين يسطون على بستانه مما جعله يحشو غدارته بحبات كبيرة من ملح الطعام وينتظر هؤلاء الفتية

وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً سمع زئيراً يدوى فى الجبل فقال لنفسه « آه . إن دباً غير بعيد »

وبعد عشر دقائق دوى عواء آخر قوى وقريب حتى ظن جيوم أنه لن يستطيع الرجوع أدراجه فانبسط على الأرض وليس لديه أمل إلا أن تكون الكمثرى هى مقصد الدب لا هو !

وظهر الدب فجأة فى ركن الحديقة وتقدم نحو شجرة الكمثرى ماراً على بعد عشر خطوات من جيوم ثم قفز على الشجرة فأنت من ثقله فروعها وأخذ يلتهم الثمار بشره حتى أنه لو زار هذه الشجرة مرتين أخريين لكانت الثالثة عبثاً !

ولما بَشِم الدب هبط من الشجرة ببطء كأنه يأسف لمفارقتها وعاد أدراجه ماراً بصاحبنا (الصياد) الذى لم تكن غدارته المحشوة ملحاً لتغنى عنه فتيلاً

استغرق كل هذا حوالى الساعة ولكنها كانت طويلة جداً على الصياد كأنها عام فى حين أنها مرت على الدب كأنها لحظة !

ومع هذا فقد كان الرجل شجاعاً إذ أنه همس والدب يعود أدراجه « حسن ، اذهب . ولكن هذا لن يمر هكذا بل سترى »

وفى اليوم التالى مر أحد الجيران فوجد جيوم منهمكاً فى قطع أسنان مذراة حديدية فقال له :

— ماذا تفعل ؟

— أتسلى

فأخذ الجار قطع الحديد وقلبها فى يده وأخذ يفكر برهة ثم أردف :

— لو كنت صريحاً يا جيوم لاعترفت لى بأن هذه الشظايا إنما تعدها لاختراق جلد أقوى من العنز البرى

— ربما

فاستطرد فرنسوا (وهذا اسم ذلك الجار)

— أنت تعلم أننى نعم الفتى ، فلو شئت أن يكون الدب لنا سوياً ، فإن اثنين خير من واحد

(١) فولى : قرية بسويسرا

— المسألة تتوقف على الظروف

قال ذلك جيوم واستمر فى قطع القطعة الثالثة

— سأترك الجلد لك وحدك ولن نقتسم سوى الجائزة[1] واللحم

— إنى أفضل الكل

— ولكنك لن تستطيع أن تمنعنى من أن أقتفى أثر الدب فى الجبل ومن أن أكمن له فى الطريق

— أنت حر

وانتهى جيوم من عمله وعمد إلى إعداد مقدار مضاعف من البارود

فقال فرنسوا :

— كأنك ذاهب إلى ساحة القتال

فلم يجب جيوم بل قال :

— ثلاث قطع من الحديد فيها ضمان أقوى من قطعة من الرصاص

ولكن ذلك يشوه الجلد

— إنما فيها الموت الزؤام

— ومتى تذهب للعمل ؟

— غداً تعلم

— مرة أخرى ... ألا توافق ؟

— كلا

— أنذرك بأنى سأقتفى أثره

— هذا لا يضيرنى

— لنا سوياً ؟ ... قل !

— كل لنفسه !

(١) الجائزة : فى بعض البلاد تعطى الحكومة جائزة لمن يقتل حيوانا ضاراً

— إلى اللقاء يا جيوم

— أتمنى لك أسعد الظروف

فانصرف الجار وهو يرى جيوم يحشو غدارته بالبارود وقطع الحديد

وفى المساء وهو مار بالمنزل رأى جيوم جالساً على أحد المقاعد بالقرب من الباب وهو يدخن غليونه بهدوء . فذهب إليه ثانية وقال :

— لست آسفاً ولا مكتئباً . لقد وجدت آثار ذلك الحيوان فلم أعد فى حاجة إليك مطلقاً . ومع ذلك فقد جئت أعرض عليك أن يكون لنا سوياً

فقال جيوم بلهجة المصمم :

— كل لنفسه !

لم يستطع فرنسوا أن يعلم ماذا فعل جيوم بعد ذلك فى تلك الليلة . ولكن امرأة هذا رأته فى الساعة العاشرة والنصف يحمل غدارته وقد طوى تحت إبطه كيساً رمادياً ، ولكنها لم تجرؤ أن تسأله إلى أين يذهب لأنه كان من الرجال الذين لا يفضون إلى نسائهم بشىء .

وأما فرنسوا من جهته فقد عثر حقيقة على الأثر الذى انتهى به إلى حديقة جيوم ، ولما لم يكن له حق فى أن يكمن على إحدى أشجار الحديقة فقد أخذ مكانه فى غابة تقع بين منتصف سفح الجبل وحديقة جيوم .

ولما كانت الليلة قمرية فقد رأى فرنسوا جيوم وهو يخرج من بابه الخلفى ، ثم تقدم حتى إحدى الصخور الرمادية التى تدحرجت من الجبل وكانت تبعد عن شجرة الكمثرى عشرين خطوة ، ثم وقف

وأدار طرفه ليرى ما إذا كان هناك من يراه ، ثم تناول الكيس ووقف بداخله بحيث لم يدع من جسمه خارجه إلا رأسه وذراعيه . وارتكز على الصخر فأصبح من غير المستطاع تمييزه عنه نظراً لاتحاد لون الصخر والكيس وثبات جيوم فى موضعه .

مر من الساعة ربعها فى انتظار الدب وأخيراً أعلن مجيئه زئير متتابع وبعد خمس دقائق رآه فرنسوا

لم يأخذ ذلك الحيوان طريقه العادى الذى سلكه بالأمس إما لدهائه وإما لأنه أحس بالصياد الآخر . وبدلاً من أن يأتى عن شمال جيوم ارتسم لنفسه طريقاً منحنياً وأتى من عن يمينه بحيث لا يمكن أن يصل إليه سلاح فرنسوا؛ ولكن على بعد خطوات من غدارة جيوم الذى ظل ساكناً حتى ليظن بأنه لم ير ذلك الحيوان وهو يمر قريباً منه كأنما يتحداه. ويظهر أن الدب لم يشعر بعدوه إذ أن الريح كانت متجهة منه إليه ولذا استمر فى طريقه نحو الشجرة

ولم يكد يرتكز على رجليه الخلفيتين وقد حوط بهما الأماميتين ودفع بصدره إلى الأمام استعداداً للقفز حتى دوي فى الوادى صوت هائل وسرى فى الفضاء بارق من نار أعقبه أنين جرح مميت

إنقلب الدب راجعاً ماراً على بعد خطوات من جيوم دون أن يراه فقد أدخل ذراعيه ورأسه فى الكيس فاستتر فى الصخر من جديد

كان هذا المنظر على مرأى من الجار الذى ركع على ركبتيه ويده اليسرى ، قابضاً باليمنى على غدارته وقد اصفر لونه وهو يكتم أنفاسه وتمنى فى ذلك الوقت لو كان نائماً فى سريره بعيداً عن هذا الموقف

كانت مفاجأة سيئة لفرنسوا حين رأى الدب الجريح بعد أن دار دورة طويلة قد أخذ سبيله عن يمينه حتى أسلم نفسه لبارئه ، وتحقق من غدارته ليتأكد أنها محشوة . كان الدب على بعد خمسين خطوة يئن من الألم ويقف ليدور برأسه فيعض على موضع الجرح ثم يتابع السير حتى صار على بعد ثلاثين خطوة

ولكنه وقف فجأة وتنسم الريح التى تأتى من جهة القرية وزأر زئيراً مرعباً ثم قفز داخل البستان

— خذ حذرك يا جيوم ! احترس ! !

تفوه بها فرنسوا وهو يتبع الدب وقد نسى كل شىء إلا صديقه لأنه اعتقد تماماً أنه لن ينجو من الدب إذا لم يكن قد استطاع أن يحشو غدارته من جديد ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى سمع صرخة ولكنها كانت صرخة آدمية ، صرخة رعب ، بل صرخة النزع الأخير . ثم تلتها صرخة استجمع فيها صاحبها كل ما بقى فيه من قوة ومن رجاء فى الله :

«أدركونى !» لم يعقب ذلك أى صوت ولا تأوه

لم ينكص فرنسوا على عقبيه بل تقدم حتى اقترب من مصدر الصوت فتبين له بوضوح ذلك الحيوان الهائل منكباً على جيوم يمزقه بمخالبه

كان فرنسوا على بعد أربع خطوات منهما ولكن الدب كان ثائراً على عدوه لدرجة أنه لم يكترث لغيره . لم يجرؤ فرنسوا أن يطلق غدارته خوف أن تقتل جيوم إن كان لم يزل حياً . فالتقط حجراً وقذف به الدب

فالتفت الدب نحو عدوه الجديد . لقد كانا متقاربين جداً حتى أن الدب انحنى إلى الوراء استعداداً للمهاجمة ؛ ولكن بحركة آلية ضغط فرنسوا على الزناد فخرج الطلق النارى وانقلب الدب على ظهره لأن الرصاصة قد اخترقت صدره وكسرت عموده الفقرى

تركه فرنسوا يتخبط فى دمائه وأسرع إلى جيوم فلم يجده بشراً ولا جثة بل وجده عظاماً ولحماً ممزقاً قد التهم الدب رأسه بأكمله تقريباً

رأى فرنسوا الأنوار تتحرك وراء النوافذ فعلم أن كثيراً من فلاحى القرية قد استيقظوا فأخذ ينادى ويستغيث ويحدد المكان الذى هو فيه .

نخف إليه بعض الفلاحين بأسلحتهم وما لبثت القرية أن تجمعت بتمامها فى حديقة جيوم ، وكانت امرأته من بين الحاضرين .

وقد كان المنظر رهيباً مرعباً إذ أخذ كل الحاضرين يبكون كالأطفال .

اكتتب أهالى المنطقة بأكملها لأرملة جيوم بمبلغ سبعمائة فرنك ، وتنازل لها فرنسوا عن الجائزة وباع لحسابها جلد الدب ولحمه .

وأخيراً اقتنع الجميع بوجوب التعاون والتآزر !

عبده عبد المنعم مراد

الجندى الصغير

للكاتب الفرنسى جى دى موباسان
بقلم الأديب السيد محمد العزاوى

كان إذا ما فرغ الجنديان الشابان من عملهما يوم الأحد انطلقا فى سبيلهما ...

فكانا يعرّجان إلى يمين ، من بعد الثكنات ، فيركضان خلال « كوبفوا » فكأنهما مسرعان إلى تمرين . فإذا ما خلفا البناء وراءهما ترفقا فى السير ، ناهجين تلك الطريق الغبراء العارية التى تفضى إلى « بيزونس »

كانا نحيفين قصيرى القامة ، يدخلان فى سترات طويلة مترهلة ، تغطى أكمامها أيديهما ؛ ويقلقهما طول السراويل الحمراء، فيضطرهما أن يشدا أرجلهما جهد المستطاع فى كل خطو سريع . ثم لا يكاد المرء يستبين تحت قبعتيهما من وجهيهما شيئاً . فإن أفلح فثم وجهان من وجوه آل بريتانيا غائرا الخدود ، ناتئا العظام ، ركبت بأعلاها عينان تنمان عن دعة النفس وطهارة القلب ، وبراءة الطوية

كانا قليلاً ما يتحادثان أثناء السير ، بل يمضيان قدماً تشغل ذهنيهما معاً فكرة واحدة حلت منهما محل الحديث . إذ قد اكتشفا موضعاً من الأرض على كثب من غابة « لى شامبيوز » الصغيرة ، تذكرهما بإقليمهما الذى درجا منه وترعرعا فيه فهما لا يشعران بلذة الراحة إلا فى أعطاف ذلك الموضع وبين ربوعه

وكنت تراهما دائماً يحسران قبعتيهما الثقيلتين عن رأسيهما وينفضان العرق عن حواجبهما إذا ما الشجر الوارف أظلهما عند مفترق الطرق المفضية إلى كولومبس وشاتو

وكانا يتلبثان على جسر بيزونس دقيقتين أو ثلاثاً يطالعان منه « السين » ، مرتفقين سياج الجسر أو يحدقان فى مجرى « أرجنتوى » العظيم ، حيث تلوح الزوارق الجميلة بأجنحتها البيضاء ، وتدلف أمامهما خفافاً سراعاً . فلربما استعادا من ذكريات بحر « بريتانيا » وثغر « فانس » القريب إلى الوطن وادكرا صيد السمك فى عرض « موربيهان » إلى البحر الفسيح ، وبعد أن يجوزا نهر السين يمضيان ليبتاعا قوت يومهما . وكان لا يتجاوز قطعة من فخذ الخنزير يشتريانها بأربعة دوانق ، ثم ما يكفى ذاك الإدام من نبيذ وخبز يضعانه فى منديليهما ، حتى إذا ما ابتعدا رق الخطو وبدأ الحديث

وهناك كان يمتد بظاهر القرية سهل ما حل غير ذى ذرع ، تتناثر هنا وهناك منه أدغال تفضى إلى غابة صغيرة تشبه أختاً لها فى « كارماريفان » . فإذا ما تقدم بهما السير حف بطريقهما نبات القمح والقرطم ، ثم يختفى النباتان فى خضرة ما ينبت فى المرج الفسيح ، وإذ ذاك يقول «جان كردرن» لصاحبه : « لوك لى جانيدك » : « إن ذلك ليشبه « بلونيفون » تماماً »

— نعم ، إنه ليشبهها تماماً

ثم يسيران جنباً إلى جنب ، تهب على ذهنيهما المشوقين ذكريات الوطن المبهمة ، ويملأ نفسيهما الظامئتين تصاوير صافية واضحة كتلك التي تبتاعها من السوق بدانق . . . لكأنى بهما يصوران مزقة من حقل ، وسياجاً ، وكديداً حزوناً لم يشقها محراث ؛ يكتنفها جميعاً مفترق طرق وصليب من الجرانيت

وكثيراً ما تريثا لدى حجر فاصل بين حقلين يتأملانه ، ففيه شبه قوى بحجارة « الكنيفان »

وكان « لوك لى جانيدك » يقتطع لنفسه عسلوجاً من عساليج البندق اللدنة ، إذا ما وصل إلى أقرب الأدغال إليه ، ثم يشرع فى نزع لحائه فى هينة وشرود، مفكراً فى فلاحى الوطن ؛ بينا « كردرن » يحمل الطعام

ولربما ينطق « لوك » باسم من حين لآخر ، أو يشير إلى حادث من الصبا فى كلمات قلائل كانت تكفى لأن تغرقهما فى تأمل عميق ، وحينذاك يمتلك مشاعرهما ذكر الوطن العزيز البعيد ؛ فيطغى حتى يجنهما فى أحشائه فيرسل إليهما الوطن خلال المرج أصواته المألوفة ، وأرياحه المعروفة ، ومناظره الحبيبة . ويملأ عليهم الجو بريحه المضمخ الساحر ، رائحة المروج الخضر يحملها نسيم البحر . فلم يعد أحد من الصديقين يشم بعد رائحة السماد التى تفوح من أرض الضواحى بل ينشق ريح الوطن المزهر يخالط ملوحة البحر فى نسيم المحيط وتلك الأجنحة الرشيقة التى كانت تلوح فى البحر خلال المرج الفسيح ! لقد كانا يحسبانها أجنحة لزوارق تتهادى على صدر المحيط لتتصيد . فتتراءى خلال المروج المنبسطة فى ساحل الوطن العزيز

وحينئذ يسير « لوك » وزميله « جان » على مهل وهدوء . يهتك صدريهما سعادة وحزن ، تجنهما كآبة بالغة وحزن نفاذ كذلك الذى يمتور حيواناً سجيناً لدى الذكرى

وإذ يفرغ « لوك » من أمر العسلوج يكونان قد شارفا ركن الغابة الذى يفطران فيه كل يوم أحد. وهناك يجدان لبنتين خبآهما تحت عشب جاف فى المرة السابقة ، فيوقدان ناراً صغيرة ويشويان اللحم على طرف « السنجة » الرفيع

فبعد أن يملآ بطنيهما ويأتيا على خبزهما وخمرهما يضطجعان جنباً إلى جنب ، ويرسلان الطرف يجوب الأفق البعيد . . . لا يتحادثان بل يداعبان الكرى نصباً ، بينما تمتد أرجلهما الحمراء فى وهن وتراخ ، ويلمع جلد قبعتيهما وأزرار سترتيهما النحاسية فى وهج الشمس الحامية فتخطف أبصار البلابل الحائمة حولها .

وتبدأ عيناهما — عند الظهر — تدوران فى محاجرها صوب قرية « بزونس » فقد كان موعد تلك الفتاة التى ترعى بقرتها . فقد كانت تمر بهما كل أحد فى طريقها إلى الحظيرة كيما تحلب البقرة الوحيدة التى ترعى الكلأ والأعشاب ... فى حقل ضيق قريب من الغاب

وسرعان ما يبصران بتلك الروح البشرية الوحيدة فى هذا المكان، فيثلج صدريهما مرأى الدلو التى تحمل، إذ تمكس عليه الشمس أشعتها الحامية . . ولم يتحادثا فى شأنها مرة فقد كان السرور يغمز قلبيهما الفتيين حين مرآها ، ولا يدرى أحدهما لماذا . .

كانت ممشوقة القد ... قوية البنية ... حمراء الشعر . . . قد لوحتها شمس الأيام الصائفة . . .

فتاة صريحة من أرباض باريس

فني ذات أحد قالت لهما حين رأتهما يجلسان في نفس المكان :

— طاب يومكما ! هل تأتيان إلى هنا دائماً ؟

وكان «لوك لي جانيدك» أجرأ من زميله فقال: « نعم ، إنا ننشد الراحة هنا »

كان هذا كل ما حدث . ولكنها حين رأتهما في الأحد التالي ضحكت ضحك فتاة طيبة تستريح إلى خجلهما ثم قالت « ماذا تفعلان ؟ أفترقبان العشب ينمو ؟ ! »

فابتسم لوك بروح غريب وقال : « ربما »

فقالت : حسن ! إنه لا ينمو سريعاً !

فأجاب وهو لا يزال يضحك « إنه لكذلك ! »

ومضت ، ولكنها حين عادت تحمل قعب اللبن تلبثت أمامهما برهة وقالت :

— ألا ترغبان في جرعة ؟ لسوف تذكركما بالوطن ...

حقاً لقد أصابت، وذلك بغريزة إنسانةمن نفس جنسهما ، ربما كانت نازحة مثلهما عن الوطن . لقد حدست فأصابت، فوضعت إصبعها على الجرح الدامي. وتحرك الرجلان في وقت معاً ، فصبت قليلاً من اللبن في زجاجة النبيذ بغير جهد أو عناء . وشرب «لوك» أولاً في رشفات قصار ، وكان ينظر الزجاجة كل رشفة خشية أن يجور على حظ الزميل ، ثم ناول الزجاجة جان . وظلت واقفة أمامهما واضعة يديها على فخذيها ، ودلوها عند قدميها ، مسرورة لما قدمت لهما من غبطة وسرور . وأخيراً مضت في سبيلها وهي تقول :

— طاب يومكما ، وإلى اللقاء في الأحد المقبل

فنظرا قواماً طويلاً ، ورأساً جميلاً يبتعد عنهما رويداً رويداً حتى اختفى في خضرة زاهية ...

وحينما غادرا الثكنات في الأحد التالي قال جان: « هلا اشترينا لها شيئاً جميلاً يعجبها ؟ » وأخذتهما حيرة شديدة فيما يشتريان . أي شيء يجمل بهما أن يشترياه لفتاة المرعى ؟ لقد فضل « لوك » بعضاً من لحم الخنزير ، ولكن جان فضل «الحلوى» لأنه كان مغرماً بها. وقد نفذت فكرته فاشتريا بدانقين حلواء حمراء وأخرى بيضاء .

أفطرا اليوم في سرعة، مأخوذين بحس غريب. ورآها جان أولاً فصاح « ها هي ذي قادمة ! »

— نعم ها هي ذي قادمة !

وضحكت من بعيد حين رأتهما، ثم صاحت بهما: « كيف حال كل شيء لديكما ؟ »

فأجابا في صوت معاً « وكيف الحال لديك ؟ »

وطفقت تتحدث ... تتحدث عن أشياء تافهة يطيب لهما السماع إليها ... عن الجو والمحصول ، ثم عن عمالها ...

وقد خجلا أن يهباها حلواها ، بينما الحلوى تذوب في جيب جان . واستجمع «لوك» شجاعة وقال:

— لقد ابتعنا شيئاً .

— ما هو ؟

فأخرج جان من جيبه ورقة مفضضة لامعة ، وتضرج وجهه بحمرة الحياء والخجل . وشرعت تأكل قطع الحلوى ، فتلوكها في شدقيها . فتحدث القطع الصغيرة نتوءاً رشيقاً. وسر الجنديان الجالسان أمامها يتأملانها . بينما تتجاوب في قلبيهما مشاعر جمة .

وراحت لتحلب بقرتها ؛ فلما أن عادت أعطت كلاً منهما قسطه من اللبن .

ولقد فكرا فى أمرها أثناء الأسبوع كثيراً ، وتحدثا عنها مراراً ؛ وفى الأحد التالى جلست إليهما لحظة لتحدثهما حديثاً أطول وأمتع . وجلس ثلاثتهم جنباً إلى جنب يتذاكر كل أحاديث الصبا فيستعيد ذكرياته الجميلة محتجزاً ركبتيه بين يديه ، مسرحاً طرفه فى المرج الفسيح ، متحدثاً عن قريته التى درج منها . . . وكانت البقرة ترتعى العشب بعيداً ، فلما رأت صاحبتها تبطىء فى القدوم رفعت رأسها الضخم — بمنخاريه اللزجين — ثم جأرت بصوتها تدعوها .

وسرعان ما قبلت الفتاة دعوتهما إلى بعض الطعام وبعض النبيذ . وكثيراً ما كانت تحمل لهما الخوخ فى جعابها فقد كان الموسم موسم الخوخ والبرقوق وكان وجودها ينعش روحى الجنديين البريتانيين . فكانا يثرثران كما يغنم زوج من الطيور

وفى يوم من أيام الثلاثاء طلب «لوك لى جانيدك» إذناً بالتغيب ، وهذا أمر لم يأته من قبل . ثم عاد للشكنة فى العاشرة مساء . . . وأقلق هذا العمل بال جان . وحاول أن يرتئى سبباً لغياب صديقه

وطلب « لوك لى جانيدك » إذناً آخر ببضع ساعات من يوم الجمعة التالى بعد أن اقترض عشرة دوانق من زميل له فى عنبر النوم .

وحينما انطلقا إلى مكانهما المختار فى يوم الأحد كان سلوك « لوك » غريباً إلى حد بعيد ، فهو قلق مأخوذ .

ولم يكن جان ليفهم من الأمر شيئاً ، ولكن كان يحس بحدث قادم ، وإن لم يستطع تحديده تماماً ... ولم يتحادثا طوال الطريق ، ولاحين جلسا فى مكانهما الذى أبادا عشبه من الجلوس . وطفقا يفطران فى بطء شديد فقد كان كلاهما لا يحس الجوع ولا يجد العطش .

وأشرقت عليهما الفتاة ، فظلا يرقبانها ، وهى تتقدم نحوهما ، كدأبهما كل أحد . ولما أن دانتهما قفز « لوك » ليلقاها . وأسرع نحوها فوضعت قعبها على العشب ثم عانقته وطفقت تلثمه فى حرارة ولهفة ، متجاهلة جان . إنها لم تره بل لم تشعر بوجوده معهما ... وهناك جلس جان التعس مذهولاً أيما ذهول . . . ذهل حتى لم يعد يستطيع إدراك ما يرى . فقد دار برأسه إعصار ، وانفجر فى قلبه شريان ، ولكنه مع ذلك لم يك يفهم ما يرى ... والآن جلست الفتاة إلى « لوك » وطفقا يتحادثان ولم ينظر إليهما جان . فقد استطاع أن يفهم لم تغيب صديقه مرتين فى الأسبوع المنصرم . وكان يستشعر لذلك ألم الجرح الدامى ، وكأن بضلوعه جرحاً بليغاً ، وإن نصل الخيانة يقطّع ألياف قلبه الدقيق

وقام لوك وفتاته كى ينقلا البقرة إلى مكان نضير وأتبعهما جان بصره فرآهما يسيران جنباً إلى جنب ، وكانت سراويل زميله الحمراء أوضح ما فى الطريق . وكان « لوك » هو الذى تناول المطرقة فدق الوتد فى شقة أخرى من الأرض المعشبة ... وانحنت الفتاة تحلب بقرتها ، بينما لوك يربت على ظهر البقرة الأملس بيد متلطفة حانية . وتركا القعب واتجها صوب الغاب . ولم ير جان من بعد دخولهما الغاب إلا حائطاً عظيماً من ورق الشجر وسوقها قد قام بينه وبينهما سداً منيعاً . وأحس جان بالاضطراب يحتويه فى أحشائه . فلو أنه رام القيام لانبطح على الأرض لا يستطيع حراكاً . والآن يجلس معتدلاً تثبته الدهشة ، وتذهله الحيرة ... حقاً لقد كان مضطرباً

حائراً محزوناً . وكان يود البكاء بل الفرار . بل ود لو احتجب عن الأنظار فلا يرى بعد ذلك من الإنس أحداً

ثم رآهما فجاءة يخرجان من الغاب فيمشيان وئيداً وقد ارتفق كل منهما ذراع صاحبه كما يفعل خطيبا القرى . وقد كان « لوك » يحمل القعب فى يده الأخرى . وتعانقا ثانيةً وتلاثما ، ثم انطلقت إلى سبيلها بعد أن ودعته «بطاب ليلك» ونظرت نحو «جان» نظرة ذات معنى . ولم تفكر اليوم أن تهب جان قسطه من اللبن

وجلس الجنديان على كثب مرة أخرى صامتين سامدين ؛ لا يشف محياهما عما يعتلج فى فؤاديهما من مشاعر ، وما يدوّى من فِكَر . كل ذلك والشمس ترسل عليهما شواظاً من نارٍ موقدة . والبقرة تنظر إليهما فتجأر بصوتها من مرعاها البعيد. وفى موعدهما المألوف قاما ليرجعا …

واختطف « لوك » عسلوجاً آخر من عساليج البندق ، وطفق ينضو عنه قشره . بينما حمل جان زجاجة النبيذ ، وتركها عند الخمار فى « بيزونس » ثم عبرا الجسر ووقفا فى المنتصف يرقبان الماء بضع لحظات كدأبهما كل أحد . وانحنى جان على السياج الحديدى رويداً … وانحنى … وانحنى … كأنما رأى فى النهر ما جذب انتباهه . فسأله « لوك » :

— أفتنتوى الشرب من هذا الماء ؟

ولكن لم ينته من قوله حتى جذب جان رأسُه. فرسمت ساقاه فى الهواء دائرة . وهوى الجندى الصغير فى الماء كتلةً من الصخر ، وغاب

وأراد « لوك » أن يصيح ، ولكن حنجرته لم تطاوعه ، فكأنما شلت ، ورأى عن بعد شيئاً يختلج ويضطرب . ثم انحسر الماء عن رأس صاحبه ولكنه غار فى لحظة . وبصر هناك بيد واحدة تندفع إلى السطح ثم تختفى … وحدق ولم يبصر بعد ذلك شيئاً

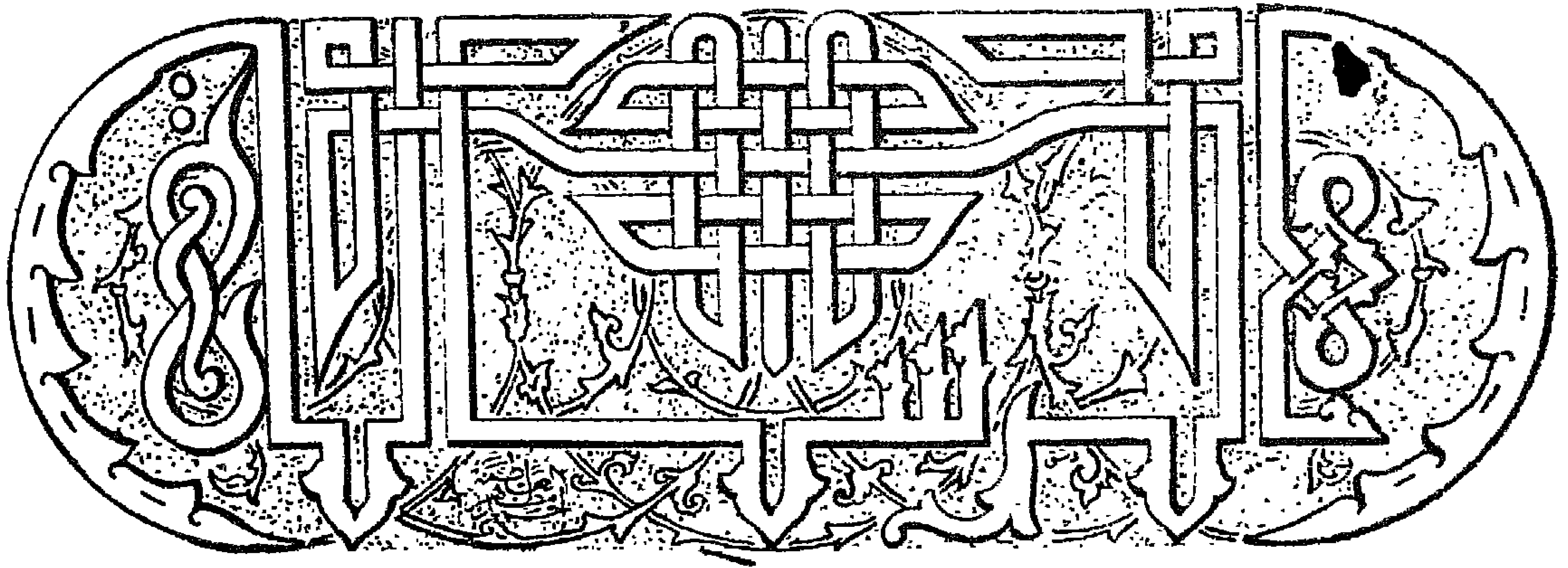
ولم يعثر الملاح الذى أسرع إلى المكان بالجثة فى ذلك اليوم ، وعاد « لوك » إلى الثكنة وحده يعدو كمن به مس من خبال . وقص الحادث بدمع واكفٍ وصوت مرتجف :

— لقد انحنى إلى الأمام ... انحنى...انحنى... كثيراً جداً ... جداً ... جداً ... حتى … حتى جذبه رأسه ... ف ... ف ... فهوى …

ولم يقدر على أن يفصح أكثر من هذا فقد خنقه البكاء … آه ! لو كان يعرف !

السيد محمد العزاوى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

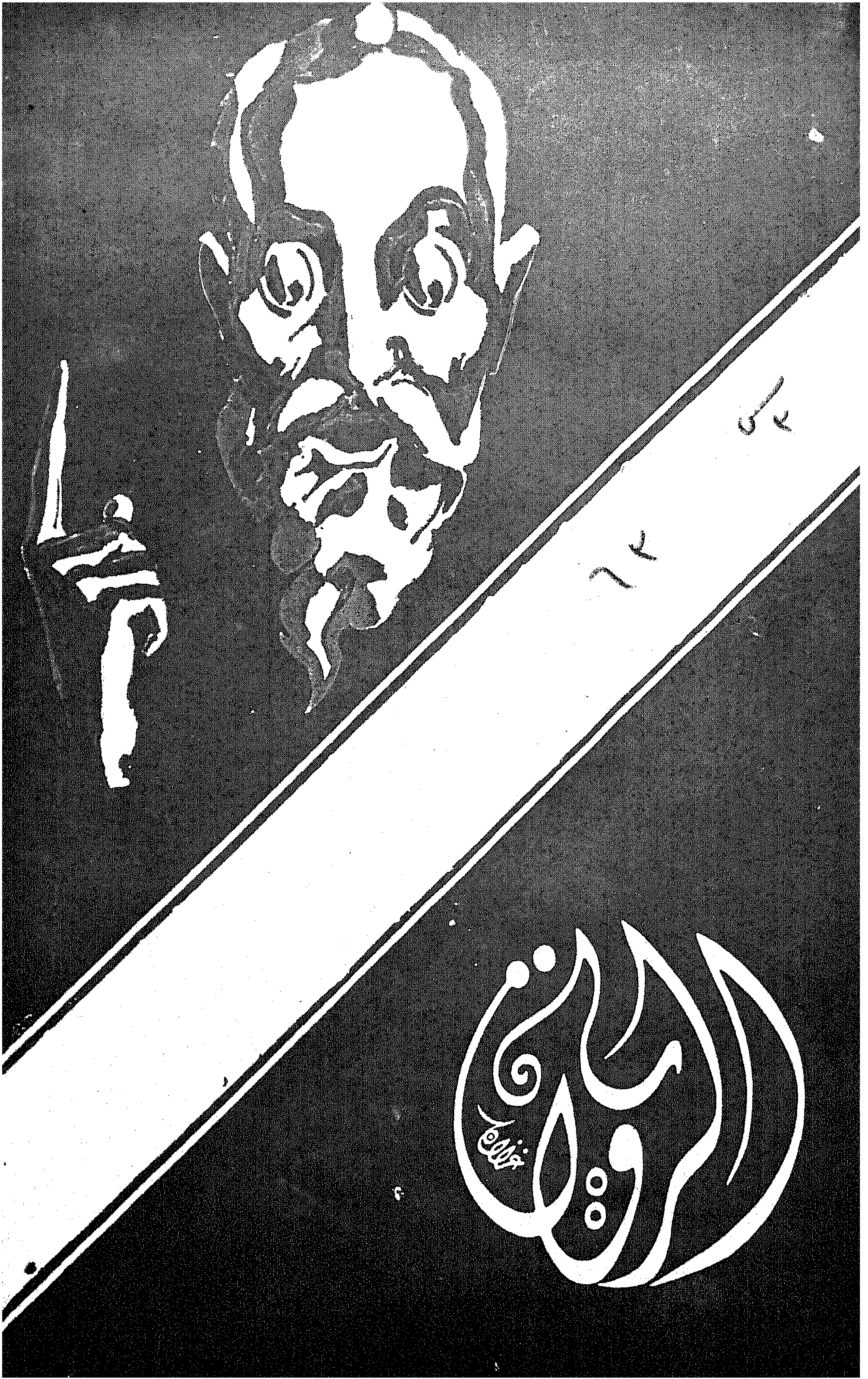
الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦٣ — ١٧ رجب سنة ١٣٥٨ — أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد

الرهان

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف
بقلم الأستاذ سعد حسين سعد

فى إحدى ليالى الخريف المظلمة كان المول العجوز يذرع حجرة مكتبه من ركن إلى آخر ، وهو يستعيد فى ذهنه ذكرى المأدبة التى أقامها فى الخريف لخمسة عشر عاماً خلت . كانت المأدبة تضم كثيراً من نوابغ القوم تدور بينهم أحاديث ممتعة شتى . ومال بهم الحديث إلى الكلام عن عقوبة الإعدام ، فلم يقرها أكثر الضيفان ، وكان بينهم غير قليل من الأدباء والصحافيين ، واعتدوها عقوبة باطلة همجية لا تليق بدولة مسيحية . ورأى بعضهم أن هذه العقوبة يجب إبدالها فى جميع أنحاء العالم بالسجن المؤبد .

فقال المضيف : « أنا أخالفكم فى هذا الرأى . ولو أنه لم يسبق أن حكم علىّ بالإعدام أو بالسجن المؤبد ، فنى اعتقادى أن عقوبة الإعدام أرق وأرحم من السجن . فالإعدام يقتل فوراً ، أما السجن المؤبد فيقتل تدريجياً . فأى الجلادين أرحم : الذى يقتل فى ثوان معدودة ، أم الذى يستل الحياة على الدوام فى عدة سنين ؟ »

فأجاب أحد الضيفان : « كلاهما متوحش ، لأن غرضهما واحد وهو انتزاع الحياة . إن الدولة ليست الله . وليس لها الحق فى انتزاع مالا يمكنها استرداده عندما تشاء »

وكان فى الرفقة محام شاب يناهز الخامسة والعشرين ، فلما سئل رأيه قال : « الإعدام والسجن المؤبد كلاهما عمل همجى . لكن إذا خيرت بين أحدهما فلا شك أنى أختار الثانى . فلأن تعيش على وجه ما خير من ألا تعيش قط »

ثم احتدمت المناقشة ، وكان المول يومئذ أصغر سناً وأحد مزاجاً ، فخرج عن طوره فجأة وجعل يضرب المنضدة فى عنف بقبضة يده ثم اتجه للمحامى الشاب صائحاً : « أنت تكذب . وإنى أراهنك بمليونين إن استطعت أن تلزم حبساً ولو لمدة خمسة أعوام »

فأجاب المحامى : « إذا كنت جاداً فيما تقول فإنى أراهن أن أمكث فيه لا أعواماً فقط ، ولكن خمسة عشر عاماً »

فصاح المول : « خمسة عشر ! فليكن ! أيها السادة إنى أراهن بمليونين »

فقال المحامى : « موافق . أنت تراهن بمليونين وأنا أراهن بحريتى »

وهكذا جرى هذا الرهان الوحشى المضحك . واستطير المول فرحاً ، إذ كان فى ذاك الوقت يملك ملايين كثيرة ، وكان متلافاً ذا بدوات وأهواء .

قال للمحامى أثناء العشاء مازحاً : « تدبر الأمر ملياً أيها الشاب قبل فوات الوقت . إن مليونين لا قيمة لها عندى ، ولكنك ستخسر ثلاثة أو أربعة

أعوام من أحسن سنى عمرك . أقول ثلاثة أو أربعة أعوام لأنك لن تستطيع الاحتيال على نفسك أكثر من ذلك . ولا تنس ـ أيها التعس ـ أن السجن الاختيارى أبهظ على النفس من الإجبارى ، لأن الاعتقاد بأنك فى حل من إخلاء نفسك فى أى وقت يسمم كل حياتك فى المحبس . إنى أرثى لك »

تذكر المول كل هذا وهو يروح ويجىء من ركن إلى آخر ثم تساءل : « لم أجريت هذا الرهان ؟ ما الفائدة ؟ المحامى يضيع خمسة عشر عاماً من حياته وأنا ألقى بمليونين سدى ... هل هذا سيقنع الناس أن عقوبة الإعدام شر أو خير من السجن مدى الحياة ؟ كلا . كلا ! كله عبث وهراء ، كان من جانبى هوى رجل أبشمه الثراء ، ومن جانب المحامى شدة شراهة للذهب »

وتذكر غير ذلك مما حدث بعد المأدبة . فقد تقرر أن يمضى المحامى مدة السجن تحت أدق مراقبة فى جناح من حديقة منزل المول . واتفق أن يحرم على المحامى طيلة المدة ، عبور العتبة ، ورؤية الناس الأحياء ، وسماع الأصوات البشرية ، واستلام الرسائل والصحف . وسمح له باقتناء آلة موسيقية ، وقراءة الكتب ، وكتابة الرسائل ، وشرب النبيذ ، وتدخين التبغ . وتيسر له حسب الاتفاق أن يتصل بالعالم الخارجى ، فى صمت فقط ، خلال نافذة صغيرة أنشئت لهذا الغرض ، كما تسنى له الحصول على كل ما يلزمه من كتب وقطع موسيقية ونبيذ بأى قدر كان ، وذلك بإرسال مذكرة من النافذة . وألم الاتفاق بكافة التفاصيل الدقيقة التى جعلت المحبس فى منتهى العزلة والانقطاع وألزمت المحامى أن يمكث خمس عشرة سنة كاملة من الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٠ إلى الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥ ، حتى إذا ما قام بأدنى محاولة لنقض الشروط أو الهرب ولو قبل انتهاء المدة بدقيقتين فقط ، فإنها تعفى المول من دفع المليونين

فى غضون السنة الأولى من الحبس قاسى المحامى — حسب ما أمكن معرفته من مذكراته القصيرة — أهول عذاب من الوحدة والسأم ، وكان يصدر صوت البيانو من جناحه نهاراً وليلاً ، وأقلع عن التبغ والنبيذ ، فقد كتب : « إن النبيذ يثير الشهوات ، والشهوات ألد أعداء السجين . وفوق ذلك فليس هناك ما يضجر أكثر من شرب النبيذ الجيد على انفراد » كما كان التبغ يفسد هواء حجرته. وأرسلت إليه فى السنة الأولى كتب خفيفة سهلة الهضم كالروايات الغرامية وقصص الجرائم والخيال والهازل وما إليها

وفى السنة الثانية لم يعد يسمع البيانو ، ولم يطلب المحامى سوى كتب الآداب الرفيعة . وفى السنة الخامسة سمعت الموسيقى ثانية وطلب السجين نبيذاً. وقال الذين يراقبونه : إنه طيلة هذا العام لم يكن يعمل إلا أن يأكل ويشرب ويرقد على الفراش . وكان غالباً يتثاءب ويكلم نفسه بغضب ، ولم يعد يقرأ الكتب ؛ وكان أحياناً يجلس فى الليل ليكتب . وقد يكتب زمناً طويلاً وفى الصباح يمزق كل ما كتب . وسمع أكثر من مرة وهو يبكى

وفى النصف الأخير من السنة السادسة ، شرع السجين يدرس بهمة اللغات والفلسفة والتاريخ ، وانكب على هذه المواضيع بنهم حتى أن المول لم يجد الوقت الكافى لتزويده بالكتب اللازمة . وفى مدى أربع سنوات اشترى له بناء

على طلبه زهاء ستمائة كتاب . وفى إبان هذا الحماس وصل المول من السجين الكتاب الآتى « سجانى العزيز ، أكتب إليك هذه السطور بست لغات . فاعرضها على الخبراء ليقرؤوها ؛ فإن لم يعثروا فيها على غلطة واحدة ، أرجو أن تصدر أوامرك بإطلاق بندقية فى الحديقة . وسأعرف على صوتها أن مجهوداتى لم تذهب هباء . إن العبقريات فى كل عصر ومصر تتكلم بألسنة مختلفة ، ولكنها جميعاً تتقد فيها شعلة واحدة . أوه ! ليتك تعلم كم أنا سعيد إذ أستطيع فهمها الآن ! »

وحققت رغبة السجين فقد أطلقت فى الحديقة طلقتان بأمر المول .

وبعد السنة العاشرة كان المحامى يجلس دون حراك إلى المنضدة ، ولا يقرأ سوى الإنجيل . واستغرب المول من الرجل أن يقرأ فى أربع سنوات ستمائة مجلد فى كافة العلوم والمعارف ، ويسلخ قرابة عام فى قراءة كتاب واحد سهل الفهم صغير الحجم . ثم خلف الإنجيل بعد ذلك كتب فى اللاهوت ، وتاريخ الأديان .

وفى خلال السنتين الأخيرتين من الحبس كان السجين يقرأ خليطاً عجيباً حسبما اتفق . فتارة ينقطع للعلوم الطبيعية ، وطوراً يقرأ بيرون وشا كسبير ، وفى نفس الوقت كانت ترد منه مذكرات يطلب فيها إما كتاباً فى الكيمياء أو كتاباً فى الطب ، أو رواية ، أو رسالة فى الفلسفة أو اللاهوت . كان يقرأ كأنه يسبح فى بحر بين حطام سفينة غريقة وهو يتعلق بقطعة بعد أخرى محاولاً إنقاذ حياته .

تذكر المول كل هذا ثم قال فى نفسه : « غداً فى الساعة الثانية عشر ليلاً يسترد حريته ، وسألزم بدفع مليونين له تنفيذاً للاتفاق . فإذا دفعت فعلى العفاء . سيقضى علىّ إلى النهاية ... »

منذ خمسة عشر عاماً مضت كان لديه ملايين لا عداد لها ، أما الآن فهو يخشى أن يسأل نفسه أيهما أكثر: نقوده أم ديونه؟ فإن المغامرات فى سوق الأوراق المالية ، والمضاربات المجازفة والتهور الذى لازمه حتى بعد تقدمه فى السن ، كل أولئك سارت بأعماله فى طريق الانحلال والتدهور ، ولم يعد رجل الأعمال الأمين الواثق بنفسه ، المتشامخ ، سوى ممول عادى يرتجف لأى صعود أو هبوط فى السوق

غمغم الرجل العجوز وهو يمسك برأسه فى قنوط: « تباً لهذا الرهان اللعين ، لماذا لم يمت هذا الرجل ؟ إنه لم يزل فى الأربعين من عمره ، وسوف يستولى على آخر دانق أملكه ، فيتزوج وينعم بالحياة ويقامر فى السوق وسأرمقه بنظرة الشحاذ الحسود وأسمع منه نفس هذه الكلمات كل يوم « وأنا مدين لك بسعادة حياتى . دعنى أساعدك . » كلا ، هذا كثير للغاية ! الوسيلة الوحيدة للتخلص من الإفلاس والعار ــ هى أن يموت هذا الرجل .

وكانت الساعة وقتئذ قد دقت الثالثة صباحاً ، والمول يرهف السمع وقد نام جميع من فى المنزل ، ولم يكن يسمع سوى أنين الأشجار المتجمدة خارج النوافذ ...

أخذ من خزانته وهو يحاذر ألا يحدث صوتاً ، مفتاح ذلك الباب الذى لم يفتح منذ خمسة عشر عاماً

ثم تدثر بمعطفه وخرج من المنزل . كانت الحديقة حالكة الظلمة باردة ، والسماء تمطر ، والريح المخضلة تعوى بشدة ولا تدع الأشجار تقر على قرار . ورغماً من أنه أنعم النظر فلم يستطع أن يتبين لا الأرض ولا التماثيل البيضاء ولا جناح الحديقة ولا الأشجار. وعند ما اقترب من جناح الحديقة نادى الحارس مرتين فلم يتلق أى جواب ، فلا ريب أن الحارس قد لجأ إلى مأوى يعصمه من رداءة الطقس وأنه يغط الآن فى النوم فى مكان ما بالمطبخ أو بمكان آخر

ففكر الرجل العجوز : « إذا واتتنى الشجاعة لتحقيق نيتى فستحوم الشبهة حول الحارس أولاً »

وجعل يتحسس فى الظلام درجات السلم والباب حتى دخل بهو جناح الحديقة فأخذ يتلمس طريقه فى ممر ضيق ، ثم أشعل عود ثقاب . لم يكن هناك أحد ، وإنما كان هناك سرير عار من الأغطية وموقد من الحديد مظلم قائم فى أحد الأركان . وكانت الأختام المطبوعة على الباب الذى يؤدى لحجرة السجين غير مفضوضة

وحينما نفدت أعواد الثقاب تطلع الرجل العجوز خلال النافذة الصغيرة وهو يرعد من القلق

كانت فى حجرة السجين شمعة ترسل ضوءاً خافتاً وكان السجين نفسه جالساً إلى المنضدة لا يرى منه سوى ظهره وشعر رأسه ويديه ، وقد تناثرت كتب مفتوحة فوق المنضدة والمقعدين وعلى البساط القريب من المنضدة

مرت خمس دقائق لم يتحرك السجين خلالها قط فقد علمته الخمس عشرة سنة أن يجلس جلوس الجماد فطرق المول النافذة بأصبعه لكن السجين لم يبد أية حركة . وعندئذ فض المول أختام الباب فى حذر ثم أولج المفتاح فى القفل الصدئ فخرجت منه أنة مبحوحة وصر الباب . وفى الحال توقع المول أن يسمع صرخة فزع ووقع أقدام ، لكن مضت ثلاث دقائق والهدوء شامل الحجرة كما كان من قبل فعقد العزم على الدخول

أمام المنضدة جلس رجل لا يشابه الرجل البشرى العادى فى شىء . كان هيكلاً عظميا مشدود الإهاب ذا شعر طويل معقوص كشعر المرأة ، ولحية كثة . وكان لون بشرته شاحباً تعلوه غبرة ، وخداه غائرين ، وظهره مستطيلاً ضيقاً ، ويده التى أراح فوقها رأسه الشعراء من شدة الهزال والضمور بحيث يبعث منظرها الألم فى النفس ، أو شعره يلتمع فيه بياض المشيب . وكان من المستحيل أن يصدق من ينظر إلى نحافة الشيخوخة البادية على الوجه أن صاحبه لم يزل فى الأربعين من عمره ، وعلى المنضدة ، أمام رأسه المائل ، وضعت رقعة من الورق عليها كتابة بخط دقيق

قال المول فى نفسه « يا للشيطان المسكين . إنه نائم ولا يبعد أنه يحلم بالمليونين . ليس على إلا أن آخذ هذا المخلوق نصف الميت وألقى به على الفراش وأكتم أنفاسه لحظة بالوسادة ، ولن يستطيع أدق فحص بعد ذلك أن يستدل على أنه مات ميتة غير طبيعية . لكن لنقرأ أولاً ما كتبه ها هنا »

تناول المول الرقعة من على المنصدة وقرأ « غداً فى الثانية عشرة ليلاً سأسترد حريتى وحقى فى مخالطة الناس ، ولكن قبل أن أغادر هذه الحجرة وأشاهد الشمس أرى من اللازم أن أقول لك بضع كلمات : إنى أقر لك أمام ضميرى النقى وأمام الله الذى يرانى أنى أحتقر الحرية ، والحياة ، والصحة ، وجميع ما تدعوه كتبك نعم الدنيا

« أمضيت الخمسة عشر عاماً وأنا عاكف على دراسة الحياة الدنيوية . والواقع أننى لم أكن أعرف العالم ولا الناس ، ولكن فى كتبك نهلت سلافاً عطراً ، وشدوت الأغانى ، وصدت الظباء والوحوش فى الغاب ، وعشقت النساء ... وكانت توافينى ليلاً حسان كأنهن سحب أثيرية ، قد أبدعتهن عبقرية شعرائك ، فيهمسن إلىّ بقصص عجيبة تسكر رأسى . فى كتبك صعدت قمتى إلبروز ومونت بلان، ورأيت من ثمة مطلع الشمس فى الصباح ومغربها عند الأصيل وقد خضبت بأرجوان الذهب السماء والبحر ورؤوس الجبال . رأيت من ثمة البرق يخفق فوق ويشق الغمام ؛ رأيت آجاماً خضراء ، وحقولاً غناء ، ومدائن فيحاء ، وأنهاراً دافقة ، وبحيرات خافقة ؛ سمعت غناء الحوريات وترنيم رب الرعاة على المزمار ؛ لمست أجنحة الملائكة الجميلة التى أتتنى طائرة لتحدثنى عن الله ...

« فى كتبك ألقيت بنفسى فى هوات سحيقة، وأتيت بالمعجزات ، وأحرقت مدناً عن آخرها ، ودعوت إلى أديان جديدة ، وأخضعت أقطاراً بأكملها ...

«علمتنى كتبك الحكمة . إن عصارة كل ما أبدعه الفكر الإنسانى خلال الأجيال قد تجمعت فى جمجمتى . وأنا واثق تماماً أنى أكيس وأقدر منكم جميعاً

« بل وإنى أيضاً لأحتقر كتبك وأحتقر جميع النعم الدنيوية والحكمة . كل شىء باطل واهٍ وهمى خادع كالسراب . قد تكون متكبراً حكيماً جميلاً ، ومع ذلك يأتى الموت فيمحوك من على وجه الأرض كالحشرة ولا يبقى من ذريتك وماضيك وعباقرتك الخالدين إلا رماد يختلط بالأرض. أنت مجنون ضللت سواء السبل ، تحسب الزيف صدقاً والقبح حسناً. إنك لتعجب إن تدلت فجأة من الأشجار ضفادع وزواحف بدلاً من الثمار ، وإن فاحت من الورد رائحة حصان عرِق مكدود . وهكذا أعجب لك أنا أيضاً أنت الذى بعت الآخرة بالدنيا ، لست أريد أن أفهمك

«ولكى أريك فعلاً مبلغ ازدرائى ما تعيش به ، فإنى متنازل عن المليونين اللذين كنت أحلم بهما قديماً كما أحلم بالجنة ، فأصبحت أحتقرها الآن . ولكى أجرد نفسى من حقى فيهما، سأخرج من هنا قبل الموعد المتفق عليه بخمس دقائق وبهذا ينقض الاتفاق »

«فلما أتم الممول قراءة الرقعة وضعها على المنضدة وقبل رأس هذا الرجل الغريب ثم أجهش بالبكاء

خرج من الجناح ولم يشعر فى أى وقت مضى ، حتى عقب خسائره الشنيعة ، بمثل هذا الاحتقار لنفسه . فلما بلغ المنزل تهالك على فراشه ، غير أن اضطرابه ودموعه نفرت عنه النوم مدة طويلة .

وفى صباح اليوم التالى أقبل إليه الحارس يعدو فأخبره أن الرجل الذى يقيم بالجناح شوهد يتسلق النافذة ويهبط منها إلى الحديقة ، ثم ذهب من البوابة واختفى . فتوجه الممول لوقته إلى الجناح مع الخدم وأثبتوا فرار السجين . وتلافياً للتخرصات والإشاعات أخذوا ورقة التنازل من على المنضدة ، وعند عودته أغلق عليها خزانته .

سعد حسين سعد

الورقة المهلكة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

انتهى المطاف بالشمس إلى الأفق الغربى وقد شملها الهدوء والوجوم والأسى بعد أن ولى عنها تيه الفتوة وزهو الشباب . ومضى شعاعها الشاحب يوغل شرقاً مودعاً رمال الصحراء المتاخمة للعباسية موسماً وراءه للسمرة الزاحفة .

ولم يكن فى الطريق الذى يخترق الصحراء ــ فى تلك الساعة ــ سوى سيارة بيضاء صغيرة تسير على مهل ، كأن لا غاية لها سوى السير . ويسوقها شاب تدل نظرة عينيه المظلمتين على الملل وعدم الاكتراث .

وتقدمت السيارة فى الطريق حتى حاذت أبنية المصانع الجديدة التى تشغل مساحة واسعة من فضاء تلك الصحراء ، ثم وقفت أمام بناء صغير كتب على لوحة فى أعلى واجهته « مطعم وقهوة الزملاء » وكان البناء مكوناً من قسمين : واحد مسقف رصت به موائد الطعام الخشبية التى يتناول عليها الطعام عمال المصانع القريبة ، والآخر مكشوف معشوشب الأرض ، وضعت به الكراسى حول نافورة من ماء آسن أقيمت حولها عمد خشبية علقت برؤوسها الكلّبهات .

ألقى الشاب نظرة على البناء وقد لاحت فى عينيه الأحلام وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه المتلثتين ، وغادر السيارة . فبدت قامته الرشيقة وبذلته الأنيقة ، ودخل إلى القهوة ، واختار ركناً قصياً ، وكان المكان خالياً ساكناً ، لأنه لا تدب فيه الحياة عادة إلا بعد انصراف العمال فى المساء . فجلس يحتسى فنجاناً من القهوة ، والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها الإنكار والدهشة .

ولم تكن هذه أول مرة يهبط فيها إلى هذه القهوة التائهة فى الصحراء ، فقد زارها زيارة سعيدة لم تكن فى الحسبان منذ أمد غير قريب . وما دفعه إليها تلك المرة إلا الملل الراكد على نفسه التى شبعت من أهواء الدنيا وعانت من الفراغ مر العناء وتركته يتخبط حائراً ما بين الميادين والأزقة لا يهتدى إلى مستقر . وما عاج به إليها هذه المرة إلا ما طالع خياله من أطياف الذكريات الحلوة ...

وجلس يلقى على المكان نظرة تذكر وحنين ، ولم يكن يرى منظراً غريباً ، فإنه يذكر ولا شك تلك الأبنية العالية التى يتصاعد الدخان من أعاليها ويدوى قرع آلات فى داخلها ، وهذه الصحراء المترامية التى تنتهى شطئانها البعيدة إلى مآذن القاهرة المعزية ، ولكن ماله يلتفت يمنة ويسرة ؟.. هل يفتقد منظراً يذكره ولا يجده ؟..

نعم . إن الصورة التى انتزعها رأسه من المكان

فى تلك الليلة القمراء ناقصة . . . ولا تنقص شيئاً تافهاً ، بل تنقص مدينة كاملة . . . مدينة الصفائح الغريبة . . . كانت تقع أمام القهوة مباشرة على بعد عشرة أمتار من مدخلها ، وكانت مبانيها أكواخاً من الصفائح التى علاها الصدأ ، تأوى رجالاً ونساء وأطفالاً ، وترعى فى عرصاتها العز والكلاب ... أين يا ترى هذه المدينة ؟ أم تراه اشتبه عليه الأمر؟.

ولكى يقطع الشك باليقين نادى النادل وسأله وهويشير بيده إلى الموضع الخلاء الذى أحدث ارتيابه :

— ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفائح ؟

فهز الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال :

— بلى ، يا بك

— فأين ذهبت ؟

— هدمتها الحكومة

فقطب الشاب جبينه وسأله :

— متى ... ولأى سبب ؟

— منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن تأكد البوليس من أن ساكنيها من اللصوص والقتلة

لم يكن فى الخبر ما يثير الدهشة ، ولكنه ذكر شخصية عزيزة فقال :

كان يوجد هنا رجل مغن يدعى أبو لبه ... أو أبو رنه لا أذكر ... ألا تعلم أين هو ؟

فتفكر الغلام دقيقة ثم قال :

— لعله أبو سنه يا بك

— أظنه هو ، كان يغنى غناء جميلاً وينشد إنشاداً ساحراً ...

— نعم هو يا بك . ولكنه شنق وا أسفاه !

وانزعج الشاب وسأله :

— أتقول إنه شنق ؟

— نعم شنق بغير شك

— ولماذا شنق ؟

— لسبب تافه جدًّا

فاستولت الدهشة على الشاب وسأله :

— كيف يشنق لسبب تافه ... ماذا فعل ؟

فقال الغلام بهدوء :

— قَتَل ...

فابتسم الشاب بالرغم من انزعاجه وقال :

— ولكن ليس هذا بالسبب التافه

— قتل بغيا ...

ولم يستطع الغلام أن يتم حديثه ، لأنه قطعه عليه دخول جماعة من العمال ونداء المعلم له فحيا الشاب وانصرف إلى عمله ...

لقد وقعت أحداث غريبة منذ زيارته الأولى لهذه القهوة ... دمرت مدينة ، وتشتت أهلها ، وشنق رجل كانت حنجرته تنفث سحراً وبهجة ، فما أتعس مجيئه هذه الليلة ! جاء يطلب لهواً ومسرة فوجد خراباً وموتاً !

ولبث كئيباً حزيناً ، وراح يفكر فى زيارته الأولى تلك الليلة القمراء السعيدة ...

كان فى مساء تلك الليلة جالساً فى سانت جيمس يشارب جماعة من صحبه كما هى عادته كل مساء ، وقد تركوا الحانة فى الساعة العاشرة ، ورأى بعضهم أن يمضوا الليل فى صالة رقص أو غناء أو نساء ، ولكنه لم يجد من حواسه ميلاً إلى تلك المتع .

كان ضيق الصدر من طول ما فعل به الملل والفراغ ، وكان يعانى شبعاً ثقيلاً صرف هواه عن الدنيا جميعاً فأمسي الرقص والغناء والنساء ألفاظاً لا معنى لها ؛ وانقلب جسد الأهواء الفاتن فى عينيه

جثة هامدة ، فودع صحبه وتركهم يذهبون

وتلفت يمنة ويسرة فى حيرة ... إلى أين يذهب ؟ ولم ينقذه من حيرته إغراء ... فتركه لله ووحدته وسكره ...

ثم استقل سيارته الصغيرة وانطلق بها على غير هدى ، وساقه التخبط إلى العباسية ، ودفعته العباسية إلى صحرائها الشرقية . ولفتت ناظريه — فى الطريق الصحراوى الملتوى — أنوار خافتة تنبعث من القهوة المنعزلة ، فهدأ من سرعة السيارة ونظر صوبها فسره منظر الجالسين يتسامرون ويلعبون النرد والورق ، وحمل الهواء إلى أنفــه رائحة « التمباك المسل » فتسربت إلى مخه وأطربت أعصاب رأسه ، فانقشع عنه كابوس السقم ، وأدار السيارة إلى أمام مدينة الصفائح ووقف ، وحسب أن جلسة فى هذه القهوة ونَفَساً من هذه (الجوزة) يساويان نعيم الدنيا الذى أنهك قواه وأضنى قلبه

ولفت شخصه الغريب أنظار الجالسين ولكنه لم يجد حرجاً ولم يستشعر خجلاً إذ أخفت الخمر عن عينيه نظرات الآخرين ، وقصد إلى ركن خال واطمأن إلى كرسى ، وطلب جوزة ... وكان القمر بدراً والسماء صافية ، كأنها تعرت تستحم فى نوره البهى ، فبهره سحر النور وجمال الليل وفتنة الصحراء القائمة وكأنه يرى القمر لأول مرة ، بل لعله كان يراه لأول مرة حقا ، لأنه كان فى العادة يمر على محاسن الكون ومفاتنه بعينىْ أعمى وأذنىْ أصم . أما تلك الليــلة —والخمر فى رأسه و (الجوزة) فى فمه— فقد نظر ، وقلب وجهه الذاهل فى أقطار السماء والفضاء ، وخال الأنوار الهادئة ترقص طرباً والقمر الساطع ينشد نشيداً ترتله السموات والأرض ، وأحس كأنه معلق بأطراف النور الفضى كمن يتقلب على بركة من الزئبق . أى حسن ... ! وأى شعور ... ! فى تلك الساعة السعيدة نسى مرضه العضال وحزنه الثقيل والملل الجاثم على صدره ، وذهب عنه شبيه الزمن ، وأحس بجدة وبعث ومتعة وحب . فأنشد الصامت فى أذنيه ، وابتسم العابث لعينيه ، ولولا الحياء لاندفع يرقص ويغنى وينشد طرباً وفرحاً . وبالغ صاحب القهوة فى إكرامه والترحيب به ، وأحضر له (الجوزة) بنفسه وهو يقول بتودد : « آنست وشرفت » . وكان شيخاً فى الستين ، قصير القامة ، بطينا ، ضخم الوجه والرقبة ، فلم يسع دانش — اسم الشاب — إلا أن يشكره

وأراد الرجل أن يبالغ فى إكرامه فقال :

— أتحب يا بك أن تسمع غناء بلديًّا ؟

فسر دانش وقال لنفسه ليلة قمراء وخمر وجوزة وغناء بلدى ! يا لها من ليلة سعيدة حقًّا ... وقال بحماس للرجل :

— نعم ... نعم ... أين المغنى ؟

فنادى الرجل :

— أبا سنة ... تعال

وتقدم من بين صفوف الجالسين شاب طويل القامة عريض المنكبين ، لم يجل نور القمر الشاحب قسمات وجهه ، وأسدل ظلا على أسماله البالية دنا من صاحب القهوة وقال :

— نعم

فقال له الرجل :

— أقعد يا عم ... يريد البك أن يسمع غناءك

وقال دانش :

— نعم ... أسمعنا ... أسمعنا

ثم التفت إلى صاحب القهوة وقال :

— يا معلم ... هات « للأستاذ » جوزة

وانبسطت أسارير الشاب فرفع يده إلى رأسه تحية وتربع جالساً على الأرض أمام البك ، وسعل مرات متوالية يسلك حنجرته ، ثم أسند رأسه إلى كفه ومضى يغنى (ليالى) فى صوت جميل ظن دانش فى نشوته أنه أجمل من أصوات الحور فى الجنان، ثم أنشد :

بكره وبعـده وبعـد اللي ورا بعـده

وإن غاب حبيبك مالكشى فى البلد بعده

وكان رأسه يهتز وجسمه يتمايل ، وكان جميعه فى حركة وجدانية تمثيلية غريبة . وكان صوته يتهدج ويتوجع ، يعلو تارة حتى يملأ الفضاء ، ويخفت أخرى حتى ينفذ إلى أعماق القلب ، وما انتهى من إنشاده حتى صعدت آهات الإعجاب من كل فم ، وكان الشاب أول المعجبين ، وغلبته النشوة والطرب فطلب لكل واحد من الجالسين (جوزة) وصاح بالمغنى :

— لا أسكت الله لك صوتاً ... أسمعنا موالاً آخر ...

فهز الرجل رأسه مختالاً فخوراً ووضع يسراه على أذنه ، ويمناه على الجوزة . وأنشد :

بينى وبين الحبايب جبل عال وتل حشيش

وبحر خمرة ونفسى فى النبيذ ولا فيش

ولما انتهى المغنى من إنشاده بلغ الفرح بنفس دانش مبلغاً ظن أنه لن يذوق الملل معه أبداً ، وأحس بالرضاء والغبطة ، وأفعم قلبه بعاطفة سعادة وخير فود لو يستطيع أن يغمر كل محزون بفيض من سعادته ، ومال بقوة قاهرة إلى مكافأة الرجل الذى مس روحه بنفثة من سحر صوته ، فدس يده إلى محفظته ووجد بها بضعة قروش وورقة من ذات العشرة جنيهات ، فأعطى القروش إلى صاحب القهوة ثم نظر إلى المغنى ملياً ووضع الورقة فى يده وهو يقول :

— هذه لك ...

لم يداخله التردد مطلقاً ، وما كانت ثمت قوة فى الوجود تستطيع أن تمنعه من المنح والعطاء تلك الساعة ، أما الرجل فسهم ووجم وأدنى الورقة من نور المصباح وتأملها بإنكار ، ولمح الورقة فى يده أحد الجالسين فاقترب منه ونظر إليها لحظة ثم قال بلهجة خبير :

« ورقة قديمة من ذات العشرة قروش ... كانت متداولة أيام السلطة »

فتضاحك دانش وقال للرجل بصوت سمعه كثيرون ممن حوله :

— جزاك الله على ما أسعدتنى خيراً ... هذه ورقة من ذات العشرة جنيهات قد تراها بين يديك ثروة عظيمة وأراها أنا شيئاً تافهاً إلى ما أحسست به من السعادة ... السلام عليكم يا سادة ...

على أنه رأى منظراً عجباً — زاد من مسرته — قبل أن يغادر القهوة

رأى أبا سنة يهب واقفاً فزعاً ، وسمع همساً تتناقله الشفاه ، ثم علا ضجيج ، ثم ساد صمت ثقيل ، وقد كفت كل يد عن اللعب وكل فم عن التدخين والتقت الأبصار جميعاً عند المغنى السعيد

ولبس طربوشه وسار إلى سيارته وقلبه يكاد يطير من الفرح بعد أن نفض عنه راكد السقم والملل ، وعاد إلى المدينة ، ثم ألهته الحياة عن الصحراء

وقهوة الصحراء وأبى سنة حتى وجد نفسه فيها هذا المساء

فما أشد ما نزل بالدنيا من تغير ! اندثرت مدينة الصفائح العامرة ... وفتك الحبل بعنق أبى سنة الجميل وحنجرته الذهبية ... يا للعجب ! كان أبو سنة مطرباً فكيف صار قاتلاً ... ؟ ووجد رغبة صادقة فى السؤال والتحرى عنه ، وكان صاحب القهوة جالساً بمكانه المعهود عند مدخل المطعم ، فأشار إليه وناداه قائلاً : « يا معلم » وحدق الرجل فى مصدر الصوت وهو يضيق عينيه ، ثم سار إليه ، فلما دنا من صاحبه ورأى هيئته المميزة ابتسمت أساريره وارتفعت يده إلى جبينه بالسلام ، ولكن لم يبد عليه أنه عرفه أو تذكره ، وطلب إليه دانش أن يجلس ثم قال له :

— أراك لا تذكرنى يا معلم

فحدجه الرجل بنظرة إمعان وارتباك وتمتم وعلى فمه العريض ابتسامة حائرة :

— أهلاً وسهلاً ...

فأردف دانش :

— ألا تذكر تلك الليلة القمراء ؟ ... والمغنى أبا سنة ؟... وموال بكره وبعده ؟ كم مضى على تلك الليلة ؟ . . . ثمانية أشهر أو يزيد ، ألا تذكر ؟

ونظر إليه الرجل نظرة غريبة ، كان الشاب يتوقع أن يقرأ فيها الدهشة والترحاب ، ولكنه وجدها جامدة ثقيلة ...

— ألا تذكر يا معلم ؟ ...

فهز الرجل رأسه وقال :

— بلى ، أذكر يا بك

— سمعت خبراً غريباً مزعجاً ... هل حقاً شنق أبو سنة ؟

— نعم شنق الرجل التعس

— وكيف شنق ؟

— أتحب أن تعرف يا بك ؟

— طبعاً يا معلم

فقال الرجل بصوت غليظ :

— ألا تذكر الثروة التى رميته بها فى تلك الليلة ؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب وقد داخله قلق لهجة الرجل ، أما المعلم فاستطرد قائلاً : « فى تلك الليلة شاهدت وشاهد جميع الزبائن منظراً عجباً ، فعلى أثر ذهابك انتبذ أبو سنة مكاناً خالياً وجلس ويده تمسك بالورقة الثمينة ، ولم تكن عادته أن يجلس صامتاً فهو إما يضاحك القوم أو يغنيهم وينشدهم ؛ أما فى تلك الساعة الرهيبة فقد انكمش مضطرباً وجعل يختلس من الجالسين نظرات الريبة والقلق ويمعن فى الورقة نظراً يتنازعه الشك واليقين والذعر والأمل . ودنوت منه وطلبت إليه أن يطلعنى على الورقة فأطلعنى عليها وهو قابض على طرفها فعرفتها وأمنت على قولك له دهشاً متعجباً ، وقلت له لقد أتتك ثروة واسعة . وكان محط الأنظار ومثار الاهتمام والهمس ، وكنت أتوقع أن يغادر المكان سريعاً ولكنه ظل ذاهلاً يتناوب على عينيه نور فرح مخيف والتماع ذعر مريب ؛ ولعله كان فى حيرة من أمره لا يدرى أين يذهب ، فهو آمن وسط الجميع ولكن أنّى له الأمان إذا انفرد فى الطريق أو آوى إلى كوخه فى مدينة الصفائح ؟ ومدينة الصفائح لا يعرف أهلوها من العملة سوى الملاليم ، ولا يغمض لها جفن إذا علمت أن بين حدودها ورقة من ذات العشرة جنيهات، فما العمل ؟ بات خائفاً مذعوراً وأمسى الجميع أعداءه

وسكت الرجل دقيقة ثم رمق الشاب بعينين أحرق الاحمرار أشفارها واستطرد :

— وأغلب الظن أن القلق أثار أعصابه وحرضه على الاستهتار ، فما كان منه إلا أن قام بغتة وقال بصوت مبحوح : « السلام عليكم يا إخوان » وغادر القهوة على عجل ، ولكنه بدلاً من أن يسير إلى مدينة الصفائح حيث زوجه وأسرته انحرف إلى اليمين وأوسع الخطى حتى ابتلعته الظلمة . وأحدث انحرافه دهشة فتبعه أحد الرفاق وغاب زمناً يسيراً ثم كر راجعاً وهو يصيح ضاحكا : « ألا تعلمون .. إن الرجل المتوه يعدو بقوة كأنما يطارده مطارد عنيف » وأحدثت عبارة الرجل عاصفة من الضحك والسخر واللعن ، وهكذا غادرنا أبو سنة ...

وذاع الخبر حتى بلغ مدينة الصفائح، فجاءت أسرة المغنى على عجل ، وتبعها قوم كثيرون ممن يشتغلون بجمع الأعقاب ولم الورق القذر وسألوا عن جلية الأمر. فلما أن صح لديهم الخبر انعقدت ألسنتهم من الدهشة، وظنوا أن المغنى ذهب ليدفن كنزه فى مكان أمين فقعدوا ينتظرون ، وطال بهم الانتظار على غير جدوى، فجزع الأكثرون وتفرقوا ولم يبق إلا أفراد أسرته ، ولبثوا طويلاً يترقبون ولكن أبا سنة لم يعد

وهنا غلب السعال على « المعلم » فمنعه عن إتمام حديثه ، وانتظر دانش حتى رد إليه النفس واستحثه بنظرة عينيه القلقتين فاستطرد الرجل :

— كلا لم يعد أبو سنة ... وما كان ليعود ... لقد هجر أسرته ومدينته وصحبه إلى الأبد . باعهم جميعاً بتلك الورقة السحرية ، ولما طالت غيبته رثى بعض إخوانه لحال أسرته ؛ فخرج فى طلبه والبحث عنه . ومن ذلك اليوم ترامت إلينا أخبار عجيبة ، فقيل إن المغنى التائه قادته قدماه إلى الأزبكية ، وإن بغيا وقعت فى هواه وأوقعته فى شراكها. ثم قيل إنه اشتغل بالغناء فى قهوة بلدية بالأحياء الموبوءة ، وأخذ الكثيرون يتحدثون عنه بلغة الأساطير والخرافات فقالوا إن الدنيا تبسم له ، وإنها فى إقبال عليه يتزايد يوماً بعد يوم ، فالأموال تتقاطر عليه من كل يد ، والنساء يتهافتن عليه من كل باب ، وإنه بطر وطغى وفرض السطوة وجبى الأتاوة ونشر الرعب ...

كانت أخبارا غريبة يعز تصديقها ، ولكنها فتنت أخيلة شباب مدينة الصفائح ، وأثارت الطمع فى قلوبهم ، فلحق به نفر منهم إلى مهاوى الفجور ومدوا إليه يد الأخوة وقاسموه الخير والشر فكانوا سواعده إلى الإثم والفجور والإرهاب ...

ولبثت تلك الحياة ما لبثت ، ثم انقطعت بغتة على أسوأ حال ، وقيل فى ذلك إن الرجل رجع يوماً إلى مخدع عشيقة له على غير موعد فوجدها بين يدى أحد أتباعه ، فكبر عليه الأمر وأعماه الغضب فاستل خنجره وقتل به الاثنين ، وقبض عليه وعلى عصابته وامتدت يد القانون إلى مدينة الصفائح منبت ذاك الشر ، وانتهى الأمر فشنق أبو سنة ، وسجن أتباعه وهدمت المدينة المظلومة . وسبحان من له الدوام يا بك ..!

كان دانش يصغى إلى محدثه فى ذهول ، وسمعه يختم حديثه بلهجة مريرة ساخطة فسرت فى جسمه هزة عنيفة ، ولم تعد أعصابه تحتمل الجلوس فقام منزعجاً وغادر القهوة دون أن يلقى عليها نظرة وداع . .

كان كئيباً منقبض الصدر

وكان يتذكر الليلة السعيدة حين غلبته نشوة الفرح فغمر بفيضه بعض القلوب، ويتعجب ! كان ليلتها سعيداً فرحاً ينشد السعادة للجميع فكيف انقلب غرضه عليه ؟ . . . كيف خانه الهدف فدمر مدينة وشرد أهلها ؟ ... وا أسفاه ! ...

نجيب محفوظ

زوج جاسوساً

(حصلت هذه القصة على جائزة مائة جنيه)
عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

[... ماذا كان فى مقدورها أن تفعل بعد أن عرفت الحقيقة كلها فيما يتصل بأمر هذا الرجل ومع ذلك ازدادت له حبا ؟! ...]

أظن أن هــذه القصة يجب أن تبدأ فى البلدة الصغيرة بمقاطعة إسكس حيث عشت أنا وأنطون قبل أن نتزوج :

لم يكن هناك ما يميز هذه البلدة — التى أسميها ليتون — عن ألف مكان آخر مشابه لها ، إلاوجود الثكنات العسكرية على مسافة منها تقرب من ميل واحد . وكانت هذه الثكنات مؤلفة من صفوف طويلة من المبانى الخشبية ، أمامها ميـدان فسيح للعرض ، كان أهل البلدة يقصدون إليه فى ساعات بعد الظهرمن أيام الآحاد ؛ وفيما عدا هذا وعدا الجنود اللابسى الخاكى المتفرقين هنا وهناك لم يكن للثكنات فى حياتنا من شأن يذكر !

كنت أنا وأنطون نعيش فى حى واحد من البلدة — هو الحى القـديم — حيث كان أهلى يقيمون فى البيت الكبير القديم الذى بناه جدى الأكبر عندما اتخذ هذه البلدة مقاماً له .

كنت فى أيامى الأولى ألعب مع فيليب استاو الصغير ، وأذهب معــه إلى المدرسة وأداعبه قليلاً ، وكان فيليب يعيش فى البيت المقابل لبيتنا ، وأظن أنه لو لم يجئ الدكتور ماير بامرأته وابنـه إلى ليتون ، وأنا فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، لكنت أنا وفيليب قد كبرنا معاً وقد تزوج أحدنا من الآخر ، ولـكن بعد أن حل أنطون فى البلدة ، علمت أنه لن يكون هناك أحد سواه من نصيبى !

وقد اعترف كل إنسان بأن أسرة « ماير » قوم طيبون ، حتى وإن كانت لهم فى حياتهم طرق أجنبية غريبة . لقد كانوا ألماناً ! وفى حين أن أنطون نفسه قد ولد فى هذه البلاد : كان أبواه لا يزالان يتكلمان لغتهما الألمانية ويذكران على الدوام وطنهما . فلم يكن غريباً أن ينشأ الفتى وهو يعد نفسه ألمـانياً أكثر منه انجليزياً !

ولقد ذهب معنا إلى المدرسة ، ولـكنه لم يكد يبلغ السن التى تسمح بإرساله إلى الخارج حتى أرسله أبوه إلى ألمانيا ليتم ثقافته فيها . وقد قال الدكتور ماير :

« ليس فى هذه البلاد مكان يستطيع الرجل الفنى أن يحصل فيه على ما يريد من التجارب ، فلكى يصبح أنطون مهندساً ماهراً كما يجب أن يكون ، لا بد من أن يذهب إلى ألمانيا لإتمام تعليمه » .

وقد امتعضت أمى قليلاً عندما سمعت هذا الكلام وقالت فيما بعد :

« يلوح لى أنهم يظنون أن هذه البلاد صالحة

بالقدر الكافى لتكوين ثروتهم فقط . لقد أصبحت أشعر بالتعب من سماع الحديث عن الوطن طوال هذا الوقت . فإذا كانوا يحبون وطنهم هذا الحب فلماذا جاءوا إلى هنا ؟ »

ولكن لم يكن أحد فى الواقع يستاء من أقوال الدكتور . فقد كان كل إنسان يعرف ما انطوى عليه قلب هذا الطبيب من الشفقة ، وكيف يلبى راضياً نداء الواجب الإنسانى فى أشد الليالى صقيعاً فيذهب لإسعاف المرضى والمصابين — حتى أشدهم فقراً — وهو يعلم جد العلم أنه لن ينال بنساً واحداً جزاء عمله !

كذلك كان أنطون على مثل أخلاق أبيه فكان كريماً لأقصى حدود الكرم ، على الرغم مما كان متصفاً به صبياً من إهمال وعدم اكتراث ومرح صبيانى ، وكان أنطون فى تلك الأيام دائماً منشرح الصدر طروباً ، وكان طويل القامة أسمر اللون فيه نوع من النشاط العصبى أشبه ما يكون بالسهم المشدود فى القوس مهيئاً للانطلاق

وكنت أعرف أننى وأنطون نؤلف زوجاً جميل المنظر ، فلقد كنت بيضاء بقدر ما هو أسمر ، وكان شعرى رمادياً يضرب إلى البياض ، ولى عينان زرقاوان كعيون أسرة أبى ولى قامة أمى المشوقة . كذلك كان اسمى هو اسم أمى مارى إلين ، وكان كل إنسان آخر يختصر هذا الاسم فيدعوننى مارى دون أن يذكر اللقب ، ولكن أنطون كان هو وحده الذى يدعوننى باسمى كاملاً ، وكان صوته العذب يضفى على الاسمين معاً نغمة موسيقية حتى ليصبح نطقه بهما أشبه بالغناء

وكان صوته رقيقاً حين نطق باسمى فى الليلة الأخيرة قبل سفره إلى ألمانيا ، وكان واقفاً إلى جنبى فى غرفة مكتب أبيه الضئيلة النور ، وقد تسربنا إليها لنقضى لحظة بعيدين عن الاجتماع الذى أعده أصدقاؤه لوداعه ، قال :

— إنك لآية فى الجمال يا مارى إيلين ، حتى لأتمنى لو لم أكن تاركاً هذه البلاد

فأمسكت بشدة بحافة المكتب ورائى محاولة أن أقاوم تيار الوحشة والكآبة الذى غمرنى على حين فجأة وقلت :

— وإنى كذلك لأتمنى ألا تبرح هذه البلاد .

فلم يكد يسمع هذه الكلمات حتى جمعنى بين ساعديه ، والتقى فمه الصغير بفمى على قبلة سريعة حارة غمرت وجهينا جميعاً بحمرة الخجل ، وقال أنطون

— إنك لتعلمين يا مارى إيلين أننى سأعود ثانية إلى هذه البلاد ، فماذا تريدين أن أحضر لك معى ؟

وشعرت من وراء هذه الكلمات التى حاول فيها أن يسترد مظهر الانشراح والبهجة عاطفة انفعال بعيدة الغور ... وقد أجبته بقولى :

— لا أريد أن تحضر لى إلا نفسك

ولكن هذا الذى طلبته هو الذى عرف قلبى آخر الأمر عن يقين مُر أنه الشىء الوحيد الذى لم يكن فى مقدوره أن يعيده إلى . نعم إنه أعاد إلى جسمه المستقيم الجامع صفات الرجولة ، مصحوباً بالثقة التى ولدتها فى نفسه تجارب خمس سنوات فى الخارج . ولكن الفتى الذى قبلته تلك الليلة فى غرفة مكتب أبى لم يعد إلى قط

تزوجت من أنطون بعد شهر واحد من عودته ، وكان فيليب ستاو شاهد زواجنا ، وكانت بعض رفيقاتى اللواتى نشأت معهن وصائف العروس . وكانت حفلة الزفاف جميلة . وبعد انقضاء شهر العسل الباخرة ، وقد ألح صحابنا على أن يغمرونى أنا وأنطون بأوراق الاحتفالات الملونة من أشرطة طويلة إلى قصاصات دقيقة ، وعندما حييتهم تحية الوداع من فوق ظهر السفينة كنت محملة بكمية كبيرة من هذه الأوراق



قبل أنطون وظيفة مهندس مساعد عند مقاول يشتغل ببناء خزان فى مصر

وفى سوثمبتون التقينا على غير انتظار ببعض الأصدقاء الذين ابتهجوا برؤيتنا ابتهاجنا برؤيتهم ، واحتفلنا باجتماعنا احتفالاً بهيجاً قبل أن نركب

لقد كنا ننظر بغيرا كتراث لكل شىء فى هذه الحياة الحرة الفنيـة التى توافرت لنا بعد أجيال من الحيطة والحذر المفلح . وقد ألقيت فى ذات مرة نظرة خاطفة على ضخامة ميراث بلادنا العظيمة وذلك عند ما أبدى أنطون ، على أثر استقرارنا فى بيتنا

الجديد ، ملاحظة خفيفة فيها شيء من الحط بمكانة انجلترا ولقد ثرت عند ذلك دفاعاً عن بلادى فقلت فى حماسة :

« إن كون انجلترا تختلف عن ألمانيا لا يعنى أنها تقل عنها عظمة وخطراً ، إننا آخر الأمر إنجليز ، ونحن لا نريد أن نقلد عادات غيرنا من الأمم »

ولا بد أن يكون وجهى قد غمرته حمرة اليقين الذى اندفع تياره فجأة إلى نفسى ، فقد أمسك أنطون بوجهى بين كفيه المداعبتين وقال سائلاً :

— أرجو ألا تكونى حقاً غاضبة منى من جراء أمر غامض كهذا ؟

لا ... لم يكن لى أن أغضب منه فقد كنت أعلم حتى فى ذلك الوقت أنه لم تتهيأ له قط الفرصة ليشعر بمثل ما أشعر به ... وليعرف معنى أن يكون الإنسان بريطانيا . فهو منذ بدأ يفهم ما يقال أمامه كان دائماً يسمع أمه وأباه يتحدثان إليه عن البلاد الأخرى التى لا يزالان يتعلقان بها ، وكان يتكلم لغة تلك البلاد وقرأ آدابها ... فهل من العجب حتى وإن كان أنطون قد ولد فى انجلترا ، أن يكون ولاؤه الوطنى موزعاً على هذه الصورة المؤنسة ؟

ولكن لم يكن لى متسع من الوقت للتفكير فى مثل هذه الأمور حتى لو أننى أردت ذلك ، فقد كانت حياة الزواج التى دخلتها حياة جديدة منيرة : فهذه الصحراء الواسعة الناصعة البياض تترامى أمام عينى تبدو فيها عن بعد التلال المتناثرة . ولقد أحببت ما فى هـذا المنظر من غرابة . ثم جاء دور الاهتمام بتحويل الكوخ الخشن البناء إلى شبه بيت يصلح للسكنى تزينه الستائر والصور ولا يحوى من الأثاث إلا أقل قدر يكفى لتوفير الراحة الضرورية ، إذ علمت أن المهندسين يندر أن يقيموا فى مكان واحد مدة طويلة تسمح لهم بالاستقرار

وقد قال لى أنطون مازحاً :

— من المحتمل ألا يكون لك أبداً بيت كبير ما دمت متزوجة منى ، هذا إلا إذا كان فى وسعك أن تنقلى ذلك البيت معنا حيثما ذهبنا .

وفى الحق أن المهندسين ليسوا بالأزواج الثابتين

على أننى لم أكترث لنوع الحياة التى أحياها فإنى لأظن أننى أستطيع أن أعيش فى حقل ريفى وأن أشعر بالسعادة التامة ما دام أنطون معى .

وبعد أن مضى على زواجنا مايقرب من العام شعرت بحادث مفرح كان لا بد لى من أن أشاطره خبره

ولقد عدت من مكتب طبيب الشركة مساء ذلك اليوم الذى شعرت فيه بهذا الحادث ، وأنا واثقة آخر الأمر من صـدق ما شعرت به ، وكدت لا أستطيع الانتظار حتى يعود أنطون من عمله لأخبره بأن ما رجوناه قد تحقق . فوقفت السيارة أمام البيت وبدأت أصعد الممر الموصل إلى الباب قبل أن ألاحظ الرجل الواقف أمام العتبة . وكان رجلاً كبير الجسم له وجه حليق لا يتبين الإنسان فى تقاسيمه معنى من المعانى ، فهو أشبه بوجوه ألف رجل سواه من أمثاله لولا عيناه ، فهما عينان جامدتان زرقاوان باهتتا الزرقة تشبهان قطعتين من الجليد بين بقية تقاسيم وجهه العادية . ولم ألبث حين رأيت ذلك الوجه أن أيقنت أننى رأيت مثـل هاتين العينين من قبل فى مكان ما . ولقد ضايقتنى

هذه الذكرى وأجهدت رأسى طوال المدة التى أجبته فيها على سؤاله بقولى :

— لم يعد زوجى إلى البيت بعد ، ومن المحتمل أن تجده فى مكتب المقاول عند الخزان

فشكرنى الرجل وكان صوته مثل وجهه خالياً من أى معنى ، ودخلت إلى البيت وقد كدت أنسى هـذا الرجل لتفكيرى فى سعادتى الشخصية التى لا تزال سرا لم يطلع عليه أحد . ولما بدلت ملابسى استعداداً للعشاء قررت فى نفسى ألا أطالع أنطون بالنبأ السعيد إلا بعد الانتهاء من الطعام ، فمثل هذه الأنباء لا يجوز أن تطوى خلال ازدراد اللقمات

ولـكن الذى حدث بعـد ذلك أخر إفضائى بالسر وقتاً أطول مما قدرت . لأننى عند ما لحقت بأنطون فى غرفة جلوسنا الصغيرة البهجة ، سمعت وقع أقدام تصعد الممر الموصل إلى باب البيت ، فوقف هذا الصوت الـكلمات التى كدت أنطق بها

وقال أنطون وهو ذاهب ليفتح الباب

لعله أحد موظفى المـكتب

ثم فتح الباب ، وبعـد أن لفظ بعبارة نصف مختنقة خطا إلى خارج البيت

ولـكننى تبينت فى لمحة قصيرة أن القادم هو الرجل نفسه الذى رأيته أمام البيت بعد ظهر ذلك اليوم . وعاد أنطون بعد لحظة ليخبرنى أنه ذاهب فى مهمة يغيب فيها بضع ساعات . ثم قال :

— يحسن يا مارى إيلين ألا تسهرى فى انتظارى

ورأيت كيف استولى الجمود والعبوس على وجهه الأسمر فجأة ، ثم قبلنى قبلة قصيرة وأسرع إلى خارج الدار ، وسمعت وأنا قابعة فى ركن الصفة صوت سيارة تبتعد ، وقد حاولت أن أقاوم شعور الخوف الشديد الذى استولى على حتى لـكأنه يقبض على بيدين من حديد . وكان مجىء هذا الرجل قد فتح على صورة ما باباً خلفيًّا لجزع لم يكن فى مقدروى أن أصوره بالألفاظ الـكلامية

على أننى حين تأهبت للنوم قلت فى نفسى إننى أهتم لأمر فارغ ، ورأيت أن أؤجل ما استطعت التأجيل التفكير فى هـذا الأمر مؤملة عبثاً فى أن أذكر أين رأيت هذا الرجل قبل . على أنه من الجائز أن أكون واهمة فى جميع مخاوفى فقد سمعت أن النساء اللواتى فى مثل حالى كثيراً ما يشعرن بإحساسات غريبة

وعادت ذكرى الحـادث السعيد الذى أريد أن أشاطر أنطون أنباءه فاستولت على رأسى فكأنها رداء دافىء واسع لففته حول جسمى عند ما استغرقت فى النوم ، وقلت فى نفسى إنه متى عاد إلى البيت أخبرته ...

وكأننى فى الأشهر التى تلت ذلك اليوم قد استحلت إلى جسم منسوج من خيوط من الزجاج ، فقد كان أنطون شديد العناية بأمرى ، يحذرنى من المشى الطويل ، ويرشدنى إلى ما يصح أن أفعله وما لا يصح . حتى لقد ضحكت من رقته التناهية وقلت له :

— يا لله يا أنطون ! إنك لتكاد تحسب أن لم تحمل امرأة قط من قبلى ؟

فكانت ابتسامته الرقيقة خير جواب لما توهمه طيشاً منى ، على أن النظرة التى بدت فى عينيه كانت جادة حين قال :

— ذلك أن أحداً لم يلد مثل ولدنا ، فهل

ترين أن ننشئه طبيباً مثل جده ...

فقد كنا أنا وأنطون واثقين من أن وليدنا سيكون ذكراً، ثم مضى يقول :

— وسنرسله أيضاً إلى ألمانيا لإتمام ثقافته كما فعلت أنا !

فقلت قبل أن أدرك معنى ما أقول :

— آه . لا . إن أولادنا سيكونون بريطانيين يا أنطون . وأنا أريد أن يذهبوا إلى المدارس الإنجليزية وإني لأظن أن شأنك كان غير شأن أبنائنا . صحيح أن أبويك جاءا من ألمانيا ولكن ألا ترى الفارق بين أمرهما وبين أمرنا فيما يتصل بأبنائنا ؟

على أنني لم ألبث أن تبينت أنني كنت على حق في كلماتي هذه .

ولقد ضحك أنطون لما أبديت من مظهر الجد والاهتمام . وعلى حين فجأة فكرت يائسة في الفتى الذى قبلته قبلة الوداع منذ أعوام قليلة . فماذا أصابه في السنوات التي قضاها في الخارج ففرق بيني وبينه؛ فقد أدركت في هذه اللحظة كيف استحال أنطون استحالة تامة إلى إنسان آخر لم أكن لأستطيع أن أفهمه في بعض الأحيان !

على أن هذا الغموض مع ذلك لم يكن إلا وقتياً فلم يلبث أنطون أن ترك لهجة الجد التي كان يحدثني بها ، واستحال مرة أخرى إلى الرجل الذي أحببته وقال :

« إن أمامنا متسعاً في الوقت للتفكير في هذا كله يا عزيزتي ماري إيلين ، أما الآن فيجب النظر في خير الوسائل التي أستطيع استخدامها للعناية بك

ولد ابننا في الشهر التالى ، وجاء طفلاً قوياً صحيح الجسم له شعر أبيه الأسود وعيناه ، وكذلك كان وجهه كوجه أبيه مستديراً وله جميع ملامحه !

وقال الطبيب ، ولم يكن في قوله ما يزيدني علماً بما أراه بعيني :

« إن ولدكما ولد لطيف ... فترى ماذا يكون في المستقبل ... لعله يصير رئيساً للوزارة ؟ ! »

والحق أنني رأيت من النظرة الأولى أن ولدى تونى الصغير كان طفلاً مدهشاً لم يولد مثله من قبل

على أن الطبيب قد ضحك لما جاء في عبارته من مزاح ، ولكن أنطون نظر طويلاً إلى وجه ابنه الصغير قبل أن يجيب الطبيب بقوله :

— ولم لا ؟

وكأن أنطون قد وجد في اللحظات القصيرة التي نظر فيها إلى وجه ابنه الجواب لأمر كان يزعجه منذ عهد طويل ؛ ثم رأيت على فكيه خطوطاً جديدة تدل على الحزم حين أردف جملته الأولى بقوله :

— إنه أول كل شيء رجل انجليزى !

وفي اليوم التالى سألني أنطون إذا كنت أبالي بعدم العودة إلى الخزان بعد أن أصبح قادرة على مغادرة المستشفى . وقال :

— إن هناك عملاً جديداً سيبدأ في كينيا ، ونستطيع أن نسافر بمجرد أن تصبحي قادرة على السفر

فسألته في شيء من الارتياب :

— أتقصد أنك ستترك عملك ؟ ولكن لم ذلك يا أنطون ؟ إن العمل في الخزان لم يكد ينتهي بعد أم تراني مخطئة ؟

لقد كان أنطون يحب عمله في الخزان حباً شديداً ؛ ولكنه تهرب من الإجابة على السؤال الذى نطقت

به عيناى ، وقال فجأة قولاً لم يكن حاضراً من قبل فى رأسه :

— إنهم يضمون هناك مشروعاً عظيماً لتوليد الكهرباء من القوة المائية ، وأنا أريد انتهاز الفرصة للتمرن على حفر الأنفاق . فيمكنك إذا شئت أن تعودى إلى انجلترا لفترة ما

فقلت فى جد تهكمى :

مرحى ! إنك تريد أن تتخلص بمثل هذه الوسيلة من تونى ومنى ! ولكن اعلم أنك إذا قررت الذهاب إلى القطب الجنوبى فإننا سنكون فى أثرك

وأى شيء كان يهمنى من الحياة فى أية بقعة من بقاع الأرض، على أن الحياة فى كينيا قد يكون فيها شيء من الطرافة واللذة

لم أكد أسترد قوتى وأصبح قادرة على السفر حتى سافرنا . وقد بذل أنطون أقصى جهده ليسهل الرحلة على ويسبغ عليها روحاً من البهجة والسرور. ورأيت من خصاله القديمة ما لم أره منذ أشهر عديدة. كذلك كان تونى فى أثناء الرحلة على أحسن ما يكون فقلت نخورة :

— كأنى به مسافراً طوال عمره . وما قصدت أن أكون متصلبة يا أنطون فى أمر المدرسة التى نرسله إليها ، ولا شك فى أنه سيحب أن يذهب إلى المكان نفسه الذى ذهب إليه أبوه من قبل

فهز زوجى رأسه وقال :

— لقد كنت أنا أيضاً أفكر طويلاً يا ماري إيلين منذ ولد تونى . . .

وتوقف لحظة كما لو أنه وجد صعوبة فى صوغ ما يريد أن يقوله فى اللفظ المناسب ثم قال :

— أظن أنه من الخطأ أن يحاول الإنسان إنشاء ابنه موالياً لدولتين مختلفتين فى وقت واحد إذ لا بد له إن عاجلاً أو آجلاً أن يختار إحداهما فيختصها بولائه ... لا ... أنا لا أريد أن يواجه تونى أبداً ما كان لا بد لى من مواجهته

وفجأة حبس أنطون الكلمات فى فمه وضمنى بين ساعديه عائداً إلى مرحه القديم وإلى ما عهدت فيه من طيبة القلب ، وقال :

— كل هذا لا علاقة له بمبلغ حبى لك وأحسبك تعرفين مقدار هذا الحب ؟

وبقيت لحظة واثقة من أن هناك شيئاً آخر يريد أن يقوله لى ، وكان هـذا الشيء يرفرف بيننا صامتاً ولكنه حقيقة مزعجة ، فما عسى أن يكون ذلك الشيء ؟

من المحتمل أنه لو صاغ هذا الشيء إذ ذاك فى كلمات ... ولكن لم يكن الكلام فى ذلك الوقت ليغير شيئاً من الواقع ، وما من شيء كان يمكن أن يحدث غير ما حدث ! فأساس الأمر كله كان مغروساً عميقاً فى السنوات التى مرت من قبل

وبعد أن استقررنا فى منطقة العمل الجديد الذى التحق به زوجى حاولت أن أقنع نفسى بأننى كنت واهمة فى كل ما تخيلت

وكانت الأرض التى يحفرون فيها النفق صخرية صلدة ، وقد أنشئت فوقها على عجل بلدة صغيرة من الأكواخ الحجرية ، وكان كل شيء يحيط بنا طبيعياً حتى لكأن زوجى لم يهرب من عمله الأول مطلقاً . ثم بغير إنذار ولا تحذير تحطمت سعادتنا تحطماً تاماً كأنها لم تك قط

ولكن لعلى إذا رويت الحادث كما وقع لم تبد قسوته على حقيقتها

دخلت غرفة النوم فى تلك الليلة وقد حملت تونى جيداً تحت ساعدى، على الرغم من معارضته، وكان قد بدأ يتكلم فى وضوح ، على أنه حتى بدون أن يتكلم كان واضحاً أنه غير راغب فى النوم

فقلت له ضاحكة :

« إن هذا غير جميل منك يا بنى ، ولكن كل إنسان لا بد أن يعمل أعمالاً لا يرغب فى عملها بعض الأحيان — حتى أبوك »

فامتنع تونى فى الحال عن البكاء ونظر من فوق كتفىّ إلى أبيه الذى كان يبتسم له وهو جالس على كرسيه فى غرفة الجلوس . ولست أدرى السبب فى أننى إذا ذكرت الآن هذه الحادثة خفف ذكرها من آلامى بعض الشىء، على أنها تخفف بالفعل

وعلى كل حال كنت لا أزال فى الغرفة الثانية أرقد تونى فى سريره المجاور لسريرنا عند ما سمعت أنطون يتحدث مع إنسان آخر فى دمدمة غامضة ! فرجوت فى قلق ألا يكون عائداً إلى عمله فى الليل ، ثم خطوت إلى غرفة الجلوس فإذا بى أرى أمامى تلك النظرة الباهتة نظرة ذلك الرجل الذى جاء ليقابل زوجى فى مصر

وعلى حين فجأة ، وبصورة لا أستطيع تفسيرها ، تذكرت أين رأيت ذلك الرجل من قبل . فقد كان دخولى من الغرفة المظلمة إلى الغرفة المضيئة هو المفتاح الذى فتح باباً فى ذاكرتى كان منسياً

لقد رأيته فى الثكنات خارج بلدتنا — فهل حقاً هو ذلك الرجل الذى رأيته منذ سبع سنوات؟ لقد كنا جماعة نسير إلى ميدان العرض أمام الثكنات: كنت أنا وفيليب وزوجان آخران أو ثلاثة ، وكان أنطون لا يزال متغيباً فى ألمانيا يتم دراسته ، وكانت خطاباته هى وحدها التى تسد الفراغ الذى تركه غيابه فى نفسى ، وكان فيليب يعلم فى ذلك اليوم كما أعلم أنا أننى لم أذهب معهم إلا لأحاول نسيان بعض ما أشعر به من الوحدة .

وكان الرجل الواقف الآن مع زوجى فى غرفة بيتنا أحد الجنود الذين مررنا بهم فى ذلك اليوم ، وإنى لواثقة أنه هو نفسه ، ولكن لماذا يلاحق هذا الرجل زوجى فى كل مكان ؟

شعرت فجأة كأننى أسير مغمضة العين فى بلاد شديدة الخطر، ولو أن أنطون قدم لى الرجل فى هدوء على أنه صديق يبحث عن عمل .

فلما خرج الرجل الغريب قلت :

— أنا واثقة من أن هذا الرجل كان مقيماً بالثكنات فى ليتون ، وما أستطيع أن أنسى أبداً النظرة الغريبة التى ينظرها إلى غيره ، فهل كنت تعرفه فى انجلترا ؟

مضت فترة صمت طويلة قبل أن يجيب زوجى بقوله :

— لقد قابلته هناك

فسألته منفعلة :

— من هو الرجل يا أنطون ؟ ولماذا يلاحقك فى كل مكان ؟

فأجاب أنطون آخر الأمر :

— هو مقاتل وقد ظن أنني أستطيع أن أجد له عملاً ...

ولكنه قطع الحديث فجأة فارتمى على أحد الكراسى وخبأ وجهه بين كفيه وقال :

— لا ... ليس هذا هو الصدق يا مارى إيلين ، فهل تثقين بكلمتى إذا قلت لك إننى سأحاول ألا أراه بعد الآن ؟

فركعت إلى جانب زوجى متوسلة وقلت :

— ما الخبر يا أنطون ؟ إنه مهما يكن من أمر فلن يكون أسوأ من جهلى به، قل يا أنطون، ما شأن هذا الرجل معنا ؟

فنظر زوجى إلىّ بعينين تجلى فيهما معنى الألم وبدا الذبول واضحاً ، وقال آخر الأمر :

— لقد كنت غبيا إذ خيل إلى أننى أستطيع الهرب منه . لقد قلت يا مارى إيلين أن ليس هناك ما هو أسوأ من ألا يعلم الإنسان الحقيقة . ولكن هذا الذى سأرويه لك أسوأ بكثير مما تظنين : لقد كنت أعمل وكيلاً لإحدى التشكيلات ... وهو ... استيفن ... الرجل الذى كان هنا الليلة ، عضو آخر معنا . إنه جاسوس !

وقد نطق أنطون بهذه الكلمة الأخيرة بصوت أجش مختنق

« لا ! » ... إن ذلك لم يكن أمراً واقعاً ، فهذا ما لا يسمع عنه الإنسان إلا فى الكتب . لقد أجفلت متراجعة إلى الوراء قليلاً حتى لا أمس أنطون وقلت :

— ليس ما تقول صدقاً يا أنطون ، قل لى موكداً إنه ليس صدقاً ... إنك رجل انجليزى فستحيل عليك أن تفعل ذلك ...

فضحك أنطون ضحكة المكتئب وقال :

— أنسيت أننى قلت لك من قبل إننى نشئت على ألا أحسب نفسى انجليزيًّا ؟ ألم يحدثونى عن أرض الوطن! يا لله ! إن والدىّ لم يدركا معنى ما كانا يفعلان ؟

ثم قال فى صوت خاشع :

— أظن أنه كان طبيعيًّا منهما أن يتعلقا بأصلهما القديم ، وما كانا يستطيعان أن يتصورا أنه قد يبلغ بى البله إلى أن أحسب أننى بمثل هذا العمل أؤدى عملاً عظيما وواجباً نبيلاً لأبناء وطنى . لأننى كما ترين كنت لا أزال أعد نفسى ألمانيا قبل أن أكون انجليزيا ، ولم يغير هذه العقيدة فى نفسى إلا مولد تونى

فصحت وقد ثارت نفسى :

— وهذا الرجل ... هذا الذى يسمى استيفن أكان التجسس هو السبب فى التحاقه فى الجيش ؟ وهل التقيت به هناك من أجل ذلك ؟

فقال زوجى فى تأن :

— لقد طلب منى أن أتصل به . والحق أننى قابلت ذلك بالرضا أول الأمر ، فقلت لك إننى كنت أحسبنى أخدم وطنى

فسألته :

— ولكن لماذا تحتاج دولة أخرى إلى معلومات من النوع الذى تستطيع أن تعطيهم عن الخزانات والأنفاق ؟

فأجاب أنطون وقد نمت نغمة صوته عن ألم اليأس الذى يحز فى صدره :

— ولماذا يدسون رجالهم فى مصانع الطيارات

ومعامل الفولاذ ، لماذا يدخلونهم فى الجيش كما دخل استيفن ؟ ذلك لأن كل شىء يعلمونه عن المرافق الحيوية لأية دولة أخرى قد يكون ذا فائدة كبيرة إذا نشبت الحرب

ولما تراجعت إلى ظلال الضوء المحيطة بى أمسك بيدى وقال :

أتصدقيننى يا مارى إيلين إذا قلت لك إننى لم أعط هذا الجاسوس أى شىء له قيمة ما ؟ وإننى لم أعطه أية معلومات على الإطلاق منذ ولادة تونى ؟

وتوقف أنطون عن الحديث برهة ثم مضى يقول فى تحمس :

— لقد أدركت عند ما ألقيت النظرة الأولى على ابنى أنه خير لى أن أموت من أن أخونه. وأظن أننى قد ولدت من جديد عند ما أدركت هذه الحقيقة فيجب أن تصدقى هذا الذى أقول

فقلت وقد ارتعشت قليلاً على الرغم من حرارة الغرفة :

— إنى أصدقك ، ولكننى فقط أخاف ذلك الرجل استيفن !

فقال أنطون فى تأن :

— لقد قلت له الليلة ما قلت لك ، ولا أظن أنه سيضايقنى بعد الآن .

فقلت :

— إننا نستطيع أن نرحل من هنا ، ويمكنك أن تحصل على عمل آخر

فهز أنطون رأسه وقد بدا العبوس على فه :

— إننى لن أهرب مرة أخرى !

وجذب رأسى إلى صدره ، وكدت أبكى لما لاحظت من اشتداد نحوله فى الأشهر الأخيرة . وقد قال :

— لم يكن لى أن أخبرك بشىء من هذا فقد أصبح كل ذلك فى حكم الماضى

وعدنا تدريجاً فى الأيام التى تلت تلك الليلة إلى حياتنا العادية حتى لقد بدأت أعتقد أن أنطون كان على حق فيما قاله . ولكن لم يكد ينقضى أسبوع واحد حتى عاد أنطون إلى البيت تحت انفعال خفى هو على صمته أفصح دلالة من الكلام المنطوق . على أننى لم أستطع أن أفاتحه بشىء إلى أن انتهينا من العشاء الذى خيم عليه الصمت الرهيب ، وقدم أنطون عن المائدة لا ينبس بحرف ، وعندئذ لم أطق الصبر ولم أستطع حبس الكلمات التى كاد يخنقنى حبسها . فقلت :

— إن هناك يا أنطون خبرا سيئاً تخفيه عنى ، وما أشك فى ذلك أبداً !

فنظر إلى نظرة مستقيمة وقال :

— أما هذه المرة فليس هناك من أمر خاطئ يا مارى إيلين ، غير أنه ليس أمامى متسع من الوقت للتفصيل !

فقلت هامسة :

— أهو استيفن ؟

وهل أنت ملاقيه مرة أخرى ؟

فهز أنطون رأسه فى تردد واشمئزاز وقال :

— هل تثقين بى يا مارى إيلين مرة أخرى واحدة ؟ وإنى أعدك أنه لن يكون هناك بعد هذه المرة ما يدعو إلى الخوف

ثم تركنى وذهب ، وأعقبت خروجه فترة صمت خيل إلىّ أنها أجيال لا عداد لها ، وقد وقفت أفكر فى الأحلام الباطلة التى حلمت بها عن الحياة الطبيعية

السعيدة ، فكرت فى هذه الأحلام فوجدتها تتلاشى فى محيط من اليأس عميق . لقد وعدنى أنطون بأن هذه ستكون آخر مرة يلتى فيها استيفن ، ولكن هل يستطيع الرجل الذى انزلقت قدمه إلى هذا الشرك المعقد أن يخلص نهائياً مما يكتنفه من الأشواك والعقد ؟

خيل إلىّ وأنا واقفة فى مكانى عاجزة عن عمل أى شىء ، إننى سأجن ، فقد كنت على علم بأن زوجى ربما كان فى هذه اللحظة يضع بين يدى هذه العصابة من الجواسيس معلومات قد تؤدى إن قريباً أو بعيداً إلى إهلاكنا جميعاً ، وأية قيمة لأن تكون هذه هى آخر مرة يساهم فيها فى مثل هذه الأعمال الشائنة الفظيعة ؟ إن علمى بما فعله سيقف دائماً حائلاً بيننا وبين السعادة التى كنا ننشدها ، فكأن جمرة ملتهبة قد توغلت فى أعماق ذكرياتنا فهى تحرق كل مايصادفها وليس فى المقدور اتقاء نارها

وتونى ؟ سينمو ويكبر فى محيط من الخوف والشكوك . لقد تصورت أن بكاء نفسى إن هو إلاّ من أجل تونى وحده . ولم يكن فى مقدور الدموع أن تصل إلى موضع الألم الذى يثيره فى صدرى التفكير فيما قد يكون أنطون مقدماً عليه لإهلاكنا نحن وجميع الأمهات والأطفال الذين يشتركون فى الميراث الذى يحاول مثل استيفن وشركائه أن يسلبوه

الاستقلال ! الحرية ! لم يصبحا فى نظرى مجرد كلمات تقال . لقد أصبحا أمراً حيوياً لى ولولدى كالهواء وحرارة الشمس . ورأيتنى على حين فجأة أساهم مع جميع الرجال والنساء الذين ذهبوا من قبلى فى عزم شديد للدفاع عن ميراثنا المجيد مهما كلفهم ذلك الدفاع من تضحيات

كان هذا العزم هو الذى دفعنى إلى آلة التليفون فقد يكون فى الوقت متسع لأن يجدوا أنطون ويحولوا بينه وبين ما هو مقدم عليه .

سأتألم غداً من فظاعة ما أنا مقدمة الساعة على عمله؛ وسيكون فى سنوات الكآبة المديدة المقبلة ما يكفى لأن أدرك ما يجب على أن أعمله . أما الآن فكل ما يجب عمله هو أن أسرع العمل إن كان لابد من أن أنقذ أنطون من الهوة التى حفرتها له معاول الولاء الخاطىء الذى تظاهر به أبواه للبلاد التى تركاها وراءهما .

على أنه لم يكن هناك ، مع ذلك ، ما يدعو إلى الاستعانة بالتليفون ، بذلك نبأنى صوت سيارة وقفت أمام الباب

وأظن أننى قد فتحت الباب وإن كنت لا أذكر كيف فتحته ، وكل ما أذكره أننى قرأت على وجه رجل البوليس الجسيم الواقف أمامى ما جاء ليخبرنى به

فصحت : أنطون

ولعل الكلمة قد خرجت وحدها من بين سحب الشكوك التى كانت تكتنفنى وتظلم كل شىء فى وجهى .

فقال رجل البوليس :

— لقد قتل يا سيدتى ، ولا بد أن يكون الرجل الآخر — الذى يتسمى باسم استيفن — قد فطن إلى أن هناك شركاً منصوباً له ، فأطلق النار على زوجك قبل أن نستطيع القبض عليه

وسمعت نفسى أردد قول رجل البوليس : « شرك ! ولكن زوجى ؟ »

فقال لى الرجل فى لهجة الجد :

— لا أحسب من مصلحتك كثرة الكلام الآن يا مسز ماير ، ولكن يكفى أن تعلمى أن زوجك

قد مات فى سبيل وطنه ، كما لو كان قد قتل فى ميدان الحرب ، ولا بد من أنه كان عارفاً بمقدار الخطر الذى يتعرض له بتسليمه بعض النماذج التى أعدتها بنفسى لنستطيع أن نقبض على ذلك الرجل متلبساً بالجريمة

لقد كان أنطون عالماً بما يجب عليه أن يفعل حين قال لى : « ثق بى ... وإنى أعدك ... بأنه لن يكون هناك بعد الآن ما يدعو إلى الخوف »

ولكننى لم أدرك قصده وشككت فيه ... شككت فى أنطون الذى برهن على حقه فى أعظم ميراث يستطيع الإنسان أن يطالب به ... ذلك أن يكون بريطانيا ...

قد تكون قصة موته واحدة من آلاف الأخبار التى ترد بها الصحف فى كل يوم ، وبخاصة أن رجال البوليس قد أغفلوا الإشارة فى تقاريرهم إلى العلاقة الدولية المتصلة بالرجل الذى كان يسمى نفسه استيفن؛ فهناك آخرون يجب الإحاطة بهم ومراقبتهم ويجب ألا يخطر لهم على بال ما نزل بأحد وكلائهم

ولكننى أعرف كل شيء وسيعرفه تونى يوماً ما

إن إنشاء تونى فتى جديراً بالانتساب إلى أبيه وإلى جميع هؤلاء الرجال الذين ضحوا كل ما يحبون فى الحياة فى سبيل الاحتفاظ بحرية بلادهم ، هى المهمة التى لو استطعت أداءها لوفيت لزوجى أحسن الوفاء ولجزيته مما أسأت به إليه فى وهمى .

عبد الحميد حمدى

موت الدوفين

للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

ولى العهد مريض . وإن الفناء لفي سبيله المعبدة التي مهدتها يد المرض إلى بدن « الدوفين الصغير » ومن كل كنائس المملكة ومعابدها تعلو الصلوات حارة ، وتصعد الدعوات خالصة أثناء الليل وأطراف النهار ابتهالاً وتضرعاً لشفاء الدوفين الصغير . وطرقات العاصمة القديمة تبدو هادئة هدوء المقابر . يخيم عليها حزن ... حزن الثواكل . والنواقيس والأجراس تدق فتعلو دقاتها الحزينة المعولة تشق أجواز الفضاء صارخة متضرعة . والعربات ... إن سارت فعلى مهل تفادياً لما تحدث من الجلبة والضجيج . . . وتقاطر الأهلون جماعات جماعات يتطلعون في فضول إلى الحراس والشمامسة بغية التقاط أنباء المحتضر الصغير .

القصر في هرج ومرج ، ورجال البلاط يصعدون الدرج الرخامي ويهبطون في سرعة شديدة ، وفي أروقة القصر وردهاته طفق وصائف الملك وندماؤه يروحون ويغدون في قلق وحيرة مرددين فيما بينهم ما جد من الأنباء الهامة والأخبار المقلقة وانبثت وصيفات الشرف في سائر الحجرات يعولن وينتحبن وهن بين القينة والفينة يمسحن دموعهن اللألاءة بمناديلهن الموشاة المعطرة ...

* * *

اجتمع في حجرة الدوفين المحتضر نفر من الأطباء البرزين تبدو على وجوههم أمارات الحيرة الشديدة واليأس المرير ...

وراح المحافظ ووصيف « الدوفين » الخاص يذرعان الردهة جيئة وذهوباً أمام الحجرة في قلق واضطراب منتظرين حكم القدر النافذ وكلمته القاضية ومر بهما في أثناء ذلك خدم المطبخ فلم يحيوهما . وهل ثمة بال الآن لتدارك آداب التقاليد المرعية ؟ ولكن وصيف « الدوفين » الخاص سبهم سب المغيظ المحنق بينما غمغم المحافظ ينتف من أشعار هوراس ... ومن ناحية الإصطبل سمع صهيل جواد في نبرات نائحة حزينة . إنه جواد الدوفين الصغير ، وقد أهمله الخدم ولا ريب ، فلم يضعوا له طعامه المألوف !

والملك ! ... أين جلالة الملك ؟! ... أجل ... إنه وحيد في حجرة مقفلة ، نائية عن كل حجرات القصر ... إذ يجب ألا يرى ذوو الدم الملكي باكين معولين . أما عن الملكة فهذا شيء آخر . إذ جثت بجوار فراش المحتضر العزيز بعينين أترعهما الدمع السخين ، وإنها لتبكي وتنوح بصوت يفتت الأكباد كما تفعل أية امرأة أخرى في هذا الموقف الصعب الشديد !

الدوفين The Dauphin : لقب كان يطلق على أكبر أبناء ملوك فرنسا من سنة ١٣٤٩ إلى سنة ١٨٣٠

ورقد الأمير الصغير على سرير الموت بعينين مسبلتين ووجه أشد بياضاً من الوسادة التى غاص فيها رأسه الصغير ، وحسب الجميع أنه نائم ، وما هو بنائم ، إذ التفت نحو أمه الجاثية بجواره وقال حينما رأى دموعها الغزار :

— سيدتى الملكة ! لماذا تبكين ؟ أحسبك كالآخرين تظنين أنى سأموت حقاً ! ؟

فحاولت الملكة أن تتكلم فخنقتها العبرات

— لا تبكى يا سيدتى الملكة ... إنك تنسين أنى ولى العهد . إن أولياء العهد لا يموتون بهذا الشكل ، ولا يؤخذون بمثل تلك السهولة

ودب دبيب الخوف فى قلب « الدوفين » حينما ألفى أمه تواصل النحيب . ثم قال :

— كفى يا سيدتى عن هذا العويل ، فلن أسمح للموت أن يأخذنى ، وإنى لمانعه عن الدنو منى إذا أتى . مُرى فوراً أربعين من رجالنا الأشداء فيحيطوا بسريرى ، وجهزوا المدافع الكبار تحت النوافذ وويل للموت إذا حضر بعد ذلك ! ...

فأصدرت الملكة أمرها بكل ذلك تحقيقاً لرغبة المحتضر الصغير . فلم تمض بضع دقائق حتى سمعت قرقعة عجلات المدافع فى الوصيد . وأحاط أربعون حارساً بالسرير مدججين بالسلاح . وعقد الدوفين ذراعيه فوق صدره وظل ينظر فى وجوه حراسه من الموت . فعرف أحدهم وناداه قائلاً :

— لورين . . . لورين . . . فتقدم الجندى نحو السرير خطوة . فأردف ولى العهد :

— إنى أحبك كثيراً يا جندىّ القديم لورين .. أرنى سيفك الكبير . . . ستقتل الموت ولا مراء إذا أراد أن يأخذنى ! ... هيه ؟ ...

فأجاب الحارس وقد تحدرت دمعتان كبيرتان على خديه :

— أجل ... أجل يا مولاى ! ...

هنا أقبل قس ودنا من الأمير وكلمه طويلاً فى صوت يشبه الهمس ثم أراه الصليب ، فأصغى الأمير إليه فى دهشة عظيمة ثم قاطعه بقوله :

— لقد فهمت ... ولكن ... ألا يقبل صديقى الصغير « بيبو » أن يحتل مكانى ويموت بدلاً منى ونعطيه على ذلك أجراً كبيراً ؟ !

فعاد القس إلى حديثه المنخفض بينما أخذت أمارات الدهشة تمحى رويداً رويداً من وجه الدوفين الصغير ، وقال ولى العهد عندما انتهى القس من حديثه :

— محزن كل ماتقول ياسيدى . ولكن مايعزينى ويدخل على نفسى الصبر والجلد هو أنى سأظل فى الجنة ولياً للعهد . وإنى لأعلم أن الله هو ابن عمى . وسوف يحسن وفادتى ولا ريب لمنزلتى لديه

ثم نظر إلى أمه واستأنف الحديث :

— مُرِى بأجمل ثيابى ، وبجميع لعبى ودماى . إذ أنى أريد أن ألقى الملائكة وأدخل الجنة تحف بى العظمة والأبهة بما يليق بمنزلتى ومقدارى ! ...

فانحنى القس على الأمير للمرة الثالثة وأسر له حديثاً . فقاطعه الأمير فى لهجة غاضبة :

— إذن ماذا أفيد من كونى ولياً للعهد ...

ورغبة منه فى عدم الإصغاء إلى حديث آخر أدار وجهه إلى الحائط وأنشأ يبكى وينتحب ...

محمد عبد الفتاح محمد

من حياة الريف

قصاص...

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب السيد محمد العزاوي

كان يظن أني غافل عن كل هـذا ، لأنني كنت مندفعاً اندفاعاً لا يسمح لأحد بالتمتع بشيء مما كان يرى . ولـكن مرائي الطريق كانت تشير في ذهني ذكريات النزه الشائقة والليالي المقمرة ، والقرويات الحسان ؛ وصيد السمك ، وقنص الطير وحمدان وهندوان.

كانت الشمس تجنح للمغيب حين جاوزت قرية (د...) مندفعاً في الطريق الزراعي إلى مدينة (ب...)، وكانت الطبيعة ساكنة إلا من خوار بقرة بعيدة ، أو زقزقة عصفور . وكان الهواء يهب رخياً هنياً ، فيداعب عيدان الذرة الخضراء الممتدة في الغيطان من حولي إلى أقصى الأفق . وكانت الظلال وادعة لا يحرك منها إلا تنقـل الطير على أفنان الأشجار المورقة ، وكانت هـذه تقوم على جانبي الطريق ، وتتكاثف في الجانب الأيسر ، فكانت تحجب عني النهر في معظم الأحيان . على أنني كنت أستطيع أن أرى أشرعة السفن البيضاء تجري في صفحة الأفق القريب ، وكنت أرى الشمس حين تسمح لي بذلك فروج الشجر قد ذهبت حواشيه فأتبعه بصري حتى يغيب وراء الشجر المتكاثف ، أو ينتهي بي البصر ، حتى ينعطف النهر فلا أراه !

كانت هذه المناظر تتواثب من حولي ، بينما أنا منـدفع في هذا الطريق المنفرد في هذه الشقة من الأرض . وكانت تهزني لدى رؤيتها بعض الذكريات فأبتسم لنفسي فرحاً مسروراً . . . على أن من رآني

وانعطفت إلى اليسار ، فقد بلغت حنية النهر ، بعد ما ندى العرق جبيني، وتلفت حولي لأرى الزورق فينقلني إلى الشاطئ الآخر حيث تقوم دار صديقي وقفزت في الزورق الراسي إلى الشاطئ، ولـكن... أين العم حمدان ؟ وتلفت حولي — مرة أخرى — مندهشاً لأرى عم حمدان ... فلم أره ! ولم أر أحداً حولي إلا فتى في ظل توتة ، ينسج طاقية من الصوف وهو يغني . وزادت دهشتي وحيرتي ! فأنا أعلم أن العم حمدان لم يكن ليفارق زورقه طوال يومه ؛ بل كان يسير به في عرض النهر : إما حاملاً الناس إلى الشاطئ الثاني من النهر ، أو متصيداً السمك . ولم أره طوال إقامتي في العام الماضي ـ لدى صديقي ـ يتركه أبداً ... فكيف ترك زورقه اليوم ؟ !

ولعل الفتى الناسج الشادي رأى حيرتي وتلفتي فهب إلي مسرعاً خفيفاً ، وقفز إلى الزورق مبتسماً ومعتذراً . فقلت له بعد أن رددت التحية :

— فأين إذن العم حمدان ؟

فهز الفتى رأسه وتمتم :

— أظنه هو الذي كان يعمل في هذا الزورق قبلي ، إنني أعمل هنا منذ ثلاثة أشهر يا سيدي

ودفع الزورق فى عرض النهر بساعديه المفتولتين وطفق يضرب النهر بمجدافيه فيزيد صوت التطامهما بالماء هذا الشعور الرخى فى نفسى ؛ وكان شعوراً عجيباً من السرور يشوبه نوع من الحزن . فقد تعودت أن ينقلنى عم حمدان إلى الشاطئ الآخر ، وخالجنى الحزن بقوة لا أدرى لماذا . فلعله كان من أغراض رحلتى — دون أن أعلم — أن أتمتع بمرآه هو وابنته « هندوان » . فحزنت لأن جانباً من رحلتى لن يتحقق . على أنى — والله — كان بى شوق إلى الرجل وابنته . فقد نمت بيننا الألفة رغم أيامى القصيرة التى قضيتها عند صديقى منذ عام .

ولأمر ما التفت نحو الشاطئ حيث كان يسكن وابنته فى كوخ هناك لا يبعد كثيراً عن آلة الماء . ها هى ذى آلة الماء قائمة لا تزال، وهاتان الصفصافتان ما زالتا ، وتحت الثانية كان الكوخ يقوم . ولكن أين الكوخ ؟ ... حقاً كان هناك شىء لم أتبينه ، فلعله هو . نعم هو ! . . . فقد تجلى لى من موضعى الجديد . إنه محطم ، وخاصة مؤخرته كأنما دكتها صاعقة . وبدا لى جانبه المجاور للنهر محطماً مهدوماً ، ورأيت الطحلب الأخضر قد علا وصيده الحجرى والدرجات الهابطة منه إلى النهر ، والنافذة التى أراها الآن محطمة، وسماء الكوخ الثانى قد مال فى المؤخرة إلى الأرض ، فكأن الكوخ كلب أقعى ... ترى ماذا حل بالكوخ ؟

وكان الزورق ينزلق على صفحة الماء المذهب فى سرعة وخفة ، والجو جميلاً فاتناً ، والطيور تثب من حولى على غصون الشجر رائحة إلى أوكارها ... وهنا على الضفة الأخرى كانت تقوم محلة صديقى . بل هذا منزله مستشرفاً بين المنازل المتواضعة بطابقه الثانى ذى الشرفة المطلة على النهر . كل هذا كان يحوطنى ، وكنت شاعراً بكل جمال فيه أو مظنة لجمال . غير أنى كنت أشعر بفراغ كبير من حولى فقد فقدت هذه الشقة جزءاً كبيراً من شخصيتها ، حقاً ! إنك لم تكن لتتذوق جمال المكان إذا كنت لم تعرف عم « حمدان » و « هندوان » ! !

وتراقصت أمامى الأشكال والصور سريعة تتواثب : فها هو ذا عم حمدان ينقلنى إلى البر وينقل الناس إلى القرى المحيطة ، لا يقعد به تقدم السن عن ذلك... وها هو ذا فى يوم الخميس لا يكاد يحك جلده من كثرة عمله ، إذ اليوم سوق المدينة ، وها هو ذا يتصيد فى عرض النهر بشباكه نشيطاً قوياً . . . ها هو ذا فى الليل نافخاً فى أرغوله الحنون؛ ثم فى صباح الشتاء العابس ، يسبح فى النهر ، ولا تكاد ترى إلا رأسه الأشيب ، ووجهه العربى قوى الملامح ، ولحيته الشهباء يتحلب منها الماء ! ... وهندوان اللطيفة الناعمة ... ها هى ذى تملأ الجرة مع الفجر وأبوها يستحم ! فلا تقوى ساقاها اللطيفتان على حملها هى وجرتها الصغيرة ... ها هى ذى غادية مع الصباح فى ذلك الطريق الأشجر إلى قرية (د...) تسير صامتة حزينة على نغم الخلخال الفضى المريض؛ ثم ها هى ذى تلقاك باسمة خفرة، ولكنك تلمح فى بسمتها شيئاً من الأسى الدفين ، تقرؤه فى زمة شفتيها اللعساوين ؛ وعلى وجهها إشراقة الروح المعذب يتراءى لك فى سحابة خفيفة تظلل وجهها الصبوح الأسمر ، وعيناها الواسعتان المكحلتان ، وأهدابها الغضيضة الوطفاء . . . كل هذا كان مليئاً بالسحر الحزين الكسير ! ... ...

وقطع علىّ حبل التأملات صوت الزورق ينبهنى

أنا قد رسونا ، فغابت عن ذهنى كل التأملات كما غابت الشمس من وراء الأفق . ونقدت الفتى أجره ، وقفزت إلى البر يحدونى الشوق ويغذ من خطاى … وما انفتح البـاب حتى غبت فى أحضان صديق الواسعة ، ولم أفلت منه إلا بعد لأى . واندفع يثرثر ويجأر بحنجرته القوية ، ويقفز هنا وهناك بجسده البدين . وجادت قريحته ، وفرهت نكتته . وأعدانى بمرحه فطفقت أضحك حتى دمعت عيناى … وكانت الأحاديث متتابعة مبتورة مسرعة . إذ كانت تثيرها ذكريات مشتركة متفرقة من عهد التلمذة ، وبدء التوظف والتغرب ؛ وتدير دفتهـا ميول متوافقة وأمزجة متحدة فى سرعة وخفة . فهى تعرج بنا إلى حادث ما فترينا منه لمحة ، وتعرج بنا على ثان وثالث ورابع … وتناولنا طعام العشاء وأثقل على صديق فأفرطت فى الأكل إفراطاً بعث فى جسدى الخدر والاسترخاء ؛ فاستلقيت قرب النـافذة أستروح النسمات العذاب . وكان القمر يلتمع فى سماء الصيف الصقيلة الرائعة

وكان السكون منعقداً فى الخارج لا يشوبه إلا عواء ذئب أو نعيق بوم . وبعد مدة من الصمت صاح بى صديق :

— ما لك قد سكت …

فأجبته : لا شىء

وعاودت النظر إلى البرية ، وفى نفسى قلق الباحث عن شىء ما ، وكان سكون المكان يثقل علىّ ويبدو لى غريباً . وملكتنى وحشة لم أدر كنهها . . فلو أن نوتيًّا مرّ فغنى وأقلق ذلك السكون، أو أن كرواناً مزق هذا الحداد ، أو داعب عم « حمدان » أرغوله بأنامله الدقاق ! ولكن لا شىء من هذا !

وثبت نظارى على الكوخ ، والتفت إلى صديق قائلاً :

— أين راح عم حمدان ؟

— إنه الآن بائس مجنون

— مجنون ! ؟ منذ متى ؟

— من ثلاثة أشهر

— وإلى أين ذهب ؟

— إلى حيث لا أدرى ، ولكنه يغشى المكان بالليل كثيراً

— ولماذا جن ؟

— قلت لى لماذا . حسن !

***

هبط عم « حمدان » وابنته ـ اثنين لا ثالث لهما ـ هذه الشقة من الأرض قبل أن أبتنى هذا المنزل هنا . وأكبر الظن أنهما هبطاها قبل أن يبجها محراث ، أو يشققها ماء . ولم يكن أحد يعلم من أمرهما أكثر من ذلك . اللهم إلا أنه عربى ناهز الخامسة والخمسين ، وأن له خبرة — ككل عربى — بأمراض الغنم وأصوافها . فكانوا يقصدونه لاستشارته ، وأنه أشبل على ابنته الوحيدة التى يحبها حباً جماً

ولا أدري كيف ومتى أوحى للعم « حمدان » أن يتخذ الزورق حرفة له . ولكنى أتيت فألفيته يحمل الفلاحين والتجار الذين يأتون من القرى المحيطة للاشتراك فى سوق المدينة يوم الخميس . ولا تحسب أنه لم يكن يغل كثيراً من عمله فى تلك الشقة المنعزلة من الأرض ، كلا فقد كان دائماً فى عرض النهر رائحاً جائياً يتغنى بأغانيه الريفية طوال النهار؛ وكانت ابنته تنام مبكرة ، ولكن أباها كان يخلو إلى نفسه بالليل بعد أن يطمئن عليها مرات ومرات . ويحتبى بعد ذلك بالنار ، سواء فى ذلك لديه الصيف والشتاء ،

فينفخ فى أرغوله المرن ساعات ، أو يغنى بعض أغانيه التى سمعناها معاً ؛ أو يداعب حظه فى « السيجة » مع أحد أضيافه ، أو يغزل الصوف فى صمت وتفكر وبين يديه الشاى المربى على النار يغلى . وأكبر الظن أنه لم يكن يشغل ذهنه إذ ذاك إلا ابنته لأنه كان يقوم من آن لآخر ليرى ابنته ويطمئن على غطائها جيداً . كانت هذه حاله جل الليل ، فإذا ما داعبه الكرى قام فتطرح إلى جنب ابنته على أن يصحو مع الفجر !

أما «هندوان» فكانت واهنة تغالب الموت شقية تجالد الألم ! كانت روحاً منعزلة تألف الحزن والوحدة وكان أبوها يحبها حباً ملك عليه كل حواسه . فلم يكن يحيا إلا لها وبها بعد أن أشبل عليها فلم يتزوج ؛ وكان يضن بها على العمل وشقوته . ولم يكن يتوانى فى قضاء ما تهفو إليه بغية إسعادها . ولكن ضعف الفتاة وهزالها كانا يفزعانه ويزيدان عطفه عليها وإشفاقه . فلم يكن يستريح فى سهرته الطويلة إلا بعد أن يطمئن عليها نحو خمس مرات . حقاً لقد كان يعزها إعزازاً صامتاً يبدو فى حركاته ونظراته أكثر مما يبدو فى كلامه .

وكانت الفتاة رغم هذا تضمحل وتذوى كالزهرة حرمت الغذاء . فقد كانت نفسها تتطلب شيئاً آخر ، كانت تعصف بها عاصفات من الحنين والألم كثيراً ما جعلتها تسخط على أبيها العجوز ، وكثيراً ما كان خيالها يسبح وهى جالسة أمام المدفأة الصغيرة فى ليالى الشتاء فيصور لها ما تهفو إليه من رؤى السعادة والهناء . كانت حزينة تجتر أحزانها فى ألم وسكون ، وأبوها يرقبها فى حنان ، ويبذل كل ما يستطيع ، ولكن الفتاة كانت تنفر من كل شىء حتى من عطف أبيها .

وكثيراً ما كانت تسهو فتمضى الليل ناظرة من نافذة الكوخ فى تطلع وحزن مصمدة بصرها بين النجوم فى حيرة وتنهد . وقد يدخل أبوها فيراها على حالها هذه ، فتطغى على نفسه الكآبة ويغشاه الحزن ، ولكنه ما يلبث أن يسري عن نفسه ، ويضاعف حبه لها واهتمامه بها ليصرف عن نفسه أفكاراً تخامره من حين إلى حين .

كان يزداد بها كلفاً ، وهى تزداد نحولاً وحزناً . وكان يتساءل فيما بينه وبين نفسه مالها تزداد كل يوم حزناً ونحولاً . ما للمرح قد تولى عنها ، وما لشفتيها الضاحكتين قد زمتا ، وانطفأ بعينيها الكحلتين الواسعتين بريق غريب ؟ ما بالها تلك البنية ... ؟ كان أبوها بين حب لها يسعده ، وإشفاق عليها يشقيه ؛ فكان مثلها يتعزل الناس ، وينصرف إلى أرغوله يبثه لواعجه وأشجانه فيحيلها حزناً رخيًّا ينساب به مع الليل ... فى هذا الكوخ الوحيد كان يعيش روحان وحيدتان هرمتان . روح أثقلتها السنون ، ونالت منها الأيام ؛ وأخرى شابة تخطت نحو الشيب خطوات وهرمت قبل الأوان ... كانا نجمين كليلين وحيدين يهيان فى سحاب ثقال

وأكبر الظن أن الفتاة كانت تروض نفسها رياضة ، وتحمل نفسها حملاً على الرضا بما هى فيه من ألم وحرمان ؛ فقد كانت تحب أباها الحب كله ، وتشفق عليه كل الإشفاق . ودت إذن لو تستطيع أن تحمل نفسها على أن تستعيض به عن الزوج والولد ؛ وأن ترضى بحبه ما يجيش فى صدرها البكر من أحاسيس مبهمة ، ومشاعر غامضة ، وأن تجد فيه ما يسبح إليه الخيال فى ليالى الشتاء الطويلة الحزينة الباردة

ومضت الأيام على ذلك تترى والحال هى الحال . فقد كانت تقوم على شئون الكوخ البسيطة القليلة . وكان أبوها يذرع النهر بقاربه ويتصيد ؛ وكان يجلس كل ليلة إلى ناره وأرغوله المرن الصادح . وقد كان يعتز بها الاعتزاز كله ، فهو قد جمع فيها آماله ، وركز فيها أهله ، وكانت الأيام لا تزيدها به إلا حبا ، وكانت الأيام لا تزيده إلا تمسكا بها وكلفاً . وقد كان أبوها يرفض كل يد تتقدم إليها ما فى ذلك تريث أو نظر ، وما فى ذلك من تفريق أو استثناء .

فقد جاء إليها خاطباً فلاح موسر من قرية د ... هذه ، وهو يملك خمسة أفدنة فرفض ، وتقدم إلى أبيها عربى من محلة ... فرفض . ولعله رفض بعد ذلك أناساً ، ولعله رفض قبل ذلك آخرين . وقد كان ينتحل فى كل مرة عذراً متهالكاً لا يكاد يتماسك ، وهندوان صامتة حزينة ساهمة ، كأنما الأمر أمسى لا يعنيها فى شىء ، أو أمسى يتعلق بأخرى غيرها ... وما كان عم حمدان يزداد فى كل مرة إلا حبا لها وتشبثاً بها ، ورغبة فى إسعادها . وما كانت الفتاة تزداد فى كل مرة إلا شحوباً وحزناً ، وما كانت تزداد إلا نفوراً وانقباضاً ويأساً . والآن ما أشد حزنه حين يرى الفتاة تذوى وتشحب ، وما أقلق قلبه إذ تمتزله وتستغلق منطوية على نفسها بما فى هذه النفس من آلام ولواعج . وما أشد رغبته أن يبهجها ويسعدها ، ولكنه لم يكن يملك من الأمر شيئاً ... طلب لها الطب العربى فما أفاد ، ووسع عليها فى الزينة واللباس فما أفادا ولا أجديا . ورضى بأن يغدق عليها من حبه وحنانه وبره ما قد يرفه عنها بعض ما تجد

وفى ليلة من ليالى الشتاء الحزينة تأخرت « هندوان » فى قرية (د ...) إلى حد كبير ، أقلق أباها فأقامه وأقعده . فلم يُرَ نافخاً فى أرغوله ، ولا مستوياً أمام ناره ، ولكن مولياً شطر هذا الطريق بصره الحديد . وبعد هزيع من الليل عادت مقرورة مضطربة ، ترتعد من البرد ، وتقضقض من الزمهرير . فتلقفها أبوها فى صدره العريض العجوز ولكنها كانت محمومة ترتعد . فدلفت إلى الكوخ ، وازملت بكل ما يصلح للتزمل والغطاء . وأوقد أبوها الدامع ناراً فى الكوخ ، حتى يبعث الدفء فى المسكن ذى الحجرة الواحدة . على أن ذلك لم يغن شيئاً من رعدة الحمى إذ تعلو جسدها اللطيف إلى حين من الليل وباتت هاذية ...

وقال صديق :

وكان العم « حمدان » لا يستريح لأحد من جيرتنا قدر ما يستريح إلى . فدعانى ليلة لأعود ابنته فلبيت وأسرعت إلى الكوخ لهفان مشفقاً . وكان ظاهراً لى أنها حمى . هذا حسن ! ولكن أى نوع من الحمى ؟ لم أكن أدرى . غير أنى كنت أعتقد بأنه إن كان للحمى أن تزور مثل هذا الجسد اللطيف الواهن فلا بد أن تترفق به فترسل إليه أسهل الأنواع وأرفقها ! وجلست حيالها وهى منسرقة مسبوتة ، يتقد جسدها بنار الحمى ، ورأسها بدوار الهذيان . كان وجهها يطالعنى ملتهباً ، وأنفاسها تهب على مبهورة ... وغمرتنى حيالها لجج من التفكير المحزن فما من شك أنى كنت أعطف عليهما معاً . ولكننى كنت أشعر نحو الفتاة خاصة بنوع من العطف القوى ، والإشفاق العميق : فإنه يعز على المرء أن يفقد هذه الريحانة فى صحراء مقفرة من الرياحين . فهذه هى ممددة على الفراش ولا عاصم من الموت ،

وها هو ذا عم «حمدان» ساهماً جزعاً لا يملك لها من الأمر شيئاً ، أكلمه فلا يجيب ، وأحادثه فلا يعي . وها هو ذا يحدق فى «هندوان» جهد البصر الزائغ، ويتمتم لنفسه كلمات لا أسمع منها شيئاً . ثم ها هو ذا يغض من بصره إذا ما تلاقى بنظرات الفتاة المدنفة

ومضى على مرضها أيام عدة لا يخرج فيها عم حمدان من الكوخ لينقل الناس أو ليتصيد . ولم يكن يؤرث النار ، أو يدير على الكون أرغوله . وبعد هدأة طويلة من إحدى الليالى جاءنى أغبر الوجه ، أشعث الشعر مصفاراً . فقلت له وجلاً :

— خيراً يا عمى حمدان ؟

فأجابنى فى صوت عميق :

— « هنداوان » !

— مالها ؟

وأجاب صرختى بكاء يكاتمه العجوز ، فيأبى إلا الجهر والعلانية ، ودمعات كالحصات الكبار تنحدر على خده الأسمر . وتأملت الرجل فى حزن وفزع ، فإذا بالعمر قد قفز به إلى أمام عشرة أعوام تغضن فيها وجهه وانحنى ظهره تحت عبئها الثقيل . وفى الكوخ كانت « هندوان » ممددة على الفراش بقامتها الرشيقة وصدرها البكر، ووجهها الحالم يحفها سكون الموت ، ويضمها جلال الفناء . كانت شيئاً جميلاً ازدانت به شقة من الأرض، وعاش من أجله شيء عجوز . كانت نجماً وحيداً غرب سريعاً فى صمت وجلال ؛ فأظلمت لغروبه شقة منعزلة من الأرض ، وأقفرت نفس عجوز ، وانحطم زورق عتيق ؛ ودمعت عيناى لهذا البؤس الذى أرى . ولكن العم حمدان أمامى جازع فزع ، لا ينئ عن البكاء أو العواء ! فقد كان يبكى كالطفل ، ويعوى كالذئب ، بل كالكلب العليل . وكانت أول مرة أرى فيها شيخاً ينشج نشيج الأطفال ، ويجزع جزع الثكالى . فطفقت أخفف عنه ما يجد بمعض العزاء ، بل بكل العزاء الذى أملك . ولكن ذلك لم يكن ليحول بين ذراعيه البائستين وبين أن يلوحا فى الهواء كأنهما يهددان ما لا أرى من شخص أو شيء أو شبح ، أو يحول دون أن يعوى عواء مؤلماً كسيراً :

— رب ! ماذا فعلت لكل هذا ؟

فكأنما الكارثة لم تحل بساحته إلا لذنب جناه وكأنما هى قصاص !

— ماذا فعلت حتى تجازينى بهذا ... ماذا فعلت يا رب ! !

وكان عمى حمدان حريصاً كل الحرص على أن يشيح بوجهه عنى . فكأنما هو خجل من أن أراه على حاله هذه ولكنى تأملت الرجل من دموعى الواكفة وقد كنت أحس كأنما هو يخفى عنى شيئاً هو مبعث كل هذا الجزع والحزن وقد شعرت بأنه يخفى عنى بينه وبين نفسه جريمة ما يحرص كل الحرص على ألا يذيع من أمرها شيئاً . فلعله كان يحس بأنه هو الذى أذوى شباب الفتاة بشيبه ، وحطم آمالها بأنانيته ، وقتل قلبها بغرامه ، ولعله كان يحس بأكثر من هذا ، بأن ما حل بفتاته لم يكن إلا السخرية من أنانيته وتشبثه ، وقصاصاً على حساب من يهوى ويحب . أدركت ذلك كله ، وخشيت منه على العم حمدان أن

يرهقه هذا الشعور ، ويثقل عليه ، ولكنه كان يحاول أن يروض نفسه على الرضا فلا يقدر ، وأن يقهر نفسه على التسليم فلا يستطيع ؛ وكان التفكير فى ذلك يغرقه فى ذهول عميق . وما أظنه كان يفكر فى شيء غير هذا إذ يبيت أمام كوخه يشعل النار وينفخ فى الأرغول ، وإذ هو يصرخ فى أرغوله صرخات جازعة ملتاعة هى دون شك صدى آلامه .

وما أظنه كان يفكر فى شيء غير هذا إذ يقضى سحابة يومه محدقاً فى مياه النهر المتدفقة لا يكلم أحداً فكأنما ختم على فيه . وأكبر الظن أن آلامه كانت تتجسد على صفحة النهر وأن أشباحاً مفزعة كانت تتراقص على أمواج الماء المتدفق المترحل إلى آفاق بعيدة نائية

وعلت وجهه الصفرة ، واحتوى جسده الجزع وتمشت فى جلده الغضون ، والتمعت عيناه ببريق غريب مذعور لا يثبت على شيء ، ولا شيء يجتذبه .

وشاع بين الناس أن مساً أصاب حمدان

ثم ترك الزورق ، وهجر الكوخ ، وذهب

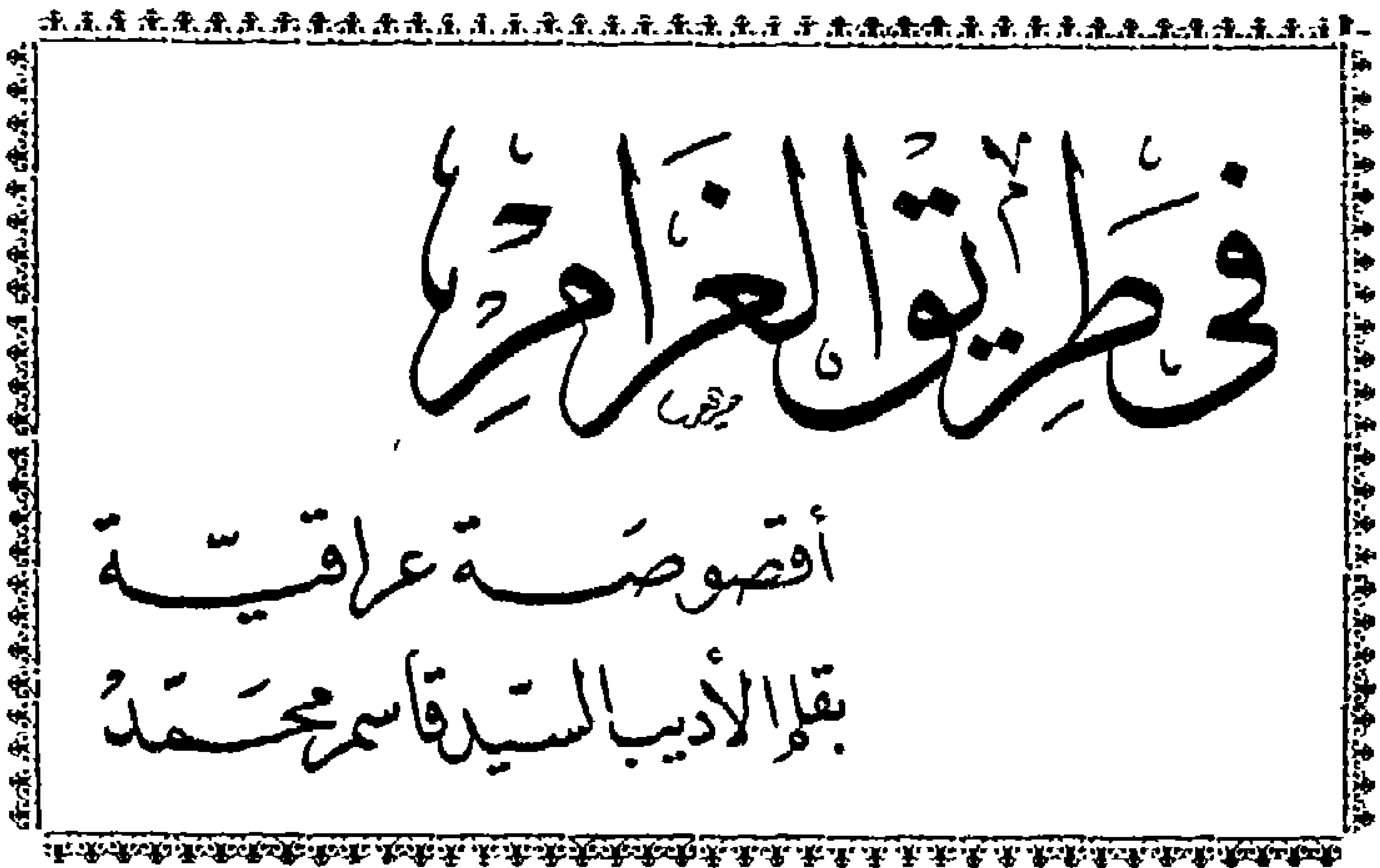
— إلى أين ؟

— لا أدري ولكنه يغشى هذا المكان بالليل كثيراً ...

* * *

وصمت ، وصمت . وانسدل بيننا ستار من السكون كثيف . وبعد برهة صاح بى : « ما بك ؟ » غير أنى صحت به : « صه ! » فقد كنت ألقى السمع إلى أنات أرغول تغالب البعد السحيق

السيد محمد العزاوى



... ولطالما تاقت نفسه للوحدة والانفراد ليخلو إلى أفكاره وأمانيه التى يشغل بها مخيلته لمجرد التسلية وقتل الوقت الذى لم يعد جزءاً مهماً من حياته الخالية التى كرهتها نفسه . فود أن يحدث فيها ولو تغيراً يسيراً ...

تحركت ساقاه كرقاص ساعة كبيرة فارتسم خياله الممتد على سطح جدار متهدم تحت نور القمر الباهت حينما انعطف فى زقاق ضيق انبعثت منه رائحة العفونة وبرزت على جانبيه تلك النوافذ القديمة المقوسة كأنها ظهر أحدب أو شيخ أثقلت كاهله سنو الشباب فراح يحملها معتزا بها فخوراً بذكرها ، ولو أنها أحنت منكبيه إلى الأمام وقوست ظهره فبان كقنطرة بالية ...

ملأ رئتيه ما استطاع من الهواء الندى العفن وزفره ملتاعاً مما غشيه من القلق والهم

يا لله ! إن كل شىء عجيب فى هذا الطريق ... حتى كلابه التى لا تكلف نفسها عناء النباح على المار الغريب ، بل تكتفى أن تنظر إليه نظرة بليدة خالية من كل معنى . . . حتى جدران بيوته التى أبى النور إلا أن يمزقها دالعاً لسانه من ثقوبها المتعددة ساخراً منها لدى الطارقين ، وحتى سطوحها التى أبت أن تعلو عن سطح الأرض كثيراً خشية أن يصيبها الدوار فتسقط حجارتها على قارعة الطريق فتتهشم على أديمها وهذا من حسن حظ العابرين ...

تثاقلت قدماه قليلاً ليشعل سيكارته بعود ثقابه وبعد أن نفث دخانها وتلاشى فوق رأسه كأحلامه المعسولة راح يتطلع إلى تلك النوافذ العجيبة علها تحوى جسد فاتنة تنسيه هواجسه وتلهب دمه ، دمه البارد الذى أوشك أن يتجمد فى شرايينه ... هذا إن كانت تحمل دماً بمعناه الصحيح

لقد ازدحمت الأفكار فى ذهنه وأوشكت أن تسيل على لسانه كلمات يلفظها فتتبدد وتتلاشى ، لولا أن جلب انتباهه صوت امرأة خافت كأنه هفهفة النسيم قد داعبت أذنيه من إحدى تلك النوافذ . لم يتبين المقاطع جلية ليفهم ما قصدته فسبقته عينه متطلعة إلى أخشاب نافذة لا تعلو عن سطح الأرض إلا بأربع أقدام ... لم يبصر شيئاً سوى خيال لا يكذب من يقول : إنه تراءى خلف ألواح خشب شفاف لكثرة شقوقه

لم يدر عابر طريق الغرام الجديد ماذا يعمل تجاه هذا الحلم الحقيقى الغامض فارتكزت قدماه على الأرض كعمودين شيدا من قديم الزمن ، وارتفعت يمناه بسيكارته إلى فمه أما اليسرى فلم تجد ما تعمله سوى

أن تندس فى جيب (بنطلونه) تطلب الدفء

وقف وهو مرهف سمعه ينتظر أن يحمل له الهواء الراكد صوتها الخافت ، ولكن لأول مرة عرف أن الوقت يسير متباطئاً ، ولأول مرة عرف أن الدقيقة الواحدة تكفى لعمل عدة أشياء خلالها وذلك للصمت الذى خيم عليه .

لقد انفرجت كربته ووثب قلبه راقصاً بين حنايا ضلوعه حينما تحركت تلك الأبواب الخشبية الشفافة كأنها عجوز تتثاءب وأطلت من خلال قضبانها الحديدية التى علاها الصدأ إنسية راقت لعينيه . ولم ينبهه من ذهوله إلا صوتها الحاد الرقيق قائلة :

— ألا تستحى !

— آه! كان يجب أن أستحى من جمالك ولكننى ذهلت عن أمرى، فمعذرة ...

— يا لك من وقح ! ...

— أرجو ألا تزعجى نفسك بإنشاء أمثال هذه العبارات وإلا كلفت نفسك عناء كثيراً . فأنا طبق الأصل من أى جملة تريدين قذفى بها ، وكفى ... قالها لاهثاً وبإيقاع موسيقى سريع ، ولم يزد على أن ضحك ، فضحكت هى أيضاً ، وأغلقت نافذتها الشفافة بكل بطء وتراخ فأطفىء نور الغرفة وتلاشى ظلها عن الأبصار ...

لم تكن من بنات الشوارع ، ولم يكن هذا الزقاق الذى يسير به صاحبنا من المواخير السرية، بل لقد أطلق عليه اسم طريق الغرام صاحبنا (مظفر) الذى ما زال واقفاً يتأمل هذا البناء القديم وهذه النافذة العجيبة ...

قال لنفسه بعد ذلك بلهجته الساخرة المرحة ، ولكن بصوت أراده أن يكون مسموعاً ...

— من يصدق أن التاريخ يعيد نفسه ، وأننى الآن فى أحد شوارع ألف ليلة وليلة الخيالية بل ربما كان أكثرها حقيقة لامجاز فيه ؟ . . ألم يكن قبل الآن لا يؤمن بالمعجزات والمصادفات ... ولكنه أصبح فى هذه اللحظة السعيدة أشد إيماناً وأكثر تمسكاً من الجاهل بمعتقداته التى ورثها أباً عن جد فأصبحت جزءاً من لحمه ودمه. وهل فى مقدور الإنسان أن يستغنى عن أحد أعضائه طوع رغبته وإرادته ؟!

كلا ، إن هذا ليستحيل، اللهم إلا إذا كان قد فقد حواسه الخمس ولم يعد يشعر بلذة الوجود ...

لم يسمع إلا ضحكة خفيفة حين سأل شيخاً كان قد مر به وهو لا يزال فى مكانه كالتمثال ...

— أى عمى العزيز ! بيت من هذا ؟

وبعد أن تطلع العجوز بعينيه الضعيفتين إلى وجه صاحبنا فى هذا الظلام ، وقد فاحت رائحة السعوط من أنفه أجاب بكل فتور مستريباً :

— لا أدرى

وهم أن يتابع سيره وهو منقاد لعصاه الغليظة التى أكسبت سيره نغماً موسيقياً خاصاً به وشكلاً يلوح جميلاً فى أعين الفنانين ...

استوقفه متوسلاً وقال له :

— أحق وأنت قد خرجت من ذلك البيت الذى فى نهاية الطريق... أيعقل يا سيدى وأنت فى مثل هذه السن، أنك لا تعلم شيئاً عن جيرانك ؟ هذا إن كنت

لا تلم بتاريخ حياة كل أسرة مفصلاً . . . لا تخش بأساً أيها العم ، أنا لست لصاً ... بل أنا ... أنا أريد أن أستعلم منك فقط عن اسم صاحب البيت وذلك لأنى أريد أن أخبره بشىء ... بأمر ضرورى ...

— وما وجهة الضرر فى هـذا الأمر ؟ هل سيحل به مكروه ؟ قل ما هو هذا الضرر ؟. وأمسك لحيته بقبضة يده اليسرى شأن الشيخ المستفهم . فأجاب مظفر وقد حار فى أمر هذا العجوز الجاهل إذ لا يفرق بين الضرورى والضرر :

— لا يا شيخ ، أريد أن أقابله

— وكيف تقابله وأنت لا تعرفه ؟

— لأبين له حقيقة حالى ...

فسعل الشيخ وقال :

— أتقدم إليه صورتك ؟ ولماذا ؟

أجاب مظفر وقد نفد صبره قائلاً :

— أريد أن أشرح له قضيتى . . أريد أن أبين له مسألة تتعلق بى . قل لى بربك من هو ؟ وإلا اضطررت إلى سؤال غيرك

فقال الشيخ وقد ارتسمت الحدة على وجهه ودق صوته وارتفع ...

— يلوح لى أنك غريب عن هذا البلد وإلا كيف تجهل من كان ... ولم يتم كلامه حتى فتحت النافذة التى تطلع إليها صاحبنا وظهرت الفتاة ثانية إذ قالت :

— يا عمى الشيخ حسين (وكان هذا الشيخ يتردد على جميع العائلات فى ذلك الحى لـكبر سنه ولأحاديثه المسلية ولأنه يعرف التنجيم)

فقطع جملته التى كان مظفر يتطلع إلى نهايتها وأجاب :

— نعم يا بنيتى

فسألته متجاهلة :

— ماذا بك ؟ هل أنت تختصم ؟ لقد سمعت صوتك نخفت أن ... تعال تفضل وحدثنا بقصتك التى وعدتنا بها أمس .. نحن ننتظر ، الباب مفتوح .. أدخل . .

ولم يجد الشيخ مخلصاً من هذا السائل غير الهرب فأدار وجهه شطر الباب ودخل وبقى صاحبنا فى محله وقد توسط الطريق كشرطى المرور ...

أراد البقاء فى محله ولـكنه خجل من نفسه ، ورغب فى المسير فلم تطاوعه . حانت منه التفاتة إلى زقاق يتفرع من هذا الطريق فرأى شخصاً لم يتبينه لأول الأمر ولكن يبدو عليه أنه قد أفرط فى شرب الخمر فثمل ، ولذا أخذت ساقاه مطلق الحرية فراحتا ترقصان رقصة النشوان ...

لم يكن مظفر يميل إلى السكارى لأنه لم يقرب الخمر ولـكنه تريث قليلاً فى محله ولم يقرر شيئاً فاقترب السكير منه وبدأه بالتحية قائلاً :

— ها ها ها . . هلو بابا . . . ماذا تعمل هنا ؟ أتريد أن . . أن (وهنا شدد على النون شأن من ثقل لسانه) تقضى معى ليلة سعيدة ؟ ها ها . . . وكان يخرج مقاطع كلامه بصعوبة وهو يتمايل كالقرد قائلاً :

اسمعنى ... آه ... نعم أنت جميل والله العظيم لم يجبه صاحبنا بل أنعم النظر فى وجهه وتجلت

أمارات الغضب فى غضون جبينه فاتسعت عيناه وتقلصت عضلات يده . . .

لقد عرف السكير وكان قصير القامة ممتلئاً من الوسط كالبرميل ، أما وجهه فكان يشبه السمكة ولذا كنى بها

ولم يدر صاحبنا حتى الآن كيف داعبت قبضته صدغ الموظف السكير . نعم لقد كان موظفاً وذا حول وطول ... لم يتماسك « أبو السمكة » بل فضل أن يستسلم إلى رقاد عميق مفضلاً الرصيف الصلب على فراشه الوثير

سقط مغشياً عليه بباب داره التى دخلها الشيخ حسين ، وهى دار قديمة تملكها زوجته الثانية بعد أن ماتت زوجته الأولى من جراء معاملته القاسية

استدار مظفر وعاد أدراجه لا يلوى على شيء وقد امتلأ رأسه بحادثته الأخيرة التى جاءت عفواً

ترى كيف حافظ هذا الموظف على كرسيه وهو لا يعى عمله لحظة من الزمن؟ إذ لم يحظ (أبو السمكة) حتى بشرف المثول بين يدى (الشيخ[1]) ليقرأ القرآن ويحفظه كما كانت الطريقة المتبعة فى ذلك الزمن بل جل ما تعلمه هو ما لقنه أبوه إياه من كتابة الرسائل التى كانت تكتب على نمط واحد إذ تستهل وتختم (بكليشيه) حفظه عن ظهر قلب

كان هذا قسطه من الثقافة . زد على ذلك افتخاره بأقاربه الذين يشغلون مناصب خطيرة فى الدولة واعتماده عليهم . . .

تهالك مظفر على كرسيه وارتجفت يداه حين سلمه موزع البريد رسالة لم يعرف خط كاتبها حين ألقى نظرة على الظروف! والأغرب من ذلك أنها أرسلت إليه من نفس البلد الذى هو فيه

تلاها مراراً ... وتحسس ورقها بأنامله ليشعر نفسه أنه ليس فى حلم

لم تكن الرسالة إلا من فتاة الليل . . . فتاة النافذة الجميلة . . لم تذكر له فيها سوى أنه اعتدى على والدها فى تلك الليلة. ولو أنها أنبته على فعلته تلك لما غضب ولطلب الصفح والغفران، ولكنها أكبرت فيه رجولته كما ذكرته بزيارته الليلية التى جاءت عفواً فغرست بذور الحب فى قلبها ، وقد ضربت له فيها موعداً . . .

كانت تميل إليه قبل أن يعرفها لأنه قد راق لعينيها وكفى . ولكنها نفسها لا تدرى لماذا مالت إليه ! ألأنه كان جميلاً ؟ كلا . . . لأنه لم يبلغ درجة تجعله يحلو بعينى رائيه . . . لكنه كان غريب الأطوار فلسفى النظرة ... يتعشق بعض الفنون. وهى لا تنسى مدى الحياة ما تركت رسالته فى نفسها من عميق الأثر ، وقد كانت إلى صديق له وسقطت من جيبه عفواً حين أخرج منديله إذ كانت تسير خلفه ... لقد آثرت ألا تردها إليه إذ تغلبت عليها غريزة حب الاطلاع ففضتها ولا حاجة بنا لأن نقول إنها تلتها أكثر من ثلاث مرات ولم تدر لم أرسلت آهة عميقة حين انتهت من تلاوتها فغيمت

(١) معلم الأطفال على طريقة الكتاتيب ويسمى أيضا « الملا » بضم الميم

عليها سحابة همّ طيلة ذلك النهار

* * *

قرأ مظفر الكتاب الذى دبجته براعة فتاته الليلية فتراقصت كلماته أمام عينيه وراح يتأمل خطها الضعيف الذى بدا جميلاً فى ضعفه مثيراً فى تعابيره. أما توقيعها الجميل الذى تواضع واحتل مكانه فى مؤخرة الرسالة ، فقد كان وحده أجمل كل شيء إذ بدا إمضاؤها (فريدة) كثغر فتاة همت بتقبيل وجنة حبيبها . نظر إلى توقيعها بعينى فنان كسول وراح يهتف فى قلبه قائلاً :

— آه لقد ضربت لى موعداً وإنها لصدفة فريدة فى بابها ... ولكن هل أقابلها ؟ نعم ينبغى أن أقابلها بل يجب علىّ ذلك . ولكن ربما كان هذا شركاً نصبته لى تريد الانتقام لوالدها المصفوع

ولكن صاحبنا مظفر لم يعد يفكر فيما يترتب على هذا اللقاء بل أخذ أهبته للطوارئ وراح يتمهل فى خطوه بين جدران تلك الطريق المتداعية حين تعالى صوت ناقوس الساعة الكبيرة فى تلك المدينة الهادئة بأنغامه الحزينة يدق العاشرة ليلاً ... الطريق خلو من المارة . قلبه ينبض بشدة حتى حسبه وهو يسمع دقاته بأذنيه أنه فاق صوت ناقوس الساعة

انقطع عن تفكيره حين أبصرها بعباءتها السوداء وهى تقترب منه ، تلفت حوله فلم ير أحداً فانتحى بها ثم سبقها إلى رأس المنعطف الذى قدم منه صاحبه السكير فى تلك الليلة ، وذلك ليتسنى له مراقبة الطريق خشية الرقباء ، أو لينجيه إن كان ثمة فخ قد نصب له إذ اتخذه كخط رجعة إن حل الخطر . بادرته بسؤالها الجذاب الذى يطلق للعاشق حرية الإجابة قائلة :

— لم جئت ؟

ولم ينتظر مظفر بل أجاب على الفور :

— جئت لأحييك تحيتى الأولى والأخيرة، نعم يجب أن تصغى إلىّ ، أنا أحبك ولكنى لا أريد أن أراك ثانية لأنى لا أستحق منك العطف . أنا متقلب وذو نزعات متباينة حتى فى الحب . وصمت برهة لينشق الهواء بأنفه الذى تقاطرت عليه قطرات العرق ، وأردف قائلاً :

لعلك لا تعرفين شذوذى . آه كيف أستطيع أن أبين لك ... أنا أميل إليك واسمحى لى أن أجرأ فأقول إنى سأكرهك ولربما سبقتنى أنت إلى ذلك بعد أن ينال منا الزمن من تشويه وتخريب . وهنا سمع وقع أقدام تقترب فقال :

— أنا غريب حتى عن نفسى . فكرى جيداً تعرفى الحقيقة . . . أستودعك الله . لم ينتظر أكثر من هذا فتحرك مسرعاً ومرق بخفته المعروفة فى المنعطف وتوارى عن عينها ...

* * *

لم يستغرب صاحبنا مظفر خبر زواجها وذلك بعد مضى ثلاثة أشهر من حادثته الغريبة. لقد أصبحت من أحبها زوجة رجل لا يعرف عنه إلا أنه موفور المال مسلوب الجمال . تاجر شغلت فكره المادة فراح يحتال فى طلبها بشتى الوسائل حتى أنه لم يتورع حين عاكسته الظروف من أن يرسل زوجته لصيرفى

اشتهر بصلفه فى سوق الكسب وبرقته فى سوق الغرام …

أرسلها لترقق قلبه وتستعطفه على زوجها المسكين الذى أوشك على الإفلاس والتدهور. ذهبت ترجوه أن يقرض زوجها بعض المال علاوة على دينه السابق الذى استحق دفعه …

لقد مزقت الوثائق وأنقذ زوجها من الإفلاس ولكن بعد أن ارتفعت الأيدى مشيرة إلى فريدة : إنها سقطت …

***

لم تعد تجسر المسكينة على الرجوع إلى بيت أبيها السكير المتحذلق بعد أن طلقها زوجها لكرامته المزعومة التى أوعزت له أن يضحى بشرف زوجته على مذبح مطامعه … ولم لا وهو لا يشعر بالحب وأنى له أن يشعر به وقد شغل باله حب المال وعريض الجاه …

إن زوجته لا تمت إليه بصلة قرابة فلا عار عليه إذن بعد الآن . لقد تخلى عنها وطلقها بعد أن لاكت فضيحتها الألسن . ويا لكثرة المتطوعين لحمل أخبار الفضائح يتلونها على السامعين لا يبتغون جزاء سوى كلمة إطراء من السامعين للباقتهم وسرعة التقاطهم لأخبار لا يعيرها العاقل أذناً صاغية . . . لقد دبر الزوج خطة دفاعه ليظهر بمظهره بين الناس ولكن اللوم والعار كانا من نصيب فتاة الطريق (طريق الغرام)

هاهى ذى الضحية قد تسربلت ظلام الليل ولاذت بالفرار من أوجه الساخرين والشامتين .. أما أبوها فماذا يهمه من أمرها ما دام يحصل على زجاجات الخمور يملأ بها جوفه ، وتداعب أنامله تلك الأوراق المالية التى طالما سلبت نهى من تعشقها وأعمت عينه عن طريق الحق لينال ربحه غير المشروع ولتحترق الدنيا بأسرها بنار الكمد والحسرة ما دام هو منفذ القانون …

لقد عرف كيف يستغل موقف ابنة زوجته ليبتز دنانير العار والفضيحة من الزوج المحتال وليتخم بها جيبه ، مهدداً إياه بالسجن إذا امتنع . وكيف لا يستطيع وهو . . . هو المهيب لا لشخصيته بل لوظيفته ومنصبه .

***

إنتقل مظفر إلى بغداد – حسب ما تقتضيه – وظيفته، وذلك بعد مرور ثلاثة أعوام ما نام فى لياليها إلا وقد شغلت فكره تلك الحادثة … حادثة طريق الغرام …

لقد أراد أن يحدث شيئاً فى حياته الراكدة المملة وود أن يجعل بها تغييراً ولو طفيفاً ، ولكن ها هو ذا التغير قد تسرب حتى إلى جسمه ، فنحل بدنه ، وارتسمت التجاعيد على جبينه …آه … من أفكاره المضطربة التى تصطخب فى جمجمته التى لو تحطمت لاستراح، إذ كم أوقعه لسانه فى مآزق لا ينجو منها إلا بشق الأنفس …

لقد طبع على الصراحة ، وتعود حرية العيش منفرداً ؛ فما رغب فى شىء يستطيع الوصول إليه إلا ونفذه غير حاسب للنتائج حساباً . كم كان يميل إلى أفكاره الفلسفية التى تنعقد فى سماء مخيلته فتطير

لهـا نفسه شوقاً ، ولا يستيقظ من حلمه الجميل إلا ولسانه قد أسرّها إلى آذان أصدقائه الذين يلتفون حوله ، وقد ألفوا شذوذه ، وأنسوا به واستعذبوا أحاديثه ...

لم جئتَ ... لم جئتَ ...

لقد نغصت عليه عيشه هذه الـكلمة التي ترددت على لسان فتاته . وطالما اعترته رعشة ألم عميق حين يتذكر جوابه لها . . . لقد أفرط في الجواب ووقع المحذور حيث لا تفيد الذكرى ، وليس باستطاعته أن يتلافى زلة لسانه الذي عبر عن أفكاره المشوشة ونزعته الطبيعية في الحياة ...

لقـد انتقل إلى بيته الجديد في بغداد ، وراح يقطع الشارع في السيارة كل يوم قاصداً مقر وظيفته من البتاوين حتى باب المعظم

لقد كان يتأفف من الازدحام واللغط الشديد الذي ضج به شارع بغداد الضيق ، فلا يرتاح إلا حين يحتويه بيته الصغير الذي شيد على الطراز الحديث .

كان يأوي إلى شرفة غرفته المطلة على نهر دجلة فيلقي بنفسه بين أحضان كرسيه ويستسلم إلى أفكاره أو يتلهى بالنظر إلى وجوه المارين يتأملهم أو يجرى بعض الإحصائيات التي كانت نتائجهـا غريبة مضحكة ... لقد أحصى المشوهين كما أحصى الجمال بل حتى عدد السيارات التي كانت تمر أمامه ، إذ كانت هذه تسليته الوحيدة في أوقات فراغه ...

وكثيراً ما كان يرى الـكتاب في يسراه وسيكارته في يمناه المرتخية على ذراع الـكرسي . ومع أن مظفراً كان كثير الجلوس في شرفته إلا أنه لم يلتفت إلى جارته الفتاة التي كانت تراقبه من شرفتها أيضاً ، إذ لم يشأ أن يورطها ويورط نفسه في الحب الذي يخشاه وإن كان يحلم به !

لقد كانت تكفيه بضع دقائق يقضيها بين أحضان خليلته التي تعشقته ومال إليها ...

لقد كانت جارته تعجب لرزانته وصمته ، وكم كانت تسائل نفسها عن هذا الشخص الذي يبدو غامضاً لعينيها ! وكم كانت تنصت إلى أنغام كمانه الساحرة التي كان يداعبها غالب الليالي فتبعث في نفسها الشجون والآلام .. لقد كانت تشعر بأن نفسه كانت تسيل مع أنغامها فتبعث طافحة بأحزانه الوجدانية التي كان يحبسها . .

لقد فرضت جارته على نفسها الرقابة ، وقد كانت جميلة التقاطيع رياضية الجسم فتانة المنظر كما اعترف لها صديقاتها بذلك وهن مرغمات . . إذ كن يحسدنها لجمالها . قلنا لقد فرضت على نفسها مراقبته فنجحت في ذلك كل النجاح ، إذ ما كادت تترك مدرستها الثانوية وترمى بـكتبها على النضد وكان ذلك يوم الخميس حتى أسرعت إلى شرفتها وأطلت إلى حيث يجلس جارها الصامت ، ولـكنها استغربت عدم جلوسه في هذا اليوم كما اعتاد لأنه كما يبدو لا يترك بيته ، ولكنها عجبت لأمرها إذ كيف تهتم بشخص لا تعرفه إلى هذه الدرجة ، ولـكنها استغربت كثيراً قدوم فتاة يبدو عليها أنهـا من الساقطات قد وقفت بباب بيته وضغطت على زر الجرس الكهربائي المثبت في الباب بأناملها الدقيقة . إن سحنتها جميلة وقد بدت عليها علائم المرض ، بدت في عينيها الذابلتين وقدها النحيل واصفرارها الباهت كزهرة أوشكت على الذبول

لقد كانت تكسب عطف الناظر إليها قبل إعجابه

بجمالها . ولم تمض برهة حتي ولجت الباب الذى فتح لها وانسلت إلى الداخل دون أن تلتفت إلى ما حولها

لم تنتبه فتاة الشرفة من ذهولها إلا حين نادتها أمها لتناول طعام العشاء إذ قد غربت الشمس ولم تشعر لأنها أصبحت فريسة آلام نفسانية لا تدرى كنهها فقامت متثاقلة إلى المائدة ولم تر والدها لأنه اعتاد أن يأتى فى منتصف الليل وذلك فى ليالى الجمعة

لم تشته نفسها الطعام فعافته ، وكم سألتها أمها مراراً عن سبب سكونها وتفكيرها ولم تجبها ولكنها الآن راحت تجيب على سؤال أمها الذى طالما سمعته وأجابت عليه بلا شىء — وقد أصبح الآن شيئاً — قائلة :

— إن جارنا يا أمى يجالس الآن فتاة ساقطة فى بيته

— ومن أدراك ؟ لعلها إحدى قريباته

فاندفعت الفتاة مجيبة :

— كلا . كلا ، إذ لم يزره طيلة هذه المدة أحد ما؛ فهو يعيش وحيداً، كما أني شاهدت هذه الفتاة التى تبدو أنها غير شريفة كما هو شأن بنات الشوارع

— وماذا يهمنا يا ابنتى ما دام لم يتعرض لأحد منا بسوء ؟ إنه لا يبدو من الشبان المتهتكين الذين يغازلون جاراتهم وينظرون إليهن من السطوح ومن خلال النوافذ . إنه ساكن هادئ الطبع لم يزعج أحداً فى هـذا الحى كما أنه فتى أعزب ، وما ينتظر من هؤلاء الفتيان الأعزاب سوى هذه الأمور … دعى أمره جانباً ولا تفكرى فى مثل هذه الأشياء إذ لو سمع والدك هذا لأنبك على تدخلك فى شأنه ، وتثيرين سخطه على جارنا فتنشب بذلك قلاقل لا أرتاح لها

لم تجب سميرة أمها إذ كانت تخشي والدها الذى نشأ نشأة عسكرية ، وهو زعيم فى الجيش ولا يميل إلا لـكل شىء عسكرى حتى فى شؤونه داخل بيته

لقد شغلت تلك الزائرة بالها. ولم تكن هذه غير فتاة طريق الغرام (فريدة) التى انحطت إلى هـذه الدرجة من الذل فراحت تبيع جسدها بدراهم تسد بها حاجتها

كم كانت مهنتها شاقة عليها إذ كانت تخشى أن يظفر بها أحد أقاربها فيكون نصيبها منه القتل قبل أن يتمكن داء السل الذى استفحل بها من إردائها . نعم هى ذى فريدة خليلته التى صارت تعرف الآن بـ(رافدة)

لقد عرفت صاحبها (مظفر) لأول نظرة ولكنه لم يعرفها. وأنى له أن يتذكر وجهها ولم يشاهده غير مرة واحدة فى تلك الليلة … ليلة أن شعرت بنفسها تدنو من السعادة ولكن خاب فألها. وها هى ذى تحيا حياة بؤس وشقاء

لقد ألقت بنفسها بين أحضانه حين صادفته مرة فى إحدى بيوت الدعارة السرية وراحت تغريه بتملقها الذى استحال حبا عنيفاً طغى على فؤادها بعد ذلك

لقد أحبته سابقاً حين كانت فتاة طاهرة الذيل نقية السريرة إذ كانت كثيراً ما تلتقى به فى الطريق فتعجب به لما يبدو عليه من ظرف وطلاقة محيا … وكم كانت تناجيه فى أحلامها وهو لا يدرى من أمرها شيئاً حتى كانت تلك الصدفة العجيبة التى ما كانت تأملها ولم تخطر لها على بال . كانت تود الخلاص من زوج أمها الملقب (بأبى السمك) إذ كان قاسياً فى معاملته لها ولم يشفق عليها لأنها ابنة غيره وقد تزوج من أمهـا طمعاً فى مركز عائلتها ، ومالها

إذ يستطيع بهما أن يبلغ ما تصبو إليه نفسه .

لقد ودت أن تعرف رأى صاحبها القديم فيها ، فسألته يوماً :

— أتحبنى ؟

— كلا يا عزيزتى . أنا أشفق عليك وأميل إليك لأنك مسكينة .

— إذن أنت قد أحببت غيرى من صويحباتى ياخداع (قالتها بدلال) فأجابها متأثراً :

— كلا يا مخلوقتى التعسة أنا لا أميل إلى سواك ولو كنت كذلك فإنى أخشى من أن أصرح لك برأيى لأنى صريح كما علمت

فنظرت إلى وجهه بعد أن سعلت سعلة خفيفة جافة طالما أقضت عليها مضجعها وأهاجت وساوسها قائلة :

— يالك من إنسان غريب الأطوار . ألم تشعر بالحب ؟

وما أتمت كلامها حتى اعتراه شيء من الذهول وقال بصوت منخفض :

— نعم لقد شعرت به منذ سنين خلت لم أذق خلالها طعماً لراحة النفس وهدوء الفؤاد ... لقد كانت لحظة سعيدة اختلستها فى غفلة من الدهر وهأنذا أحاسب عليها حساباً عسيراً . لقد أفقدتنى الأيام بشاشتى وأخذت تستلب عمرى الذى أتنازل عنه فأهبه للدهر ساعات وأياماً وأنا صاغر ذليل ، ولكن هيهات أن تسلبنى الأيام ذكريات تلك اللحظة السعيدة التى دفنتها فى فؤادى . وانقطع عن حديثه إذ رأى صاحبته وهى تسعل بشدة لم يعهدها فيها منذ عرفها

فقال وقد بدت علائم الإشفاق فى نظراته :

— أرى سعالك يشتد يوماً فيوماً وأن صحتك فى انحطاط . ألم تعرضى نفسك للطبيب كما أشرت عليك منذ أيام ؟!

— وماذا يفيدنى . . . بالله قل لى من هى هذه التى سلبت فؤادك فغلقت أبواب حبك دونى ؟

— مالك ولهذا ؟ أنت مريضة ، وإنى لأخشى عليك فيجب أن أعرضك على الطبيب . ولكنها لم تجب شأن من لا يكترث بل ألحفت عليه بالسؤال قائلة :

أراك تتجنب الحديث عنها وتشعر بحزن عميق من أجلها فهل تزوجت من غيرك ؟

— حبذا لو سعدت بزواجها إذ كان قصير الأجل

— إذن لقد ماتت ؟

— أتمنى لها ذلك ...

— ولماذا ؟ كيف تحبها وتتمنى لها الموت ؟ شيء غريب لم أسمع به فى حياتى . وهنا عاودتها نوبة سعالها فاحتقن وجهها وجحظت عيناها الذابلتان وانفرج ثغرها الصغير وقد رفعت إليه منديلها ومسحته ، وبعد أن هدأت سألها :

— لم ترفضين طلبى ؟ إذا كنت لا تستطيعين الخروج معى فسآتى إليك بالطبيب هنا ، ولكنه صمت أخيراً وظهرت على وجهه علائم الاشمئزاز فقال:

— يسوؤنى أن يراك الطبيب فى مثل هذا المحل فعدينى أن تأتى معى إلى البيت ليتسنى لى ذلك وإلا فإننى سأتركك مرغماً لأنك خالفت طلبى ، وهذا لخيرك ...

فأجابت وقد اغرورقت عيناها بالدموع

— نعم يا مظفر لقد أجبتك ولا يسعنى إلا الامتثال ... لا أريد أن أموت ... لا أريد أن

أموت وأنا فى أيام شبابي وإن كانت محفوفة بالشقاء ذلك لأنى أريد أن أراك دائماً .. أريدك إلى جانبي إذ لم يعد شيء يحول بيني وبينك فى الوجود ... إيه يا عزيزى ولكنك لم تذكر لى عنها شيئاً

— وكيف أذكر لك وأنا لم أرها إلا دقائق معدودات . . .

— كلامك يعنى أنك أحببتها سراً من حيث لا تدرى هى بما تحمله لها

— كلا . لا تثيرى شجونى (وهنا أخرج علبة سكائره ولكنه أرجعها إلى جيبه إذ تذكر أن الدخان يثير سعالها . فطلبت منه أن يدخن فأبى ذلك محتجا بأنه قد نسى ما قرره بأن يقلل من تدخينه وها هو ذا قد تذكر فأعاد العلبة إلى موضعها)

ولكنها استحلفته بحق التى أحبها أن يدخن فقال : .

— يظهر لى أنك كثيرة الاهتمام بأمرى

— ولم لا يا حبيبي الفيلسوف ؟ إنك ما زلت تجذبنى بحركاتك ونبرات صوتك بل وبكلامك المبهم الذى يدل على معان كثيرة . فهل كانت حبيبتك ممن يعشقن الخيال ؟ وإن كانت كذلك فلا بد أن تتلو علىّ إحدى رسائلها الغريبة ؟

— إنها لم تكتب لى يا صديقتى المسكينة سوى رسالة واحدة، وكانت مختصرة ومقتضبة ، ولم نلتق إلا ببضع دقائق ، حيث تركتها فريسة الشك فى حبى لها لأنك كما تعلمين . . .

فأجابت على الفور :

— من عشاق الفلسفة الفارغة ، وأردفت جملتها بضحكة عصبية وقالت له :

— سأزورك فى بيتك كما طلبت منى... وفضلت أن تهرب من أمامه الآن ، لأنها أصبحت فى حالة من القلق والاضطراب لم ينلها أشد البائسين .

وخرج من الغرفة ولم ينس أن يذكر لها عنوانه ، ويحدد لها ساعة الزيارة . ولم تخل الغرفة منه حتى استحالت أشجانها دموعاً تسيل على خديها الذابلين بصمت وسكون لا يعكره إلا سعالها الخافت بين آونة وأخرى ...

ترى ماذا يعمل لو علم أنها فتاته القديمة التى تعشقها ... أيحتقرها وينبذها ؟ أم سيعطف عليها لبلواها ...

راحت المسكينة فريسة ذكرياتها المشجية وهى بين عاملى الضحك والدمع السخين . لقد أصبحت شبه مجنونة لما طرأ عليها ...

إنها كالشمعة المتقدة تحرق نفسها لتضيء لغيرها وسيحين وقت نفادها فيسود الظلام ؛ ولم يعد أحد يذكرها بل سيطلبون غيرها لتفيض عليهم بنور لذائذها ...

أهذه هى المروءة ؟ ... أهذا هو الإنصاف ؟ ... تبيع جسدها لتعيش بدراهمها التى كسبتها من لحمها ودمها ... رحماك يا رب العالمين ... ارحم فتاة شقية مثلى ... أنت أدرى بحالى ... خذ بناصر مخلوقة ضعيفة ساقتها ظروفها إلى الفحشاء إنك أرحم الراحمين ... حبذا لو سلبت عقول عبادك الذين يفخرون بعقلياتهم على الحيوانات ولكنهم أشد ضراً من الميكروبات الضارة وآلم لسعاً من العقارب ...

أيبذل الغنىّ ماله الذى ابتزه من دماء المساكين والفقراء ليشترى به جسد فتاة تردت فى حمأة الرذيلة دون أن يفكر فى إنقاذها ... يا لهم من قساة ظلمة ! أهذه هى المدنيـة التى يدعونها فيسجلها التاريخ صفحات تقرأها الأجيال القادمة ولكنها لا تفكر

على أى أسس من الخزى والعار قد شيدت أركان صروحها …

لقد تسممت أفكارها لما لقيته من صنوف العذاب والهوان … فصارت تحنق على البشر بعد أن هدتها فكرتها إلى هذه النتيجة

ومع هذا لم تنس موعدها مع مظفر فراحت واقفة على عتبة داره حين رأتها سميرة من شرفتها …

لقد زارته مصممة أن تعترف له بحقيقتها لتخفف عن آلامها بإفشاء سرها له الذى أثقل قلبها المحطم. ولجت الممر إلى الداخل ، ودخلت غرفة الاستقبال فوجدتها عارية من مظاهر الترف : أثاثها بسيط ولا تحوى شيئاً يستحق الذكر إلا كمانا قد وضعت فى زاوية الغرفة على مائدة قديمة تبدو كئيبة فى تابوتها أشارت إليها قائلة :

— نعم يا مظفر كلانا كالكمان، سيحتوينا لحدنا حيث السكون والصمت … عهدى بك تجيد العزف عليها ، هلا عزفت لى لحناً من ألحانك الخافتة المؤلمة … فأجابها :

— لم يحن وقت العزف بعد … سآتى لك بالطبيب. وأرجو ألا تنزعجى إذا تركتك وحدك بعض الوقت .. فمعذرة، يجب أن أسرع

لبس سترته مسرعاً ولكنه نسى أن يضع على رأسه سدارته ليخفى بها شعره الفاحم الذى احتلته جيوش الشيب ، وهو لما يزل فى سن الشباب

لقد كان الدكتور (ن …) على مقربة من بيته فقصده لشهرته التى لا كتها الألسن فقابله وهو على عتبة داره قاصداً الخروج فرجاه أن يعود فتاته المريضة ولكن الطبيب اعتذر له بأنه على موعد مع أحد الأصدقاء، فقال له مظفر :

لعل صديقك لا يضجر من إخلافك موعده إذا علم بالأمر ، إذ سيضحى ببعض الوقت ، وإن لم يبدو لى أنه ثمين لدرجة تجعلك تضحى بمريض من أجله …

— قلت لك لا أستطيع . . . ولكنه وافق بعد أن عرض عليه أجراً كبيراً فاكترى عربة سارت بهما إلى البيت …

دخل الطبيب وأدار بصره فى الغرفة ، ولكنه لم ير شيئاً يدل على بذخ صاحبه وغناه . استقر نظره على الفتاة التى بدت شاحبة تحت ضوء المصباح الكهربائى الذى كان ينير فى زاوية الغرفة . فسأل بلهجة جافة قائلاً :

— أهذا هو مريضك ؟

— نعم يا سيدى الدكتور

ولم يسمع الطبيب أكثر من ذلك ففحص الفتاة فحصاً دقيقاً ، وراح يسألها كثيراً وهى لا تجيب إلا بكلمة نعم ولا، حسبما يتطلبه السؤال، وأخيراً قالت

— لقد فات الأوان يا سيدى الطبيب . هيهات أن أشفى. نعم يا حضرة الدكتور إنى لشاعرة بنهايتى ولكن هل فكرتم بالبائسات المظلومات أمثالى ؟ وهل أوجدتم دواء لأمراض النفوس . وهنا انفجرت باكية فلم يتمالك الطبيب من أن يمسح دمعة انحدرت على خده وهمس فى أذن مظفر قائلاً :

— لا رجاء فى شفائها إذ أنها فريسة آلام صدرية تأكل رئتيها وآلام قلبية تحرقها . ولم ينتظر أكثر من ذلك فاستأذن فى الخروج ورفض الأجر الذى قدم إليه. وكأنه أحس بما يعانى صاحبه من الآلام فرفض أن يمد يده قائلاً :

— إن الكريم ليغلبه طبعه حتى فى ساعة الاحتضار … أرجو يا سيدى ألا تحمل رفضى على غير محمله . أنا لا أقصد الحط من قدرك إذ لا أستطيع

أن أمد يدى إلى أجر لم أقم تجاهه بعمل مرضى

ولم يستطع أن يتكلم إذ خنقته العبرات وفهم كل منهما صاحبه بلغة العيون فخرج الطبيب وهو غريق فى فيض من الشعور غريب

عادت سميرة إلى شرفتها بعد أن عافت نفسها العشاء ؛ فرأت الطبيب وهو يخرج وعرفت مهنته من الحقيبة التى فى يده ، ومن السماعة التى بدت من جيب معطفه فأحست بفضول غريب يدفعها لأن تسأل الدكتور سؤالاً تردد فى ذهنها فأسرعت بالخروج وقد لحقت به على مسافة غير بعيدة واستوقفته وهى لاهثة الأنفاس قائلة :

— يا سيدى الطبيب ... مساء الخير ... أرجو المعذرة لإزعاجى إياك .

نظر الطبيب إليها مستغرباً وقال :

— تفضلى . ولم يتمالك أن ينظر إليها نظرة معجب بجمالها .

— من كان مريضك فى هذا البيت ؟

— ولماذا ؟

— يهمنى أن أعرف من هو

— إنه فتاة ... نعم فتاة مسكينة قد قربت نهايتها ...

— شكراً يا سيدى الطبيب

— أأستطيع أن أؤدى لك خدمة ... يلوح لى أنك كثيرة الاهتمام بالمرضي ؟

— هو ما تقول يا سيدى الطبيب. لشد ما يحزننى أن أستطيع أن أرفه عن بعض آلام المرضي

— أرجو العفو ، هل أنت جارتهم ؟

— نعم ...

— أرجو أن تخبرينى إذا كان أحدها بحاجة إلىّ عسانى أؤدى لها بعض الخدمة . وترك لها عنوانه فى بطاقة وسار وهو يفكر بها حالماً بشريكة حياته التى عثر عليها ...

* * *

لم يستطع مظفر أن يجبرها على المكث معه لأنها أبت أن تقضى ليلتها فى بيته فتسلبه راحته ، قالت له بعد أن فكرت طويلاً ...

— إسمعنى يا حبيبى ... سأتلاشى كما تلاشت أنغام هذه الكمان ، ولكن الذكريات هى التى تبقى لنا كسلوى تشغل الفكر ...

أريد أن أعترف لك قبل موتى ... أريد أن أبوح لك بسرى الذى طالما حرصت على كتمانه ... ولكن هل ستحتقرنى ؟ أواه إنى لا أطيق ذلك ... قل إنك تحبنى ، عدنى بذلك ليرتاح قلبي المعذب ... سيحل الفراق الأبدى إذ لا بد منه ولا بد أن أسمع منك كلمة حب ... بل إشفاق ... بل رثاء

— دعى عنك هذا الهذر ... هل رأيت منى ما يسوؤك ؟

— لا يا حبيبى القديم ... منذ كنت فى مدينة (د ...) وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة حيث صادفنى من كان شريك فؤادى فى محلة (...) ورمقنى بعينه الثاقبة وأنا فى نافذتى حيث تحطمت آمالى فى اليوم الثانى

ولم يفعل مظفر إلا أن قفز إليها واحتبس عليه كلامه إذ عصاه لسانه وراح ينظر إليها نظرة شبيهة بنظرة المجانين ، وأخيراً قال :

— أأنت فريدة ..؟ آه يا أملى الضائع لم لم تقولى ذلك من قبل ؟ واحتواها بين ذراعيه الصلبتين لا يدرى كيف يحتفظ بها لنفسه ولكنه انفجر باكياً حين عاودتها نوبة سعالها بشدة وقد تدفق الدم من فمها وأنفها ...

ألقى نفسه عاجزاً عن أن يردعها غائلة الموت ...

— يا إلهى ماذا أصنع ؟ فريدة ... فريدة ... أهكذا يكون مصيرك ؟ .

راح يستنجد بكل شيء يقع عليه نظره كالمجانين . ها هى ذى تموت أمام عينيه وتذوى زهرتها فى ربيع حياتها ...

رمقته بنظرة توسل من زاوية عينيها وتكلمت فكان صوتها ضعيفاً فانحنى عليها يسمعها . سألته :

— أتحبنى ؟ أتشفق على مومس مثلى ؟

فنظر إليها والدمع يترقرق فى مآقيه ، وكان هذا هو جوابه الوحيد . فضغطت على يده بأناملها الضعيفة واستطردت قائلة :

— إدع الله أن يغفر لى ما اقترفته من الذنوب إذ غررت بشباب كثيرين ودفعتهم إلى الدرك الأسفل من الرذيلة والفسق ، ولم يكن بوسعى أن أفعل غير غيرهذا ... أنت تعلم ... لقد عرفت حالى ... سأموت مرتاحة

نظرت اليه نظرتها الأخيرة وارتعشت شفتاها وأسلمت الروح

***

عثر الدكتور (ن ...) وهو يتصفح كتاباً قديماً فى مكتبة زوجته (سميرة) وذلك بعد ست سنوات — على رسالة تلاها مراراً وعرف ما أشفق أن يفاتح به زوجته كما كانت هى أيضاً كذلك ، وهو :

إلى جارتى العزيزة :

أرجو الصفح عن شخص تعدى حدود الأدب فى كتابته إليك دون سابق معرفة . . . أى جارتى العزيزة لم يعد بوسعى إلا أن أكاشفك بحقيقة أمرى

لقد كنت تحصين على حركاتى وسكناتى ، وإنى لأحمل لك أطيب الذكرى فى قلب حطمته الآلام لاهتمامك بى .

لقد خشيت عليك منى وأنت حديثة عهد بالحب . ولا أكتمك إعجابى بجمالك ؛ فوددت لك زوجاً صالحاً يرعاك ويشعرك بالسعادة وتمنحينه عطفك الذى ينسيه متاعبه فتتمتعان بنعيم الحياة !

لقد أبصرت نتيجة الحياة فى بيتى ... ولا أنسى دمعتك التى جادت بها مقلتاك ، إذ كانت بلسماً لجراح بائس مثلى ...

إبتعدى جهدك عن التفكير فى الحياة والاجلبت إلى نفسك الأحزان . . . خذى الأمور على علاتها ولا تسألى عن أسبابها ؛ إذ لا تساوى الحياة دمعة تذرفينها أو آهة تلفظينها !

ربما لا أراك بعد ... وإن كان يعز على أن أفارق شرفة بيتى !

سأرحل وقلبى يحمل لك أخلص الود وأطيب التمنيات . ولى أمنية أرجو أن تحققيها إن كنت ترغبين ...

أرجو أن تزورى قبر رفيقتى التى عاشت بائسة شقية !

جارك : مظفر

وما أتم الرسالة حتى رأى زوجته لدى الباب ، ونظر كل لصاحبه نظرة تنطوى على الإشفاق . فقام واقتادها إلى الشرفة ، ونظرا إلى شقة جارها التى استأجرها شيخ عجوز . نظرت إلى شرفته وأشارت قائلة لزوجها :

— لقد كان يجلس هنا .

ولم تتمالك نفسها فوضعت رأسها على كتف زوجها باكية !

لم ينبهما إلا طفلهما الذى جاء منادياً أباه قائلاً:

— بابا ... بابا ... بكره عيد ... اسمع ها هو المدفع ... هىْ هىْ ... وصفق بيديه الصغيرتين طرباً

أما أبوه فقد قال لزوجته :

— غداً سنزور قبرها ... وسنوزع الصدقات لأجلها ... لقد كانت تحرق قلب من ينظر إليها ياسميرة ... ولست بناس ذلك اليوم ما حييت ...

« كربلاء » السيد قاسم السيد محمد

العزيزة

للكاتب الروسى أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ حسنى محمود جمعة

كانت تجلس أولينكا ابنة بليميانيكوف الموظف المحال على المعاش فى حديقة منزلها وهى غارقة فى التفكير

كان الجو حاراً والذباب مزعجاً ولكن كان يريح الإنسان أنه يشعر بقرب حلول المساء؛ وراحت تتجمع فى المشرق سحب محملة بالأمطار جعلت الهواء كثيفاً مملوءاً بالرطوبة. وهناك وقف فى وسط الحديقة ذلك الفتى « كوكين » مدير المسرح الطلق الهواء الذى يسمونه التيفولى

وهو يقيم فى المنزل نفسه. وقال يائساً وهو يتأمل صفحة الكون : « ستمطر السماء ثانية . المطر كل يوم. إن الطبيعة تريد دمارى . سوف أشنق نفسى . إنه الهلاك . خسائر فادحة كل يوم »

ثم لوح بيده ومضى يوجه حديثه إلى أولنكا : « إليك الحياة التى نحياها يا أولنكا بليميا نيكوف أليست هذه الحالة كافية لأن تجعلنا نجأر بالشكوى؟ إن إنساناً يعمل كل ما تسعه الطاقة ويجهد نفسه غاية الجهد ويقضى الليل ساهد الطرف وهو يكد ذهنه باحثاً عن خير الوسائل للإتقان ثم ماذا يكون جزاءه ؟

أول ما نصطدم به جمهور جاهل غبى . إنى أقدم لهم أحسن الروايات وممثلين من الدرجة الأولى ولكن أتحسبين أن هذا هو ما يطلبونه ؟ إنهم لا يتذوقون الفن الصحيح بل يودون مهرجاً ويرغبون متعة رخيصة . ثم هذا الطقس الملعون أيضاً . إنها لا تمطر إلا مساء وقد بدأت هذه الحال فى العاشر من مايو وظلت هكذا فى مايو ويونيو . هذا مخيف فى الوقت الذى لا يقبل فيه الجمهور على مسرحى . مطلوب منى أن أدفع الإيجار ومرتبات الممثلين »

وتجمعت السحب فى مساء اليوم التالى فقال كوكين وهو يضحك ضحكة عصبية : « فلتمطرى أيتها السماء ، فيضى على الحديقة ، أغرقينى . تباً لهذا الحظ العاثر فى الدنيا والآخرة . فليشنقنى الممثلون وليذهبوا بى إلى السجن أو إلى سيبيريا أو إلى ساحة الإعدام . ها . ها . ها »

ثم كان اليوم التالى والحال لا يتبدل

كانت أولنكا تصغى إلى كوكين فى صمت حزين بل كانت تتبادر الدموع إلى مآقيها. وقد لمست هذه المتاعب وتراً حساساً فى نفسها مما جعلها تغرم به

لقد كان رجلاً نحيلاً ضئيلاً ذا وجه أصفر تهفو على جبهته خصلات من الشعر، وإذا تحدث ففى صوت موسيقى رفيع فيتحرك فمه من جهة جانبية واحدة. وكانت تلوح على محياه دائماً علامات اليأس إلا أنه برغم هذا أثر فى نفسها تأثيراً بيناً

إنها كانت ترغب دائماً أن تحب إنساناً ما ولا يمكنها أن تحيا بغير الحب

فى صغرها أحبت أباها الذى يجلس الآن فى غرفة مظلمة يتنفس فى عسر

ثم أحبت خالتها التى كانت تزورهم العام بعد

العام . ولما كانت فى المدرسة أحبت معلمة اللغة الفرنسية . هى فتاة طريفة رقيقة القلب سريعة التأثر ذات عينين وديعتين وصحة جيدة ، وكان التحدث إليها يقول فى نفسه حينما يلمح منها خدين فيهما حمرة وردية فاتنة ورقبة بيضاء ناصعة وابتسامة بريئة ساذجة: (لا بأس بها) بينما كانت النساء إذا ماجلسن إليها يبادلنها الأحاديث لا تملك الواحدة منهن نفسها من القبض على يدها فى منتصف الحديث ، وتقول فى غبطة لطيفة: (أيتها العزيزة). لقد كان المنزل الذى تقطنه والذى تمتلكه بطريق الوصية عن والدها يقع فى أقصى المدينة بالقرب من مسرح التيفولى فكانت تستمع فى الأمسيات والليالى أنغام الفرقة الموسيقية وأزيز الألعاب النارية فتقول فى نفسها إن هــذه الأصوات إنما هى صوت كوكين فى عراكه مع القدر أو سخطه على ذلك العدو الألد ، ألا وهو جمهور النظارة الجاهل . إنها كانت تحس برعشة مريحة تعتلج فى صدرها. وضعفت رغبتها فى النوم . وكانت تظل ساهرة تنتظر عودته إلى المنزل فى الصباح المبكر فتطرق نافذة غرفتها طرقات رقيقة ولا يبدو منها من وراء الزجاج غير رأسها وجزء من كتفها فتحييه بابتسامة عذبة . عرض عليها الزواج فقبلت . وحينما أصبح من حقه أن يشاهدها عن كثب ورأى منها رقبة عاجية وكتفين جميلتين أحاطها بذراعيه وهو يقول : (أيتها العزيزة)

لقد كان سعيداً ؛ إلا أن السماء ظلت تمطر نهاراً وليلاً يوم الزفاف فجعلته حزين النفس تعلو صفحة وجهه علامات اليأس

عاشا معاً سعيدين ، واعتادت أن تجلس فى مكتبه لتدير شئون المسرح: تدون الحساب وتدفع الأجور ، وكان خداها المتوردان وابتسامتها المضيئة العذبة الساذجة تتراءى خلف نافذتى المكتب أو فى مشرب المسرح ، أو وراء الكواليس ، وكانت إذا تحدثت إلى صاحباتها تقول إن المسرح أهم شىء فى الحياة؛ وإن الرواية الدرام وحدها هى سبيل المسرة والتثقيف إذ تتجمع فيها معانى الإنسانية .

ثم تستدرك فى حديثها وتقول : ولكن هل تظنين أن الجمهور يعقل هــذا ؟ إنهم لا يريدون إلا التهريج. لقد عرضنا أمس قصة (فاوست) فكانت جميع المقاصير خالية ، فلو أن كوكين وأنا قدمنا للجمهور بضاعة رخيصة فإنى أؤكد لك أن المسرح يمتلىء على سعته . غداً سيقدم كوكين وأنا رواية (أورفياس فى الجحيم) فنرجو تشريفك

وكان كلما قال كوكين شيئاً عن المسرح وعن الممثلين رددته أولينكا وأعادته؛ فهى تحقد على الجماهير لأنه يحقد على الجماهير ، وهى تحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن لأنه يحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن. وكانت تشترك فى البروفات وتصلح للممثلين أخطاءهم وتراقب الموسيقيين، وتنطلق إلى مكتب الجريدة المحلية وهى تبكى لأنها اطلعت على نقد قاس فيها موجه إلى مسرحها فتقابل المحرر وتصحح له الوقائع

كان الممثلون يحبونها وأطلقوا عليها (كوكين دانا) أو (العزيزة) وكانت تحزن لحزنهم وتقرضهم مبالغ صغيرة.وطالما خدعوها. إلا أنها لم تكن تذرف غير دموع قليلة فيما بينها وبين نفسها فى خفية من زوجها

ومضى الشتاء على ما يرام ثم استأجروا مسرحاً فى المدينة إلا أنهم آجروه لفرقة روسية صغيرة. ومضت الأيام فاكتنزت أولنكا لحماً وكانت تخطر سعيدة

راضية، وأما كوكين فقد زاد نحافة واصفراراً، وكان دائم الشكوى للخسائر الفادحة ولو أنه لم يكن سيئ الحظ فى الشتاء

وكانت تناوله قدحاً من الشاى إذا أصابه السعال أثناء الليل أو تدلكه بماء الكولونيا وتلفه فى أغطية من الصوف ثم تقول له فى إخلاص عميق وهى تعبث بشعره : (ما أعزك عندى) . ورحل يوماً إلى موسكو ليجمع فرقة جديدة فلم يطرق النوم أجفانها لأنه بعيد عنها. وكانت تجلس طيلة الليل قبالة نافذتها تحصى النجوم فكانت شبيهة بالدجاج التى تستيقظ بالليل وهى تصيح فى قلق واضطراب لأن الديك لم يكن فى عشته

بقى كوكين فى موسكو مرغماً فأرسل إليها يقول إنه سيعود فى عيد الفصح ، ثم أشار عليها ببعض تعليمات خاصة بالتيفولى

ولكن فى ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد السابق للعيد بلغ سمعها طرق عنيف على الباب كأنما أحد يطرق برميلاً . فذهبت الخادم فى عيون ناعسة وقدم عارية وهى تجرى لتفتح الباب وصاح من الخارج صوت ضخم يقول :

أرجو فتح الباب فإن معى برقية . كثيراً ما تناولت أولنكا من زوجها برقيات ولكن فى هذه المرة شملها سكون وفزع . ثم فتحت البرقية بأنامل مرتعشة فإذا بها تتلو : (مات إيفان كوكين اليوم فجأة. أنا فى انتظار الإرشادات المتعلقة بالجنازة)

وكان مرسل التلغراف مدير المسرح

وبكت أولنكا ما شاء لها البكاء وكانت تقول : آه يا عزيزى كوكين يا جوهرتى المحبوبة . لماذا ألقى بك القدر فى طريق حياتى، ولماذا عرفتك وأحببتك؟ إن عزيزتك أولنكا الكسيرة الفؤاد أصبحت وحيدة الآن بدونك

لقد كانت الجنازة فى يوم الثلاثاء فى موسكو وعادت أولنكا إلى المنزل يوم الأربعاء. وما إن بلغت غرفتها حتى ألقت بنفسها على فراشها ومضت تنتحب فى صوت مرتفع بلغ رنينه أسماع الجيران

فقالوا: مسكينة هذه العزيزة أولينكا! ماذا يكون مصيرها ؟

وانقضت ثلاثة شهور فلاقت أولينكا وهى عائدة من الكنيسة حزينة كئيبة جاراً لها يدعى فاسيلى أندوبتش بستوفالوف كان يعود هو أيضاً من الكنيسة، فسار بجانبها، وهو مدير محل بابا كيت تاجر الخشب . كان يضع على رأسه قبعة من الخوص ويرتدى بدلة بيضاء، ويحيط بمعصمه ساعة ذهبية فكان أشبه بسيد محترم منه برجل تاجر . قال لها فى عطف ظاهر :

إن كل شىء يا أولينكا سيميانوفنا يسير إلى أجل محتوم ، وإن كل عزيز من أعزائنا لا يخطفه الموت إلا بإرادة من الله فيجب أن نستعين بالصبر ونحتمل فى خضوع

وبعد أن أوصل أولينكا إلى باب حديقتها ودعها ومضى

كانت تستمع إلى نغمة صوته الجليل كل يوم. وكانت كلما أرخت أجفانها وتراءت لها لحيته السوداء أعجبت به الإعجاب كله كما إنها أثرت فى نفسه. وما هى إلا أيام قليلة حتى زارتها سيدة عجوز لا تعرفها إلا معرفة بسيطة

جلست العجوز وشربت القهوة ثم تحدثت عن فاسيلى وقالت عنه إنه أحسن رجل يمكن

أن يعتمد عليه وإن أية فتاة لتود الاقتران به

وبعد ثلاثة أيام أقبل فاسيلى بشخصه . لم يبق طويلاً ولم يتحدث طويلاً بل عشر دقائق فقط ولكن بعد أن ودعها شعرت أولينكا أنها تحبه . تحبه جداً . حتى إنها ظلت الليل كله ساهرة وقد انتابتها الحمى. وفى الصباح أرسلت فى طلب السيدة العجوز ثم انعقد القران

وكانا سعيدين بهذا الزواج

كان يجلس فى مكتبه حتى ميعاد الغداء ثم يمضى بعد ذلك إلى أعماله الخارجية فكانت أولينكا تحل محله فى المكتب تقيد الحساب وتنظم الطلبات . وكانت تتحدث إلى العملاء وإلى الأصدقاء وتقول إن سعر الخشب يزداد ارتفاعاً كل عام فقد ارتفعت الأسعار عشرين فى المائة . ولكننا مع ذلك نبيع ؛ ولذا فإن فاسيتشكا (زوجى) يجب أن يسافر إلى مقاطعة موجيليف ليستورد الخشب . ويخال السامع أنها قضت فى تجارة الخشب أجيالاً وأجيالاً وأن أهم شىء عندها هو الخشب

وكانت تنطق الألفاظ فى نغمة مؤثرة أمثال : السويد . والزان . والمورينه . واللوح . والورقة وغيرها

وكانت إذا ما أقبل الليل واستقبلت سلطان الكرى تحلم بجبال من الألواح والكتل وعربات ملئية بالأخشاب . ولقد حلمت مرة أن قطعاً ضخمة من الخشب عرضها ست بوصات وطولها أربعون قدماً واقفة على أطرافها؛ وكانت تسير فى المخزن أشبه بفرقة حربية ثم تنبسط على الأرض مستلقية الواحدة فوق الأخرى فى كوم كبير مرتفع

وكانت أولينكا أثناء الحلم تصيح وتتكلم فكان يقول لها زوجها : أولينكا أيتها العزيزة ما بك؟ تنبهى

كانت أفكارها هى نفس أفكار زوجها إذا ما قال بأن جو الغرفة حار أو أن العمل فى تأخر فإنها كانت تنحو نحوه فى التفكير

لم يكن زوجها ليهتم بوسائل التسلية؛ وكان يقضى أيام الأجازات فى المنزل فكانت تفعل فعله

وكان يقول لها أصدقاؤها :

— إنك دائماً إما فى المنزل أو فى المكتب . يجب أن تذهبى أيتها العزيزة إلى المسرح أو إلى الملعب (السرك)

فكانت تجيبهم :

— ليس لدينا أنا وفاسيلى وقتاً للذهاب إلى المسرح . هذا عبث . ما نفع المسارح ؟

وكانا يذهبان سوياً إلى الكنيسة فى أيام الأجازات ثم يعودان إلى المنزل متأبطاً أحدهما ذراع الآخر وهما يبتسمان بعضهما لبعض . وكانت ترفرف ملائكة السعادة على رأسيهما . ثم إذا جلسا فى المنزل تناولا الشاى والحلوى والمربى وأصنافاً أخرى ، وكانت تفوح من حديقة المنزل فى الساعة الثانية عشرة من كل يوم رائحة الحساء والضأن أو الطيور . وأما فى أيام الاعياد فكانا يأكلان السمك وكان يحس المار بالمنزل بجوعة يسيل لعابها . وأما فى مكتب العمل فإنهما كانا يقدمان الشاى للزبائن والبسكوت ، وكانا يذهبان مرة فى الأسبوع إلى الحمامات العامة ثم يعودان أدراجهما وهما محمرا البشرة

واعتادت أولينكا أن تقول لمن تعرفهم من الناس :

— نعم ليس لدينا ما نشكو منه . الحمد لله . إنى أود أن يكون كل إنسان مثلى ومثل فاسيلى

وحينما سافر فاسيلى ليشترى خشباً من مقاطعة

موجيلف أحست أولينكا بأنها افتقدته وظلت متيقظة بل كانت تبكي

وكان يسكن في منزلهم جراح بيطري صغير السن يعمل في الجيش اسمه سميرنين اعتاد أن يأتي في المساء يتحدث إليها. وكان في ذلك شيء من الترفيه والتسلية في غيبة زوجها، وطالما سألته عن شؤونه الداخلية الخاصة فعلمت أنه متزوج وأن له غلاماً وأنه افترق عن زوجته لأنها لم تكن مخلصة له فهو الآن يكرهها واعتاد أن يرسل إليها أربعين روبية في الشهر نفقة للطفل. فلما سمعت أولينكا هذه الأنباء تنهدت وهزت رأسها وهي حزينة من أجله

قالت له وهي تقوده إلى الباب الخارجي مضيئة السلم بشمعة تحملها في يدها:

— حسن. الله معك. شكراً لك على زيارتك للترفيه عني. الله يرعاك ويمنحك الصحة

ثم إذا كان على وشك الرحيل فإنها تقول:

— خير لك يا فلادين بلانويتشي أن تعيش مع زوجتك واعف عنها من أجل الطفل حتى لا يفهم الغلام شيئاً

ولما عاد زوجها حدثته عن الطبيب البيطري وعن تعاسته المنزلية فيشترك الاثنان في التنهد وهز الرؤوس حزناً على الغلام الذي فقد رعاية أبيه. ثم تتحد خواطرهما فيذهبان إلى تمثال المسيح ويطأطئان الرأس أمامه طالبين من المولى أن يمنحهما أطفالا

واستمرت هذه الحياة السعيدة ست سنوات يغمرها الحب والانسجام

ولكن ...

بعد أن شرب فاسيلي قدحاً من الشاي في يوم من أيام الشتاء في مكتبه، خرج عاري الرأس في الهواء في شأن من شؤون العمل فأصيب بلفحة برد ومرض

عاده أمهر الأطباء ولكن المرض كان غلاباً، فما هي إلا شهور أربعة حتى واروه التراب، وعادت أولينكا أرملة للمرة الثانية وهي تبكيه في مرارة:

— ليس لي من سند وقد فقدتك إلى الأبد
آه يا عزيزي. كيف يمكنني أن أحيا بدونك؟
ستكون حياتي شقية بائسة
يا للشقاء!...

هل يعيش أطيب الناس قلباً في هذه الحياة الجدباء المنفردة على هذه الحال؟

أهملت أولينكا ارتداء القفاز والقبعة وغير ذلك من الثياب اللامعة الفخمة الأنيقة، ولم تكن تلتف إلا برداء أسود، ولم تكن تخرج من المنزل إلا إلى الكنيسة أو لزيارة قبر زوجها. وكانت أشبه براهبة

وبعد مضي ستة شهور فتحت النوافذ المغلقة، وكان يشاهدها الجيران في بعض الأحيان ذاهبة إلى السوق مع خادمتها لتبتاع حاجياتها المنزلية، ولم يكونوا يعلمون عن أحوالها الداخلية شيئاً

إلا أنهم كانوا يرونها تجلس في الحديقة لتشرب الشاي مع الطبيب البيطري الذي كان يقرأ لها الجرائد

وقد قالت يوماً لامرأة قابلتها بجوار مكتب البريد:

— لا توجد في المدينة رقابة صحية على الحيوانات. وهذا هو السبب في وجود الأنواع المختلفة من الأمراض المعدية، وكثيراً ما نسمع أن أناساً أصيبوا بالعدوى من شرب اللبن، أو انتقلت إليهم الأمراض من الخيل أو البقر

إنه يجب العناية بأمراض الحيوان كما نهتم بأمراض الإنسان

وهى بهذا القول تعيد ما سمعته من الطبيب البيطرى ، وكانت أفكارها تتفق مع آرائه تماماً

إنها لم تكن تقدر أن تعيش سنة واحدة بدون أن تكون ذات صلة بإنسان ما ، فكانت سعيدة بهذا الجار ، ولم يظن أحد بها سوءاً لأنها كانت طبيعية فى جميع تصرفاتها ولم تكن تخفى شيئاً . وقد حدث أن أضاف الطبيب البيطرى بعضاً من أصدقائه فى الجيش ، فجلست أولينكا معهم لتسكب لهم الشاى ، وكانت تحدثهم أثناء ذلك عن الطاعون البقرى وعن بداية المرض وعن المجازر البلدية . وقد دهش الطبيب المسكين لهذا جميعه. فلما أن رحل الضيوف قبض على يدها وحدثها وهو غاضب :

— لقد نبهت عليك من قبل ألا تتحدثى عما لا تعرفينه وخصوصاً فى جمع من الأطباء البيطريين. أرجوك ألا تتدخلى فى مثل هذه الشؤون ... هذه حالة متعبة ...

فنظرت إليه فى حدقة متسعة وعجب بالغ وقالت :

— إذن فى أى موضوع أتحدث ؟

وتعانقه والعبرات تسيل على خديها راجية منه ألا يغضب ، وكانا سعيدين

ولكن السعادة لا تستمر طويلاً ، فقد رحل الطبيب البيطرى إلى غير عودة ، إذ نقل مع فرقته إلى مكان بعيد جداً ... إلى سيبريا

وأصبحت أولينكا وحيدة ، بل وحيدة بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ فقد مات والدها أيضاً وخلف كرسيه يعلوه الغبار وبجانبه ساق صناعية من الخشب

ونحل جسمها وأجهدتها السنون فلم يلتفت إليها الناس كسابق عهدهم ، ومضت الأيام الأولى السعيدة وتغيرت وجهة حياتها تماماً

إنها تجلس فى الحديقة وتسمع أصوات الموسيقى تلحنها فرقة التيفولى ، ولكن لا تهزها الأنغام الصادحة ولا يهمها شىء ما ، ولم تكن تفكر فى شىء ولا ترغب فى شىء ولا تحلم بشىء. إنها كانت تأكل وتشرب بطريقة آلية ...

إنه لم يكن لديها ، وهذه أسوأ حالة ، أية آراء أو خواطر من أى نوع كان

كانت تشاهد الحوادث تمر بها متتابعة وتفهم ما تسمع وتعى ما ترى ولكن كانت تعجز عن تكوين أى رأى ولم تدر فى أى موضوع تتحدث

ما أتعس ألا يكون للانسان خلجات نفسية أو خواطر ذهنية! إنك ترى الزجاجة مثلاً أو تشاهد المطر أو عابر سبيل فما معنى هذا ؟

ليس من الميسور الرد على هذا السؤال ولو دفع عن الإجابة ألف روبية

حينما كان يزاملها فى حياتها كوكين أو فاسيلى أو الطبيب البيطرى كان فى ميسور أولنكا أن تعبر عن خلجاتها بكل وضوح وفى كل موضوع وتبدى رأيها فى أية مسألة تريد. ولكن الآن أصبح رأسها خاوياً كقلبها وكحديقتها الجرداء

ومضى الزمن واتسع العمران فى المدينة وامتد نطاقه وأصبح الطريق القفر شارعاً ممهداً وأقيم مكان التيفولى وموضع مخزن الأخشاب منازل وميادين

ما أسرع الزمن !

إلا منزل أولينكا فإنه ظل على حاله ، بل زاده كآبة كثرة الغبار على سطحه وميل جانب من جوانب عشة الدجاج ولون الصدأ الذى يعلو القضبان الحديدية ونمو نباتات غريبة فى الحديقة المهملة . بل إن أولينكا قد شاخت هى أيضاً . وكانت تجلس

فى الحديقة صيفاً وهى خاوية الروح تعلوها كآبة حزينة وصمت مرير

وأما فى الشتاء فكانت تقعد أمام نافذتها ناظرة إلى الثلج المتساقط

وفى الربيع كانت تتنفس عبير الأزهار أو تستمع إلى أجراس الكنائس فتعود إليها ذكريات الماضى فى صور زاهية الألوان وهزات فى الفؤاد وعبرات تملأ المآق، ولكن هذه الانفعالات لم تكن تدوم غير لحظة ثم تعود إلى حالها من الخلو والصمت الساذج وعدم الاكتراث للحياة

ولم تكن تتأثر أولينكا للقطة السوداء (بريسكا) حينما كانت تقترب منها وتتمسح بها

لم تكن هذه طلبتها فى الحياة، إنها تريد حباً يقلب حياتها ويستغرق وجدانها بل كيانها جميعه روحاً وذهناً

حباً يجعل لها فى الحياة غرضاً ويمنحها تفكيراً ويسكب فى عروقها دماً حاراً

طالما صاحت بالقطة السوداء: إذهبى عنى فلست أريدك

وهكذا مضت الأيام وتعاقبت السنون فلا مرح ولا خاطر. كانت تقر جميع ما تقوله خادمتها مافرا

وفى يوم قائظ من أيام يوليو، وكان المساء قد أشرف على الكون، وكانت قطع من الماشية تعود أدراجها، وكانت الحديقة المهملة تعلوها الكآبة إذا بها تسمع طرقاً على الباب فذهبت أولينكا بنفسها لتفتح الباب. وقد كانت المفأجاة عنيفة حينما ألفت أمامها سميرنين الطبيب البيطرى وقد علاه الشيب وهو يرتدى ملابس المدنيين

حينذاك فقط تذكرت كل شىء فى الوجود فلم تملك نفسها وقد بكت وسقط رأسها على صدره ولم تنبس شفتاها بكلام ما، ولم تدر وهى غريقة فى فيض من العواطف أنها دخلت بزائرها إلى المنزل وأنهما جلسا يشربان الشاى

وإنما قالت أخيراً وهى ترتعش سعادة وسروراً:

— عزيزى فلاديمير، أى حظ سعيد أتى بك إلينا؟

فقال:

— إننى جئت للسكنى فى مدينتكم فقد استقلت من عملى وجئت لأجرب حظى فى الحياة مستقلاً، وقد أزف الوقت الذى يجب أن أهتم فيه بابنى. إنه قد أصبح غلاماً كبيراً وقد تراضيت مع زوجتى كما تعلمين

فسألت أولينكا:

— وأين هى؟

— إنها مع الغلام فى الفندق

فقالت أولينكا وهى متأثرة بالغ التأثر:

كيف يكون هذا؟

ألا يعجبكم منزلى لتسكنوا فيه. أستحلفكم أن تقطنوا معى فلن أطالبكم بأى أجر

أرجوك يا عزيزى فإنى أكون سعيدة فى معاشرتكم. ولما كان اليوم التالى إذا بالحيطان والسقوف قد ضربت بالألوان. ومضت أولينكا فى نشاط كبير تصدر الأوامر هنا وهناك، وكان يشع من عينيها بريق السعادة وتعلو وجهها ابتسامة حلوة، وكانت شبيهة بإنسان استيقظ بعد غفوة طويلة

وأقبلت زوجة الطبيب وهى نحيلة واضحة القسائم مقصوصة الشعر، وكان يصحبها ابنها ساشا وهو صبى فى العاشرة صغير الجرم إذا قيس بعمره له عينان زرقاوان ونغزتان فى الخدين

وما إن دخل الغلام فى الحديقة حتى راح يجرى

خلف القطة السوداء، ورنت فى الفضاء ضحكته الطفلة المحببة السعيدة وهو يوجه الحديث إلى أولينكا :

أهذه قطتك يا خالتى ؟

إذا أنجبت صغاراً فيجب أن تهدينى قطيطة منها فإن أمى تخاف الفيران

وتحدثت إليه أولينكا وأعطته الشاى وامتلأ قلبها غبطة وأحست فى صدرها بأحاسيس مختلفة نحو الصبى الصغير كأنما كان ابنها وفلذة كبدها

وكان إذا ما جلس إلى المائدة ليكتب واجباته المدرسية فى المساء راحت تراقبه بعين وديعة وعطف بالغ وتهمهم فى نفسها :

كم هو ظريف هذا الصبى العزيز إنه جوهرة نفيسة، ما أذكاه !

وكان يقرأ بصوت عال ويقول :

الجزيرة قطعة من الأرض محاطة بالمياه من جميع الجهات. فكانت تردد أولينكا قوله : (الجزيرة قطعة من الأرض ...)

وكانت هـذه العبارة أول جملة وعتها بعد زمن طويل تقضى فى خمول وسنين طويلة مضت فى صمت قاس خال من الخواطر والآراء والعواطف ، وكأن هذا الغلام قد أوحى إليها بالكلام من جديد

إنها الآن أصبحت ذات أفكار مستقلة فكانت تجلس فى وقت العشاء مع عائلة ساشا وتقول : ما أصعب الدروس فى المدرسة العليا . إلاأن المدرسة العليا خير من مدارس التجارة ، إذ أن المتخرج فى المدرسة العليا يمكنه مزاولة مهن مختلفة : الطب والهندسة أو غيرها

ودخل ساشا المدرسة العليا ورحلت أمه لزيارة أختها فى هاركوف ولم تعد ، واعتاد والده أن يذهب كل يوم للتفتيش على المواشى ، وكثيراً ما تغيب عن المنزل ثلاثة أيام كاملة ، وأحست أولينكا أن ساشا يكاد يكون كما مهملاً من والديه ، ولذلك فإنهاأحاطته برعاية كبيرة وأفردت له غرفة خاصة فى منزلها .

صاحبها شاسا ستة شهور فى مسكن واحد ، واعتادت أولينكا أن تأتي إلى غرفته كل صباح فتراه نائماً نوماً عميقاً هادئاً واضعاً يده الصغيرة تحت خده وكان يؤلمها أن توقظه إلا أنها أخيراً تقول :

ساشنكا ، تيقظ أيها العزيز فقد أزف ميعاد المدرسة ، فكان يستيقظ فى الحال ويرتدى ملابسه ثم يصلى صلاته اليومية ثم يجلس لتناول طعام الإفطار ويشرب أثناء ذلك ثلاثة أقداح من الشاى ويأكل الخبز والفطائر

وكانت تنظر إليه أولينكا نظرها إلى إنسان مقبل على سفر طويل وتقول :

— إنك لم تحفظ درسك تماماً ... كم أن هذا يكدرنى . . . يجب أن تذاكر جيداً يا عزيزى وتطيع معلميك !

وكان يجيب ساشا :

— اتركينى !

ثم يترك المنزل ويسير فى الطريق متجهاً إلى المدرسة . وكان يبدو ضئيلاً وهو يحمل حقيبته على كتفه فتتبعه أولينكا عن كثب وهى صامتة وكانت تناديه : ساشنكا !

ثم تضع فى يده قطعة من الحلوى ، فإذا اقترب من شارع المدرسة وأحس فى نفسه الخجل من مصاحبة سيدة عجوز طويلة يلتفت إليها ويقول :

— يحسن بك أن تعودى يا خالتى وتدعينى أسير بقية الطريق وحدى !

فكانت تقف ساكنة وهى تراقبه حتى يخفيه باب المدرسة عن نظرها

لقد أحبته ولم يؤثر فى قلبها أى لون من ألوان الحب السابقة مثلما أثر فيه هذا الحب فإنه كان أعمقها أثراً ، ولم تخضع روحها من قبل لمثل هذا الشعور المنيف الذى لا غاية له

إن هذا الحب قد أحيا فى فؤادها جميع مشاعر الأمومة وغرائزها الهادئة

إنها كانت على استعداد لتضحية حياتها من أجل هـذا الصبى الجميل ذى الطاقية الواسعة . إنها تفتديه بروحها عن طيب خاطر

لماذا ؟ من يمكنه أن يقول لماذا

وبعد أن غاب ساشا عن بصرها رجعت أدراجها مرتاحة القلب هادئة النفس سعيدة بحبها له وقد عادت إلى وجهها نضرة الشباب ونفحة الصبا، وكان ينظر إليها الناس مسرورين قائلين :

ألا عمى صباحاً يا أولينكا سميانوفنا! كيف حالك أيتهـا العزيزة ؟ وكانت تقول فى السوق حاكية : (إن الدروس فى المدرسة العليا صعبة للغاية . إنها كثيرة على الأفهام الصغيرة . أمس فى السنة الأولى كلفوه بأن يحفظ عن ظهر قلب خرافة كاملة وترجمة لاتينية ومعضلة حسابية . لا شك أن هذا كثير على ذهن طفل)

ثم تتحدث عن المعلمين والدروس والكتب المدرسية مرددة جميع ما سمعته من ساشا

وكانا يتناولان الغداء سويا الساعة الثالثة ، وفى المساء كانا يجلسان لحفظ الدروس معا بصوت مرتفع

وحينما كانت تضعه فى الفراش فإنهـا كانت تقضى وقتاً طويلاً وهى تخط بيديها علامة الصليب ثم تغمغم دعواتها وصلواتها . وبعد ذلك تذهب إلى غرفتها ثم تنام وهى تحلم عن المستقبل فى صورة مبهمة: حينما ينتهى ساشا من دراساته ويصبح طبيباً أو مهندساً ، وحينما يمتلك منزلاً كبيراً فيه الخدم والعربات والخيول ، وحينما يتزوج ويكون له أولاد صغار .

ثم تتأرجح فى عينيها المغمضتين عبرات تتساقط على خديها بينما القطة السوداء الناعسة تهمهم فى نومها ...

ويطرق الباب فجأة فتستيقظ أولينكا وهى تلهث فزعاً ويدق قلبها خوفاً، وتمضى دقيقة ثم يطرق الباب مرة ثانية فيمر برأسها خاطر يهزها هزاً عنيفاً من قمة الرأس إلى أخمص القدم

لا شك أن الطارق يحمل برقية من هاركوف تطلب ابنها ... الرحمة بى يا إلهى ... ثم تغرق فى يأس قاتل وتسير البرودة إلى رأسها ويديها وقدميها وتحس فى صميمها أنها أتعس امرأة فى الوجود ... ولكن إذا مضت دقيقة أخرى وسمعت الأصوات فإنها تتبين أن الطبيب البيطرى يعود الى المنزل من النادى

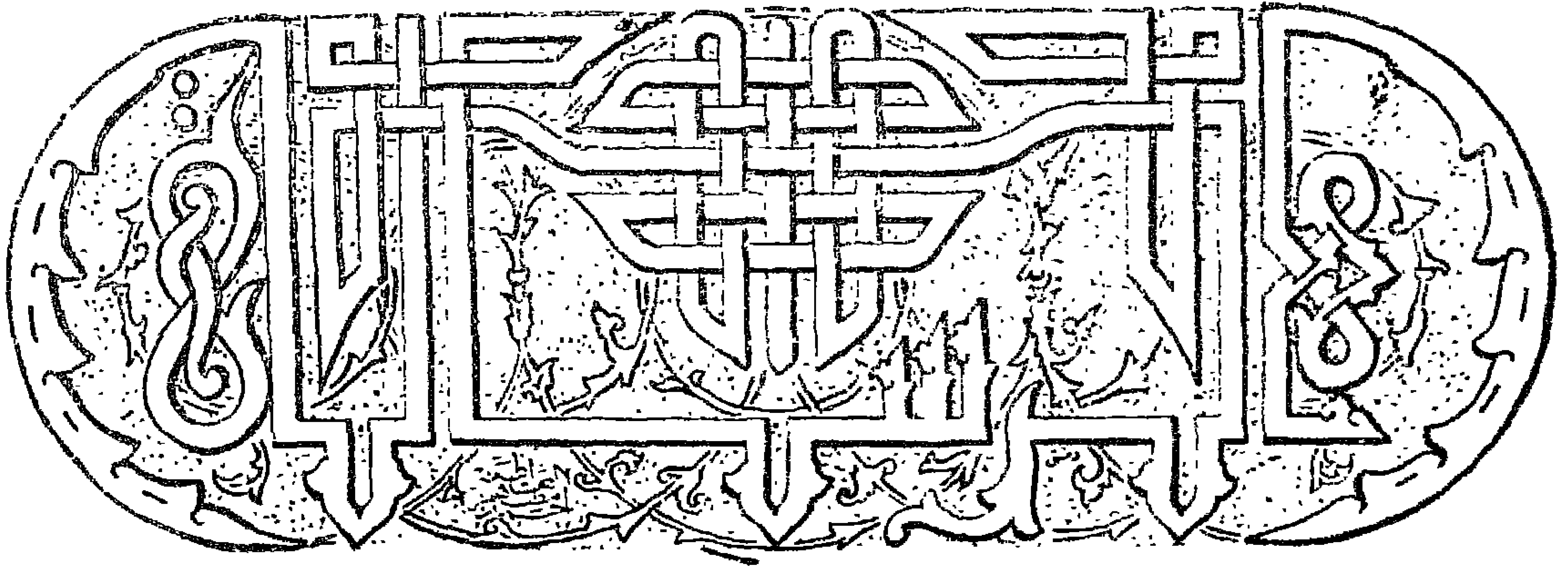
فتهمس فى نفسها : حسن . الحمد لك ياربى

ثم يخف الحمل الثقيل عن قلبها شيئاً فشيئاً حتى تحس راحة تامة بعد قليل، فتقوم من فراشها وتسير على أطراف أصابعها إلى حجرة ساشا فتجده نائماً وهو يصيح فى نومه :

سأعطيكها . إذهب عنى . صه .

حنفى محمود جمعه

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى ـــ عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد فى الآداب العربية

الرسالة تحيى فى النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور فى الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلى ستون قرشا . والخارجى ما يساوى جنيها مصريا ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العـدد ٦٤ — أول شعبان سنة ١٣٥٨ — ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد



المنافقات في الحب

للكاتب الفرنسي كاتيل منديز
بقلم الأستاذ صالح أحمد الهاكع

في إحدى الأمسيات المقمرة يممت شطر دار صديق (ت) الذي يقطن منزلاً صيفياً جميلاً في إحدى ضواحي المدينة فوجدته يتوسط رهطا من إخوانه تحت عريش وهم يسمرون

وكان الحاضرون ثلاثة رجال غير صديق رب الدار عرفت من بينهم الكاتب (ع) الذي سجل اسمه بين الخالدين بآثاره في فني الشعر والقصص، والذي يحمل وجهاً بينه وبين الجمال ما بين الماء والنار وطبيباً كانت له يوماً شهرة في ميدان الحب ، أما الثالث فسمعتهم يلقبونه بالأستاذ ولم أعرف على وجه التحقيق أهو محام أو معلم

فما كدت أجلس بينهم حتى وجدتهم آخذين بأطراف الحديث ما بين أدب وسياسة ودعابة إلى أن انتقل الكلام إلى موضوع الحب فقال رب الدار : « إن أعجب فعجبٌ أن يرى الإنسان غادة هيفاء ملكت من الجمال والرقة والكمال غاية ما تصبو إليه النفس ، تعشق رجلاً قبيح الوجه بشع السحنة كريه المنظر لا يزينه أدب وليس له من نباهة الذكر أو علو القدر ما يبرر هذا الشذوذ في الاختيار، وإني لا أدري أية غشاوة غشت عينيها فمنعتها من النظر إلى الحقيقة »

فأجابه الطبيب : « إن المرأة إذ تستسلم لرجل لا تخضع لشخص الحبيب ولكنها تخضع لنفسها ولنفسها فقط — لظروف خاصة بها ليس للحبيب دخل فيها مطلقاً — فهيامه وإخلاصه وتوسلاته الطويلة وتضحياته الغالية لم تكن عاملاً من عوامل استسلامها. فانتصار الحبيب في هذه الحال أشبه من كل الوجوه بانتصار قائد استسلم له العدو بعد أن أنهكه الجوع والمرض لا عقب هزيمة في واقعة من المواقع !! وأنا أوقن بأنه لو كان أي رجل آخر مكانه وفي الظروف التي وجد فيها لما كان أقل حظاً منه عند المحبوبة ، وحسن البلاهة وقبح الوجه ليسا دائماً عقبة في سبيل الحب ؟

ولو لم يكن ذلك كذلك ... ولو لم تكن المرأة تستسلم لعوامل خاصة وبعيدة عن الحب الذي تدعيه — بل عن الحب الذي تشعر به — فلأي أمر يمكن أن يُنسبَ سوء اختيارها المألوف ؟ فكثيراً ما نرى غواني هيفاوات يَهمْنَ بحب خادم حقير، وملكات عظيمات يقعن في حب وَشْبٍ كريه المنظر

وقد تساءل الأستاذ: «هل من الممكن لمثل هذا الحب أن يستمر؟» وكان أديبنا الخالد في غضون هذا الحديث صامتاً لا ينطق ببنت شفة مطرقاً برأسه وهو ينكت[1] الأرض بقضيب[2] كان في يده شأن المفكر

(١) يضرب الأرض (٢) الغصن ويطلق على العصى

وكأن هذا التساؤل قد حرك فى نفسه ذكريات قديمة فانقبضت أساريره وأجاب : « لا أظن أن هناك دواماً لمثل هذا الحب، وسأطرفكم بواقعة حال ربما رأى بعضكم أن صاحبها محق وربما آخذه البعض الآخر، غير أنه يمكن القول أن بطل القصة يشعر براحة ضميره للخطة التى اختطها

حدث ذات مرة أن أحبت فتاة جميلة وصغيرة شخصاً قبيح الوجه نَصَفاً[1] نظراً لشرف قلبه وعلو روحه ونباهة ذكره ولأنه كان يحمل اسماً من الأسماء التى ترددها الألسن كل يوم فى إعجاب وتقدير !

وكان هذا الشخص يذوب جوى فى حبها غير أنه كان أعقل من أن يطلب الحصول على يدها . فلما رأت منه ذلك عزمت على أن تكون هى البادئة ، وأتت إليه ذات يوم وهى تمشى على استحياء وقد زان جيدها عقد من لؤلؤ ثمين وبادرته قائلة :

— إن جميع الشبان يخطبون ودى ويطمعون فى قربى ولكنى لم أختر سواك !

وكان هذا الرجل مشهوراً بثقوب البصيرة وبعد النظر وأصالة الرأى . فلم يكد يسمع منها هذا القول حتى شعر بما يشعر به راكب البحر من المُدام[2] ولكنه تمالك نفسه ، ورغم تولهه فى حبها دفعها عنه فى حزن قائلاً :

أنت تحبينني وتنتظرين منى أن آخذك لنفسى فبأى حق يكون ذلك ؟ إن اسمى لا يعادل هذا الحب إن كان هو البدل ، فأنت تقدمين لى ابتساماتك الملائكية وجسمك البض وقوامك الشبيه بغصن يتمايل مُعْجَباً مع الريح . . . أما أنا فأهبك شخصى وهو كظلام الشتاء ، فأنا إله الحب وأنت إلهة الجمال . لا تقولى إن رقة أخلاق وسمو نفسى وعلو شأنى قد غيرت مظهرى فى نظرك ، وأنك ترَيْن فى شخصى حبيبك المُتَصوَّر ، لأنه سوف يأتى يوم قريب جداً تَرَيْنَنى فيه على حقيقتى وحينئذ تكون الطامة الكبرى ليس بالنسبة لك فقط ، أنت التى ستبكين حيث لا ينفع البكاء ، وستذكرين مع الألم أولئك الشبان الظرفاء الذين سمحت لنفسك أن تطرديهم من أجلى منذ زمن وجيز ، ولكن بالنسبة لى أيضاً .. أنا الذى سأقاسى الأهوال لحزنك المشروع . . . أنا الذى سأحتقر نفسى وآلم أشد الألم كلما نظرتُ إلى وجهى فى المرآة !

فيا عزيزتي البلهاء تباعدى عنى واذهبى إلى الشخص الذى يستحقك وأعطِ شبابك لشبابه ، وابتساماتك لابتساماته ، وظرفك لظرفه ، لأن الورود الحمراء لا تلتئم إلا مع الفل ، والضوء لا يعادله إلا النور ، وليس هناك أسوأ نتيجة ولا أكثر حماقة من قِران القبح بالجمال . . . ولا شك أننى سأقتلك أو أقتل نفسى إذ رأيتك فى غدِ زواجنا تنظرين بتلهف إلى شاب جميل يمر علينا ... واعلمى جيداً أنك لن تتألمى فقط من انخداعك فى شخصى وغيرتى عليك ولكن سيحدث يا صديقتى العزيزة أن يأتى يوم تفقدين فيه جمالك لكبرى وبشاعتى فإن معاشرة الهرم تهرم ، فقبلتى المجوجة ستذهب بنضارة شفاهك ، ونظراتى المتمة ستخمد ضوء عينيك ، وشكلى المظلم سينعكس على شكلك النير كما ينعكس شكل الأرض على القمر فيصيبه الخسوف

أليس إلقاء الأقذار فى نبع رائق المياه مما يُعَكِّرُه ؟ ومن يدرى ؟ ربما كان من سوء حظك وحظى أن أبغضك فى المستقبل للقبح الذى قبسته منى. وهى أنك ستبقين شابة جميلة؛ وهى أن حماستك فى حبي ستستمر وأنك ستنظرين إلىَّ أبداً بعينك

(١) النصف للرجل والمرأة التى ما بين الحدثة والمسنة
(٢) دوار البحر

الأولى ، مع ذلك فثقى أن السعادة مستحيلة على بين أحضانك . فأنا أحبك كما تشعرين وأنت واثقة من أن مجرد الفكر بوضعك فاك على فمى وثدييك على صدرى وشعرك المحلول على وجهى يحدث بى هِزَّة من أعلى رأسى إلى أخمص قدمى، ولكن إذا حدث هذا فعلاً فعوضاً عن أصوات المرح والبهجة التى تنتظرين سماعها منى سترينني فى أكأب حال . فيالبؤسى ويا لشقائى لأن الخجل من قبلتى سينسيني قبلتك . ستلمسينني أنت الجميلة ، وسأشعر فى نفسي بأننى ألمسك أنا القبيح

أليس مما يدعو إلى العجب أن نسمع كل يوم أناساً يغبطون رجلاً كهلاً لحصوله على يد عذراء جميلة ، و مُموّلاً غِراً ثقيلاً يشوه الصلع رأسه لشرائه قرب ممثلة فاتنة ! تراهم يقولون : « ها هو ذا رجل سعيد » أو « ليس لهذا الرجل أن يشكو شيئاً فقد نال الحظوة عند أجمل النساء »

وفى الواقع يُسَر متقدمو السن هؤلاء بزواجهم من شابة صغيرة أو بحصولهم على معاشرة مخلوقة فتانة، ولكن هل سرورهم هذا طبعى ؟ أو لا يعلمون أن الشباب والجمال ضروريان للزوج أو الحبيب كما هما ضروريان للحليلة أو الخليلة ، وأنه لا بد من توفرهما فى كلا الشخصين لكى يتولد بينهما الحب الذى هو رأس كل سعادة . حقيقة سينعمون بوصال هذه الفاتنة ولكن ألا يخجلهم أن يَرَوْا بجانب خُصْلات شعرها الذهبى بقايا شعرهم الأغبر، وبقرب صدورهم الخشنة صدرها الأملس، وبجانب تلك السيقان اللينة والتى هى فى نعومة الحرير وبياض الثلج سيقانهم التى هى عبارة عن عظام نخرة طويلة ؟

فهل يكفيهم أن تكون حبيبتهم جميلة ؟ وهل يعتقدون أن القبلة يصح أن تكون من طرف واحد ؟ أو لا يشعرون بثقل أنفاسهم عند ما يتقدمون بها؟ وهلا يخطر لهؤلاء الأنانيين أنه يجب أن يكون كل من الحبيب والمحبوبة فى شكل واحد لكى ترى فيه خيال نفسها ؟

فأشخاص كهؤلاء أشبه بذلك الموسيقى المغرور بنفسه والذى كان يوقع أنغاماً مليئة بالنشوز مع زميل له وقد اعتقد لضيق عقله بأنه لو ترك بمفرده لانصلحت الأنشودة ولسمع الناس منه أنغاماً غاية فى الطرب!

فيأيها البائسون الأغبياء ، اعلموا أن اتحاد العاطفتين عند الحبيب والمحبوبة هو الذى يؤدى إلى تعادل السرور فى الحب ! لكل هذه الأسباب أقول لك يا أعز مخلوقة لدى : تباعدى عنى لأننى لا أرغب فى إساءة استعمال لطفك ، فأنت تفكرين فى تقديم السعادة لى ، ولكن بكل أسف لا يمكنك أن تعطينى إياها ، لأنها تتوقف على شخصى وليست متوقفة عليك ؟

فاحتقارى لنفسى سيكون سبباً فى تكدير سرورى بالحصول عليك . وعليه فأنا أفضل بعدك عن قربك ، أنا الذى أرغب فيك من كل نفسى لن أوافق على هذا الزواج الذى أنا مستعد لأن أهب فى سبيله حياتى ، إلا إذا كنت من الآلهة وكان فى مقدورك بنظرة أو إيماءة أن تجعلى الشعر ينبت من جديد فى رأسى الجرداء وأن تزهر على خدى وردة الشباب الحمراء

وما إن وصل أديبنا إلى هذا الحد من الكلام حتى كانت الدموع تملأ عينيه وحتى هَبّ واقفاً وسلم وانصرف ! .

صالح أحمد الهاكع
مدير الادارة المالية بوزارة المواصلات

الكذبة ...

للقصصي الروسي بانتليمون رومانوف
بقلم الأستاذ فخري شهاب السعيدي

كانت الغرفة مبعثرة الأثاث ؛ وكان هو جالساً إلى مكتب قد انتثرت عليه الصحف والكتب في غير نظام ولا ترتيب ، وكان ممسكاً بيده غطاء محبرة قد كان رفعه عنها بحركة غير إرادية منه ، وبصره مثبت في نقطة أمامه يحدّق فيها

وكان من عادته أن يجد صاحبته بانتظاره مشتاقةً في صبر ، ولكنه لم يجدها على عادتها في الدار . . . لقد قالت له فتاة الجيران إن « ماريا سيرجيفانا » خرجت بغير أن تترك وراءها خبرا

وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم تنتظره فيها منذ أن تعارفا حتى اليوم لقد كان أخبرها بالتلفون أنه ربما استطاع لقياها اليوم ساعة واحدة ، ولكنه استطاع أن يتحرر بغتة طوال هذا المساء ، إذ كانت زوجه قد خرجت لزيارة بعض الأصدقاء

ومضت الساعة الحادية عشرة وتلتها الثانية عشرة وهو ما يزال منتظراً ؛ وأخيراً أزفت الساعة الأولى ولمّا تأتِ ! وكان كلما طال انتظاره تشتد به الرغبة في البقاء حتى تعود فيعرف أين كانت

وأخيراً وقبيل الساعة الثانية دُقّ جرس الباب ففُتح لها فطرق أذنيه وقع أقدامها ؛ وما هي إلا أن فتحت الباب ودخلت فلم يكن له متسع من وقت يصلح به هيأة وجهه للقياها

كان الثلج قد غطى كمّيْ معطفها وكتفيه ، وكان خداها قد تورّدا من لفح الرياح المحملة بالثلج ، وعيناها السوداوان مشرقتين بوميض من الغضب والهياج . كان أول ما ابتدرته به من الكلام قولها :

— أهلاً بك ، أنت هنا ؟

وكانت في صوتها نغمةُ فرحٍ ودَهَش بيّنة التكلف . ثم استأنفت قائلة :

— ولكنك قلت إنك لن تستطيع المجيء !

وكانت تقول ذلك وهي تلقي على الغرفة نظرة تفقّد فاحصة ، فأجابها :

— كلا ، لقد قلت إني ربما جئت ولكني لم أكن واثقاً تماماً من هذا . قال هذا وهو يعيد غطاء الدواة إليها ، ثم قام فمشى حتى جاء فوقف قبالة صاحبته

— إنك على حق ، غير أنك قلت إنك إن جئت فلن تظل أكثر من ساعة

— حَسِبْتُ أن لقاء ساعة عندك تفضل الخروج مساء ... إلى حيث لا أدري ...

فأجابته بسرعة قائلة :

— « أوه ... إنما كنت ذهبت إلى الملهى » ، ونزعت قبعتها فَنَفَضتْ الثلج الذي كان يغطيها على البساط . ثم إنها بدأت تزيل الثلج الذي كان قد تراكم على كُمّيْ معطفها في أناة ظاهرة واعتناء . فهز صاحبها كتفيه وبدأ يعينها على خلع ملابس الخروج التي كانت ارتدتها محتفظاً بصمته ، ذلك

الصمت الذى كثيراً ما يشاهد فى مناظر الشّجار والمنازعات ، ولم يخفَ ذلك منه على صاحبته ولكنها اعتصمت بالصمت العميق مثله ، غير أنها بعد أن ألقت عليه نظرة جانبية بدا لها أن تغير وضعها — فجاءة — فقالت تكلمه فى صوت لطيف :

— أجائز أنك لا تصدقنى ؟ واقتربت من حبيبها بجوٍ تُشمّ فيه رائحة الهواء الطلق البليل الذى كانت فيه منذ برهة قصيرة ، فوضعتْ يديها — ولم يكن ليخفى عليها جمالها — على كتفيه ، غير أنه أحس ثانية أن هذا التبدل السريع من وضعها الأول إلى هذا الوضع الأخير اللطيف مما تُفسِرُ عليه نفسها ، إنه متكلّف أيضاً ! ثم قالت له :

— وفى استطاعتى أن أعدد لك كل حركاتى هذا المساء : كان أحد أصدقائى ومعه خطيبته ينويان الذهاب إلى الملهى ، وكانت عندهما بطاقة دخول زائدة فاستدعيانى معهما إلى الذهاب ففعلت، وذلك كل شىء تمّ

— فجيئك من الملهى إذاً فى هذه الساعة ؟

— نعم

ثم رفعت يديها عن كتفيه — وما كان قد مسهما — وذهبت إلى مرآة الصوان كأنها تريد أن تصلح وضع شعرها ، ولكن عينيها عادتا إلى ما كانتا عليه من النظر إلى الغرفة نظرة تجلى فعل العائد إلى داره يجد فيه ضيفاً غير منتظر ليطمئن على أنه ليس فى المكان بعض ما لا يجب أن تقع عليه عين ضيفه من أشياء :

وكان هو يلحظها أثناء ذلك من طرف خفى ويتتبعها فى كل ما تصنع ، أما هى فكانت تخفى شعورها بمراقبته هذه وتدقيقه وتتظاهر بهيأة من ناله تعب أو مسه جهد ، بينما كانت تمشط شعرها وتعيده إلى نظامه أمام المرآة

... لقد بدا له من الغريب أن تكون لشخص تصحبه إلى الملهى خطيبته بطاقة دخول زائدة ! !

... قالت : « وقد خاب ارتقابى مقدمك عند المساء تماماً . » ، ثم جلست على كرسى كبير بقرب المكتب قبالة صاحبها واسترسلت قائلة :

« . . . فوقعتَ بعض أخطاء أخرت الرواية عن موعد بدئها ، فضاق المتفرجون بذلك ذرعاً وعلت أصواتهم وسمع تصفيقهم ... ألمْ ترَ هذه الرواية من قبل ؟ »

ومع أن الرجل كان ما يزال واقفاً فى مكانه ، وعلى وجهه سيماء من يستمع إلى كذبة مدبرة حازمة صادرة من شخص كانت له بصحة ما يقول ثقة قوية — منذ قليل من الزمان فقط — مع هذا ، فإنها استمرت تتم حديثها وكأنها غير شاعرة بحالته الغريبة التى كان فيها

قالت : « وكانت الرواية غاية فى السخف ، مملة ، بينة التكلف والاصطناع ؛ وكان الممثلون يقومون بأدوارهم وما فى نفوسهم شوق إليها ، وكان أحسن ما هنالك فتاة ممثلة جودت فى دور لها متوسط »

وهنالك أدار صاحبها عينيه نحوها وقال لها :

— إنه ليس ثمة سبب يدعونى إلى الشك فى أمر ذهابك إلى الملهى

فردت عليه قائلة : « عزيزى ، إن شئت أريتك

البطاقة » ، وفتحت حقيبته يدها وأخرجت له البطاقة بدون بحث ولا عناء ، بل كان فى حركتها أثر الاطمئنان . فأخذ الورقة المطوية منها بحركة آلية ثم أردف قائلاً :

— إنى لا أدرى ما هذا الذى حدث على الضبط ولكنى لحظت من زمن يسير أنّ علاقاتنا قد طرأت عليها شائبة من الخداع

— وماذا تعنى بالخداع ؟

وكانت جالسة على كرسيها . فرفعت مرفقيها علامة السؤال والاستغراب

فأجابها : « لا أدرى تماماً ولكن هنالك شيئاً مما أقول . على أنى أطلب منك شيئاً واحداً ، ذلك ألاّ تضطرى الواحد منا إلى الكذب على الآخر . لقد كان بيننا عاطفة وُدٍّ قوية ، وفى أمثال هذه العواطف التى بيننا لا يستحسن الكذب أبداً . فلا تحدثينى الليلة بشيء ، ودعى ذلك إلى الغد . خابرينى بالتلفون وإذ ذاك تستطيعين التحدث بكل شيء . إن كلاًّ منا حرٌّ مطلق التصرف فى نفسه ، فإن لم يبق بيننا « حب » فلا حرج ولا بأس . . . لنفترق ! »

ثم وضع قبعته على رأسه مهتاجاً وارتدى (سترته) وخرج دون أن يودعها

... كان يسير إلى داره مستعيداً فى ذهنه حركاتها وصوتها فبدا له كل ذلك صورة من مكر وخداع بغيضة ! لقد كانت تحدثه عن الملهى حديث المضيف إلى زائر طرقه ، وذلك فعل المرأة حين تريد كذباً ، وكانت تتحدث عن الملهي حديثاً عاماً مبهماً بالطريقة التى يتكلم بها المرء عن حوادث قدم عليها العهد ، وكان عليها — إلى هذا — أن تبتدع كذبة تأخير الرواية ساعة عن ميعادها المعين لتبرر تأخرها عن موعد انتهاء أوقات الملاهى عادة !

أما البطاقة ... فمن يدرى ؟ لعلها ابتاعتها ... وهى تستطيع ذلك . بل ربما دخلت الملهى حقاً وشاهدت الفصل الأول . ثم ... ؟

غير أن فكرة — آخر الأمر — اعترضته فوقف تحت مصباح الشارع وأخرج من جيبه البطاقة التى كان قد وضعها فى جيبه بغير شعور منه

فلما أن فتح البطاقة الصغيرة الخضراء ليتبين التاريخ عليها وجد أنها قديمة ، مؤرخة بتاريخ أول الشهر ، وهم اليوم فى الثامن عشر منه ! فيا لها من كذبة دنيئة !

كان أول مادار بخلده أن يمزق قطعة الورق البغيضة تلك . غير أنه أعادها إلى جيبه ثانية لسبب خاص ...

... إنها حقاً كذبة إنسان صفيق الوجه ! فيا لها من زلة ! إنها كفيلة بأن تخجل الإنسان من نفسه ...

ولما وصل إلى بيته لم يجد فى شبابيك طابقه أنواراً ، كأن زوجه لما تعد ، وكان ذلك له خيراً ففى استطاعته أن يزعم — الآن — لها أنه كان فى الدار طوال المساء فقضاها أمسية وحيدة على مضض منه ... غير أن ضوءاً بدا فى غرفة النوم — بغتة — لقد سبقته زوجه الآن إلى الدار ! منذ خمس دقائق فقط !

فصعد إلى الطابق السادس بسكون مفكراً فيما عسى أن ينتحل من الأعذار ؛ ثم تسلل إلى الردهة فى ارتقاب وحذر فى حين أن زوجه كانت خارجة من غرفة النوم مسرعة وهى تشد وسطها بحزام فستانها البيتى ؛ فلما وقع نظرها عليه ابتدرته سائلة فى استغراب :

— ماذا حصل أيها العزيز فأخرك ؟ لقد ظللت فى الدار طول المساء هذا ؛ ذهبت إلى بعض الجيران ، وكان عندهم أقاربهم فلبثت عندهم ساعة ثم عدت وفى أملى أن أقضى هذا المساء معك . . .

فأجابها :

— غير أنى كنت أحسب أنك ستكونين خارج البيت الليلة ، وذلك الذى دعانى إلى الذهاب إلى الملهى ! ! فإن ذلك ولا شك خير من بقائي فى الدار وحدى !

— ولكن لماذا أراك متأخراً للآن ؟

— أوه ... إنك تعرفين كيف يسير هؤلاء فى أعمالهم . . . لقد وقعت بعض أخطاء أخرت الرواية عن موعد بدئها ساعة ، فضاق المتفرجون بذلك ذرعاً وعلت أصواتهم وسمع تصفيقهم !

ثم أخرج تلك الورقة المطوية وألقاها على الطاولة بحركة تدل على تعبه ؛ ثم استطرد قائلاً :

« وكانت الرواية غاية فى السخف ، مملة ، بينة التكلف والاصطناع فى كل شيء من مظاهرها . وخير ما كان فى الرواية كلها فتاة ممثلة أجادت فى دور لها متوسط ... ولو دريتُ أنك ستكونين فى الدار الليلة ، إذاً لتركت الرواية بعد فصلها الأول !..

(بغداد) فخرى شهاب السعيدى

من ذكريات الصبا

همٌّ جديد ...

أقصوصة عراقية

بقلم الأستاذ فيصل عبد الله

... كان من أثر مرضى الذى لازمنى أشهراً أن رسبت فى الامتحان ، وكان أبى رءوفاً بى فعرض علىّ أن أنتجع الصحة وأستعيد ما فقدت بسفرى إلى بلد أخيه ، فرضيت بعد إلحاح وتردد .

وكان ما وجدته فى البلد ، من مظاهر الطبيعة الفاتنة ومروجها النضرة ، وما يحيط بي فى البيت من ترحيب وعناية قد أنسيانى بعض النسيان ما ألمّ بي وبرّح ! ...

ولم يك من شىء يلفت نظرى ويسترعى اهتمامى فى ذلك البيت غير رحابته ، وكثرة ما فيه من ورود نضرة وأزهار زاهرة جمعتها حديقة فسيحة فى ركن من ساحة البيت ، توسطتها نافورة زاهية تقذف الماء إلى علٍ فيخرّ من الجوانب رذاذاً ناعماً كنسمات دجلة ربيعاً ... تلك النسمات التى تساير دجلة فى انسيابه كأنها تبادله عذب الحديث وساحر الأنغام ... وهو ينساب ...

ووجدت أنّ خير ما أقطع الوقت به أن أرعى الحديقة باهتمامى ، غارساً البذور وقاطفاً الثمار الناضجة ومبيداً ما يسرح فيها من الحشرات والديدان ، وما ينبت من طفيلى النبات ... وقد أثمرت عنايتى بعد أيام قلائل ، فغدت أزهى وأنضر مما كانت عليه

كانت هذه الحديقة وما تحفل به الشىء الوحيد الذى شغلنى فاستطاع أن يلهينى عما كان التذكر به يؤلمنى ويمضنى إلا أننى وجدت فىّ اهتماماً نحو شىء آخر أثاره السهوم والحزن العميق اللذان يتشح بهما ...

وما كان هذا الشاغل الجديد إلا ابنة عمى التى تقاربنى سناً وتشابهنى ملامح

كنت أراها تختلس النظر إلىّ وتقف عن بعد وأنا لاهٍ بصويحباتى الزهر تلاحظ ما أفعل حتى إذا ما رفعت بصرى إليها ، أشاحت بوجهها سراعاً كأنها لم تكن تراقبنى . وكانت كزهرة مما أغرس ، لا تفترق فى شىء عما أرعى من الزهر ، فقد كانت بارعة الجمال فاتنته ، ساحرة اللحظ ، فى عينيها حول يكاد لا يبين ...

كانت تدنو منى وأنا بين الزهر أسقيه وأرعاه فتقول لى فى لهجة وادعة تقع فى نفسى وقعاً لم آلفه من قبل :

— لِمَ تتعب نفسك بهذا ؟ ... أليس من شىء هنا يستحق وقتك واهتمامك غيره ؟ ..

وكنت ألمس فى قولها هذا غيرة وحناناً ، إلا أننى لم أكن لأدرى ما محلهما بين حبّى للزهر وعنايتى به ... كما كنت لا أدرى سبب سهومها وإطراقها الدائمين .. وتلك المسحة الحزينة الساحرة الغالبة على محياها الوديع

وأخذ اهتمامى بالحديقة وما تحفل يتضاءل ... وعدت للتفكير والتفسير .. أفكر فى هذه السحابة التى تكاد تعلو حياتى الهادئة فى ذلك البيت الساكن الهادئ ...

كان جمالها يثير فى نفسى إحساساً غريباً لم أكن لأفقهه ، إلا أننى كنت ألمس فيه الارتياح البليغ إليها والميل إلى مجالستها لتعرّف ما كان يبدو لى غامضاً منها ...

كانت جميلة ، ولست أعنى بالجمال هنا قواماً فارعاً وعينين ساحرتين خضراوين ، وجفوناً ناعسة كثيفة الأهداب ، وشفتين قرمزيتين دقيقتين ، وشعراً ذهبياً مموّجاً . كلا ، فهى قد ملكت هذا النوع الظاهرى ... إنما أعنى الجمال الباطنى الروحى الخلاب ، الذى ينطق به سهومها ونظراتها الحيرى الحزينة ولهجتها الوادعة الوقور ، وابتساماتها التى تفيض علىّ سحراً يخالطه شعور يملأ نفسي ، شعور غامض لم آلفه فىّ من قبل . . .

وكنت أجد شفتى تنفرجان عن ابتسامة أحييها بها فتجيبنى ببسمة ساحرة سرعان ما تغيب ، وألفت أن أراها تبسم لى كلما التقى طرفانا ... كانت ابتسامة يرتسم بها محيّانا بسهولة تفوق مقدرة أفواهنا على تبادل الحديث

وحاولت عبثاً أن أحيط بما تكنه علماً ، وأن أخرق ستر الغموض الذى يحجب نفسيتها الدفينة عنى ، حاولت ذلك سدى ، وإنما كنت أخرج من كل محاولة وقد ازدادت غموضاً فى عينى ، كما ازددت ميلاً إليها أو بالأحرى رغبة فى تعرف ماتكنه وتخفيه

وكانت السويعات اللواتى تهب لى السعادة قليلة فأخلو بها فيهن معجباً مأخوذاً ، وكنت أرجىء محاولة تعرّفها إلى تلك السويعات الخوالد فى النفس . .

لكن ذلك السحر الذى ينبعث من جماليها : جمال الخلق وجمال الروح ـ لا يدع لى تذكر ما انتويت ... ولا يفسح إلى ما اعتزمت سبيلاً

لقد زاد غموضها حبى لها . . . أجل حبى . . . ولقد اضطربت وارتجفت وأحسست أن شعوراً غريباً أفيض به عندما ألفيت فىّ اهتماماً بهـا ، وأدركت أن ذلك الشعور الغامض الذى أكنه لها ... لم يكن إلا الحب ! ! ...

كانت روحها الحزينة ونفسيتها الدفينة الغامضة قد ولّدتا فى ذلك الحب كما زادتاه ، وأسبغتا عليه قدسية كنت ألمسها فى صاحبته ... وشعرت لأول مرة أن ما أعتزّ به من كبرياء وعزة ونفس قد نكصتا خائبتين أمام سحرها وغموضها ...

أنا ... أنا الذى كان يلذ لى ألا أحفل بأى فتاة وألا أبدى أى التفاتة لأية كانت مهما بلغت من الجمال ومهما كان شعورها نحوى ، رأيتنى أحفل بها ، وأهتم بكل ما تبديه ، بل لقد تناول ذلك الاهتمام كل ما يخصها من شؤون حياتها حتى ما ترتدى وتطعم

وأحسست فىّ عجزاً كليًّا عما انتويت اقتحامه فسحر عينيها يخسئ عينىّ ويردّهما خاشعتين منكسرتين ، وسحر نفسها يملأ نفسى شعوراً بل مشاعر كلها من الحب وإليه ...

وأخيراً ... وجدت أن خير ما أفعل لتعرفها ، لكشف الغموض المتشحة به . . . أن أكاشفها بحبى . . ولكن أنى لى أن أفعل هذا وفىّ ما عرفه الناس عنى من خجل وارتباك يملكاننى ساعة أن أحادث أية فتاة ؟

وكان فى التلميح ما يشفى ، ولم تك بغبية لا تفهم

ما أعنى . . . فقديماً قالوا : « إن الجمال والذكاء صنوان لا يفترقان » وإن ما تملكه من الذكاء لكفيل بإشمارها ما أعنيه

فقلت لها يوماً وقد قاربتنى مجلساً وكادت أنفاسها الحرّى تبلغ رئتيّ :

— ما أعبق ما فيكِ من عطر ... لقد أفاض علىّ نشوة لم آلفها من قبل ؟

فقالت بعجب : ولكننى لم أضع أى عطر . . .

— أجل لستُ جاهلاً هذا ...

— إذن مِمّ جاءنى ؟ !

فقلت وقد أصمّنى وجيب قلبى عما عداه :

— أنفاسك الحرّى العبقة

وازدادت سحراً وفتنة بحمرة الخجل التى كست خديها وبسدول جفنيها الناعسين على عينيها الساحرتين فى حياء خلاب

« إن حباً يباغت به فتى لم يألف غير الهناء والهدوء فى حياته القصيرة الفياضة بهناء الطفولة السعيدة ومرح الصبا الهنىء لما يكشف لمن باغت عن دنيا حفيلة بالسعادة لا تدوم ، فإن هى أدبرت وولت فإن ما تبقى له من سعادة الطفولة وهنائها لا طعم له ... فليست سعادة الحب وأيامه العِذاب بما يخسره الفتى بعد أن يخسر هواه فحسب ، إنما يخسر فوق ذلك تراثاً نفيساً من عهود الطفولة ، كان مقدراً له أن يخلد فيه لولا أن يجرفه سيل الحب المدبر أو تقلعه رياح الهجر والخيبة »

وهذا ما كان ... فقد نسيت ما بليت به من قبل وما دفعنى إلى هذا البلد مريضاً متعباً كئيب النفس ، محطم العصب ونسيت من خلفت فى بلدى من أهل وأتراب ... بل نسيت حتى زهرى الحبيب الذى أقبلت عليه مشغوفاً مهتماً ولما تمض علىّ فى ذلك البلد سوى ساعات ، نسيت كل شىء إلا هذه السحابة التى علت سماء قلبى الذى جئت هذا البلد آملاً أن تصفو فيه سماؤه من غيوم المرض وعواصف الرسوب ...

وقد كان ... إنما حجبت تلك السماء غيوم أخر ولما تنصع سماؤه بعد ، وكانت من نوع آخر ، كانت تردّنى برذاذ ناعم ينذر بوابل كثيف من المطر والبرد ... وبعواصف ورياح لم يكن لقلبى بها عهد

ورحت أسائل نفسى محاولا أن أخلق من الداء دواء لما أصبت به ... أو تشعر بتلك العاطفة التى ولدت فىّ حديثاً ونمت حثيثاً ، ولكى أستطيع إيجاد الجواب أخذت أحلل كل ما كانت تبديه نحوى وأفسر ما تعنيه من حديث وبسمات ، ولكم ذهبت فى تأويل بعضها مذهباً آلمنى إذ أعزو ما كانت تبديه نحوى من رقة وبسمات ومجاملات ، إلى أنها أمور عادية ليست من الحب فى شىء ، أمور توجبها عليها غربتى عن بلدى وإضافتهم لى ... كما توجبها عليها صلة الأسرة الوثيقة التى تربط كلينا

وعدا هذا ... فقد يكون ما تبديه محاولة إزالة ما فىّ من هموم وأشجان أتيت بها من بلدى ... وما كان أشد الألم الذى يجتاحنى ساعة أن أرى فيما كانت تبديه هذا الرأى !

ومرّت أيام ... ولمس الكل فىّ تغيّراً بيناً فقد لازمنى الذهول والتفكير وأخذت أميل للوحدة والانفراد عازفاً عن كل ما يقدم لى ويهيىء من

رحلات وولائم ... راغباً عما وددت من الزهر والرفاق ...

حتى كان يوم لن أنساه ، كنا فيه منفردين نتناول ما عدت به من النهر فى ضحى ذلك اليوم من سمك صغير طرى .. وكانت كما ألفت مطرقة فى سهوم تحدق فى لا شىء ، حتى إذا ما تلاقى طرفانا غضت طرفها باسمة فى حياء بسمة ما أسرع ما تغيب عن فيها العذب . . . وكنت أقتر فى أكلى فأضع الجيد منه أمامها ... ولحظت هذا فقالت :

— لِمَ لا تأكل أنت ؟ أبق منه لك فكفاني ما طعمت ...

فقلت وقد أدركت أن هذا خير وقت أهتبله لأبوح لها بما أكن

— لا يضيرك أمرى

— ولِمَ ؟

— كلى أنتِ فإن شبعتِ فإن هذا كافٍ لى

فقالت بخفوت :

— أيهمك أمرى ؟ ...

— ولم لا ...

فأطرقت وقالت بنبرات صارمة أذهلتنى :

— ألا أستطيع أن أفهم ؟ !

— بإمكانك هذا ... إننى أحبك ... وقلبها كن يريد أن يُفهمْ

وكان هذا القول إذ مسّها كرياح الشتاء ، فارتجفت بشكل جلى وتغيرت سحنتها ، فتساءلت وأنا أحاول أن أملك نفسى ...

— أيسوءك هذا ؟ ...

فقالت بعد صمت بنبرات لا تخلو من رعشة وتهدج :

— لقد فات أوان هذا ... لستُ أهلاً لحبك الآن ...

ونهضت باضطراب وسارت مسرعة حتى اختفت

ومضت أمسية ذلك اليوم وأنا أسائل نفسى عن معنى ما قالت ... محاولاً أن أفهم ما تعنيه فلم أستطع . وقضيت ليلةً لا كما قضاها الناس إذ بتها ساهداً ، وقد أفزعنى أن أجدنى محموماً متراخى الأعصاب ، وكانت تتراءى لعينى أشباح راعبة صوّرتها لى الحمى . وأغفيت وقد لاحت فى الأفق تلاميع الصباح . . . ولم أفق إلا على صوت الخادم العجوز وهى تقول :

— لقد تأخرت اليوم فى اليقظة يا سيدى

— أجل ، فقد سهدت أمس

— أكنت مريضاً ؟

— لا ، بل متعباً

— هذا حق . . . فقد أجهدتَ نفسك أمس فى صيد السمك ... وعلى فكرة ... أأعجبك طبخى لسمك الأمس

— جداً

— إن (لبيبة) قد عابته علىّ ... ولكن مهلاً لو كان خطيبها هو صائده لما عابته

وقلت وقد بانت الدهشة جليّة فى سؤالى :

— خطيبها ! ألها خطيب ؟

وقالت تنكر علىّ جهلى :

— أجل يا سيدى ، ألا تعرف ؟ ... وتمادت

فى الثرثرة . أما أنا فقد كنت لاهياً عنها بصدمة عنيفة فوجئت بهـا وجمت . . . وأخيراً عرفت ما كان مجهولاً . . . أو كدت

***

بعد أيام ثلاثة قضيتها فى حال لا تسرّ ، كنت أتعمد فيها الخروج كثيراً للخلاء حذراً من رؤيتها كان البيت متهيئاً لوداعى وقد عجبوا لتعجّلى بالذهاب ولانقلابى الأخير . . . ولكننى احتججت بشوق لأهلى وشوقهم لى . . . وكانوا مشتغلين بحوائجى يهيئون لى ما أعدوه من هدايا وثمار . . .

أما أنا فقد كنت أفكر فى شىء أدرت طرفى باحثاً عنه فلم أجده . . .

وسرت مطرقاً وفى نفسى مشاعر يغلب عليها الأسى ، وفى ذهنى صور وطيوف تتلاحم فيه . . . ورفعت بصرى بغتة ليقع عليها وهى تحدق فىّ بألم وأسى ... وراعنى فيها احمرار عينيها وأمارات الحزن العميق والسهد المضنى المرتسمة بوضوح فى محياها . .

وكانت شـفتاها تختلجان كمن تريد الـكلام ولا تقوى عليه ... وأدارت وجهها لتخفى دمعتين ذرفتهما عيناها

وخرجت مسرعاً وقد خيل إلى أن نحيبها يصل إلى أذنىّ ويدوّى فيهما

وعدت إلى بلدى ... وفى قلبى هم جديد ...

فيصل عبد الله

اعترافات سجين

للكاتب الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ ناجي الطنطاوي

لم يبق بيني وبين الحرية إلا أن تشرق عليّ شمس الغد فتكون خاتمة هذه الأشهر الستة التي حكم عليّ بأن أقضيها حبيساً فى هذا السجن جزاء اختلاسى ألفي فرنك من صندوق رئيسى . فقضيتها فيه أذوق العذاب الأليم ، تكفيراً عن ذنبي الذى أذنبت ...

ولن تحين الساعة الثامنة من يوم غد حتى يدخل عليّ الحارس الموكل بى حاملاً إليّ ثيابى التى أخذت منى يوم أدخلت السجن ، وأبدلت بها هذا الثوب الكالح البغيض ... لقد كانت جديدة نظيفة وسأعود إذا لبستها إلى ذلك المظهر الأنيق فلا يفرق الناظر بينى وبين غيرى من شباب البلد .. وسأسرع إلى كاتب السجن فأسأله محو اسمى من سجله ، ثم أعدو إلى مرجريت فأراها فى عربتها تنتظرنى على باب السجن كما وعدتنى ... فيا فرحتاه .. سأسترجع حريتى كاملة غير منقوصة !

أجل . سأكون حراً ، وسأعود سعيداً . لأن مرجريت التى من أجلها أجرمت جريمتى وسرقت ، لا تزال تحبنى ، وقد كتبت إليّ بالأمس تحلف على ذلك . وإذن فسنرجع كما كنا زوجين وفيين سعيدين ولن نذكر أيام المحنة ولا نعود إليها . لأن المرء يستطيع أن يدفن ماضيه فى أرجاء باريس الواسعة التى يضيع فيها كل شيء ولا سيما إذا كان مثلى شاباً متوثباً طموحاً عالى الهمة موفور النشاط ، وكان حسن الهيئة ، ذا ميل إلى التجارة ولقد عزم رئيسي قبل محنتي أن يجعل مني شريكاً له . وكانت تحدثني نفسي بأن شاباً مثلى له تلك المواهب يستطيع أن ينال منزلة فى الناس . فأستشعر الشجاعة ، وأحس بالرغبة فى مجالدة الحياة ، واستسهال الصعب ، وحمل المكاره والمشاق بصبر وثبات . كصبر (حصان العجلة ..) لأحصل قوتى وقوت مرجريت ... ولكن مالى ولهذا ؟ ولماذا أفكر فيه ؟ لأدع الأمور تجرى فى أعنتها فلكل شيء أوان ، وخير لى ألاّ أفكر فى غد . فإن غداً لى وأنا مطمئن إلى هناءته وطيبه ، وما أجمل الساعة التى أغادر فيها السجن ، فأقف على الباب أتلفت فيقع بصرى على وجه مرجريت الجميل ، متوارياً فى ظل العربة يتراءى من خلال النقاب شاحباً من فرط التهيج والاضطراب . فأدفع للسائق مائة قرش وألقى إليه بعنوانى ، وآمره أن يغذّ السير إغذاذاً ، وأقفز إلى العربة فآخذ مكانى فيها ، وتهوى الفتاة المسكينة بجسمها الغضّ على صدرى باكية منتحبة ، وما أعذبها قبلة أطبعها على جبينها المشرق !

سنعود إلى عشّنا فى غرفتنا العليا بشارع « مدام » تلك الغرفة التى ترى منها حديقة

« اللكسمبورغ » بكاملها . ألا ما أجمل أيامنا هذه أيام سبتمبر الأضحيانة ، ذات السماء الصافية والشمس المشرقة . لقد ارتدت الأشجار دون ريب حللها الخضر الزاهية ، وتفتحت أزاهيرها الفاتنة . يا لجمال الطبيعة ! سنجلس بالقرب من النافذة ، وسنرسم هذا المنظر الساحر ، وستغمر الشمس غرفتنا بأشعتها الذهبية العذبة مداعبةً الستائر البيضاء ، نافذةً فى الأوانى البلورية تاركة فيها لألاء وبريقاً . ما أهنأه طعاماً نتناوله فرحين مسرورين ، تأبى أبصارنا أن تكف عن تبادل النظرات فى سكون وصمت ، وفى حنو ودلال . ستأخذ مرجريت مكانها إلى جانبى بعد تناول القهوة على عادتها فيما مضى واضعة ذراعيها البضتين على منكبى ، ملقيةً بذقنها الجميلة فوقهما وهى تنعم النظر فى وجهى

سوف أنتشى من عبيرها المعطر ، وشعورها الشقراء ، تدغدغ شفتى ، ثم أغلق مصراعى النافذة مسرعاً وأسدل الستائر وأوقد الشموع ، وأنزع ثيابى وأنتظرها مرتعداً مرتجفاً مرتفقاً مخدتى . ولا تسل عن فؤادى الخافق والغبطة التى تملك علىّ مشاعرى حين أبصر عنقها العاجى ومنكبيها اللذين يبرزان من خلال قميصها الحريرى وابتسامتها الساحرة المغرية

يا لله ! سأحظى غداً بكل ذلك ، بعد هاته الأشهر الستة التى قضيتها فى العزلة المضنية والوحدة القاتلة . سأحظى غداً بكل ذلك . يا لله ما أعذب الحرية وما أحلى السعادة ، وما أهنأ الحب ! . . .

ولكن . . . إن كل ذلك لن يكون . . . سأنتحر الآن بعد أن أنطق هذه الوريقات بما يوضح حاجتى الملحة إلى الموت . أوه ! هذا الحارس الذى باعنى – خلافاً للقانون – شمعةً أسطر على نورها هاته الكلمات ، سيدخل علىّ غداً ليخرجنى إلى النور والحياة ، فيذهل عند ما يرانى معلقاً بإحدى حلقات النافذة بارداً متشنجاً ، كالح الوجه مندلع اللسان ، وسيفر فزعاً . . . لكل شىء حينه ، فلأنتظر حتى منتصف الليل

لأفكرْ ولأمعنْ فى التفكير ، ولأحاولْ أن أتبين المشاعر التى تهيجنى :

لزامٌ علىّ أن أعترف بادئ بدء أننى لا أحس أىّ ندم على عمل السوء الذى قمت به . لقد أقدمتُ على خيانة دنيئة سافلة ، إذ سرقت رجلاً أحسن معاملتى ، ووثق بى وكافأنى بنبل وشهامة واهتمّ بمستقبلى ، وبلغ من احترامه لى أنه عزم على أن يجعل منى شريكاً له فى أعماله ، ولكنى ويا للأسف لم أكن أهلاً لتلك الثقة ، ولم أثبت بعد ذلك ندمى ، أفبرهن عليه الآن ؟ أما أنى لو أحسست مرة أخرى بيد مرجريت ترتجف فى يدى حيال دكان (الجوهرى) ولو رأيتُ مقلتيها الفياضتين بالآمال وهى ترنو إلى سوار دقيق براق مزين بالماس والذهب ، لطوعت لى نفسى سرقة مئة قرش لأبتاع لها السوار . أسافل أنا أم معتوه؟ لا أدرى ولكنى أحدهما من غير شك. آه من هذه المرأة . . . ترى كيف قدر لى أن أقع فى شرك غرامها سريعاً ومن النظرة الأولى ؟

لا أزال أذكر ذلك كأنه حدث الآن . طلب إلىّ اثنان من أصدقائى أن أرافقهما إلى المرقص العام الذى يجاور « مونتمارتر » فرفضتُ طلبهما ، إذ أنى كنت لقساً وكنت عازماً على النوم مبكراً ، ولكننى اضطررت أمام إصرارهما أن أعدل عن رفضى وتبعتهما

عزفت الأركسترا رقصة البولكا ، وكانت الأنغام شعبية يصدرها ناى مطرب ، وكانت تقفز فى ذلك الفضاء الرحب بضعة أزواج من رجال ونساء ، وكان الجمع الحاشد يدور بلا انقطاع بفتور وكسل تحت أوراق الأشجار المضاءة . ولم يكد يستقر بنا المقام حتى رأينا امرأتين تدنوان منا وتخفان لاستقبالنا . أما الكبرى فسمراء محففة[1] الوجه — يبدو أنها خادمة فى أحد المطاعم الليلية — يعرفها أحد صاحبيّ وتعرفه ، راحت تطلب منا بكثير من القحة أن نقدم لها ثمن شراب تتناوله . وأما الصغرى فشقراء ، وقد كان موضعى بجانبها حول النضد ، وكانت معتزة بطلعتها البهية ووجهها المشرق الجميل وقوامها الرشيق . وكان يبدو عليها قليل من الخجل . ولاحظت بسهولة أنها لم تتعلم الرقص إلا منذ زمن قريب . لم يكن عليها شىء من الجواهر وكل لباسها ثوب بسيط متواضع أسود اللون ، ثوب فتاة مهذبة . أما قبعتها فقد كانت مصنوعة من اللباد تعلوها ريشة وردية ، وكانت هيئة الفتاة تغرى أول متطلع إليها أن يقول لها برغبة وشوق : « أتتفضل الآنسة بقبول تناول العشاء معى ؟ » ولقد كانت قبعتها هذه كلوحة تسير أو علم يرفرف

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث . كان صوت الفتاة عذباً كعينيها ، ولم تكن تعرف معنى للصلف والقحة، ولقد حياها أحد صاحبيّ تحية فظة فلم يك جوابها إلا ابتسامة حائرة يتجاذبها اللطف والنفور ..

لقد كان مرآها يستدعى الشفقة والرحمة حقاً ، وقد أيقظ جمالها خيالى فشبهتها — رغم أنى لم أكن شاعراً — بانعكاس نور كوكب درىّ فى غدير نقىّ صاف ، وكان فى القبلة الأولى التى سمحت لى بها عند صعودنا إلى العربة وانصرافنا من المرقص كثير من العطف والرحمة والحنان

لله ما أطربها وأبهجها ليلة قضيتها إلى جانبها ! لا أزال أحس حتى هذه اللحظة بحرارة دموعها المنهمرة على منكبى التى كانت تذرفها وهى تقص علىّ تاريخ طفولتها متشردة على أرصفة باريس ، وتاريخ شبابها البائس وسقوطها المؤلم فى حمأة الرذيلة . لقد دفعتنى حالتها المحزنة تلك إلى أن أسارع لإنقاذها ، وغدت بعد تلك الليلة تعيش معى بشرف واستقامة

لقد كان عملى ذاك حمقاً بل جنوناً ، إذ لم يكن لدىّ من المال إلا مرتبى الذى أتناوله من صندوق « سان جرمان الصغير » فلو كانت مرجريت تعرف معنى التوفير والاقتصاد شأن كل الخادمات لاستطعنا أن نعيش عيشة راضية ، ولكنها لم تكن كذلك وا أسفاه . كانت بطبعها واهنة الشعور ، نشيطة الجسم ، ولم يكن سقوطها الأخلاقى ناجماً عن ميل طبيعى فيها ، بل كان الدافع إليه ضعفها روحاً وجسداً . وما بالك بفتاة طائشة كسول متخاذلة لا تنهض من سريرها قبل الظهر ، تقضى أكثر أوقاتها فى مطالعة الروايات والقصص ، تصبر على تناول (السلطة) أياماً ثمانية علها تقتصد من ذلك بعض المال الذى تستطيع أن تشترى به لنفسها زوجاً من الجوارب الحريرية

غمرت دارى فوضى شاملة : عند ما كنت أعود مساء من عملى ، كنت أرى مرجريت منهمكة فى تزينها الصباحى تجمل وجهها دون أن تفكر فى طعام أو شراب ، فأضطر إلى أن أكلف الخادم بشراء

(١) كناية عما يدعى بالفرنسية Maquillée

شيء من اللحم . وما حاولت مرة أن أوقظ صاحبتي وأعنفها على إهمالها ، إلا وكانت تجيبني غير غاضبة بقولها : أنا أعلم يقيناً أنني لست تلك المرأة التي تليق بك، ولكن ماذا تود أن أعمل؟ اهجرني إن شئت ولن يكون لي حق الشكوى

لم أكن أدرى بم أجيب ، ولقد كدت أعتقد أنها لا تهتم بي ، وأنني لم أستطع أن أحملها على حبي

أأهجرها ؟ كنت أفكر في ذلك بادئ الأمر ، ولكني عند تصور عواقب هجرانها كنت أرتعد من الهول : ستعود عقب هجري إياها ، وفي مساء اليوم نفسه ، إلى المرقص الرهيب الذي انتشلتها منه ، وسيمر بها أحد العابرين فتروق في عينه فيقودها إلى داره بعد أن يدس في يدها قطعة أو قطعتين من ذوات العشرين فرنكا ... أواه ! إن رأسي لم يكن باستطاعته أن ينوء بتصورات كهذه ... أأهجرها ؟ كانت تحدثني نفسي قائلة : إنك ستستيقظ صباحاً فلا تحس دفء جسمها بقربك ، فلا أكاد أسمع هذا منها حتى يغمى على من الخوف والحزن .

ولقد أصبحت حاجتي إلى تلك المرأة — بعد أسابيع قليلة — قوية شديدة ، وكثر ميلي إليها فلم أعد أستطيع الانفكاك عنها بحال . كنت أحبها ... وأحبها ... لا بل إني كنت مجنوناً بحبها

ألم تكن تبيت قبل أن أضمها إلي في غرفة قذرة في فندق صغير ؟ ألم يكن كل ما تملكه ثوبها البسيط الذي كانت ترتديه وتلك القبعة ذات الريشة الوردية التي انفردت بها في المراقص العامة ؟ أما والله لقد بذلت جهد طاقتي لأقدم إليها ثياباً تضفي عليها الحشمة والوقار ولأجهزها بكل ما تحتاجه وتطلبه ، ويعلم الله أنني أنفقت في هذه السبيل كل ما أملك من مال وعقار بل إني استدنت فوق ذلك أيضاً ...

كانت لا تعرف النظام ، ولا تدرى ما هي العناية . لقد بذلت كل ما بوسعي لأرضيها وأسعدها ، أتراها رضيت ؟ كنت أخشى دائماً أن تملني وأن يحملها الضجر على هجري

لقد اضطررت إلى استدانة أموال وافرة من جلة أصحابي وأصدقائي لكي أرسلها إلى عملائي الذين راحوا يشكون من تأخري وإهمالي حقوقهم ... وانتابتني لذلك أشجان بالغة لم أفض بشيء منها إلى مرجريت

ترى أأفادني ذلك كله ؟ لقد قالت لي مرة بصوتها العذب الهادئ — وأنا أعرف تماماً ماذا تعني — : « ماذا تود أن أعمل ؟ خير لنا أن نفترق لغير لقاء » فعقدت النية في نفسي آنئذ ألا أبالي بأية نكبة تحل بي وأن أتظاهر بأني لا أبالي أقوالها ، وأن أسعى لاستبقائها بكل وسيلة ممكنة ، وقد بدا لي المستقبل مربداً مخيفاً

رأيت الرجال البائسين يشغلون أنفسهم ببعض الملاهي ، وبدا لي هذا واضحاً في موظفي « سان جرمان الصغير » الذين كانوا يفيضون في الحديث أمامي عن مكاسبهم وخساراتهم في سباق الخيل الذي كانوا يشتركون فيه بحماس . وفي يوم من تلك الأيام التي كانت سوق المراهنات فيها رائجة ورابحة ، أعلن رئيس معامل الحرير بلهجة الواثق أن لديه معلومات هامة مستقاة من (جوكي) كان معروفاً بين زملائه سماسرة السباق وسواس الجياد بلقب « البوق الجيد » كان يدعى هذا البوق أن « جران دوسيل » — وهو جواد غير مشهور — سينال جائزة السبق الأولى وأن الذين يراهنون عليه سيربحون عشرة أمثال المال

الذى يدفعونه . ولقد رأيت أحد تجار الثياب الصوفية باع أشواط الجواد « ست دوبيك » مع أنه كان الجواد السابق فى المضار ، ورأيت آخر لا يريد أن يرجع عن رأيه فى الجواد « جران دوسيل » وراح يدبر بإشارات مساومة دنيئة فى الاصطبل الذى اجتمعت فيه الخيول الشهيرة المروضة وكان يريد أن يجعل النصر حليف هذا الجواد

فتملكتنى مشاعر رهيبة أمام هذه المشاهد المغرية واضطرب جسمى وحدثت نفسى قائلاً :

— لو عادت لى الآن قطعة الخمسمائة فرنك التى كانت فى خزانتى يوم عرفت مرجريت ، لخاطرت بها فى هذا السباق بلا تردد ولا إحجام . عشرة أمثال هذا المبلغ ! خمسة آلاف فرنك ! يا للسعادة ! سأفى كل ديونى وسأقضى حياة رغدة هنيئة . ستكون لى مرجريت بلا منازع أشهراً طويلة ...

ولكن ... لم أكن أملك ساعتئذ إلا قطعتين من ذوات العشرين فرنكاً ، واضطررت إلى طرد هذا الحلم الذى لن يتحقق إلا فى عالم الخيال وهززت كتفى ساخراً

كنت قد وعدت مرجريت ، رغم فقرى ، أن أذهب بها فى ذلك المساء إلى « فولى بيرجير » حيث يرى كثير من الأقزام الغرباء الذين يبعثون فى النفس الخوف والرهبة ، وذهبنا سائرين على أقدامنا ، يدى فى يدها ، كى نقتصد أجرة عربة ومررنا تحت شرفات « باليه رويال » وكانت مرجريت تقف مراراً — شأن كل امرأة — حيال واجهات الصاغة وتشير بيدها إلى سوار دقيق مزين بألماس قائلة :

— خبرنى ، أى ثمن تقدر لهذا السوار الصغير ؟ فكنت أجيبها قائلاً :

— ماذا ؟ ماذا ؟ إن ثمنه لا يقل عن ألف فرنك

فلا تكاد تسمع هذا الجواب حتى تبتعد عن الواجهة ببطء ، وفى عينيها نظرة أسف عميقة وتقول :

— هيا بنا ... ما أجمل هذه الألاعيب ، إنها من نصيب سوانا

وفى تلك اللحظة كانت تعاود ذهنى تفاصيل مساومة الاصطبل التى قصها علىّ صديقى وكنت أثق بنجاح جران دوسيل ثقة مطلقة ، وكنت أشعر فى أعماق فؤادى بدافع شيطانى قوى يغرينى بأخذ ألفى فرنك من الصندوق الذى كنت موكلاً به أشترى منهما السوار لمرجريت ، وأتم مغامرتى بالمال الباقى ، وكنت أبرر هذه السرقة ، بأن أقول فى نفسي : إن هى إلا أيام قلائل أستطيع بعدها أن أرد بكل أمانة المبلغ الذى سرقته إذا ما ربحت فى مغامرتى ، ورأيتنى إذ ذاك متخلصاً من جميع همومي ومتاعبي ، مالئاً جيوبى بالذهب الوهاج ، أتناول طعام الغداء الشهى مع صاحبتى جالساً بجانبها فى ظل حمام بالمسرح ، عابثاً بين حين وآخر بشعرها المتدلى على عنقها

تخيلت ذلك كله فى لحظة واحدة ، قبل أن تحول مرجريت نظراتها عن الواجهة الساطعة .

وكنت أسحبها ضاغطاً على يدها ، مسرع الخطى ، يخفق فؤادى خفقاناً شديداً ، ثم أشعر فجاءة برأسي يضرب ضربات ألمية موجعة ، ونفسى تحدثنى قائلة : « أما إذا لم تربح ؟! . »

كنت أرنو إلى رفيقتى من جانب عينى ، ولحسن حظى كنت أراها ملتفتة برأسها إلى الجهة الأخرى ، جهة المخازن لم ترني ، وقد رأيت فى مرآة أحد المخازن وجه مجنون يشبه وجهى ، ولكنى كنت أملك زمام نفسي باذلاً جهوداً عظيمة .

وبعـد ، فماذا تراه يحدث ؟ ماذا يحدث إذا أنا لم أربح ؟ سأجلس بلا ريب محنى الظهر خافض الرأس على كرسي الاتهام وسأقاسي عذاب السجن وبلاءه إلى جانب المجرمين . لا يحدث شيء فى هـذه الدنيا دون مغامرة ومخاطرة ، وإذا كان حظى الخيبة والفشل بعد ذلك فسألقى على هذه المرأة التى جعلت منى خادماً لها ، والتى لم أستطع أن أوقظ فؤادها البارد المتجمد ، سألقى عليها درساً يشعرها بحبي المظيم ، عساها تشعر أخيراً فى أعماق فؤادها ببعض الحب لى فتتألم بدورها ــ مهما كان قاسياً ــ عند ما تعلم أننى ارتكبت جريمة السرقة من أجلها .

ليس بوسعى الآن أن أصور العاصفة النفسية الخلقية الجامحة التى سودت وشوهت صفحة كرامتى . وليس بوسعى الآن أن أسرد حديث السرقة الشائنة التى ارتكبتها ، وآلامى النفسية المضنية أمام قائمة المراهنات عند ما كانت الخيول تعدو وهى تضرب ضرباً مؤلماً مبرحاً ، وصهيل الجواد « ست دوبيك » الذى كاد يسبق (جران دوسيل) فى اللحظة الأخيرة لولا أن مدّ الأخير عنقه فأحرز قصب السبق بهذه الحركة الأخيرة !

لقد اكتشفت جريمتى ، وأوقفت ، وحوكمت وأدنت وكان مصيرى هذا السجن الذى تحملت فيه ألوان العذاب والبلاء والذل والهوان ، والذى لن أخرج منه إلا ميتاً .

أواه ! لشد ما شكوت من الآلام الرهيبة الهائلة ، آلام لم تحملها إلىّ آلات التعذيب المفزعة ، ولم يسببها حرمانى الحرية ، ولا وجودى إلى جانب المشردين والمجرمين وقطاعى الطرق ؛ كلا ليست من أجل ذلك ، ولكنها آلام أثارتها فى فؤادى نيران الغيرة الرهيبة القاتلة .

لم أكن قد أحسست من قبل هذا الشعور الرهيب ، ولم يبد من مرجريت فى تلك الأشهر الخمسة التى عشناها معاً ما يوقظه فى نفسي . لقد كانت مثلوجة الفؤاد ، ملازمة للدار طول النهار ــ ولدى أدلة على ما أقول ــ وفى المساء عند ما كنا نخرج معاً لم أكن أرى فى عينيها تلك النظرة التى تلق بها كل امرأة — حتى أشرف النساء — ولو كانت برفقة زوجها ، إلى أول مار ينظر إليها نظرة إعجاب ... إن مرجريت لم تكن خليعة قط .

وقع ما تنبأت به ، إذ أن مرجريت قد حز فى أعماق نفسها إجرامى ورأت فيه دليلاً على حبي لها ، وأشهد أننى رأيتها فى جلسة المحاكمة تبكى بدموع صادقة مخلصة ملقية تبعة سقوطى على عاتقها ، ومذ سمح لها بزيارتى فى السجن — وكانت تدعى أنها أختى — بدا لى وجهها من خلال قضبان السجن شاحباً شحوب الموت دالاً على أنها تعانى حزناً عميقاً . لقد كانت تحبنى ، وكنت واثقاً من ذلك كل الوثوق

لا أزال أذكر المقابلة الأولى : كنا نتبـادل النظرات من خلال القضبان الحديدية فى حزن وشجن وأذكر أنى سألتها قائلاً :

— وأخيراً ... أراك أصبحت تشعرين نحوى بقليل من الحب ، أليس كذلك ؟

— لقد زاد حبي لك ، وأحسبك تدرك ذلك بسهولة

— ولكن فؤادك كان قاسياً قبل الآن

— إن عملك الأخير قد شجانى وخالط الحب من جرائه سويداء قلبى ، ولم أكن أعتقد قبل ذلك أنك تكن لى مثل هذا الحب الجامح القوى ... إختبر حبي لك إن شئت

— ليس لدى إلا شىء واحد يدفعنى إلى الاعتقاد بحبك لى واقتناعى به

— قل لى ما هو ؟

— هو أن تنتظرى خلاصى وتبقىْ مخلصة لى

— أعدك بهذا ، وأقسم عليه إن شئت

— حسن ، و كيف تودين أن تقضى هذه المدة ؟

— سأعمل !

— تعملين ؟ أنت يا صديقتى تعملين ؟

— ولم لا ؟ لقد تعلمت الخياطة و كيف أبرع بها

وعادت إلى بعد ثمانية أيام وخلعت أمامى قفازيها وأرتنى أصابعها التى ثقبتها الإبر ، وخبرتنى أنها تعمل فى أحد المخازن المختصة ببيع ماتحتاجه المرأة ، وبدأت تربح فرنكين كل يوم ، وغدت بعد أيام قليلة أكثر حذقاً وغدا أجرها ثلاثة فرنكات وابتسمت لى قائلة:

— يمكن أن يعيش الانسان بهذا المال القليل عيش الكفاف ، وسأصبر عليه إذ لا يشغلنى ولا يهمنى فى هذه الحياة ، إلا أمر واحد هو أن تكون يا عزيزى هانئاً ومسروراً

ورأيتها تلفظ كلمة (عزيزى) باضطراب محاولة أن تخلع عليها كل مالديها من عاطفة ، بعد أن كانت تلفظها ببرودة وبكثير من الابتذال ، وترقرقت عيناها بعد ذلك بالدموع

لِمَ أشكو إذن من حياة السجن وثيابه البالية وطعامه الردىء وزملائى الذين هم سِفلة الناس ولياليى المسهدة المضنية ؟ لم أشكو من ذلك كله مادامت مرجريت تحبنى ، وما دامت تحصل قوتها بنفسها لتبقى وفية لى منتظرة خلاصى ؟ هل كنت أتصور هذا من قبل ؟ آه ما أتعسنى وأشقانى ! إننى ارتكبت جريمة السرقة من أجل امرأة ، وسأكفر عن خطيئتى هذه ، وسيكون عزائى الأوحد أن أرتمى بين ذراعى هذه المرأة التى انقلبت خلقاً آخر ، والتى بعثت امرأة جديدة بفضل الحب وبفضل العمل والتى ستكون أكبر رادع لى عن السقوط الخلقى كرة أخرى . لقد أحسست بالشجاعة تغمر فؤادى وسأحتمل هنا كل العذاب الذى أستحقه دون أن أبدىَ تذمراً أو شكوى . ولقد كنت فى أشد الساعات هولاً ، هنا فى السجن لا أفكر إلا فى مرجريت وكان الأمل الوضاح الذى يبدو لى بين طيات المستقبل الباسم ، ينعشنى ويعيد لى نشاطى وعزمى ، كأننى تناولت شراباً منعشاً ، وكان زملائى المخيفون يسائلوننى أحياناً قائلين :

— مالنا نراك سعيداً ؟ وفيم ابتسامك الدائم ؟ فكنت لا أحير جواباً

أنا السجين البائس ، أنا الذى كان الحراس يزأرون فى وجهه قائلين : من هنا — كما يقال للكلاب — أنا السجين البائس عشت ساعات طويلة كانت تغمر السعادة فيها جوانب نفسى وكان يفيض قلبى هناءة وسروراً . ولقد دامت فترة سرورى شهرين متتابعين كانت مرجريت فى أثنائهما تعاود زيارتى بانتظام ودقة كل أسبوع ، وكنت أتطلّع فى كل زيارة — وقلبى مفعم بالشفقة — إلى مقلتيها اللتين أضناهما السهر ، وإلى وجنتيها اللتين أشحبهما البؤس ، وإلى أصابعها الذاوية التى براها العمل ، وإلى ثوبها الذى كان يفقد لونه على مر الأيام

ثم جاءتنى على حين غرة ، مرتدية ثوباً جديداً فكان ذلك مثيراً لارتيابى ، ولحظت وجهى تتعاوره الشكوك فألقت إلىّ نظرة حادة وقالت باسمة :

— أراك تنظر إلى هـذا الثوب الجديد ،

لقد وهبتنيه صديقتى كلوتيد التى كانت معى فى المرة الأولى التى لقيتك فيها ، أغرم بها شاب حتى درجة الجنون وراح يعمل من أجل إرضائها مالا يستطيعه إلا المجانين. ولما رأت ثيابي الزرية الرثة أهدت إلى هذا الثوب الذى لم تلبسه إلا قليلاً ، ولم أره بحاجة إلى الإصلاح فهو جديد كما ترى

سمعت هذا الكلام فلم أستطع أن أصدّقه ، ذلك لأن مرجريت لم تحدثنى قط منذ عرفتنى عن هذه المرأة التى دعتها كلوتيد وادعت أنها صديقتها ، وقبل أن أعرف مرجريت كانت المرأتان تقطنان أحد الفنادق متجاورتين وكانتا تذهبان معاً إلى المراقص العامة ... هذا هو كل شيء ، وكنت أذكر جيداً أن كلوتيد هذه فتاة قد ذوى شبابها وزال رواؤها وانطفأ جمالها وسقطت فى مهاوى البؤس والفاقة ، وكان أقصى عمل تستطيع أن تقوم به هو أن تغوى أحد الشاربين الثملين بفضل الأصبغة التي تستر وجهها ، ولن تستطيع امرأة مثلها أن تجد حبيباً ذا غنًى لتتكرم على صديقتها بمثل هذا الثوب ... وزادنى اعتقاداً بكذب مرجريت ارتجاف نظراتها واضطرابها ، واهتزاز جفونها ، ولم تكن عيناها فى الحقيقة إلا عينى كاذبة !

وكدت أصارحها بكل مافكرت فيه وماحدثتنى نفسى به ، وكدت أميل عليها بالعتاب ، لولا أننى خشيت أن تهجرنى إلى الأبد ، فسكت على مضض وأخفيت ما فى نفسى ، وراحت هى تتابع حديثها العاطفى قائلة لى : إن أجرها قد بلغ ثلاثة فرنكات ونصفاً ، وأربعة فرنكات أحياناً فى اليوم ، وأن لديها كثيراً من العمل حتى إنها لا تجد الوقت الكافى للقيام به ، وإنهـا بدأت تفتش عن مساعدة لها ، وراحت ترسل الأكاذيب تباعاً دون خوف أو خجل.

وثارت فى نفسى عاصفة قوية من الألم والغضب ، كادت تنفجر لولا أننى غالبتها ووجدت القوة على إخمادها وبقيت هادئاً حتى النهاية ، ولم أكن أجيب إلا ببضع كلمات تافهة على ثرثرتها التى لا تنتهي ، وأعتقد أنها علت صمتى بحالتى المؤسفة التعسة وتركتنى مرحة واثقة أنها استطاعت خداعى

وظلت مرجريت تخدعنى . وبينما كنت أتحمل من أجلها عقاب السارقين كانت قد اتخذت ــ أواه ماذا أقول ــ اتخذت حبيباً ربما استسلمت إليه فى الليل لقاء هبات تافهة . لئن رأيتها ترتدى الآن ثوباً جديداً فأنا واثق من أنى سأرى فى يديها ، فى المرة القادمة ، قفازاً جديداً ، وعلى رأسها قبعة جديدة ، وفى جعبتها أكاذيب جديدة تهيئنى لفاجآت جديدة . ويا ليتها جاءتنى بثيابها الرثة كاتمة عنى حديث ثوبها الجديد ، ولكن ما إخالها استطاعت أن تظهر فى الشارع بتلك الثياب ، وفضلت أن تخترع كل هذه الأكاذيب الشائنة ، وما إخالها إلا هازة كتفيها قائلة فى نفسها : « وماذا يهمنى بالله إذا كان لا يصدقنى ؟ » تباً لها من فتاة خائنة فاجرة ! أمن أجلها ارتكبت جريمة السرقة ؟ أمن أجلها دنست شرفى وشوهت سمعتى ؟ ألا تعساً لى

ولكن . . كنت أسائل نفسى قائلاً : لماذا كانت تزورنى ما دامت تخوننى وتبغضنى ؟ ولكنى كنت أحس الجواب فى نفسى : إن الشفقة علىّ كانت تدفعها لزيارتى ، كما يشفق الإنسان على خادم المستشفى فيحمل إليه قليلاً من البرتقال . أواه ! يا للعار ! أكانت تشفق علىّ إذن ؟

قضيت ثمانية أيام رهيبة وأنا أدير هذه الخواطر

فى رأسى بلا انقطاع ثم تملكنى الذعر وقلت : هل تأتى لتزورنى فى يوم الزيارة القادم ؟ وتذكرت فى غمرة اليأس القاتل كم كانت مرجريت عزيزة علىّ حبيبة إلىّ ، وأقسمت أن أخفى عنها غيرتى ولا أبدى لها ارتيابى وألمى وقد وفيت بهذا القسم

عادت إلىّ بقبعة ربيعية جديدة ــ كما قدّرت ــ وكلت بها هيئتها وكان الاطمئنان والسرور يشعان من عينيها وبشرتها غضة . أكانت تعيش هذه المرأة فى بؤس ولا تحصل على قوتها إلا بخياطة رقع طول النهار والليل ؟

ورغم هذا كله ظللتُ شجاعاً ــ أو ساذجاً على الأصح ــ إذ كان يخيل إلى أنها تصيب بتظاهرها بالسرور وبادّعائها أنها تستخدم عاملتين مع مائة أكذوبة من هذا النوع ، وتظاهرت بمشاركتها السرور ، ورجوتها بعطف ورقة أن تخلع قفازيها وأن تستند بيدها إلى الحاجز الذى يفصلنا لأستطيع لمسها بشفتى ، فأطاعتنى . ولشد ما كانت دهشتى إذ رأيتُ يديها غضتين لا أثر فيهما — ولا فى منتهى أصابعها — لثقب إبرة أو ...

ما هذا ؟ إنى أسمع ساعة السجن ترنّ الحادية عشرة والنصف ، وستفنى قطعة الشمع الباقية لدىّ بعد وقت قصير فلأسرع إذن ولأختصر . إذ لو كان أمامى متسع من الوقت لسرّنى أن أصف هنا القلق الذى انتابنى وغمرنى بالألم والذى يمكن بيانه بهاتين الكلمتين الرهيبتين : سجين غيور ! أجل ، يسرنى وايم الله أن أصف وصفاً دقيقاً الآلام والشجون التى كانت تثيرها مرجريت فىّ فى كل زيارة جديدة ، ولا بد لى من وصف إحداها هنا إذ كانت أروع الزيارات وأقساها وأشدها هولاً :

بينا كنت أنتظر فى ذلك اليوم قدوم صاحبتى كنت أحاول إقناع نفسى بأننى أسأت الظن أكثر مما ينبغى وأنه ليس من المستحيل أن تجمع المرأة عن طريق عملها بعض المال الذى تستطيع أن تبتاع به بضعة أثواب وحلى ، ومكّن هذا الخاطر من نفسى ذكرى عادت إلى : لم تتحل مرجريت أثناء زيارتها لى بالحلى التي قدمتها إليها وقد أصرت يوم المحاكمة على أن تعيد لى السوار الذى اشتريته لها بالمال المسروق ، وبرغم أنها كانت فتاة فقيرة فقد كانت تبغض الحلى المزيفة أشد البغض ، ولم أعرف أنها تحلت بأية زينة حتى أن أذنيها لم تكونا مثقوبتين . وقد هاجت هذه الذكرى شعورى . ثم ذكرت أننى وإن لم أر خاتماً فى أصبعها ، كنت لا أرى أثر العمل ظاهراً فيها ، ومع ذلك فقد حسنت ظنى — وإن كان من الممكن أن تكون قد قبلت حليا ولم تبدها لى — وأحسست فى نفسى ميلاً لحسن الوفادة والمعاملة ، وكنت أريد أن أقنع نفسى بأننى ظلمتها بإساءة ظنى بها

قدمت على عادتها فى الوقت المحدد ، ولم تكد تقع عينى عليها من خلال القضبان الحديدية حتى تبدد ارتيابى وزالت شكوكى ، ولكنها لم تكد تقترب منى حتى رأيت ــ أواه ، يا لسخرية القدر ــ رأيت فى أذنيها ثقبين غضين ! أأصبحت تملك حلياً هذه المرأة التى كانت تبغض الحلى الزائفة ؟ رأيت فى أذنيها جواهر ثمينة بل لآلئ وأظن أنها وضعتها لتحلوَ فى عينى ولتقدّم لى دليلاً على رقتها ولطفها ، غير عالمة أنه من اللطف أن تخفيها عنى وتعفينى من رؤيتها !

منذ ذلك الحين لم يعد يداخلنى أى ريب فى خيانتها ، وصممت إذ ذاك على الانتحار ، وقد كان

الأحرى بي أن أصمم عليه منذ وقت طويل، ولكن ما فائدة الكلام ؟ إن الإنسان جبان يخشى الموت .

وبعد ، ورغم كل ما ذكرت ، أعترف بأنني لا أزال أحب هذه المرأة ، وكنت أعدد فى الليل على فراشي — إن صح أن أدعوه فراشاً — سابحاً فى أحلام عذبة لا أرى فيها إلا مرجريت ... أواه ! لقد تناوبنى كل لون من ألوان الضعف ، ورحت أفكر فى استرجاع مرجريت وغدوت أسخر من نفسى وأهزأ بغيرتى قائلاً : « إن ضميرك حساس ويقظ أكثر مما يجب أن يكون »، ولكن التفكير فى أنها خدعتنى وأنها أصبحت ملك رجل — أو رجال — غيرى بينا أنا موثق فى السجن بسببها ، كان يدفعنى إلى الغضب ، بل إلى الجنون .

أجل، إن من الممكن — كما قلت فى بدء اعترافاتى هذه — أن أتناول معها طعام الإفطار صباح غد فى غرفتنا الصغيرة إلى جانب النافذة التى تطل على الحديقة الكبرى ذات الأشجار الخضر الزواهى . كم يكون ذلك جميلاً رائعاً ... ولكن ... لو حانت منى التفاتة إلى الموقد ، ووقع بصرى على عقب دخينة (الرجل) بين الرماد المحترق ، لو قدر لى أن أرى ذلك لتناولت سكيناً وأغمدتها فى قلبها

ولكن لا ، لا أريد أن أغدو قاتلاً . يكفينى أننى سارق ، وخير لى أن أموت دون أن أحمل لها حقداً أو موجدة وأقنع نفسى أن ما حدث لم يكن منه مفر ، وأنها كانت مخلصة لى ، وأنها مع هذا ربما كانت تحبنى قليلاً فى اليوم الذى لم تقو ويا للأسف على الوفاء به

وداعاً يا مرجريت . . . إنك لا تزالين شريفة فى أعماق نفسك ، وإخالك ستذرفين قليلاً من الدمع عند تلاوة هذه الصفحات ، ولكن كل شيء إلى نسيان ، وعند ما يسألك أحد أحبائك الذين تجمعهم بك المصادفة ، عند ما يسألك أن تقصى عليه قصة حياتك لمجرد التسلية ، ستكونين مزهوة كشيلاتك . ستقفزين من سريرك عارية القدمين لتفتشى عن هذه الأوراق فى درج خزانتك الذى تضعين فيه أوراق اللعب ، وعند ما تعودين إلى سريرك ستُقرئين اعترافاتى هذه كل زائر ليلى مزهوة فخورة بأن شاباً بائساً تعساً انتحر من أجلك وفى سبيلك

أوّاه... لقد انتصف الليل، وها هى ذى الساعة تدق اثنتى عشرة ، وها هى ذى ذُبالة الشمعة تحتضر هيا ... لأفتل غطاء السرير ولأربطه بالنافذة ، ولأُحكمْ عقده على عنقى ... لأتشجعْ ولأنتهِ من آلامى ، ولأتخلصْ من شقائى

(دمشق) ناجى الطنطاوى

المنفي ...

مترجمة

للفيلسوف الروسي تولستوي
بقلم الأديب مصطفى مشعل

كان يقيم فى فلاديمير تاجر ثرى يُدعى « إيفان دتريش اكسينوف » يذكره سكان هذه القرية ، إذ كان فى شبابه سكيراً معربداً يثير الإعجاب فى صدور نسائها بشعره الطويل اللامع وصوته الجميل الحلو ، ولاشك أن فتيات القرية الطائشات قد فتنهن حديثه قبل أن يؤخذن بقوامه الطويل وصدره القوى العريض .

ولكن « اكسينوف » لم يلبث أن استهواه الوقار وتحببت إليه الرزانة فترك الطيش وودع لهو الشباب ومفاسده ، وسكن إلى بيته بعد أن تزوج ينشد حياة الهدوء والراحة ، ويعمل لإسعاد أولاده وإرضاء زوجه .

وفى أحد أيام الصيف القائظ عزم التاجر على الرحيل إلى قرية (نادنى) لقضاء بعض أعماله التجارية ، فأعد عدته وحيا زوجته وهم بالخروج ، ولكنها استوقفته قائلة :

— إيفان ... لقد حلمت الليلة حلماً مزعجاً ... لا ترحل اليوم ...

فقهقه التاجر بشدة وهو يقول :

— بل قولى إنك تخشين أن أعرج فى طريقى على حانة أو أغازل امرأة ...

— لا ... لقد حلمت أنك عدت إلى المنزل بعد رحلتك هذه ، وشعرك قد تحول إلى لون الثلوج البيضاء ! ...

ولكن « اكسينوف » لم يهتم ، إذ صور له الخبث أنها ابتدعت هذا الحلم ابتداعاً كيما تبقيه بجانبها شأن بنات جنسها لايردن أن يبتعد عنهن رجالهن .

وهكذا تركها ومضى إلى البلدة التى يريدها حتى إذا بلغ منتصفها رسمت له الأقدار خطة ونفذتها ، إذ ألقت أمامه فى الطريق صديقاً قديماً كان يعرفه دعاه لأن يقضى الليلة معه فى فندق صغير

وأخذ كل منهما يقص على الآخر ما مر عليه من أيام حلوة أو مرة حتى إذا تأخر عليهما الوقت صعد كل إلى حجرته

كان على « اكسينوف » أن يستيقظ فى فجر الصباح المقبل ليواصل رحلته المتعبة فنام قليلاً ثم استيقظ ولما تتجاوز الساعة الثانية بعد منتصف الليل فأمر خادم الفندق أن يهيء له جواداً وعربة ، ثم انطلق فى جوف الليل البهيم بسرعة جنونية ، فقطع حوالى خمسة وعشرين ميلاً لم يستطع الجواد المسكين أن يتابع مسيره بعدها

وفى نهاية هذه المرحلة وجد « أكسينوف » فندقاً صغيراً وضع فيه رحاله وجلس يتناول فطوره بشهية منتظراً إشراق الصبح الجميل ، وبينا هو يتجه ببصره إلى أقصى الطريق روعته أصوات عربة قادمة وهى تدق أجراسها ذات الصليل المرتفع ، أخذ يرقبها حتى تبينها فإذا هى عربة البوليس يركبها ضابط وبجانبه جنديان شاكيا السلاح ، فلم يهتم

« اكسينوف » بهم إذ كان التعب قد هاجمه والنوم ابتدأ يداعب جفونه

ولكن الضابط تقدم منه يسأله عن اسمه وكيفية قضاء ليلته ... ولم هو منفرد ... وأين صديقه الذى نام معه فى فندق واحد ؟... وأجابه التاجر على ذلك كله بحسن نية وأردف قائلاً :

— هل لك فى قليل من الشاى ؟

ولكن الضابط لم يجبه وأخذ يسأله بخشونة عن اسمه وصناعته وغير ذلك من أسئلة رجل البوليس عند ما يمثل أمامه مجرم ، فعجب التاجر من كل هذه الأسئلة المتلاحقة ، ولكنه وصف له كل ما فعله ولماذا غادر الفندق قبل الصباح ... ثم سأله :

— ولكن لم كل هذه الأسئلة ؟ إنك تسألنى كما لو كنت قاتلاً أو سارقاً ! ...

ولم يجب الضابط بأكثر من قوله :

— لقد وجد صديقك التاجر مقتولاً هذا الصباح ، وأنت الوحيد الذى تتجه إليه الشبهة

ثم نظر إلى رجليه وأمرهما أن يفتشا حقائبه ، وعندئذ ضحك اكسينوف من سذاجة هذا الشرطى وسمح له بما أراد ، وأخذ الجنديان يقلبان متاعه وهو ساكن لا يتحرك . على أن هدوءه لم يلبث أن انقلب رعباً وخوفاً ، ذلك أنه شاهد أحدهما يخرج من حقيبته خنجراً يقطر منه بعض الدم اللزج

وعند ما رأى الضابط هذا المشهد صاح فى التاجر :

— كيف تعلل وجود هذا الخنجر فى حقيبتك ؟

— لا أعرف ... لا أعرف ... إنه ليس لى

وأمر الضابط رجليه ، فوضعا القيد فى يده ثم قذفا به إلى عربة البوليس كما لو كان قاتلاً حقاً ...

كان إكسينوف بريئاً . . . ولم يكن الخنجر خنجره ... ورغم أنه كان واثقاً من ذلك لم يستطع أن يمنع جسمه عن الارتماش ، وصوته عن الاضطراب ... وأخيراً عن البكاء . لقد أخذوا كل ماله ... ثمانية آلاف وروبل هى كل ما يملك من ثروة ... وها هم أولاء يرسلونه إلى أقرب سجن ليلقوه فيه ... ولاح له المصير الاسود الداكن الذى ينتظره ، فعاد مرة أخرى إلى البكاء بعد أن كف عنه . وراحت إشاعات القبض عليه تسرى مسير الرياح، وصقلتها ألسنة الرواة وشفاه المحدثين، حتى إذا بلغت أسماع زوجه المسكينة خيل لها حقا أنه قاتل مجرم فلم تعرف ما تفعله وضاقت الدنيا فى وجهها

ها هى ذى ترى زوجها ملق فى أعماق السجن وليس لديها ما يكفل لها السفر مع أولادها إليه ... وها هى ذى تجد المستقبل حالكاً كسواد الليل وتحاول الوصول إلى ثغرة من النور فيه فلا توفق

لم تجد المسكينة إلا إراقة دماء وجهها فطلبت من أصدقاء زوجها ما تستطيع الوصول به إلى حيث ألقوه متهماً بأشنع تهمة ، حتى إذا بلغت السجن منعوها عن رؤيته ، فراحت ترجو وتتوسل وتمعن فيهما إلى أن استطاعت أن تنال إذناً برؤيته

يا للحظة التى شاهدت فيها زوجها مرتدياً ملابس السجن كاللصوص والقتلة ! لم تستطع احتمال هول ذلك اللقاء فأغمى عليها ... وعند ما أفاقت جلست بجانبه تلتقط أنفاسها وهى تبكى بحرقة قاتلة ... قصت عليه كل ما فعلته منذ رحيله ، وحدثها هو بالحقيقة كاملة ... وأخيراً سألته من خلال دموعها المنهمرة على خديها الذابلين:

— والآن ماذا سنفعل ؟

— ليس أمامنا سوى القيصر نشكو له

— لقد أرسلنا له عريضة فلم تحز القبول

لم يجب (أكسينوف) بل رمق الأرض بنظرة تائهة ذاهلة بينما اقتربت زوجته هامسة :

— أوه يا أكسينوف ! ليتك لم تخرج فى هذا اليوم ... لقد حلمت أن شعرك سينقلب أبيض كثلوج سيبريا ... ولكنك ضحكت وسخرت منى

وأخذت تعبث بشعره فى حنان ورفق ثم قالت :

— فاينا ... أيها العزيز ... قل لزوجتك الحقيقة ... اعترف لها هل فعلت ذلك ؟

بكى الرجل ورفع رأسه ينظر إليها بحدة صائحاً :

— أنت ! ... حتى أنت ! تظنين أننى قتلته ؟

وأطرق إلى الأرض يئن ويتوجع فلم يفق إلا على صوت الحارس يطلب انصراف الزائرين ... وكان الوداع ... الوداع القاسى الذى لم يستطع أحدهما أن يمنع الدموع المنهمرة من عينيه أثناءه

كان الوداع الأخير

وما كادت الزوجة المكلومة تتوارى عن عينى (أكسينوف) حتى رفع وجهه إلى السماء قائلاً :

— إن الله وحده الذى يعلم الحق من الكذب إليه وحده يجب أن نضرع ... وله يجب أن نشكو ونرجو

ومنذ تلك اللحظة لم يتظلم إلى إنسان ولم يسأل مخلوقاً

وأخيراً صدر عليه الحكم فنفوه مع آخرين إلى سيبريا حيث مكث هناك ستة وعشرين عاماً انقلب فى أثناء أعوامها الطويلة من سواده الجميل إلى بياض ناصع ... تماماً كلون الثلوج فى سيبريا ، وتضخمت يداه من كثرة العمل ، وانقلب شبابه الغض شيخوخة هرمة ، وزال ما كان يتمتع به من جاذبية طالما حببته إلى قلوب نساء قريته ... كان يمشى ببطء ... لا يتكلم إلا قليلاً ... بل نادراً ولم يضحك أبداً ولكنه أحياناً كان يبتسم ابتسامة لا معنى لها

تعلم فى مدة سجنه صناعة الأحذية وكانوا يعطونه أجراً ضئيلاً تمكن بادخاره من شراء نسخة من كتاب (حياة القديسين) . فكان يجلس كل أوقاته يطالع فيه ... وفى أيام الآحاد يتوجه إلى شبه الكنيسة المقامة هناك فيستمع إلى دروس الوعظ ، وينشد معهم الأناشيد الدينية بصوته الذى كان يحتفظ بالبقية الباقية من جماله

كان مستقيماً ... هادئاً ... وقوراً ... فأحبه الجميع وتعودوا على طاعته والاستماع لمشورته ، حتى بات الحاكم بينهم لا مرد لحكمه ، وبات الجميع يعطفون عليه وينادونه كأنه أبوهم الكبير

وكرت الأيام تسير على وتيرة الملل والسأم حتى جىء إلى المنفى برجل ارتكب جريمة استحق عليها ذلك ، فاجتمع حوله المنفيون يسألونه ويتنسمون أخبار العالم ... أما « اكسينوف » فقد جلس بجوار (الوارد الجديد) يستمع فى صمت وفى تفكير ... وراح هو يقص عليهم قصته ولكنهم كانوا متشوقين لمعرفة اسم القرية التى جاء منها ليسألوه عن أخبار ذويهم ، ولما لم يقل لهم سألوه :

— أخبرنا ... من أين أتيت ؟

فأجاب :

— من قرية « فلاديمير » أيها الرفاق ... واسمى هو « سيمونيش »

وعند ذلك رفع « اكسينوف » وجهه وقد برقت عيناه سائلاً :

— أخبرنى . . . هل تعرف شـيئاً عن أسرة التاجر « اكسينوف »

— طبعاً ... إنهم أغنياء جداً ... وأبوهم هنا على ما أعلم

ولكن عرفنى أيها الأب كيف جئت إلى هنا ؟

كان « أكسينوف » لا يرغب فى الحديث عن نفسه .. وما جدوى الحديث عن النفس ؟.. ولكنه عند ما عرف أن هذا الرجل من قريته ، بل ويعرف كل شيء عن أسرته اقتنع بقص قصته عليـه . . . حكى له كيف جاءوا به إلى السجن ظلماً وكيف اتهموه بقتل صديقه كذباً . . . وكيف دسوا له خنجراً دامياً .

وعنـد ما فرغ اكسينوف من قصته لاحت الدهشة فى عينى الرجل وتمتم بصوت خافت :

— إذن هو أنت أكسينوف . . . حقاً إنه من الغرابة أن نلتقى ...

وعنـد ما تقابلا مرة أخرى سأل السجين أكسينوف :

— ألا أستطيع أن أؤدى لك خدمة ؟

— ترى هل عرفوا القاتل الحقيقى ؟ ...

— لقد وجد الخنجر الذى قُتل به صديقك فى أمتعتك فمن ذا الذى وضعه فيها ... ؟

شعر أكسينوف أن محـدثه يعرف أكثر مما يظهر ... بل قد يكون هو الذى وضع ذلك السلاح الملعون فى أمتعته دون أن يشعر . . . فهز رأسه ببطء ومضى فى حاله ...

أى أفكار ناء تحتها المسكين وهو راقد فى فراشه يفكر ... لقد أخذت الصور تتزاحم على رأسه الـكليل ... رأى زوجته وهى تحدثه ... وهى تضحك ... كانت تحلق دائماً فى الفضاء ... شاهد أطفاله صغاراً كما تركهم ... أحدهما لم يزل فى مهده ، والآخر يكبره بقليل ... وسبحت أفكاره وحلقت فى اللانهائيـة . . . تذكر كيف رحل رحلته المشئومة ، وكيف قابل صديقه ، وعربة البوليس وهى تدوى بأجراسها . . . وأخيراً . . . القيد وهو يطوق يديه... تراءت له الأعوام الطويلة التى قضاها فى المنفى . . . تلك التى أبدلت شبابه كهولة . . . اللصوص ... اللصوص ... لقد سرقوا منه العمر كله فما بقى منه شيء ...

شعر أنه احتمل العذاب بدلاً من «سيمونيش» ذلك السجين الجديد الذى وثق « اكسينوف » من حديثه ونظراته من أنه هو القاتل . . . فى ذلك الوقت شعر بعذاب الأعوام التى كرت فى الشقاء والتعب يتجمع ليرسم له صورة مروعة كيما ينتقم ، فلم ينم فى ليلته تلك ، حتى إذا كان الصباح خرج مبكراً يسير فرأى « سيمونيش » جاثياً بقرب السور يحفر حفرة كبيرة ثم يغطيها بقطعة من الصفيح ... شاهد كل ذلك ثم سار ببطء دون أن يتكلم، ولكن سيمونيش لحق به وأمسكه قائلاً :

— إننى أحفرها لأستطيع أن أهرب عند الفجر ... وإننى أطلب منك الصمت أيها الأب ... سنهرب سوياً ... أما إذا اعترفت لأحد فإنهم سيسلبوننى الحياة ولـكن بعد أن أكون قد قتلتك

نظر أكسينوف بكره نحو ذلك الشخص الذى سلبه الحياة وقال :

— شكراً لك ... ليست لدى رغبة فى الهرب وليست هناك فائدة من قتلى ... لقد قتلنى حياً ذلك الذى وضع خنجره فى حقائبى ... من يدرى ؟ ربما

كنت أنت ... إن الله هو الذى يعرف

وسار فى طريقه وفى عينيه دموع حائرة

واكتشف مدير السجن الحفرة فراح يسأل الحرس والمنفيين دون جدوى فلم يكن يعرف من أمرها غير أكسينوف وحافرها

ولما يئس نادى أكسينوف وسأله إذ كان يعهد فيه الصدق :

— أيها الأب من الذى حفر تلك الحفرة ؟

كانت أمامه فرصة يستطيع أن ينتقم فيها من ذلك الذى دفع به إلى السجن ولكنه ناجى نفسه :

— هل أنتقم منه ؟ سيشنقونه ... وقد يكون ظنى خاطئاً إذ قد لا يكون هو ... أى فائدة تراها ستعود عليه إن هو فعل ؟

وطال صمته بينما كان (سيمونيش) ينظر إليه بخوف ··· وأخيراً تكلم :

— إنك يا حضرة المدير بشر مثلى ... ولقد أقسمت ألا أشكو لبشر أو أشكو بشراً ... وفى استطاعتك أن تفعل بى ما شئت فلن أنطق باسم الفاعل ...

وفى تلك الليلة لم ينم أكسينوف .. كان يفكر ويفكر ... وفجأة شعر بأنفاس قريبة منه فقام من فراشه فراعه أن يرى سيمونيش أمامه فصاح :

— ماذا تريد أيضاً ؟

— إيفان أكسينوف ··· إننى أطلب غفرانك

— من ماذا ؟

— أنا الذى قتلت صديقك ووضعت الخنجر فى حقيبتك

لم يعرف ما يقوله ... وارتجف وهو ينازع أحاسيسه بينما سجد سيمونيش صائحاً :

— اغفر لى ... من أجل الله ... امنحنى غفرانك ··· سأعترف لهم وسيطلقون سراحك

فأجاب أكسينوف ببطء :

— إنه من السهولة أن تتحدث الآن عن إطلاق سراحى ··· ولكن تصور ستة وعشرين عاماً أقضيها هنا ··· كيف أخرج الآن ؟ وهل سيعرفنى أولادى ؟.. لا ... لن أخرج

لم يجب الآخر بل ضرب الأرض برأسه باكياً وهو يصيح كطفل صغير :

— إيفان ··· اغفر لى ··· لم أعرف أننى أدفعك نحو هذا المصير ··· إننى أندم ··· أقسم لك ... أوه ... اغفر لى ... اغفر لى أيها الأب

وراح يبكى بكاء مراً . . فبكى أكسينوف معه وهو يقول :

— ليغفر الله لك أيها الذى هدمت هنائى وسعادة أسرتى . . . ليغفر الله لك أيها الذى مكثت طوال أيامى أدعو الله أن ينتقم منك دون أن أعرفك . ولكننى الآن أرثى لك ... لطالما اشتاقت نفسى إلى الخروج من هذا السجن إلى حيث منزلى وأسرتى أما الآن فليست لدى أية رغبة فى الحياة ... ماذا سيفعل العالم برجل مهدم عاش كل ذلك العمر الطويل بعيداً عنه ؟. إننى لا أود الحرية بل أريد قضاء بقية أيامى أعيش متأملاً فى سر عدالة الله ... ومعرفة خواطر ونفوس من يحيطون بى ...

وعند ما صدر الأمر بإطلاق سراحه بعد أن اعترف سيمونيش بجريمته كان ينازع سكرات الموت ...

لقد بكاه الجميع ··· وحزنوا عليه ··· ولكن سيمونيش كان أكثرهم بكاء وأشدهم حزناً وهو يودع جثمانه الوداع الأخير ...

مصطفى مشعل

فقرة جديدة ... حب

للكاتب الأمريكي هارول هاردنج

بقلم الأديب أبو بكر علي

« فقرة جـديدة » قال ذلك ستان ونيتروب . وفكرت باربارا بل ، وهى جالسة إلى جانبه وكتاب الاختزال على ركبتها ، كم هو لا ينثنى عن الإكثار من الفقرات ! إنه يحب أن يملى « فقرة جديدة » كل بضعة جمل ، ولـكنها لم تلق بالها . . . لم تكن تلق بالها لأى شىء يفعله فى الحقيقة ، لأنها كانت واقعة فى حبائل غرامه منذ شهر . حالة عقلية مثيرة تطرد منـذ اليوم الذى جعله فيه عمه وكيلاً للرئيس للعناية بتقـدم حالة البيع ، ومنحه باربارا «سكرتيرة» ومعينة، قائلاً : « ستان ! إنى أترك لك باربارا كمنحة خاصة ، فهى ستعينك على تخطى النقط الوعرة » . وحتى فى ذلك اليوم نظر إليها بطريقة جعلت قلبها يخفق . وقال : « آمل ألا نجد — أنت وأنا — أى نقط وعرة » .

وكلما مضى العمل ، كانت « نقطه الوعرة » قليلة قلة مدهشة ، لأن ستان كان — بكبرياء بسيطة أعجبتها — يعمل بجد واجتهاد أكثر مما لو لم يكن عمه رئيساً . كان يشعر شعوراً قوياً أن الناس قد يظنون أنه إنما يدين بمنصبه إلى تلك القرابة

سأل ستان فجأة : هل قلت « فقرة جديدة » ؟

— أجل !

وبدلاً من الاستمرار ، أخذ ستان ونيتروب ينظر إلى رأس باربارا الأسـود ، ووجهها البيضى الجميل المحبوب، وثغرها الجميل ، وقد ضغطت شفتها السفلى بلطف ، ناظرة خارج النافذة ، سابحة فى أفكارها . ثم أكمل قائلاً : « أود أن أختم هذه الرسالة الخاصة بتحيتكم جميعاً أيها العملاء ، أود أن أختمها بفكرة أنكم أكثر من عملاء . . . أنتم سفراء ! »

ثم توقف ثانياً . وتركت باربارا أفكارها تعود إلى الماضى القريب إذ تناولا الغداء معاً هذا اليوم ، وإلى العشاء الذى تناولاه معاً منذ أسبوع، ثم تتجه إلى مساء سعيد مقبل ، والآن فى هذا الوقت القريب سيحتويها ستان بين ذراعيه ويغمرها بالقبلات . إن العقل لشىء عجيب! ها هى ذى تستطيع أن تجلس فى مكتب فى نيويورك ومع ذلك يقبلها ستان بجانب غدير فى غابة ، حيث يغسل ضوء القمر كل قبيح فى الدنيا فيكسبه جمالاً !

سأل ستان فجأة : « أين كنا ؟ »

— فى « أركادى » .

هذا ما كانت تجيب به ، ولـكنها ملـكت زمام نفسها . فقالت : « إنكم أكثر من عملاء . . . أنتم سفراء »

ورفعت بصرها ، فرأت ستان يسرع بإلقاء نظره بعيداً . فوجب قلبها فجأة : فيم كان يفكر أثناء دراسة وجهها القصيرة هذه ؟

نهض بسرعة ودلف نحو النافذة كأنه يكافح أفكاره . ولاحظت هى كيف تلائم سترته منكبيه العريضين ؛ ونفذ إلى قلبها شعور غريب . وقف متأملاً ومفكراً ، ووجهه النحيف الجميل فى وضع جانبى . أكان يفكر فيها ؟ لقد بدا الجو وكأن شيئاً كهربائيًّا يحلق بينهما ، وانتظرت باربارا معدومة الأنفاس ... وفجأة استدار وتكلم « حب ... » وأسقطت باربارا القلم

فأتى إلى جانبهـا والتقطه مدهوشاً وقال : « ما الخبر ؟ »

فاحمر وجهها خفراً وقالت : « أنا ... أنا ظننتك ستقول شيئاً »

فطمأنها قائلاً : « سأقول » ورد إليها القلم . ثم أكمل : « حب الأدب بداية التعليم » . ورسب قلب باربارا إلى قرارها ، فلم يكن هذا سوى إعادة الإملاء : « هذا مبدأ كتب وينتروب الجامعة ، ورسالة لكم أيها العملاء ، لتحملوها إلى كل مدرس فى أمريكا » . وتلألأت ابتسامة على ثغر ستان ، وقال : « هذا كل ما هنالك . ما رأيك فى ذلك ؟ ها قد قلت شيئاً . ألم أقل ؟ »

ودت لو أجابت : « ولكنه مالم أكن آمل أن تقول . كنت آمل أن تقول : فقرة جديدة ياباربارا أحبك ، أحبك »

لقد كان عقلها شيئاً عجيباً حقا ، فقد استطاع أن يتصور المنظر الخيالى : ذراعاه حولها تضمانها إليه وهو يقول : « ضعى القلم ! إنمـا شركة وينتروب نتيجة عرضية بجانب هذا الحب العظيم » . أوه ... نعم ، إنها تقدر أن تكتب هذه الكلمات الصامتة فى عقلها وهى تجلس ها هنا إلى جانبه « سكرتيرة » هادئة لا تبدى حراكا . وفجأة أخرجها صوته من تخيلاتها قائلاً : « لقد قلت ، لقـد قلت شيئاً ، ألم أقل ؟ أم أنت لا تحبين ما قلت ؟ »

فأجابت وهى تقف : « أوه ، نعم ، إنه سيكون فوق العظمة فى الاجتماع . »

فقال متلهفاً : « أو تظنين ذلك ؟ »

فوقفت بالبـاب قائلة : « بالتأكيد ، إنهم سيلتهمونه . »

— باربارا ، إنك لعون كبير

انتهى وقت العمل ، ولذا ذهبت باربارا إلى غرفتها الوحيدة وحمامها ومنظر هروب النار ، مفكرة كيف بدأ الأسبوع مفعماً بالأمل ، وودت أن تستمر آماله اللألاءة بلا انقطاع . ولكن كان من خيبة رجائها أن تستيقظ فى الصباح التالى وهى تشعر بوصب ، فلجأت إلى مقياس حرارتها الخاص ، واكتشفت أن حرارتها عالية . فنزلت إلى التلفون فى البهو الأسفل وأخطرت المكتب أنها لن تذهب هذا اليوم

لم تكن تحب أن تمرض ... لم تكن تحب فى هذا اليوم والربيع قادم بكل ما تريد أن تعمله مع ستان

وفى ثانى صباح شعرت بعودة التحسن ، بعد أن قضت يوماً فى الفراش ، وعادت إلى العمل

قال ستان : « لم أجدك أمس »

فأجابت باربارا : « لم أدر ما حدث . لقد حسبت أنى أصبت بحمى فلزمت البيت ، ولكنى أشعر اليوم بتحسن . »

فضحك ستان وهو يشعر بسرور قائلاً :

« ومنذا الذى لا يشعر بتحسن ؟ إننا فى الربيع ! » ثم قال : « فلننجز بعض الأعمال الآن ، ثم يمكننى أن أخلو ساعتين للغـداء ، وأمشى

فى حديقة « سنترال » إلى حديقة الحيوان ، وأصغى إلى نباح كلاب البحر . وستذهبين معى . »

وهذا ما فعلاه تماماً ، فى شمس إبريل الساطعة ، وخفقان الجو الدائم اللطيف . لم يحبا أن يعودا للعمل ، ولكن ستان قرر أن الأفضل أن يجتمعا ثانية للعشاء ، ويقضيا المساء معاً .

واجتمعا ... ولقد فعلا مثل هذا سابقاً ، ولكن ليس فى مثل هذا الحال ، حتى أن صوتهما كان حاراً رقيقاً بغير كلفة . وأثناء عودتهما بالسيارة ، أصبحت ـ فجأة ـ اللحظة التى أملتها طويلاً حقيقة ملموسة ، وذلك حينما انحنت باربارا إلى الأمام لتنظر إلى حانوت ، وتحرك ستان ليقبلها ! ونتيجة لحركتهما أطاح ستان قبعتها وأسندت رأسها إلى كتفه قائلة : « أخبرنى عمك أنى هنا لأعينك على النقط الوعرة »

وتلاشت بسماتها فى القبل التى غمرها بها ، ووقفت السيارة ساكنة تنتظر تغيير الأضواء ، وبدت الدنيا كلها كأنها تقف ساكنة حينما أحست أن ستان يضمها بقوة ، وشفتاه تهصران شفتيها فى قبلة عنيفة تذوب رقة كلما مرت الثوانى وغمر حواسها تأثير النشوة

ثم غمغم ستان : « باربارا الحبيبة ! »

لم تقل شيئاً تاركة السعادة تموج فوقها موجة إثر موجة .

وعند بابها ذهبت سعادتها وهو يقول : « سينقضى أسبوع قبل أن أراك مرة ثانية . »

فصاحت مدهوشة : « أسبوع ؟ »

— أجل ! لقد كنت أبغض أن أخبرك ، ولكن عمى أنبأنى أنه يتوقع أن أمكث فى شيكاغو حتى ينفض الاجتماع .

وإلى ما بعد ذهابه بيومين كانت ذكرى رقته تعاودها لتطير بها كلما دخلت مكتبه الخالى أو خرجت منه ، وأحياناً تقف رانية — فى غمرة من الشعور الحار — إلى قصاصات من ورق النشاف تركها مكتوبة كتذكرات . وكانت واقفة تفكر بجانب قمطره فى أصيل اليوم التالى حينما فتح الباب ونظرت مذهولة

لقد كان ستان ـ بقبعته وسترته ، حاملاً حقيبة سفره . ولكن الاجتماع لم ينفض بعد !

وقف أمامها ، وصدمتها النظرة التعيسة المرتسمة على وجهه . وشعرت بانقباض مفاجىء فى قلبها . هل عاد بسببها ؟

قالت بضعف : « ما ـ ما الخبر ؟ لِمَ لَمْ تمكث حتى ينفض الاجتماع ؟ »

فرمقها بهدوء .

ثم قال بقوة مثيرة ، وهو يطوح بحقيبته وقبعته فوق أحد المقاعد :

— لأنهم أخرجونى من المدينة بسخريتهم

فاكتشفت أنه غاضب ، وهى تقف مندهشة أولاً ثم مروعة .

وأردف ستان :

— كان هذا شيئاً جميلاً سببته لى بذلك الكتاب

فسألت مرتبكة :

— أى كتاب ؟

— أنت تعلمين أى كتاب أعنى . تلك الرسالة رسالة التحية للبائعين . كنت أظن دائماً أنك تحبين العمل معى ، وفى هذا ما يهم كلينا ، ونحن فى هذا المكتب ، ولم أكن أحلم قط أنك تلعبين معى حيلة كهذه

فصاحت يائسة :

— ستان ! لا أعرف عما تتكلم ، أى كتاب ؟

ووقفت إلى مقعدها قابضة بقوة على جزئه الخلفى

مرتبكة مجروحة الشعور ، بينما أخذ يقص عليها ما حدث فى شيكاغو :

— جلستُ فى غرفة الاجتماع الخاصة بعملاء وينتروب مصغياً إلى رسالتى يتلوها رئيس الاجتماع وكانت تلك الرسالة التى أمليتها عليك أحد الأصائل عن حب الأدب ، وأنت تعلمين جيداً أى رسالة أعنى ، وأحسبك أفدت منها سروراً عظيما

علق على ذلك بمرارة واستمر بغضب زائد :

ستسرين إذ تعلمين أنك نجحت فى جعلك منى مجنوناً كاملاً إذا كان هذا هو قصدك . كنت جالساً هناك مصغياً إلى رئيس الاجتماع وهو يقرأ كتابى بصوت مرتفع حينما قهقه كل شخص ضاحكا .

وهنا اختطف الورقة من جيبه وقرأ لباربارا :

ورسالة لكم أيها العملاء لتأخذوها لكل مدرس فى أمريكا . قل لها فقرة جديدة ، أيتها الحبيبة ، أحبك ، فقرة جديدة ، ضعى القلم ودعينى أحتويك بين ذراعى . أحبك ... أحبك يا باربارا . إنما شركة وينتروب نتيجة عرضية بجانب هذا الحب العظيم .

ألقى ستان الورقة فوق مكتبه ثم استدار ووقف ينظر نظرة هائلة خارج النافذة

وسقطت باربارا إعياء فوق مقعد بجوار مكتبه وعقلها يكافح ويناضل ليفهم كيف حدث هذا . وأدركت مروعة أن هذه كانت كلماتها . الكلمات التى كتبتها ذلك الأصيل حينما كان يملى عليها الرسالة والتى لم تكن تقصد أو تتوقع أن ترى

— أنا . . . أنا كتبت هذه الكلمات فى « ورقة النشاف » ساهية

فاستدار غاضباً قائلا : « ساهية ! »

— أجل ! كانت بعض أفكار عديمة الفائدة خاصة بى . ولكنى لم أنسخ هذه الرسالة ، لا بد من أن تكون نسختها إحدى الفتيات من مذكراتى الخاصة عند ما كنت متغيبة

فوضح مؤكداً : « لقد نسختها لأنك لم تكونى بالمكتب فى ذلك اليوم ، إذ كنت مريضة حينما أعدت نسخها . كانت فتاة جديدة ، ولم تكن تتقن شيئاً » . وأضاف عابساً : « أحسبها ظنت هذا أسلوبنا فى الأدب »

فقالت باربارا مدافعة : « ولكنى أتيت فى اليوم التالى وكان الكتاب فوق مكتبك ــ ولقد شاهدته ــ فى انتظار موافقتك عليه »

فسار نحو النافذة فجأة وقال : « لقد أرسلته ولم أطلع عليه ثقة بك ، كذلك كنت فى عجلة من أمرى » . ثم نظر من فوق كتفه هازئاً وقال : « وكان هذا يوم أن تنزهنا فى حديقة سنترال »

فقالت باربارا فى ارتباك : « أذكر أنك كنت تريد أن تسمع كلاب البحر تنبح » . فقال بمرارة وهو يفكر فى اجتماع شيكاغو : « نعم ، ولقد نبحوا »

نهضت باربارا واتجهت صوب الباب ، مدركة بكل ألم النظرة المرتسمة على وجهه . وقالت وقد خذلتها شجاعتها : « بـ ... بالطبع أظن من الجلى تماماً أنى أعد مفصولة من هنا بعد هذا »

فقال موافقاً : « هذا ما يجب » وحملق خارج النافذة عابساً

وفى المكتب الخارجى أخرجت كل أشيائها الشخصية من قمطرها ، ثم أغلقته وقد شملها شعور الوداع لمسكن قديم . وبعد ربع ساعة كانت تركب « مصعداً » يهبط بها إلى الطريق ، وقلبها ينخلع كلما مرت بطابق ، وغشيت عينيها سحابة من الدموع حينما خطت فى شارع ماديسون . كانت تدرك وهى تسير مرتبكة أنها خلفت وراءها عملها ومستقبلها وسعادتها

أوت إلى منزلها وقضت باقى اليوم فى غرفتها

الصغيرة بخوف . ثم خرجت يومين تبحث عن عمل جديد فى الصباح ، ولكن بقلة اكتراث ، حتى أنها كانت تستسلم سريعاً وتمضى تدور فى الطرقات بتبلد وخمول ، كسيرة النفس ، محملقة فى نوافذ الحوانيت ، غير مبصرة ما تنظر إليه

وقفلت إلى منزلها مرة فى الظهر ، ولم تكد تغلق خلفها الباب حتى وجدت شخصاً آخر فى الدهليز فنظرت مدهوشة ، فقد رأت ستان !

كان يبسم لها — يبسم حقيقة — بسمة عريضة ووجب قلبها وجيباً سريعاً وطفق يقول : « باربارا ، أطلب الصفح . إنى آسف على أنى هجت هكذا فى المكتب . لقد كانت إحدى تلك النقط الوعرة وكان المفروض أن تعينينى على اجتيازها ، ولكنك تركتنى »

فقالت بثبات : « أتراهن على أنى أنا التى تركتك ؟ » ولكنها شعرت بخوف شديد من الضعف الذي استولى عليها

قال : « كنت أحمق إذ أخذت هذا الكتاب جدياً هكذا . وإخالنى أدرك كيف حدث . بجانب هذا ، يظهر أن بعض العملاء فى الاجتماع عزوا ذلك إلى أن لى رأياً غريباً فى الكتابة المضحكة . وقد وصل إلى منهم عشرات من رسائل التقدير فإنهم استحسنوا هذا » ورن صوته فجأة متوسلاً : « عودى يا باربارا ألا تعودين ؟ لا أستطيع أن أسير فى الحياة بغيرك داخل المكتب أو خارجه »

فصاحت وقد طفت عليها موجة من السعادة : « ستان ! » وفى اللحظة التالية كان قد أحاطها بذراعيه وهو يقبلها

وهمس قريباً من أذنها وهو لا يزال ضاماً إياها إليه : « أيتها الحبيبة ، هل تقبلين الإملاء الآن ؟ »

حبست أنفاسها وهمست : إملاء ، الآن ؟ !

فقال فى صوت خافت ومثير : « نعم ، فقرة جديدة — زواج »

أبو بكر على

الحلم والحقيقة

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

في المكان المصون من قلب المرأة تختزن الذكريات العذبة لابتسامة، أو لمس يد، أو لصدى صوت من رجل تحبه . ولهذه الذكريات عبير في ذلك المكان المستور من قلبها، ولولاها لكان خالياً من كل شيء

لكن الرجل لا يختزن في مثل هذا المكان من قلبه في العادة إلا ذكريات اللعب كسباق أو مراهنة، وإلا ذكريات النجاح ككسبه مالاً أو تفوقه في عمل، أما علاقاته مع النساء فهي في درجة ثانوية بعد تلك الذكريات العزيزة

لكن « كلايف سلفرلي » لم يكن من هذا النوع من الرجال فقد كان يختزن في ذاكرته صورة لا تقوى على محوها السنون، وهي صورة فتاة ذات عينين سوداوين تثيران بلحاظهما مثل عواصف البحر العميق

وقد رأى هذه الفتاة في مدينة « ريدل كومب » عند شاطئ الديفون . وكان قد ذهب إلى هذا المصيف وهو في الحادية والعشرين من العمر فأدهشه عظم الفرق بين الحياة الهادئة فيه وبين ما اعتاده من الحياة في لوندرا . وأعجب بجمال المصيف وبجمال تلك الفتاة واسمها جلوري، فأعرب لها عن حبه وعن غبطته لها على حياتها في هذا المكان

وكانت « جلوري » قد قضت كل سنيها في تلك المدينة وملتها فأعربت له عن كرهها لها وسأمها منها . ولم تشاركه في أي رأي من آرائه بل كانت تضحك ساخرة منها لكنها مع ذلك أوقدت في قلبه مصباحاً مضيئاً من حبها ولما يمض على عهد تعارفهما ستة أيام

ولعل هذا الحب منشؤه شدة ما بينهما من التناقض وأنه من المدينة وهي من الريف، فلدى كل منهما من الحديث ما يشوق الآخر أو لعل ذلك لأنها من ديفون ولأن حب ديفون جرى في عروقه مجرى الدم

ومهما يكن من سبب حبه لها فإنه لما دنا اليوم الأخير من أيام أجازته الستة شعر كلايف بأن هذا هو اليوم الأخير من حياته . وما أحس في يوم من الأيام بكره المدينة كما أحس بذلك وهو واقف أمام تلك الفتاة موقف الوداع . وقال إنه سيأتي إلى القرية في أجازته في العام المقبل، فأجابته في دلال بأنها لن تكون موجودة . ثم سطعت عيناها بنور متألق وقالت : « إنني لا أستطيع البقاء هنا طول العمر فأنت لا تدرك كم ألاقي من السأم والملالة في هذه الوحدة وأريد أن أغير نظام حياتي . وسأذهب لألتحق بالمسرح »

وكان هذا هو أكبر أمل للفتاة . وأمر كلايف أصابعه بين خصل شعرها برقة وأدرك أنها تمنى كل

حرف مما تقول ولكنها لا تستطيع أن تفارق (ريدل كومب) . على أنه لم يقل ذلك بل ابتسم ابتسامة خفيفة وقال : « ولكننى سآتى وإذا لم أجدك فإنى لن أصفح عنك »

وكان آخر عهد له بها حينما كان يذرع الطريق إلى العاصمة وهى واقفة مكانها تلوح له بالمنديل . وبرّ بوعده فزار تلك المدينة فى العام التالى وفى كل عام تلاه من الأعوام الخمسة ولكن جلورى برت كذلك بقولها فإنها ذهبت ولا يعرف أحد إلى أين . وقد أخبروه بأن عمتها ماتت تاركة لها المنزل الذى كانت تقيم فيه وقليلاً من المـال وأنها باعت المنزل وهجرت المدينة ...

ولما سمع كلايف هذا القول مر خاطر بذهنه . وشعر بأن جلورى لا بد أن تكون فى لوندرا لأنها الكعبة التى كانت تولى وجهها شطرها منذ سنوات .

ومضت سنوات ولم يرد كلايف أن ينتزع أمل لقائها من فؤاده . لكنه بمرور الزمن أدرك سخافة غايته لأن جلورى إن لم تكن قد نسيت الأيام الستة التى عرفها فيها فهى لا تعير تلك الأيام كبير اهتمام

ولما بلغ الحادية والثلاثين محا من ذهنه كل أمل بلقائها . لكن هذا الأمل بقى أقوى نزعة فى نفسها الضعيفة النزعات . ولم يجل بذهن كلايف أن يتزوج من امرأة أخرى ، فصرف كل جهوده إلى ترقية مستقبله ، ونجح من هذه الوجهة نجاحاً عظيما ، فقد أصبح صاحب ضيعة مثل التى بدأ حياته العملية موظفاً فيها وهى ضيعة المستر ماتيومان

وكان « ماتيومان » هذا أرملاً ولم يكن له من الأبناء غير بنت اسمها كلارا وهى اليوم فى الثامنة والعشرين، وهى مثقفة أنيقة جعلت بيت أبيها بعنايتها من أكمل البيوت . وكانت دائماً هادئة جادة من جنس النساء اللواتى تذكر رؤيتهن بالحياة العائلية الوادعة ...

وكان كلايف وكلارا صديقين حميمين عدة أعوام، وكان المستر « ماتيومان » يدعو كلايف إلى منزله فى مواعيد منتظمة فنشأت من هذه الزيارات فرص كثيرة لينفرد كلايف وكلارا

وكان « ماتيومان » كلما دعا كلايف إلى منزله احتج بأنه يريد كتابة رسائل ، أو مثل ذلك من المعاذير . وانسحب إلى مكتبه تاركا ابنته وموظفيه فتدعو تلك ضيفها إلى الحديقة أو تعزف له على البيانو أو تكتفى بالجلوس أمامه للحديث لتزيد من روابط الصداقة

ولم يخطر بباله قط أن مخدومه يدعوه إلى منزله لأى غرض يتعلق بابنته . لـكنه فى يوم من الأيام أدرك الحقيقة بزوال الستار من أمام عينيه ، فإن ماتيومان ترك كلارا وكلايف وحدهما وكانا إذ ذاك يشتغلان بحل لغز منشور فى جريدة . وكان رأساهما متلاصقين فى أثناء اشتغالهما بذلك . وكانت يده على غير انتباه منه مسندة إلى ظهر النمرقة وراء ظهر الفتاة . وكان يقول لفظة لتكتبها فى حل اللغز ، وكانت تقول كلمة أخرى . وفى هذه اللحظة دخل ماتيومان . فلما رآهما متلاصقين قال : «أنا آسف» ثم أسرع بالالتفات وبالخروج من الغرفة

فنظر كل من كلايف وكلارا إلى الآخر فى دهشة وتظاهرت بأن الورقة سقطت من يدها ، فمدت يدها لتأتى بها فلاحظ كلايف أنها ترتعش

وذهب كلايف إلى منزله فى هذا المساء وهو يفكر فيما حدث ، وقد كان ما حدث قليل الأهمية

فى ذاته ولكن الأمر الهام فيه هو مسلك الوالد

* * *

فى الصباح التالى كان ماتيومان يتكلم مع كلايف فى شأن من شئون العمل ، فلما انتهيا قال صاحب العمل : « إننى كنت فى العهد الأخير يا كلايف أفكر فى المستقبل فرأيت أنى فى نهاية أيامى وقد حان الوقت الذي يجب أن أطمئن فيه على نظام بيتى ونظام عملى وليس لى وارث غير كلارا ولا يستطيع القيام بأعمالى أكفأ منك ، فإذا مت الآن فإنها ستصير تحت رحمتك »

فتظاهر كلايف بأنه يمسح أذنه، واستمر صاحب العمل يقول : « ولا شيء أحب إلىّ من أن أرا كما زوجين . وقد انتظرت على أمل أن أرى علامة على وجود الحب بينكما فلم أتبين ذلك إلا مساء أمس . والذى أقوله لك الآن هو أننى أوافق على زواجك منها إذا هى أرادت ذلك ، فاستمر فى طريقك معها ولا تنتظرا حتى أموت فإنكما الآن تضيعان أسعد أوقات الحياة »

ولما أتم ماتيومان جملته مشى مسرعاً نحو الباب ثم التفت وهو خارج وقال لكلايف : « أنا منتظرك اليوم للعشاء »

أسند كلايف ظهره إلى الكرسى وكان يهم بأن يقنع ماتيومان بأن الذى قاله ليس له أثر من الصحة ؛ لكن قوة مجهولة أسكتته ووجهت ذهنه فى اتجاهات مختلفة

ولماذا لا يتزوج من كلارا ؟ إنها فتاة لا يوجد بين الفتيات مثلها إلا واحدة فى كل ألف ، وهى مستجمعة لكل صفة يجب أن تتوافر فى المرأة الصالحة . لكنه لم يفكر قط فى الزواج منها ، فهل ذلك لأنها ابنة مخدومه ولأن مثلها يجب أن تبقى لمثله موضع احترام وإعجاب دون أن تكون موضع امتلاك ؟ أم لعل ذلك بسبب الأيام الستة التى قضاها مع جلورى منذ عشرة أعوام !

وتجسم فى ذهنه خيالها ؛ فوجد نفسه مضطراً إلى الموازنة بين فتاتين، فجلورى تشبه العاصفة الثائرة ذات الزوابع والأعاصير ، وكلارا تشبه الصيف الهادىء وفيها من الصفات كل عزيز محبوب .

وهى دون جلورى فى الجمال : ولكن جمالها من النوع الذى يسعد الرجل ويشعره بالراحة والاطمئنان

وقال كلايف فى نفسه وهو يوازن هذه الموازنة بين الفتاتين : « نعم إن الحياة مع كلارا ماتيومان ستكون سعيدة ولكن جلورى ... ! »

وخال وهو يفكر فى الاسم الأخير أنه لم يسمع صوتاً آخر ينادى به، ثم أظلمت الدنيا فى عينيه مقدار لحظة تبلج بعدها نور لا يراه إلا الشعراء فى تصوراتهم الخيالية . ورأى فى ذلك النور شاطىء البحر وهاتين العينين اللتين رآهما على شاطىء الديفون ، ورأى على الرمال الصفراء فتاته جالسة كما اعتادت الجلوس إلى جانبه ، وسمع صوتها وهى تحادثه فى كل الشئون مناقضة رأيه فى كل موضوع .

قام كلايف إلى النافذة وفتحها فأطل منها وهو بذلك يحاول أن يطرد هذه الرؤيا . وعاد إلى التفكير فقطب جبينه وأدرك اضطراره إلى مواجهة الحقيقة التى واجهه بها مخدومه وأدرك أن جلورى التى ظل يطاردها عشرة أعوام لا بد أن تكون قد نسيته ، وقد تكون الآن أمًّا لعدة أبناء ؛ فلماذا يقضى حياته فى أحلام خاوية !

إنه سيصير سعيداً مع كلارا وها هى ذى كلارا أمامه

فوق مجالات الشكوك، وإذن فسيتزوج منها

وصل إلى هذا القرار فى بطء، ولكن فى يقين كما يصل إلى معرفة الحقيقة قائم لتوّه من النوم بعد حلم طويل سار

لقد كانت جاورى هى الحلم وكانت كلارا هى الحقيقة، واستعاد فى ذهنه أريج علاقاته مع كلارا فوجد أنها تحبه وتعنى به وأنها تعطف عليه عطفاً حقيقياً، وأدهشه أنه كان فى عمى عن هذه الحقائق عدة أعوام

وذهب إلى العشاء فلم يدهشه أن ماتيومان تخلف عن المنزل فى ذلك المساء . ووجد أن كلارا مرتدية أحب ثيابها إليها وهى أبسط ثيابها أيضاً، وهو ثوب قرنفلى اللون عارى الصدر له بدل الكمين وردتان على الكتفين تشبك عندهما أطراف هذه الغلالة وبدت له كلارا جميلة فى هذا الثوب كما ينبغى أن يكون الجمال

وبعد تناول العشاء جلسا فى قاعة الاستقبال واقترحت عليه عزف الموسيقى ولكنه أبى لعلمه أن أهم ساعة فى حياته آزفة وأن عليه أن يتهيأ لها، ولعل هذا الرفض آلمها لأنها بقيت مطرقة لحظة . ثم تناولت نسخة من مجلة ووقف كلايف ثم قال : « إن أباك كلمنى اليوم عن حادث الأمس »

ثم سكت مفكراً فنحّت وجهها كيلا يرى التأثر البادى عليه، ولكن ذلك كان بعد أن ظهر النور الساطع على عينيها والابتسامة المشرقة على شفتيها وبعد أن اختضب وجهها بلون الخمر

واستمر كلايف يقول : « فهل من الممكن أن يتحقق ذلك يا كلارا ؟ إننى لا أجرؤ على الطلب فإن الذى أغرمه بذلك قليل والذى أكسبه كثير »

فأجابته : « إننى لم أكن أظن أنك تفكر فىّ فقد كان يبدو لى أنك بعيد جداً، وكنت أخال أن بينى وبينك فتاة أخرى تشغل أهم ركن من حياتك »

فاحمر وجه كلايف ووجم لأن هذه الكلمات أعادت إليه صورة جاورى . ورأى أن يفضى إلى كلارا بسره لأنه لم تعد حاجة إلى بقاء سر مكتوم، وحدثها فبدت على شفتيها ابتسامة غريبة وقالت : « لقد كنت أشعر بأن فى الأمر شيئاً من هذا القبيل؛ وليست كذلك قصتى فإنه لم يهتم بأمرى أى فتى ولم يرتبط قلبى بأى إنسان فاسمع قصتى : إننى أحب أن أكون صريحة معك كما كنت صريحاً معى . إننى أحسد صديقاتى الفتيات على أصحابهن من الفتيان وكنت أتمنى أن يكون هذا الصاحب دائماً، ولذلك كنت لا أحلم بالمخادنة بل بالزواج . وأخيراً جئت ... »

ثم تنفست طويلاً وقالت : « لقد كنت فى نظرى كما كانت جاورى فى نظرك . فإنك كنت الرجل الوحيد الذى عُنى بأمرى فنسجت أحلامى حولك . ولكن مرور الزمن أقنعنى بأنك تعيش فى عالم آخر وأن وجودى جاء عرضاً فى حياتك . ولم يسؤنى حبك لجاورى فقد كنت أنتظر أن يكون بقلبك مثل هذا الشاغل . وأنا أعجب بك لإكرامك ذكراها . ولكن هناك نقطة واحدة أريد أن أستوثق منها »

قال كلايف : « ما هى ؟ » فقالت : « هب أنك قابلت جاورى مرة أخرى فهل ذلك يؤثر علينا ؟ »

فقال كلايف بغير تردد : « كلا فليس سواك قادراً على إسعادى » وقد كان كلايف فى هذه اللحظة يعتقد صدق ما يقول وكانت كلارا تعتقد أيضاً

نزاهته لأنها لم تكن تشك فى أية لفظة مما يقول .

***

ثم انتقل كلايف وكلارا إلى الأرض المسحورة التى يقيم فيها العشاق وتبادلا الرأى فلم يظهر لأحدهما عائق يحول دون الزواج . وحددا يوماً بعد شهرين للزفاف .

ولما لم يبق إلا أسبوعان على هذا الموعد تلقت كلارا دعوة من زميل لها فى عهد الدراسة لإقامة حفلة الذكرى العاشرة لزواجه فاستصحبت كلايف وذهبت . ولكن تلك الدعوة التى وصفت بأنها وليمة لعدد صغير من الأصدقاء كانت تضم أكثر من مائة مدعوّ من مختلف الطبقات

وكانت كلارا جالسة تتحدث مع جمع عندما أقبلت عليها صديقة لتقدم إليها آنسة باسم مس أوسترلى وصفتها بأنها من أشهر الموسيقيات . ودار الحديث وكلايف لاهٍ عن جزء منه ولكنه تنبه عند ما سمع ذكر اسمه فقام ولكن ليواجه تلك الموسيقية وهى صاحبته جلورى

قالت مس أوسترلى : « أذكر أننى رأيتك يا مستر كلايف منذ عدة أعوام فى (ريدل كومب) فقال : « نعم »

ضحكت ورمته بنظرة قوية لتسبر غور نفسه . فقال : « إذن فأنت لم تنسى . وقد نلتقى مرة أخرى لنتحدث مثل أحاديثنا السالفة .

رمقت جلورى كلارا بنظرة ثم نظرت إلى كلايف نظرة أخرى قامت على أثرها . وقال كلايف لخطيبته : هذه هى جلورى . فهزت رأسها ، وقد بدت عليها علائم التفكير ، وكانت عيناها مثل عينى كلايف تراقبان حركات هذا الجسم الجميل .

كان كلايف يحاول أن يعود إلى طبيعته فيتكلم متبسطاً ، ولكن أنى له ذلك وقد وجد جلورى ، واسترد من عمره عشرة أعوام . لقد رآها مرة أخرى ورآته وانجلى عبء الأعوام التى كانت تفصل بينهما

ولم يكن مرور الزمن لينقصها شيئاً من جمالها فهى الآن كما كانت فى المصيف ، وقد تحققت أمنيتها فأصبحت من كبريات الممثلات ، ولو أنه كان من هواة المسرح لالتقى بها من زمن بعيد . وشعر فى أعماق نفسه بصوت يسأله : لماذا لم يكن كذلك . ومهما يكن العزم الذى اعتزمه فيما يتعلق بالزواج فإنه أصر على ألا تضيع فرصة لقائها دون أن ينتهزها فطلب إليها إعادة عهد قصير كتلك الأيام الستة

وبدأ الرقص فرقص كلايف مرتين مع كلارا ، ثم قال لها فجأة : أريد أن أكلم جلورى مرة أخرى يا كلارا إن لم يكن لك اعتراض ، أما إذا اعترضت فلا . فترددت كلارا ، ثم ابتسمت ابتسامة لا يعرف أحد كم كلفتها من العناء. غير أنها عادت إلى نفسها وقالت : لا أرى مانعاً بحال من الأحوال .

وقد كانت أكثر إدراكاً من كلايف نفسه لحقيقة الشعور الذى شعر به . ولكنها مع ذلك تركته يذهب لملاقاتها .

ومشى إلى حيث كانت جلورى جالسة ، ودعاها إلى الرقص ، وظهر وهما يرقصان أنهما تناولا طرفى خيط الصداقة القديمة الذى قد كانا فقداه . وقالت له وهى ترميه بنظرة قائلة : إنك لا تدرى مقدار شعورى بالإهانة من وجودى وإياك فى مدينة واحدة عدة سنوات ، ثم لا تحاول البحث عنى

فقال : إننى لست من هواة المسرح ، ولم أر قط صورتك فى جريدة .

قالت : « لقد كنت أظن أنك لا تريد . وقطعت الأمل من زمن بعيد »

ثم أبرقت عيناها ، وهى تنظر إليه فقال وهو كالمسحور: «ها أنت ذى هنا وشعورى نحوك كما كان ولكن ألم تعودى إلى ريدل كومب ؟ »

وهنا امتنع العزف وانتهى الرقص ؛ فقادته إلى القاعة وهو يقول فى نفسه : « إننى أشعر الآن بأنى عدت أصغر مما كنت بعشرة أعوام »

وأشعل لفافة من التبغ ، وتناولها بيد ترتعش كراكب السفينة الصغيرة عند هبوب العاصفة فأجابته : « لم أستطع الذهاب فى العامين الأولين وظننت أنك نسيت »

قال : « إننى لم أنس »

فقالت مقاطعة: «حتى رأيت كلارا ماتيومان»

قال : « إننى لم أنس حتى بعد معرفتها ، وقد أخبرتها عنك فقد ظننت أنك تزوجت » فقالت مستنكرة : « أنا ؟ »

وكأن الفكرة أدهشتها فقالت : « لماذا ؟ »

وتغيرت ملامح وجهها فجأة وقالت : « لقد كنت حقاً وفية بالعهد » فقال : أحقاً ؟

لكن جلورى لم تجبه وهزت كتفيها وظهرت على وجهها علائم ليس من السهل أن تبين كنه الشعور الذى تعبر عنه، فقال كلايف: « هل كنت تنتظرين كل هذه السنين الطويلة ؟

ألقى هذا السؤال وانتظر الرد وهو يكاد يكون منقطع الأنفاس، وظلت جلورى مطرقة . وأجابت: « إن كان الأمر كذلك فقد كان الانتظار على غير جدوى »

لم يجبها كلايف فى الحال . ولعل ذلك لأنه لم يستطع الجواب . ولم يلحظ هو فى هذه الحالة شبحاً يفتح الستار ثم يطل ويعود . وعادت جلورى إلى الكلام فقالت : « هل فات الأوان ؟ إنك لم تتزوج بعد ... ! »

فعرت جسم كلايف رعشة ، فقالت : « يجب أن أذهب حتى لا تحوم حولك شبهة ... إننى ممثلة وصناعتى تثير الظنون »

قال كلايف : « ولكن ... »

فقاطعته قائلة : « لا معنى للكن، إن لك حبيبة وإن لى كثيرين وإذا كنت تريد معرفتى على هذا الاعتبار فها هى ذى بطاقتى »

ثم فتحت حقيبتها وناولته بطاقتها وهى تقول ساخرة : « إننى سأنتظرك عشرة أعوام »

فجلس كلايف يفكر تفكير من يريد أن يخرج من وسط الفوضى نظاماً . ولما تنبه سأل عن كلارا فقيل له إنها استطالت غيابه فعادت إلى منزلها. فصدمه هذا النبأ ونبهه إلى ما أتى من عدم اللياقة حيث ترك خطيبته وحدها طول هذه المدة

لكن تنبهه إلى ذلك لم يمح من ذهنه نشوة الحديث مع جلورى وقال فى نفسه : إنه لا فائدة من اللحاق بكلارا إلى بيتها فقد تكون الآن نائمة وإن فى استطاعته زيارتها فى صباح اليوم التالى

لكنه فى الصباح وجد رسالة على مائدة الإفطار ووجد هذا نصها :

« عزيزى كلايف

إنك بالأمس قابلت جلورى وقد تبينت مكانتها عندك ، فكتبت لك هذا لأمنع عنك التقيد بى . ولك ما تصبو إليه نفسك ، وأرجو ألاّ تفكر فى شعورى لأنى لن أستطيع الزواج منك مع العلم

بأنك تحب جلورى ، ولا تلم نفسك فإنك كنت في نهاية الصراحة معى »

لقد أطلقت كلارا سراحه وشعر كلايف بأنه في حلم فوضع على رأسه وعلى ذراعه قبعته ومعطفه وذهب إلى بيت جلورى فوجده بيتاً فخماً به أفخم الأثاث ، وكانت جلورى فى هذا الوقت نائمة فانتظر عشرين دقيقة ثم دخل بغير استئذان فقالت : « هذه مفاجأة »

قال : « نعم هى كذلك » ثم ناولها خطاب كلارا لتقرأه ، فقرأته مسرعة وقالت متهكمة : « يظهر أنها تحبك كثيراً لأنها أطلقت سراحك بهذه السرعة » فقال : « إنها ليست كذلك وأنت لا تستطيعين فهمها يا جلورى » .

قالت : « ولماذا جئت لى بهذا الخطاب ؟ »

فقال : « لا أدرى ولكن هذا هو الأمر الوحيد الذى استطعت أن أؤديه »

وكانت كلماته هذه هى الحقيقة البسيطة ، فقالت جلورى : « إننا لا نستطيع أن نتزوج حتى شهر يونيو فإن حكمى رهين بذلك الوقت »

قال : « حكم ماذا ؟ » فقالت : « حكم طلاق »

قال : « لقد ظننت أنك لم تتزوجى » فابتسمت ابتسامة غريبة وقالت : « إننى لم أقل هذا ولكنك أردت أن تفهم ما بدالك . لقد تزوجت مرتين فهل يدهشك ذلك ؟ »

فوقف كلايف ورأى على وجهها علائم دلت على أنها ليست تعنى ما تقول فبدا عليه الارتباك ، ولما رأته كذلك ضحكت وقالت : حياة كل منا مرسومة على نهج يناقض نهج الآخر . إننى لم أتفق معك من قبل على أى رأى فى أى موضوع فهل تذكر غير هذا ؟ .

فتذكر كلايف كيف كانت فى لقائها الأخير تهزأ به وهى تودعه وأدرك أنها تعيش معيشة على غير ما كان يظن

ونادت جلوري الخادمة وأمرتها بأن تخبر اللورد جلنكي ببعض الشئون، ففتح الرجل فمه كالأبله وقال لجلورى : « هل أنت اللادى جلنكى ؟ »

قالت : « نعم . ولم لا ؟ »

فمشى كلايف تواً إلى بيت ماتيومان . وكانت كلارا إذ ذاك تؤدى بعض ما اعتادته من أعمال الصباح . ولما رآها — وكانت ممتعضة — قال : « إننى لا أريد الحرية التى تهبينها فقد كنت أحمق وعرفت الآن معنى الحب »

وهنا أبرقت عيناها وانطبعت على ثغرها ابتسامة وعرفت عرفان من لا يخالجه الشك أن كلايف يحبها وأن سحر جلورى قد تلاشى .

وليس الحب شروداً فى الخيال ولا اشتغال خاطر بل هو رابطة قلبية أقوى علائمها توافق الفكر .

عبد اللطيف النشار

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين }



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العــدد ٦٥ — ١٧ شعبان سنة ١٣٥٨ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد



لأنها حملتني على الانتظار ...

عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« قالت : إن الحب هو الذى حملها على فعل ما فعلت . . . ولكن الحب يمكن أن يكون فى أغلب الأحيان خالياً من التفاهم ومن الأحلام »

كان التوفيق لا يزال بعيداً عنى البعد كله فى ذلك اليوم من أيام الخريف الذى قابلت فيه « آن أولدن » ، وقد بلغ بى البؤس إلى أننى لم أذق طعاماً منذ ثلاثين ساعة ، وأننى لم أنم ليلة كاملة . على أن قدمى كانتا لا تزالان ، على حالة ما ، تواصلان السير مستمرتين فيه أشبه ما تكونان بقدمى إحدى اللعب الآلية اللتين أدير لولبهما فهما تتحركان ولا تستطيعان الوقوف عن الحركة ، كان ذلك بعد ظهر يوم السبت ، وهو الوقت الذى فيه يكاد كل مكتب من مكاتب الأعمال فى هذه البلدة من بلاد وارويكشير مقفلاً ، وعلى الرغم من ذلك ما زلت أسعى لأتصيد عملاً أعيش منه ، وهذا هو السبب فى وجودى بمكتب شركة ونيدوت اسكرو وبولت عندما خرجت من الباب المرقومة عليه كلمة « خصوصى » فتاة طويلة القامة ذهبية الشعر ، تحمل أكبر سلة رأيتها فى حياتى ...

وكانت الفتاة الموكول إليها استقبال الزائرين تقول فى هذه اللحظة : « آسفة ... وهناك فى الخارج إشارة لو كنت تستطيعين القراءة لفهمت منها ... »

ولم أسمع بقية الجملة ، لأن الطنين الذى كنت أسمعه فى أذنى كان يقوى ويقوى حتى أصبح دوياً قارعاً ، وأحسست بالعرق البارد يطفح على كل جسمى . والآن عند ما رفعت نظرى إلى الفتاة ذات الشعر الأصفر ، وفتاة الاستقبال ، وجدتهما تتراشقان بنوع من العبارات الحوشية ...

وعند ما انجلى كل شىء ظهر أن التراشق لابد أن يكون قد انتهى ، فقد كانت الفتاة الطويلة راكعة بجوارى تضع تحت أنفى زجاجة فيها مادة كريهة الرائحة ، وكانت الفتاة الأخري تنطق فى نغمة مملة بكلمات تنم عن الغضب معناها :

— لقد كان أمامه الشارع كله يمكنه أن يغمى عليه فى أية ناحية منه ، فما الذى حمله على أن يترك كل هذا الفضاء ويد ...

فتحركت الفتاة الطويلة وتكلمت وكانت كلماتها أشد هدوءاً من حركتها ، فلم ترفع صوتها ولكنها قالت لها : « صه صه ! »

ونظرت الفتاة الطويلة إلى وابتسمت ابتسامة بطيئة هادئة ، وكان لون عينيها هو ذلك اللون الأزرق الصافى الذى يكثر شيوعه فى عيون عرائس الأطفال . وإنى لأذكر على الأقل أن طفلاً من أطفال ملجأ الأيتام الذى نشأت فيه كان يملك عروساً بعينيها مثل هذا اللون . ولم تكن عينا الفتاة جميلتين تسترعيان النظر ، ولكنهما كانتا أشفق عينين رأيتهما فى حياتى . وقد قابلت ابتسامتها بابتسامة خفيفة وحاولت الجلوس ،

وكانت ساعدها التى تسندنى ثابتة قوية ــ فهى من تلك السواعد المتعودة مساعدة الغير

فلما نهضت واقفاً على قدمى قالت الفتاة :

— أتستطيع أن تمشى ؟

فقلت : « هذا ما يجب أن أستطيعه فقد مرنت عليه فى العهد الأخير مراناً طويلاً »

وابتسمت وأنا أقول هذه الكلمات ، لأنه حتى الفتاة التى تعودت أن تواسى المحتاجين إلى المواساة ، لم تستطع أن تظهر لى من المواساة شيئاً ، وهذا فى الواقع هو الشيء الوحيد الذى لم أكن أحاول تصيده

وأدارت « آن » ــ وآن هو اسم الفتاة الطويلة ــ وجهها عنى وعضت شفتها . وواضح أن ابتسامتى لم تشرح صدرها ؛ على أنها عند ما عادت ، فأدارت وجهها نحوى كان المرح بادياً على محياها فى أجلى صورة مستطاعة ، وقد قالت :

— هذا حسن ، فبيتى يقع مباشرة وراء ناصية الشارع

وعندئذ ضحكنا كلانا ثم مضت « آن » تقول :

— والحق أنها ناصية جميلة وإذا أنت درت حولها فإنك حقاً ترى بيتنا

فسألتها : وماذا أفعل إذا أنا وصلت إلى هناك ؟

فقالت الفتاة : تقابل أمى وأستطيع أن أؤكد لك أنها تستحق أن يقابلها الإنسان

ولولا أن اعتمدت على ساعد « آن » لما كان فى مقدورى مطلقاً أن أصل إلى البيت ، فلقد كنت حقاً فى الرمق الأخير ، فلما وصلت إلى الدرجة الأخيرة من السلم ــ وكان عدد درجاته أربعة فقط ــ كنت ألهث كما لو كنت قد جريت شوطاً بعيداً

فصاحت « آن » : أماه

ولم يكن صوتها عالياً ولكن كان فيه شيء من نغمة الأمر . ولم يدهشنى أن أرى باباً فى الطرف الآخر من الغرفة يفتح على مصراعيه فى الحال

ولم تكن الأم إلا نسخة طبق الأصل من بنتها أو العكس

ولما رأتنى الأم قالت : « أوه » ثم أقبلت مسرعة إلىّ حيث ارتميت على أحد المقاعد الواطية

وقالت « آن » : هذا يا أمى ...

وأتممت أنا جملتها فقلت : چاك هنتر

وهزت « آن » رأسها كأن اسمى لا يعنيها فى كثير أو قليل ثم قالت : لقد دعوته لشرب الشاى معنا ، فلتجلسى أنت يا أمى معه وسأعد أنا الشاى

على أن أمها لم تطل الجلوس معى فإنها لم تكد تستوى على الكرسى حتى دق الجرس وسمعت صوتاً صغيراً يسأل عن كعك السيدة فلانة وعن طلبات أخرى من الحلوى

وقالت مسز أولدن وقد عادت إلى الغرفة بعد أن لبت الطلبات

— إنى لآسفة، فإننى وآن نخبز كما ترى للحصول على رزقنا ، فنحن نتلقى الأوامر بالمطلوبات ونعدها؛ ويوم السبت هو أكثر الأيام ازدحاماً بالعمل

فقلت : « هذا ... »

ثم وقفت عن الحديث إذ رأيت « آن » تدخل إلى غرفة الجلوس الصغيرة تحمل بين يديها صينية كبيرة ، ولما رأتنى أحاول النهوض قالت : « ابق مكانك ولا تتحرك ، فأنا متعودة على حمل الأطباق الكبيرة والسلال الثقيلة ، فإن ساعدى مخلوقتان لذلك ... »

وأضافتنى الأم وبنتها ، وسهلت على أخلاقهما

قبول جميع الأيادى التى غمرتانى بها فى الايام القليلة التى تبعت ذلك اليوم : فقد قدمتا لى غرفة للنوم وطعاماً أقيم به أودى ، وكانتا تحييانى فى هدوء كلما عدت إلى البيت عاطلاً بعد السعى طوال اليوم لتصيد عمل أعيش منه

وكانت مسز أولدن تقول لى من حين إلى حين :

— تذكر أن الدنيا لم تخلق فى يوم واحد

وكانت تقول هذه الكلمات فى لهجة جدية حتى لقد أصبح هذا القول البالى يفيد معنى من المعانى

كذلك كانت آن تقول لى فى لهجة التوكيد :

— لا بد أن يجىء اليوم الذى تنتظره

وكان توكيدها الهادىء يقنعنى بما يخالف تقديرى ورأيى . ولم أرد أن أكون عالة فى كل شىء فكنت أساعد فى غسل الأوعية ، وأحمل البضائع إلى العملاء القريبين ، وكنت فى الجملة أشترك مع السيدتين فى العمل حيثما وكلما استطعت

ثم لم ألبث أن حصلت على (عمل) فى وقت كنا فيه أبعد ما نكون توقعاً للحصول على العمل ، وبطريق هى أبعد الطرق عن التصور . فقد انتهت إحدى العميلات من ابتياع مطلوباتها ، وكنت أضع لها ما ابتاعت فى العربة ، فشكرت لى صنعى وأشارت إلى البيت بتحية خاطفة . ولكنها عند ما حاولت أن تسير سيارتها لم تتحرك السيارة ، فأسرعنا باختبار كمية البنزين فى الخزان فوجدناها كبيرة !

فقالت السيدة محنقة مغيظة : وماذا بعد هذا ؟

ثم قالت : إذا استمرت هذه الحال فسأبحث عن جراج آخر ، وهذا هو كل ما أستطيعه

ثم اجتازت الطريق إلى البيت وسمعتها تقول شيئاً عن التليفون وسمعت مسز أولدن تقول لها أن ليس هناك غير التليفون الموجود فى المطبخ ، وإلى أن سمعت هذه الكلمات لم أكن قد فكرت فيما أعمل ولكنى لما رأيت العميلة تسير نحو المطبخ ناديتها بقولى :

— أتسمحين لى بأن ألقى نظرة على السيارة ؟

فلما تلفتت إلى مندهشة قلت :

— ألا فاعلمى يا سيدتى أن الشىء الوحيد الذى أستطيع عمله هو إصلاح السيارات

فترددت السيدة ثم قالت : حسن

فلم أنتظر كلمة أخرى ، فقد كانت أصابعى متلهفة للوصول إلى ما تحت غطاء المحرك ، وفى اثنتى عشرة دقيقة كنت قد اهتديت إلى العلة وأصلحت الخطأ وكان فى المبخر حيث منبع جميع الخلل

ولم أفكر قط فى أثناء إصلاحى الخلل فى أن أنال أجراً على عملى ، ولكن بعد ما انتهيت وأعدت إحكام غطاء المحرك ، خطر لى على حين فجأة ، أن الأمر قد لا يقتصر الآن على الشكر ، وأن « شيئاً سيأتى من راحة اليد » ولكننى مع ذلك كنت مخطئاً فى تقديرى ، فإن العميلة وإن كانت قد شكرت لى صنيعى واعترفت لى بجميلى فإنها لم تمد إلىّ يدها حتى ولا بسجارة . ثم كأن هذا الامتعاض الذى شعرت به لم يكن كافياً فلم تمض بضع دقائق إلا وقد دق جرس التليفون وسمعت صوتاً غاضباً ثائراً يسألنى ما الذى فعلته بسيارة مسز تروتر

فغضبت من هذا السؤال وأجبت الرجل :

— إذا كان قد حدث خلل آخر فى السيارة فليس ذلك من خطأى . فأى إنسان يعرف مبادىء الميكانيكا يدرك أن الذى كان موكولاً إليه أمر

ملاحظة هذه السيارة وإصلاحها لم يخرج عن أن يكون طفلاً

فأجاب الرجل : أوه ... أهو كذلك ؟ حسن فهل لى أن أسألك أن تحضر وتظهر لى على وجه الدقة موضع الخلل وأسبابه !

قلت : وهل لى أن أسألك ماذا يكون جزائى إذا أنا أظهرت لك ما تريد ؟

فأجابنى . واندفعت فى الحال جارياً الطريق كله حتى وصلت إلى الجراج ، ولم أكن رأيته من قبل إلا من الخارج — إذ لم يسمح لى أحد قط بأن أرى صاحب العمل — ومع ذلك فإننى عند ما دخلته اليوم وشممت رائحة الزيت والشحم وسمعت أزيز المحركات وأصغيت إلى مزاح الرجال ونكاتهم شعرت شعوراً تاماً بأننى داخل إلى مكانى . وقد قضيت بقية هذا اليوم وأغلب اليوم التالى فى إصلاح سيارة العميلة ، ولكننى عند ما انتهيت من عملى كانت السيارة قد أصبحت فى أحسن حال فقلت : هأنذا قد انتهيت

ثم سمعت الكلمات التى قيلت، وابتسمت ابتسامة فاترة مريضة وقلت مصدقاً على ما سمعت : أظن أننى كنت على حق

ثم اتجهت نحو الباب

ولكن صاحب العمل هارى جونز قال لى : لا تخرج بمثل هذه السرعة ، فإن أى إنسان يستطيع أن يجعل سيارة متعبة كهذه تجلس مستقيمة وتغنى لا يجوز أن يفلت منى

كان هذا هو كل ما حدث . وبمثل هذه السهولة حصلت على العمل بعد أن قضيت الأشهر الطوال أجوب الشوارع باحثاً عن عمل حيث يحتاجون إلى رجل يستطيع أن يحمل السيارات على أن تغنى !

ولقد غنيت أنا أيضاً ، غنيت غناء لم أغنه من قبل . غنينا جميعاً تلك الليلة واقفين حول « بيان » جماعة أولدن ، بينما جلست « آن » أمام « البيان » تنقر عليه بأصابعها الماهرة متتبعة غناءنا . غنينا أغنية عيد الميلاد لأنه لم يكن باقياً غير أسبوع واحد حتى يحل هذا العيد



كان عيد هذا العام من أبهج الأعياد فى حياتى على الرغم من أن جيبى كان خالياً حتى من بنس واحد أروح به عن نفسى — فقد كنت لا أزال مثقلاً بدين كبير لأسرة أولدن ! لقد كنت شاباً صغيراً صحيح الجسم ، وأصبح لى — لأول مرة بعد موت والدى فى وباء سنة ١٩١٨ — بيت آوى إليه، أو هو شىء أشبه فى منظره ورائحته ببيت أهلى

كان فى هذا الوقت بالذات أن بدأت أتكلم عن المستقبل فى صيغة الجمع فأقول « سنفعل ذلك

الشيء يا آن » و « سنعد ذلك الأمر » وهكذا كنت أرسم خطة المستقبل على أنني لست وحيداً في الحياة ، فقد أصبحت آخر الأمر مؤمناً (دون خطبة رسمية) بالواقع من أنني وآن سيتزوج أحدنا من الآخر في يوم من الأيام

وكانت هي آخر الأمر التي اختصرت الطريق إذ قالت لي وقد تلون جلدها الناعم على حين فجأة بحمرة الحياء :

إن كلمة « نحن » التي تنطق بها ترن ككلمتي « إلى الأبد »

فقلت : هذا ما أقصد إليه يا آن فهل تستطيعين أن تروضي نفسك على حبي ؟

فهزت رأسها وشعرت بصدمة خفية في قلبي عند ما قالت : أنا لا أستطيع أن أروض نفسي ، لأنني أحبك فعلاً يا جاك

فضممتها بين ساعدي لأول مرة وأسندت صفحة وجهي إلى شعرها الناعم ، وقلت لها قبل أن أقبلها : إذن قد انتهى كل شيء

ولكن آن نفسها قد بينت لي في وضوح أن شيئاً ما لم ينته بعد حين قالت : فكر يا جاك في أنك قد تكون خالطاً بين الحب وبين الاعتراف بالجميل ، فليس الأمران شيئاً واحداً . وقد تكون كذلك خالطاً بين الشعور بالراحة وبين الرضا الذي لا يجيء إلا من الحب الحقيقي . وقد تتلاقى في يوم من الأيام بإنسانة ما

فقاطعتها بقولي : « لقد التقيت بملايين من الفتيات وأحببت بعضهن ، ولكنك يا « آن » أنت الوحيدة التي طلبت إليها أن تتزوج مني »

كانت « آن » تناهزني في طول قامتي — وقد كنت طويلاً حقاً — فلما سمعت كلماتي ضمت وجهي بين يديها القويتين ونظرت إلى عيني نظرة عميقة ، وهي تقول :

— انت ولد جميل يا جاك هنتر ، وما زلت شاباً وجذاباً جداً ، وأنا لست إلا الفتاة « آن » التي ستحبك دائماً ، ولكن في هدوء . وربما لا أكون المرأة التي تثير عواطفك بالقدر الكافي .

وحاولت أن أقطع عليها حديثها ، ولكنها أشارت لي أن ألزم الهدوء ومضت تقول :

— وأنا ياجاك أريد أن أتزوج لأعيش إذاقدرلي يوماً أن أتزوج

فقلت : « ولكنني أريد يا « آن » أن أتكفل بأمرك وهذا هو الذي كنت أحاول أن أقوله لك .

فأجابت : إذن انتظر !

سألتها : إلى متى ؟

وعندئذ حددت مدة التجربة بسنة كاملة

وخيل إليّ أن رأيها سخيف جداً وقلت ذلك في عبارة مترددة

على أنه قبل أن ينقضي شهران على هذا الحديث التقيت بإيلين ليندن ، وبدأت أشعر أن « آن » ربما كانت على حق فيما قالت لي

«مثيرة للعواطف ! »: أظن أن هذا هو أحسن وصف يمكن الإنسان أن يصف به إيلين. شعر أسود في هالة من الجمائد المتموجة حول رأسها ، ،وعينان خضراوان أشبه ما تكونان بالعيون الشرقية في تركيبها ، وأكمل جسم تقع عليه العين في تكوينه ، ولها في الحديث أساليب تستهوي النفوس وتنقطع لها الأنفاس

وقد اعترضت هذه الفتاة طريقي أنا جاك هنتر !

ولقد هز ما أبدت لى من تودد وإغراء أساس كيانى ، وقد اختارتنى دون جميع رفاق فى البناية وفى المكتب والجاراج موضعاً لمغازلتها وتوددها

ومضت إيلين فى اختصاصى بودها وبحبها على الرغم من أن أمها قد حاولت بكل ما فى وسعها من جهد ، أن تقطع عليها طريق هذا الافتتان ، وكانت مسز ليندن امرأة قصيرة بدينة بعض الشيء ، وقد قضت جميع سنى زواجها نادبة حظها ، وقد قالت إنها هى أيضاً لم تستطع أن تقاوم حبها لزوجها ليرى لى على الرغم من أن أمها العزيزة قد حزرتها ، وتنبأت لها بأن زواجها منه لن يكون أبداً زوجاً ناجحاً فى الحياة !

لقد كانت أمها العزيزة على حق ! فلم يكن الرجل موفقاً ولا ناجحاً ، وكيف يكون كذلك وهو يعاشر امرأة ترميه بعدم التوفيق وعدم النجاح فى الصباح وفى الظهر وفى المساء !

لقد سنحت لى لحظة صفاء ذكرت فيها كيف كانت « آن » هادئة مطمئنة فى تلك الأسابيع المريرة القاسية التى كنت فيها خالياً من العمل أسعى لتصيده فى كل مكان ، ولكننى عندما رأيت إيلين تهبط السلم رشيقة فتانة فى ثوب جديد له لون عينيها الخضراوين الصافيتين تلاشت ذكرى « آن » وهدوئها واطمئنانها .

وعند ما خرجت بعد ذلك مع إيلين فى السيارة التى اشتريتها مستعملة وأصلحتها فأصبحت فى حال جيدة على ما أظن ، ازددت نسياناً « لآن » وأيامها وعندما عدنا إلى البيت فى تلك الليلة كان قد تلاشى من ذاكرتى كل أثر لتلك الأيام تلاشياً تامًّا . لقد كانت « إيلين ليندن » هى كل ما فى الدنيا من عواطف مثيرة تجمعت فى كتلة واحدة وقد اعتزمت أن أتزوج منها إذا استطعت

وحتى الآن لم أقل « لآن » شيئاً . ولقد عرفت بعض الشيء أو لعلها قد خمنت شيئاً ، فقد بدت فى عينيها فى تلك الأيام ، نظرة تائهة حزينة ، ونحل جسمها الجميل كما لو كانت مريضة منهوكة

وفى الليلة التالية أخلفت موعدى مع « آن » محاولاً أن أكذب عليها ، ثم انتهى الأمر بأن أخبرتها بالحقيقة ، وما زلت مسروراً من أننى قد فعلت ذلك . لقد قلت لها :

— أريد أن أعمل الليلة شيئاً آخر يا آن

وقد أجابتنى فى صوت امتزج فيه الحنان بالأسى :

— من الطبيعى أن تفعل ما تريد يا جاك

وهكذا ذهبت إلى بيت ليندن فى وقت لم يكن أهله يتوقعون مجيئى فيه . وما كدت أصل إلى الباب حتى وجدت إيلين خارجة مع « فرداسوينى » أحد رفاق فى المكتب . فكان من الطبيعى أن أغضب وأثور ، فإنها فى الليلة السابقة فقط ارتمت بين ساعدى وتلقت قبلاتى الغرامية بكل ما يصبو إليه الرجل من حرارة وإقبال . وهى الليلة تخطو إلى رجل آخر تلك الخطوات الرشيقة التى خطتها إلى ، فما معنى هذا ياترى ؟ أهو موعد غرام معه هو أيضاً ؟ أيمكن ... يا لله لقد كانت الأسئلة فى نفسى عديدة وكان الجواب ـ عذاباً

قضيت تلك الليلة أذرع غرفتى ذهاباً وجيئة حتى كدت أسقط إعياء، وقلت فى نفسى آخر الأمر لاشك فى أن إيلين تستطيع أن توضح لى كل شىء فى الصباح ، وقد اختصت جماعة إيلين فى هذه الدنيا بشىء واحد هو القدرة على شرح كل شىء وإيضاحه !

فقد قيل لى إن ما حدث كان من خطأ أمها ، فإن هذه الأم العزيزة قد جعلت حياة ابنتها جحيماً ؛ فهى دائماً تصدع رأس هذه الابنة المسكينة بتوبيخها لرميها نفسها علىّ . فأجبت بأن أمها فى غنى عن أن تتعب نفسها من أجل ذلك ، فإن لدىّ أشياء خيراً من التسابق فى مطاردة فتاة لعوب مغازلة مثل « إيلينها » العزيزة ؛ فهى تستطيع أن تجد لنفسها فى كل ليلة رجلاً جديداً ، ومتعة جديدة أيضاً ! وفى الجملة اشتد النزاع والشجار بيننا حتى امتلأت عينا إيلين بالدموع ، فلم أطق صبراً على ذلك فهدأ غضبى وترضيتها ، ولكننى علمت فيما بعد أن دموعها كانت جاهزة دائماً كماء أنبوبة المطبخ تستطيع أن تسيله أو تحبسه وفق إرادتها . ومن سوء الحظ أننى لم أعرف هذه الحقيقة فى تلك الليلة .

وهكذا اصطلحنا فى ذلك المساء ، وكان معنى هذا الصلح أن اندفاعنا فى طريق الغرام لا يقف عند حد . ولما انتهى كل شىء شعرت بأننى ممتعض منها ومن نفسى . فلم تكن هذه هى الطريق التى قصدت أن تسير فيها الأمور . فأنا الذى لم يكن لى بيت منذ كنت فى السابعة من عمرى ، كنت أعرف أن التقاليد والعادات للناس كالسقف فوق رؤوس الأطفال . وهذا هو الذى حدا بنا أن نذهب بعد بضعة أسابيع إلى أحد مكاتب التسجيل فنثبت زواجنا

وإنى لأشك الآن فى أن إيلين كانت فى أول الأمر تقصد إلى الزواج منى بحال من الأحوال . لقد رأتنى وصبت إلىّ وأرادتنى ، ومعنى ذلك فيما يتصل بإيلين أن تنال ما تريد ؛ ثم هى أيضاً قد فقدت منطقها وفى ساعة انفعال سمحت لنفسها بالزواج منى . أظن أن هذه هى القصة على حقيقتها

أما مسز ليندن فقد سايرت الأمور على الوجه الذى تعرفه طبعاً ، وأما المسكين لينزلى فقد وقف جانباً يعصر يديه عاجزاً لا يستطيع أن يفعل شيئاً ولكن كان أبغض الأمور إلى نفسى أن أخبر جماعة أولدن بما حدث . فقد كان سلوك « آن » وأمها بديعاً فى كل شىء ما فى ذلك من شك ، وهذا هو الذى زاد الأمر سوءاً وأحاط موقفى بالحرج الشديد

ولقد قالت «آن» : « لا تحزن يا جاك ولا تخجل فإنك بعد كل شىء لم تطلب منى أن آخذك إلى بيتنا ؛ ثم أنت لم ترغب بمجرد إرادتك فى أن تحب إنسانة أخرى »

لم يكن هذا صدقاً فلقد سعيت أنا إلى الحب فقد سمحت أولاً لعقلى وثانياً لقدمى أن يبتعد الجميع عن « آن » ، وأى شىء يتوقعه الرجل بعد ذلك ؟

وهكذا بدأت حياتى الزوجية وأنا أشعر فى نفسى بالجريمة التى أرتكبها ، وليس ذلك بالشىء الحسن ، وبدأت كذلك بمجموعة من الديون الجديدة وليس هذا بالشىء الحسن أيضاً

وقد قالت إيلين : إننا لا نستطيع أن نقيم مع أمى فى بيتها فهى تملأ حياتى تعاسة وشقاء

وقد وافقت على هذا ولكننى لم أفهم معنى لأن نستأجر بيتاً يبلغ أجره الشهرى كل أجرى على عملى فى أسبوع كامل ، كما لم أفهم معنى لأن نؤثث ذلك البيت كما لو كان اسمنا روتشلد بدل هنتر

كان هذا التصرف هو أول ما فتح عينى على ما يحيط بى . فإننى لم أتذوق بالفعل ما كنت أتوقع من ثمرات الأنوثة المزهرة ، فقد أصبحت هذه

الثرات لا تعطى إلا بثمن وثمن غال جداً . وقد بدت لى هذه الحقيقة أشد وضوحاً فيما بعد عند ما عرفت مبلغ ما يكلفنى فقط تصفيف الشعر والجوارب الحريرية . لقد كنت بطبيعتى سمحاً فيما يتصل بإنفاق المال ، وكنت كذلك غير أنانى بطبيعتى ، ولكننى كنت أبغض الدين ، والآن ليس فى حياتى شىء آخر غير الديون

وأصبحت مسز ليندن التى صالحت ابنتها وساد بينهما الوفاق التام هى التى تحرضها على كل شىء فى إلحاح شديد فكانت تقول : لقد تعودت إيلين على اقتناء أحسن الأشياء ، وكان لا بد لى من إجابة مطالبها مهما كانت نتيجة ذلك على أبيها وعلىّ أنا

وهذا هو الذى يفسر لنا كيف أن فتاة ليس لها من دخل غير أجرها من الكتابة على الآلة يمكنها أن تلبس ما كانت تلبس إيلين من الثياب الفاخرة ، فقد كانت أمها تعطيها كل ما يجىء به المسكين لينزلى إلى البيت من المال بمجرد إحضاره ، والحق أنه مما يدعو إلى العجب أن يعمى الافتتان الرجل إلى هذا الحد

وكان كل ما تقترحه مسز ليندن علاجاً لمتاعبنا هو قولها : الأمر بسيط فعليك أن تزيد فى أرباحك

وهذا هو بالطبع الذى حملنى على أن أضع اسمى بين الذين يرغبون فى العمل الإضافى

ولم يخطر لى يوماً على بال أن أشك فى أخلاق إيلين . لقد كنت أعلم أننى لا أستطيع أن أثق بها فى التصرفات المالية، وكنت أعلم أننى لا أستطيع أن أثق بها فى إعداد طعام أو ترتيب بيت ، وكنت أعلم أيضاً أننى لا أستطيع أن أثق بها حتى فى أن تعنى بملابسها إلا إذا كان ذلك فى وجود إنسان غيرى ، فلم يمض على زواجنا أكثر من خمسة عشر يوماً حتى كانت تقضى كل وقتها فى البيت فى قميص ملطخ ممزق ، إلا إذا جاء لزيارتها أحد من أصدقائها العديدين. على أننى مع ذلك ظننت أننى أستطيع أن أثق بها فى المحافظة على عهود الزواج ، ولكننى كنت مخطئاً فى هذا الظن

لقد كانت العاطفة الثائرة التى دفعتنى نحو إيلين هى كل شىء فيما يتصل بها . فليس فى إدارة البيت شىء مثير للنفس ، وكذلك ليس مما يثير النفس أن يقضى الإنسان الليل فى البيت وحيداً فى صحبة كتاب نفيس ، بينما إيلين لا تستطيع الاستقرار فى البيت

هذا هو السبب فى أننى عند ما عدت إلى البيت فى مساء يوم أربعاء فى غير موعدى المعتاد ، لم أجد لإيلين أثراً فى أية ناحية من نواحيه . ولم يكن فى بيت والديها تليفون منذ زواجنا ، لذلك قصدت إلى ذلك البيت ماشياً على أمل أن أجدها هناك جالسة معهما على مائدة العشاء، ولكنها لم تكن هناك أيضاً. ولقد خيل إلىّ أن ما بدا على مسز ليندن من الاضطراب كان أكثر مما يدعو إليه الموقف ، على أنه كان من رأى السيدة الوالدة أنه إذا كان لا بد من تغيبى عن البيت فما الذى يمنع إيلين من أن تشغل نفسها بأمر ما فى هذه الليلة ؟ ولقد توددت لى مسز ليندن إذ ذاك توددا لا عهد لى به من قبل؛ وكانت حقاً غاية فى اللطف ! وقد فعلت كل ما فى مقدورها لإبقائى لديها أطول وقت ممكن ولم يبق من وسائل حملى على البقاء إلا أن تربطنى إلى الكرسى الذى جلست عليه، وحتى عند ما هممت للخروج بدا عليها الخوف من أن أغيب عن نظرها ، فقالت تخاطب زوجها :

— أظن من المستحسن يا ليزلى أن أصحب جاك إلى بيته فقد مضت عدة أيام لم أر فيها إيلين

فنظرت إليها نظرة سريعة وعجبت من قولها وشككت فى صدقه . لأنه إذا صح قولها فتكون إيلين قد كذبت علىّ كذباً صريحاً إذ قالت إنها كانت فى الليلة الماضية والليلة التى سبقتها فى بيت أمها . الحق أنه كان هناك شىء غريب ولكننى لم أكن على يقين من ماهيته ، فقد كانت مسز ليندن مندفعة فى تيار الحديث الذى لا ينقطع طوال الطريق . يا لله ! لو أنها كانت كذلك فى حال سرورها لوددت أن تبقى معى إلى الأبد فى خارج البيت ، ولقد ابتسمت فى الظلام لهذا الخاطر

ومع ذلك لم تطل ابتسامتى ، فإننا ما كدنا ندور حول زاوية الطريق حتى رأينا إيلين خارجة من سيارة فرد أسوبنى ، ولقد رأيانا غالباً فى اللحظة نفسها التى رأيناهما فيها فقد كانت مصابيح الشارع فى هذه النقطة ساطعة جداً ، فقالت إيلين « أوه ! » ووضعت يدها على حلقها كما لو أن شيئاً يكاد يخنقها . أما « فرد » فلم يقل شيئاً على الإطلاق ، ولكنه أدار سيارته وانطلق

فاجتازتنى مسز ليندن مندفعة فى وثبات جنونية نحو ابنتها فكانت أشبه بالدجاجة على أثر ذبحها ، ولم تقف حتى صارت أمام إيلين ؛ وقد رفعت رأسها وفتحت ساعديها ، ولعلها كانت مضحكة فى حركتها هذه ولكنى لم أفكر فى ذلك إذ ذاك ، فقلت لها :

— عودى إلى بيتك يا مسز ليندن ، فإننى فى هذه اللحظة لن ألمس ابنتك هذه حتى ولا بصارية مركب .

لقد كان ما قلته حقاً ، وقد أدركت ذلك شاعراً بنوع من العزاء ، فقد كانت تلك اللحظة من اللحظات التى يقدم فيها الرجال على أعمال يندمون عليها فيما بعد . لم أرد فى تلك الساعة شيئاً غير الخلوة إلى نفسى . وهذا هو الشىء الوحيد الذى لم ترده إيلين بعد أن اجتزنا باب مسكننا ، فقد بقيت ممسكة بى متعلقة بأكتافى ، تصب من فمها أنواعاً من الاعتذارات فى لهجة باكية تقطعها الزفرات متحببة إلى بكل ما يتسع له خيالها من ألفاظ .

فنظرت إلى وجهها وعجبت كما عجبت كثيراً فى الأيام الأخيرة ... لماذا تصورت فى وقت من الأوقات أنها جميلة جذابة ، لقد كان شعرها أشعث تقصفت أطرافه من كثرة الكى ، وعلى خديها خطوط طويلة من الأصباغ ، وكان يزكم الأنف منها رائحة العطور القوية التى كانت تتدهن بها وتستغنى بها عن الماء والصابون الجيد .

فسككت عن عنقى هاتين اليدين اللتين كانتا فى وقت من الأوقات تثيران عواطفى ... أما الآن فقد أصبحتا يدين شرهتين آثمتين ، وقلت لها :

« إذهبى إلى فراشك يا إيلين ، فإنى أريد أن أخلو بنفسى » .

وخيل إلى أن صوتى عندما قلت هذه الكلمات كان جامداً جمود الجليد .

ذهبت إيلين إلى الغرفة التى كنا نقتسمها للنوم وقصدت أنا إلى الشباك ، فأجلت النظر فى ليل الشتاء ... على أننى لم أر الليل ، ولكننى رأيت بدلاً منه « آن أولدن » كما رأيتها لأول مرة ، ورأيتها عندما كانت قوة يقينها تشجعنى على أن أثق « بالرجل الذى

تستطيع الدنيا أن تعمل بدونه » ورأيتها كما كانت في الليلة التي قالت فيها : أنا لست إلا الفتاة آن التي ستحبك دائماً، ولكن في هدوء، ولعلي لن أكون مثيرة عواطف رجل مثلك بالقدر الكافي .

مثيرة ! لقد هززت كتفي لأتخلص من كل معنى من معاني هذه الكلمة ، فقد كان ما أحتاج إليه في هذه الساعة ، وما أجود بحياتي في سبيل الحصول عليه هو هدوء وقوة امرأة مثل آن أولدن ولكن ذلك لن يكون لي أبداً ، وقد نبهتني آن نفسها إلى ذلك ، فالزواج عندها مسألة أبدية .

وكان في الغرفة كرسي كبير — من الأثاث الذي لم يدفع ثمنه بعد — فارتميت عليه وخبأت وجهي بين يدي . وفكرت في ذلك الخبيص الوحشي الذي صنعته بيدي لنا جميعاً : آن وإيلين ونفسي . وقد كان من أثر التفكير على هذه الصورة أن هدأت في نفسي الثورة التي أثارتها حوادث الليلة ، أو هذا على الأقل ما شعرت به . فإن إيلين قد قضت منذ وقت طويل على كل ما كان في نفسي من شعور نحوها إلا شعوري بأنني أملكها . ولما هدأت ثورتي استطعت أن أتبين الأمور بكثير من الوضوح وأن أكون أهدأ تفكيراً، وكان الفجر قد أقبل قبل أن أثق ثقة تامة مما سأفعل ومن الأسباب التي تدعو إلى فعله

ولا بد أن أكون قد نمت عندئذ ، فإن أول ما شعرت به بعد ذلك حركة إيلين وصوتها الجامد يقول :

— الساعة الآن السادسة يا جاك فهل أنت ذاهب؟

فقاطعتها بقولي :

— إنني ذاهب إلى عملي ، فمتى انتهيت من حمامك وغيرت ملابسك عودي إلى هنا ، فإني أريد أن أتكلم معك

وكانت في هذه اللحظة كما كانت في الليلة السابقة فإنها لم تنزع حتى رداءها الخارجي

ولم يكن لدي ما أطيل فيه الحديث معها ، فكل ما قلته إنني لم أعد أقبل سوء سلوكها ولا أكاذيبها وقد قلت لها :

— وفي هذه اللحظة يا إيلين لا أستطيع أن أفكر فيما كنت أراه فيك دائماً . ومع ذلك ها نحن ذان لا نزال زوجين على الخير وعلى الشر جميعاً ، ولن أستسلم لمجرد أنني لم أحصل على ما كنت أتصور أنني سأحصل عليه ، ولن أستطيع أيضاً أن أحملك على التسليم فيما أخذت به نفسك لأن هذا أمر ستحرصين عليه ولا تتخلين عنه

فتنفست نفساً طويلاً سريعاً ولعل ذلك كان تنفس الارتياح فهذا مالا أستطيع أن أجزم به ، ولكنها لم تتكلم .

وسادت بيننا في الأيام القليلة التالية عوامل الصفاء وإن كنا متباعدين أحدنا عن الآخر، وامتنعت عن قبول العمل الإضافي ، ولم تكن إيلين كعادتها تعمل عملاً ما من أي نوع من الأنواع ، وبدلاً من ذلك كانت أمها تأتي كل يوم فترتب أثاث المنزل وتعد الطعام ، ثم تسرع عائدة لتعد طعامها وطعام زوجها . وفي يوم من الأيام صممت على أن أنهي موقفي مع إيلين

ولا بد أن يكون قد مضى أكثر من أسبوع عند ما ذهبت إلى شارع جلينوور لأوصل سيارة

مسز ترونر التى كانت السبب فى حصولى على العمل إلى جراج جونز . وكان عيد الميلاد قد اقترب ، وأوشكت أن أتم العام فى عملى ، وكانت الأشجار فى جميع البيوت مزينة بالمصابيح وغيرها من أسباب الزينة استعداداً لهذا العيد المجيد . وعلى الرغم من كل شئ حدث أننى بدأت أشعر بأن الحياة جميلة ، وبعد أن أسلمت السيارة لصاحبتها عدت أدراجى حتى إذا اقتربت من دار الدكتور فريزر فتح بابه وخرجت منه إيلين ، فلم أصدق عينى فى أول الأمر لأنها لم تكن تشكو مرضاً ما ، ولكنها وقفت تحت أحد مصابيح الطريق لتخرج منديلها من حقيبة يدها وبدأت تجفف دموعها . وهنا تأكدت أنها إيلين، وأيقنت أنها مريضة .

ولكنها لم تقل لى شيئاً عند ما عدت إلى البيت ساعة العشاء ، وكذلك لم تقل شيئاً فى الليلة التالية ، ثم جاءت إحدى تلك الليالى القارسة البرد التى لا يمكن الإنسان أن يستعد لها مهما تكن الإنذارات السابقة. وأظن أن نصف سيارات البلدة على الأقل قد تجمد الماء فى مبردات محركاتها فى تلك الليلة ، وحجزت أنا وجميع رفاقى للمبادرة إلى إجابة الطلبات ، وكانت سيارة الدكتور فريزر إحدى هذه السيارات المحتاجة إلى الإصلاح وكان من نصيبى أن ألبى دعوته فلما رآنى قال :

— مرحى ياجاك! إن مسألة الأبوة التى تشغلكما تحملنا على الإسراع ، ألا ترى ذلك ؟

فكررت فى بلاهة قول الطبيب :

— مسألة الأبوة !

فبدا على الدكتور مظهر الأسف وقال :

— أسعد الله مساءك. إنى لأظنها كانت تدبر لك مفاجأة سارة فى عيد الميلاد

ولم أسمع بقية الحديث

لم تخبرنى إيلين بشىء عن مسألة الأبوة ، ولكن فى ليلة عيد الميلاد أعطيت إيلين من الهدايا أكثر مما تسمح ماليتى بتقديمه وجلست إلى جانبها على الصفة وقلت لها :

— قال لى الدكتور فريزر إنك ستصبحين أماً يا إيلين فهل هذا صحيح ؟

فهزت رأسها . ثم على حين فجأة بكت كما كانت تبكى فى الليلة التى خرجت فيها من بيت الطبيب ، وقد حاولت أن أواسيها ولكنها أبت أن تواسى . فلم تكن تريد أن يكون لها طفل ، لم تكن تريد أن تقيد بملازمة ابنها ، لم تكن تريد أن تفقد رشاقتها وشكلها المعتدل ولو لفترة قصيرة

مسكينة إيلين ! لقد ظننت أن من الفظاعة أن يكون الإنسان امرأة وأن تحارب على هذه الصورة للتخلص من المهمة الوحيدة التى خلقت لها ، ولكن خيل إلى فى اليوم التالى أنها قد وقفت هذه الحرب . وبعد أن تعشينا أنا وهى فى بيت أبويها ذهبنا إلى دار السينما . ولما عدنا إلى البيت كانت إيلين فرحة مبتهجة حتى لقد رقصنا معاً على موسيقى اللاسلكى ، وقد مضت علينا أجيال لم نعمل فيها عملاً مشتركاً إلا أن يكون الشجار والنزاع

وإنى لأظن الآن أنها فى تلك الليلة كان قد استقر رأيها على أن تجد وسيلة للتخلص من متاعبها. فلما رتبت كل شىء فى رأسها شعرت براحة عظيمة هى السبب فيما بدا عليها من ابتهاج ، وكانت هذه

هي آخر راحة عرفتها إيلين في الحياة ، لأنني عند ما عدت إلى البيت في الليلة التالية مباشرة وجدتها طريحة الفراش منهوكة القوى صفراء يخيم عليها شبح الموت . فأردت أن أدعو الطبيب في الحال ولكن إيلين وأمها أبتا ذلك الإباء كله

وقالت مسز ليندن وهي تريد أن تتهكم بي فيما يتصل بالمال :

— أتدعو الطبيب لضربة برد خفيفة ؟ أنا لا أوافق على ذلك ! فما فيه من فائدة غير ضياع المال

أظن أن هذا القول يبدو سخيفاً ولكنني في الحق لم يخطر لي قط على بال أن إيلين قد تكون ذهبت إلى إحدى هؤلاء النسوة اللواتي يحترفن مهنة الإجهاض « لتخليص النساء من متاعبهن » (وهذا أسلوب غريب لأمور هي في الغالب سبب آلام شديدة للجسم والروح) . وقد أخبرتني مسز ليندن آخر الأمر بالحقيقة وذلك عند ما تحرجت الحال ولم تعد تستطيع الكتمان ، وفي الحال حضر الطبيب ولكن التسمم كان قد سرى في الجسم ولم يعد من الممكن وقفه فانقطع الرجاء

وعند ما اقتربت النهاية أدركت إيلين أن خاتمتها قد دنت فجاهدت الموت بكل ما فيها من قوة وكانت تصيح :

— لا تسلماني للموت ! أمي ! جاك ! امسكا بي ، لا تسلماني للموت !

وكاد يقتلني ما شهدت من هول الموت ومن « بلادته » وقضيت عدة أيام كالماشي في المنام أؤدي عملي على صورة آلية . وكان هاري جونز صاحب الجاراج هو الذي رأى أن خير علاج لي أن أخرج من هذا المحيط كله ، فاقترح على أن يخصص لي غرفة عنده للمبيت لألبي طلبات المساء

وكان هذا هو خير علاج حقاً ، فتركت أثاث البيت لمسز ليندن تتصرف فيه على ما تشاء

وشعرت بحنان إلى زيارة جماعة أولدن ولكني خجلت من نفسي أول الأمر ثم حاربت هذا الخجل وقصدت إلى دارهم . وقد عادت بي الذكرى إلى قول « آن » : إنني سأحبك دائماً

ووصلت إلى دار أولدن ، وهناك وجدت مستر هندرسن فقدمته إلى « آن » ، وذكرتني بأنني التقيت به من قبل .

وشعرت بالغيرة من وجود هذا الضيف الجديد على أن علاقة المودة عادت بيني وبين « آن » . وفي يوم من الأيام ذهبت لزيارتها فوجدت من وراء زجاج الباب خيالها هي ومستر هندرسن ورأيتهما يميلان أحدهما على الآخر في قبلة طويلة ، فثارت نفسي وعدت أدراجي ، ولكنني لم أقو طويلاً على البعد وعدت إلى الزيارة ، وصارحت « آن » بآلامي وذكرت لها ما شهدت فضحكت ضحكة مرحة طويلة وسألتني أن أهنئ أمها بما هي مقدمة عليه من زواج فإنها هي التي كانت وراء الباب مع مستر هندرسن خطيبها الجديد . . .

وهكذا انتهى الفصل الأول من القصة وبدأ الفصل الثاني بحياة بيتية هنيئة في ظل زوج وفية في حبها شديدة العناية ببيتها مكبة على إنشاء أطفالها أزهاراً يانعة تزين البيت ، ثم رجالاً أشداء يخدمون وطنهم وبلادهم على خير ما يخدم الرجال الأوطان .

عبد الحميد حمدي

العودة

للقصصي الفرنسي موباسان
بقلم الأستاذ ناجي الطنطاوي

كانت القرية الوديعة نائمة في حضن الوادي المنحدر نحو البحر ، وكانت أمواج البحر المتتابعة تلطم الشاطئ الرملي ثم ترتد عنه ، وكانت السحب البيضاء تجتاز مسرعةً ، السماء الزرقاء الواسعة يحملها الهواء الناعش ... وكان أول ما يبدو للداخل إلى القرية ، دار صغيرة منفردة على قارعة الطريق يعرفها الناس باسم دار « مارتن لوفيسك » ، كان يأوي إليها أحد الصيادين المعروفين ، وهي ذات جُدر من طين ، وسقف من قش ، مزين بالسوسن الأزرق ، تحيطها حديقة واسعة ، تمتد كالبساط ، فيها أنواع الزروع : كالبصل والكرنب والبقدونس المتراكم لدى الباب ، وكان يسترها عن الطريق سياج من الزروع الشائكة .

كان الرجل في صيده ، وكانت امرأته جالسة أمام عتبة الباب تحيك لزوجها شبكة صيد ، مستندة إلى الحائط الذي كان يعلوه نسيج العنكبوت ، وكانت ابنتها البالغة من العمر أربع عشرة سنة ، عند مدخل الحديقة ، مستلقية على كرسي من القش ، مائلة به إلى الوراء قليلاً ، ترقع ثياباً بالية حقيرة رقعت من قبل مائة مرة .

وكانت إلى جانبها فتاة تكبرها بعام ، تهز بين يديها طفلاً صغيراً ، لا تبدي حراكاً ولا تفوه بكلمة ، وبحذائها طفلان يبلغان من العمر السنتين أو الثلاث ، استلقيا على الأرض ، وأخذا يحفران التراب بأيديهما الغضة ، ويتراشقان به فيصيب وجههما

كان الصمت يسود الجميع ، إلا الطفل الصغير الذي حاولوا عبثاً أن ينيموه ، فقد كان يبكي باستمرار بكاءً ضعيفاً ، وكانت هناك هرة نائمة على النافذة ، وكانت عند أسفل الحائط وسادة من الزهر الأبيض يطن فوقها سرب من الذباب .

وعلى حين غرة صاحت البنت الصغيرة التي تخيط قرب الباب :

— ما ما ...

فأجابت الأم : ماذا تريدين ؟

قالت : ها هو ذا

وقد كن في جزع منذ الصباح ، ذلك لأن رجلاً غريباً كان يطوف حول الدار ، وهو رجل مسن تبدو عليه دلائل الفاقة والشقاء ، شاهدنه عند ما صحبن الأب إلى قاربه الذي يصيد فيه ، إذ كان جالساً فوق حجر قريباً من الدار ، ولدى عودتهن من الشاطئ شاهدنه أيضاً جالسا ينظر إلى الدار .

وكان يبدو عليه أنه مريض بائس ، فقد لبث ساعة دون أن تبدو منه حركة ، وما كاد يلاحظ أنهن ينظرن إليه بريبة ، حتى نهض وسار يجر رجله ،

ولكنه رُئى بعد قليل عائداً بخطواته البطيئة ، ثم جلس فى مكان أبعد من مكانه الأول ، كأنما يريد أن يراقبهن .

أوجست البنات خيفة ، وزاد بالأم الجزع لأنها نشأت على الخوف ، ولأن زوجها لوفيسك لا يعود من البحر إلا عند هبوط الظلام

كان زوجها يدعى لوفيسك وهى تدعى مارتن ، ولدى زواجهما دعيا أسرة مارتن لوفيسك وذلك أنها تزوجت للمرة الأولى نوتياً يدعى مارتن ، كان يذهب كل صيف إلى الأرض الجديدة يصيد نوعاً خاصاً من السمك ، فرزقت منه بعد مضىّ سنتين على زواجهما بنتاً صغيرة كان عمرها ينيف على ستة أشهر عند ما اختفى مركب «الشقيقتين» ذو الساريات الثلاث الذى كان يقل زوجها ، وانتظرت أن يأتيها خبر عنه فلم تسمع عنه شيئاً ، ولم يعد أحد من البحارة الذين ركبوا معه فاعتبر مفقوداً ، وانتظرت مارتن زوجها ست سنوات تقوم بأود ابنتها بصعوبة ومشقة ؛ وإذ كانت باسلة وحسنة السمعة ، خطبها لنفسه أحد صيادى البلدة واسمه لوفيسك ، وكان أرمل يعيش مع ولد له ، فتزوجته ورزقت منه طفلين فى ثلاث سنوات ، وعاشا بكد وجهد ونصب لأن الخبز كان غالى الثمن ، فكانوا يأخذون ما لا بد لهم منه يشترونه بالنسيئة ، وكاد اللحم أن يكون غريباً عن الدار زمن العواصف والأنواء ، وكانت صحة الأطفال برغم ذلك حسنة حتى أنه كان يقال : إن أفراد أسرة مارتن لوفيسك شجعان ، فإن مارتن تتحمل المشاق ، ولوفيسك ليس له نظير فى الصيد

وكانت البنت جالسة على السياج فقالت :

— أكبرظنى أنه يعرفنا ومن الممكن أن يكون بعض فقراء بلدة « إيبرفيل » أو بلدة « أوزيبوسك »

ولكن الأم كانت على تمام اليقين من أنه ليس من تلك الديار . وظل الرجل على حالته الأولى لم يحد بعينيه عن الدار ، فغضبت مارتن وأكسبها الخوف شجاعة ، فتناولت مجرفة وذهبت إليه وصاحت به قائلة :

— ماذا تفعل هنا ؟

فأجاب بصوت متهدج :

— إننى أتفيأ الظلال ، فهل أزعجتك ؟

قالت :

— لماذا تجول حول الدار كالمتجسس ؟

فأجابها بقوله :

ليس بودّى أن أوذى أحداً ، أفمن المحظور أن أجلس على قارعة الطريق ؟

وسمعت جوابه ، فلم تحر جواباً وعادت أدراجها إلى الدار

كان النهار يمضي ببطء ، واختفى الرجل وقت الظهيرة ، ثم عاد فى الساعة الخامسة تقريباً ، ولم يروه فى المساء قط

ولما عاد لوفيسك عند هبوط الظلام ، سردن على مسامعه ما رأين فقال :

— من الممكن أن يكون فارًّا من أحد ، أو أن يكون أحد الأشقياء ... ونام لوفيسك بلا انزعاج ، بينما كانت زوجته تفكر فى هذا الأفاق الذى نظر إليها بعينين مضحكتين

وفى الصباح كان الهواء شديداً ، فرأى النوتىّ

أنه لا يستطيع الإبحار ، وقرر أن يبقى فى الدار ليمين امرأته فى صنع الشبكة

وقُرب الساعة التاسعة ، عادت بنت مارتن الكبرى ، وكانت قد ذهبت تشترى خبزاً ، عادت مسرعة وجلة مذعورة وصاحت قائلة :

— ماما ... ها هو ذا

فاضطربت الأم وشحب وجهها وقالت لزوجها :

— إذهب إليه يا لوفيسك ، وقل له لا يضايقنا هكذا ، فإن منظره يبعث فى نفسى شعوراً غريباً . وكان لوفيسك صياداً كبيراً ذا لون أسمر ولحية حمراء وعينين زرقاوين وعنق قوى ، يرتدى الصوف دائماً خوفاً من الريح والمطر فى عرض البحر ، فخرج بهدوء واقترب من الأفاق ، وكانت الأم والبنات ينظرن إليه من بعيد بقلوب واجفة ، وبعد قليل من الزمن ، أبصرن الرجل المجهول ينهض فجاءة ويسير مع لوفيسك نحو الدار

فشدهت الأم وذهلت ، وعادت إلى الوراء ، فقال لها زوجها :

— إعطيه قطعة خبز وقدح نبيذ ، فإنه لم يأكل مذ أمس الأول . ودخل الرجلان الدار ، وتبعتهم المرأة وأولادها ، وجلس الأفاق وبدأ يأكل دون أن يرفع رأسه ، والكل ينظرون إليه

وقفت الأم تحدّق فى وجهه ، واستندت ابنتاها إلى الباب ، حاملة إحداهما الطفل الصغير ، وعيناها لا تفارقانه ، وانقطع الطفلان الجالسان فوق رماد الموقد عن اللعب بالقدر السوداء كأنهما يريدان أن يتأملا أيضاً هذا الغريب

تناول لوفيسك كرسياً وقال يخاطبه :

— هل أنت قادم من مكان قصىّ ؟

— أتيت من هنا

— ما شيآً ؟ وبحالتك هذه ؟

— نعم ما شيآً لأننى لم أجد ما أركبه

— إلى أين أنت قادم ؟

— إلى هنا

— هل تعرف هنا أحداً ؟

— ربما

وصمت الرجلان ، وكان الغريب يأكل ببطء برغم جوعه ، ويتناول جرعة من النبيذ بعد كل لقمة من الخبز . كان وجهه شاحباً متغضناً ، تظهر عليه سيماء التعاسة والشقاء

وفجاءة قال له لوفيسك : ماذا تدعى ؟

فأجاب ولم يرفع رأسه :

— إسمى مارتن

فعرت الأمَّ قشعريرة غريبة لدى سماعها هذا الاسم ، وخطت خطوة للأمام كأنها تريد أن ترى الغريب بوضوح ، ووقفت إزاءه متهدّلة اليدين ، فاغرة الفم ، ولم يقل أحد شيئاً ، وأخيراً قال لوفيسك:

— هل أنت من هنا !

فقال : نعم . ثم رفع رأسه فالتقت عينا المرأة بعينيه ولبثتا عالقتين بها طويلاً دون أن تتحوّلا ، ثم صاحت الأم على حين غرة بصوت ضعيف مرتجف :

— هذا أنت يا زوجى ؟

فأجاب بهدوء وبطء :

— نعم ، هأنذا

ولم يتحرك ، بل راح يُكمل مضغ خبزه

وكان لوفيسك مذهولاً فقال بتلعثم :

— هذا أنت يا مارتن ؟

فقال الآخر بسذاجة وبساطة :

— أجل ، هأنذا

قال الزوج الثاني :

— من أين قدمت إذن ؟

فأجاب الأول :

— من جنوب إفريقية . غرق المركب فنجونا بقطعة خشب : بيكار وفاتينيل وأنا . ثم نزلنا بلاد المتوحشين الذين أسرونا اثنتى عشرة سنة ، وقد مات رفيقاى ، ثم أنقذنى أحد السياح الإنكليز وقادنى إلى هذه القرية ، وهأنذا هنا

فأخذت مارتن تجهش بالبكاء ، وخبأت وجهها فى مئزرها

وقال لوفيسك :

— ماذا نصنع الآن ؟

قال مارتن :

— أأنت زوجها ؟

أجاب لوفيسك :

— أجل . ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر ، ولم ينبسا ببنت شفة

وأخذ مارتن يتأمل الأطفال المحيطين به ، ثم أشار برأسه إلى البنتين وقال :

— أهما ابنتاى ؟

فقال لوفيسك :

— نعم ، إنهما ابنتاك

فلم ينهض ولم يعانقهما ، واكتفى بقوله :

— يا لله ! كم هما كبيرتان !

فقال لوفيسك :

— ماذا نصنع الآن ؟

فتلعثم مارتن ، ولم يدر ما يقول ، وعزم أخيراً فقال :

— سأفعل ما يعجبك ، إذ أنى لا أود أن أجلب لك السوء . إن وجودنا فى دار واحدة ضار لكلينا: أنا لى ابنتان ولك ثلاثة ، كل منا يأخذ أولاده . بقيت الأم فهل هى لى أم لك ؟ أنا أرضى بحكمك ، ولكن الدار لى لأن والدى تركها لى ، ولأنى وُلدت فيها ، وهى مسجلة باسمي عند كاتب العدل

وكانت مارتن تبكى باستمرار ، وتخفى نشيجها وشهيقها فى نسيج المئزر الأزرق ، واقتربت البنتان الكبيرتان من أبيهما ، وتأملتاه باضطراب . وكان قد أتم تناول طعامه فقال بدوره :

— ماذا نصنع الآن ؟

ففكر لوفيسك وقال :

— نذهب إلى الكاهن ونرى ما يقول

فنهض مارتن . ولما اقترب من زوجته ألقت بنفسها على صدره منتحبةً وقالت :

— زوجى ! هاك أنت يا مارتن ، يا زوجى التعس

وأخذته بين ذراعيها كما كانت تفعل فيما مضى وعادت بها الذكريات إلى سن العشرين عند تفتح زهرة حبها الأول . ونال هذا المشهد من نفس مارتن فقبّلها ، وراحت البنتان قرب المدخنة تصيحان لدى سماعهما بكاء أمهما ، وصاح الطفل الرضيع وهو فى ذراعى صغرى بنات مارتن بصوت حادّ ، ووقف

لوفيسك ينتظر ختام هذا المشهد ثم قال :

— هيا بنا

فترك مارتن زوجته ، ورأته الأم ينظر إلى ابنتيه فقالت لهما : قبّلا أباكما

واقتربتا منـــه بميون جامدة ، وكانتا ذاهلتين وخائفتين ، فقبل مارتن كلا على حدة قبلة قروية صاخبة

ولما رأى الطفل الصغير هذا الغريب يقترب منه أخذ يصيح صيحات حادة تنم عن اضطرابه وارتجافه

ثم خرج الرجلان ، ولـما مرا أمام مقهى التجار ، قال لوفيسك :

— أندخل فنشرب شيئاً ؟

قال مارتن : أفضل ذلك

ودخلا ، وجلسا فى المقهى الذى ما زال فارغاً من زواره ، وقال لوفيسك :

— إيه يا شيكو ، هات كأسين من النبيذ الجيد . هذا مارتن قد عاد ، وهو زوج امرأتى كما تعلم ، مارتن الذى ذهب فى مركب « الشقيقتين » ولم يعد

وأقبل صاحب المقهى يحمـل ثلاث كؤوس بإحدى يديه وزجاجة بالأخرى ، واقترب منهما ، وكان رجلاً بطيناً ، وافر الدم ، منتفخ الجسم من وفرة الشحم ، وقال بصوت هادئ : إذن ها أنت ذا قد عدت أخيراً يا مارتن

فأجاب مارتن : أجل ...

ناجى الطنطاوى

الزوجة الجديدة

عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان على المنضدة المصنوعة على الطراز اليابانى موقد يغلى فوقه وعاء من الشاى وبجانبه فنجانان وزجاجة من الروم

وكانت الكونتس تراقب صنعه وهى تنظر إلى وجهها فى المرآة وترتب شعرها حين دخل الكونت « دى سالور » فرمى بقفازيه وألقى قبعته . وابتسمت الكونتس ابتسامة سرور عند ما التفتت إليه وأصابعها الصغيرة البيضاء ترفع عن جبينها الناصع خصلة من الشعر الذهبى . ونظر إليها متردداً فى القول كأن خاطراً هاما يشغل ذهنه ثم قال : « هل وجدت الالتفات الكافى فى هذه الليلة ؟ » فقالت الكونتس : « أرجو ذلك »

ثم تناول مقعداً وجلس أمامها وأمسك بقطعة من الكعك وقال : « لقد كان ذلك التصرف محزناً »

فقاطعته قائلة : « وما الذى كنت تريد ؟ هل كان يحسن أن يضحك الناس منا ؟ »

قال : « كلا يا عزيزتى ولكننى أعنى أنه لم يكن يليق أن يأخذ المسيو دى برويل بذراعك ويذهب . ولو كان من حقى أن أمنعه إذ ذاك لمنعته »

فقالت : « كن طويل البال . إن آراءك اليوم ليست كآرائك من عام . وهذا كل ما فى الموضوع . ولما رأيتك تتخذ خليلة ورأيت الحب بينكما ظاهراً اعتقدت أنه لا يسوءك أن يلتفت إلىّ إنسان . وقد شكوت إليك فى ذلك الحين كما تشكو إلى الآن . ولكننى كنت أكثر حكمة منك ، فقلت : إن علاقتك بمدام دى سيفرى تسبب لك نفسك ألماً . وقلت لك إنك تعرض للاستهزاء . فماذا كان جوابك؟

لقد قلت لى فى صراحة إنك حر وإن الزواج فى نظر الطبقات الراقية إنما هو مظهر اجتماعى وليس عقداً أدبيا . ألم يكن هذا جوابك ؟ وأفهمتنى أن خليلتك أفضل منى وأرق أنوثة — لقد كان هذا هو تعبيرك (أرق أنوثة) واتفقت منذ ذلك العهد معى على أن نعيش فى منزل واحد على أن يكون كل منا منفصلاً عن الآخر تمام الانفصال ، ولم تكن بيننا رابطة إذ ذاك سوى ابننا الذى يتربى بيننا وقلت لى فى جلاء إنك لا تعنى إلا بالمظاهر وإن لى أن أتخذ خليلاً على شرط أن يبقى الأمر مكتوماً . ثم كلمتنى عن مهارة النساء فى التستر الخ ، وإننى لأفهم مركزك تمام الفهم فقد كنت فى ذلك الوقت مدلهاً بحبك لمدام دى سيفرى وكنت ترى عقد زواجنا الشرعى يحول بينك وبينها ، وكنت ترى أيضاً أنه لا مبرر لما تنفقه علىّ من المال بسبب هذا العقد ، ولهذين السببين كرهتنى وعشنا منفصلين وكنا نستقبل الناس معاً ولكن لكل منا مأواه فى المنزل . على أنك منذ شهر أو شهرين أخذت تمثل دور الغيرة فما معنى ذلك؟

قال الزوج : « إننى يا عزيزتى لا أمثل دور الغيرة ولكنى أخشى عليك تعريض نفسك للخطر فأنت صغيرة وأنت مخاطرة ، وإننى أخاطبك كصديق وأرى فى القول الذى تقولينه كثيراً من المبالغة »

فقالت : « كلا ، لا مبالغة فى قولى فأنت قد رخصت لى بأن أفعل مثل فعلك »

قال : « أرجو ... » فقاطعته قائلة : « دعنى أتكلم ، لقد رخصت لى بذلك ولكنى لم أفعل ، فليس لى خليل ولكنى منتظرة . إننى أبحث ولكنى لا أجده . إننى أريد ظريفاً .. أريد أظرف منك . إننى بالقول الذى قلته الآن أمدحك مديحاً لم تفطن إليه »

قال الزوج : « يا عزيزتى إن كل ما تقولينه الآن مزاح لا محل له هنا » فقالت : « إننى لست أمزح فإنك سمحت لنفسك بأن تكون من ذوى القرون »

قال الكونت متغيظاً مهتاجاً : « كيف تستعملين مثل هـذه الألفاظ ؟ فقالت الزوجة : « كيف أستعملها ؟ أنت قد ضحكت ملء شدقيك لما قالت مدام دى سيفرى عن زوجها إنه من ذوى القرون »

قال : « ولكن اللفظ الذى يقبل من دى سيفرى لا يكون مقبولاً منك » فقالت : « كلا ولقد سرك هذا الوصف وأضحكك عند ما قيل عن دى سيفرى وهو الآن يسوءك عند ما يقال عنك . وليس يهمنى هذا اللفظ بعينه وإنما أريد أن أعرف هل أنت الآن على استعداد ؟ »

قال : « على استعداد لأى شىء ؟ » فقالت : « ألست على استعداد لتكون ممن يقال فيهم هذا الوصف ؟ إن الذى يضحك عند ما يوصف أحد أمامه بهذا الوصف لا يعود إلى الضحك عند ما يسمع هذه الكلمة بعد أن يصير هو نفسه متصفاً بها »

قال الكونت : « تعالى يا عزيزتى نتكلم بعقل ونبحى المسيو برويل إلى أن ما فعله الليلة غير لائق » فقالت : « إذن فأنت غيران »

قال : « كلا ولكن لا أحب أن أكون فى مركز مخز كالذى كنت فيه بالأمس » فقالت : « وهل شعرت بأنك تحبنى فى وقت من الأوقات ؟ »

قال : « إن الإنسان قد يحب من هى أقل بكثير منك فى الجمال » فقالت : « إذن فهذا شعورك نحوى ! لكننى لا أشعر نحوك بشىء من الحب »

فوقف الكونت ثم دار حتى صار خلف زوجته وقبل قفاها فالتفتت إليه وأبعدته عنها ونظرت إليه نظرة غضب وقالت : « ليس بيننا شىء من ذلك . إننا منفصلان »

قال : « تعالى يا عزيزتى . لا تغضبى فقد فتنت بك مدة طويلة ولك عينان . . . » فقاطعته قائلة : « عينان تفتنان المسيو دى برويل »

قال : « أنت قاسية جداً وليس فى الدنيا أجمل منك » فقالت : « دعنى فأنت صائم »

قال : « لست أفهم ما تعنين » فقالت : « أعنى أن الصائم يجوع وأن الجائع يريد أن يأكل من أى شىء سواء وافقه فى وقت آخر أو لم يوافقه . وقد أهملتنى مدة طويلة ثم تريد أن تتذوقنى الآن »

قال : « لماذا يا عزيزتى تخاطبيننى بهذه اللهجة ؟ »

فقالت : « لأنى أعلم أنه بعد انقطاع صلتك بمدام سيفرى اتخذت على التوالى أربع خليلات من بينهن خياطة وممثلة . ولست أعلل مسلكك اليوم إلا بأنك صائم »

قال : « لا بل سأكون صريحاً . إننى عدت إلى حبك وأحببتك إلى أقصى حد » فقالت : « لقد أخطأت . فقد انتهى كل شىء بيننا . ولست أنكر أننى زوجة ، ولكننى زوجة لها الحرية الكاملة فى أن تفعل كل شىء . ولقد كنت الليلة مدعوة

إلى موعد فإذا شئت فضلتك على صاحب الدعوة بنفس الثمن »

قال الزوج : « لست أفهم » فقالت : « سأفهمك؛ فقل لى ألست جميلة مثل صاحبتيك الخياطة والممثلة ؟ »

قال : « أجمل منهما ألف مرة » فقالت : « أخبرنى بالحق كم أنفقت عليهما فى ثلاثة أشهر ؟ »

قال : « لست أفهم » فقالت: « بكم اشتريت لهما حلياً ومجوهرات وكم أنفقت فى المطاعم والمسارح؟ »

قال : « لست أستطيع أن أجيبك ولكنى أنفقت كثيراً » فقالت : « ألم يكن متوسط ما أنفقته على إحداهما فى الشهر خمسة آلاف فرنك ؟ »

قال : « نعم وهذا تقدير معتدل » فقالت : « إذن فيا صديقى العزيز أنا أقبل بهذا الثمن أن تتخذنى خليلة مدة شهر يبتدىء من الليلة »

قال الزوج : « لا بد أن تكونى مجنونة يا مرغريت فقالت : « إذا كان هذا جوابك فأرجو أن تتركنى وتنصرف »

ثم وقفت الكونتيس ومشت نحو غرفة النوم فسكبت فى السرير زجاجة من العطر والتفتت فرأت الكونت واقفاً بالباب وهو يقول : « ما أجمل هذه الرائحة ! »

قالت : « هذه رائحة السرير العادية ولم يتغير شىء فى المنزل » فقال : « أصحيح هذا ؟ ! إنها لرائحة زكية »

قالت : « ربما ! ولكن أرجو أن تترك الغرفة لأنى أريد أن أنام »

قال : « يا مرغريت ! » فأجابته : « أترك الغرفة ! ثم لم تعره التفاتاً بل نزعت ثوبها فبدا ذراعان ملفوفتان كأنهما مصنوعتان من العاج . ودنا منهما الكونت فقالت : « إبتعد وإلا أبعدتك »

فزاد دنواً منها ، ولكنها أظهرت الغضب ، وتناولت زجاجة من زجاجات العطر ورمته بها فأخطأته ولكن العطر انسكب فوق ثيابه فصاح : « هذا سوء أدب » فقالت : « دونك الشرط ... خمسة آلاف فرنك » ...

قال : « أيدفع الزوج لزوجته الشرعية أجراً ؟ »

فقالت : « إذا كان هذا حماقة فإن أشد الحماقات أن يدفع للخياطات والممثلات وله زوجة شرعية »

ثم جلست الكونتس على المقعد ونزعت جوربها وأخذ ينظر إلى جمال رجليها ويقول : « إنها لفكرة مضحكة تلك التى تبدينها »

قالت : « أية فكرة ؟ » فقال : « دفع خمسة آلاف فرنك »

قالت : « ليس فى الدنيا شىء طبيعى أكثر من هذا . إن أحدنا غريب عن الآخر كما أردت أنت ، وليس فى وسعك أن تتزوج منى لأننا متزوجان ، وليس لك أن تعطينى أقل مما تعطيه للأخريات »

ثم قامت وقالت: « أرجو أن تخرج وإلا استدعيت الخادم لإخراجك »

فوقف الكونت واجماً مقدار لحظة ثم ألقى إليها بكيس نقوده وقال : « خذى هذا ففيه ستة آلاف فرنك »

فضحكت وهى تتناول الكيس وقالت : « خمسة آلاف فرنك كل شهر . تذكر يا كونت وإلا فلتعد إلى خليلاتك . وربما ... ربما إذا أعجبتك الحال طلبت الزيادة .

عبد اللطيف النشار

قصة واقعية

للكاتب الانجليزي بنيامين دزرائيلي
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كنت أرفل فى أثواب الصحة والعافية عند ما كنت صبياً ، وكنت إلى هذا خيالىّ الطبع أهيم بالتفكير والتأمل . لذا كان من دأبى أن أتسلل فى غفلة من أترابى الصغار إبان لهوهم ولعبهم إلى غابة ذات ظل ظليل ، وهدوء شاعرى جميل ، وأنصت إلى نعيب الغربان ، وشدو الطيور ، التى يبدو أنها كانت تهيم بالعزلة هيامى بها

وطال بى البقاء ذات مساء . وحذرتنى ساعة الكنيسة القريبة أكثر من مرة من تأخرى ، ونبهتنى إلى وجوب العـودة إلى مثواى . كان السكون مخيما والصمت شاملاً حول تلك الطبيعة الساحرة ، لذلك لم أشأ أن أعكر صفوها بأقل حركة تبدر من جسدى المستقر الساكن

وزعنى من تأملى شبح أنثى ظهر أمام ناظرى فجأة ، امرأة هيفاء طويلة القد راحت تسدد نحوى النظرات الحزينة الحائرة . كانت فى أثواب بيض من الرأس إلى القدم ، فى هيئة لم أرها قط من قبل؛ وكان فستانها طويلاً فضفاضاً ، له حفيف كان يسمع فى أثناء غدواتها وروحاتها بين الأشجار الشجراء كأنما قد صنع من حرير غال ثمين وأحسست قلبى يشتد وجيبه كأنى فى دور النزع والاحتضار . وكان فى مكنتى أن ألتمس للفرار سبيلاً ، بيد أنها كانت جميلة فتانة ، وجهها يشع النور ، وأنفاسها تَبُخّ المطر ، وقامتها تبعث الإكبار والإعجاب ، وهيئتها تفيض على المكان روعة وجلالاً ، وتنفث فيه سحراً وجمالاً . لذلك لم أحاول أن أفر منها ، أو أنجو من الرعب الذى بثته فى جوانحى وحواسى . كان شعرها الكستنائى مصففاً حول وجهها فى أسلوب رائع خلاب إلا بضع خصلات راحت تنوس على نحرها العاجى المنور . كانت تبدو صورة رائعة خلقتها ريشة فنان صناع ، أكثر مما تبدو امرأة ذات روح . وأغمضت عينى فى قوة وعنف ، وعند ما فتحتهما كانت قد اختفت

ولست أدرى لم أحجمت عندما عدت إلى مثواى عن التحدث فى أمر هذا الشبح الجميل كما لست أعلم لِمَ دأبت على الذهاب إلى تلك البقعة — يساورنى مزيج من الخوف والأمل — لعلى أراها ثانية . واستمرت تحضر حتى فى أثناء العواصف الهوج ، والمزن الهتون . ويبدو أنه لم يكن لهما أى سلطان عليها ، فما كان المطر يمسها رذاذه ، وما كان الريح يزعجها هبوبه ، كانت تنظر إلىّ نظراتها الحلوة ، ثم تمر فى صمت كالخيال . وكانت مرة بقربى نكاد — أنا وهى — نتماس ، فهبت خصلات شعرها ومست خدىّ ؛ ومع ذلك لم أستطع أن أتحرك أو أكلمها .

وسقطت مريضاً محموماً . ولما أن تماثلت للشفاء سألتنى أمى ، وألحفت فى السؤال ، عن تلك السيدة الطويلة التى كنت أهذي بها أثناء الحمى الشديدة

ولا أستطيع أن أصف لك اليأس الذى منيت به

فى خيالى ، والخيبة التى أسفرت عنها آمالى عند ما علمت أن ذلك لم يكن شبحاً من الأشباح ، ولا طيفاً من الأطياف ، وما كان إلا امرأة حية من لحم ودم ، ليست شابة صغيرة برغم نظراتها الحلوة الفتية . إذ أن الحزن العميق الذى أترع نفسها ، والصدمة الشديدة التى منى بها قلبها، أبقيا على جمالها وحسنها .

عند ما ارتد جيش الثوار مدبراً عقب هزيمته المنكرة ، تخلف فى هذه الغابة التى كنت بها أهيم ، ضابط قعدت به جروحه الأليمة عن متابعة رفاقه ، فسقط عن جواده وأسلم نفسه للموت . وأعثر الحظ عليه ابنة السير هنرى ... فحملته بمعونة خادم أمين إلى قصر أبيها ، وكان السير هنرى من أنصار الحكومة ، بيد أن حال الضابط الجريح استدرت عطفه وإشفاقه ، ودلت جروحه على بسالة لا تنكر وشجاعة جديرة بالإعجاب . ودافعت ابنة السير هنرى عن الضابط الشاب دفاعاً حاراً ودموعها هواطل ، وأعلنت أن الواجب يحتم عليهم حمايته والتستر عليه والعناية به . وقامت هى على تمريضه (إذ ماتت أمها منذ بعيد) أسابيع عديدة . وراقبت فى لهفة أول نظرة سددها الضابط الواهن الضعيف إلى ممرضته الصغيرة معبراً عن شكره وامتنانه

وأحسبك مدركاً أيها القارئ دون أن أخبرك أنا — وقد اندملت جروحه — تلك اللحظات السعيدة التى كانت تنقضى فى القراءة ، وفى التغنى بصوت خافت لطيف ، وفى التوقيع الجميل الأخاذ على القيثارة ، وفى جمع تلك الزهور التى تقمد بامرئ جروحه عن جمعها لنفسه ، وكيف كانت تمر الأيام هادئة جميلة ، مترعة بالغبطة والسعادة لعودة الصحة وحلول الشفاء يسودها الهدوء والراحة اللذان يشملانه

لأدع كل ذلك لأتحدث لك عن يوم لم يكن ، مع كونه أجمل الأيام وأصفاها ، فى جمال أو صفاء نظرات العذراء الصغيرة وهى تتحدث بوجه مستبشر منطلق عن الوليمة التى ستولها ابتهاجاً بشفاء الضيف الكريم . قال الشاب :

— لقد حان الوقت يا سيدتى أن يقص عليك هذا الضيف الشاكر ، أسير فضلك ومعروفك ، كل قصته ، وأن يحدثك عن شخص عزيز عليه ، سيعمل معه جاهداً على إيفائك حقك من الشكر . هل لى أن أطلب إليك يا سيدتى الكريمة ، فتكتبى عنى رسالة صغيرة ؟ وقد لا أعدم فى هذا الوقت الخطير العصيب وسيلة توصلها إلى صاحبتها

فأخذت تفكر : « لأمه دون ريب » ثم سارت إليه بخطوات خفيفة وقلب خفاق ، وجلست بجواره وسألته أن يملى رسالته . بيد أنه لم يكد يقول : « زوجتى العزيزة » ، ويرفع رأسه إليها لتطلب المزيد حتى وجد أمامه تمثالاً شاحباً ممتقعاً ينظر إليه نظرة يأس قاتل ، ثم يسقط عند قدميه كجثة هامدة :

ولم تشع هاتان العينان منذ ذلك الحين السعادة والغبطة ، ولم تجب نظراتهما الحيرى الزائغة على أسئلة أبيها الملحة اللهفانة

وعاشت بقية عمرها على الحال التى رأيتها عليها رقيقة حلوة دائماً ، ولكن لم يعد الرجل الذى تسبب لها فى ذلك

وحرصت حتى أيامها الأخيرة ، على زيارة تلك البقعة التى رأت فيها الضابط الشاب أول مرة ، مرتدية تلك الثياب التى قال إنها تناسبها تماماً

محمد عبد الفتاح محمد

أسطورة "دجلة" و"الفرات"

عن الأدب التركي

بقلم الأديب محمد نذير الحسامي

« هذه الأسطورة التركية الجميلة تعد من خير ما في الأدب التركي من روائع وطرائف . فهي لا تقل في براعة سياقها ووفرة مفاجآتها الفنية روعة عن أساطير اليونان الأقدمين وملاحمهم الخرافية . وقد آثرنا إفراغها في قالب عربي متين — مع شيء من التصرف يجلو ما يغشاها من غبار الارتباك ويجري مع الواقع المشاهد على عرق واحد — ليطلع قراء العرب وأدباؤهم على هذا اللون الجديد من الأدب القصصي المحور ... »

كان في الزمن القديم ملك عظيم اسمه « آرارات »(١) يبسط سلطانه على الأصقاع الواقعة في جنوب ققفاسيا وقد اتخذ لرأسه عمامة بيضاء تناطح السماء لتكون رمزاً لجلاله المتسامي وجبروته المنيف . فكنت تراه في مجثمه المهيب — وقد امتدت جبته الخضراء إلى سيف البحر(٢) — فتخاله أحد الآلهة برم بملكوته الأعلى ، فنزل إلى الحياة الدنيا واختار هذه البقعة الجميلة — التي شملها بالعظمة والوقار — دون غيرها من بقاع الأرض .

وكانت له بنت اسمها « الفرات » أي السيل الذهبي نسبةً إلى لون شعرها الكثيف المتموج الذي كان يبدو للرائي كأنه خيوط ضوئية نسلت من ضفائر الفجر .

وكانت جميلةً غضة كاحدى عرائس النعيم ، وذات جاذبية رائعة يبطل بجانبها مفعول فتنة (فينوس) وينتسخ معها تأثير السحر والساحرين ...

وقد ساعد على تطرية شبابها الباكر ، أنها من لدن طرفت عينيها الحياة لم تعرف غير الدعة وخفض العيش . فقد ربيت في سرير من السحاب ، وعلى فراش من الطحلب الوثير ...

أما صواحبها في غدواتها وروحاتها ، فكن أسراب الغزلان؛ ترتع معهن في المروج وتراكضهن بتلطف وإيناس تحت ظلال أشجار الصنوبر والكرز، فإذا جنهن الليل استسلمت إلى الرقاد الهنيء على هدهدة البلابل والأطيار ...

وراها أبوها « آرارات » ريّا بأنداء الشباب مشتاقةً إلى الحياة كالزهرة أول ما تتفتح أكمامها لتباشير الصباح ، يكاد ثدياها البارزان المتحلبان شهوةً ينطقان باللذة التي تكمن فيهما وتملأ أنسجة جسمها الأملود ؛ فيطرق هنيهةً يفكر في شيء ... لا يلبث أن يستدعيها من أجل مكاشفتها به .

فلقد قطع على نفسه من قبل أن يزوج ابنته — متى أدركت — بابن ملك جبل « قاف »(١) .

---

(١) الجبل الذي ينبع منه الفرات .

(٢) البحر الأسود .

(١) جبل خرافي كان يعتقد الأقدمون أنه من أقدس جبال الدنيا وأكثرها مناعة ...

أما وقد بلغت ابنته السن الموافقة للزواج ، فليباشر إنفاذ رغبته ، وليتقدم بها ثمراً جنياً إلى ابن الملك المتعلل بوعوده والمنتظر إنجازه .

ويفاتح الأب ابنته بالأمر فتمتعض حين يقع فى أذنها اسم الفتى الخاطب ، وتعرض عن الإصغاء إلى بقية حديث أبيها معتلةً بأنها لا تفكر مطلقاً فى الانفصال عنه إلى الحياة الزوجية. ولا غرو فى هذا النفور ، فهى تُحب الفتيان الشجعان وتتغزل بسيرهم ومغامراتهم ، وقد شاهدت أمس ذلك الفتى يهرب أمام خنزير برّى دون أن يتصدّى له بالمهاجمة والمصاولة مع ما فى جعبته من نُشاب ...

فكيف ترتبط معه برباط العمر ؟... لا ! . . . إن هـذا لن يتمّ . إن غدها وشكل مصير هذا الغد ممـا يعنيها هى اختياره ، ولا يعنى غيرها أحداً فى العالم ، حتى ولا أباها « آرارات » الملك العظيم .

وصرفت ذهنها عن الانشغال بهذا العارض التافه . وراحت تقترح على الأقدار أن تواتيها برغبة نفسها وتدلها على الشاب الذى يلابس هواها والذى لم تر له وجوداً قط فى غير خيالها المبدع

وتظل على هذه الحال من هجسها وتمنيها أياماً تحول فيها نضارتها إلى شحوب يطفئ نار خديها من أثر الهم والقلق

وفى ذات مساء بينما هى سادرة فى أحلامهـا وتخيلاتها إذ ينحط على كتفها عصفور يستبهم مأتاه عليها . فتناولته بيدها تتفحص ريشه وتعبث بجناحيه ولكنه يبادرها بالكلام على دهش منها وحيرة :

— إن وراء هـذا الجبل يا سيدتى — ويشير بمنقاره إلى الجهة الجنوبية[1] — شابا فى مقتبل حياته شجاعاً لا يتهيب الموت ، فواراً كالنبع ، مصلتاً كالبرق ، يعرق كالنمر من المآزق التى تعرض له ولذلك سموه (دجلة) بمعنى السهم المنطلق

وقد نمى إليه خبرك وشأنك مع أبيك فأخذته رعدة الغضب وأشفق على هذا الجمال المنور أن يتضوّع نشرهُ فى أرض سبخة ليس فيها حاسةٌ تتذوق طيبه أو تعرف قدره ، كما أنك لامست أيضاً من نفسه — دون أن يراك — موضع الارتياح والقبول . فهو مشغوفٌ بذكرك يترصّد السوانح القريبة ليجتمع بك وينقع غلة قلبه الظمآن .

فتطرب (الفرات) لهذا النبأ الحلو ، وتكسو وجهها حمرة مشبوبة لا ندرى أهى من الخجل الذى غلب عليها أم هى اندفاع الدم بمعانى الفرح والاطمئنان؟

والواقع أنها أحست فى نفسها ميلاً شديداً نحو (دجلة) وشعوراً غامضاً ينزع بها إلى اجتلاء صورة الفتى الباغت التى أخذت هى تزينهـا له فى خلدها وتخلع عليها ألواناً شتى من الفتنة . ثم لا يلبث هـذا الشعور الملح أن يأخذ شـكلا وجدانيًّا عنيفاً فإذا الفتاة عاشقة يتملكها الوجد والهيام ولمّا تتعرف بعد إلى ذلك الحبيب المجهول الذى جن بدوره بها دون أن يبصرها أو يستمع إليها ...

وهكذا تعشق الأذن أحياناً قبل عشق العين !

ويشى السحاب بخبرها إلى (دجلة) فيتنمّر ويتشمر ويزمع المجىء إليها ولو جشمه ذلك ركوب الخطر وتناول النجم خصوصاً بعد ما جدد أمله بها لوعة الذكر ومقاسمتها إياه حرقة الغرام . فيتأهب لموافاتها

ولكن أنى له النفاذ إليها والاحتيال على لقائها وقد عمد أبوها (آرارات) — إذ تمردت عليه — إلى

[1] الناحية التى يخرج منها (دجلة)

طرف خفى من ذيل جبته وهيأ لها فيه مستقراً مسدود الجوانب يحول دون تسرب أى مخلوق إليها حتى ولو كان (دجلة) صاحب النمرات المشهورة مع الضوارى، ومُصروِّع الهوامّ بأنواعها فى المخارم والأحراج ... ؟

ولكن (دجلة) لا يأبه لهذه العراقيل إذا نصبت فى سبيله إلى (الفرات) ما دام مدرعاً بالجلد والثبات ومتزوداً برعاية الآلهة وعطفها عليه ... وهى لا تتوانى عن جبر القلوب المنكسرة ورد «الودائع» إلى أهلها

وحينما يبلغ إليها يتضعضع قليلاً إذ يراها محاطة بسياج مصنوع من الحجارة والصخور تعيا الحيل فى اختراقه لتماسكه المحكم

غير أنه لم يعوّد التراجع والاستخذاء إذا صادف صعوبة فى أمر ما يود رياضته . فليقدم إذن على تجربة جديدة فى تقويض جانب هذا السد القائم أو إيجاد ثلمة فيه على الأقل يتقحم منها على (الفرات) شغل باله ومنى قلبه .

فيتجمع جهده وينقذف على الصخور المركومة ولكن سرعان ما ينبو عنها كالسيف . وبذلك تخفق محاولاته فى عبورها فيذهب فيلقى بنفسه بين الوهاد والأغوار متضرباً جياشاً كالجدول الزاخر الذى صرف عن وجهته فراح يتعسف الطرق على غير بصيرة ملتطماً بالصخور والأحجار .

ويطول بعدها بكاء (دجلة)، ويمتد أنينه حتى يبلغ السماء كما أن (الفرات) يستمر حزنها وتلهفها وتهمل الدموع من عينيها كالسيول لا سيما وقد وقفها على قصة حبيبها المخذول حمل الرياح فى تضاعيفها زفراته وشكواه .

وفى تلك الأثناء يكون رئيس السحرة (دالو) المتتبع لمجرى حوادث العاشقين قد بلغت رأفته بهما حدها النهائى واستنفد حالهما صبره عن مد أسباب العون إليها وتخليصهما من مرابط الشقاء . فيصر على انتشالهما من الحيرة التى وقعا فيها ... ويعمل فكره الثاقب فى التوسل إلى مبتغاه بوسيلة غامضة تخفى على الشياطين ولا يفطن لها الملك الظالم

ولقد تم (لدالو) ما يريد من هدى (دجلة) و(الفرات) إلى وجه حل المعضلة التى تقوم دون تلاقيهما والتى تزداد تعقداً كلما اعتوراها بالمعالجة والتفكيك - كما تم له من قبل تنظيم السفارة بينهما بواسطة العصفور المتكلم .

كل ذلك بفضل دهائه البعيد وخبثه البارع .

فإنه ما لبث أن حار هواءً تبددت ذراته فى الفراغ وهمس فى أذن كل منهما قائلاً :

— إن الإنسان ربما لا يستطيع أن يتناول بيمينه كل ما تشره إليه نفسه — فى البلد الممسك عليه — دون أن يغلّ تلك اليمين إلى عنقه بإرادات لا تنتسب إلى ميوله واتجاهاته إما خشية الحدود المتواضع على اعتبارها أو اتقاء الألسنة ومنعاً لقوارصها الشداد . فإذا قدّر له أن يضرب فى مجاهل الأرض وأن ينعتق من القيود التى كانت تجبذه كلما همّ بالانطلاق فإنه — بلا ريب — سيقضى لبانة نفسه بمبادرته ما يشتهى واجتماعه بمن يشاء ويهوى » ، وهنا ينقطع الحديث قليلاً ثم ما يعتم أن يطرد تخالطه لهجة يتفجر منها اليقين

— والآن يا ولديّ يجب أن تتفرقا مَلياً وأن تسيرا فى طريقيكما متدابرين لا يلتفت أحدكما إلى صاحبه . فسيأتى يوم موقوت تحظيان فيه بالعناق الطيب والالتئام الدائم ...

عند ذلك يفهم كل من (دجلة) و(الفرات) الغاية ويدركان القصد فيسلكان طريقين غريبين يغاير أحدهما الآخر

ولقد يصطدمان بشتى الصعوبات عند كل مرحلة

من مراحل السير فينفى أملهما باللقاء القريب عنهما التضجر ويلهمهما التنظر ويروّح عن نفسيهما المكدودتين . كانت الأميرة (فرات) تعانى جهداً عظيما فى اجتياز رمال الصحارى ، وكانت — برغم مجاهدتها ومغالبتها بما فوق وسعها فى هذه الرحلة الشاقة — تستعلن دلائل الكلال فى زحفها المنعرج البطىء وكيف تقوى على مواجهة خشونات الحياة ومضانك العيش وهى من هى فى دلالها ورقتها وليانتها وضعف أنوثتها ؟

وأما (دجلة) فكان على عكس محبوبته يقطع الأبعاد والمسَافِفَ فى سرعة الشرر الكهربائى وانخطافه ، غير آبه للشمس المحتدمة التى تسفع جبينه المشرق وتلوح جماله الزاهر . . . فلو رآه أحد فى قفزه المتلاحق ينهب أديم الصحراء لقال : جِنّىٌ يركض لينتزع الشمس قبل أن تفوته من أفقها النائى

وفى أحد الأيام يبصر (دجلةُ) وهو جادٌّ فى انحداره إنسانة تدلف إلى ناحيته عجلى وعليها أثر الهزال من وعثاء السفر . فلا يخامره الشك فى أنها هى «هى» فيمضى إليها غافراً لهذه الصدفة المرجوة كل ما لاقاه من نصب وبلاء متناسياً من أجلها كل مجازفة ...

ويرتمى العاشقان بعضهما على بعض فى المكان المطلسم[1] بقوة عجيبة لو وقفت فى سبيلها الأسوار والقلاع لتداعت من أسسها ولطارت أجزاء فى الفضاء

ولقد حق لهما هذا اللقاء بعد ما شرياه بنوم الليل وراحة النهار . فلينعما إذن بعده بوصال العمر وألفة الأبد بعيدين عن رقابة الأب الظالم وجفوة الأرصاد مثنين فى سرهما وجهرهما بالخير على الساحر (دالو) الذى بمناصرته لهما جعلهما يظفران هذا الظفر

(١) الموضع الذى يتألف فيه « شط العرب » من تلاقى النهرين ...

الخالد . ليتناسيا الماضى ومساويه بطائفة من القبل يتراشفانها فماً إلى فم مودعيها أسرار الحب وخوالج القلب . . .

أجل ! ليتذوقا هذه النعمة البالغة نعمةَ اللقاء التى حلما بها هناك ... فى أخصب أماكن الدنيا وأكثرها رغداً وأوفرها نضرة ، فلم تتحقق ولكنها تحققت هنا ... على هذه الرمال اللاهبة التى لا تنبت الورد والرياحين التى تمتد إليها الأيدى فتذويها ثم تدوسها الأقدام ؛ ولكنها تُنبت شيئاً أسمى من ذلك وأقدس . إنها تُنبت الحرية الغالية التى لا يساويها ذهبُ المناجم ، والتى تطهّر الأرواح من أوضار المادة وتجنّح النفوس لتحلّق فى أجواز السعادة الفردوسية ...

إن هذه القفار الماحلة — التى لا عشب يزين ساحاتها ولا ماء يلمع فى جوانبها ولا بلابلَ تغرّد فى أجوائها — هى خيرٌ ألفَ مرة بالحرية التى فيها من الرياض والمروج والبساتين التى لا يتنفس فيها المرء إلا بمقدار ، ولا يكاد يتزحزح من موضعه قليلاً حتى يضغطه كابوس الرّق والاحتكار ...

وفى ليلةٍ من ليالى الصحراء الهادئة يتزوّج الاثنان (دجلة) و (الفرات) يباركهما ضوء القمر السابغ الذى يغنيهما فى حفلة زفافهما عن الشموع والمصابيح ، ويستقبلهما صفير الرياح الذى يقوم مقام الدفوف وطنين الأوتار ...

ويسير العروسان جنباً إلى جنب فى طريقهما الذى لا يعرفان مؤدّاه ، لا يكادان يصدقان أن ما هما عليه من المسرّة والطمأنينة إنْ هو إلا فى اليقظة وإن هو إلا الواقع المشهود . ويتبسطان فى الحديث عن حبهما وعن شجون هذا الحب المحفوف بالمخاطر والأشواك . ويوجسان خيفةً على هذه العلاقة المستحكمة بينهما أن تعبث بحرمتها يدُ المقادير أو أن

يقطع وشائجها تطفل البشر والتفاتهم إلى الكيد والإيذاء .

أما وقد حظيا بالعناق الطيِّب (كما تنبأ لهما الساحر دالو) وهما وجلان بعده أن يفرِّق شملهما تحرُّشٌ طارئ ؛ فليبغيا على نفسيهما إذن لينتقلا إلى جوار الأبرار وشهداء الغرام فى جنات النعيم وليركنا إلى خلود العِشرة ودوام الالتئام

وبينا هما غارقان فى هـذه الوساوس والأفكار لا يعلمان إلى أين تسوقهما أقدامهما إذا بهما فجأةً يتنبهان على جرجرة تعلو وتمتد فينظران أمامهما فتقع عيناهما على منبسط مائى فسيح يسمونه « البحر[١] » يلتجُّ بعضه ببعض ، ماله من نهاية إلا أن تكون فيما وراء الأفق . . .

ويرعشان لأول وهلة . ثم يستعيدان الخواطر التى كانت (قبل ثوان) زادهما الذى تبلغا به للوصول إلى هـذا المكان فيثقان بالحكمة التى تدبِّرها ويتأكدان من أن الآلهة هى التى تخيرت لهما هذا المصير فجعلت تلك الخواطر والهواجس كتوطئةٍ للانبعاث إليه فى رضى وقبول . . .

إذن لا بد من النزول عند ما قدر لهما . ولا بد من تقبل أوامر الآلهة وإرادتها ، لأنها هى وحدها الصائبة التى لا يتطرق إليها الزيغ والبطلان .

ومن يدرى لعل فى فنائهما العاجل — وهو فى يوم لا شك آت — ضمان غدهما فى مقاصير السماء

فليرغبا إذن فى هذه النقلة وليباشراها ، ولَنِعم ما يصنعان .

ويتقدم (دجلةُ) و (الفراتُ) متحاذيين إلى خليج[١] البحر ، وبعـد أن يتعانقا عناقهما الأخير مطلقين العنان لأحر البكاء يرميان بنفسيهما فى اللجة التى تنطبق عليهما إلى الأبد ، وهما متلاصقان تماماً كأنهما جسد واحد

وتمضى الأيام ويدور الزمان ، ويعز على الآلهة أن تدرج هذه الحادثة دون أن يظهر فيها أثر العبرة ومجال التقدير ؛ فيخطر لها أن تخلد جهاد ذلك الشهيدين اللذين فوضا أمرهما إليها ، ولم يندُّا عن مشيئتها قط

ومن أحق من المؤمن الصادق بالأجر والثواب فى الحياة الدنيا بَلهَ الأخرى ؟ . . . وتعمد الآلهة فتشق فوق موطئ أقدامهما من لدن خرجا من موطنهما إلى انتهائهما إلى البحر نهرين عظيمين تسمى أحدهما (دجلة) والثاني (الفرات) تيمُّناً باسمى الشهيدين الكريمين . . . فكانت وما زالت تفيض الخيرات والبركات على شواطئهما الخصبة كما أن ما بينهما من البقـاع كان مهد الحضارات الأولى ومنشأ الثروات الضخمة التى هى إلى اليوم مطمح أنظار الفاتحين ومحط رجائهم وأطماعهم

كذلك تجعل الآلهـة من دموعهما الأخيرة المتحجرة فى قعر الخليج لآلئ غاية فى الحسن والجودة ، تذكاراً لهما بين يدى الأجيال المقبلة ؛ تعلقها النساء فى نحورها وتزين بفرائدها وتحرص على إحرازها واقتنائها . . .

وما نزال إلى اليوم نؤم ذلك الخليج لاستخراج أثمن أنواع اللؤلؤ وأكثرها بريقاً ... أما الملك (آرارات)! أما الأب القاسى الذى أوشك أن يتصدع كالبركان من غيظ جوفه وألم نفسه فقد انتقمت منه الآلهة شر انتقام إذ قلبته جبلاً أصمَّ ينعق الخرابُ فوق رعانه وتنيخ الثلوج على شعافه صيفاً وشتاء . . .

(حمص) محمد نذير الحسامى

(١) البحر الأحمر

(١) الخليج الفارسى حيث يصب فيه النهران معا . والذى من قعره تستخرج اللآلئ الفريدة

الرداء الأبيض

للقصصي الانجليزي ستاس أومونيه
بقلم الأديب محمود المرصفي

تعريف

«ستاس أومونيه كاتب قصصى بارع عالج القصة القصيرة فأبدع في حبكها أيما إبداع فجاءت ممتعة لما يدور فيها من حوار شيق فى صورة محادثة سهلة بسيطة على غرار ما يحدث كل يوم فى حياتنا الخاصة . وتمتاز قصصه بصفات أخرى عالية — تمتاز بالمزاح الرقيق والقوة فى تحليل العواطف الانسانية المتباينة والميول المختلفة المتعارضة وحدبه على هؤلاء الذين نكبوا فى حياتهم من جراء الهوى وتباريح الغرام وعطفه على الانسانية المعذبة في هذه الحياة الدنيا »

وستاس أومونيه فوق ذلك مصور بارع ومسرحى فذ إذ صادفت لوحاته وكثير من مسرحياته نجاحاً باهراً مما جعله فى مقدمة المؤلفين المسرحيين فى انجلترا ولكنه أبدع وتفوق فى فن القصة القصيرة وله مجموعة طيبة منها وقارئوه كثيرون جداً فى أوربا وأمريكا. ووافته المنية فى عام ١٩٢٨

عندما تنتهى بهم الحياة ويبعثهم الموت إلى عالم البقاء والخلود إذذاك تقوم ذكراهم من بين السطور التى خطوها بأناملهم فتتذكر الأجيال المتعاقبة من جنسهم بالأثر الطيب الذى خلفوه والتراث الجميل الذى تركوه لهم من بعدهم عسى أن يكون لحياتهم نبراساً هادياً ومشكاة لا يخفت لها نور ومنبع لا ينضب له معين ...! ها هو ذا التذكار الخالد الذى تركه الأديب من بعده؛ وها هو ذا الأثر الناطق الذى خلفه المهارى من فنه؛ وها هى ذى الأفكار الصامتة على الحجر الذى صاغها النحات من قريحته لتشهد الأجيال بعلو كعبه وجمال صنعته !

ها هى ذى أعمالهم العظيمة التى لا سلطان عليها للزمن تخاطبهم قائلة : « احكموا بنى جنسى على ما قمت به فى سبيل خلاصكم وسعادتكم، لا شك أنكم ستنعمون بما قدمت لكم من تراث ولا شك أنكم ستقدرونه بما يستحق من التقدير ...!

ولكن وا آسفاه على ذلك الممثل الذى عاش ومات لفنه وذلك الموسيقى الذى تألم لطرب غيره ...!

لا شىء خلفوه غير هذه الذكر الفانيات التى ترقد فى ثنايا ذكرات محبيهم وأصدقائهم أيستطيع أولئك أن ينقلوا شيئاً من ذكراهم أو يخلدوا رسيساً من تراثهم ...؟!

رُبَّ قائل يقول لك « لا شك أنك طربت ليلة ما بسماع ألحان جان دى رسك أو شاهدت تمثيل ما كريدى على المسرح؟ » فترى نفسك إزاء هذا القول مضطراً — مراعاة للأدب ومجاملة للموقف — إلى قبول هذا الحكم راضياً مختاراً أما إذا كان الحال غير ذلك لأنك لم تعتد سماع دى رسك أو مشاهدة ما كريدى فليس هناك أى أثر فى قلبك أو أى فكرة فى نفسك ..!

والواقع أن الممثل أتعس حظاً من زميله الموسيقى ...! وذلك يرجع إلى وفرة المخترعات الآلية الحديثة التى ساعدت على إخراج أشجى الألحان ، وتأليف أجمل الأنغام حتى أن

النجاح فى تلحينها يختلف باختلاف الآلات وإتقان صنعتها ونوع معدنها ... ولكن الحال مع الممثل الفنان تختلف عن هذا وتتباين فلا تنفع الآلة ، ولا الاختراع وإنما اعتماده كله ينحصر فى براعة فنه وخفة حركاته وقوة تعبيره واندماج نفسه فى طبيعة دوره ! فمن يقول إن جوزيف جيفى سن أو هنرى ارفح اعتمدا ليلة مجدهما على آلة أو اختراع ؟ وا أسفاه لقد قضيا فى غير رجعة ولا ذكرى وأصبحا فى عداد أبطال الأساطير والخرافات !

جالت فى نفسى هذه الخواطر المحزنة على أثر زيارة صديقى الممثل السيد كولين برانكر .

قابلته لأول مرة فى المكتبة الأهلية فاستهوتنى هيئته الوقورة ومشيته المتزنة الجليلة

يمتاز هذا الرجل برأس طويل جميل يتوجه شعر أبيض كالثلج . وهو رفيع القامة عريض المنكبين

وكنت فى ذلك الحين دائم التردد على هذه المكتبة فأجده يلتهم تلك المجلات والجرائد التى أريد قراءتها . . .

ابتدأت علاقتى به يوم سألته عن مجلة «استعراض السبت» فأدى هذا السؤال إلى تقديم الشكر والعرفان ثم إلى التحية بالرأس فى اليوم التالى ، ثم إلى تبادل الرأى فى الطقس، ثم انحناءة جميلة منه إلىّ ثم السؤال عن صحته من جهتى .

أثارت أخلاقه اهتمامى وراعنى نبل عواطفه ورقة شعوره نحوى . وأنت إذا تحدث إليك هذا الشيخ الوقور ملك عليك حسك وشعورك ، واستهواك بظرف حديثه ونبرات صوته الجهورى ومخرج ألفاظه الواضح الجميل . يحرك فىّ هذا الرجل نبل العواطف وسمو الشعور حين أراه يعطف على كل شىء ويتأثر من أتفه الأمور . فمثلاً إذا قال لك : ما أجمل الطقس اليوم . . . ! تشعر على الأثر أن تعبيره هذا يخالف هذه التعابير السائرة المجوجة التى يتفوه بها الناس فى مختلف المناسبات وإنما هى تشبه تلك الأغنية الشجية التى ينشدها الجنود البواسل عند النصر حيث يودعونها نشوة الفرح وهزة الطرب على ما من به الله عليهم من نصر ومجد . . . ! أو إذا قال لك : أوه لشد أسفى . . . ! على أثر إخبارك إياه بحادث محزن قد حدث لك، فأنت تستطيع أن ترى الحادث برمته ماثلاً لك خلال عينى هذا الرجل العطوف وقد تخضلتا بالدمع السخين ! ...

فحزنه فى هذه المناسبة يشبه حزن أجاممنون على خيانة كليتمنسترا له

وفى ذات يوم دعانى لزيارته فى بيته المتواضع على حد تعبيره هو فذهبت فوجدته يعيش وحيداً فى عزلة من الناس، تقوم على خدمته امرأة عجوز راعه إخلاصها ووفاؤها له فأبقاها فى خدمته سنوات عديدة ... وغرف البيت تزينها تحف فنية رائعة وصور شمسية تذكارية منبثة هنا وهناك على الجدران والمناضد المستديرة الفخمة . تحققت بهذا المنظر مركزه كممثل بارع بعيد الصوت ، فلو كان هذا الشيخ الجليل مصوراً لسهل علىّ أن أحكم عليه من نظرة واحدة خلال لوحاته، ولكن ماذا تقول فى ممثل عجوز قد خصص فكره وحياته لاستعراض الماضى البعيد فى ذاكرته وفى استرجاع الزمن الغابر السحيق فى ذهنه . حقاً إنه منظر يثير الألم والحزن ويحرك فى النفس كوامن الشفقة والشجن ... !

وله هناك فى أقصى البهو صورة رائعة ممضاة باسم مالفوليو Malvolio وله عدا هذه الصورة صور

أخرى تمثله فى شخصيات مختلفة من مسرحيات شكسبير الخالدة وفى مواضع أخرى من البهو صور لزميليه تول وهنرى آرفنج وصور عديدة لمختلف الممثلين بعضهم من أعلام الفن والبعض الآخر لم أعرفهم

فهمت من سياق حديثه الممتع أن أمه كانت ممثلة فرنسية بعيدة الصوت فى عالم المسرح، وهناك على البيان تقوم مروحة فنية فى وضع جميل قد أهديت لها من الامبراطورة أوجينى Eugénie تقديراً وتشجيعاً لها . ولم يحدثنى قط عن أبيه . خرجت من عنده حاملاً أجمل الذكريات العزيزة وعولت على زيارته كل ليلة سبت من ليالى الأسبوع . ففعلت حتى توشجت بيننا علاقة وثيقة ! وما زلت أزوره إلى اليوم وفى كل مرة كان يطلعنى على مقتنياته الفنية وصوره التذكارية حتى انتهينا منها جميعاً فعمد بعد ذلك إلى القماطير وأتى لى ببقايا آثار قديمة من القماش الثمين المطرز بأسلاك الذهب الخالص وأخذ يشرح لى تاريخ كل قطعة ومناسبة إهدائها له وكيف احتفظ بها حتى اليوم يستعين بها على استرجاع الماضى البعيد كلما تاقت نفسه الصادية إلى استعراض الذكريات الحبيبة، ذكريات الأمل والشباب ! ...

وفى ذات ليلة لفت نظرى رداء صغير أبيض اللون دقيق الصنع رقيق النسيج ، ونظراً لرفع الكلفة بيننا استبحت لنفسى أن أسأله عن هذا الرداء الصغير الأبيض وهو ليس له بنات صغار حتى يقتنى مثله . لا شك أنه رداء لطفلة صغيرة . ومما استوقف نظرى أيضاً أنه كان ملفوفاً بعناية فائقة ومحفوظاً فى مكان خاص به منفرداً عن جميع القطع الأخرى ...

فأخذته بين يدى ثم أريته إياه وقلت له : ما هذا سيدى الأستاذ .؟

فنظر إلى الرداء نظرة مؤثرة ممتعضة كأنى حركت فى نفسه ذكريات مريرة لا قبل له بها وفاجأته بحادث حطم قلبه وهد من كيانه . فلما لاحظت عليه هذا التأثر أشفقت عليه وأخذت أكفكف من دمعه وأهدىء من نفسه وقلت له : « إنى آسف أيها الزميل ! لاشك أن هناك قصة مؤلمة لهذا الرداء، وكان ينبغى علىّ ألا أثير كوامن ذكرياته فى نفسك»

قلت ذلك وانتظرت رده علىّ، فاتجه نحوى وأخذ يربت على كتفى برقة ويقول لى متمتما : « كلا . . . كلا ... لا تزعج نفسك هكذا ...! »

حسناً فعلت ... سأخبرك بقصته ولكن فى غير هذه الليلة ... قال هذا وهو قائماً وطفق يمشى ذهاباً وجيئة فى عرض الغرفة، وفى صمت شامل وتفكير عميق ، وبعد قليل وقف فجأة أمامى ووضع يده العارية الأشاجع على كتفى وخاطبنى قائلاً :

— إيت إلىّ غداً مع زوجتك لنتناول العشاء سوياً ... وإذ ذاك تكون مناسبة سعيدة فأقص عليكما مأساة هذا الرداء الصغير الأبيض

وجدت أن زوجتى كانت مدعوة إلى ليلة راقصة فى ذات الليلة التى دعينا إليها من السيد برانكر، فلما أخبرتها بدعوته لم تتردد فى إلغاء دعوة الليلة الراقصة لتستطيع أن تذهب معى إلى هذا الشيخ الكريم .!

وقلت لها إن السيد برانكر رجل متوسط الحال وبيته متواضع خال من مظاهر الترف والنعيم فلا تكلفى نفسك مشاق ارتداء ثوب السهرة الثمين ولا سيما أن الدعوة خاصة بنا لا كلفة فيها ،

ولا رسميات ولا قواعد يمكن أن نؤاخذ عليها، ولكن أقوالى كلها ذهبت أدراج الرياح، وفجأة بدت زوجتى فى حلة جميلة كأنها ستذهب إلى حفلة ملكية ساهرة فلم أحتج ولم أعارض — لأن التجارب قد علمتنى أن لا فائدة من الاحتجاج أو المعارضة إذ تجر إلى شقاق وآلام لا موجب لها . فارتديت ملابسى العادية فبديت بجانبها شاذاً منتقداً من كل من يرانا من الأصدقاء أو المعارف

وشىء آخر زاد من إحراجى ودهشتى معا . ذلك أننا عند ما ذهبنا إلى دعوة هذا الشيخ وجدته مرتديا هو الآخر لباس السهرة الرسمى

جلسنا على هذا الحال نحن الثلاثة حول مائدة كل أدواتها كانت من الفضة الثمينة والبلور الشفاف الجميل، وكان يقوم على خدمتنا المرأة العجوز

على أن ثيابى وهيئتى فى هذه الليلة مما أثر فى نفسى أبلغ الأثر وأعمقه حتى نغصت علىّ جلسة نادرة ممتعة ووقتاً سعيداً مع هذا الرجل إذ كنت أشعر بأنى غريب عنهما وأنى لا يجوز لى أن أشترك معهما فى الحديث ...

دلنى مظهر الوليمة ومبلغ نجاحها على لون حياة هذا الرجل ... لاشك أنها من هذا النوع الرفيع الذى يحياه قلة الناس من الهيئة الأرستقراطية ...

وبعد الطعام دعانا مضيفنا إلى الجلوس حول الموقد حيث نصطلى بدفئه اللذيذ فى مثل هذه الأيام من الشتاء القارص، وإذ نحن كذلك حول الموقد خاطبنا قائلاً : « ليدعنى أولاً سيدتى وسيدى أن أقدم لهما قليلاً من هذا الشراب الممتاز الذى أهداه لى صديق مقدس الذكرى عندى ... » قال هذا ودلائل التأثر بادية على وجهه فهزت من نفسه ...

وقدم لى كأساً من المشروب العزيز واعتذرت زوجتى عن قبوله ولكنه ألح عليها إلحاحاً شديداً حتى قبلته أخيراً فنعم بهذا الانسجام، ثم استوى على مقعده شارد الفكر مضطرب الجوانح . وبعد برهة من الصمت الرهيب قالت زوجتى : « الآن يا سيدى أريد أن تريني الرداء الأبيض الصغير » فردَّ عليها بانحناءة كلها احترام ورقة ثم اتجه نحو البهو وجاء بالرداء ثم نشره، وهو واجم لا ينبس ببنت شفة، على مسند المقعد فقلبنا فيه النظر هنيهة قصيرة ثم قالت أليس: « ما أجمله من رداء وأروعه من ذوق ... »

فرأيناه مرة واحدة يخفى وجهه بين يديه وأخذ ينتحب نحيب الأطفال فصمتنا أنا وأليس إزاء هذا المشهد المؤثر الجليل ... يا لله ...! ما أضعف القلب البشرى ... ! يا إلهى ... لم أودعت هذا القلب كل هذه الرقة ... ؟!

لبث هذا المنظر الرهيب زهاء الدقيقة ثم رأينا الرجل يثوب إلى رشده ويعاوده الكلام ثم استطرد فى حديثه قائلاً : « ترجع يا أولادى حوادث هذه القصة إلى زمن ليس بالقصير ... حدثت أيام الشباب الغابر فى جيل غير جيلكم وزمن غير زمانكم

أظنكما تذكران فرقة الممثل الذائع الصيت « شارل كارسيد » التى كانت تجوب فى الأقاليم إذ ذاك والتى كان يستقبلها الجمهور الراقى الحساس بكل حماس وتشجيع ... وكيف لا ... وهو حين كان يشاهد رواياتها تمثل على مسرحها يلذ له أن يرى نفسه فى كل حركاته وسكناته ... فى كل عواطفه ونزعاته ... يرى فيها ميوله وآراءه وآماله وأتراحه وأحزانه وأفراحه ... آه ... ! لقد ذهبت هذه

الأيام فى غير رجعة ، أيام كان الجمهور يتهافت على مشاهدة التمثيل بكل قلبه وجوارحه قصد التثقيف والمتعة العقلية والرياضة الروحية ...

كنت تستطيع أن تقول إن هناك ممثلين فنانين بالمعنى الصحيح . . . إذ كانوا يمثلون مختلف ألوان الروايات التمثيلية من ملهاة ومأساة وتاريخية إلى كل ما من شأنه التثقيف العام ... !

كنا نضطر من شدة إقبال الجمهور على مسرحنا أن نغير برنامجنا كل ليلة وغالب الأحيان كنا نغيره مرتين فى الليلة الواحدة . . . كنت أنا وصديقى أوبن ترى O'ben Terry نحفظ عن ظهر قلب أدوار عطيل Othello وياجو Iago ونتبادل الأدوار المختلفة فى الليلة الواحدة !

آه ! ما أقسى الذكرى ... !

ثم خفض من طرفه هنيهة واستطرد قائلاً :

« كنا صديقين حميمين بما فى الكلمة من معنى ... ! لقد قضى صديقى ترى ولكنى لم أزل على عهدى وفياً مخلصاً لذكراه »

عملنا معاً على المسرح ثلاث سنوات متتاليات لم يشك أحدنا خلالها فى صدق إخلاص صاحبه أو فى وثاقة عهده . . . !

أذكر فى ليلة ما حين كان صديقى يقوم بتمثيل دور خطيب وعند ما انتهى من إلقاء خطبته كأروع خطيب فى رأيى لم يصفق له الجمهور استحساناً كما عوده ذلك فنزل وذهب تواً إلى غرفته الخاصة كاسف البال يجر أذيال الخيبة والفشل، وهناك فى غرفته أخذ يبكى وينتحب فأقبلت عليه لأسأله الخبر ... فرأيته على هذا الحال، فسألته عن سبب هذا التأثر، فأجابنى بعد تردد قائلاً : « كنت أفكر فيك أنت يا صديق وكيف يكون أثر هذا الفشل فى نفسك فتتأثر لتأثرى وتبكى لبكائى ... !

فكرا فى هذا واحكما على الصداقة والأصدقاء فى غابر الأيام ... ! وا أسفاه على هذه الأيام السعيدة أيام كان الإنسان إنساناً !

وبعد برهة قصيرة من الزفرات والحسرات وجه الكلام إلى زوجتى فقال : « أرجو من الآنسة — إذ كان متشبساً طوال الحديث بأن يدعوها كذلك — أن تلقى بالها إلى ما أعرضه عليها من تقاليد العصر الماضى ...

كان الحب فى أيام صباى ينطوى على معان كبيرة تخالف وتباين معانيه ومقاصده فى هذه الأيام، ففى هذا العصر الذى نعيش فيه وفى مضطرب حياة الناس على اختلاف أنماطهم لا ألاحظ إلا التكالب الأعمى على المادة ... تكالباً أدمى أقدامهم غير حافلين بتغذية نفوسهم بالغذاء الروحى احتفالهم بتغذية بطونهم بالغذاء المادى ! حتى صدئت وتبلدت جبلتهم فأضحت غير مهيأة للتضحية والإخاء، ولا مستعدة لأداء الواجب والثبات على الوفاء ... ! نزع من وجدانهم كل وازع دينى وكل رادع خلقى نخلت ضمائرهم من كل توبة أو ندم وتحجرت قلوبهم وغلظت أكبادهم ونضب من وجوههم الحياء والخفر ...!

أصبحوا يقترفون الإثم فى غير حرج ويجترحون السيآت فى غير طمع لطلب المغفرة . . . ! ووقرت آذانهم فلم يسمعوا صوت الله ...!

خلوا من الشهامة والمروءة ولم يعرفوا معنى الفضيلة والرجولة . . . ! جنحوا إلى شهواتهم حتى أعمت اللذات أبصارهم ، وغرتهم حياة اللهو والمجون فأمسوا أرقاء الشيطان يلعب بهم ذات اليمين وذات

اليسار ... وأصبحوا عبيداً للمطامع والشهوات ... وألقوا زمام عقولهم لأهوائهم ولم يحاسبوها على ما اقترفت من شرور وآثام حتى صدفوا عن المثل العليا التى تطمح إليها النفوس الكريمة وهى : الخير والفضيلة والجمال ؟ »

وبعد إلقائه هذه الكلمات التى انطوت على الحسرة والألم قام من مقعده، ثم خفض من صوته حتى كاد أن يكون همساً ثم أخذ يحدق فى « إليس » طويلاً واستطرد قائلاً : « كانت جميلة فارهة الجمال جذابة الملامح والقسمات مثلك يا آنستى آه ...! ما كان أعجبها من فتاة إذ كانت تحمل كل هذه الأسرار السامية الخفية ... !

كنت أنا وصديقى على هذه الحال من العلاقة الوثيقة والروح العالية التى توثق النفوس الكريمة برباط الصداقة المتين حتى التحقت هذه الفتاة بالغرفة التى كنا نعمل فيها .

كانت تدعى ويلزصوفى Wiles Sophi . وحدث بعد ما انتهينا من طوافنا فى الأقاليم أنى اعتكفت فى غرفتى الخاصة ذات ليلة وأخذت أفكر فى هذه المرأة وفعل سحرها بقلبى وسلطانها على فؤادى.

حدثت نفسى وقلت : « ترى ما هو شعور صديقى أوين نحوها ...» والواقع أنه عندما رأيناها أنا وزميلى لأول مرة تبادلنا النظرات الصامتة ، وتفاهم قلبانا فى غير كلام ، وكان كلانا تواقاً لمعرفة شعور الآخر نحو هذه المرأة الساحرة !

كدت أعزم على مفاتحتها بحبى ورغبتى فى الزواج منها من غير علم صديقى ولكن كان صوت وجدانى يرن فى أذنى على الدوام ويقول لى « إذا كنت تراعى حق الصداقة ، وتقدس حرمة الرابطة التى وشجت بين قلبيكما ووثقت من علاقتكما يجب عليك أولاً أن تتعرف شعور صديقك نحو هذه المرأة ... ! »

ومن يدرى لعله يفكر فيها مثلى ... !؟

لبثنا على هـذا الحال من التردد زهاء ثلاثة شهور ، وفى ذات ليلة لاحظت على زميلى اضطراباً فى هيئته ، وارتباكاً ظاهراً فى لهجته ، حين يراها أو يتحدث إليها فتأكدت فى نفسى من ميله لها ، وصدق عاطفته نحوها ... إذ ذاك رأيت لزاماً علىّ أن أخلى له الطريق وأتنحى ، وبذلك أراعى حرمة الصديق للصديق ... ! جمعت قواى وتشجعت فقمت من فورى فى غير تردد واتجهت نحوه ، وقلت له : « صديقى العزيز ... كن رجلاً واذهب إليها وأخبرها بدخيلة نفسك وشرف عاطفتك ونبل شعورك نحوها. ها هو ذا الطريق ممهداً والثمرة دانية القطوف ... تشجع وإياك والتردد ... » فقال لى ووجهه يطفح بشراً وسروراً : لقد أصبت يا عزيزى ، ولـكن أخشى أن تكون ... وتوقف عن الكلام ... ففهمت قصده ولـكنى لم أشأ أن أفصح ...! »

وهنا اضطربت شفتا محدثنا ، ثم دنا بمقعده إلى زوجتى واستأنف حديثه إذ قال :« لا أستطيع مهما أوتيت من قوة البيان والتعبير أن أعرض عليك صورة هذا المعبد المقدس إذ كانت تحترق فيه القلوب الفتية الوفية ويتسابق كل منا التقديم نفسه قرباناً لخلاص أخيه . . . ! كان كلانا يذوب وجداً ، ومع ذلك كان يحاول إفساح الطريق لأخيه راضياً قرير العين ويهىء له السبيل ناعماً سعيد البال ... ! حقاً كان الأمر شديد الوطأة على النفس الشابة الصادية!

ولكن هى السعادة الروحية التى تمتلج فى القلب وتثلج الصدر يشعر بهـا الصديق حين يقدم نفسه قرباناً لخلاص صديقه !

إزاء هذا الإخلاص البرىء وهذا الوفاء المتبادل النبيل قر رأينا أن نترك الأمر يلعب به الحظ ويداعبه القدر ...! فعمدنا إلى لعب الورق ولكن بعد دور أو دورين تبين أن كلينا كان يلعب فى غير اهتمام ليدع الآخر يربح ليفسح له الطريق

وبعد قليل عزمنا على لعب الشطرنج، وفى بضع دقائق رأينا أن اللعب كان صوريًّا لأن كلاً منا كان يحاول أن يُغلَبْ . . .

فضقت بذلك ذرعاً وقلت لزميلى : « يجب علينا أن نخضع لحكم القدر النزيه ، وهذا يتوفر فى هذه الزهرة القائمة فى هذا الأصيص . فإذا كانت ورقاتها زوجية فهى لك، وإذا كانت فردية فهى لى » فقبل هذا الحكم . فتناولت الزهرة الجميلة بين يدى وأخذت أنزع ورقاتها ورقة ورقة وأنا شارد اللب مضطرب الجوانح، وطفقت أعدها أمامه وهو شاخص البصر موزع الفكر حتى بلغ عددها الثامنة والخمسين. وعند ما رأى آخر ورقة تكمل العدد الزوجى سقط على كرسيه مغشياً عليه وعلت وجهه صفرة الموت، فذعرت ثم نهضت وقدمت له كأساً من شراب منعش فاستفاق وأخذ يثوب إلى رشده شيئاً فشيئاً

كان الوقت قد جاوز الفجر بقليل والناس نيام والحركة واقفة فى كل مكان . ثم خرجنا إلى الشارع فإذا بزميلى منبسط الأسارير طافح البشر لهذه النتيجة

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح هذا اليوم كنت بين يدى محبوبتى صوفى أسكب لها كل ما فى قلبى من عواطف شاردة وحب صادق وإحساس نبيل ظل محبوساً فى صدرى زهاء الشهرين . . .

وبعد ما انتهيت من كلامى شعرت بشىء من الراحة والسكينة لا أستطيع وصفهما . . . ! إذ أن هناك أشياء مقدسة عزيزة على النفس رهيبة على القلب لا يستطيع الإنسان أن يعيد تلاوتها حتى ولو إلى المقربين من أصدقائه ومحبيه !

لا أخفى عليكم حقيقة شعورها نحوى . . . إذ كان شعوراً عاديا لا لوعة فيه ولا حب ...!

وأخيراً رفضت طلبى معتذرة فى رفق وحنان آه ...! كم كانت رقيقة العاطفة رهيفة الشعور حبيبة إلى كل قلب كريمة على كل من يحيط بها من الناس

الحق أنى صعقت عند سماع رفضها حتى أظلمت الدنيا فى عينى وكدت أقتل نفسى من اليأس !

ما أعجب أمر الشباب ...! يريد أن يحظى بكل شىء فى التو واللحظة وإلا جنح إلى اليأس والقنوط . !

ومع ذلك كنت أتردد عليها الليل والنهار طوال أسبوع عسى أن أحظى بالرضا وأستولى على قلبها ولكن كانت كل مساعى فاشلة وفهمت فى النهاية أنها تشفق وتحدب علىّ ولكنها لا تحبنى ...!

عند ذلك ذهبت لزميلى أوبن وقلت له : « الآن قد آن لك أن تلعب دورك .. لقد فشلت ... فهيا .. ! فلم يقبل فى بادئ الأمر ولكنى ألححت عليه حتى رضى وذهب !

جاءنى الصديق وقال لى وهو مضطرب البال : « زميلى ... أنا لا أستطيع أن أتبين عواطفها نحوى ... هى تشفق علىَّ ولكنها لا تحبنى ... ! ! فعجبنا لهذه المرأة الغامضة المغلقة القلب ..! ومع ذلك لم نيأس فعزمنا أن نصارع عواطفها فى ميدان أكثر صراحة وأوسع رحابة حتى يستولى عليها أحدنا أو نفقدها معاً ... فرحنا نطاردها أينما ذهبت وأخذنا نغشى الأبهاء التى كانت معتادة التردد عليها تحدونا عاطفة واحدة ويجمع بين قلبينا القصد الخالص الشريف والفكرة النبيلة ... !

لبثت مطاردتنا على هذا ثلاثة شهور كانت نهايتها انتصاراً وتوفيقاً إذ أحبت صوفى صديقى حباً شديداً حتى أمست شديدة التعلق به فلا تستطيع فراقه . .

وما كان أشد فرحى وأثلج صدرى ـ يشهد الله ـ عند ما كنت أرى صاحبى سعيداً رضى النفس قرير العين باسم الثغر بهذا الانتصار العظيم الذى قدرلنا ...! وما كان أسعدنى حين يقص علىّ كلماتها العذبة ويشرح لى نبل عواطفها ، وبراءة نفسها العزيزة ... !

بعد ذلك حدث ما لم أكن أتوقعه ... قال هذا ثم استوى على مقعده ، ومر بأنامله المرتعشة خلال شعره الأبيض الناصع فى حركة كلها رقة وحنان ... ثم استطرد قائلاً : « حدث أن عماً لأوين قد مات فى استراليا ، وخلف له ثروة طائلة كان قد جمعها قبل وفاته بجهده وبخله الشديد . علم أفراد الفرقة جميعاً الثروة المفاجئة التى حطت على أوين وطرب له الجميع سوى شخص واحد ظل منزوياً فى حسرة ومنعزلاً فى ألم ... ! » ثم حدق بنظره نحو زوجتى وزفر زفرة طويلة ثم قال : « لقد عشت طويلاً فى هذه الحيـاة وذقت حلوها ومرها، ولكن واأسفاه لم أزل لا أستطيع تعرف ميول المرأة أو استكشاف أسرار قلبها الغامض المغلق ... !

هى أشبه بهذا الصندوق السحرى الذى لا نعرف ماذا يضم فى داخله ... ! إن قلبها لا حد له ولم يزل الرجل عاجزاً عن تحديده أو تعريفه ... !

قد تدهشين إذا علمت أن صوفى رفضت الزواج من أوين ··· لا لسبب آخر غير ثروته المفاجئة .. ! هى لا تحبه إلا فقيراً مثلها يعمل بجانبها فى فرقتها ! هى لن تتزوجه الآن وهو على هذا الحال من الثراء لأن الناس سيعتقدون أنها تزوجته لما له فحسب . .

وإن أنس لا أنس هذه الآلام التى أقضت مضجعى طوال أسبوع من الشتاء ، كنت خلاله موزع الإحساس بين إقناع « صوفى » وبين حبى لزميلى « أوين » ولشد ما تألمت له ورثيت لحاله حين كان يراها تصر كل الإصرار على رأيها رافضة كل مسعى

لقـد صرعت الثروة أوين فأدمن الشراب وأسرف فى لعب الميسر ، وسلك طريقاً شائناً شائكاً حقبة قصيرة من حياته الطاهرة من جراء هذه الطعنة المفاجئة !

خشيتُ على شبابه أن يذوى مبكراً وهو فى ريعانه فلم أجد علاجاً سوى أن أبحث له عن امرأة أخرى تتزوجه وهى لا شك تقبله لجاهه وثروته ، فوفقت أخيراً إلى فتاة جميلة نبيـلة القلب كريمة النفس تدعى أنا بللا. فتزوجا ووفقا فى حياتهما الزوجية توفيقاً كبيراً ، وبعد عامين من قرانهما رزقا طفلة قرا بها عيناً . . . ! لقد خبرت قلب المرأة وحللت أخلاقها فى هذه الفترة فرأيت منها العجب . رأيت صوفى التى رفضت الزواج من أوين لأنه كان غنياً والتى كانت ترتعد فرائصها حين ترى أنا بللا زوجته، رأيتها تتحول بكل حبها وإعزازها إلى الطفلة ابنتها فأفاضت عليها من حنانها وعطفها كل قطرة من قلبها ··· انقطع أوين عن العمل فى الفرقة وتفرغ لحياته الزوجية . ورجعنا أنا وصوفى إلى العمل فى المسرح ، فحاولت أن أوقعها فى شراكى هذه المرة إذ أصبح الطريق خالياً لى فلم أوفق مطلقاً ـ كنت عبداً طول عشر سنوات كانت هى خلالها أسيرة

لحب طفلة صديقى أوبن ... ما أعجب هذا القلب ! كنت أراها تنفق كل دانق على الهدايا والدمى الصغيرة والملابس الرشيقة لتقدمها إلى الطفلة ... قد يبدو ذلك غريباً ولكن الحقيقة كانت كذلك!»

ولأول مرة طيلة هذا الحديث قالت زوجتى : « ليس فى الأمر غرابة ... ! » فشاعت على وجه يرنكر بسمة تنم على الدهاء والرقة معاً ... ! ثم قال:

« كنت أحاول أن ألفتها إلى حبى بشتى الوسائل ولكنها كانت منصرفة عنى بكليتها إلى شؤون الطفلة

أجل ...! إن الرجل فى كل علاقاته مع المرأة يجد نفسه المغلوب على أمره دائماً ! تطوى المرأة فى نفسها تلك الإحساسات الغامضة التى تعينها فى غير واسطة على فهم حقيقة الرجل وصدق عاطفته ودخيلة نفسه ونوازع قلبه ! منحتها الطبيعة هذا الشعور نظراً لضعفها ونظراً لقوته !

تعرفت صوفى بأنا بلا وتوثقت بينهما عرى المودة فأصبحتا صديقتين مخلصتين، وأخذت صوفى — كلما قمنا برحلة خارج المدينة — تبعث لها الرسالة تلو الرسالة مودعة إياها كل عواطفها وأشواقها

مرت الأيام سراعاً ونحن على هذا الحال من العلاقة حتى حدثت الفجيعة الكبرى : لقد قضى أوبن بعد عامين من زواجه إذ قام ذات ليلة — على أثر توعك خفيف قد شعر به — ليتناول بعض المنعشات فأخذ وهو فى حمى المرض بعض الزجاجات التى تحوى سائل الأدمونيا الخاص بالتصوير إذ كانت زوجته مولعة بهذه الهواية — فانطلق مذعوراً إلى الطريق العام وهو بملابس النوم ولكنه لفظ النفس الأخير بين ذراعى أحد الشرطة الذى استغاث به !

ارتسمت صورة هذه الفجيعة على محيا هذا الشيخ الوقور وبدا فى يأس شديد حتى سحت مدامعه ومدامعنا رثاء لهذا الصديق العزيز !

وبعد قليل هدأ وكف عن البكاء ثم قال فى لوعة وتأثر :

بهذا الحادث المحزن طويت أسعد أيامى وأجمل أوقاتى فى كل أدوار حياتى !

كما زاد هذا الحادث من حب صوفى للطفلة « لوسى » حتى أصبحت لا تطيق لها فراقاً ! كانت لوسى تعيش مع أمها فى خفض من العيش متقلبة فى أعطاف النعيم إذ ورثت عن أبيها تلك الثروة الطائلة المشؤومة

درجت الطفلة وشبت فى هذا الجو الخانق جو اللهو والنعومة والترف فخشيت صوفى عليها من هذا الوسط وحاولت من إصلاحها وهدايتها إلى سبيل الفضيلة وعملت كل مافى استطاعتها لتهذيبها وتثقيفها لتجعلها صورة أبيها وقطعة من حبيبها الفاضل الكريم ، ولكنها فشلت فى كل محاولاتها إذ كان فى الطفلة استعداد لتكون على غرار أمها فى تقديس حياة اللهو والمجون . شبت الطفلة غريرة فاسدة الخلق مدللة ناعمة تقضى كل أوقاتها فى اختيار ملابسها وتجميل وجهها وتصفيف شعرها على كل الأنماط . تحاول وهى فى هذه السن المبكرة البريئة أن تعجب الرجال بحركاتها وخفتها ورعونتها ورشاقتها فدرجت وفى نفسها هذه الميول المبتسرة والشهوات الباطلة والنزعات السافلة لما يحيطها من إعجاب مزيف من الرجال وتدلل مصطنع من مغرريها !

حقا لقد كانت تبهر الأنظار بجمالها الذى ورثته عن أبيها وتسبى القلوب بألحاظها الفتانة وتسحر

الرجال بلباقتها فى الحديث وإتقانها التراشق بالنكات والفكاهة !

فكروا يا أولادى فى طفلة لم تتجاوز العاشرة من عمرها ولا هم لها إلا العناية بالثياب والتجمل والمرح الماجن واللهو الآثم !

كانت هذه الطفلة الصغيرة تحب «العمة سوفى» لأنها كانت تجزل لها الهدايا والملابس فى كل المناسبات . ولدى هنا فى هذا الصوان عدد كبير من الأردية والمعاطف الجميلة كانت سوفى طيب الله ثراها قد غزلتها وحاكتها خاصة للطفلة وردت إلى بطريق ليس المقام مناسباً لذكره » . ثم قال مستطرداً : « ما أبلغ الأثر الذى تلعبه الأزياء والملابس فى حياتنا اليومية ... لقد أصاب كارليل جادة الصواب حين ردد هذا القول الحكيم الذى ينطوى على معان كبيرة !

والواقع أن سوفى كانت ماهرة جدا فى حياكة الملابس وأشغال الإبرة؟ قد بزت أقرانها فى هذا الفن الجميل فأصبحت يشار إليها بالبنان حتى ذاع صيتها بين الأوساط الرفيعة

فأحبت لوسى خالتها لهذا السبب لأنها كانت تعجب بالمعاطف والأردية التى كانت تصنعها أناملها الفتانة وذوقها الرهيف !

ومأساة هذه القصة التى أحاول أن أسردها عليك الآن قد حدثت لا لسبب غير أحد هذه المعاطف التى حاكتها سوفى وذهبت صريعتها ! »

قال هذا وضرب بيده البيضاء الجميلة على المائدة ثم استأنف قائلاً : « حدث أن لوسى بلغت العاشرة من عمرها وتريد أمها أن تقيم لها ليلة راقصة احتفالاً بعيد ميلادها السعيد تدعو إليها أترابها وأكابر القوم من محبيها وصفوة القوم من الهيئة الأرستقراطية فى البلاد !

وصل إلى زميلتى سوفى ونحن فى إحدى طوفاتنا فى الأقاليم رسالة من لوسى ترجوها فيها أن تعمل لها رداء جميلاً تكريماً لها فى هذه المناسبة السعيدة وأنها تريد أن تكون به محل أنظار المدعوين جميعاً !

ابتسمت « سوفى » ابتسامة الرضى والغبطة لهذه اللهجة البريئة وهذه اللغة الساذجة . وأشهد أنى لم أرها أسعد حالاً وأغبط نفساً منها فى هذه الفترة التى تلت قراءة هذه الرسالة . هزتها حميا الطرب فراحت فى كل مكان تغنى وتشدو !

وصل إلينا هذا الخطاب بينما كنا نطوف الطوفة الشتوية فى الأقاليم وكان الطقس قارس البرودة فأصيبت سوفى بحمى شديدة تحولت بعد قليل إلى نزلة شعبية حادة، ولولا العناية الإلهية لكانت قد قضت . كانت ضعيفة جداً فى الفترة التى تلت هذه الحمى فلم تقو على العمل ولكنها كافحت وصارعت كيلا توقف العمل فى الفرقة ولكى تستطيع أن تنجز الرداء الحبيب قبل ليلة العيد .... !

كنت أراها دائمة التفكير فى هذا الرداء وكيف يكون وتفصيله ، وبعد أيام قلائل نادتنى على حين فجأة وقالت لى بنبرات مرتعدة « زمبلى برانكر لقد انتهيت من إعداده فى فكرى، ترى ماذا يكون شكله فى هذه الليلة الراقصة . . . ! سأختار له لوناً أبيض لا زينة فيه ولا رسوم من أى نوع. تصور فيه لوسى إذاً بين أترابها اللاتى يرتدين الأثواب المزركشة والمعاطف المزينة بمختلف الألوان والأشكال !

نعم سأختار له لوناً بسيطاً جداً وهو اللون الأبيض رمز الطهر والعفاف فى ليلة الزفاف . . . !

سأحمل المدعوين والمدعوات على الإعجاب به . . . !

استحسنت فكرة صوفى واصطحبتها إلى السوق لنبتاع القماش ولكن ما كدنا نصل إلى محل أزياء حتى أغمى عليها لشدة ضعفها، والواقع أنها كانت تتحامل على نفسها للقيام بالواجب نحو الطفلة المحبوبة!

وفى خلال يومين من هذا الحادث تحققت خطورة مرضها وأن حالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. والحقيقة أنها كانت تعيش على قوة أعصابها وشدة عزيمتها فحسب ، إذ كان كل إرادتها منحصراً فى إتمام هذا الرداء ليتسنى للوسى ارتداءه فى الحفلة الراقصة لعيد ميلادها !

انتهينا من رحلتنا فى الفرقة ووصلنا لندن فى يوم عيد الميلاد. وكنت شديد القلق على حياة صوفى إذ كنت أراها ترد حياض المنية على رود ومهل ، فوجهها شاحب اللون وعيناها جاحظتان، ومع ذلك كانت يدها المرتمشة تعمل فى الثوب بسرعة فائقة ونفس راضية مستبشرة وعزيمة قوية لا تعرف الكلل

أقلتنا العربة إلى أحد الفنادق وأرادت صوفى النزول منها فلم تقو على حمل نفسها فأخذتها بين ذراعى وأنا واجف القلب مستطار اللب على حياتها وصعدت بها السلم ثم وضعتها على السرير فى حالة إغماء شديد ، وبعد دقائق معدودة رأيتها فى شبه غيبوبة وأخذت تهذى وتتفوه بألفاظ لم أتبين منها إلا اسم أوبن ترى ولوسى . وبعد ساعتين من هذه الحمى الخطيرة استفاقت وثابت إلى رشدها ثم رأيتها تقوم فجأة وفى قوة عجيبة وأخذت تبحث عن الرداء بذعر وخوف فناولتها إياه إذ كنت أحمله بين يدى ثم شرعت فى إتمامه وهى مرتعدة المفاصل مرتخية الأعصاب ... كان الليل قد أرخى سدوله والثلج يتساقط مدراراً على النوافذ والرياح العاصفة تزفر بشدة فى الخارج »

وهنا وقف برانكر وأخذ الرداء بين يديه برقة فائقة وأخذ يمثل لنا هذه المأساة أمام أعيننا !

قال : « انتهت صوفى من صنع الرداء فناولتنى إياه وقد انفرج ثغرها الجميل عن ابتسامة تعبر عن الرضاء والغبطة! وأوصتنى أن أسلمه لها فى يدها وأن أراها وهى مرتدية به بين أترابها وأن أتعرف مبلغ استحسانها إياه وفخرها به بين القوم! ثم رأيتها تأخذه منى فجأة وأخذت تقبله قبلات حارة وهى دامعة العين لا هثة الصدر حتى أشفقت عليها أن تزفر الزفرة الأخيرة وهى على هذا الحال — وبعد ما هدأت قليلاً أخذته منها فى رفق وقد أخذتنى رعدة شديدة من جلال الموقف ! ...

خرجت من البيت فى الساعة السابعة إلا عشر دقائق والرداء بين ذراعى وأخذت أهيم على وجهى فى الطرقات

ركبت عربة لتصل بى فى أقصى سرعة إلى بيت لوسى حيث الحفلة ؛ ثم أعطيت السائق المنوان ورجوته أن يسرع بأقصى سرعته ...! وبعد نصف ساعة وجدت نفسى أمام البيت المنشود ثم نزلت من العربة والرداء بين يدى كطفل محموم وصعدت السلم وناديت: لوسى... لوسى... فوجدتها فى غرفة زينتها مرتدية ثوباً برتقالى اللون مفضض الحواشى وتضع على رأسها تاجاً من الزهور البيضاء الجميلة مما زاد فى حسنها وروائها، وكانت تنظر لنفسها فى المرآة لكى تلقى آخر نظرة على زينتها وهندامها ... وعند ما رأتنى صاحت وقالت : هالو ... ! هالو ... ! آه وا أسفاه

لقد ظننت أن الخالة صوفى قد نسيتنى فلم تعد تتحفنى بهداياها الجميلة الممتازة وعلى أى حال لقد ابتعت رداء جميلاً من محل (زوكوس) فقلت فى تأثر عميق : «طفلتى العزيزة ... ها هو ذا الرداء الذى صنعته لك خالتك صوفى وهى تجهد نفسها لإتمامه لك فى يوم عيد ميلادك كما قلت لها فى رسالتك. وها هى ذى تبر بوعدها وتكلفنى حمله لك . ولقد حال المرض العضال بينك وبينها . وكم كانت تود أن تحمله لك بنفسها فى هذه المناسبة السعيدة ...!

ثم نظرت إلىّ فى غير اكتراث وتناولته منى فى غير احتفال وأخذت تفحصه بكلتا يديها ثم قالت : « ما هـذا الرداء الخالى من الألوان والزهور ... ! هذا زى عتيق لا يليق بى وأنا الفتاة الصغيرة التى تحب الألوان الزاهية المتلألئة ... ! قالت هذه الجملة ثم ألقته على مدى ذراعيها فى أقصى الغرفة ...!

كدت أخرج عن طورى فأصفع هذه الطفلة الجاحدة جزاء على سفاهتها ووقاحتها ، ولـكننى تذكرت فى الحال صديقى وأنها هى الذكرى الوحيدة التى نعتز بها منه ...!

ولكن لم أتمالك نفسى وقلت لها : «ما أكفرك من طفلة غريرة ...! إنك لو تعلمين كيف صنعت لك خالتك هذا الثوب...! إنك قتلت نفساً سامية. لقد ذابت وتحطمت لأجلك ... ! » فهزت رأسها الصغير استهزاء كالكبار تماماً وضغطت على الجرس لاستدعاء الوصيف لإخراجى من البيت. اندهشت ! اندهشت من هول هذا الموقف وتلعثم لسانى فلم يقو على الكلام ، ثم رأيت نفسى خارجاً من البيت أتمتم بكلمات اللهفة والغضب على الإنسان وجحوده ... !

كان الوقت ليلاً ولم يزل الثلج يتساقط فى كل مكان، والبرد قارساً فأخذت أعدو فى كل مكان عدو المجنون به مس من الشيطان وقلبى مضطرب ... فوقفت فى ركن من الشارع وأنا حزين مكتئب النفس لا أقوى على حمل نفسى...! أأرجع إلى صوفى وأخبرها بهذا النكران أم أكذب عليها وأخفى الحقيقة ...!

صوفى حبيبتى – كيف أرجع إليك ؟ آه لا شك أنك منتظرة قدومى لأخبرك بفرح لوسى بالثوب

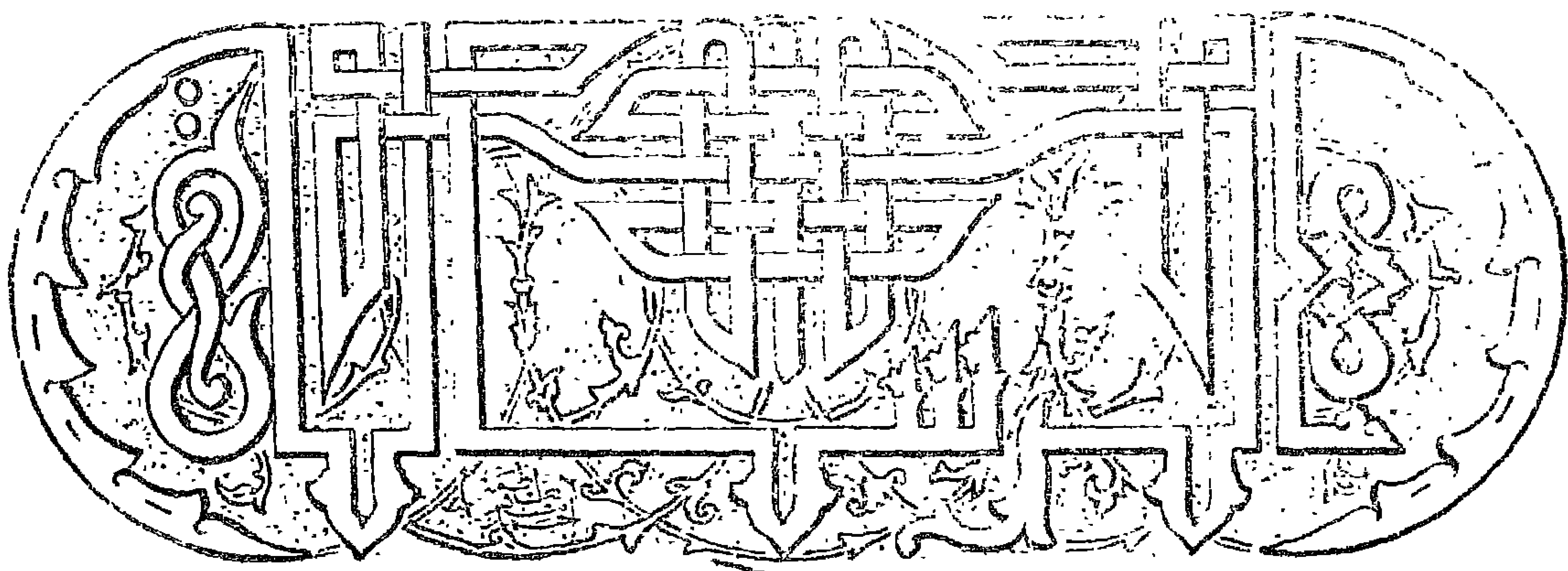
لقد رجوت من الله أن تموت صوفى وهى على هذا الحال من السعادة والأمل ...!

تمنيت لها أسعد الأحلام فى آخر ساعاتها ... وبقيت أنا وحدى أتألم لخيبتها وفشلها . .! لا شك أنها الآن تحلم برؤية لوسى وهى مرتدية الرداء وتفاخر به أترابها ومهنئيها ...!

أسكنكما الله ياصـوفى أنت وحبيبك الأول صديقى ترى — فسيح جناته ، وطيب الله ثراكما فى مثواكما الأخير ...!

لترقدا رقدة الخلود فى أمن وسلام !

محمود المرصفى



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

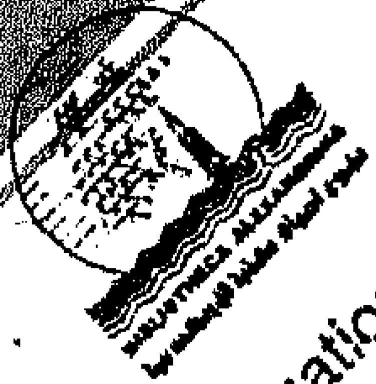
الرسالة تحيي في النثر أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشا. والخارجي ما يساوي جنيها مصريا، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪







الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦٦ — ٢ رمضان سنة ١٣٥٨ — ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العدد

الشر المعبود

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

قبل أن يستولى أول ملك على عرش مصر ، كان الوادى مقاطعات مستقلة لكل واحدة إله ودين وحاكم ، وقد اشتهرت من بينها مقاطعة (خنوم) لما توفر لها من خصوبة الأرض واعتدال الجو وكثرة السكان ، ولكنها كانت تدفع نصيبها كاملاً من ضريبة الشقاء والأحزان ففسق بها المترفون وتضور الفلاحون جوعاً وعاث الأشرار فى الأرض فساداً ، وفتكت الأمراض والأوبئة بالضعاف والبائسين ، وشمر للاصلاح رجال المقاطعة المسئولون وعلى رأسهم القاضى سومر وحارس الأمن « رام » والطبيب « محب » وكافحوا الجريمة والعيوب مكافحة شديدة صارت مضرب الأمثال على الجهاد والصدق والعزم

وفى أحد الأجيال التى مرت على تلك المقاطعة ظهر بها رجل غريب ، كان شيخاً طاعناً فى السن حليق الرأس والذقن كعادة الكهنة المصريين ؛ طويل القامة نحيل الجسم ، تلوح فى عينيه نظرة حادة تهزأ من فعل السنين يشع منها نور الفطنة والحكمة . وكان رجلاً غريباً حقاً ، فما لمست قدماه بلداً حتى تساءل أهله عجباً ... من الرجل ؟ ... وأى بلد قذفه ؟ وما الذى يريد ؟ ... وكيف يضرب فى الأرض حين ينبغى أن يخلد إلى السكينة والراحة فى انتظار الانتقال إلى عالم أوزوريس ؟

ولم يقف به شذوذه عند حد كان يثير وراءه عواصف الضجيج وزوابع الفتنة أينما يحل وحيثما يتجه . فكان يغشى الأسواق ويزور المعابد ويدعو نفسه إلى الحفلات على غير معرفة بأصحابها ، ويضع نفسه فيما لا يعنيه . فكان يحادث الأزواج عن زوجاتهم والزوجات عن أزواجهن ، والآباء عن أبنائهم والأبناء عن آبائهم، ويجادل السادة والنبلاء، ويكلم الخدم والعبيد، ويترك خلفه أثراً عميقاً قوياً يهيج فى النفوس ثورة جامحة يشتد من حولها الجد والخصام

وأثارت حياة الرجل الغريب مخاوف رام حارس الأمن فاتبعه كالظل وراقبه عن كثب وارتاب فى أمره فقبض عليه وقدمه إلى القاضى لينظر فى شأنه العجيب . وكان القاضى سومر رجلاً طاعناً فى السن عظيم التجارب ؛ قضى أربعين عاماً من حياته الجليلة يجاهد جهاد الأبطال تحت راية العدالة والحقيقة . فأنفذ القضاء فى حيوات المئين من المتمردين ، وملأ السجون بالآلاف من الأشرار والمجرمين ، وكان يعمل صادقاً مخلصاً على تطهير المقاطعة من أعداء السلام والطمأنينة ...

وحين مثل بين يديه الرجل الغريب أخذه العجب واستولت عليه الحيرة ، وساءل نفسه عما عسى أن يرتكبه هذا الشيخ الفانى . ثم سأله بصوته المتزن وهو يلقى عليه نظرة فاحصة :

— ما اسمك أيها الشيخ ؟

فصمت الرجل ولم يجب وهز رأسه كأنه لا يريد أن يتكلم أو لا يدرى ما يقول

واستاء القاضي من لياذه بالصمت بغير سبب معقول وسأله بلهجة خشنة :

— لماذا لا تجيب ؟ ... قل ما اسمك

فقال الرجل بصوت خافت وعلى فمه ابتسامة خفيفة غامضة

— لا أدري يا سيدي

فتضاعف استياء القاضي وقال متهراً :

— ألا تدري ما اسمك حقاً ؟

— بلى يا سيدي ... نسيته

— أتقول إنك نسيت اسمك . . . بم يدعوك الناس ؟

— لا أحد يدعوني . لقد مات أهلي وذويّ . ولبثت في الدنيا دهراً طويلاً لا يدعوني أحد ، ولا يناديني إنسان ، وكان رأسي مفعماً بالأفكار والأحلام فنسيت اسمي

واتهم القاضي الشيخ بالبله والخرف ، وتحول عنه يائساً إلى حارس الأمن وسأله

— ما الذي حملك على سوق هـذا الرجل إلى المحكمة ؟

فقال « رام » :

إنه يا سيدي رجل لا يستريح ولا يريح ، يتطفل على الناس ويجادلهم في الخير والشر ولا يدعهم إلا وقد فرقت بينهم الفتنة والشقاق

فالتفت إليه القاضي وسأله :

— ما الذي تريده من وراء ذلك؟

فحدجه الشيخ بنظرة حادة وقال بصوت قوي النبرات يهزأ بالسنين التي عاشها في هذه الدنيا

— أريد أن أصلح هذه الدنيا البشعة يا سيدي

فابتسم القاضي وسأله :

— أليس يوجد من يهب حياته لهذا العمل النبيل وهو قادر عليه ؟ ماذا يفعل القاضي وحارس الأمن والطبيب ؟ اطمئن أيها الشيخ وأرح نفسك ولا تحمل شيخوختك مالا طاقة لها به من بلوغ هذا المطلب العسير وغيرك عليه أقدر

فهز الرجل رأسه بعناد وقال :

جميع من ذكرت قد وجدوا منذ الأزل ، ولكنهم لم يقدروا بعد على هذه البشاعة التي تشوه وجه الدنيا . ولا نزال نرى في كل بقعة من الأرض نذر الشر وآثار الجريمة

وهل تنجح أنت إذا أخفقت جميع هذه القوى المؤتلفة ؟

— نعم ياسيدي ... أمهلني وسوف ترى . . .

فابتسم القاضي في استخفاف وسأله :

— وماذا تدخر من الوسائل مما ليس لديهم ؟

— إنهم يا سيدي يطاردون الأشرار ويعالجون الأمراض ويضمدون الجراح ... أما أنا فسبيلي أن أقضي على الداء . إن الداء كمين في مخبئه آمنا . وهم لا يكترثون إلا لآثاره . ولقد أنعمت النظر فوجدت أن المعدة أصل بلاء هذه القاطمة . وجدت كثيرين لا يستطيعون أن يملأوا منها فراغاً فيميوا جوعاً ، وآخرين لايتركون بها فراغاً قط فيهلكوا نهما ، ومن التجاذب والتنافر بين هاتين المعدتين يحدث السلب والنهب والقتل . فالداءيين والدواءيين

فقال القاضي :

— على العكس مما ترى هذا داء لا دواء له !

— هذا قولهم يا سيدي . وما يقولونه إلا لأنه ينقصهم شيء متمنى الرب به . هو الإيمان بالخير . إنهم لا يؤمنون بالخير حق الايمان ويجاهدون في

سبيله جهاد الآلات الصماء التى لا تحس ، ويعملون بالأجر وللجاه والمجد... فإذا خلوا إلى أنفسهم تهالكوا على ما يجاهرون بمقته من الإثم . . . هذا شأنهما يا سيدى أما أنا فؤمن حقاً بالخير فدعنى أعمل على طريقتى وأمهلنى رويداً ...

وهاج كلام الرجل الغضب فى نفس حارس الأمن إذ حسبه يلمزه من قريب، ولكن القاضى كان أوسع صدراً وألين قلباً فأغضى عن قول الرجل . ولما لم يجد فى عمله ما يستحق عقوبة أطلق سراحه بعد أن أسدى إليه النصح . . .

وغادر الرجل المحكمة وهو يحس بنشوة الظفر وكان على وجه اليقين مؤيداً بروح سام . لأنه كان يسير فى الأرض بقوة مارد ، ويتدفق فى الحديث بحماسة شاب، ويفيض قلبه بتفاؤل نبى. وكان لسانه ينفث سحراً حلالاً وحجة تلزم المتكبرين فاستطاع فى مدة وجيزة أن يستأثر بآذان القوم ويسخر قلوبهم ويهيج عاطفة الخير فى نفوسهم ويوجههم إلى حيث يريد، فاتبعه الفقير وخضع له الغنى وذل له المتمرد العاصى . وكان أساس دعوته الجمال والاعتدال اللذان يعيش فى ظلهما الفقير بالقناعة والغنى بما فيه الكفاية . ووجد فيه ذاك المجتمع المريض طبيباً صادقاً بارعاً فتعلق بمثله واعتنق مبادئه . وجاءت النتائج باهرة يخطف نورها الأبصار ويذهل عقول العقلاء فسحقت الجريمة وهزم الشر وأدبرت الأمراض ، وأظلت السعادة بجناحيها القاطعة . فهلل الحكام وكبروا وآمنوا بالحق الذى كانوا فيه يمترون وسعدوا جميعاً لبلوغ الغاية النبيلة التى أنفقوا أعمارهم عبثاً فى سبيل بلوغها .

وتقدم الزمان بخطى هادئة فى جو صاف وطريق معبد . وتحولت الأمور إلى غير ما عهد الناس

وكان الحكام أول من أحس بالعهد الجديد . والحق أنهم وجدوا أنفسهم عاطلين . والراحة لذة لا يذوقها إلا العاملون . فثقل الفراغ على ظهورهم وشاهدوا بأعين جزعة مجدهم ينهار وريحهم تذهب ونورهم ينقلب ظلاماً

كان حارس الأمن قوة ترهب أينما يحل ، فرد إلى شىء تقتحمه العيون ، وتستهين به القلوب ؛ وأضحى تمر به العامة وكأنها تمر بصنم محطم

وكان القاضى قوة قدسية ومهابة إلهية فأصبح يقلب كفيه آسفاً حزيناً، لا يسمع تحية ولا رجاء، ولا يساق إلى رحابه من يهابه . فأحس بعزلة ووحشة، وبات كمعبد مهجور فى الصحراء . وأنّ الطبيب بشكوى مكتومة . وحبس نفسه فى داره لا يزوره إنسان ولا يزور إنساناً . وكان يكنز المال فى القدور فأصبح ينفق مما جمع وقلبه واجف

اطمأن الإقليم جميعاً إلى الخير إلا أولئك الذين وهبوا أنفسهم «صناعة الخير» كانوا حيارى يائسين يتلفتون يميناً وشمالاً فلا يجدون لأنفسهم مخرجاً مما هم فيه . وكان حارس الأمن أشدهم عذاباً ، لأنه كان أعظمهم جراءة ، ولكنه كان يخشى أن يقدم على التصريح بمخاوفه فيجد آذاناً صماء وقلوباً مطمئنة إلى الخير . ولما نفد صبره انتهز فرصة اجتماعه بإخوانه وأقرانه وقال بشىء من التهيب متسائلاً :

— ماذا نفعل لو استغنى الحاكم عن خدماتنا غداً ؟

فاصفرت الوجوه وسأله سائل بلسان ملعثم :

— أمن المحتمل أن يستغنى عنا حقاً ؟

فقال رام وهو يهز كتفيه استهانة :

وماذا نفعل حتى نستحق البقاء ؟

وكأنه بقوله هذا رفع صماماً عن مرجل يغلى ففاض كل بما فى قلبه فقال واحد منهم :

— هذه حال لا يمكن السكوت عليها

وقال آخر وهو يهز قبضة يده بعنف :

— لقد أفسد هذا الشيخ الخرف المقاطعة

وقال ثالث :

— إنه يحطم القوى الإنسانية العالية بهذه الدعوة الفاسدة التى تعوق التقدم وتقتل الهمم .

وسرت النجوى من لسان إلى لسان ، وأبان كل عما بنفسه إلا القاضى فإنه لزم الصمت وسها إلى الأفق البعيد كأنه لا يسمع مما يدور حوله شيئاً، وكاد مظهره يجلب اليأس إلى قلوب الكثيرين من أعوانه إلا أن رام همس لهم خارجاً :

— لا تخشوا القاضى فقلبه معنا ولكن لسانه الذى مرن على الكلام عن العدالة لا يطاوعه على ما نحن بسبيله ...

واتفقت كلمتهم . . .

وأشرقت الشمس ذات صباح فإذا بالرجل الغريب قد اختفى ، وبحث عنه مريدوه فى كل مكان وفتشوا عنه فى كل بقعة من الإقليم فلم يعثروا له على أثر

وأحدث اختفاؤه دهشة وانزعاجاً وأثار أقاويل متباينة ، فمن قائل إنه هجر المقاطعة إلى غيرها بعد أن اطمأن إلى ثبات عقيدته ؛ ومن قائل إنه صعد إلى السماء بعد أن أدى رسالته. وشمل الحزن المقاطعة كلها ووجفت القلوب جميعاً ...

وتنفس السادة الصعداء وانتظروا على أمل سعيد وكلهم يحلم بالمجد الآفل والنعيم الذاهب ويمنى نفسه ويستنظرها ...

ولكن النفس يلحقها الجزع كلما دنت من الأمل المرتقب . فباتت أعصاب القوم ثائرة وقلوبهم حائرة ، وكان يقض مضاجعهم أن يروا عامة الناس ماتزال متمسكة بالدعوة مخلصة لذكرى الشيخ الغريب

واهتاج الغضب حارس الأمن فصاح :

— ينبغى ألا تدوم هذه الحال

ونظرت إليه أعين أحياها الطمع ، وأضناها الأمل فاستدرك قائلاً همساً :

— أعرف فى مقاطعة « بتاح » راقصة فاتنة أولتها الآلهة حسناً لا يقاوم . فلماذا لا نستعيرها أشهراً؟ وإنى أعلم أن حاكم الإقليم راغب فى نفيها منه لما يهيج جمالها من الفتنة والملاحاة. فليكن إقليم خنوم منفاها إلى حين ؛ وهى بغير شك حقيقة بأن تفرق ما بين الأخ وأخيه والزوج وزوجه ، وبأن تغرى الأغنياء بالانقضاض على السلاسل التى وضعوها فى أعناقهم طائعين . انتظروا خيراً قريباً ...

وحقق ذلك العبقرى فكرته الخطيرة

وشاهدوا جميعاً بأعين مشرقة بنور الفرح ذلك النظام يتقوض بنيانه وينهار حجراً على حجر ، وردت المعدة إلى عرشها تتحكم فى الرقاب والعقول، وعادت الحياة الشيطانية تملأ « أخنوم » الهادىء . وتعصف بالسلام المخيم على ربوعه . واستأنف عصبة الحكم جهادها ، ووجدت نفسها مرة أخرى تكافح وتناضل عن الخير والعدالة والسلام ...

نجيب محفوظ

إنتقـــام المريض

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ ع . ا

دق جرس التليفون بغير انقطاع فاستيقظ « سكرتير » الطبيب نهاية الأمر من حلم كان يراه وقام إلى السماعة ولا يزال به أثر التهويم فسمع :

« هل يتفضل الطبيب بأن يعود المستر رتشارد فى الحال ؟ إنه يظن نفسه مشرفاً على الموت »

فأجاب سكرتير الطبيب فى لهجة لا تدل من العطف على قليل ولا كثير : « أحقاً سيموت ؟ إن الدكتور بنتون لم ينم منذ ليلتين وقد انتهت الليلة مواعيد العيادة »

وزار الطبيب المريض وفرغ من فحصه دون أن ينطق بحرف . فقال المريض وبه ما به من الهلع : « إننى أشعر بتحسن منذ أتيت. هل مرضى خطر؟ وما اسم هذا المرض ؟ »

فأجابه الطبيب مقتضباً دون أن ينظر إلى وجهه: « كاجزيا »

ومضت فترة صمت ثم قال المريض بصوت هادئ : « يظهر من اسم المرض أنه خطر . ألا يوجد علاج له ؟ »

فحدق الطبيب فى وجهه وقال : « أخشى ألاّ يكون فى أى دواء فائدة »

قال المريض : « لقد ظننت ذلك بعد إذ فقدت الشهوة للطعام . أليس لديك وسيلة لإكراهى على الأكل » . فهز الطبيب رأسه وقال : « أنت مصاب بالأزروكيس »

قال المريض : « وما هذا المرض ؟ »

فقال الطبيب : « هو ضغط شديد فى البنيتاراليا والتهاب فى الباريتيكس »

قال المريض : « وهل هذه الأعراض خطيرة ؟ » فقال الطبيب بصوت لا نغمة له : « هل لك أقارب تريد أن تراهم ؟ »

فنظر المريض إلى الطبيب نظرة حائرة ثم قال : « هل تعنى أنه لا تجدى المحاولة ؟ » فقال الطبيب : « لا أعرف أكثر مما تعرفه »

ثم وضع يده على جبينه ومشى نحو الباب . وعند الباب وقف ، والتفت إلى النائم على السرير وكأنه فى التفاتته أراد أن يقول شيئاً ولكنه لم يزد على قوله : « سعدت مساء ! » … ثم خرج …

فى الليلة التالية كان الطبيب جالساً مع صديق له فى النادى وكانا يدخنان لفافتين من التبغ الفاخر على أثر العشاء فقال الصديق وهو من رجال القضاء : « ما أشدها مهنة مملة ! قضيت يومى كله فى تعب شديد »

فقال الطبيب : « مهما يكن عمل القاضى متعباً فإنه يتمتع على الأقل بالراحة فى ليله ، لا كالطبيب الذى يستدعى فى الليل ست عشرة مرة لينصت إلى سخافات من يتوهمون أنهم مرضى وليس بهم شىء من المرض. ولقد فكرت تفكيراً جدياً فى ترك مهنة الطب والاشتغال بالتجارة أو بأى شىء آخر »

قال القاضى : « ما أغرب هذا التصريح ممن يعده أهل المدينة أسعدهم ! إننى كنت أظن حرفة الطب هى الحرفة الوحيدة التى لا يشكو أصحابها منها »

فضحك الطبيب وقال : « لقد استدعانى ليلة الأمس فى منتصف الليل مريض أفقدنى كل صبرى. وإنما أذكره لأن حالته نموذج لحالة أكثر المرضى »

قال القاضى : « ما الذى حدث ؟ »

فقال الطبيب : « استدعانى فقلت له إنه مصاب بالـكاجزيا »

فضحك القاضى وقال : « وما يدريك أنه لا يعرف اللغة اليونانية فيفهم أن مرضه هو عسر المضم ؟ »

فابتسم الطبيب وقال : «لا أظنه يعرف اليونانية وقد وجدته غير مصاب بشىء ولـكنه شره على مايظهر فأكل أكثر من طاقته، ثم أقلقنى فى منتصف الليل وقال لى إنه سيموت، وابتدرنى بقوله إنه يظن أن داءه غير قابل للشفاء فسخرت منه وتظاهرت بالجد وبخطورة المرض لعله يمتنع عن الأكل فيشفى وقلت إن مرضه هو الـكاجزيا ، وأن عنده التهاباً فى البارتينـكس »

قال القاضى : « لقد أخطأت فإن الوهم قد يترك فى المريض أثراً سيئاً »

فقال الطبيب بلهجة المتململ : « عليه أن يصبر على هذه المزحة فقد أطار نومى وضايقنى ومع ذلك فسأمر به الليلة فى طريقى إلى منزلى وأخبره أنى كنت أمزح معه »

فى هـذه اللحظة دخل الخادم يحمل خطاباً باسم الطبيب على طبق من الفضة ففض الطبيب الخطاب بغير عناية، ولـكنه ما كاد يقرؤه حتى وثب من مكانه وقال : « لقد كنت شديد الحماقة . إن هذا المريض الأبله قد صدق مزاحى وعزم على الانتحار. لقد قضى على مستقبلى ؛ فربما ترك الرجل خطاباً يذكر فيه سبب كرهه للحياة. لقد هلكت! »

فقال القاضى : « إذا كان فى الإمكان انقاذه فلا تضيع الوقت سدى . ألم يقل فى الخطاب كيف عزم على الانتحار ؟ »

فناوله الطبيب الخطاب فقرأه ثم نظر إلى ساعته وقال : « فى وسعنا الآن إنقاذه فهلم إلى منزله فى السيارة . لقد حدد الساعة العاشرة ونحن الآن قبلها بدقائق . هل المنزل قريب ؟ »

قال الطبيب : « نعم » ثم ركبا السيارة ووصلا إلى المنزل . فسأل الطبيب الخادم : «هل السيدهنا؟ »

قال : « نعم هو فى غرفة المـكتبة ، وقد أمر بألا يدخل عليه أحد »

ولـكنهما لم ينتظرا سماع البقية وقطعا درج السلم وثباً .

وكانت مخيلة الطبيب تصور له المحـكمة ، وهو واقف أمامها موقف الاتهام يحاول التخلص من إبهامه المريض ولا يجد لذلك مجالاً . وكان فى هذه اللحظة يلعن نفسه لأنه لم يصارح المريض بأنه ضايقه بدلاً من أن يسخر منه

ووصلا إلى غرفة المكتبة وكانت مضاءة؛ ولكن نورها انطفأ فى الحال وأسرعا نحو بابها ليفتحاه ، ولـكنهما سمعا عند ذلك طلقة مسدس وغاض الدم من وجه الطبيب . ودخلا فرأيا فى غبش الظلام جثة ملقاة على الأرض

وأسرع القاضى إلى الحائط يتلمس موضع الزر الكهربائى ، وجمد الطبيب مكانه وهو يقول : « بعد الموعد المناسب ما أشد حماقتى ! »

وأوقد النور ولكن الجسم الملقى على الأرض لم يكن جثـة هامدة بل جسم رجل سليم يغرق فى الضحك . فلما دنا الطبيب منه قال المريض : « أوهمتنى فأوهمتك . مزحة بمزحة ! ولست أنت وحدك الذى يعرف اليونانية ...

وفاء زوجـــة

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(هذه قصة مترجمة عن الصينية وواضعها مجهول ، ولكنه كان يعيش فى القرن الخامس عشر المسيحى)

***

كان يعيش فى العاصمة منذ عدة قرون رجل فيلسوف اسمه شوانج . وكان معتكفاً عن الناس لا يكاد يخرج من داره . وقد ماتت زوجته الأولى فى سن الشباب ولم يكن سعيداً معها . وكذلك كل الفلاسفة لا يسعدون بالزواج . فتزوج للمرة الثانية ولكنه طلق زوجته الأخرى متهماً إياها بسوء السلوك ؛ وتزوج للمرة الثالثة بسيدة تدعى « تاين » فوجد معها من السعادة ما لم يجده فى المرتين السالفتين

وغير مسكنه بعد الزواج منها فأقام فى ضاحية بالقرب من الجبال

كان يتنزه فى الخلاء ، فى يوم من الأيام وجد امرأة أمام قبر حديث البناء وفى يدها مروحة تحاول بها تجفيف بنائه . فكان ذلك الحادث داعياً إياه للتساؤل ، فاقترب منها وسألها فى رفق : « ما الذى تفعلين ؟ »

فأجابته : « فى هذا القبر رفات زوجى . ولما كان رحمه الله غبياً فقد استحلفنى ألا أتزوج بعده حتى يجف بناء قبره . وقد زرت القبر أياماً متوالية فلم أجد بناءه جف . ولذلك استعجلت تجفيفه بهذه المروحة »

قالت ذلك ونظرت إلى الفيلسوف نظرة حملته على أن يؤدى لها خدمة .

فقال : « إن يديك ليستا قويتين فدعينى أساعدك »

فقالت : « شكراً ! وهذه هى المروحة وستؤدى لى أعظم خدمة إذا عملت فى تجفيف القبر »

فجلس يروح بقوته السحرية فجف القبر بعد لحظات قليلة . وسرت السيدة بنجاحه فابتسمت له ابتسامة مشرقة وجعلت علامة شكرها إياه أن أهدته مروحة أخرى ثمينة كانت تحتفظ بها بين ثيابها . وأهدته كذلك دبوساً غالياً كان فى طيات شعرها فقبل الهدية الأولى ورفض الثانية ثم ذهب إلى منزله فتذكر الحادث وهو جالس مع زوجته فتنهد ؛ فلما سألته عن سبب تنهده أخبرها بما سمعه ، فبدا عليها الغضب وثارت على تلك الأرملة التى فضحت بنات جنسها . فردد شوانج المثل القائل إن رؤية وجوه أناس شىء ، ورؤية وجوههم شىء آخر ؛ فقالت زوجته : « إنك تظلم النساء إن زعمت أنهن جميعاً مثل تلك الأرملة التى لا تخجل »

فقال الزوج : «علام هذا الاهتمام؟ أخبرينى ، إذا مت وكنت لا تزالين صغيرة جميلة ، أترضين بالترمل خمسة أعوام أو ثلاثة ؟ »

قالت : « إن الوزير الأمين لا يخدم سيدين ، والزوجة الفاضلة لا تتزوج من رجلين ؛ فإذا قدر أنك ستموت قبلى فلن يقتصر وفائى على الترمل ثلاثة أعوام أو خمسة ، ولكنى سألبس ثياب الحداد حتى أموت »

قال شوانج : « هذا كلام يصعب تصديقه »

فقالت : « هل تظن أن النساء كالرجال المجردين من الإنصاف والوفاء ؟ إن الزوجة متى ماتت بحث الزوج عن غيرها ، وقد يطلقها لأنه اختار غيرها . فلا تستمر فى حديثك الذى أزعجنى »

فمند ما سمع الزوج هذه الكلمات مزق المروحة التى أهديت إليه عند المقبرة . وقال : « هدئى من روعك وأرجو أن يكون عملك فى المستقبل مطابقاً لقولك الآن »

بعد أيام كثيرة من هذا الحديث مرض شوانج مرضاً خطراً فلزم الفراش . ولما بدت عليه علائم الموت قال لزوجته : « أشعر الآن بقرب منيتى فأستودعك الله . ولكننى آسف على تمزيق تلك المروحة ، فقد كانت تنفعك فى تجفيف قبرى »

فقالت الزوجة وهى تبكى : « أرجو يا زوجى العزيز ألاّ تكون هذه الساعة الأخيرة ساعة ريبة تشعر بها نحوى . إننى قرأت كتاب السنن وتعلمت منه أن المرأة الفاضلة لا تتزوج إلا من رجل واحد . فإذا كنت لا تزال ترتاب فىّ فإنى أقتل نفسى بين يديك لأبرهن على وفائى »

فأجابها شوانج : « إننى لا أريد شيئاً بعد الذى سمعته منك »

ثم اشتدت وطأة المرض عليه فقال : « هأنذا أعالج سكرة الموت . إن الدنيا تظلم فى نظرى »

وعند هـذه الكلمات فقد الحركة والتنفس . فلما عرفت تاين أن زوجها مات علا صوتها بالبكاء وعانقت جثته مرة بعد مرة وبكته آناء الليل وأطراف النهار مفكرة فى فضائله وحكمته ، وجرياً على العادات المتبعة فى الصين لم يدخر جيرانها جهداً إلا بذلوه فى سبيل مساعدتها

وبعد أيام أقبل طالب وجهه كوجه الدمية من الحسن وشفتاه كالعقيق وعليه ثوب من الحرير البنفسجى وفوق رأسه قبعة سوداء مزركشة بالحرير وحذاءاه قرمزيان ووراءه خادم

وقال الطالب للسيدة إنه منذ بضعة أعوام أفضى للفيلسوف شوانج برغبته فى أن يصير تلميذاً له فقبل ، وإنه جاء من بلاده اليوم لأجل هذه الغاية ، ولكن لسوء حظه لم يصل إلا بعد موت الأستاذ ، وإنه وفاء لعهده يريد أن يقيم فى منزله حزيناً عليه مائة يوم

وبعد أن أبلغها ذلك سجد أربع سجدات وبلل الأرض بدموعه . ولما هدأت أعصابه قليلا طلب مقابلة تاين فرفضت ثلاث مرات ، ولكنها رضيت أخيراً أن تراه بعد أن أخبرها الثقات بأنه لا حرج على أرامل العلماء من مقابلة تلاميذهم

وتلقت تحياته بأهداب مسترخية فقد فتنها جماله ورشاقته واختلج قلبها بمشاعر كثيرة وطلبت إليه أن يقيم بالمنزل . وأعد العشاء فتناولته معه ، وكان تنهدها يمتزج بتنهده ، وأهدت اليه علامة على تقديرها إياه نسخة من كتاب «نانهوا» وأخرى من كتاب « سوترا » وهما الكتابان اللذان يؤثرهما زوجها

وكان هو أيضاً علامة على حزنه يصلى كل يوم بجانب القبر ساعة تجلس إليه لتبكى

وفى أثناء هذه الجلسات كانت تدور أحاديث قصيرة ويتسارقان النظرات فنشأ بينهما العطف فمال إليها كثيراً وأحبته أشد الحب

ولما كانت راغبة فى تعرف أحوال ضيفها استدعت خادمه وقدمت اليه النبيذ حتى سكر وسألته : « هل سيده متزوج ؟ » فقال : « إنه لم يتزوج قط » . فسألته الزوجة : « وما هى الصفات التى يشترطها

فيمن يريدها زوجة » . فقال وقد أثر فيه النبيذ : « يقول إنه يعد نفسه أسعد الناس إن صارت له زوجة فى مثل جمالك يا سيدتى »

فسألته باهتمام : « هل قال ذلك حقا ؟ أتخبرني بالصدق ؟ »

فأجابها الخادم : « إن رجلاً فى مثل سنى لا يكذب »

قالت : « إذا كان الأمر كذلك فكن وسيطاً فى الزواج بينى وبينه »

فقال : « إن سيدى كلمنى فى ذلك قبل الآن ، وإنه لولا احترامه لذكرى أستاذه لبادر بطلب الزواج »

قالت الزوجة : « الواقع أنه لم يكن قط تلميذاً لزوجى . أما جيراننا فهم قليلون وليسوا من ذوى الاعتبار فلا يحسن أن نقيم وزناً لانتقادهم »

وهكذا ذللت العقبات وتعهد الخادم بأن يكلم سيده . ولما ذهب الخادم شعرت السيدة بقلة الصبر شعوراً مضاعفاً . وكانت تسير فى منزلها ذهاباً وجيئة وتنصت قرب النافذة علها تتسقط كلمة من حديثه وهى لا تفكر إلا فى الزواج

فلما دنت من القبر سمعت صوتاً يصدر منه واضحاً ، وسمعت تنهداً فقالت : « هل من الممكن أن يعود الميت إلى الحياة فى الدنيا ؟ »

ولكنها سرعان ما اطمأنت لما رأت الخادم السكران نائماً بجانب القبر . ولو أنها لاحظت هذه الملاحظة فى وقت عادى لأنبت الخادم وزجرته ، ولكنها فى هذا الوقت لم تجد خيراً من السكوت

وفى الصباح التالى قال لها الخادم إنه كلم سيده وإن السيد يجد فى هذا السبيل ثلاث عقبات وهى :

أولاً : إن قبر الميت فى وسط الدار ، وذلك لا يجعله مسكناً صالحاً للعروسين .

ثانياً : إن شوانج كان يحب زوجته حباً شديداً وأنها كانت كذلك تحبه ، وهو يخشى إن تزوج منها ألا تستطيع حبه كما كانت تحب زوجها الأول ؟

ثالثاً : إنه لم يأت معه من الثياب ولا من المال بما يلزم لإتمام الزواج !

فقالت الزوجة : إن هذه الأمور لا يصح أن تسمى عقبات فى سبيل الزواج ... فقبر الميت ينقل من داخل المنزل إلى الحديقة التى خلفه ... أما من الوجهة الثانية ، فقد كان شوانج محترماً عظيم النفوذ ولكن به ضعفاً من الوجهة الخلقية ؛ فقد ماتت زوجته الأولى ، وطلق زوجته الثانية ؛ وكان قبل وفاته بقليل يغازل امرأة تروح على قبر زوجها ليجف. فلا يكن عند الطالب شك فى أنه سينال من حبها إن تزوج منها أكثر مما ناله الزوج السابق ! وأما من الوجهة الثالثة فإن لديها مالاً كثيراً وستعطيه ثمن الثياب وتقوم بنفقات العرس !

وقالت : اخبره أن اليوم أنسب يوم للزواج ، فلا يتردد ، ولا يرجئ الأمر ! وأعطت الخادم مالاً كثيراً فذهب إلى سيده الطالب .

ولم يكد يذهب ، حتى أبدلت تاين ثياب الحداد بثياب العرس ، وأوقدت الشموع واستعدت لحفلة الزفاف ، ولكن فى الموعد المحدد جاء الطالب هائجاً وعليه علامات الجنون . فاستدعت تاين الخادم وسألته هل اعتاد سيده أن تنتابه هذه النوبات ؟

قال : نعم ، فإنه مدله بحب الإله « تسو » إله العلم ، وكانوا يعالجونه من هذه الحالة بأن يطعموه مخ إنسان !

فقالت : وهل يصلح لذلك مخ إنسان مات موتاً طبيعياً ؟

قال : نعم ، على شرط ألا يكون مضى على وفاته تسعة وثلاثون يوماً !

فقالت : « الأمر سهل فإنه لم يمض غير عشرين يوماً على موت زوجي الأول فلنفتح قبره ، ولنطعمه مخه » .

قال : « وهل توافقين على ذلك ؟ »

فقالت : « إنني وسيدك الآن زوج وزوجة ، وعلى الزوجة أن تفعل من أجل زوجها كل شيء فكيف أرفض إطعامه من جثة إن تركناها قليلاً استحالت إلى تراب ؟ »

فأحضر الخادم فأساً وذهب مع تاين إلى القبر فحفراه حتى بدا الصندوق . فناولها الخادم الفأس ، وكسرت الصندوق فظهرت الجثة ، ورفعت الزوجة يدها بالفأس لتكسر الجمجمة وتستخرج المخ ، ولكن الجثة تثاءبت ثم فتحت عينيها

فصاحت تاين مذعورة ووقع الفأس من يدها ، وجلس الفيلسوف الميت فى قبره وقال « : يا زوجتى العزيزة ساعديني على القيام »

فخافت الزوجة ولم يكن فى وسعها إلا أن تطيع ، فساعدته وقادته إلى غرفتها ، وكانت غير ناسية المنظر الذى سيؤلمه فى هذه الغرفة ، ولذلك ارتمشت وهى تقترب من الباب ، ولكن كان من حسن حظها أن الطالب وأصحابه خرجوا من تلك الغرفة قبل ذلك

فانتهزت هـذه الفرصة وقامت بالخدمة التى تحسنها كل امرأة . وأقسمت أنها لم تكف عن البكاء بالليل ولا بالنهار . وأنها لما سمعت صوتاً من جانب القبر تذكرت القصص القديمة التى تدل على احتمال عودة الموتى إلى الحياة ، فأخذت الفأس لتفتح له القبر ، وحمدت الله على أن جعل ظنها صحيحاً فعاد زوجها إليها

قال: «أشكرك يا زوجتى العزيزة ولكن هل لى أن أسألك لماذا ترتدين ثياباً مفرحة كثياب العرس؟»

فقالت : « لما سمعت الصوت من جانب القبر حدثتنى نفسى بأنك عائد إلى الحياة فلم أرد استقبالك فى ثياب الحداد »

فقال : « ولكن أمراً آخر يستدعى الإيضاح وهو لماذا لم يكن قبرى فى داخل المنزل كما هى العادة بل خلف المنزل فى الحديقة ؟ »

فلم تستطع الزوجة مع ذكائها أن تجيب على هذا السؤال

ونظر شوانج إلى كؤوس الخمر والشموع الموقدة وموائد العرس ، ولكنه لم يبد ملاحظة أخرى بل طلب إلى زوجته أن تناوله كأساً من النبيذ ففعلت وهى تهش فى وجه زوجها وتبسم له . ولكنه رفض أن يتناول الكأس ، وقال : « أنظرى إلى الرجلين الواقفين خلفك »

فنظرت ورأت الطالب وخادمه فارتجفت . ولكنهما اختفيا فى الحال فعادت إلى النظر إلى زوجها فوجدته اختفى كذلك . ثم عادت إلى النظر خلفها فلم تجدها . والتفتت فرأت شوانج أمامها مرة أخرى فأدركت الحقيقة ، وهى أن الطالب وخادمه لم يكونا إلا طيفين خلقهما روح شوانج ، ووجدت من من العبث إنكار الحقيقة عنه

ولما اعترفت بها وضعها فى الصندوق الذى كان مدفوناً فيه ثم أضرم النار فى منزله فلم يسلم منه شيء غير كتابى « نانهوا » و « سوترا »

ثم سافر شوانج متجهاً إلى ناحيـة الغرب ولا يعرف أحد إلى أين ذهب ، ولكن شيئاً واحداً هو الذى يوثق به وهو أنه لم يعد إلى التزوج مرة أخرى

عبد اللطيف النشار

ورقـــة من السماء

للقصصى الدانمركى اندرسوند

بقلم الأديب كمال الحريرى

هناك فى عليا السموات ، بين طبقات شعشاعة شفافة من الهواء النقى البلورى رفّ جناح ملاك سماوى فوق روضة أنف من رياض الجنة حاملاً معه من بين أزاهيرها الفيح المؤرّجة زهرة عبقة ، وبينما كان يطبع عليها قبلة من قبله الملائكية ، سقطت منها ورقة فوقعت فى غابة ملتفة الشجر مختلفة جنس النبات . وما كادت تستقر هذه النبتة السماوية على التراب الأرضى حتى امتد لها جذر ونمت وربت بين طائفة من أشجار الغابة . . ولكن أشجار الغابة وأدواحها وحتى شجيراتها الحقيرة لم تشأ أن تعترف بها أو تقر أنها من جنس النبات، فقال العلّيق : أى نبتة غريبة شاذة هذه؟ وسخر الموسج منها فقال :

— إلى أى فصيلة نبات تنتمى ومن أين خلصت إلى غابنا ؟ فردد العليق فى تعال وازدراء :

— ما هى إلا بذرة حقيرة لحساء أو حبة من جنس الفول والعدس ... وإلا فما هذه السرعة فى النماء ؟ هل سمعت إحدا كن أو رأتْ يا أشجار الغابة ودوحاتها نبتة تنمو بهذه السرعة ؟ ثم ما هذه الوقاحة والفظاظة أتظن أننا موجودات هنا فى الغابة لا لشىء إلا كى نسندها كلما عطفتها الريح أو مالت بقدها الأهيف ؟

وأقبل الشتاء ، وغطى الثلج بساط الأرض ، فإذا النبتة السماوية تشع على الثلج الوهاج شعاعاً سحرياً غريباً ، كأنها حزمة متوهجة متموجة من أشعة شمس الغروب المختلفة الألوان تنتسل وتستحم فى حوض هـذا الثلج ... وفى الربيع تفتحت أكمام هذه الشجرة السماوية عن زهرة بديعة حسناء لم تقع على مثلها عين بشرية فى روعتها وفتنتها وائتلافها ...

ونُمى الخبر إلى أستاذ النباتات الأشهر فى تلك البلاد ، فهرع إليها مجهزاً « بدبلومه » وشهاداته وخبرته المستفيضة ومعرفته الواسعة فى علم النباتات، لاحظ أولاً النبتة السماوية وتأملها، ثم حللها واختبرها فى مخبره ... حتى لقد تذوق أوراقها وتشمم زهراتها ، ولكنها لا تشبه أبداً شيئاً مما عرف أو درس من جنس النبات وفصائله . وانتهى به البحث والفحص إلى أن قال : إنها نبتة هجينة مولدّة من عدة فصائل نباتية لا تدخل فى زمرة النبات الموجود على أرضنا وما أظنها إلا غولاً نباتياً لم تألفه أرضنا . وسمعت شجيرات العليق والموسج بكلام أستاذ النبات فرددت معه :

— إنها غول نباتى لم يألفه غابنا . أما أدواح الغابة الباسقة وسرحاتها الظليلة فقد لزمت جانب الصمت ولم تقل فى حقها خيراً أو شراً ، والصمت أحجى بالصامت وأحزم حين يكون غبياً جهولاً .

أقبلت إلى الغابة ذات يوم فتاة صغيرة فقيرة ، هى الطهارة والنقاء مجسمان ، والذكاء المنار بضوء الإيمان .

لم تكن تملك من متاع الدنيا إلا إنجيلاً عتيقاً .

بالياً كانت صورة الإله تتراءى لها من بين صفحاته ، وصوته القدسي يرن فى قلبها من خلال مزاميره وآياته . ففيه قرأت كثيراً عن خبث الرجال وسوء نفوسهم ، ولكنها تعلمت من الإنجيل أيضاً أنهم حين يسوموننا سوء العذاب ، وقسوة الظلم ، ولذع السخرية ، ونكران الفضل ، فليكن مما نتحمل به رهق عذابهم أن نقول كما قال المنقذ الأعظم حين كانت تسفع جلده سياط ظالميه : « اللهم اغفر لهم سيئاتهم ، فإنهم قوم لا يعلمون » .

وقفت الفتاة لحظة أمام النبتة المعجزة العجيبة.

وكان عبقها يؤرّج الجو بشذى عطر الجنان ، وتموّج أصباغ أزهارها يبرق ويلتمع أمام أشعة الشمس كحزمة مختلفة الألوان من أسهم نارية فى ليلة داجية ظلماء ، ولمر النسيم حين كان يداعب أوراقها البهيجة وسوسة موسيقية سماوية ، وأنغام شجية علوية .. وأخذت الفتاة روعة هذه الشجرة وشدهت لفتنتها وسحرها ؛ فانحنت عليها تتأملها ، وتستجلى منظرها عن قرب ، ثم طفقت تتنسم أريجها العطرى وشذاها السحرى ... فشعرت بفيض من القوة الخارقة يتدفق إلى قلبها ، وشماع وهاج من الحكمة يشرق فى ذهنها ونفسها ... وملكتها رغبة شديدة فى قطف زهرة من أزاهرها، ولكنها فكرت فى أن ذلك سيؤذى النبتة اللطيفة ، وأن الزهرة المقطوفة سيعلوها ولا شك ذبول قريب . . . فلم تقطف منها إلا وريقة من وريقاتها الخضر غيبتها بين صفحات إنجيلها حيث ظلت هناك خضرة طرية !

بعد أسابيع نُقل إنجيل الفتاة التقية وضمنه الورقة السماوية إلى نعش الصبية (فقد ماتت) . وفى ذلك النعش توسدت الفتاة ذلك الإنجيل توسدة أبدية هادئة تتماكس على وجهها المشرق البديع سعادة المفلت من إسار هذه الأرض المتعبة الغرور ، وهناءة من دعاه ربه إلى حضرته . . .

فى خلال ذلك كانت النبتة السماوية تربو وتنمو وتزهر وتتفتح ليس كمثل رباتها وتفتحها شجرة على الأرض . وكانت العصافير والطيور العابرة عليها والمحلقة فوقها حين تمر تنحنى وتخشع أمامها احتراماً وهيبة . فكان العليق والعوسج لا يفتئان يدمدمان فى غيظ وحسد وسخرية :

آه لو تعلم هذه الطيور الحمقاء لمن تتبرع بهذا الاحترام والإجلال ؟! . ثم تبصق هذه الشجيرات الكريهة البشمة فى احتقار أمام النبتة السماوية

ويمر راع للخنازير بهذه الغابة محتطباً . فيعمل فأسه قصفاً وتقطيعاً لشجر العوسج والعليق . . . وأيضاً للنبتة الفيحاء الحسناء المعجبة «زهرة السماء» ثم يقول لنفسه بعد الفراغ من الاحتطاب :

كم ستكون هذه الأحطاب صالحة لشىّ خنزير حنيذ من خنازيرى !

وكان ملك هذه البلاد يشكو منذ زمن بعيد غمّاً وضيقاً فى الصدر ران على نفسه واستعصى طبه على نطس الأطباء . فكى يرفه عن نفسه ويتفرج من هذا الغمّ أخذ نفسه بقراءة طائفة من مؤلفات مشاهير كتاب شعبه . فبدأ بمطالعة الصفوة المختارة من الكتب والكتاب ، ثم أخذ يتفكه بقراءة الكتب السهلة المسلية ذات الموضوعات السارة ولكن كل ذلك لم يلهه عن غمه ويسله عما هو فيه من ضيق وانقباض . هنالك نصحه رجاله بالقصد إلى أشهر حكيم فى تلك الأصقاع، وفعل الملك ذلك وأجابه الحكيم:

— إن هناك طريقة وحيدة لشفائك أيها الملك : هى أن تتناول ورقة من نبتة سماوية ذات أزاهير عجيبة توجد الآن فى غابات مملكتك . ثم إن الحكيم وصف للملك موقع الغابة وحدودها من مملكته ... وعرف

رجال الملك بعد عناء مكان النبتة ولكنهم أبصروا محلها فارغاً ، لأن فضول راع للخنازير قد اقتلعها من جذرها ، فذهبت طعمة للنار ، ولم يبق منها فى أثفية الراعى إلا بقايا من رمادها تذروه الريح فى الجهات الأربع ...

اختفت النبتة السماوية من الأرض . ولم يبق منها إلا وريقة ذاوية خاوية فى نعش الفتاة الطاهرة التقية ، ولكن أحداً من الناس لا يعلم مكانها

وجاء الملك بنفسه إلى الغابة كى يتأكد بعينه من اختفاء النبتة ، فقال حين شاهد مكانها خالياً :

— وإذن فهنا كانت النبتة الإلهية ؟ ! سيكون هذا المحل منذ الآن مكاناً قدسيا مباركا ...

وفعلاً أمر الملك بمكان النبتة ، فسور حوله عريشة من ذهب خالص ، وأقيم فى تلك العريشة حراس أرصدت لنفقتهم الرواتب وذلك لحراسة هذا المحل القدس ليل نهار ... وكتب أستاذ علم النبات الأشهر وصفاً مسهباً ضافى الذيول والحواشى عن حالة النبتة السماوية وماهيتها وخصائصها مظهراً الناس على خواص معجزة مميزة عجيبة حرم منها ويا للأسف أهل البلاد بفقدهم النبتة الإلهية من غابهم الأرضى !

موّه الملك كل صفحة من صفحات الكتاب بماء الذهب ، ورصّع دفتيه بنادر الجواهر وكريم اللآلئ ، فراج ذلك الكتاب القيم النادر ذلك العام بين أهل المملكة رواجاً لم يرجه كتاب قبله ولا بعده ..

أما الملك الحزين المنقبض الصدر فقد لزمه طول عمره غمه وحراجة صدره .. وأما حراس مكان النبتة السماوية فقد أمضهم الملل والضجر فى عزلة الغابة الموحشة

(حلب) كمال الحريرى

جنـــاية مشروعة

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلى

دقت الســاعة السادسة تماماً فتأهبت الفتاة لاستقبال الزائر ...

ودخلت عليها أختها قائلة : ما أعجب أمرك ! ترفضين الذهاب إلى العرس من أجل ضيف تقضين الوقت معه بين الورق والحبر فى نقاش يجمع بين الجهد والملل! اتركى له كلمة رقيقة وتعالى نتمتع بالطرب هناك ... فى مقدورك لقاء الضيف مرة أخرى وليس فى مقدورك مشاهدة الفرح إلا فى مناسبات بعيدة، وقد لا يكون مثل هذا الفرح فالعروس جميلة وها هى ذى الأضواء تبدو كحروف ملتمعة تعلن فى زهو وبهاء مبلغ السرور . هيا اعتذرى وتعالى نشاهد مفاتن الحياة والبهجة الطليقة . . .

فهزت الفتاة كتفيها فى إباء ونظرت إليها وهى تخطو بعيداً مبتسمة قائلة : يا أختاه . . . أتظنين مسرات الوجود كلها تشفع لعذر موهوم ... إن احترام الوعد عندى أحق من مباهج الحياة . ثم ألا يصح أن يكون هــذا الحوار الجاف كما تسمينه أمتع وألذ وأنفع من أغانى الفرح وأضواء العرس وظواهر الصناعة وكلفة المجاملات

فمطت الأخت شفتيها وهى تغمغم فى مرارة قائلة : لشد ما أحزن لك ... تهربين من الحياة ومن نفسك . . . والحياة تعدو خلفك متمسكة بأذيالك رغماً عنك . . . فمهما حلقت فى سمائك فأنت معنا تعيشين . . . سيمر الوقت وينتهى الحديث ويخرج ضيفك فإذا أنت كما أنت ... لن يفرج الضيف عن أساك ولن يشاطرك أحلامك . ولن يبعث المسرة الأكيدة إلى نفسك ، أما هناك فستغنم روحك مسرة الأنس ويبتسم قلبك تجاه البشر المجسم على كل وجه طروب ... هيا اعتذرى ولا ترددى . . .

ولما صعب عليها التأثير على أختها خرجت شبه غاضبة . . .

الساعة السادسة والنصف ... ولم يأت الضيف بعد وميعاده السادسة تماماً ...

لا شك أنه فى طريقه فقد يكون الترام تلكأ به وتترك مقعدها وتهرع إلى الحديقة تتأمل الزهر وتشم الورد وتحملق فى الأفق البعيد ...

آه لو كان فى مقدور الانسان أن يعرف بحسه ما وراء المجهول ... لاستطاعت فى هذه اللحظة أن تنعم بالوقت كما تشاء

آه لو استطاعت أن تتموج كالنغم على النسيم لتعبر هذه المسافات لكى تصل إلى هناك حيث يكون لتعرف ماذا هو صانع .. أهو فى طريقه إليها فتنتظره أم تراه لاهياً بشأنه فتتصرف فى وقتها ...

حكمتك يا رب جليلة ... لا شك، ولكن الذى لا أفهمه؛ لماذا ترتبط الجهالة بالأحلام وترتبط الأمانى بالخيال ...

لماذا ؟ ... لماذا ؟ ...

فى هذه اللحظة عرفت الفتاة مبلغ الألم الذى يمتور الحبيب إذا انتظر حبيبه وطال الانتظار

وإذا كانت هى لم تحب ذاك الطيف فقد تحترمه وقد تقدره لفضائل مثالية تلمحها من وراء ذاته؛ وقد تكون معجبة برجولته القوية التى تتجلى فى نظرته الحادة ... ثم هـذه البسمة الحقيقة التى ترتسم على شفتيه مهومة فى خفة أشبه بعبث الطفولة البريئة . لـكن يروعها ذاك المكر الذى رسم ظلاله على جبينه الفسيح فى شبه خطوط غير مرئية تتصل بمنبت شعره ... والذى يعينها على تفهم نفسيته ذلك الحلم العميق الذى يتراءى من وراء منظاره يفيض بشعور قلب يرجو، ويسخر بهذه الخواطر شغلت وقتها حتى بلغت الساعة السابعة ...

دقت الساعة ... فتذكرت صديقتها التى رفضت لقاءها فى هذه الساعة ، لـكى تترك لضيفها حرية الحديث ...

أى ملل يملك نفسها هى التى لا تشعر بالملل أبداً ، لأنها تشغل وقتها دائماً ... دائماً ... وقلما تحس بالخلو والسأم ...

مالها الساعة تشعر بضيق يجوب جنبات صدرها فى عنف فيجذبها إلى ظلمات الأفكار ...

يا للقدرة الخفية الهائلة التى تعبث بالخواطر ، والأحلام ...

فى لحظة يتشوه جلال الرجل النبيل ... وهمس ضميرها الرحيم : قد يكون قابله صديق ثرثار ... أو يكون جد له ما لم يكن فى الحسبان ...

لـكن لماذا لم يعتذر بالتليفون ... أو عن طريق رسول ؟ أهكذا يعبث الرجل بالميعاد ؟

وابتسمت الفتاة على مضض وتحدثت إلى نفسها فى غير صوت :

آه لو لم أكن أجد فى كل شىء لهان الأمر ، ما أغبانى . كان يجب أن أعرف إن كان جاداً أو هازلاً عند ما وعدنى

وتأففت فى مرارة وراحت تتسلى بالقراءة ...

لـكن أى عقل يعى ما يطالعه ، وهو شارد فى أضاليل الحياة ...

عله لم يتعمد الكذب ... وشفع له عقلها ...

ولكن شبه شعو غامض يحز فى جنبات نفسها ..

أتكون هى موضع السخرية هى ، التى تسخر من كل شىء ...

من المؤلم حقاً ... أن تفهم كل شىء جادة ... وتستقبل كل شىء جادة، تجد فى كل قول وكل فعل ...

وارتمت على مقعدها لتحلل هذه الظاهرة الغريبة ومر بذهنها صور العشاق

وتصورت نفسها بعين الخيال عاشقة ثم جسم لها الخيال الوهم حقيقة فإذا بها فى هذا الموقف تنتظر حبيبها فلم يحضر ..

ماذا تفعل ؟

أتعاتبه ؟.. وهل يرفه العتب العذاب ؟ أتهجره ؟ وهل يمحو الـكذب سطور الحب من الـكتاب ؟

ثم تلمست قلبها فإذا خيالها يرتد عنها وإذا هى خلية الفؤاد

فحمدت الله فى استسلام لمشيئته المحتومة

وتطلعت إلى الأفق فرأته صافياً أصفى من ماء النمير

فارتد بصرها إلى ذهنها يعرض عليه مشاهد الوفاء والإخلاص ، فتساءلت : لماذا لا يكون الوفاء دين الناس جميعاً ؟

لماذا لا نحكم ضمائرنا دائماً لنسلم من الشرور ...

ومر بها خيال الضيف .. فتأملته من جديد ..

وهاجت نفسها وبدأ صـدرها يتنفس بزفير الغيظ ... فلطف عقلها من حدتها مستعيناً بخيالها على تصوير فضائله ..

إنها لا تشك فى نبله ورجولته ولـكن كيف أباح لنفسه أن يجنى عليها ؟

علّه لم يتعمد هذه الجناية ... ولكنه جنى على عواطفها فأسلمها إلى مرارة الشك فى كل شىء . . وجنى على عقلها فاتهمته بالخبل والجهالة ..

إنها بطبيعتها تشك فى الرجل . . . ولكنها تخص بالشك الرجل الذى يحبها ، وهذا لا يحبها .. فليس هناك ما يبرر هذا الشك ..

الله أكبر الله أكبر . . . على النفس الكبيرة عند ما تهزم

الله أكبر الله أكبر ، على العقل الجامح عند ما يخمد

الله أكبر ، الله أكبر ، على الرجل الناضج عند ما يكذب ...

ودت لو تدفع من دمها ثمن جناية الرجل ، لتظل محتفظة فى ذهنها بصورة تنتمى إلى الكمال بصلة

وهرعت إلى مخدعها لتدفن فيه خواطرها ... فإذا بها تزداد ثورة وشجنا

إيه يا رب العالمين ... لماذا تعذبنى بخيالى وأنا أقرب العباد إليك بإيمانى ؟

يا رب ... لماذا تجازنى الحياة شراً ودمى دفعته قربان الخير فى سبيلها ؟

يا رب ... لماذا استودعت قلبى حرارة الحق وسيرتنى فى طريق الأباطيل ! ؟

يا رب ... لماذا فتحت عينى على نور جلالك ، وقيدتنى بظلمة الدنيا ؟

يا رب ... لماذا تفتح شفتى عن بسمة الرجاء ، فتجاوبنى الحياة بالدموع ؟

يا رب ... يا رب ... خذنى إليك طاهرة متطهرة أو هيئ لى فى الدنيا مقراً فيه ما أرجو من صدق وطهارة ...

يا رب ، يا رب ... لماذا منحتنى إدراكاً يعيننى على تفهم كل شىء ، ولم تهيئ إنساناً ليفهمنى ؟

يارب ، يارب ... إنى أخر راكعة تحت عرشك وأسألك : لماذا سلمتنى مفتاح القلوب وأغلقت قلبى دون الناس أجمعين

يارب ، يارب ... ألا ترفعنى إليك . ألا تبعث إلى من لدنك ملكا ؟ لو فعلت يارب أعرف كيف أهزج باسمك بكرة وأصيلا وأقيم الصلاة مرتلة آيات شكرك ترتيلاً ... عرفت طريق الخير يا رب فأعنى على اجتيازه حتى النهاية !

وتنبهت الفتاة من هذه الغيبوبة الحالمة على صوت أخيها وهو يناديها فإذا بالدموع ندت الوسادة ...

وخجلت الفتاة وأرخت جفونها لكيلا يلمح الأخ مدامع الأسى الدفين . وتعتذر فى لطف لتعاود النوم فيقول : معى رسالة من أمك

أوه ! رسالة من أحب مخلوقة لديها ... يا للهفة التى انتشت ... ولكنها دامعة فإذا رفعت نظرها لمح الأخ مدامعها ... وهى لا تريد أن يراها باكية

قال الأخ مداعباً : لن أسلمك الرسالة إلا إذا قمت فآثرت النوم أو على الأصح مواراة شجنها على على قراءة الرواية

وفى الصباح الباكر قبل الأخ جبينها ليوقظها قائلاً : غداً يهنأ السعيد بهذا الوجه الصبوح ويستلهمه قوة تعينه على أعباء يومه فى كل صباح

فابتسمت قائلة فى دعابة : صباح الخير ... دائماً ، دائماً تنقلنى إلى حلم الزواج كأننى عالة عليك !

فتجهم وجهه وطوقها بذراعيه فى حنان وهو يقول : يسعدنى أن تكونى معى إلى الأبد قانعاً بك عن مسرات الوجود ... لكن لا بد من إسعادك . لا بد من تركيز حياتك . أراضية أنت عن حياتك الطليقة ؟ أتظنين السعادة فى هذه الطلاقة ؟ أتحسبين هؤلاء الذين يتمرغون تحت أقدامك سيتعلقون بك دائماً وبعد أن يدبر شبابك ... إنهم يحبون الحياة

الشابة الفتية فيك الآن ... وغداً بعد أن تذهب عنك نضارة الشباب ينظرون إليك نظرة خاوية لاحب فيها ولا آمال . أنت الآن فى ريعان الشباب تجذب حيويتك كل من رآك ...

لا أنكر أن جاذبيتك لا ينضب معينها . . . ولكن يجب أن تصونى هذه الجاذبية ولا يصونها غير الزواج ... فى تركيز حياتك واستقرار عاطفتك حفظ أنوثتك وجمالك ...

فتململت الفتاة وقالت : ولكننى لا أريد أن أتزوج إلا برجل أفهمه ويفهمنى ...

فتأفف قائلاً : أهناك من ارتبطت معه وأنا لا أدرى ، ونظر إليها محلقاً ثم استطرد ... حذار يا أختى من وعود الرجل .. أنا رجل وأعرف كيف يحب الرجل المرأة ، ومتى يفضلها على نساء العالمين

الرجل الذى يحبك لاينتظر الظروف ولا يترك للقدر، ولايتوانى ليملكك ، إنه يتقدم إلى طلب يدك دون علمك ودون أن يفاتحك فى أمر حبه وزواجه أما ذلك الذى يحاورك ويستمهلك فكاذب مراء ، أنا أعرف أن الذين يجرون وراءك كثيرون . . . كثيرون جداً ، ولكن حذرك وتحفظك هما اللذان يدفعانهم للجرى والتملق بأذيالك . . . ولو كنت كالأخريات تعطين من نفسك كل ما يطمع فيه حبيب ، لولوا الأدبار من زمن بعيد ... أفهمت ...

ثم وضع يده على كتفها فى حنو مردفاً : والآن ، يجب أن تتركى حياتك الخيالية وأحيى الواقع ، واليوم أقدم لك رسالة أمك ، وهى تدعوك لتدعيم حياتك الزوجية ، ولا مانع عندى من أن نسافر معاً لإتمام الأمر ، وأنا مطمئن لهذا الخطيب

قالت : من تعنى ؟

قال : فلان ...

فذعرت صارخة : هـذا لا يمكن أبداً أبداً

فتلطف بها الأخ قائلاً : وما السبب ؟

قالت : إنه لم يتقدم إلى إلا بعد أربع سنين .. لماذا لم يطلبنى قبل الآن . وضحكت متهكمة مردفة: بعد أن خانه التوفيق مع الأخريات ، وبعد أن عبث بقلوب بريئة !

فقاطعها قائلاً : لا يوجد الرجل البكر يا أختى. كل الرجال تلهو، حتى إذا تزوج الرجل ركز عواطفه، قانعاً بالزوجة ، خصوصاً إذا كانت مثلك !

قالت : أنا أفضل الرجل الذى يلهو ويعبث كما يحلو له ، حتى إذا أحبنى استقام وركز وجدانه وقنع بى ...

أنا أريد رجلاً جرب مفاسد الحياة لأعلمه الفضائل وأسمو به حيث نحيا فى الذرى .

إن هذا الرجل يريد أن يتزوجنى بعد أن بحث طويلاً. فلو أنه عرف فتاة تماثلنى أو أفضل منى لما عاد إلى!

وأنا أريد الرجل الذى يرتبط بي منذ أول مرة يلقانى فيها شاعراً بأنه عثر على ضالته المنشودة ونصفه المتمم !

ثم دمعت عيناها بحرارة عواطفها الحرى وقالت بلهجة يسبقها أنين الشجن : لا أريده لا أريده ... قف بجانبى وساعدنى على الرفض !

فأطرق الأخ مفكراً ، وتركها ، وذهب لشأنه ثم طالعت الرسالة ...

تحتم عليها الأم أن تسافر لتتفاهم معها فى تزويجها وذكرت لها اسم الخطيب

مشكلة أخرى ... هربت منها منذ حين !

وفكرت فى الخطيب ...

فلم يبتسم القلب ولم ترحب الروح .. هو رجل فى عرف الناس عظيم وفى نظرى الأهل كفيل بسعادتها ... أما هى ... فلم تحبه ولن تحبه فكيف ترضى به زوجاً ؟

أيسعدها المال الذى يفاخر به ؟ أيشبعها الجاه الذى يتمتع به ؟ أيعينها على تأدية رسالتها المثالية ؟ كلا ... إنه يحبها ، ولكن الحب الذى يفهمه كل رجل عادى ...

وهى تريد أن يحبها الحب الذى تفهمه هى، تريد أن يحب فيها الحب الذى لا ينضب معينه ... تريد أن يحب فيها سراً غامضاً يصل بين قلبه وقلبها ...

إنه لا يفهمها ... يحسب أنها امرأة تبعث المسرة فى القلب الحزين

وقد تكون كذلك . . . ولكنها أيضاً وتر من حس لا يتغنى إلا إذا داعبته أصابع فنان ماهر. وهى فكرة ناضجة لا تخرج للوجود إلا غذاها عقل ناضج

إنها لا تريد أن يرفعها إلى حياة الترف والنعيم بل تريد أن ترفعه هى إلى حياة المجد والخلود . . . تريد أن تشعره بمتعة الروح وتآلف القلب وسحر التجارب، تريد أن تعلمه قصيد التمازج الكلى. تريد أن تسمعه أناشيد الهوى المستمر

تريد أن تكون له الزوجة بعواطفها والصديقة بعقلها والحبيبة بشغفها والأم بحنانها والأخت بعطفها وأخيراً أم أولاده بشجاعتها ويقينها ...

فهل يفهم هو كيف يوجهها إلى هذه الحياة ؟

وانسرحت الفتاة مفكرة فى مآلها ... واستعاد ذهنها صور كل الرجال الذين ينشدونها

فابتسمت على مضض مغمغمة : ولا واحد ... ولا واحد ...

ولكن رغبة الأهل ملحة . وهى فتاة رغم إرادتها وقوتها خاضعة لمشيئتهم فما عساها تفعل ؟ !

وفكرت طويلا... ومن غير وعى كتبت إلى الخطيب:

سيدى ...

كان المفروض أن تراني فى نهاية هذا الأسبوع لتعقد على كما اتفقتم ...

وأنا فتاة صريحة جريئة أفضل الموت مع الحق عن الحياة مع الباطل ..

أنت فى الواقع رجل طيب عظيم جدير بفتاة أجمل وأفضل منى ...

وأنا فتاة مريضة ... مريضة بالخيال يا سيدى ومثلى لا تصلح لرجل مثلك .. ستقول — كما قلت سابقاً — أنا راض بك على أى صورة ..

وهذا كرم منطق منك . . أما الحقيقة فلا بد أن تخضعك لمشيئتها فى مقبل الأيام عند ما تضمنى إليك فيواجهك قلبى المغلق وروحى السجين فى عالم مجهول ...

أنا لا أحبك يا سيدى ...

هذه هى الحقيقة المرة فاحتملها

ولا أحب أن تتزوج بفتاة لا تحبك . . . لأن حبك لى لا يكفى وحده لإسعادك ، بل الحياة العائلية تتطلب قسطاً وفيراً من حب المرأة ...

فكيف أعيش معك، وأنا لا أحبك؟ لا تنزعج فلست راغبة إلا فى إسعادك. أنا فتاة صريحة مؤمنة أخاف الله وأواجه الحقائق . فتناسانى يا سيدى وابحث لك عن فتاة تحبك ...

ودعنى أنا أعيش للرجل الذى أحبه ويحبنى ...

لم أشأ أن أواجهك بذلك على مسمع من أفراد العائلة فأخدش رجولتك ، لذا آثرت أن أهمس به فى أذنك ، لكى تنسحب فى هدوء وكبرياء كأنك أنت الذى عدلت وتنحيت ولن تلق لوماً

ولما انتهت من كتابة الرسالة اغتصبت بسمة مريرة وهى تقول :

لقد اعتبرت خلف الرجل جناية... فهل يسمى الخطيب تصرفى جناية أم تراه يحمد لى صراحتى .

جميلة العلايلى

مستر بالارد وشبيهه

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ طه ندا

— آه ، جميل أن أراك الآن يا عزيزى بالارد . كم أنا سعيد لرؤيتك . كيف حالك الآن ؟

ومد الرجل يده إلىّ وقد تألق وجهه وأشرق لرؤيتى . فابتسمت بدورى ومددت يدى إليه دهشاً وقلت :

— بخير على أى حال . ولكنى فقط ... لست بالارد !

— ماذا ؟ لستَ بالارد ؟ كيف ذلك ؟ منذ متى ؟ هل جننت ؟

— لا هذا ولا ذاك ، فلم أجن ولم أك يوماً ما بالارد هذا الذى تناديه

— لا تحاول أن تخدعنى . هذا شاربك ، وتلك قبعتك ، وهذا صوتك ...

— نعم ، نعم . هذا شاربى وقبعتى وصوتى ، ولكن اسمى راندل وليس بالارد

— لست بالارد ؟ يا للعجب . ألا تعرفه إذن ؟ ألم تتقابلا ؟ ألم تر بالارد ... بالارد الذي يسكن المنزل رقم ٣٤ شارع بلميكو فى الطابق الرابع الشقة اليسرى ؟

— لا أعرف شيئاً مما تذكر . لا المنزل ولا الطابق ، ولا بالارد كذلك

— اعذرني يا سيدى . أنا آسف لإرهاقك بالأسئلة وتشديدى معك . لستَ بلارد ؟ هيه ! قد يكون . ولكنى أرجو منك أن تذهب يوماً لتراه ، وما عليك إلا أن تقول له إنك مرسل من لدن صديقه براون ، وأنا كفيل لكما بعد ذلك بدقائق ممتعة تقضيانها فى دهش وعجب وضحك ، كما لو كنت تنظر نفسك فى مرآة . ما أحكم الشبه بينكما وما أصعب التفرقة ! أى توأمين أنتما ؟

ولما خابت فىّ ظنون هذا الرجل الذى استوقفنى عند ناصية شارع الملك وميدان سلون ، لم يجد بداً من أن يحيى وينصرف آسفاً . ولقد هززت كتفىّ سخرية من هذا الرجل الذى لا يفرق بين أصحابه وغيرهم من الناس ، وهممت أن أمضى فى طريقى لولا أن وقع نظرى على صورتى فى واجهة أحد المتاجر الزجاجية ، فقلت لنفسى :

— أهكذا أنت يا بالارد ؟ ألك هذا الشعر ؟ وهذا الشارب ؟ وهذه العيون التى تشبه عيون الفأر ؟ وهذا الصوت المنكر البعيد عن الجمال ؟ يظهر أن هناك صورتين طبق الأصل منا ، أنا وأنت ، وكثيراً ما يحدث هذا ، فإما أن تحلق شاربك ، وإما أن أزيل شاربى أنا

ثم سرت فى طريقى ، وأخذت أستعيد عنوان بالارد « ٣٤ شارع بلميكو ، الطابق الرابع ، الشقة اليسرى » وبينا أنا أسير مفكراً فى بالارد ، تنبهت إلى نفسى ، فوجدت رجلىّ تقودانى بطريقة آلية إلى هذا العنوان

لم أجد البواب فى مكانه حين وصلت إلى المنزل ولم تكن لى به حاجة ، فصعدت توا إلى الطابق

الرابع ، ثم ضغطت على زر الشقة اليسرى ، ففتحت الباب سيدة صغيرة مستديرة الوجنتين وقالت :

— آه. عزيزي . ها أنت ذا قد جئت أخيراً ، لماذا تضغط على الزر ؟ أأنت متعب ؟ لقد غبت كثيراً يا عزيزي وقد خفت أن يكون قد حدث لك حادث تعال . قبلني يا برتي

فأخرجت منديلي وأخفيت فيه وجهي، وحاولت أن أنسحب ، فلم أكن بالارد كما حسبتني أو برتي كما تدلله ، ولكنها لم تترك لي فرصة الكلام ، فاستمرت تقول :

هل أصبت ببرد ؟ هذا ما كنت أتوقع . ولكن ما هذا المنديل ؟ أين وجدته ؟ ومن أين أتيت تحمله .

فقاطعتها قائلاً :

— ولكن يا لويس

— لويس ؟ كيف تدعوني لويس ؟

— لأجملك تضحكين

— ولكن ليس هناك ما يدعو . تعال الآن إلى غرفة المائدة ، فقد أعددت من أجلك البيض والفطير والكونياك . وستفيدك كلها

ثم أسرعت المرأة الصغيرة إلى غرفة المائدة فتبعتها ، وكان كل همي منحصراً في أن أشرح لها حقيقة المسألة ، وأخذت أمر بيدي على جبهتي علّي أوفق إلى كلمة جميلة الوقع أستهل بها كلامي ، فقلت بعد لأي :

— اسمعي يا سيدتي . الآن منذ هنيهة عند ناصية شارع الملك وميدان سلون ...

ولم أستطع أن أزيد حرفاً عما قلت ، فقد هبت المرأة من مكانها مذعورة فزعة وصاحت باكية :

— يا للسموات ! لقد جُنّ برتي العزيز . آه يا ربي ماذا فعلت لأستحق هذا . . .

ثم أرادت أن تصل إليّ ، ولكن الإغماء الذي انتابها من هول ما حل ببرتي أفقدها توازنها وكادت تسقط لولا أن قفزت إليها وتلقيتها بين ذراعيّ وأجلستها على مقعد مريح ذي مسندين . وقد كان موقفي غايةً في الحرج خصوصاً وأنا لا أعرف ما أصنعه لهؤلاء الذين تنتابهم مثل هذه النوبات ، ولم أستطع أن أقدم لها من المعونة شيئاً — شأني في أمثال هذه المناسبات — سوى هذه الكلمات الجوفاء الحمقاء التي نطقت بها لأشجعها

وقد أثرت في أعصابي هذه الحادثة غير المتوقعة وأحسست الجوع . وما هي إلا ثوان حتى كان طبق البيض الذي أعدته المسكينة لبرتيها العزيز قد انتقل إلى جوفي . ثم أخذت ملعقة من ملاعق الشاي وملأتها بالكونياك وأخذت أصبه في شفتي مسز بالارد المتقلصتين ، واستجمعت قواي وقلت في صوت متقطع :

— لا شيء . لا شيء ... يا سيدتي . فلم يجن عزيزك برتي ، ها هو ذا آت وستفيقين . استمعي ، هاهو ذا يقترب وسترينه حالاً. أسرع. أسرع يا برتي

وقد وجهت هذه الكلمات الأخيرة « أسرع ، أسرع يا برتي » في صوت مرتفع إلى ذلك القادم الذي فتح باب الشقة بمفتاح معه ، ولم يضغط على الزر ، والذي لم يكن سوى صورتي وشبيهي مستر بالارد الحقيقي . وما أن وقع نظر برتي على زوجته

حتى أفلتت منه صيحة استغراب :

— آه يا ربى ! ما هذا أيها الرجل ؟

— لا شيء ، لا شيء يا سيدى

— هل كنت السبب فى هـذه الحالة التى تقاسيها ؟ ومن أنت ؟ وما تعمل فى غيابى ؟ وما هذا التنكر المفضوح الذى تصطنعه »

— سأفسر لك هذا يا عزيزى بالارد ...

— عزيزك بالارد ؟ كيف عرفتنى وأنا لا أعرفك ؟

— وأنا كذلك لا أعرفك إنما جئت إلى هنا لنتعارف

— لنتعارف ؟ أنت محتال . ما هذا التنكر الدقيق أيها النصاب ؟

— صه ... ها هى ذى تفيق

ثم فتحت المرأة عينيها وقالت :

— برتى . أهذا أنت يا برتى ؟ أوه . كم كنت مذعورة ! أأنت هذا الذى أرى حقيقة ؟ ألم تجن ؟ فاندفعنا نحن الاثنان إليها ، ووقف كل منا بجوار مسند من مسند القعد ، وأخذت المرأة تجيل فينا بصرها ، وتنقل طرفها منى إليه ومنه إلىّ ثم ترددت قليلاً كأنها تفكر ، وبعد ذلك مدت إلىّ ذراعيها وقالت فى لهفة :

— تعال . تعال قبلنى ... لم تقبلنى بعد يا خائن وأما أنت (مشيرة إلى زوجها) فلست برتى ، فاغرب من هنا ، ابتعد ...

فقال زوجها فى ألم : آه . أنت التى جننت يا بلا ألم تعرفينى ؟ وأما أنت (مشيراً إلى) فارحل من هنا حالاً ، وإياك أن نرى وجهك ثانية هنا

فأطعت وتقدمت إلى السيدة ، وقبلت يدها فى رفق ثم قلت :

— أقدم لك اعتذاراتى يا سيدتى ، وسيشرح لكم صديقكم براون كل شيء فى الوقت المناسب ثم تركتهما فى كبرياء ونزلت السلم فى هدوء ، وبينا أنا أهم بالخروج من الباب قابلنى البواب فى دهش وقال:

— أأنت خارج ثانية يا مستر بلارد ؟

— نعم . ولن أعود هنا ثانية

فحملق فى وجهى ، وفغر فاه ، وبدا كأنه لا يفهم وكيف يفهم ؟ ألستُ مستر بلارد الذى يسكن فى الطابق الرابع

ط . ن . ا

ناهـــد ...

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ محمد فتحي أبو الفضل

كان ذلك صيف العام الماضي ...

وكنت أقضي بضعة أسابيع في الأسكندرية بعد أن أعلنت نتيجة الامتحان فأصبحت أحمل لقب « دكتور جمال عبد المجيد »

كانت أمسية صافية من أماسي يوليو القمرة . غادرت المنزل الذي كنت أقضي إقامتي القصيرة به — على أمل أن ألتقي بعقيلة سامي ابنة المرحوم عبد المنعم سامي باشا ... التي كانت في حكم خطيبتي. سرت على مهل إذ لم يكن لدي ما يدفعني للسرعة فإن موعد عقيلة لن يحل قبل ساعتين . . . وأخذت أتصفح وجوه المارة في ذلك الشارع الراقص الذي يحازي شاطئ البحر ... كانت السيارات تندفع مسرعة بعضها إثر بعض حاملة شيئاً من اثنين : إما عاشقين ثملين بنشوة اللقاء ، وإما عاشقاً واحداً أطلق لسيارته العنان يستحثها على السرعة ليلاقي فتاته في الموعد الذي يعرفه هو ولا يعرفه أحد سواه ... وأخرجت لفافة أخذت أدخنها في بطء ، وأنا أتأمل الوجوه التي كانت تمر أمامي إلى أن لاح لي عن بعد قوام رائع التكوين ارتدت صاحبته ثوباً صافي الخضرة وأمسكت بيدها قبعتها الصغيرة وأخذت تطوح بها في حركة عابثة رشيقة فظهرت خصلات شعرها الأسود المنساب على كتفيها في دلال والذي كوّن مع جيدها العاجي تحفة رائعة من العاج المطعم بالأبنوس . كانت مديدة القامة في روعة فائقة ممتلئة الجسم في غير إفراط. كانت أنثى، أنثى بكل ما تحويه الكلمة من معان .. وتلاشت من مخيلتي في لحظة واحدة صور الفتيات الجميلات اللائي مررن عليّ أثناء وقوفي إذ لم تدع فتنتها مكاناً من نفسي لغيرها .. واقتربت الفتاة مني ولم تكد تراني حتى توقفت عن المسير وحدقت فيّ بعينين سوداوين عميقتين بان فيهما ألم بعيد، ثم رفعت حاجبيها اللامعين وهي تتمتم في صوت خفيض كله دلال وسحر : جمال ! . . . وأذهلتني المفاجأة ولكن سرعان ما استعدت في ذاكرتي صوراً سريعة من الماضي إلى أن وجدتها . وقبل أن تتم قولها : (ألا تتذكرني ؟) كنت أمد يدي مصافحاً وأنا أقول :

— ناهد ! كيف حالك ؟ أهلاً أهلاً ... فرصة سعيدة جداً ... إلى أين أنت ذاهبة ؟

— لست أقصد مكاناً

واندفعت الذكريات إلى رأسي أيام كنا نقطن شارع الملك بالقاهرة ، وكان يقطن بالمنزل المقابل المرحوم عثمان رضا بك والد ناهد ، وأحد تجار الأخشاب الذي ذهبت ثروته عقب صفقات خاسرة زعزعت مركزه المالي في السوق ، ثم قضى بعد ذلك بأشهر قلائل . ولم يكن للفتاة غير شقيق واحد يشغل إحدى الوظائف بجمرك الأسكندرية ؛ فأخذ شقيقته معه ثم انقطعت بعد ذلك صلة أسرتي بهما . وانقضت بعد ذلك خمسة أعوام لم أر فيها ناهد أو شقيقها إلى أن ألقت بها الظروف في طريقي هذه الليلة ...

وتعلقت بذراعى وهى تسألنى عن أفراد أسرتى : والدى ... والدتى ... أشقائى وشقيقاتى. وامتد بنا الحديث وتشعب إلى أن وجدنا أنفسنا أمام ذلك المقهى المعروف باسم (فلوريدا) وأحسست منها ميلاً لأن نغشاه فنمضى بعضاً من الوقت إلى جانب إحدى موائده الصغيرة المتناثرة ... وكنت إلى هذه اللحظة لم أسألها عن أحوالها الشخصية إذ أنها لم تترك لى تقريباً طوال الفترة التى انقضت منذ التقينا ـ فرصة لإلقاء مثل هذه الأسئلة ـ فبعد أن انتحينا مقعدين نائيين فى أحد أركان المقهى الكبير وجدتها تسألنى:

— جمال ... كيف حالك مع خطيبتك عقيلة ؟ ألم تتزوجا للآن ؟

ولكن بدلاً من أن أجيبها على سؤالها قلت لها :

— إنك لم تخبرينى يا ناهد عن حالك وحال أخيك ... لاحظت أنك لم تدعى لى فرصة لأن أسألك عن شىء ... هيا ... حدثينى عن نفسك . إننى فى شوق لسماع الكثير عنك وعن أخيك ... ألا يزال فى (الجمرك) ؟

— إننى لم أره منذ أمد بعيد

— من ؟

— أخى

— سالم ؟

— وهل هناك غيره ؟ ...

— ولكن كيف ؟

— أوه ... إنها قصة طويلة يا جمال

وأطرقت ناهد قليلاً ثم رفعت رأسها فجأة وهى تقول فى لهجة غريبة :

— اسمع ... ألا تزال تحب عقيلة ؟

— طبعاً ، ولكن لم هذا السؤال ؟ !

— أجب أولاً ...

— نعم ... يقيناً أحبها

— ولكنك تعرف أن « مصطفى » أحد أبناء خالتها يحبها حتى الجنون ... ألا يمكنك أن تتركها ليتزوجها ؟

— والله .. إذا راق لها أن تتزوج من مصطفى فهى حرة

— وأنت ... ماذا يكون موقفك لو أقدمت هى على هذا العمل ؟

— لا شىء ...

— مطلقاً ؟ !

— لست أدرى

— ألا تتزوج ؟

— لست أدرى

— وإذا تقدمت أنا إليك راجية أن تتخذنى زوجة ... ألا تقبلنى ؟ أجب ... ولكن فى صراحة

ودهشت أنا لهذه الأسئلة الغامضة التى كانت تلقيها ناهد علىّ فقلت لها :

يبدو لى يا ناهد أنك تخفين عنى أشياء أرجو أن تصارحينى بها أولاً ثم بعد ذلك يمكننى أن أجيبك على كل ما تريدين

وأخرجت الفتاة منديلاً صغيراً أزالت به دموعاً تساقطت على وجنتيها الجميلتين وهى تقول فى صوت مختنق : إننى ... إننى أبحث عن ... عن رجل ... لا تأخذك الدهشة ، فهذه هى الحقيقة !

وذعرت أنا لهذه الكلمات ، وأيقنت للتو أن ناهد رضا ابنة المرحوم عثمان رضا بك تاجر الأخشاب الذى جاور أسرتنا طويلاً فى القاهرة ... تعانى العجز

فى اجتياز مرحلة من أدق وأخطر المراحل التى تصادف فتاة قسا عليها القدر ، فاقتربت منها وقد أثار حديثها شفقتى ، فأخذت تسرد لى مأساتها الدامية :

كان ذلك منذ عامين عندما توفى أبى ، ثم جاء بى أخى سالم إلى هنا كما تعلم ... لم أكن أعرف أحداً فى الأسكندرية ، ولكنى لم ألبث أن صادفت فتاة كانت تكبرنى ببضعة أعوام ... وتبودلت الزيارات بينى وبينها ... فكانت النتيجة أن شغف بها أخى نخطبها لنفسه ، ولم تمض أشهر حتى تم زفافهما ، وأصبحت صديقتى (امتثال) زوجة لأخى. لا يمكنك أن تتصور كيف كان فرحى بهذا الزواج ، والفضل فى إتمامه لم يكن إلا لى أنا وحدى. كنت سعيدة فرحة بصديقتى وزوجة أخى التى كنت أثق أنها تبادلنى حباً بحب . . . ولكن فى لحظة واحدة تبين لى ما لم أكن أفكر فيه مطلقاً ، وهو أن صديقتى وزوجة أخى كانت برمة بى وبإقامتى بمنزل أخى الذى ليس لى سواه ، فقد هيأت لى مصادفة لم تكن فى الحسبان سماع هذا الحديث بين أخى وزوجته :

— تقدم إلى يا امتثال رجل يروم الزواج بناهد

— شىء جميل ، أسرع بإجابة طلبه ، إن ناهد عروس نادرة !

— ولكن !

— ماذا ؟

— إنه شيخ !

— شيخ ! تعنى أنه بلغ المئة ؟

— لا ، لست أقصد ذلك ، إنه يربو على الخمسين. حقيقة إنه يشغل منصباً ممتازاً فى البنك الألمانى براتب يكفل لها السعادة ... ولكن لا تنسى يا امتثال أن ناهد لم تكمل الحادية والعشرين إلا منذ أسابيع

— أنا لا أفهم كلاماً كهذا. إن هذا لا يعيبه. إنك تكبرنى بأكثر من خمسة عشر عاماً يا سالم . إن ناهد لم تعد صغيرة ومطالبها أيضاً ليست بالهينة ، والستة عشر جنيهاً التى تتقاضاها لا تحتمل هذا الإرهاق لا سيما بعد أشهر فسيكون مولودنا قد رأى النور. أنت نائم ! (جوّزها) يا شيخ ... هى تستريح ونحن أيضاً نستريح ... إنك لا تدرى كم أعانى من التضييق فى المصروف ... هيا هيا ... توكل على الله ... إن الشبان قد أعرضوا عن الزواج فى هذه الأيام ... حد لاقى !

سمعت هذا الحديث فأحسست بخيبة مرة أليمة ، فقد تحطم ذلك المثل الكامل الذى كنت أعبده فى شخص امتثال ، وعرفت قيمة حبها لى عند ما تبينت أنها لم تصادقنى إلا من أجل شقيقى ... أمضيت هذه الليلة فى غرفتى وقد أنهكنى البكاء الذى دام إلى الصباح . وأحسست بكرامتى تهيب بي أن أقف موقفاً أصون به هذه الكرامة من أن تمس بسوء ، فمنذ ما فاتحتنى زوجة أخى فى الموضوع أظهرت لها ارتياحاً كبيراً لهذا العرض ، بل تماديت فى إظهار فرحى إلى أبعد حد ... أحنيت رأسى وقبلت الزوج الكهل مرغمة إذ لم أرض لنفسى البقاء فى دار لا ترغب ربتها فى بقائى حتى ولو كانت هذه الدار دارى

***

وانقضى عام ولدت أثناءه « سامية » وكان فرحى بها فوق الطاقة فقد عوضتنى عن عام طويل شاق قضيته إلى جانب زوج كهل متهتك لم تكد تمضى أربعة أشهر على زواجى به حتى عاود سيرته التى

اعتادها طوال حياته من السهر والتنقل بين أذرع بائعات الهوى ... كانت سامية عزائي الوحيد عن شبابي الذي دفعته ثمناً لكرامتي واعتزازي بكبريائي. حاولت أن أصلح من أمر زوجي ولكني كنت كمن يطفئ النار بالزيت ... إلى أن ترامى إلى سمعي أنه اختص إحدى راقصات ملهى كبير في الإسكندرية بحبه وماله ووقته ... كانت هنغارية على ما سمعت وقد علمت أيضاً أنها أخذت تغريه على أن يقدم طلباً بنقله إلى فرع البنك بالقاهرة حتى يتسنى لهما أن يعيشا بعيداً عني

وأصيبت سامية في هذه الفترة بالدفتريا التي لم تمهلها أكثر من أسبوع فقدتها ففقدت العزاء الأخير الذي كان باقياً لي في الحياة . . .

ولم تكد تمضي أيام قلائل على وفاة سامية حتى طلب إلى زوجي أن أقضي بضعة أيام بمنزل أخي حتى يتسنى لي أن أتعزى عن مصابي ... كان نذلاً إذ لم يترفق بزوجة أمضت إلى جانبه أكثر من عام كانت أثناءه مثال الطاعة والوفاء فلم يمهلها بعد أن فقدت طفلتها التي تعبدها فأرسل إليها وثيقة الطلاق ولما يجف بعد لحد ابنته ... أرسل إلى وثيقة الطلاق ومبلغاً ضئيلاً مضافاً إليه متأخر صداق حتى لا ألجأ إلى القضاء . . . لم يكن ألمي لهذه النهاية شيئاً يذكر إلى جانب شيء واحد وهو أنني عدت ثانية إلى منزل أخي الذي باعني سلعة رخيصة بعد أن زينت له زوجته هذا البيع دون أن أجني شيئاً ، ولكنني يتيمة يا جمال . . . واليتيم دائماً ثقيل الحمل ولو على أقرب الناس إليه .. وكانت امتثال زوجة أخي قد أنجبت في هذه الفترة ولداً اسمه عادل شاءت الظروف أن يصاب بالدفتريا بعد إقامتي بينهم بشهرين اثنين قاسيت فيهما ألواناً من المرارة ... أصيب بالدفتريا ولحق بابنتي سامية ... وهنا فقطيا جمال رأيت زوجة أخي وصديقتي السابقة تلبس جلد نمرة غادرة وتعلن في جرأة وقحة أنني السبب في وفاة ولدها لأنني حملت المرض من سامية فانتقلت العدوى إلى عادل . . . وثارت المرأة وفاهت بألفاظ كنت أود أن أنزهها عنها ... ألفاظ ختمتها بقولها وهي تصرخ في بشاعة :

— أنت خربت بيتي . أنت شؤم على بيتي . لولاك لما مات ولدي . لقد كنا في راحة طوال بعدك عنا. تأكدي أنني لن أمكث في بيت تضمك جدرانه

ولعلك يا جمال تسألني عن موقف أخي في هذه اللحظة ، وأنا أسرع فأقول لك والخزي يخفض من رأسي إنه انضم إلى زوجته في كل ما رأت وفي كل ما قالت وكأنه أراد أن يسبغ على الموقف لوناً من البساطة فانتحى بي جانباً وأفهمني في عبارة قصيرة أن أستأجر منزلاً ، وأنه سيتردد على دائماً ، وأن ما معي من النقود سيكفل لي حياة سعيدة إلى جانب ما سيمدني به إذا ما أعوزتني الحاجة ... لم أكن في حاجة إلى سماع هذا الاقتراح منه بعد أن كنت قد صممت على ترك المنزل إلى حيث لا رجعة، فتركته بعد أن أتم حديثه دون أن أعلق بكلمة واحدة . ونظرت إليه نظرة طويلة حملتها كل معاني الاحتقار أرسلتها إليه فشملته من رأسه إلى قدميه. لم يكن لدى متسع من الوقت لأن أفكر في الذي سأصنعه بل أسرعت بجمع كل ما يخصني في المنزل وقصدت أحد الفنادق المتوسطة فاستأجرت إحدى

غرفه المنعزلة بعد أن غيرت اسمى الحقيقى . كنت قانعة راضية بعد أن لفظنى بيت أخى . لم أكن أملك إلا البكاء . ولم أكن أغادر المنزل إلا فى القليل النادر لمزاولة رياضتى المحبوبة ، وهى السير فى طريق (الكورنيش) كما قابلتنى الليلة ... دائماً وحدى... لم أتخذ صديقة بعد أن علمتنى امتثال ما هى الصداقة؛ وأظنك ستدهش إذا أخبرتك أننى لم أر وجه أخى سالم طوال هذه الفترة . خمسة أشهر تقريباً انقضت علمت بعدها أنه نقل إلى (جمرك) بور سعيد دون أن يكلف نفسه عناء البحث عنى ليودعنى قبل سفره .

إلى أن كان ذلك اليوم الذى أتى فيه لزيارتى فى الفندق أحد من يمتون بقرابة بعيدة إلى والدى ، وعرض علىّ أن أنتقل إلى داره ، وأظهر لى ما فى إقامتى فى النزل من عار لا يحتمله ... رفضت فى بادئ الأمر ... رفضت فى إباء واعتزاز ، ولكنه سد علىّ كل السبل ، وأفهمنى أن رفضى هذا لا محل له ، وأنه سيكون لى بمثابة الأب ، أو على الأقل بمثابة الأخ الأكبر ، وخصوصاً أن والدته ستكون معى فى المنزل . واستعرضت حالتى على ضوء الحقيقة التى لا زيف فيها ، فوجدت أن المال الذى كان بين يدى قد تسرب ، فلم يعد لى منه إلا بضع ورقات ، لن تبقى إلى أكثر من شهر أحس بعده بالحاجة ، ففضلت أن أذعن لمشورته ، وقبلت ذلك العرض شاكرة له جميله ... انتقلت إلى منزل ذلك القريب بعد أن دفع عنى لصاحب النزل حساب الأيام التى أمضيتها من الشهر . . .

وبدأت مرحلة جديدة من الحياة ، لم يكد يمضى شهر على انتقالى إلى منزل ذلك القريب ، حتى شعرت بأنه بدأ ينظر إلىّ نظرات غريبة ، فيها الرغبة وفيها الاشتهاء ، وفيها كل ما يمكن أن يقال عن نظرات يسددها رجل إلى فتاة شابة لم تتعد الثالثة والعشرين ولم يستحِ الرجل من أن يغازلنى مغازلة بدأت هادئة لينة خفية ، ثم أصبحت ثائرة جريئة وقحة عندما رأى منى الإعراض التام ... إلى أن كانت تلك الليلة التى استيقظت فيها من فراشى مذعورة ، عندما أحسست بيدين تلمسانى ، وأضأت المصباح بسرعة ، فإذا بذلك النذل واقفاً وقد تأهب لمهاجمتى ، ولكننى أفلت بسرعة ورفعت يدى وأهويت بها على وجهه فى غيظ ، ولم أتمالك من أن أصيح به :

— يا نذل !

وأهاج هذا شعوره فظهر لى على حقيقته وحشاً آدمياً مجرداً من ذلك الإهاب الزائف الذى كان يرتديه يوم أن طلب إلى الانتقال إلى داره ... وسمعته يقول فى صوت مختنق :

— لقد آويتك يا فاجرة فى منزلى بعد أن طردك أخوك وهو أقرب الناس إليك فكان هذا جزائى منك . . . إن أخاك لم يطردك عبثاً . . . لقد طردك بعد أن لوثت اسمه وصارت سيرتك فى كل الأفواه . فلم أتمالك أن صحت به فى أنفة : (اخرس . . .)

ولم أطق البقاء تحت سقف هذا المنزل فجمعت كل مالى وبارحته دون أن يشعر بى أحد . كانت عقارب الساعة تقترب من النصف بعد الثانية عشرة ولم أجد من نفسى الشجاعة على العودة إلى النزل الذى كنت أقطنه من قبل فقد خجلت أن أقابل

صاحبه فتندفع إلى خيالاته الظنون

قصدت إلى نزل آخر أكثر تواضعاً من الأول وخصوصاً عند ما بحثت فى محفظتى فلم أجد بها أكثر من ثلاثة جنيهات وبضعة قروش . . . وألقيت بنفسى على الفراش وأخذت أبكى دون أن أتمكن من الإجابة على سؤال واحد ظل يراود خيالى: « ألا يوجد من يقدم معروفاً دون أن يتقاضى الثمن ؟ ألا يمكن للرجل أن يتقاضى ثمناً غير هذا الذى كان يود اغتصابه ذلك القريب ؟ » وغلبنى النوم فلم أصح إلا فى صباح اليوم التالى

وهنا زفرت ناهد زفرة طويلة حادة وقد غلبها البكاء ثم تناولت كوباً من الماء ورشفت منه رشفة وعادت تقول :

— لقد مضى على شهر فى ذلك النزل ، ولقد تصرفت اليوم فى آخر قطعة فضية أملكها من ذات المشرين قرشاً . ولست أدرى ماذا يصنع بى الغد ··· إننى أبحث الآن عن رجل يتزوجنى ياجمال . إسمع ··· لتكن أنت منقذى من الهاوية ··· إننى على استعداد لأن أذهب إلى عقيلة وأقنعها بالزواج من ابن خالتها الذى يحبها ··· جمال ··· أتقبل أن تتزوجنى؟ أنت أعرف الناس بى وبأسرتى ، وإننى أشعر أنك واثق تماماً من أننى لم أتلوث ... ألا ترانى جديرة بك ؟ تكلم

— الواقع يا ناهد ···

— ماذا ؟ تكلم ···

— لست أدرى ماذا أقول ··· كنت أتمنى طبعاً أن أحقق ما تعرضين ولكنى ···

— ولكنك لا تستطيع ··· أليس كذلك ؟

— لقد ارتبطت مع عقيلة وأعطيتها وعداً فأنت ترين أننى كرجل شريف لا ينبغى أن أحنث فيما وعدت

— أترك لى تدبير هذا الأمر ··· سأقابل عقيلة وسأقنعها ··· إنها صديقتى كما تعلم ··· أترك لى هذا الأمر ···

— ثم لا تنسى أننى أحبها يا ناهد منذ خمس سنوات منذ أن كانت أسرتها تقطن حدائق القبة بالقاهرة ···

— جمال ··· إننى أرجوك ··· أنقذنى ··· أوه ··· إنك لا تدرى أى مصير أليم أنا مسوقة إليه

— أنا واثق من قرب الفرج يا ناهد ··· لا تقلقى ··· يعز على كثيراً ألا أحق رجاءك ولكن ما حيلتى ··· ؟

— أترى ··· إننى أتوسل إليك ... ألا يمكنك التضحية بحبك من أجل ناهد ··· ناهد التى عرفتها قديماً ، والتى ربطت الصداقة بين أسرتها وأسرتك فترة طويلة ... كن رجلى ياجمال ··· ألا ترانى جديرة بحمل اسمك ؟ ألست أروقلك كزوجة؟ ألا تستطيع أن تحبنى فى المستقبل ؟

وخنقت الدموع الفتاة ... وأخذت شتى العواطف تتضارب فى رأسى . . . إن ناهد فتاة جميلة ، بل إنها ليست عادية الجمال فإننى أتذكر تماماً أن فتنتها قد أخذت بلبى وهى قادمة علىّ فى طريق (الكرنيش) هى وحدها التى استرعت اهتمامى دون مئات الفتيات اللائى مررن بى قبلها ؛ ثم إنها تنتمى إلى أسرة طيبة ، فوالدها رجل عرفته أسرتى وعرفته أنا شخصياً جليل المقام اشتهر بالسيرة المحمودة . ثم فوق ذلك إنها تكافح كفاحاً هائلاً لكى تعيش، فقد قبلت أن تذل كبرياءها وتعرض علىّ هذا العرض . بل إنها توسلت إلىّ ولم يدفعها إلى

ذلك إلا الخوف من أن تجرفها الحياة نحو الظلام . وقارنت ناهد بعقيلة ولكنى وصلت فى النهاية إلى نتيجة سلبية وهى أن ناهد وإن كانت فتاة تحقق الكثير من أحلام شاب يروم الزواج فيحيا حياة هانئة سعيدة ... إلا أن عقيلة كانت تحتل المكان الأكبر من قلبي ، وإننى لن أتمكن من العيش مع غيرها .. وشد ما تمنيت فى ذلك الحين لو كنت خالى الفؤاد حتى يمكننى أن أسعد إلى جانب ناهد فأسعدها إلى جانبي ، ولكنى كنت قاسياً جباراً فاقد الشعور لدرجة الوحشية ، إذ أننى رغم كل محاولات ناهد اعتذرت لها عن عدم إمكانى تحقيق أمنيتها . ثم نظرت فى ساعتى فإذا بموعدى مع عقيلة قد حل منذ عشر دقائق ، وشعرت ناهد برغبتى فى الانصراف فنهضت وهى تقول لى فى لهجة حاولت عبثاً أن تخفى منها رنة الانكسار والألم :

— أستودعك الله يا جمال .. إنه (مكتوب) ولا مفر منه

وعند ما وضعت يدها فى يدى لتودعنى أخبرتها بأنى سأقيم فى الإسكندرية إلى منتصف الشهر القادم وأنه يمكنها الاتصال بى فى الفندق الذى كنت أمضى به هذه الأيام فى أى وقت تعوزها الحاجة .. ولما حاولت دس بضع ورقات مالية فى محفظتها أبت وهى تقول :

— لا لزوم لهذا ... سأتصل بك إن احتجت . أشكرك كثيراً . . . أشكر جميلك . . . الوداع يا سيدى !

— بل إلى اللقاء يا ناهد

— لست أدرى ... الوداع ...

وبارحت ناهد (فلوريدا) وأخذ قوامها المديد يختفى بين جموع الناس فى الطريق . . . وأسرعت أنا إلى موعد عقيلة وقد كان انقضى عليه أكثر من ثلث ساعة ... انتظرت ما يقرب من الستين دقيقة ، فلما لم تأت أيقنت أنها أتت فى الموعد المحدد فلما لم تجدنى انصرفت . . . وآلمنى عدم رؤيتى عقيلة فقصدت إلى شاطئ ستانلى عساى أروح عن نفسى مما بها ... جلست على أحد المقاعد المتناثرة أمام مقهى (باسترودس) وأخذت أرشف قدحاً من عصير البرتقال وأنا أستعرض وجوه رواد المقهى .. ولم يفلح نسيم البحر الليلى الفاتر فى أن يحررنى من ذلك الضيق الذى انتابنى لعدم رؤية عقيلة ، فنهضت عن مقعدى وأخذت أشارك جموع المتريضين فى السير على رمال الشاطئ جيئة وذهاباً ... وامتد به المسير فى إحدى الروحات إلى آخر الشاطئ من الجهة التى إلى يسار النازل من الطريق العام إلى رمال ستانلى .. وعند آخر (كشك) خشبى من (أكشاك) الاستحمام اخترقت سمعى ضحكة شككت فى صاحبتها . كانت (الكابينة) مغلقة فبدا من خصاص الباب ضوء فاتر ضعيف ... وتسمرت قدماى عند ما عادت الضحكة ترتفع ثانية ، ولكن فى جلاء أكثر من المرة الأولى . وأحسست بدمى يهرب من جسدى عند ما سمعت صوتها ، وهى تقول فى دلال :

— سأخاصمك إن لم تفعل ما قلت لك . هيا . من أجلى . . . من أجل عقيله . . . وعاد الدم يندفع ثانية إلى رأسى عند ما سمعت صوت شاب يقول :

— وأنا ... أليس لى أن أطلب إليك شيئاً ؟

— كل رغبة لك مجابة

— ألم أطلب إليك أن تقطعي علاقتك بجمال ؟

— أوه لقد انتهينا من هذا الموضوع ووعدتك بتنفيذ رغبتك . . . إنك ترى كيف تخلفت عن ميعاده اليوم

اكتفيت بذلك القدر الذي سمعته، وحملتني ساقاي إلى أول عربة أوصلتني إلى الفندق الذي أمضيت به ليلة حالكة السواد . ولاح لي خيال ناهد ، فأشرق وجهي ، وصعدت ابتسامة عريضة إلى شفتي ، ولكنها تلاشت في الحال إذ تذكرت أنني لم أستفسر منها عن عنوانها ... وعدت أتعزى عن ذلك بأنني لا بد ملاقيها ما دمت أواصل البحث عنها . ومر أسبوع حفيت فيه قدماي دون جدوى ، فقد اختفت تماماً وتعذر العثور عليها ، وآلمني ذلك الإخفاق المرير ، وتمنيت لو عثرت على ناهد لكي أجثو أمام قدميها لأقدم لها اسمي ومالي وقلبي ، طالباً منها الصفح ، راجياً أن تقبلني زوجاً . إلى أن كان مساء الأحد من الأسبوع التالي ، وإذا بي أرى ناهد وهي تؤدي رقصة مضطربة على مسرح أحد الملاهي التي تحتشد بها الأسكندرية أثناء فصل الصيف . كانت نصف عارية ، لا فرق بينها وبين أية راقصة أخرى قضت حياتها الأولى في التسكع على أرصفة الطرقات . وارتعد جسدي إذ ذاك ، وكدت أكذب عيني ، ولكني أيقنت أنها هي ناهد بعينها عندما جلست إليها لأستفسر منها عما دفع بها إلى هذه الحياة . ومرت ثوان لحظت أثناءها أن دموعها قد ابتدأت تتساقط على خديها الأسيلين ، ثم رفعت رأسها وهي تقول في صوت خافت ، ولكن فيه عمق وحسرة :

— لا تتألم كثيراً لرؤيتي هنا ، وعلى هذه الحال. إننا لا نملك الآن أكثر من الألم. إن ما مر بي يا سيدي أقل بكثير مما بقي لي في هذه الحياة، وما لقيت من إعنات أو هي وأضعف مما سوف ألاقي . لقد أعددت نفسي لأن تحتمل الحياة إذا انحدرت بي إلى أكثر من هذا

ولما رأيتها تهم بمغادرتي أمسكت بذراعها ورجوتها أن تستمع إلي ... قصصت عليها ما كان من اكتشافي لخيانة عقيلة ، ثم رجوتها أن ترتدي ملابسها لتستعد لمصاحبتي إلى القاهرة حيث نربط حياتينا برباط الزوجية، لكنها هزت رأسها في حسرة واندفعت الدموع إلى عينيها ثانية وهي تقول :

— جئت متأخراً ··· لقد رجوتك منذ أيام أن تقبلني زوجة ··· أذللت نفسي أمامك ولكنك أبيت فهل خيل إليك أنني أقبل هذا العرض الآن بعد أن اكتشفت خيانة من كانت في حكم خطيبتك؟ لا يا سيدي ··· لقد سقطت ، وإنني أرفض أن أقدم اليك نفسي ساقطة بعد أن رفضت قبولي طاهرة... إنني أخشى أن يجيء يوم تختلف فيه فتذكرني بأنك انتشلتني من بؤرة ... ولقد كان من الخير لك ولي أن تنتشلني من الفقر طاهرة لا أن تقبلني بعد أن فقدت خطيئتك ساقطة ملوثة . . . لقد دُفِعْتُ إلى هذه الحياة دفعاً لكي أعيش بعد أن انقضى عليّ أسبوع كابدت أثناءه ألم الجوع ولاح لي خلاله شبح الموت مراراً — الوداع يا جمال — لا تتألم كثيراً

فهذه هى الحياة ... قد نلتقى ثانية

وتركتنى ناهد كالمأخوذ واختفت خلف ستائر المسرح استعداداً لظهورها المقبل . وحملنى القطار فى مساء اليوم التالى إلى القاهرة . وعند ما اختفت عنى مبانى الأسكندرية تدافعت دموع الندم إلى عينى ، فقد شعرت أننى الوحيد المسؤول الذى دفع بناهد إلى هذا المصير ، وأحسست بحسرة أليمة عنــد ما تبين لى أننى رفضت النعمة التى ساقها القدر إلىّ عند ما توسلت إلى ناهد أن أقبلها زوجة فكان موقفى إزاءها هو الذى قذف بها إلى الهاوية

إننى شقى يا صديقى . فناهد الآن تعمل راقصة بينما أشقى أنا بالذكرى وبحبى لها الذى يتضاعف على مر الأيام

* * *

روى لى صديقى الدكتور جمال عبد المجيد فصول هذه المأساة .. وتبينت أنه يعانى ألما هائلا لعدم توفيقه فى إقناع ناهد بالزواج منه . ثم أخذت طبقة لامعة من الدموع تبرق فى عينيه وسمعته يقول فى صوت متهدج:

— لقد رفضت اليد التى امتدت لانتشالها من حياتها الماجنة ، لأن هذه اليد هى نفسها التى أبت أن تمتد إليها لتحول بينها وبين السقوط

لقد عزت عليها كرامتها حتى وهى راقصة !

« الزقازيق » محمد فهمى أبو الفضل

ذيول الحـــادث

عن الإنجليزية

بقلم الأديب سليم أ. عبده

بينما كان رئيس الشرطة غارقاً فى أفكاره ، مستسلماً لتأملاته ، يتبع بنظره تموجات الدخان الصاعدة من لفافة تبغ كان يدخنها ، دخل عليه زائر بادى الاضطراب ، شاحب اللون ، غائر العينين يخيل لمن يراه أنه يشكو أرقاً طويلاً ، وكان يمشى متثاقلاً كأنه ينوء تحت حمل سر خطير ... فتهالك على مقعد أمام الرئيس ، وابتدأ الحديث من غير تحية ولا سلام :

— إذا لم يخطئ ظنى، فإن رجالك الآن يتحرون دار المستر جين أرنوت ليقفوا على آثار الجانى ، بعد أن عثروا على قتيلين : أحدهما رجل ملقى على الأرض، والثانى زوج صاحب الدار ملقاة فوق مقعد ...

فقاطعه الرئيس قائلاً :

— أصبت ... ويبدو لى أنك تعلم عن الحادث الشيء الكثير ...

— نعم . نعم . أرجو أن تدعنى أنتهج الخطة التى أريد فى سوق الخبر إليك ، لأنى صحبت أرنوت عدة سنوات كان لى فيها خير رفيق ... فقد حدثت هذه الجريمة المزدوجة ليلة البارحة ، وكانت نتيجة حتمية لعذاب نفسانى برّح بأرنوت منذ شهور ... ولكنه لم يكن قد تذوق منتهى العذاب إلا بعد وقوع الجريمة ... فاجتاحته عاصفة من الآلام النفسية ، ليس فى وسعه أن يتحملها ... فهل تعلم — أيها الرئيس — عنها شيئاً ؟ ...

فهز الرئيس رأسه نفياً وهو يحدق فى هذا الزائر العجيب الذى استمر يقول:

— إن أرنوت رجل ذو ثراء واسع ومصالح عديدة متنوعة ، تتطلب — غالباً — غيابه عن المدينة عدة أيام لتدبير شؤونها، وللوقوف على سير أمورها. أما داره ، فإنه لم يدخر وسعاً فى تأثيثها على أحسن ما يكون ، لتكون صالحة من كل الوجوه لسكن زوجه ... تلك الفتاة الجميلة الساحرة التى خلبت لبه عند أول نظرة ...

— ولم تقص على كل هذه الأمور ؟ ... قاطعه الرئيس بهذه العبارة ... أما الزائر ، فاسترسل فى حديثه فى شيء من الدهشة ...

— تمهل قليلاً أيها الرئيس فستعلم كل شيء .. فقد كانت زوج أرنوت امرأة فتانة الجمال ، وهى المرأة الوحيدة التى أسرت أرنوت بسهام لحظها ، فجن بها من أول نظرة وصار لا يعرف للعيش طعماً إلا بقربها ... وبعد لأى وُفق إلى الاقتران بها ... فهو لا يضن عليها بحاجة مهما غلت ، ولا يقصر فى أمر مهما عز، إن كان فيهما ما يمت السرور إلى تلك الحبيبة الساحرة ... ولكن نيران الغيرة التهبت فى صدره فجأة ، فقد كان

يغار عليها من كل عين ترنو إليها سوى عينيه ، ومن كل رجل يبادلها الحديث سواه . . . ولم يكن ذلك لأنه لا يأمن جانبها ، أو لأنه يشك فى عفتها وطهارتها ، بل لأنه كان يحبها حباً يقرب من العبادة ويعتقد أن أقرانه من أصحاب الجاه يحسدونه لأنه يملك هذه الدرة الغالية المتلألئة فى داره ...

إن أرنوت أيها الرئيس رجل من طراز خاص ، فإنه بالرغم من هذه العاطفة الجامحة التى تمتاج فى صدره لم يبد على وجهه أثر لهذا الشعور المضنى .. بل كثيراً ما كان يبدو هادئاً رابط الجأش محتفظاً بسكونه وفى باطنه عراك عنيف بين عقله وغيرته .. وهو فى هذه الحال يتصور أن أحلى أمنياته أن يلبى أى طلب تسأله إياه . . .

فأوقفه الرئيس عن الحديث بإيماءة من يده وقال : أراك ملماً بحياته الخاصة إلى حد بعيد

فأجاب الزائر : كنت صديقاً مخلصاً له ومطلعاً على جل أموره . . . فأحنى الرئيس رأسه موافقاً واستمر الزائر :

— كان لأرنوت صديق يدعى « پول ليس » ألزم له من ظله ، جمعتهما مدرسة واحدة فى زمن الطفولة وبقيا صديقين وفيين حتى ساعة الجريمة .. وكان « ليس » أعزب وقد تم تعارفه بزوج صديقه بعد اقترانه مباشرة ، ولم يكن أحد ليدرى ما يخبئه القدر وراء تعارفهما ... أخذ « ليس » يرعى زوجة صديقه ويصحبها إلى أماكن اللهو والتسلية فى غياب ذلك الصديق أرنوت الذى كثيراً ما تستدعى أعماله هذا الغياب ... ولما نمى إليه هذا الأمر ، تصنع الرضا أمامهما ، ولكنه فى الحقيقة بدأ يرتاب فى صديقه « ليس » تحت وطأة تلك الغيرة الملتهبة فى صدره ، وكان وجهه الهادئ الرزين ، وابتسامته الرقيقة ، يخفيان تحتهما هذا الشك القاتل ... تذكر أيها الرئيس أن أرنوت رجل كسائر الرجال يعرف الكثيرين ممن غدروا بأصدقائهم وخانوا شرفهم ... وقد يعترض أحد الناس قائلاً : إن أرنوت كان مخطئاً فى ارتيابه ما دام واثقاً من صديقه ، ومؤمناً فى طهارة زوجه وعفتها ... ولكن أيها الرئيس نحن — أنا وأنت — نعلم أن الغيرة عامل نفسانى يثور لأقل وهم وأدنى شك ... وبقى أرنوت يحترق بين لهيبين ، لهيب الحب ولهيب الغيرة والشك ، وهو بين اللهيبين يحس بنار الجحيم تضطرم بين ضلوعه

لم يظهر أرنوت أى أثر لهذا الشك بل تمالك شعوره التام حيالها ، وأخذ يعاملهما كما عاملهما من قبل ، ولكنه كان ينتظر وينتظر ... ويفتح أذنيه لكل كلمة تدور بينهما عسى أن يجد بها ما يؤيد شكه وارتيابه ، بل كان يتتبع كل نظرة منهما تدنيه إلى رأى قاطع ، وأخذ يراقب كل إيماءة أو حركة ويؤول كل لفظة بما يلائم شكه . فقاطعه الرئيس قائلاً :

— ولمَ لم تحاول تخفيف هـذه الحال عن صديقك ؟

فأجاب الزائر :

— إن أرنوت لم يكن يزحزحه أى رأى أو نصيحة عن شكه ، إنه آمن بهذا الشك إيماناً مطلقاً . . .

وفى يوم آب أرنوت إلى داره بعد سفرة شاقة فحادثته زوجه عن « ليس » ورعايته لها ، حتى تولاه غضب عظيم فصرخ :

— أراك تبذلين له من العناية أكثر مما يستحق ... بل أكثر منى ... و

ولـكنها أجابته بابتسامة هادئة ثم قالت :

— إنك تهينني يا أرنوت . . .

فقد كانت أيها الرئيس معتزة بكرامتها ... ومن ذلك الحين أخذ أرنوت يتحين الفرص ليفاجئهما في خيانته كما يعتقد . ولما طال به الزمن أخذ يعد المدة لفخ يوقعهما به متلبسين بالخيانة ... فأعلن أرنوت لزوجه أن أمراً استدعى سفره إلى خارج المدينة ... وصحبها عند المساء إلى غرفة النوم وأشعل لفافة من التبغ وجلسا يتحادثان فقال أرنوت :

— هل يزورك « ليس » هذا المساء ؟ وانتظر جوابها وهو يحدق في دخان اللفافة المتموج تجنباً لأي أثر قد يبدو في عينيه

فأجابته :

— لا أعلم ... فإنه يزورنا من غير موعد ...

ونهض بعدها أرنوت وودع زوجه وهي في حلة المساء أشبه بالزهرة الندية الفواحة وذهب إلى غرفته يجمع بعض أوراقه وغادر الدار . . . إلى سفرته المزعومة ... وما ابتعد قليلاً حتى اختبأ في منعطف إحدى الطرق يترقب . . . فبان له شبح من بعيد دنا من باب الدار وولج إلى الداخل ... ذلك الشبح أيها الرئيس هو « ليس » بعينه . . . أما أرنوت فأخذ يهدئ من روعه ويتغلب على شعوره حتى عاوده الهدوء ... ومكث في مخبأه مدة يتأهب فيها للمفاجأة المنتظرة . . . ثم قفز إلى الشارع ومضى إلى داره . وكان صديقه وزوجه جالسين في المقصف يتسامران بحشمة ووقار حين اندفع إليهما أرنوت ووقف يحدق فيهما . فصرخت الزوجة : أرنوت ! بعد أن غلبتها الدهشة لهذه العودة المفاجئة . . . أما « ليس » فقال :

— أهلاً بك يا أرنوت ماذا عاد بك من السفر؟ فكتم أرنوت غضبه وأجاب :

— لم أدرك القطار ... وهنا صرخ الرئيس بالزائر ...

— صه ! لابد أنك قابلت أرنوت بعد الجريمة

— نعم

— وهل تعلم مقره الآن ؟

— نعم. هذا ما كان يحز في نفسي ليلة البارحة حتى أرقني ؛ فقد كنت أعمل الرأي من أجله .... وللسبب نفسه تجدني أحادثك بشأنه

— وأين يقيم الآن ؟

— إنه لا يستطيع الفرار فانتظر ... اعتذر أرنوت لها وغادر الغرفة ، وهما في ذهول عظيم إلى غرفة النوم عله يجد دليلاً يؤيد ظنونه . وأخيراً وجد ما يبتغي ... وجد رماداً متخلفاً عن لفافة تبغ على الطاولة ... وجد الأثر الذي ينم على وجود «ليس» في هـذه الغرفة مع زوجه . . . فاضطرب وارتجفت شفتاه وامتلأ حقداً وغضباً...واندفع إليهما راكضاً شاهراً مسدسه... هرول إليهما ليطفىء تلك النيران المتأججة في صدره... دخل إليهما بهذه الحال ففاجأه « ليس » واقفاً يقول :

— إني ذاهب الآن . لأني على موعد لا أستطيع التخلف عنه . ولـكن أرنوت صرخ به :

— انتظر ! لي كلمة معك . . . ثم رفع ذراعيه إلى أعلى وتوقدت عيناه شرراً كأن به جنة وانهال عليهما شتماً وسباً ؛ فانقلب وحشاً ظامئاً لشرب الدماء بعد أن غمرته موجة من الظلام الدامس ليس فيهـا إلا نيران الحقد والغيرة وهما ينظران إليه مشدوهين حتى صاح «ليس» :

— أرنوت ! أرنوت ! كفى، هل جننت؟ رباه ! إنى لا أسمح لك أن ترمى زوجك بالخيانة وهى منها براء ...

ولكن أرنوت انتفض فجأة ، وصوب مسدسه نحوه ... ودوى طلق نارى ترنح « ليس » على أثره وسقط جثة هامدة ... ثم دوى صوت أرنوت كالرعد القاصف قائلاً :

— أنظرى إلى عشيقك. ها هو ذا جثة لا حراك بها . أنظريه ... فأجابته بصوت ضعيف مرتجف :

— إنه يعتقد ذلك ! ثم شحب لونها واهتزت كأنها ريشة فى مهب الرياح وصرخت بفزع :

— أتمم يا أرنوت عملك ! ! أكمل يا أرنوت صنيعك ! !

فارتجف أرنوت يحزه ألم للثأر لشرفه المثلوم ، ووجه السدس إلى زوجته وأطلق النار ... ترنحت المسكينة قليلاً ثم سعلت وانفجر الدم بغزارة من فيها وسقطت على الأرض هاتفـة : أرنوت ! أرنوت ! ولفظت أنفاسها

نظر إليها أرنوت بعد أن عاوده هدوؤه وأشبع رغبة نفسه فى الانتقام وأطفأ نيران الغيرة ، فعاد ذلك الرجل الهادئ الرزين ... فتحركت بقية من حبه فى سويداء قلبه فاندفع إلى الزوجة وهى ملقاة على الأرض وانتشلها بين يديه ووضعها على مقعد بقربه وشبك ذراعيها فوق صدرها ... ولكنه لم يجرؤ على إلقاء النظرة الأخيرة عليها فأطفأ النور . ثم ... ثم غادر الغرفة ينوى الرحيل من المدينة حالاً . ولما مر بغرفة النوم لاحظ أنها لا تزال مضيئة فعول على إطفاء نورها ... اندفع إلى تلك الغرفة وهو محتفظ بشعور، متمالك نفسه، وسرعان ما وقع بصره على شيء أعمته غيرته الجامحة عن رؤيته قبل الجريمة فقذف بنفسه عليه ... إنه عقب لفافة تبغ تحت تلك المنضدة ... فانتشله ونظر إلى علامته ، فاضطرب واهتزت أوصاله وزفر زفرة كادت تقضى عليه ... إنها العلامة الموجودة على لفافات التبغ التى اعتاد تدخينها والتى يحفظ علبتها بدرج خاص مقفل ، مفتاحه لا يفارق جيبه أبداً . . . ولكن ما مضى فات وذهبت نفسان بريئتان من غير ذنب . فقد تجلت الحقيقة له ، فإن ذلك الدليل كان عقب لفافته التى تركها قبل سفرته المزعومة ...

فى تلك اللحظة الرهيبة استعرت بين جوانبه نيران الإثم وحز قلبه الألم الممض ...

وهنـا أحس الزائر بأنه يكاد يختنق فعالج الكلام فى صوت كأنه الحشرجة وقال :

— نعم ، أيها الرئيس ، تلك اللفافة كانت لى

فقفز الرئيس واقفاً على قدميه وراء مكتبه وصرخ :

— لك !

— نعم لى ـ ليساعدنى الله ـ أنا جين أرنوت!

(البصرة) سليم . أ . عبده

بـــوم بـــوم ...

للكاتب الفرنسى جول كلاريتيه

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح

كان الطفل راقداً كالخيال على فراشه الأبيض لا يستطيع حراكاً ، وكانت عيناه الجامدتان ترنوان إلى ما أمامهما تتجلى فيهما علائم المرض والإعياء ، وكأنما يرى بهما مالا يراه الأصحاء

وجثت أمه بجوار السرير تبذل جهوداً جبارة لترد دموعها المنبجسة السخينة ، وقد لاحظت تقدم المرض القاتل يبدو على وجهه المصفر النحيل . وأبوه — وهو عامل قوى الجسم مكتنز العضلات — كان يجهد ما وسعه الجهد ليمنع الدمع السخين الذى قرح جفونه الحمراء وحرق أهدابه الكليلة ، من الانسكاب على خديه الغائرين

وترجّل النهار صافياً جميلاً فى إصباح من أصابيح يونية الساحرة ، واطمأن نوره الحى الدافىء فى تلك الغرفة الضيقة الواقعة فى شارع «دى أبيس» حيث يرقد فرانسوا الصغير بين جاك ليجران ، ومادلين ليجران يغالب سكرات ، الموت ويصارع نزع الفناء

كان فى السابعة من عمره وكان منذ ثلاثة أسابيع فحسب ، قوياً سليماً ، مفعماً بالجمال والصحة ؛ بيد أنه أصيب بحمى عنيفة ، وأتوا به ذات مساء من مدرسته برأس ثقيل وبدن ملتهبتين . وقد لازم فراشه منذ ذلك الحين . وحينما كان يرى حذاءه الصغير النظيف فى ركن الغرفة ، كان يهذى بقوله :

— الآن أبعدوا هذا الحذاء ، حذاء فرانسوا الصغير ، سوف لا يرتديه فرانسوا الصغير . سوف لايذهب فرانسوا الصغير إلى المدرسة بعد الآن ، لن يذهب أبداً ... أبداً

فكان قلب أبيه يتصدع أسى وحزناً ويصيح به فى صوت متهدج : «صه أيها الصغير صه ! » وتخفى أمه وجهها المصفر الباهت ، ورأسها الذهبى اللامع فى وسادته لتمنع صغيرها المفدى من أن يسمع نشيجها وبكاءها

ولم يهذ الصبى فى ليلته تلك ؛ ولكن أظهر الطبيب بعد يومين قلقاً كبيراً لما رآه من علائم الفناء فى وجهه ، كأن الطفل ، وما زال فى السابعة من عمره ، لا يحس أية رغبة فى العيش . كان منهوكاً سقيماً ، صامتاً حزيناً ، لا يتحرك من كل بدنه العليل سوى وجهه ، يحركه ذات اليمين وذات الشمال . وذوت الابتسامة من شفتيه الصفراوين وراحت عيناه المطفأتان تبحثان عن ... عن ... لا يدرى أحد عماذا . قالت مادلين :

— إخال أن عينيه تتطلعان إلى السماء ... إلى العالم الآخر

وذهبت محاولاتهما سدى فى حمله على تناول بعض الشاى أو قليل من الشراب ، فقد أبى أن يأخذ أى شىء

— أما تريد شيئاً يا فرانسوا ؟

— كلا ، لا أريد أى شىء

وهنا قال الطبيب :

— يجب إنقاذه مما هو فيه ... من ذلك الذهول الذى يشمله . إنكما أبواه وتعرفانه ولا ريب حق المعرفة . حاولا أن تخلقا ما يبث الحياة فى بدنه السقيم المضنى ، إن هذا هو الدواء الوحيد لإرجاع هذا الروح الذى يناضل للانطلاق إلى السماء .

ثم ذهب الطبيب قائلا :

« حاوِلا »

أجل ولا ريب ، إنهما يعرفان عزيزهما فرانسوا حق المعرفة ، يعرفان كم يحب التنزه فى الريف كل أحد ، وكم يفرح ويبتهج حين يحمله أبوه بعد عودته من عمله ، وبيده طاقة من الورود الناضرة الفواحة إلى حدائق الإليزيه ليرى بونس وجودى وهما يلعبان معاً بين أولاد السراة والأشراف . وكان أبوه قد ابتاع له دمّى وألاعيب كثيرة ، فأخرجها كلها من أماكنها ووضعها إلى جانب الطفل على السرير ، وجعلها ترقص وتسير على مرأى منه ، وأخذ يحاول بشق النفس أن يضحك الطفل . قال :

— انظر ! ها هى ذى حرب ضروس سيتقد أوارها «بانج بوم» وها هو ذا القائد العام . ولقد رأينا قائداً فى غابة بولونيا ذات مساء . ألا تذكر ؟ وسأبتاع لك قائداً حقيقياً بثيابه الرسمية إذا أصبحت ولداً لطيفاً وشربت « شايكَ » أتحب ذلك ؟ خبّرنى ... قائد ؟

فتحشرج صوت الصبى من وطأة الحمى وهو يقول :

— كلا

— إذن هل تحب أن آتيك بمسدس ، تماثيل من الرخام ، قوس ونشاب ؟

— كلا . فسألته أمه :

— ولكن أليس هناك شىء تريده يا حبيبى ؟ لماذا ؟ لقد كنت تحب أشياء كثيرة ... قل لى أنا قل لأمك حبيبتك

ثم وضعت رأسها على وسادته وأدنت فمها المرتجف من أذنه وراحت تهمس له كأنها تنقل إليه سراً . هنالك رنا الطفل إلى أمه وأبيه ، وهب جالساً فجأة وقال بلهجة الآمر :

— « بوم . بوم »

نظرت مادلين المسكينة إلى زوجها فى يأس شديد ، ماذا قال الصغير ؟ هل عاد يهذى ثانية ؟ هل عاوده الهذيان الرهيب ؟

بوم . بوم !

لم تفهم ، وخشيت على ابنها من هذه الكلمات التى يرددها فى عناد وإصرار

— أجل ، بوم . بوم . بوم . بوم . بوم . بوم أريد « بوم . بوم »

ولكن أسارير الرجل الجامدة انبسطت فى ابتسامة أضاءت وجهه الشاحب المتقع ، ابتسامة تنبئ بالفرح ، ابتسامة المتهم الذى يسمع الحكم ببراءته

بوم . بوم . إنه يذكر يوم عيد الفصح الذى أخذ فيه فرانسوا إلى الملعب . إنه يذكر صيحات الفرح التى كانت تعلو من فم فرانسوا حينما رأى المهرج ، المهرج الأنيق بثوبه الموشى « بالترتر » المطرز على صدره فراشة كبيرة ، أثناء رقصه على

المسرح ، وفى أثناء سيره على أطرافه الأربعة وقد امتطى ظهره قزم ظريف مجان ، وقد علت ضحكاته حينما رآه ينتصب قائماً ويطوح برجله إلى أعلى ارتفاع ممكن ، ثم وهو يلقى بقبعات الفلين فى الهواء الواحدة تلو الأخرى حتى كونت شكلا هرمياً بديعاً ، وفى أثناء كل هذه الحركات كان المهرج يبتسم ابتسامته الفاتنة ويكرر نفس الكلمة ترافقه فرقة الموسيقى « بوم . بوم . بوم . بوم » وفى كل مرة كان الملعب يضج بالضحك وتعلو معه ضحكات فرانسوا المرحة الجذلة ... بوم . بوم . إن هذا هو بوم . بوم . إنه المهرج الذى يود فرانسوا رؤيته ، والذى لا يستطيع فرانسوا أن يراه الآن وهو هكذا مريض طريح الفراش

وفى المساء عاد جاك ليجران بعد أن ابتاع دمية على هيئة مهرج مغطى (ثوبه بالترتر) وقد دفع فيه ثمناً كبيراً ، أجر أربعة أيام كاملة من أيام عمله . كان على استعداد أن يدفع أجر ثلاثين يوماً ، بل أجر العام كله ما دام ذلك يدخل الفرح والسرور على قلب صغيره المفدى

ورنا الطفل إلى الدمية وهى تبرق على الفراش الأبيض برهة قصيرة ثم قال فى حزن :

— إنه ليس بوم بوم . أود لو أرى بوم بوم

آه ... ! ليته يستطيع أن يحمله بفراشه ويذهب به إلى الملعب فيريه المهرج يلعب تحت الأضواء الباهرة ويقول له : أنظر ... وهنا التمع فى ذهنه خاطر سانح أمل من ورائه خيراً ... ذهب إلى السيرك وسأل عن عنوان المهرج ، وإذ أخبروه عنه اتخذ سبيله إليه قدماً

وكانت ركبتاه ترتعدان فى عنف وهو يصعد السلم إلى شقة الفنان فى حى مونمارتر . ولقد كلفه الذهاب إلى هناك شجاعة فائقة ومجهوداً كبيراً .

إن المهرجين لا يأبون الذهاب إلى بيوت المظاء لإضحاكهم وتسليتهم ... ولعل المهرج ... آه ! — بأي ثمن يطلب — يقبل أن يذهب معه ويحيى فرانسوا ... لا بأس . ماذا تراه قد حدث له فى بيت بوم بوم ؟

ولم يكن ثمة بوم بوم ؛ بل مسيو مورين فى غرفة أنيقة ، فيها كتب قيمة وتصاوير نفيسة ، وجميع أدوات الفن

ونظر جاك إلى الرجل فعرف فيه المهرج . وأخذ ينظر يميناً وشمالاً وقبعته الرخيصة فى يده . وانتظر الرجل الآخر من زائره حديثاً . فاعتذر جاك لحضوره وقال : إنه ليس له حق المجىء فيما جاء له ، وما كان له أن يأتى ألبتة ـ مع الأسف الشديد ـ ولكن مع كل هذا . . . « إنه كل أملى فى الحياة يا سيدى ، وهو جد لطيف جميل ، متوقد الذكاء ، أول فرقته دائماً فى كل العلوم ما خلا الحساب الذى لا يسيغه ولا يفهمه ، وهو إلى كل ذلك خيالى ... أجل خيالى النزعة .. والدليل على ذلك .. أجل .. الدليل . . . » وتلعثم جاك وتردد ، غير أنه تمالك نفسه واستعاد جنانه وقال :

— الدليل أنه يود أن يراك . . . إنه لا يفكر فى شىء سواك . وإنك هناك أمامه كنجم يبنى الصعود إليه فلا يستطيع فيديم التطلع فيه

وما أن انتهى الرجل حتى كان وجهه قد تجرد من الدم وأصبح شاحباً ممتقعاً ، وتصبب العرق البارد

من جبينه ... ولم يجسر أن ينظر إلى المهرج الذى مضى يرنو إلى العامل بعينين لا تحولان ولا تطرفان وما الذى سيقوله المهرج يا ترى ؟ هل سيطرده ، أم يعده مجنوناً ؟ ولكن بوم بوم سأله :

— أين تقيم ؟

— أوه ! على مقربة من هنا ... فى شارع دى أبيس ...

— هلم ، هل يود صغيرك أن يرى بوم بوم ؟ حسن جداً ... سوف يرى بوم بوم .

ولما فتح الباب للمهرج ، صرخ جاك فرحاً مبتهجاً يقول لابنه :

— فرانسوا ، أيها الشقى ! إنك ذو حظ عظيم ها هو ذا ... ها هو ذا بوم بوم ...

فعلت وجه الصبى ابتسامة الغبطة والفرح ... واستعان بذراع أمه على الجلوس فى فراشه ، وأدار رأسه نحو القادمين ، وظل لحظات يحاول أن يعرف الرجل الذى بجوار أبيه ، والذى يبتسم له أرق ابتسام ولكنه لم يعرفه ... بوم بوم ، إنه ليس بوم بوم ... وعاد الطفل ورقد فى الفراش حزيناً مبتئساً ... رقد وعيناه الزرقاوان الواسعتان تنعمان النظر فى الحائط تتمثلان الترتر ، والفراشة التى فى ثوب المهرج الذى يحبه كما يحب الوثنى صنمه ...

وقال الصبى ... لا فى صوت خشن ... بل حزين :

— كلا ، إنه ليس بوم بوم !

نظر المهرج إلى الطفل السقيم فى حزن صادق ، ثم استدار نحو الزوجين الجازعين وقال :

— إنه على حق ... إنه ليس بوم بوم ... ثم غادرهم وانصرف .

— آه ! سوف لا أرى بوم بوم بعد الآن ... سوف لا أرى بوم بوم ثانية !

قال الطفل ذلك ثم بدأ يحادث الملائكة : ربما كان بوم بوم هناك ، هناك حيث سيذهب فرانسوا الآن ... الآن توا !

وانفتح الباب فجأة بعد نصف ساعة من ذلك ، وظهر المهرج بثوبه الأسود الفضفاض الموشى (بالترتر) والمطرز بفراشة كبيرة على الصدر وأخرى على الظهر . تبدى وعلى رأسه قبعته المضحكة ، وعلى وجهه المصبوغ بالمساحيق ابتسامة كبيرة واسعة امتدت حتى أذنيه . ظهر بوم بوم ، بوم بوم الحقيقى ، بوم بوم اللعب ، بوم بوم كل الناس ، بوم بوم فرانسوا الصغير ... بوم بوم

وتحرك الصغير فى فراشه فرحاً ، مسروراً ، ضاحكاً ، صارخاً ، سعيداً ، ناجياً مما فيه من داء وسقم . صفق بيديه وصاح :

— إنه بوم بوم ... إنه بوم بوم هذه المرة ، ها هو ذا بوم بوم « هو رآه » بوم بوم ، كيف أنت يا بوم بوم ؟

وحينما أقبل الطبيب فى ذلك اليوم بعينه ألفى بجوار سرير المريض الصغير مهرجاً بوجه ملطخ بالمساحيق والأصباغ . ورأى الطفل يضحك جذلان مسروراً ، وينظر إلى المهرج وهو يضع فى الدواء قطعة من السكر ويقول :

— أنت تعلم يا فرانسوا أنك إذا لم تشرب فسوف لا يأتى بوم بوم ثانية

وأطاع الطفل

— أليس سائغاً ؟

— سائغ جداً . شكراً يابوم بوم . وقال المهرج :

— سيدى الطبيب ! لا تكن غيوراً . ولكنى أعتقد أن حركاتى المضحكة كان لها نفس الأثر الذى لدوائك ...

وبكى الزوجان ، ولكنه بكاء الفرح الكبير

وإلى أن بارح فرانسوا فراش المرض كانت هناك سيارة من مونمارتر تقف كل يوم بباب مثوى العامل فى شارع دى أبيس ، ويخرج منها رجل يرتدى معطفاً واسعاً كبيراً وقد رفع بنيقته، وتحت المعطف يرتدى ملابس اللعب الموشاة (بالترتر) المطرزة بالفراشتين الصفراوين الكبيرتين

وقال جاك ليجران للسيد المهرج حينما جلس الطفل لأول مرة

— بكم أنا مدين لك يا سيدى ؟ يجب أن تنال أجرك على ذلك

فمد المهرج يديه الغليظتين إلى كل من الرجل وزوجه كما يفعل بطل عظيم وقال :

— كل ما أطلب هو أن تصافحانى بحرارة

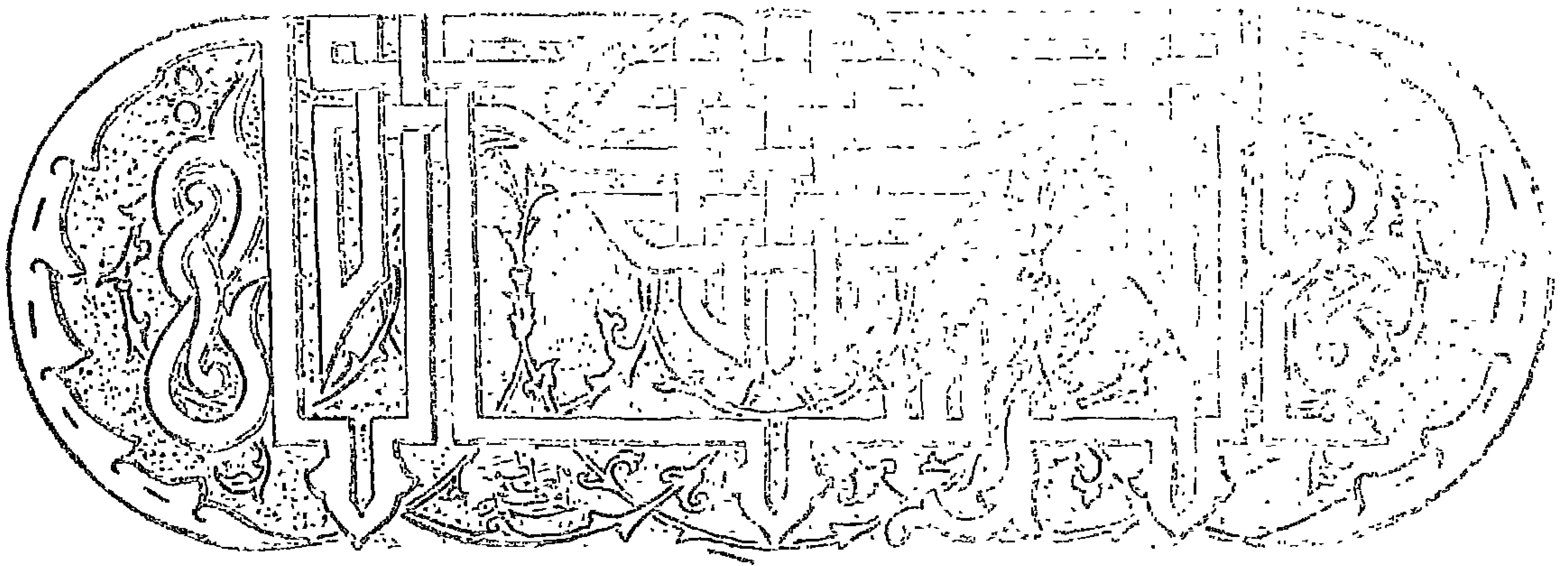
ثم أضاف بعد إذ طبع قبلتين على خدى الطفل اللذين توردا من جديد :

— ثم أن تسمحا لى أن أضيف إلى بطاقتى :

« بوم بوم المهرج ، والطبيب النفسى لفرانسوا الصغير »

(القاهرة) محمد عبد الفتاح

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبذولى — عابدين }



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشا، والخارجي ما يساوي جنيها مصريا، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العـدد ٦٧ — ١٩ رمضان سنة ١٣٥٨ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد



حبيبي القديس الآثم

[قصة حصلت على جائزة ١٥٠ جنيها]

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« لقد اعتزمت أن تطالب بحقها كاملا في الأمومة إلى أن ... »

***

أظن أنني أحببت الدكتور روجر مكفاي من اللحظة الأولى التي رأيته فيها ، فقد أقبل عليّ وأنا راقدة ملفوفة في ضماداتي ، فكانت تحيته البشوشة كأنها شعاع من أشعة الشمس المشرقة وقد قال :

« كيف حال بطلتنا الصغيرة اليوم ؟ »

ووضع على صدري وهو يحييني وردة حمراء طويلة الساق لا تمكن من استنشاق شذاها الزكي الفياح إذ لم يكن في مقدوري أن أرفع يدي أو حتى أحرك رأسي ، وكل ما كنت أستطيعه هو أن أعبر عن الشكر بالنظرات

ولما صادقني الدكتور مكفاي فيما بعد لم أملك إلا أن أمجده وأن أعبده ، حتى وإن كنت لم ألبث أن عرفت أن لجورج مكفاي شخصيتين منفصلتين ومتفاوتتين : شخصية قديس في صورة طبيب ، وشخصية رجل مندفع صخري القلب وحشي الطباع قاس لا يرحم ... وقد مضت سنوات قبل أن أسلم بهذه الحقيقة حتى في أحلك أوقاتي وأشدها تعاسة . وهذه الشخصية المزدوجة هي التي دفعتني إلى كتابة هذه القصة

وليس غرضي من الكتابة هو على وجه الدقة التكفير عن خطيئتي ، ولا هو تبرير حبي لروجر مكفاي ، فإنه على الرغم من جميع ما عمله لا أزال أحبه ، ويهون على أن أضحي من أجله بحياتي وبما هو أغلى من حياتي وقد فعلت

نعم فإنه على الرغم من كرهي واحتقاري تلك الشخصية الخبيثة مازلت أحب الشخصية الأخرى المظيمة ذات الخلق السامي ، في نفس ذلك الطبيب المحسن الشفيق الذي لا يهمل أبداً المتألمين ولا المرضى . أحب ذلك الطبيب الرفيق الذي يحب الأطفال الصغار والذي يمد يديه السحريتين للمواساة والعلاج غير منتظر أجراً ولا جزاء . تلك الشخصية لا تزال موضع حبي العميق الذي تسرب إلى أعماق قلبي فلا تقوى على محوه يد شخصيته الثانية الدنيئة

كنت لا أزال في المدرسة لم أتجاوز السابعة عشرة من عمري عند ما قتل أبواي وأختي الصغيرة إيلين في حادث سيارة . . . وسأتخطى ذكرى تلك الأيام المزعجة التي لا بد أن يقضيها الإنسان في الحزن على موتاه ، فهي أيام لا يستطيع أحد التخلص منها .

لم يبق لي في الوجود بعد أبوي وأختي أحد من الأقارب غير عم لم يسمع أبي عنه شيئاً منذ سنوات حتى لم نكن نعلم إذا كان هذا العم واسمه جيم قد مات أو هو لا يزال حياً

ولم أكن أملك من المال بعد الذي أنفق على الجنازة الثلاثية من قيمة التأمين الضئيل الذي كان أبي مؤمناً به على حياته غير مبلغ لا يزيد إلا قليلاً على خمسين جنيهاً . . فطلبت من مستر جون أوفر وصي وخير أصدقاء أبي أن يودع هذا المبلغ أحد

المصارف إلى أن يأتى الوقت الذى أرجو أن أصبح فيه ممرضة تحت التجربة فى أحد المستشفيات القريبة من لندن

وكان فى وسع جون آدمز أن ينصح لى وأن يولينى صداقته ، ولكن لم يكن له من أسباب المادة ما يمكنه من مساعدتى .

على أنه قد حان الوقت الذى لبست فيه لباس ممرضة تحت التجربة الذى كنت أشتهيه ، فشعرت إذ ذاك بالسعادة البالغة . وماذا يهمنى أن يكون العمل كثيراً أن تكون الساعات طويلة ، فسيأتى اليوم الذى أصبح فيه ممرضة أصيلة . . . ولكن ما كان أضيع أحلامى !

لقد كان عملى مرضياً ، فقد كنت — على ما قالوا — أهلاً لأن يوثق بى . ولما كان عدد الممرضات قليلاً فى تلك الأيام ، فقد تصادف أن كنت قائمة وحدى بواجبات الليل عندما شب فى المستشفى حريق هائل . . . وهل فى مقدورى أن أنسى هول تلك الليلة الفظيعة ! إنها لتتمثل واضحة فى ذاكرتى بمأساتها الفاجعة ، ولا يزال لها فى أذنى دوى أشبه ما يكون بدوى القنبلة تنفجر على حين غفلة فيملأ صوت انفجارها الجو هولاً وارتياعاً ! رب ! البناء المحترق يمكن تجديده ... أما أنا ...

وقع الحادث المروع مفاجئاً ، فقد كان كل شيء هادئاً قبل دقيقة واحدة من وقوعه . كان كل شيء ساكناً وديعاً وداعة الطفل النائم فى حضن أمه ، وكان النسيم العليل يحرك أوراق الشجر فى لطف عند ما دوت فى الجو صيحة « النار ! النار ! » ، وارتفعت فى الجو أصوات الاستغاثة مختلطة بدقات الأجراس وصراخ الفزعين ، وبكاء الأطفال الذين كنت ساهرة عليهم ينادوننى : « ممرضتنا جودى ! ممرضتنا جودى ! » ، وكان عدد هؤلاء الأطفال ثلاثة عشر كلهم دون الثانية عشرة من أعمارهم ، فاندفعت إلى باب الغرفة ولكن اللهب والدخان صدانى فأقفلته ووقفت وراءه أسنده كأنما جسمى الضئيل يستطيع مقاومة هذا الجحيم المستعر

وتتابعت الأفكار فى رأسى مسرعة كالبرق، ولم يكن فى هذا الجناح القديم منفذ للهرب من الحريق ، وكان يجب ترك هذا الجناح منذ زمان بعيد ولكن الحاجة الماسة للأمكنة هى التى أرغمت مجلس إدارة المستشفى على مواصلة الانتفاع به . على أن هؤلاء الأطفال يجب إنقاذهم ، ولكن كيف ؟ لقد أعاد لى صراخهم صوابى فشعرت على حين فجأة بالقوة واليقظة فصحت بصوت عال لأسمعهم « اهدأوا ، اهدأوا ، فسوف تنقذكم الممرضة جودى ، ولكن يجب أن تهدأوا وتطيعوا ما آمركم به ! »

وجريت إلى الشباك فنظرت إلى رجال المطافئ وهم يرفعون أحد سلالم الحريق . وكنت فى الطابق الثالث فما زلت أصيح وأبدى إشارات بيدى ورأسى وأصيح آمرة بما أريد حتى تنبهوا لى وفهموا إشاراتى

وفى أسرع من لمح البصر نصبوا شبكة إجابة لإشارتى. أما أنا فكنت كمن مسه جنون أجرى إلى مراقد الأطفال أحملهم الواحد بعد الآخر فألقى به من النافذة غير منتظرة أن أرى إن كان قد وصل إلى الشبكة سالما. ولم أكن أبالى بما يلفحنى من وهج النار إذ لا بد أن أنقذ الأطفال جميعاً . وكنت كلما ألقيت طفلاً أعد : واحد ... اثنين الخ إلى أن عددت اثنى عشر. وكانت ألسنة النار قد اقتربت من غرفتنا واشتدت الحرارة اللافحة ولكن لم يكن بد من أن أنقذ

الطفل الأخير فأين هو ؟ وتكاثف الدخان وخنقني ولكنني لم أكن لأبالي شيئاً ؛ ثم سمعت أنيناً ضعيفاً دلني على مكان الصغير دايني

وما أشك فى أن قوة إلهية هى التى أوصلتنى إلى مكان الصغير فلففته وحملته مسرعة إلى النافذة وكانت النار قد صعدت من الطابق الثاني إلى طابقنا وكان الدخان كثيفاً فلم أر الشبكة إنما يجب انتهاز الفرصة .

ولكن لا ! لم أجرؤ أن ألقى بدايني الصغير فقد كانت رجله مكسورة مجبسة وكنت أخشى عليه، فشددت عليه بين ساعدى ووثبت به من النافذة

لطمت ألسنة النـار وجهى وساعدى وكفى وشممت رائحة شعرى يحترق عند ما وضعت قدمى على عتبة الشباك لأثب ... ثم ...

لم أشعر بعد ذلك بشىء حتى عاد إلى صوابى بعد أيام وأنا راقدة فى المستشفى ملفوفة فى ضماداتى أحس آلاماً تمنيت أن ينقذنى الموت منها ... ولو أنه أنقذنى لكان خيراً من الحياة التى عشتها من ذلك التاريخ

وكافأنى مجلس الإدارة بساعة من الذهب وشهادة اعتراف ببطولتى ولكن ما كان أقسى الثمن الذى دفعته . فبدلاً من الفتاة جوديث هاتون الجميلة بكل ما فى كلمة جمال من معنى حلت فتاة ليس لها منها إلا اسمها ، مشوهة الوجه والساعدين واليدين أقبح تشويه من أثر الحريق

وخافوا ألا ينمو شعرى الذى احترق ؛ وفعلاً لم ينم فى مقدمة الرأس فألبست طاقية من الشعر الصناعى ، فلما نظرت فى المرآة كدت أصرخ لما رأيت من تناقض بعد ذلك الشعر المصفف تصفيفاً جميلاً وبين خلقتى المشوهة

واستأنفت عملى فى التدرب على التمريض ولكن ظهر بعد أسبوعين أن استمرارى فيه غير ميسور فقد كان المرضى يتأففون كلما رأونى ، حتى الأطفال كانوا إذا اقتربت منهم صـاحوا به « إبتعدى ! إبتعدى ! » ولم يكن ذلك قسوة ولكنهم لم يكونوا يستطيعون مقاومة الرعب المصحوب بالشفقة حين ينظرون إلى وجهى ، كذلك لم يكونوا يحبسون دموعهم التى تطفر عند رؤيتى

ولم تكن إدارة المستشفى لتبالى بما فى عملها من قسوة إذا كان الأمر مما يتصل بمصلحة المرضى ، لذلك لم تدهشنى كلمات مس اسمث الرئيسة الرقيقة ، ولا تلطف الدكتور بيرنس عند ما قال : « أخشى ألا تساعدك قوتك على العمل الآن. وهذا مما يؤلمنى، ولكن فلنفكر فيما يمكن أن نساعدك به »

ثم دخل الحجرة الدكتور مكفاى بقوامه الطويل الرشيق وعينيه السوداوين الساحرتين ، فما رأيته حتى وثب قلبي فى صدرى ، فلقد كان الدكتور مكفاى شفيقاً جد شفيق فى معاملتى فى أيام نقاهتى ، وفى الأسبوعين الماثلين الأخيرين ... ولكنه كان شفيقاً على كل إنسان وبذلك جرت سمعته فى كل مكان !

وما كان أجمل صوته القوى وهو يخترق الجو إذ يقول :

— ما هـذا الجحود الذى أرى ! ألم تكد مس هاتون تجود بروحها فى سبيل إنقاذ المرضى ؟ وكل جرح فى وجهها شهادة ناطقة ببطولتها التى لاعهد لهذا المستشفى بمثلها من قبل ! والآن تجرؤن على أن تقذفوا بها إلى الطريق بلا عمل ولا مأوى ولا شىء غير ساعة من الذهب تسخر من ضحيتها الماثلة !...

فأجاب الدكتور بيرنس بقوله :

ليس هنالك ما يدعو للغضب يا دكتور فلقد اعترفنا ببطولة مس هاتون وقدرناها وقد عنينا بأمرها كل العناية . والآن نحاول أن نوفر عليها ما تشعر به من ضيق وتألم

فكبحت جماح دموعي وقلت :

— إنه على حق فيما يقول يا دكتور مكفاى ، فقد كان يجب أن أترك المستشفى على أية صورة من الصور، فإن المرضى يتأذون حين يرونني . وأشرت إلى ما فى وجهي وساعدى من أثر الحريق . فقال الدكتور مكفاى فى لهجة هى الشفقة المجسمة ، وقد وضع كفيه على كتفى المرتجفتين :

— يالك من فتاة مسكينة !

ثم نظر إلى الدكتور بيرنس وقال :

— أرى أننى لا أزال جديداً هنا ومن الجائز ألا يكون لى حق التدخل فى شؤونكم؛ لذلك يسرنى أن أعرض على مس هاتون وظيفة سكرتيرة لى

وهكذا بدأت أعمل سكرتيرة للدكتور مكفاى فى غرفة صغيرة بعيادته أكتب على الآلة الكاتبة ، وأرتب مسودات كتاب كان يضعه فى مرض الأطفال

وأمضيت فى عملى أزداد كل يوم له حباً . وكانت أسعد لحظات حياتى هى التى يدخل فيها إلى غرفتى ليملى شيئاً جديداً أو يراجع ما كتبت معتذرا كما احتد غاضباً إذا وقف على شىء من الخطأ فى عملى . وكنت كل يوم أدعو الله ألا أخطىء حتى لا أغضبه

ولقد أدركت الآن أن بعض الغلطات التى كان يلومنى عليها كانت من عمله هو إذ كان يغير آراءه فى بعض فقرات الكتاب

ومضت أسابيع وحياتى هى عملى ، فلم أكن أشعر بالحياة إلا إذا دخلت غرفتى الصغيرة وانكببت أعمل للرجل الذى أحببته . وكنت أحضر مبكرة وأنصرف متأخرة . وقد استأجرت غرفة لسكنى كنت أطهى فيها طعامى ، متجنبة لقاء الناس إذ كنت لا أحب أن يرى وجهى المشوه أحد حتى الغرباء الذين أمر بهم فى الطريق ، فكنت أقضى حاجاتى بالتليفون حتى ملابسى . وكنت إذا خرجت إلى طريق وضعت على وجهى حجاباً كثيفاً

ولم أكد أجتمع بأصحابى بل تجنبتهم إلى أن انقطعت كل صلة بينى وبينهم فلم يعد أحد يزورنى حتى ولا يسأل عنى بالتليفون ، فأصبحت بذلك فى وحدة موجعة ، ولكننى تعزيت عنها بالعمل للرجل الذى أحببته . وكنت إذا انتهيت من عملى وعدت إلى غرفتى حلمت بالحياة التى كان من الممكن أن أحياها معه لو لم أصب بذلك التشوه

واعتقدت أنه حتى أحلامى فى أخشن صورها لن تزيد على أن تبقى أبداً أحلاماً لا أكثر

وفى إحدى الليالى سألنى فى لطف إذا كنت أستطيع السهر فى العمل معه لأن لديه فصلين من الكتاب يريد إنجازهما دون أن يقطع عليه أحد عمله فكان طبيعياً أن أرحب بطلبه سعيدة به

وجدت الدكتور مكفاى فى انتظارى ، فلما حضرت حمل الآلة الكاتبة إلى الغرفة الكبيرة توفيراً لراحة العمل وألح على أن أشرب كأساً من الخمر معتذراً بأنه قد أضاع على ليلتى . ففهمت أن ما حدث هو الخير

وجلست على المكتب أمامه وقد جلس على الصفة جلسة مريحة وقال :

— أرجو أن تغفرى لى كسلى فإننى متعب تعباً شديداً »

وقضى ساعة وهو يملى على بعض تصحيحات مشيراً إلى موضعها فى النسخة التى كان يقرأ منها وخفت صوته على حين فجأة ثم سكت . فرفعت نظرى عن الورق ونظرت إليه فرأيته مستغرقاً فى النوم . فأطفأت بعض الأنوار فى هدوء ثم مشيت على أطراف أصابعى إلى حيث علق معطفى فتناولته وغطيته به . وكان هذا المعطف فى نظرى عند مالبسته فى تلك الليلة قديماً زرياً أما الآن فقد أصبح شيئاً مقدساً عندى

ثم أدنيت كرسيّ قريباً منه لأستطيع أن أمتع عينى بالتأمل فى وجهه الجميل ، ولأتأمل فى مجموعة أعضائه المتناسبة التى تؤلف شخصاً غيرعادي الوجود

وشعرت بشوق إلى أن أضع رأسى على صدره وأمحو بقبلتى ما على وجهه المحبوب من تجاعيد التعب . ولكننى لم أفعل فلم أكن لأقلق راحته تحت أى مؤثر من المؤثرات

مرت الدقائق متتابعة وتجاوزت الساعة منتصف الليل ، فخرج من بين شفتيه تنهد طويل ، وتقلب تقلب غير المرتاح ، وأفلتت ساعده تدريجاً حتى سقطت رأسياً إلى جانب الصفة . ودون أن أشعر بما أنا فاعلة ركعت على ركبتى ورفعت تلك اليد الشفيقة التى تواسى آلام المصابين فطبعت عليهـا قبلة من شفتى الملتهبتين وقد انهمر الدموع على خدى المشوهين من آثار الحروق

وعلى حين فجأة سمعت صوته العذب يقول :

« لم هذا يابنيتى المسكينة ... أتحبيننى يا جوديت إلى هذا الحد ؟ »

وطوقتنى ساعداه وضمتانى إليه رويداً رويداً حتى شعرت بدقات قلبه السريعة على صدرى ، فجرى الدم حاراً فى كل جسمى حتى اضطربت من شدة الفرحة بقربه ، وبلغ من شعورى بالسعادة أن تمنيت الموت بين يديه . واندفع هو يقبل شفتى فى حرارة وشوق ورغبة . فلم يمر للتمتع أثر فى خاطرى . ولم أفكر فيما هو صـواب وما هو خطأ ، فلقد كان هو كل سعادتى وحياتى ، وكل ما يتصل بكيانى ووجودى ملك له

وبعد بضعة أسابيع من هـذه الليلة السعيدة قال لى :

— أريد ياجوديت أن تحضرى فتسكنى فى بيتى

فسألته :

— أتقصد بذلك أننا سيتزوج أحدنا من الآخر؟

فأجاب :

— إنك تعرفين يابنيتى العزيزة أننى لا أستطيع الآن أن أتزوج منك . فهل تشعرين بالسعادة من حبك لى ؟ ولا أظنك تريدين تحطيم مستقبلى ... ؟ وما أحسبك إلا فاهمة ما أقول ؟ !

وعلى الرغم من أننى لم أفهم دمدمت بكلمة « نعم » فى لهجة متقطعة . . . ولم ألبث أن انتقلت إلى بيته حيث قدمنى لمديرة البيت ولسـائق سيارته باسم « مس هاتون سكرتيرتى الخاصة »

وإذ تبينت لأول مرة حقيقة الخطوة التى خطوتها شعرت برجفة من الخوف تسرى داخل كيانى ، ولكننى لم أفكر قط فى النكوص ، فلقد كنت أحب روجر حباً لا أستطيع معه أن أفلت فرصة وجودى دائماً على مقربة منه

وإنى لواثقة أنه لا جين بروان مديرة البيت ، ولا هارى باركر السائق قد ساورهما أى شك فى وجود علاقة بين الدكتور الذائع الصيت مكفاى

وسكرتيرته الدميمة المشوهة التي تضطر لتفادى نظر الناس إليها أن تأكل دائماً فى غرفتها . وكانا يعلمان أننى أشتغل طوال النهار بالكتابة على الآلة الكاتبة ، ثم أشتغل فى جميع ما يحتاج إليه من البيانات من مكتبته الكبيرة ، وأتلقى ما يمليه علىّ من العمل المتواصل إلى أن يأذن لى بالانصراف إلى غرفتى

وما كانا ليحلما بحقيقة أمرى إذا ما أقفلت علىّ باب غرفتى المحبوبة ، متمنية أن تكون هذه الليلة من الليالى التى أستيقظ فيها فأجد حبيبى إلى جانبى يضمنى فى حرارة وشوق ... أما فى غير هذه الليالى السعيدة فكان عزائى أن أحلم بالوقت الذى أصبح فيه زوجة لروجر

ولم أشك قط فى حب روجر لى لأنه لولم يحبنى لما كرر لى قوله : « إن حبك هو أعذب شىء فى حياتى . فهو يتوج أيامى المشحونة بالعمل – يا طفلتى العزيزة – أشبه ما يكون ببلسم مريح لذيذ

وكان قد مر على إقامتى فى بيت روجر الجميل ثلاثة أشهر عند ما رأيت إحدى نوبات غضبه الحمقاء ، فقد ثار فى وجه السائق هارى فدفعه أمامه وهو يهدده بقبضة يده

وكان ذنب هارى أنه أخطأ فهم تعليماته فتسبب عن ذلك تأخره عن مأدبة عشاء أقامتها إحدى الجماعات الخيرية تكريماً له ، واعترافاً بخدماته الإنسانية . ولم يرض فى غضبه أن يستمع لأعذار هارى وفصله من خدمته فى الحال

تألم قلبى شفقة على هارى ، فقد كانت امرأته لا تزال فى دور النقاهة بعد عملية جراحية وكان يدفع أجراً لامرأة تخدمها وتخدم أبنائه الأربعة فى أثناء مرضها . ولقد عجبت من أمر طبيبى المحبوب الذى تحمله الشفقة على أن يجرى لمسز باركر عملية جراحية كبيرة لا يتناول عليها أجراً ، ثم يفصل زوجها من خدمته قبل أن يتم شفاؤها بل حتى قبل أن تغادر فراشها ... ولقد ذهبت جميع توسلات هارى هباء فلم يقبل الدكتور مكفاى أن يصغى إليه أو يعيده إلى خدمته أو حتى يعطيه توصية ما

على أنه لم يخطر لى حتى ولو فى المنام أن روجر يستطيع أن يقسو علىّ أو يمكن أن يفكر فى مثل هذه القسوة . فقد بررت سلوكه مع هارى بقلقه على الذين أقاموا الحفلة وما سببه لضيوفهم من مضايقة . وعلى غير علم منه أعطيت هارى عشرة جنيهات فقد كان طبيبى كريماً فى المال وكان ينقدنى راتبى فى مواعيده بسخاء

وكان أحياناً يؤنبنى فى ألفاظ عنيفة ، وينظر إلى نظرات جاحظة كمن أصابه مس فى حين يكاد لا يكون هناك شىء مطلقاً يدعو إلى الغضب . وكنت ألتمس له العذر فى نفسى باحتمال أن يكون قد حدث فى المستشفى أمر لم يعجبه ، أو أن تكون حالة أحد مرضاه الذين يحبهم ويكرس وقته للعطف عليهم والعناية بهم قد ساءت : فكنت أحاول أن أخفف متاعبه فأوليه عناية سخية بكل أسباب الترفيه

ولكن كثيراً ما جاءت أوقات لم تكن فيها معاملته لى وأقواله التى تنم عن الاكتئاب لتتفق مع ما أبدى له من عواطف الحب الشديد ، فكان منظرى وجرس صوتى وحتى مجرد لمسى يثير فى نفسه عاصفة من الغضب المزعج ، وكانت تبدو وحشيته فى طلباته وكان يبتهج ابتهاجاً شيطانياً بإيذائى وتعييرى بأننى كحجر الطاحون المعلق فى عنقه قائلاً

أنه لا يستطيع أن يتخلص منى لأنه لا يوجد إنسان سواه يقبلنى فإنى أشبه بالطائر المخيف المنظر

وكان فى أغلب الأوقات يفاخر بأن هناك كثيرات من الفتيات الجميلات اللواتى يحببنه وأنه يستطيع أن يتزوج من أية واحدة منهن . فكان بمثل هذه الأقوال القاسية يسحق روحى بأعنف مما تسحقها الجروح التى فى وجهى وفى ساعدى ويدى

وكانت تعقب ذلك ساعات لا نهائية وليال من الأرق واليأس الموجع ، فكنت أتمنى الموت الذى كنت أجبن جداً من أن أجلبه بيدى

ولكن كان طبيبى الشفيق المحب يعود إلىّ دائماً فيقضى معى ساعات هنية أشعر أننى قد صعدت فيها إلى جنة السعادة . فكانت ذكريات هذه الساعات تمحو ذكريات أويقات العذاب. وكم أتمنى لوأسعدتنى الكلمات فاستطعت أن أوضح لك يا قارئى العزيز مدى التفاوت بين الشخصيتين ، لعلك ترى أننى لم أكن مجنونة إذ أحببت ذلك الحب البالغ وسلمت فى كل ما بقى لى فى الحياة : فى نفسى وفى كرامتى الشخصية

ثم لم يكن بد من أن أقول لروجر : « يجب أن نعقد زواجنا الآن ، يا عزيزى ، فإننى سأصبح أم طفل صغير »

ولكنه نظر إلى نظرة المجنون وقال :

— لا ! إنك لن تقدرى !

وابيض وجهه وتقلصت عضلاته ، وأقبل نحوى يهز يده المنقبضة هزات تهديدية عنيفة

يا لله ! لقد لبسته شخصيته الأخرى ! فلماذا خبرته ؟ لم لم أهرب من بيته فأختفى بعيداً عنه ؟ لقد اقترب منى رويداً رويداً

وكدت أشعر بحرارة أنفاسه تلفح وجهى عندما لكمنى بقبضته لكمة قاسية ... فشعرت أننى أهوى هوياً مستمراً لا نهاية له

فلما عاد إلى صوابى وجدتنى راقدة فوق الصفة وعلى رأسى قطعة من القماش مبللة بالماء البارد ، ورأيت روجر يذرع أرض الغرفة يعض يديه ويهمهم باللعنات

فلما رآنى أفقت وقف ثم تناول كرسياً وجلس إلى جانبى ، وكانت نبرات الغضب قد اختفت من صوته إذ أخذ يحدثنى بلهجة رجل الأعمال ، كما لو كان يتحدث إلى أحد مرضاه فقال :

« يجب أن نخرج أمر الزواج من حسابنا — وهذا ما يجب أن تعرفيه — ولكنى سأرسلك إلى مكان بعيد عن هنا حيث يعنى بأمرك عناية تامة و ... »

وانطبقت شفتاه انطباقاً عصبياً ثم قال فى لهجة أمر غاضبة :

« إذهبى إلى فراشك » .

آه ما أقسى آلام تلك الليلة التى قضيتها ساهرة أفكر فيما كان وفيما سيكون ، وأنا لا أدرى إلى أين يريد أن يرسلنى روجر ولا ماذا يقصد أن يفعل بى ثم ندمت على كل ما حدث !

ولو كان لى أحد من الأصدقاء أو الأقارب أو حتى لو لم تكن تشوه وجهى هذه الحروق التى كانت تنفر الناس منى لأمكننى أن أبتعد إلى مكان ناء حيث أبدأ حياة جديدة مقطوعة الصلة بالحياة الماضية

ولو أمكن أن أموت !

ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أموت . فإن الروح الذى أحمله تحت قلبى يأبى على الموت . . .

إذ يجب أن أعيش من أجله . ولقد كنت شاعرة أنه سيكون ولداً ذكراً ... وسيكون نسخة طبق الأصل من أبيه ، الرجل الذى قدسته وعبدته ، لا تلك الشخصية الأخرى الحقيرة التى لم تكن تعنى إلا بامتلاك جسمى المحبوب . ولقد أحسست فى أعماق قلبى أن روجر سيحبنى مرة أخرى من أجل ابنه .

نعم على الرغم من كل الآلام والأحزان التى سببها لى والقسوة التى عاملنى بها ، إذ رفض أن يتزوج منى وأن يعطى اسمه لطفلنا الذى لم يولد ، على الرغم من ذلك ما زلت أرجو عطف روجر ومازلت أحبه حباً تسرب إلى كل مكان فى نفسى ، فكانت نظرة شفيقة منه أو كلمة أو حركة كافية لأن أغفر له كل ما أساء به إلى

ولكن جاء الصباح ولم أسمع هذه الكلمة الشفيقة ، وكل ما سمعته أمر قصير صاح به من الردهة أن أحزم ملابسى ، عندما دخلت جين تحمل لى طعام الأفطار . وبدا التجهم فى وجهها المستدير الحنون وهى تسألنى :

— هل غضب للا شىء كما فعل مع المسكين هارى ؟

ولم أرد أن تعرف المرأة الحقيقة الفاضحة فاكتفيت بأن هززت رأسى ، وكدت أغص عندما أبصرت ما تجلى على وجهها من أمارات الشفقة والعطف . وكم تمنيت لو ألقيت بنفسى بين ساعديها وأسندت رأسى على صدرها وبحت لها بقصتى المؤلمة ، ولكننى بقيت مبتعدة عنها شاعرة بأن لا حق لى فى التمتع بحنانها

وهكذا أعددت ملابسى ، وعند هبوط مساء اليوم التالى كنت قد استقررت فى شقة مفروشة فى بلدة بعيدة تحت اسم مسز جوديت اسميث

وكانت الشقة مؤلفة من غرفتين : غرفة للنوم وأخرى للجلوس وفيها حاجز يحجب جهاز الغاز الذى كنت أعد عليه طعامى . وكانت نافذة الغرفة تشرف على مراع بعيدة وأشجار عالية وميدان اللعب فى إحدى المدارس . وكانت تسليتى الوحيدة أن أنظر إلى الأطفال يلعبون وأسمى كلا منهم بالاسم الذى يروقنى . والحق أن هؤلاء الأطفال هم الذين قد أنقذونى من جنون الوحدة

ومضى الشهر الأول والثانى قبل أن يحضر روجر لزيارتى

فلما حضر وجدته هو الطبيب المحبوب الذى أعبده ، وكان عذب الحديث مبتهجاً جم الشفقة شديد العناية بمصلحتى

وأعددت ما يلزم للوضع فى مصحة صغيرة على مقربة من البيت ، وكان يعرف طبيبها ومديرتها ، وقد أوصانى بالرياضة وقراءة الكتب المفيدة ومواصلة الانشراح وتناول الطعام الجيد . وعند ماهم بالانصراف وضع كمية من النقود فى حافظة نقودى وقال : « قد تحتاجين لإعداد ملابس حسنة للطفل فاشترى ماشئت ؛ واذا احتجت للمزيد فابعثى إلىّ » ثم ضمنى إلى صدره وقبلنى فى حنان قبلة الوداع وقد سمانى « الأم الصغيرة »

تحسنت حالتى النفسية على أثر هذه الزيارة فعملت بوصايا روجر التى كتبها لى فى ورقة احتفظت بها فداومت الرياضة وكلفت صاحبة البيت بابتياع ما يلزم من الأقمشة وشغلت نفسى بإعداد ملابس الطفل فكنت أخيط وأطرز وأنا جالسة إلى جوار النافذة أشرف على الأطفال اللاعبين ، وقد حيى الرجاء فى نفسى وأحسست أن روجر سيحب ابنه حباً شديداً

ولم أر روجر من ذلك اليوم إلا بعد أن مضى أسبوع على الوضع . وكان الطفل جميلاً قوى البنية ، وكان صورة مصغرة من أبيه يحمل تقاسيمه ومميزاته. وطفح قلبى المتعطش بحب طفلى الذى ملأ الجو حولى سعادة ، وماذا يهمنى الآن إذا كان روجر لا يتزوجنى وقد حظيت بهذا الولد المحبوب الذى سميته روبرت ؟ أليس فى وجوده ما يسد فراغ حياتى الموحشة !

ثم جاء روجر ولعله قد وصل فى المساء فقد وجدته فى الصباح جالساً إلى جانب سريرى جامد الوجه تبدو فى ملامحه أثر الحزن

وسرى خوف خفى إلى قلبى فسألته فى لهفة :

« ماذا هناك ؟ ما الخبر ؟ »

فقال هامساً :

— صه يا بنيتى العزيزة

ثم أشار إلى الممرضة أن تخرج من الغرفة

فلما انفردنا قال لى فى صوت منخفض : « يجب أن تتشجعى يا جوديت فقد مات طفلك فى الليلة الماضية ، إذ كان قلبه ضعيفاً ، وهذا ما يحدث غالباً إذا كان حجم الطفل أكبر من المعتاد كما كان طفلك »

ومرت لحظات طويلة من السكون الرهيب المؤلم ، لحظات لم أستطع بل لم أقبل أن أصدق ما سمعت . ثم اندفعت فى زفرات قوية لم أستطع حبسها وارتفع صوتى بالبكاء ، وملكنى حزن قاتل . فقد كان الأمر فظيعاً إلى أقصى حدود الفظاعة . إن الحياة لا يمكن أن تقسو علىّ إلى هذا الحد : لقد فقدت أسرتى وجمالى وابنى وكل شىء . وما كنت لأستطيع أن أصدق أن الله يأخذ ابنى منى ! إن الله لا يقسو على الناس مثل هذه القسوة . وكان روجر فى أثناء هذه الحال يحاول أن يعزينى بقوله إن ما حدث كان هو الخير

ولكننى لم أتعز ، فقد كنت أريد أن يعود لى ولدى ، وطلبت أن أراه وإن كان ميتاً . نعم يجب أن أراه وأقبل شفتيه الصغيرتين وأنامله الدقيقة مرة أخرى ، ولكن روجر لم يقبل أن يجيب طلبى وضغط زر الجرس فجاءت الممرضة فأمرها أن تعطينى حقنة مسكنة ...

وبعد يومين عدت إلى بيتى وقد أصبحت حركة أطفال المدرسة وصيحاتهم مهزلة فى نظرى فلم أعد أهتم حتى بالنظر من النافذة ، بل لقد كان صراخهم يصدع قلبى ، فكنت أسد أذنى بأصابعى حتى لا أسمع ؛ ولكن على الرغم من ذلك وصل إلى أذنى صوت غلام ينادى صاحبه باسم روبرت ، فذكرت ابنى الجميل الصغير الذى لم أكد أسعد بوجوده حتى خطفه الموت منى فرقد وحيداً فى قبر صغير لا أعرف أين مكانه

وتولانى جمود مخيف فلم آكن آكل إلا نادراً وقد سدت شهيتى دون كل شىء ، وكنت أقضى ليالى قلقة موجعة ولم يكتب روجر إلىّ بكلمة واحدة ولم يزرنى

وكنت قد قطعت الأمل فى عودته حين تلقيت منه تلغرافاً يقول فيه : « أعدى حقائبك فى الحال فإنى قادم لأخذك » ، وفعلاً جاءنى الطبيب الشفيق الذى أعبده

ولم يأخذنى هذه المرة إلى بيته لأعيش تلك الحياة المفزعة بين الحب والخوف بين شخصيتين متناقضتين فى إنسان واحد، ولكنه أخذنى إلى مسكن صغير مؤلف من ثلاث غرف مؤثثة بأجمل الأثاث فكانت فى الحق أجمل من أن تسكنها امرأة مشوهة مثلى ...

ولما وصلنا إلى البيت قال لى فى رقة وعطف :

— هذا هو بيتنا يا ابنتى العزيزة . وهنا المكان الذى آوى إليه طلباً للراحة من متاعب الأيام المرهقة بالعمل . هنا أستطيع أن أنعم بالساعات السماوية التى لا أستطيع أن أجدها إلا بين ساعديك

ثم تألمت وامتعضت امتعاضاً موجعاً لأنه لم يستطع أن يبقى معى ولم يضمنى بين ساعديه

وما كان أشد بلاهتى إذ لم أدرك إذ ذاك أنه لم يكن يحب غير جسمى ، وغير العاطفة المادية التى كنت أفرغ فيها نفسى بغير حذر . فهذا وحده هو الذى كان يغطى فى نظره على منظر وجهى المشوه المخيف . وعلى الرغم من أننى شككت فى إخلاصه لى فقد ظننت أن علاقة الأبوة التى ربطت بينى وبينه، وأن الحزن المشترك على ولدنا المفقود قد قربت ما بينى وبينه، وأنه متى زالت الموانع المتصلة بعمله فسيتزوج منى

ومع ذلك فقد كان أميناً صادقاً فى ناحية من النواحى فإنه لم يكذب على قط . فقد كان يعلم مقدار حبى له ، وأنه كان كل شىء لى فى الحياة التى خلت من الأهل والأصدقاء ، فكان يتركنى أتخيل ما أشاء دون أن يقول شيئاً ، فكنت أؤمل أن سيأتى اليوم الذى يصحح فيه علاقتنا أمام الله وأمام الناس

نعم لقد ظننت ذلك فكان شأنى شأن الكثيرات من الفتيات اللواتى ضللن من قبل كما ضللت فأحببن فى غير حذر ... فالحق أنى كنت أنتظر أن يتزوج روجر منى يوماً من الأيام ... نعم كنت أنتظر ذلك اليوم على الرغم من تذكرى تلك الليلة التى أخبرته فيها بأنى حامل فثار ثورته الفظيعة وخبرنى فى صراحة أن الزواج مسألة بعيدة عن حسابه . وبقيت أنتظر أن أرى الرجل الذى حملنى على حبه يأتى إلى يوماً وفى يده خاتم الزواج ، وعلى الرغم من أننى لم أر ما يشجع هـذا الأمل فى نفسى استأنفت علاقتى الماضية معه وأعطيته من حبى ومن نفسى كل ما طلب فى غير تمنع أو حذر

وحملت مرة أخرى ولكننى لم أحزن لذلك ، فقد كنت أشعر بفراغ قاتل فى حياتى منذ أخبرنى روجر أن ابنى قد مات فكنت شديدة الشوق إلى ولادة طفل سواه

فما شعرت بالحمل حتى تولتنى فرحة منعشة ، وبدأت أحلم بالمستقبل وأصوره فى أبدع الصور وأبهجها ، وانتظرت أن تسنح لى الفرصة المناسبة لإخبار والد جنينى بحالتى راجية أن يقابل حبيبى فرحتى بمثلها

ولكن مرت الأيام متعاقبة طويلة ولم يعد روجر. ولم أكن أسمح لنفسى بالتفكير فى الأسباب التى جعلت زياراته نادرة والفترات بينها متباعدة ولكننى عشت فى حلم براق ، ثم . . .

قرأت فى إحدى الصحف المحلية أن الدكتور روجر مكفاى لشدة حبه الأطفال قد تبنى طفلاً يتيما فى العام الأول من عمره ، ونشرت الجريدة صورة الطبيب يحمل الطفل المتبنى

ونظرة واحدة، نظرة مرعبة كفتنى لأن أعلم أن هاتين العينين السوداوين الصغيرتين اللتين تنظران إلى من الصورة هما عينا طفلى المحبوب روبرت ... نعم إنه ابنى ، ابنى ...

وأحسست ألماً قارساً ينساب فى أعصابى ، وخيل إلى أن ضربات قلبى قد وقفت وأنه يتحول رويداً إلى قطعة من الثلج داخل صدرى . وبدأت أتبين خطر الموقف كما بدأت أفهم تدريجيا كيف

لم يستطع الدكتور مكفاى المعروف بحبه الأطفال المرضى أن يقاوم حبه ابنه من لحمه ودمه وأنه أراد أن يضمه إلى صدره ويعطيه اسمه ولكن من طريق تزيد سمعته وعطفه على الأطفال مكانة عند الناس فهو بهذا التبنى يعلن عن نفسه من طريق لا تجلب له الفضيحة والعار . . .

ولكن أنا ؟ إننى أنا الأخرى أحب ابنى . لقد تألمت من أجله طويلاً ! لقد تمتعت أسبوعاً واحداً بضمه إلى صدرى وتقبيله ثم أخبرونى أنه قد مات . وفى خلال هذه الأشهر الطوال التى حزنت عليه فيها وبكيته كان هو على قيد الحياة . فأين كان ؟ وأين هو الآن ؟ ... أين روبرت ابنى ؟ لا بد من أن أراه . . . ولا بد من أن أضمه إلى صدرى مرة أخرى

ولكن كيف أصل إلى ابنى ؟ شرعت أذرع أرض الغرفة مفكرة . . . وقد بدأت أفهم لماذا لم يجىء روجر منذ عهد طويل، ولماذا أرسل إلى النقود مع رسول بدل أن يحضرها بنفسه ، فهو من غير شك كان يشعر أن هذا الحادث لن يمر دون أن أرتاب فى أن الطفل الذى تبناه هو ابنى أنا ...

ولكن لابد من الحصول على ابنى ... لقد أعدت قراءة ما كتبته الجريدة التى وصفت الاستعدادات البديعة التى أعدها الطبيب لابنه بالتبنى ، وذكرت المربية الفنية التى أحضرها له ... وقضيت ساعات طويلة فى التفكير وتدبير الخطة التى أصل بها إلى رؤية طفلى المحبوب

قضيت فترة طويلة فى المتنزه المقابل لبيت الدكتور مكفاى الجميل وكنت أعرف كل ركن وكل زاوية فى ذلك المتنزه الذى تروضت فيه تحت ستار الظلام . ترقبت لأدرس كل حركة متصلة بذلك البيت الذى يضم ابنى المحبوب

ولكن يجب أن أحذر من أن يرانى روجر . فما من شك فى أنه سيعرف فى الحال هذه المرأة المقنعة ، والله وحده الذى يعلم ماذا يحدث لو تقمصت فيه إذ ذاك شخصيته الشريرة ... واضطربت لمجرد ذكرى إنفعالاته الفظيعة المتكررة ... ثم ذكرت الوسيلة التى لجأ إليها روجر فى تبنى ابنه الحقيقى ليزيد فى الإعلان عن حبه للأطفال وعنايته بهم

ألا أدمر هذه السمعة المزيفة ! ألا أكشف أمر ذلك الرجل ذى الشخصية الشريرة فأعلم الناس جميعاً أن فى نفس هذا الطبيب الرقيق نفسية شيطانية مجرمة مجردة من الإنسانية ؟ !

وفى يوم من أيام المراقبة رأيت المربية تهبط درجات البيت تنقل عربة المهد الصغيرة من درجة إلى درجة فى حذر شديد ، فلما صارت فى الشارع تقدمت منها فوقفت فى طريقها أواجه ابنى الصغير الجميل ، ولم تكن لتستطيع اجتيازى دون أن تبدى شيئاً من الخشونة فوقفت مكانها مغيظة فى تعاظم

فقلت : « ما أجمل هذا الطفل أتسمحين لى أن أحمله لحظة ؟ »

ولكن الطفل ابتسم وتحرك فى عربته الجميله فاصطدم بجانبها

وتولانى شىء من الضعف فأمسكت بحافة العربة وانحنيت عليها أمتع عينى بالنظر إلى وجه ابنى الجميل . وما كدت أتأمل فى تقاطيعه حتى زال كل شك فى أنه هو ولدى روبرت فمددت يدى المتلهفتين على حمله

وهنا تدخلت المربية وقالت :

— لا، لا تمسيه فإن الدكتور مكفاى لا يسمح بذلك …

فصحت :

« ولكنه ابنى … نعم هو ابنى … ابنى ! »

ولم ألبث أن اختطفته وجريت به بين الأشجار فسمعت صياح المربية ورأتى تنادى رجال البوليس ولكننى أمعنت فى الجرى هاربة بابنى المحبوب بين ساعدى

ولكن ذلك لم يفدنى طويلاً فلم ألبث أن سمعت صفارات البوليس ورأنى فاختفيت بين مجموعة من الأشجار الكثيفة ولكن صيحات الطفل الخائف كشفت عن مكانى فأقبل على رجال البوليس فانتزعوه من صدرى وأعادوه إلى مربيته ثم اقتادونى إلى مركز البوليس …

وفى أثناء المحاكمة تعرفت المربية على. وأما الدكتور مكفاى فقد سلك سلوك الرجل الغريب الذى لا يعرفنى فقال :

— لا شك فى أن المرأة مصابة بشىء من الخبل وقد دفعها شىء من الهوس إلى ما فعلته ، وإنى أوصى …

وهنا انحنى على القاضى وتبادلا الهمسات بضع لحظات …

لم يكن هذا الرجل هو الطبيب المعروف بإحسانه وشفقته ولكنه الوحش الذى يبتهج بأيذائى فى قسوة متناهية ، ولقد أردت أن أظهر لهم هذه الحقيقة وأقيم عليها الدليل

ولكن لم أكد ألفظ بالكلمة الأولى حتى وضعت رئيسة السجانات يدها الغليظة على فمى لتسكتنى؛ وساعدها أحد رجال البوليس الواقف على مقربة منا فى إعادتى إلى سجنى وأنا أصيح إنه ابنى

ولم يصغ أحد إلى صيحاتى فلم تتح لى فرصة رواية قصتى لأن رأى الدكتور مكفاى كان نهائياً؛ وكان خير مكان لى مصحة من مصحات المتوهات حيث يعنى بى العناية الكافية وإلى هناك أخذونى

ولقد أدركت أن المكان الذى نقلت إليه لا يمكن أن يكون مستشفى المجاذيب الرسمى فى المقاطعة ، لأن الغرف كانت مؤثثة بأثاث جميل ، وكانت الأرض نظيفة معنياً بها ، وقد خصصت لى غرفة وقامت على خدمتى إحدى الممرضات . وهذه فيما أظن حسنة جديدة من حسنات الدكتور مكفاى

وما أجمل أن يقول الناس : « أتعلمون خبر تلك المرأة التى حاولت خطف ابن الدكتور مكفاى بالتبنى ! لقد عنى بها الطبيب الكريم فوضعها فى مصحة خاصة وأمر بالعناية بها ودفع عنها ما تحتاج إليه من نفقات … أليس ذلك أمراً يدعو إلى الإعجاب … ! »

وكلما حاولت أن أنتهز فرصة لرواية قصتى لمن يجمعنى به المصادفة أوصدوا على الأبواب . وأخيراً أدركت عقم محاولتى ، ثم أحسست الحياة الجديدة تتحرك فى باطنى ، فقررت أنهم متى أخرجونى من هذه المصحة إلى حيث أضع الطفل الجديد فسأكون شديدة الحذر والحيطة حتى لا يأخذوه كما أخذوا أخاه من قبل

ولكننى لم أخرج من هذه المصحة وكلما حاولت الخروج أعادونى بالقوة باكية صاخبة … وعندئذ أدركت أننى لن أبرحها ماحييت فتولانى اليأس القاتل

ولما حاولت أن أهرب لحصنى الأطباء وظهرت حالة الحمل وهنا تدخل الدكتور مكفاى مرة أخرى

وطلب أن يتولى العناية بأمرى . وقال :

— يا لها من امرأة مسكينة ، فما من شك فى أن حالة الحمل هى التى تحدث لها هذه الاضطرابات العصبية . وليس ذلك جنوناً فعليًّا ولكنه خليط من الأعراض العصبية والضعف العقلى . فهى إذ تصيح أن الطفل ابنها إنما تصدر فى ذلك عن تصورات وهمية يحدثها تطلع عقلها إلى ما سوف يكون فى المستقبل حين تصبح أمًّا . ولكن هذه الحالة ستزول متى وضعت طفلها

وعلى الرغم من أننى نظرت إليه مباشرة فإنه لم يطرف طرفة واحدة تنم عن معرفته لى ، ولكن عينى ذلك الشيطان السوداوين كانتا تبعثان بنظراتهما التهديدية التى تبعث الرعب إلى أعماق نفسى

ولازمنى هذا الجزع إلى أن انتهت أشهر الحمل ونقلت إلى مصحة الولادة التى لم أعرف مكانها لأنهم نقلونى مخفورة بتحفظ شديد إلى هـذه المصحة النائية التى لم أكد أرى فيها غير وجه الممرضة الكهلة وكان وجهاً متجهماً . ولم أر قط المولود الذى وضعته ولم أعرف إن كان ذكراً أو أنثى

ولما استطعت أن أترك فراشى أرسلت إلى الشاطئ الغربي لأسكتلاندة طلباً للنقاهة ، وهذا ولا شك عمل آخر من أعمال الدكتور مكفاى الخيرية ، ولكنه كان عملاً خفياً لم يعلن عنه . ورافقتنى فى الرحلة امرأة صامتة عبوس راقبتنى مراقبة دقيقة فلم تكن تسمح لى بالنظر إلى ما يحيط بالطريق من معالم الطبيعة إلى أن أسكنتنى فى شبه فندق صغير فدفعت لصاحبته مقدماً أجر شهر لإقامتى وأعطتنى خمسة جنيهات ثم مضت عائدة إلى لندن فيما أظن

وها أنا قد أصبحت بعيدة عن بلدى بضع مئات من الأميال وحيدة لا قريب ولا صديق . وهكذا انتهت ذكريات الأشهر الأخيرة من اتهام بالجنون إلى سجن فى مصحة المتوهين إلى ولادة ثم إلى النفى الأخير ، وبذلك انتهت حياتى كما انتهت حياة كل فتاة قبلى سلمت فى نفسها من غير زواج . وبذلك قد تخلص منى روجر إلى الأبد وما من وسيلة لأن أعود إليه وأنا فى هذا المكان البعيد . وليس فى يدى غير خمسة جنيهات وقد دفع لى مقدماً أجر شهر للاقامة

سرت رعدة شديدة فى كل ناحية من نواحى كيانى عند ما طرأت لى فكرة مقابلة الناس للبحث عن عمل ، وكيف أقابل الناس وهم ينفرون من منظرى إذا رفعت نقابى . هذا إلى أن نظرة الشفقة التى تبدو فى أعينهم عند ما يرون جروحى تقع من نفسى موقع السوط الوجع . وهكذا كتب على أن أعيش وحيدة منقطعة عن الناس . وكان أخوف ما أخافه أن أعاد إلى مصحة المجانين . لذلك حفظت لسانى عن الإشارة إلى قصتى ، على الرغم من تلهفى على صديق أفضى إليه بأسرار نفسى تفريجاً لما يحز فيها من ألم وحسرة .

وكانت الساعة الوحيدة التى أنسى فيها همومى هى ساعة الغروب، إذ يتلون الأفق بلون جميل ويصل صوت تخبط ماء البحر إلى أذنى كأنه نغمات الموسيقى المشجية . وكنت فى هذه الساعات أشعر بقوة غريبة وأنا أمتع نظرى بما فى الطبيعة من جمال بعيدة عن نظرات الإشفاق التى يرمقنى بها الذين يرون جروحى. وهنا كنت أشعر أن الله قريب منى فأستشعر العزاء وبدأت أدرك تدريجاً أن الله قد غفر لى ذنوبى

كما غفر لجدولاين التائبة من قبل ، وأنه أحبنى كما أحبها . فتعلمت الصلاة من جديد ولكن لم تكن صلاتى بالركوع إنما كانت صلاة من أعماق نفسى وكل عضو من أعضاء جسمى . فلم يكن فى الوجود من هو أحوج منى إلى صداقة هذا الصديق الذى لايتقلب ولا يتغير . فهو لابد أن يصغى إلىّ ويسمعنى ويعزينى !

ثم تولتنى الرغبة وملأ نفسى العزم على أن أعنى بصحتى وأقوى نفسى ، فلا بد من أن أجد عملاً ، وسأتغلب على شعورى حيال هـذه الجروح التى أصابتنى من جراء أدائى الواجب الإنسانى ، ومتى وجدت عملاً فسأقتصد من أجرى وأعود إلى لندن حيث أطالب بابنى وبالمولود الآخر الذى كنت واثقة من أنه لم يمت ؛ فإن الله لا يمكن أن يحرمنى أولادى

وامتلأت نفسى أملاً بأن الله سيعيننى بصورة من الصور على أن أضم ولدى إلى صدرى مرة أخرى وعلى أن أجعل من نفسى الأم التى يفخر بها أبناؤها على الرغم من الأخطاء التى وقعت فيها

ولما انتهت مدة إقامتى فى ذلك الفندق الصغير شكرت لصاحبته العبوس ضيافتها وإن لم تكن قدمت لى فى أثنائها غير الطعام والخدمة التى دفع لها أجرها ... وهبطت السلم إلى الطريق وأنا أتطلع إلى كل لوحة كتب عليها « مطلوب موظف » ولقد كنت أستجمع كل ما فى نفسى من قوة عند ما أرفع النقاب وأطلب وظيفة صرافة أو خادمة فى مطعم أو مساعدة فى حانوت أو شيء كائناً ما كان وكان الجواب الدائم على طلبى :

« لا . نحن لا نستطيع أن نستخدمك »

مع التشديد على كاف المخاطب

وكررت لنفسى المرة بعد المرة « إن الله معى ، إن الله معى » ولكن الأيام تعاقبت وهبطت الخمسة الجنيهات إلى جنيه واحد .. ثم إلى عشرة شلنات .. ثم إلى خمسة . وأخيراً ذهب البنس الأخير . وهنا شعرت بتخاذل موئس ، وعدت أتمنى الموت المرة بعد الأخرى ، وتولتنى الرغبة الملحة فى أن أضع حداً لحياتى التعسة . . . وخيل إلىّ أن الله نفسه قد تخلى عنى فكانت تلك أظلم ساعات حياتى . . . ومع ذلك لا بد أن الله كان فى ذلك الوقت أقرب إلىّ منـه فى أى وقت مضى ، لأننى لم أستطع أن أقضى على الحياة التى وهبها لى

وقضيت ليلتين فى إحدى المتنزهات العامة ولم أتذوق طعاماً منذ ثلاثة أيام . وكان الضعف والهزال قد أخذا منى كل مأخذ عند ما دخلت مترنحة قهوة حقيرة المنظر أستجدى قطعة من الخبز أقف بها ما أحس من ألم قارس فى أمعائى . وإذ شعرت بأن ساقى تكادان تعجزان عن حملى أمسكت بالبـاب اتقاء السقوط وعندئذ وقعت عينى على لوحة كتب عليها « مطلوب مساعدة للمطبخ »

فدعوت الله أن يوفقنى للحصول على هذا المركز الحقير وألا يتركنى فى الطريق عرضة لمثل ما قاسيت من آلام

وحبست العـبرة التى كانت تخنقنى ودخلت متهالكة ترنحنى رائحة الطعام ، وأمسكت بكرسى ونظرت حولى فى ذهول أبحث عمن أستطيع أن أستجديه العمل ، فوقعت عيناى على أغلظ وأقبح وجه رأيته فى حياتى

كان الرجل بديناً طويلاً أصلع مقدمة الرأس كث الحواجب واسع الفم وقد ابتسم ابتسامة زادته

اتساعاً ، وأردت أن أتكلم ولكن لسانى خاننى وكل ما استطعت عمله أن أشرت بأصبعى إلى اللوحة المعلنة عن الخادم

فسألنى إن كنت أريد الخدمة عنده ولم يبد عليه أى أثر للجزع عند ما رأى وجهى المشوه وقد بدت أمارات الشفقة فى عينيه الزرقاوين

واحتبست الكلمات فى فمى ولكن الأمل ملأ قلبى فهززت رأسى إيجاباً، وزاغ بصرى عند ما رأيت خادماً تحمل آنية عليها طعام إلى أحد العملاء، وعندئذ سمعت هذه الكلمات المواسية :

— حسناً ستخدمين عندى ، ولكن يجب أن تأكلى أولاً ، وسأعطيك ١٥ شلناً فى الأسبوع وكل حاجتك من الطعام ...

ثم صاح :

— هات يا نيلى ...

ثم توقف متردداً ونظر إلى متسائلاً ، فأدركت أنه يريد معرفة اسمى فقلت :

— جوديت هاتون

فأمر نيلى أن تقدم إلى حساء وقهوة ثم قال لى :

— ستتناولين غذاء كاملاً بعد أن ينتهى ازدحام الظهيرة

والحق أن آندى العجوز كان حكيما فيما صنع فقد رآنى على حافة الهلاك جوعاً ولم يرد أن يزحم معدتى بالطعام قبل أن تهدأ أعصابى. على أننى كنت جد متعبة ، ولم يكن فى مقدورى أن أطعم فوق ما أطعمت من الحساء . وبعد أن انتهى عمل المساء فى المطبخ كنت مجهودة فلم أستطع أن أتناول سوى قدح من اللبن

وكم شكرت لآندى العجوز كرمه عند ما نقدنى أجر الأسبوع الأول سلفاً ؛ فقد مكننى بذلك أن أعود إلى البيت الرخيص الذى كنت أسكنه فأدفع لصاحبته أجر أسبوع متأخر على وأجر أسبوع سلفاً ويبقى معى بعد ذلك شلن أوشلنان . وما كان أمتع ذلك الفراش الخشن الذى نمت عليه بعد الليلتين اللتين قضيتهما فى المتنزه العام ، وبعد الساعات التى قضيتها فى غسيل الصحون . ونمت تلك الليلة نوماً عميقاً وأنا أشكر لله حنانه وكرمه . واستيقظت فى الساعة السادسة على دقات المنبه ، وقد حرصت على ألا أتأخر عن موعدى

وقضيت فى عملى هذا ثلاث سنوات أعمل من منتصف الساعة السادسة صباحا إلى الساعة التاسعة مساء ، وكان مرتبى يزيد تباعاً إلى أن بلغ جنيهاً فى الأسبوع عدا الطعام . وكم حرصت على الادخار انتظاراً لليوم الذى أستطيع فيه أن أواجه روجر مكفاى فأطالبه بابنى وبمكان الطفل الذى لم أره قط

واحتفظت بعزمى على ألا أقنع وجهى وعلى أن أقابل الناس غير خجولة ولا مستحيية . وبعد أن كان هذا السفور فى أول الأمر عذاباً لى ساحقاً أدركت أن النظرات القاسية وما إليها لم نكن إلا أوهاماً تخيلتها . وقد أحدث ذلك فى نفسى رد فعل عجيباً فأصبحت فخورة بهذه الجروح التى لم تعد أن تكون شاهداً على أن الله قد تخيرنى لإنقاذ الأرواح الطاهرة العديدة التى أنقذتها من الهلاك

وأخيراً وجدت لدى من المال ما يكفى لرحلتى ذهاباً وعودة . وتكرم العجوز أندى فمنحنى إجازة أسبوع غير متسائل عن السبب

وهكذا عدت إلى المكان الذى قضيت فيه سنوات من السعادة والإثم والأحزان . وفى ثبات

دققت جرس الباب الخارجي لبيت الدكتور مكفاي وسمعت دقات قلبي عنيفة وأنا أنتظر الجواب . وكان هذا القلب قد غمرته اللهفة فهو يكاد ينفجر

ثم فتح الباب وأدخلت إلى الغرفة التي كنت أكتب فيها مسودات كتاب روجر وقلبي يطفح حبا له وسعادة بقربه

ترى ماذا يقول عند ما يراني ؟ وهل تراه حافظاً شكله الذي أعرفه ؟ وهل ترى قد ابيض شعره الأسود؟ وهل تخطط وجهه النحيل ؟ وهل لا تزال ابتسامته الحنون وأسلوبه الرقيق في وضع يده بلطف على كتف الإنسان يواسيه ؟ وترى في أي شخصية يكون حين يلقاني ؟ أتكون شخصية الطبيب الطيب الشفيق ، أم شخصية الشيطان الشرير القاسي ؟ وسرت الرعدة في جسمي عند ما ذكرت هذه الشخصية الفظيعة وتولاني ذلك الخوف القديم ، فانكمشت حيث جلست على الكرسي أنتظر ما قدر لي

ولم تلبث أن دخلت من الباب أجمل امرأة ذهبية الشعر وقع عليها نظري ، يخيل إليّ أنها تناهزني في عدد السنين وإن كانت تبدو أصغر مني سناً ، ولم تبد منها أية أشارة تنم عن نفورها من منظر وجهي المشوه

فلما أقبلت عليّ قالت :

لا بد أن تكوني إحدى مريضات الدكتور اللواتي لم أقابلهن ، ومن الجائز أن تكوني عميلة قديمة . وإني لآسف أن أخبرك بغيابه في هذه اللحظة ، فقد دعي لاستشارة في مكان بعيد ، فقد أصيب طفل مسكين إصابة بالغة في حادث سيارة .. ولكنني أنا زوجته . ولعل هنالك ما أستطيع أن أقدمه لك من الخدمات

وكان صوتها رقيقاً يخفف آلام سامعه فكان أشبه بنغمات الموسيقى الرقيقة في نغماتها الشجية

دهشت عند سماع هذه الكلمات ، وعقدت الدهشة لساني ، فقد جردتني مقابلتها الرقيقة من سلاحي . فلم تسعفني الكلمات على قول ما كنت قد اعتزمت أن أقوله وما جئت خصيصاً لأقوله . ولكنني لم أكن أتوقع أن أقابلها . . . امرأته ! لقد كنت أتوقع أن أقابل روجر نفسه . وقد حسبت الزوج الجميلة سكوتي اضطراباً فابتسمت ابتسامة خيرة وديعة واقتربت من الجدار فضغطت زر الجرس فدخلت في الحال خادم فأمرتها بإعداد الشاي

وشعرت شعوراً غريباً وتحيرت فيما أصنع ... فلو أن هذه السيدة كانت أقل رقة أو كانت صلفة متعجرفة أو حتى كانت أقل جمالاً ، إذن لكنت شفيت نفسي بإيذائها كما أوذيت أنا من قبل : ولكن قلبي حام حولها ؛ فقد كانت أجمل وألطف وأشفق من أن تعرض للأحزان والدموع . وإذا أنا قلت لها ما كنت معتزمة أن أقول فإنما أحزن هاتين العينين الباسمتين ، وأخطط هاتين الوجنتين الناضرتين بالدموع وأزيل ابتسامة السرور عن ذلك المحيا الجميل

ثم جاءت الفكرة الثائرة ، فإني وإن أكن أقبح منها شكلا وكان كل ما في وجهي ينفر الناظر إليه ، فإنني أشعر في نفسي بأنني لا أقل عنها مكانة وأنني أريد ابني لأنني أحق به من كل إنسان . ولا بد لي أيضاً من أن أعرف مكان الوليد الآخر . أريد أن أضم ولدي وأن أشعر بسواعدهما الصغيرة تحيط بعنقي وشفاههما المرطبة تقبل شفتي ، لقد كنت أشد ما أكون حاجة إليهما وإلى حبهما ... فلم يكن لي في الوجود شيء آخر سواهما

ولكن الكلمات لم تخرج من بين شفتى ، وجاء الشاى . نعم سأقبل دعوتها وأزود نفسى بشىء من الغذاء فقد كنت أشد ما أكون حاجة للغذاء إذ لم أفطر ولم أتغد .. ومتى تغذيت فسأجد فى نفسى الشجاعة لأخبر هذه المخلوقة الجميلة المحبوبة أى نوع من الرجال هو الذى تزوجت منه ، وسأخبرها أننى بحكم جميع القوانين التى تميز بين الحق والباطل أنا امرأته لا هى، فهذا ما يجب أن يكون فى نظر الله لأننى أنا التى ولدت ابنيه ، ولو أن هذه الكلمات النفيسة لم يقل بها أحد من ذوى السلطان

وكنت أشعر أن كل بلغة أتبلغ بها تكاد تغصنى ، بينما كانت هذه المرأة الكريمة توالى الحديث بأسلوبها العذب الرقيق فى مودة كأنما نحن صديقتان منذ زمان بعيد ، فأثنت على الطبيب وروت بعض معجزاته فى العلاج ، فلا عجب إذا كانت فخورة به وإذا هى أحبته من أعماق نفسها — وكانت شديدة الإعجاب والحب لولديه روبرت وجودى ...

وهنا أمسكت أنفاسى ، وشعرت بألم يحز فى قلبى ، إذن كانت الوليدة الثانية بنتاً وسماها باسمى . فما من شك فى أنه يحتفظ بذكراى ... ولا بد أن يكون قد فعل ذلك حين كانت له شخصيته الرقيقة الحنون ... وعلى حين فجأة عاد إلىّ عقلى الذى كان شارداً

وقالت الزوجة :

— ولكننى أحب الطفلين كما لو كانا ابنى ، وأعتقد أننى أحبهما أكثر مما لو كانا كذلك ، لأنهما يتيمان ليس لهما والدان غيرنا ، وأنا أعرف الآن أننى لن يكون لى أولاد سواهما ، إذ قدر لى أن أعيش عاقراً ، أتحبين أن تريهما ؟

وعلى حين فجأة ألحت على أن أتناول قطعاً أخرى من السندويتش والحلوى

أتسألنى إن كنت أحب أن أراهما ؟ لقد طفرت الدموع من عينى وخرجت الألفاظ من بين شفتى على صورة ما فقلت فى تردد :

نعم بالتأكيد إنى ... إنى أحب الأطفال

وانتظرت حابسة أنفاسى أن أرى ولدى ودخل الطفلان الغرفة يد أحدهما بيد الآخر . وكان روبرت فى الخامسة من عمره آية فى الجمال فما كان أشد حنان ساعدى إلى معانقته ، وكانت جودى تحفة من التحف المحبوبة ، وكانت أشبه ما تكون بصورة فوتوغرافية لى عند ما كنت فى مثل عمرها . ولم تلبث الطفلة أن نزعت يدها من يد أخيها ووثبت على ركبتى السيدة الجميلة ، وطوقت عنقها بساعديها الصغيرتين . أما روبرت فدخل دخول الرجل الصغير ومضى مباشرة إلى أن وقف إلى جانبها فى أدب وتلهف إلى ما سيكون من تقديمه إلى ، الأمر الذى كان يتوقعه على ما يظهر

وقالت السيدة تقدمنى لابنى ضاحكة :

— هذه هى . . . آه إننى لم أسألك يا سيدتى عن اسمك ؟

وما أستطيع أن أشرح لماذا سميت نفسى :

— مسز سميث

وعندئذ مد روبرت يده الصغيرة القوية إلى يدى ونظرت عيناه السوداوان الصغيرتان مباشرة إلى عينى وهو يقول :

— إننى مسرور جداً أن أراك يا مسز سميث

فما كان أشد أدبه وأجمله !

أما جودى الصغيرة فقد انكمشت كما لو كانت

خائفة فلما ألحت عليها أمها أقبلت على تمد يدها وتقول في لهجة الطفولة :

— ما الذي صير وجهك مضحكا على هذه الصورة ؟

فقال روبرت :

— جودى . . . عيب عليك أن تقولى هذا . ألم تقل لك أمك . . .

فقلت :

لا بأس يا صغيرتى ، إن الذى صير وجهى هكذا مضحكا أنه احترق فى حريق هائلة . . .

ثم فكرت أأكون أنا الذى أروى لابنتى القصة الفاجعة ! وفجأة توقفت عن الحديث . . . ومرت أمام مخيلتى ذكريات عديدة ... وطرأت لى أفكار لم تكن من قبل قد طرأت

لقد ذكرت هذه المرأة الجميلة فى حياتها الهنية ، وذكرت أن ولدى يعيشان فى كنفها سعيدين ممتعين بأسعد ما يمتع به الأطفال

ورأيت غرفتى التى كانت عارية وقد أصبحت تحفة من أبدع التحف فى الأثاث والرياش

قدرت ذلك وما رأيت من عطف هذه السيدة وحبها لولدى ، وتساءلت ماذا يكون لو أننى رويت قصتى وهل يصدقوننى ، وإذا هم صدقونى فهلا أعيش دائماً كأننى غريبة عنهم ؟ !

ثم سمعت حديث السيدة مع روبرت عما يتلق من الدروس المختلفة ومن بينها دروس الركوب ، وسمعتها تتحدث عن الطفلين وهما يصليان ، وحينئذ أدركت مبلغ الجناية التى أجنيها إذا أنا هدمت سعادة هذه الأرواح البريئة الطاهرة !

ولم ألبث أن قلت وكأننى امرأة غريبة أتحدث من مكان بعيد :

— آسف يا سيدتى إذا كنت مضطرة لتركـكم الآن فلا بد لى من اللحاق بالقطار . فلم يكن لدى من الوقت غير بضع ساعات ... وإنى لآسفة جداً إن لم أجد الدكتور ... لا ... إننى لن أعود ... لقد كان من حسن حظى أن لقيتك ... وداعاً أيها الرجل الصغير . وداعاً يا عزيزتى جودى

وبكى قلبى وأنا أودع طفلى الصغيرين وقلت :

— بارك الله عليكما ورعاكما

وشعرت مرة ثانية وأخيرة بهذه الأيدى الصغيرة المحبوبة بين يدى تصافحنى مصافحة الوداع

وعاد بى القطار إلى اسكتلانده حيث لا أزال أعمل فى مطبخ آندى العجوز الصديق الوحيد الذى عثرت عليه فى العالم

ولكن أيامى أصبحت سعيدة هنية لعلمى بمكان ولدى العزيزين وتفكيرى فيهما ، وأحلامى الهائمة حولها ، وتصورى لهما ينموان عاماً بعد عام وسط السعادة التى يعيشان فيها فأتصور مراحل حياتهما الهنية كما لو كنت معهما ... وكان يزيد فى سعادتى شعورى بأنهما سعيدان فى كنف أمهما الجميلة . وإنى لأسأل الله فى كل وقت ألا تعرف هذه السيدة الطيبة شيئاً عن طبيعة زوجها الشريرة ، وأن تبقى دائماً سعيدة بشخصيته الرقيقة الكريمة ، وهى الشخصية التى أحببتها أنا أيضاً من كل أعماق قلبى . وكنت أدعو لها دعاء خالصاً بأن يديم الله عليهما حبهما وسعادتها ، وأن يبقى على حبهما وحنانها على الولد والبنت اللذين أوجدتهما أنا فى هذا العالم الدنيوى

عبد الحميد حمدى

كيف فقدها !! ...

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميـــلة العلايلي

لم تكن تلك اللحظات التى مرت على ذلك الرجل فى ذاك المساء كلحظات الناس أو كلحظات أيامه الخوالى .

ولم تكن فتاته كالفتيات اللاتى يعرفن الرجل لينعمن بمظهر من مظاهر الحياة أو ليغنمن ثمرة مادية مرجوة .

لقد كانت تعيش بخيالها فى دنيا تموج بالمعانى ، وتزخر بالأشباح الهائمة الرفرافة محلقة فى دنيا الشعراء لتلهمهم أناشيد الخلود وأغاريد الفراديس ، فينقلونها إلى لغة الناس ألحاناً معطرة بشذى البنفسج الذى يتمخض عنه روض السماء فى رقة تشبه نسمات الصباح المشبعة بأريج الزهر ...

أنس الرجل إلى الفتاة لأنه كان فى حاجة إلى من تؤنسه ... لقد كان قلبه الخرب فى حاجة إلى من تعمره ، وصدره الصامت يحن إلى من يحركه ليتكلم ...

كان الرجل مهموماً لما يعانيه فى بيته وفى عمله فشعر بجوار فتاته بفرحة روحية فرجت كربه وبددت أساه ...

وتحدث إليها عن نفسه ، وفتح لهـا صحائف صدره ؛ فتنبه قلبها ، وتحرك وجدانها ، وتأهبت لنقله إلى عالم روحها حيث ينعم بنور الطهر والجمال الروحى ، ومدت يدها فى رفق لتمسح الأسى عن صـدره ، وبعثت شعاع روحها إلى روحه لتنير ظلمات نفسه كما تنساب أشعة الفجر فى الأفق فتبدد ظلمات الوجود محاولة أن تصهر روحه فى بوتقة السمو ، فتتخلص من أثقال المادية ليخلد إلى عالمه الأول منصتاً إلى أهازيج الملائكة ، متنسماً شذى الجنان ، طروباً بترجيع الحور المقصورات فى الخيام ! . .

ولمحت الفتاة فى عينيه التماع الرضا والاطمئنان بعد أن أسمعها نشيد التفاهم والوئام ، ففرحت وأيقنت أنه انتشى بكأس السعادة التى يتمناها !

يا لجلال الرجل المحب الصادق فى ناظرى المرأة كملاك رائع تراه !

ركعت الفتاة وهى تصلى طويلاً لتدعو الله أن يحفظ لذاك الرجل قلبــه نقياً طاهراً وأن يعينها على تغذية روحه بعواطفها ...

ثم نظرت الفتاة إلى السماء بعد أن انتهت من الصلاة وتساءلت بدون كلام ... أتراه يسمع دعائى ؟ أينقل إليــه الخيال صورة خشوعى ... ليصلى هو أيضاً ! !

ثم ابتسمت عندما تذكرت قوله : أخيراً عرفت قيمة الحياة لمـا رأيتك ... أشعر بنور الله يشيع فى جنبات صدرى كأن روحى بشعاعها الصافى تملؤ الوجود كله فأرى العالم وضاء !

لقد كنت حتى البارحة ، مقطب الجبين عابس الوجه ، أتخبط فى ظلمات لا أثر للنور فيها ... إلى

الأمس القريب كنت أعيش بدون غاية .. وكنت أرجو أن تمر عجلات الحياة بأقصى سرعتها ، كنت أشبه بعاشق فقد معشوقته وقد كانت كل ما له فى الدنيا إذ كان يستمد منها (إكسير) الجمال والحياة

أجل ! كنت كذلك إلى الأمس رغم مايحوطنى من مظاهر الحياة وأبهة الجاه وتوفر أسباب الحياة لدى ...

كان الرجل يخاطبها بلهجة أشبه برنين الحنين إلى شيء حبيب ، وقد تورد وجهه بعد شحوب ، وصقل وجهه بعد التجاعيد ، واعتدلت قامته بعد الانحناء ، وفاضت نظراته بالحياة والأمل بعد أن كانت خاوية الجاذبية مسلوبة التأثير مشلولة الإيحاء !

أكان الرجل يعيش فى صحراء قاحلة لا ظل فيها ولا ماء ، فلما التقى بهذه الفتاة اطمأن إليها وعرفها كما يطمئن الشارد التائه إلى عطف النبيل الشفوق ؟

لا . إنما طالت عليه أيام المحنة وأضناه الشقاء لحرمانه قلباً يعطف عليه ويهواه !

ولمست الفتاة فى نبراته رنين الصدق والطهر وطالعت فى عينيه بريق العفة والنبل .

فاطمأنت بعد أن ملت قلوب الوثنيين الذين يعبدون الخصور والنحور ويحرقون أنفسهم الوضيعة بخوراً لهيكل الحب الملوث ؛ فإذا أشفقت عليهم بحكم عاطفتها الرقيقة ، وأسبلت عليهم ستار رحمتها وعطفها ... برزت أنيابهم وأظافرهم ، وظهرت وحشيتهم ، وتلاشت إنسانيتهم ، وتنبهت فيهم غريزة السلب والسطو وحاربوها باسم الحب ...

لذا عاشت الفتاة بين الناس غريبة تغتصب البسمة لتجاملهم ، وتنفر منهم كلما اشتمت رائحة الذئاب البشرية .

وقنعت من الحياة بخيال ارتضت به مؤنساً راجية أن تمثر على قلب نبيل تتعهده بعنايتها وتلقحه ببذور المحبة الصافية من أكدار الأغراض والشهوات لتجنى ثمار غرسها مواساة وأنساً ، ولتفوز من ميدان الاختبار بواحد يسد الثغرة ويرأب الصدع ويشبع ميولها الروحية ويتقن لغتها ... لتشعر بالراحة بعد العناء وتستقر بعد الحيرة، لتسعد ذاك الذى اصطفته من بين رجال العالمين وتدفعه إلى طريق المجد والسعادة المرجوة، ليتغنى بمجده الزمن ، ويردده صوت الخلود، وتنقش على جبين التاريخ بمداد من النور أبرز صفات الرجولة القوية ، لتحتل أبرز صفحات الأزل .

مرت هذه الأمانى بذهن الفتاة فابتسمت ورفعت وجهها إلى السماء مغمغمة بدعاء لم يسمعه غير الله .

وتكرر اللقاء ...

وتفتح صدر الرجل ...

فإذا به بقدر ما يحمله فى قلبه من نبل ...

يخاف !

وليست فتاته ذات مظهر وضيع حتى يخاف أن تهتك كرامته أو تشوه سمعته ...

إنها فتاة نبيلة يفاخر كل عظيم بمحادثتها أو مجالستها ...

وبدأ ينسج من التقاليد ستاراً ليسبله على عواطفهما ... وراح يقدمها لأصدقائه ، ويبيح لها مجالسة هذا وذاك ... وعذره فى ذلك أنه يبعد عنه سوء الظن والشك .

وكانت الفتاة تنفذ رغباته تكلفاً لتعرف ما وراء نيته المجهولة ...

وظن كل واحد منهم أنه من السهل أن تكون الفتاة له وحده صديقة أو حبيبة أو ما يشاء ، وراح كل منهم يظهر لها الغيرة ويحرم عليها فى تحفظ مقابلة غيره ... وهى تتظاهر بالرضا لتبلغ قرار النفس المجهولة ... تبتسم طويلاً ... ولا يدرى المسكين أنها تبتسم تهكما وسخرية منه ...

فما كانت فتاة مادة حتى تتبع أسباب المادة ، وما كانت فتاة متعة حتى تبحث عن المتعة ...

ومرت الأيام تباعاً وهى دائبة على اختبار هذه النفوس بكل ما أوتيت من ذكاء ودهاء وإحساس ...

واطمأن الصحاب إليها أو على الأصح كل واحد ظن أنه الفائز ...

عدا الرجل الأول ...

الرجل الذى أحبته حقاً وأولته من نفسها كل ما يطمع أى رجل أن يناله من امرأة محبة مخلصة ...

عدا ذاك الرجل ... قلق وأظهر لها غيرته لكن فى غير حكمة ... كان فى مقدوره أن يصارحها بالواقع ويمنعها من مخالطة صحابه ...

ولكنه يحرص على نفسه ولا يهمه إن كانت تذهب ضحية التقاليد أولا تذهب ما دام يرضى رئيسه وزملاءه ...

إنه يسحبها من يدها ليقدمها إلى رئيسه ليشعره بأنه يهتم به أكثر من اهتمامه بنفسه ... وكذلك يفعل مع الزملاء ... وفكرت الفتاة أخيراً ...

أيحبنى ذاك الرجل حقاً ؟ ...

وجاوبها القدر الساخر بضحكة نبهت عقلها النائم . فأدركت الحقيقة المرة

لم يقل تاريخ المحبين أن رجلاً محباً يضحى بكرامة حبيبته فى سبيل مصلحته الشخصية ...

ولم نعرف محباً صادقاً يقدم حبيبته إلى أصدقائه ترضية لهم ...

إذن كان هو أيضاً يريد أن يتسلى فلما عرف أنها فتاة روح غير عابثة تركها لغيره

ولكن الذى حيرها أن يثور ويغتاظ كلما لمحها تخاطب غيره

ولو أنه منعها بالعنف فى غير رحمة من مخاطبة أى إنسان ، لهانت قسوته وحمدت له غيرته وآمنت بعواطفه ...

لقد كان فى نيتها أن تعمل على إسعاده وأن تمنحه من قلبها كل حب جليل . وأن تعيش لتدفعه إلى الطمأنينة والهناء ...

ولكنه رجل مادى أنانى لا يقيم وزناً إلا لنفسه ولا يسعى إلا لراحته ...

وصعب عليها أن تمنحه قلباً عزَّ على الرجال امتلاكه وأن تتعلق برجل لا يفهم من الحياة غير ظواهرها ...

فنكصت وابتعدت عنه وقد تلاشى كل ما تحمله له من حب وأمل

***

ودعاها صديقه فلبت الدعوة على أمل أن هناك ما يبرر تأكيده ...

ولما جاءته ... بادرها بقوله أخبرنى صديق لى : أنك ستتزوجين

قالت : ربما

قال : كأنك مزمعة على الزواج حقاً

قالت : يحتمل

قال : وإذا قلت لك لا تتزوجى
فابتسمت قائلة : وبأى حق تمنعنى ؟ .
قال : تعرفين أننى متزوج
فأشارت برأسها أن نعم ؟
قال: ولكننى لم أوفق رغم حداثة عهدى به، لذا أخشى أن يصيبك ما أصابنى
قالت : وفقك الله
قال : هل لى أن أسألك عن ذلك الزوج ؟
قالت : أمن أجل ذلك بعثت إلىّ ؟ ... ظننت أن وراء الدعوة أمراً خطيراً ...
قال : وهل هناك أخطر من حياة إنسان توضع بين يديك ؟
قالت : إنك تتكلم بسهولة عن حياة الإنسان
قال : أرجو أن نتفاهم فى جد
قالت : لم أكن هازلة معك أبداً !
قال فى خبث : ما رأيك فى فلان ؟
قالت : أنبل منه ما عرفت !
قال وهو يبتسم فى غيظ : هو ؟
قالت بلهجة التأكيد : أجل
قال : أخشى أن تكونى وقعت ؟
قالت : مثلى لا تقع .. إنما تفهم وتحس
قال : المهم ... أنى أنصحك بعدم التزوج
قالت : لم ؟
قال : لكى تظلى كما أنت سعيدة . . وإذا تزوجت طبعاً حرمنا منك ! ! ...
فضحكت متهكمة قائلة : آه فهمت ... تريد أن تستبقينى لكيلا تحرم منى ... كم أنت لطيف ياسيدى... أنت متزوج وأنجبت أولاداً... أعنى أنك نعمت بالزواج والذرية وتريد أن تنعم ...
فقاطعها قائلا: بالحب
فأردفت قائلة إذا تجاوزت الحقيقة وأسميته حباً فهل تظن الحب الحقيقى يدفع صاحبه إلى موت الآخرين ... أتدفعنى إلى الهلاك وتقول من أجل الحب ... ما أعجب حب هذا العصر المادى الحقير ...
فتلطف قائلاً : لم تفهمى مرماى ... أعنى أنه فى نيتى أن ...
فلم تدعه يتمم كلامه ووقفت لتخرج وهى تقول : إبحث لك عن فتاة بدون قلب لتعيش بدون زواج لك
ولقيها الرجل الأول فى الطريق، ففهم أنها كانت عند صاحبه ، فبان الحنق من عينيه وقال بلهجة المغيظ : كيف حالك يا آنسة ... طبعاً مسرورة
فتكلفت الرضا وقالت : كل السرور
فعاد يقول فى غيظ : إنك تلعبين بالنار وتعاملين الناس سواسية
فابتسمت فى مرارة وقالت : ومن حسن الحظ أن نارى بلا لهب محرق ... ! وأنت كيف حالك ؟
قال فى ألم : على غير ما أرجو ... ظننت أننى اهتديت أخيراً إلى مرفأ السعادة فإذا بى أزداد شقاوة وتعاسة ...
قالت : أوه ... هذا مؤلم حقا ... ومن تظن سبب شقاوتك ؟
قال : فى هذه الأيام أنت ... كنت أحسب أنك ستقفين بجانبى ...
فنظرت إليه طويلاً، فخجل وأطرق ، ثم قالت: يا سيدى ... ليلة القدر تظهر مرة واحدة فى العام ولا تظهر إلا للسعيد ...

وكذلك فرصة السعادة تواتى الإنسان مرة واحدة ... فإذا لم يغتنمها ويصنها فلن تعود إليه أبداً

لقد واتتك الفرصة ... فلم تصنها ... إذن فالذنب ذنبك

أنت الرجل صعب عليك أن تصون حب فتاة، فكيف تطمع فى حب الفتاة ؟

طهر نفسك من أمراض المجتمع وارتفع عن مصاف العامة ... لتعرف كيف تحيا هادئاً سعيداً مطمئناً ...

بعد شهور تبلغ مرحلة المشيب وسوف تندم على عمر قضيته فى ذمة التقاليد الغاشمة

غداً يتنبه قلبك راجياً قلباً حانياً فلا تجد أمامك غير وحشة الشيخوخة وقسوة المرأة الحمقاء

وغداً عند ما تطالبك عواطفك بحقها المشروع لا تجد أمامك غير الجدب والحرمان ...

بقدر ما تحرم قلبك اليوم سيطالبك قلبك فى الغداة .

ولن تشعر إلا بمجاعة روحية هائلة تبعث الظلمة الحالكة فى نور حياتك... لقد داعب المشيب رأسك وغداً يشيب قلبك فهل أفرغت فى صدرك (أكسير) الحياة لتستعين به على الأيام المقبلة الجدباء...

انعم بالمادة .. وتمتع بالمركز .. وخذ من ظواهر الحياة كل ما يعوزك . . . فلن يعوق ذلك خفقة واحدة من قلب يحبك...

غداً تود لو تبيع ما تبقى من عمرك لقاء لحظة واحدة تقضيها بين ذراعى امرأة تحبك ...

ولكن هيهات ... هيهات

جميلة العلايلى

إنتقـــام حبيبة

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

أسندت ظهرها إلى ظهر الكرسى وجلست جلسة غير المحتشم وقالت لمن يحدثها وهى تبتسم : « يظهر أنك لم تسر برؤيتى « يادك » مع غيبتى طول هذه السنين »

فتحرك حركة تدل على الشراسة وقال بصوت أجش : « ما الذى تعنين ؟ »

فقالت وهى لا تزال تبتسم : « لقد كان عليك على الأقل أن تشكرنى . لقد زرتك بعد عودتك »

قال بلهجة وحشية : « دعى هذا الموضوع »

فهزت كتفيها وقالت : « إن أخلاقك لم تزل سيئة كالعادة يا دك »

وتنفس بصعوبة وشدد من ضغطه على راحته بأصابعه ولكن السيدة لم تفزع مما بدا عليه من هيئة مرعبة ، وتناولت لفافة تبغ من علبتها الذهبية وأشعلتها وأخذت تدخن وهى تقول : « لقد كان المستر رودويل أحذق منك فإنه عرف منذ خمسة أعوام بواسطة أصدقائه فى دائرة بوليس اسكوتلانديارد أنك اعتزمت الانتقام منه ومن زوجته وعرف حق المعرفة حياتك قبل أن تسجن وعرف كيف كنت تعاملنى وعرف أين يجدنى وخطر له خاطر موفق هو إرسال زوجته إلى الريف واتفق معى على أن أحل محلها فى منزله أثناء غيابها حتى يتم تدبيرك ورأى أننى أقدر على معاملتك من أى إنسان غيرى

ثم ضحكت ضحكة عالية وقالت : « ولهذا على ما يظهر ظننت أنت أنه من السهل الاحتيال علىّ ، وفاتك أنها سهولة غالية »

فوثب « دك » مغضباً واقترب نحوها مهدداً بقبضته ولكنها أخرجت المسدس من جيبها وصاحت : « مكانك يا دك ! إننى عرفتك معرفة حقة ولهذا لم آت إلى هنا مجردة من السلاح وقد تعلمت كيف أحمى نفسى . إرفع ذراعك وإلا أطلقت على رأسك رصاصة . إجلس على المقعد الذى عندك وارفع يدك إلى أعلى »

أطاعها دك وجلس وهو مهتاج من الغضب وظلت هى واقفة تنظر إليه بهدوء . فسألها بصوت يتهدج : « ما الذى تريدين ؟ »

قالت : « ليس لديك من الأسباب التى تدعو إلى كراهية المستر رودويل مثل مالدىّ من الأسباب التى تدعو إلى كراهيتك . إنه لم يعطك إلا ماتستحقه ولكننى لا أستحق ما أعطيتنيه . إنك خدعتنى وسحقتنى كما يسحق المرء الحشرة تحت قدميه . وقد تركت من أجلك كل شىء ، تركت منزلى وأهلى ولن يقبلونى إذا عدت إليهم . وكان كل ذلك فى مقابل هذه »

وكانت لا تزال متشبثة بالمسدس بيد وباليد الأخرى أخرجت من جيبها ورقة وقالت : « إننى سأقرؤها لك وإنى لواثقة من أنك نسيتها وإن كنت كاتبها . اسمع رسالتك إلىّ :

« لقد اكتفيت منك فلا ترينى وجهك مرة أخرى » . د . ج

ثم قالت : « رسالة مختصرة جمعت كل مافى نفسك يا دك جلاندر وهذا كل جزاء المرأة التى تركت من أجلك كل شيء وتبعتك . ثمانى كلمات كانت كافية لسحق حياتى وقذف روحى إلى الجحيم فإذا كنت تنقم شيئاً من رودويل فما الذى تنقمه منى ؟ ... »

كانت نظرة دك إليها وهى تخاطبه نظرة تهكم وسخرية كادت تصيبها بالجنون . وأعادت الورقة إلى جيبها وهى لا تزال تصوب المسدس إلى رأسه فقال :

« أظنك تريدين مالاً فكم تريدين ؟ »

فابتسمت كأنما الكلمة التى سمعتها منه كانت مزحة سارة وقالت : « شكراً لك يا عزيزى دك فلدىّ مال كثير وإن آخر شيء أفكر فيه هو مالك ... »

قال : « ما الذى تريدين إذن ؟ »

فنظرت إليه نظرة ثبات وقالت ببطء : « الذى أريده هو أن أعرف هل فى تكوين نفسك موضع واحد للتفكير فى شيء من خطاياك فيكون للأمل مجال فى تحسين الحال وأخشى ألا تكون فى نفسك عاطفة تبرر هذا الأمل »

قال مغضباً :

« أى شيء تريدين ؟ يجب أن تعرفى كيف تعاملين الرجال »

فهزت رأسها وقالت :

« إننى أعرف ، وقد مضى وقت كنت فيه أخشاك يا دك . ولكننى الآن نسيت كيف يكون الخوف من أى شيء »

فقال : « إننى أعترف بأننى عاملتك معاملة سيئة ، فقد وعدتك وعوداً لم أفكر قط فى إنجازها وقد فعلت مثل ذلك مع نساء كثيرات . ولكننى عرضت عليك ترضية مالية فمن الحكمة أن تقبليها وأن تتركينى وشأنى »

لم تتغير العلائم التى كانت مرتسمة على وجهها وقالت :

« شيء واحد لو فعلته تتغير الحال . ولكنك لن تفعله لأنه لا موضع فيك للخير ولأنك شرّ كلك بل أنت الآن شر مما كنت . وإن انتقاماً كالذى دبرته ضد رودويل وزوجته لا يدبره إلا الشيطان وإلا أنت يا دك »

فقال ببرود : « هذا من شأنى »

فشمرت بالسأم والملالة كأنها رأت القوة التى تحاربها قوة لا قبل لها بها وصاحت منفعلة : « إننى أكرهك يا دك . إننى أكره نفسى لظنك أننى كنت أحبك فى وقت مضى وأكره أكثر من ذلك أن تتصور أننى سأحبك فى المستقبل »

ونظر إلى عينيها فوجد علامة للتحذير . ولما عادت إلى الكلام كان صوتها شديد الانخفاض يكاد يكون خالياً من الدلالة على الحياة

وعادت إلى الكلام فقالت بصوت منخفض وبلهجة أشبه بلهجة من يكلم نفسه ، وأخرجت الورقة من جيبها مرة أخرى : « إنه لمن الغريب

ألاّ تكلف نفسك كتابة عنوان وتاريخ لهـذه الورقة »

فامتقع لونه لما رآها تفتحها مرة أخرى وتقرأ :

« لقد اكتفيت منك فلا تريني وجهك مرة أخرى »

وقالت : « هذا قول له معنى كبير »

ثم سكتت فجأة وحدقت فى وجهه ودنت منه والسدس فى يدها . فقال بصوت أرق من صوته الأول : « لا تكونى حمقاء يا ليلى . ضعى السدس جانباً » .

فقالت : « ألا تدرى ما الذى كان يجول بخاطر رودويل عند ما وجدنى ؟ إنه لم يخبرنى به ولكننى أدركته »

فكاد يحوله الخوف إلى قطعة من الثلج عند ما زادت اقتراباً منه وبدت على عينيها علائم شعور عنيف . وقال : « ما الذى تريدين أن تفعليه ؟ »

فصاحت بمثل عواء الذئب : « أظننى سأقتلك يا دك . إننى إذا لم أستطع أن أفعل أى شىء من أجلك ففى وسعي على الأقل أن أمنعك عن الاستمرار فى الجرائم ضد نفسك »

وقام من مكانه واثباً وانطلقت رصاصة وتحطمت إحدى النوافذ . ووضعت السيدة السدس والخطاب على المنضدة ثم انحنت على الجثة الهامدة فقبلت وجه القتيل . وعادت بعد ذلك إلى منزلها

***

بعد أربعة أيام كان رودويل فى إدارة جريدة فقال له المحرر : « لقد مات دك »

صاح رودويل : « مات ! » فقال : « نعم . لقد وجده المستر فارى مفتش البوليس قتيلاً فى غرفته . وأعلن أنه انتحر »

فقال رودويل :

« لم يخطر ببالى أن رجلاً مثله ينتحر »

قال المحرر : « إن المستر فاى قد دهش أيضاً ولكن الأمر لا شك فيه ، فقد وجدت مذكرة بخط ديك يعترف فيها بأنه اكتفى منها ولا يريد أن يراها . وهو بلا شك يمنى الحياة

قال رودويل : « لقد فكرت فى الأمر من كل النواحى فوجدت أنه بانتحاره قد فعل أحسن ما يمكن أن يفعله »

ثم خرج من الباب وهو يقول : « سأسافر اليوم إلى إيفونشاير لأقابل زوجتى المقيمة هناك منذ أسبوعين »

عبد اللطيف النشار

مجنون . . .

للكاتب الفرنسى جى دى موباسان

بقلم الأديب السيد محمد العزاوى

أبى مس من جنون ؟ أم أن مابى فيض من غيرة فحسب ؟ لست أدرى من أمر مابى شيئاً ، ولكننى أكابد مر العذاب ، وأمض الألم . لقد اجترمت يداى إثم طيش ، طيش أهوج مجنون ، إن هذا لحق . ولكن ألا تكفى هذه الغيرة الرابية المبهورة ، وذاك الحب الثائر الخائن الملعون ، وهذا الألم الباهظ المقموت — ألا يكفى كل هذا لأن نأتى إثماً من الأمر وسخفاً دون أن ينزع منا إلى هذا السخف أو ذاك الإثم عقل أو فؤاد ؟

أواه ! إنى لآسى وآلم ... وآلم من عذاب دائم حاد مفرط . لقد أحببت تلك المرأة حباً سليطاً طاغياً . ولكن أكان حُبّيها حقاً ؟ أعلقتها ؟ كلا ثم كلا ! لقد ملكت على حسى ، وحالت بينى وبين نفسى ... أسرت وصرعت ، فكنت فى يدها — وما أزال — دمية . كنت ملك النظرة الخاطفة ، واللحظ الرهيف ؛ أسير الغلالة والقد الدقيق ؛ عبد التبسم والشفاه ... وكنت ألهث إذا ما تسلط على هيكلها وتآمر ... ولكنها هى ، صاحبة كل هذا ، وكائنة هذا الجسد ، أمقتها وأحقرها وألعنها ، وكنت أبداً أمقتها وأحقرها وألعنها . فقد كانت كديرة غادرة ، وكانت دنسة ماكرة ، وكانت محط الفساد ومهبط السوء . إنها لحيوان فاسد مثير تخلى عن الروح فتخلت عنه ولم تعد بعد فيه ؛ ولم يعد يسير عقله كما يسير نسيم منعش متطلق . إنها البهيم الآدمى ، بل هى أحط من هـذا وأقذر . إنها ردغة مستوحلة . هى آية من آيات الجمال البض الغريض سكنت دار الخزى والعار

كان اتصالنا فى أول الأمر غريباً جميلاً .

وكان يقتلنى — بين ذراعيها المفتوحتين أبداً — جنون الرغبة اللحة العاتية . وعيناها كانتا تفغران فى كأنما ألهب حلق العطش . كانتا سنجابيتين حين الظهيرة ، مشوبتين بخضرة وقت دلوك الشمس ، وكانتا زرقاوين إبان الشروق . ليس بى مس من جنون ، فإنى لأقسم أن كان لعينيها هاته الألوان الثلاثة . فهما فى أحايين الحب زرقاوان ثاقبتان ، يتوسطهما إنسانان كبيران مضطربان ، وشفتاها تقلصهما رعدة محمومة ، فلربما انفرجتا عن طرف لسان ريق أحمر يتحرك كلسان الأفعوان وجفناها الغضيضان الناعسان تشرعهما فى وناء وهينة ، فتكشف عن نظرة مضطرمة وارية ، كانت تزيدنى جنوناً . وكنت أحتدم غيظاً إذا ما رأيت نظرتها هذه لدى العناق ، وأرجف حنقاً ورغبة أن أقتل هذا الحيوان الذى تلحف الضرورة فى بقائه

وكان فرعى يهتز لوقع خطاها وهى تتخطر فى حجرتى ؛ وكان قلبى يثب لحفيف ثوبها إذ تأخذ فى خلع ثيابها فتدع ثوباً يقع ، وتخرج منه عارية مخجلة ، وكنت أحس من ريح غلالتها اللاصقة انحلالا رخياً يسرى فى أعضائى وأطرافى جميعاً ...

وشعرت بأنها ملتني لجاءة واجتوتني . إذ رأيت ذلك في عينيها يوماً حين أصبحنا ، فقد كان من دأبي أن أحنو عليها كل صباح أرقب نظراتها الأولى ... وكنت أنتظر ـ وصدري يدور به الحنق ويحرجه الكره والاحتقار معاً — أنتظر مترقباً نظرات ذلك البهيم النائم الذي يهيمن عليّ فأنا له عبد ذليل، ولكن ما تكاد تبدو لعينيّ حدقتاها الشاحبتان كليلتين سقيمتين إثر الأحضان الأخيرة ، حتى تتقد حواسي ويضطرم كياني . فكأنما نار تلهبني فتستنزف كل عزمي وقواي ، ولكنها حين طالعتني ذلك اليوم طالعتني بنظرة مختلفة حزينة بائسة لا ترجو من العالم شيئاً

آه ! حقاً رأيت ذلك وعلمته ، ولقد شعرت به للتو وفهمته، إذ انتهى كل شيء انتهى ، كل ما ترجو إلى الأبد ، وعندي على ذلك الدليل يقوم في كل ساعة وثانية !

فإذا ما عانقتها صدفت عني قائلة : « هلاّ تركتني إذن ؟ » أو قبلتها فتقول : « إنك لبغيض ! » أو تقول : « أفلن أجلس حيناً وادعة ؟! »

حين ذلك غرت ، ولكن كما يغير الكلاب .. أثارت ما أثارت من تريب وكتمان وحيلة. علمت حقاً أنها ما عزفت عني إلا لتفسح مجالاً لآخر تذكى عواطفه وتلهب من حواسه ...

غرت غيرة هادرة طائشة مجنونة ، ولكني لم أكن مجنوناً . كلا ! حقيقة كلا ! وانتظرت ، آه ! ثم حنوت عليها ولم يخب ظني ولم تخدعني عيناها إذ ظلتا باردتين مثقلتين ، وقد تقول حينذاك : « إن الرجال لتؤذيني وتسئمني » ، وكان ذلك حقاً

غدوت حينئذ غيوراً منها نفسها ، ومن عزوفها ونفورها ؛ غيوراً من فراغ لياليها ووحدتها ؛ غيوراً من حركاتها وإشاراتها ، ومن عقلها الذي أستشعر دائماً عاره ؛ غيوراً من كل ما أتوهم وأحدس وأرى وقد تلقاني ، صبح ليلة من لياليها المضطرمة ، بنظرة رضية ناعمة ، كأنما خالطت روحها شهوة فحركت من رغباتها ... حينئذ يحتدم قلبي حنقاً فتختنق أنفاسي في صدري المتحرج، وتصرخ رغبة في نفسي أن أخنقها ، وأهشم عظمها تحت ركبتي ، وأنشب في جيدها أظفاري، حتى تقر بمخازيها المخجلة وتفضح أسرار فؤادها المرذول .

أبي مسٌّ من جنون ؟

— كلا !

فهأنذا قد انتعشت في إحدى الليالي وانتشيت واستشعرت إحساساً جديداً يخالطها ، وكنت واثقاً من هذا تمام الثقة ؛ فقد كانت تتمتم كما تفعل بعد العناق عادة ، ونظراتها توقدت واضطرمت وذراعاها قد شاع فيهما الدفء والحيا ، واضطرب كيانها أجمع إذ تتحكم فيه الرغبة الثائرة الجموح . وضاعت منه روائح خفية مسكرة ، هي روائح الحب الذي صرع الفؤاد وأعمى البصيرة .

وتغابيت ، ولكن أحاط بها انتباهي كالشرك ، ومع ذلك فما كشف لي منها عن شيء .

وتريثت أسبوعاً ، فشهراً ، ففصلاً . والآن

رأيت جهومتها قد زالت ، وتدفقت فيها حميا مبهمة، ثم استراحت إلى حياة قوامها عناق ، وعمدتها قُبل

وفى لحظة وامضة أدركتُ ! فما بي مس من جنون ، وإني لأقسم أن ليس بى مس من جنون !

كيف أقص ذاك عليك ؟ كيف فهمتُ ؟

كيف أبيّن لك الشيء المبهم الممقوت ؟ !

إليك ما نبهنى إلى كل شىء : فى تلك الليلة التى حدثتك عنها كانت عائدة من نزهة على صهوة جواد فسقطت عنه . وقد جلست ليلتئذ أمامى فى مقعد وثير متوردة الوجنتين ، مُحمّشة العينين ، مرضوضة الساقين ، صدرها يعلو ويهبط مثل أمواج المحيط . لقد أدركت كل شىء حين رأيتها . إنها تحب ! ولم أستطع أن أخادع نفسى !

حينذاك فقدت شعورى وكرهت أن أنظر إليها. فتحولت إلى النافذة وهناك بصرت بخادم يقود جواداً من عنانه يشبو ويثب ... أما هى فقد نظرت الجواد الفتى الشابى ، وأتبعته بصرها حتى غاب فاستلقت وغفت ...

وطفقت أبحث طول الليل فى ذلك . وخيل إلىّ أننى أوغل فى غموض ما كنت أتوقعه من قبل . ومن زعم أنه عجم عود النساء الأعوج ، وسبر رغباتهن المتضاربة ؟ ومن ادعى أنه فهم تقلباتهن الغادرة ورغباتهن السافلة ؟

* * *

كانت تخرج صباح كل يوم على صهوة الجواد إلى الغاب والسهول ، ثم تعود لاغبة مكدودة فى كل مرة ، كما تفعل عادة بعد أن تسكت عنها نوبة من الحب الطائش . الآن قد فهمت ، فغدوت غيوراً من الجواد النهد الكريم ، واجداً على النسيم العاشق إذ يحتضنها بينا تنطلق فى شوط سريع أهوج ؛ وغدوت حاقداً على أوراق الشجر إذ تقبل أذنيها عرضاً ، حاسداً لأشعة الشمس إذ تلثم جبينها من بين الغصون ، ولذلك السرج إذ يحملها ويلمس فخذيها البضتين

كان هذا كل ما يسرها ويغويها ، ويطلق أسارير محياها ويغريها ، وكان هذا كل ما يكدها ويضنيها ، فتلقانى متعبة لاغبة إلى حد الإغماء ...

وأزمعت الانتقام لنفسى. وكنت أتلطف معها فى الخطاب متلطفاً مدللاً ، وكنت أمد إليها يدى لتعتمد عليهما حين تقفز عن صهوة الجواد بعد أشواطها الهوجاء المضنية . وكان الجواد يرمقنى ، ثم يفحص الأرض صبوةً وفتوةً . وكانت تدلله وتربت على كتفه ، أو تحتضن أنفه اللاهث . ولا تنسى أن تمسح على رأسه وأصداغ فمه المزبد . وكان ريحها العطر يضوع من جسد تصبب منه عرق أعرف أريجه وسط الليل . وكان هذا العطر يختلط فى أنفى بريح الجواد الأصهب ...

وطفقت أتحين الفرصة وأتربص الدوائر . لقد كانت تسير كل صباح فى أحراج من السدر توغل فى الغاب ... ففى يوم غدوت مع الفجر ، وفى يدى حبل متين الفتل، وفى صدارى مسدسان محشوان، كأنى ذاهب إلى مبارزة

وعدوت نحو الطريق التى تحب ، وربطت الحبل فى جذعى شجرتين متقابلتين ، ثم تعقبتها فى الأحراج

وكثيراً ما خبرت الأرض بسمعى . والآن سمعت وقعاً رتيباً من بعيد . وبصرت بشىء من بين الأغصان يسبح فى الهواء سبحاً . آه ! ... لم أخدع فقد كان هو الجواد النهد الأصيل. وأما هى فقد كانت نشوى من فرط السعادة محمرة الوجنتين . وتبدلت نظرات عينيها فهى الآن طروب لعوب ، وتطلقت أعصابها من الهم ، واستراحت إلى تلك القسوة المنعزلة

ولما أن كبا الحصان بقدمه تهشمت عظامه ، وطرح بفتاتى بعيداً فلقفتها بين ذراعىّ القويتين حينذاك على حمل ثور سمين . وبعد أن وضعتها على الأرض فى هينة ورفق دنوت منه « هو » وقد كان يحملق فينا حينذاك ويحاول أن ينهشنى ، فأطلقت عليه الرصاص فى الأذن فخر صريعاً يتشحط فى دمائه الثرة . وقتلته ... كما يقتل الغريم !

ولكنى أنا نفسى سقطت على الأرض وجهى قد أدمته جَلدتا سوط كان فى يدها . ولما أن تأهبت لأن تلهبنى بالثالثة أفرغت فى جوفها الرصاصة الأخري ...

نخبرنى بربك أكان ما بى مساً من جنون ؟ !

السيد محمد العزاوى

الزوج التائب

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ ع . ا

« لقد وصل الأمر إلى النهاية ويجب أن نفترق إلى النهاية »

بهذه الكلمات فاهت « لوسيلا » فشعر الرجل بغصة فى حلقه وأحس إحساساً لا عهد له بمثله ، ودارت به الدنيا وهو يحدق فى جمالها النادر الذي طالما تخيله وبحث عنه فلم يجده إلا فيها . ثم دار بلحظه فى أرجاء غرفتها المنظمة الأنيقة . وتبين أن هذه اللحظة أحفل اللحظات فى حياته بالخطر . وقال بلهجة المتباله : « نهرب الآن ؟ ! »

فدنت منه لوسيلا ، وشعر فى أثناء دنوها بأن سريان الدم يزداد سرعة فى عروقه . ووضعت لوسيلا يديها على كتفيه وقالت : « نعم فإن زوجتك لا تحبك مثل حبي ، وأنت من بيتها تعيش فى سجن وسأكون لك فلنهرب الآن »

قالت ذلك وهي ترمقه ببصرها لتتبين مبلغ إرادته . فقال بلهجة مضطربة : « نهرب ... لماذا ؟ »

وكانت لوسيلا شديدة الشغف بكل ما يصعب الحصول عليه . وأحست بشىء من السأم منه فأرادت أن تختبر صعوبته ، فقالت وهى تبتسم ابتسامة ساحرة : « هل ستستمر ؟ »

فقال وقد زادت لهجته اضطراباً : « لقد فكرت وسأذهب الليلة إلى المنزل ، ولكنى سأعود فى الغد »

قالت : « يا عزيزى ألكسندر ليس بينى وبينك غد ، فإما أن نهرب الآن وإما أن نفترق إلى الأبد »

فقال ألكسندر : « . . . لكننى أفكر فى زوجتى وفى ابنى »

قالت : « ولكن فكر فى الحب فإنه أهم » ، ثم رمته بنظرة لا يمكن أن تقاوم فقبلها قبلة شرهة يتجلى فيها الجوع والوحشية

ثم دفعها عنه وقال : « سأعود فى الغد » . وتجنب نظرها فى هذه المرة حتى لا تؤثر عليه وقال : « فى الغد سأعود ثم لا نفترق » فقالت : « أنت لم تحبنى قط وإلا لما فارقتنى الآن » فقال : « أحبك »

ثم أفلت نحو الباب وهو يعلل نفسه بأن يرى للمرة الأخيرة ابنه وزوجته ويتعلل بأنه فى الغد سيعود إلى محبوبته الجميلة ليقيم معها ما اتسع لهما مدى العمر لكنه لم ير وهو خارج تلك الابتسامة الغريبة التى كانت تشيعه بها لوسيلا

ومشى ألكسندر إلى بيت زوجته مارى تلك الزوجة التى لم تعرف قط ما معنى الحب والتى تزوج منها لما زينت له سخافة الشباب صورتها فرآها إذ ذاك كالزهرة فى كمها الأخضر قد أينعت وأوشكت أن تتفتح . وكم يتمتع الشباب أمثال هذه السخافة تزوج منها إذن وهى لدنة ميادة كالعود الندى . وفى العام الأول من زواجهما رزقا مولوداً . ومضى نحو

عام بعد ذلك ووردته تذبل وعودها ييبس حتى أصبحت أو كادت تكون كعود من الحطب . وكان منزلها كالعش المهجور يزيد سوء نظامه كل يوم . وسرعان ما فقد المنزل وربته بهجتها فى عين الزوج فكان يتناول معها طعام الأفطار على عجل ليسرع بالنزول إلى السوق ويأتى إلى البيت فى ساعة متأخرة فيرتمى على الفراش لينام . وهو بين ليله ونهاره تواق إلى رؤية وردته كما كانت أو إلى رؤية وردة مثلها فى عهد النضارة . حتى تعرف على لوسيلا فرأى فيها مطلب نفسه

وكان منذ ذلك الحين يزداد شعوراً بالتعاسة . ويقلق راحته كل شىء يراه بالمنزل ويقاوم هوى نفسه فلا يستطيع . وكان يقول إن المرء لا يستطيع أن يعيش أكثر من عمر واحد فمن الغبن أن يقضى هذا العمر فى السجن باختياره . وتشبثت بذهنه فكرة هى أن يطلق مارى ويعوضها لما يشعر به نحوها من دوافع الرحمة ثم يتزوج من لوسيلا

وعنـد ما وصل إلى منزله فى ذلك اليوم كانت الساعة التاسعة مساء وكانت مارى جالسة أمام الموقد تعد فنجاناً من القهوة . فلما رأته قالت له : « إلى الآن لم تأت بالخادم » ثم ناولته فنجان القهوة وكاد بحكم العادة يتشاجر معها لتأنيبهـا إياه على عدم استحضاره الخادم فقال : « إننى لا أرى ... » وقاطعته قائلة : « كذلك الرجال لا يرون ... »

لـكن الكسندر لم ير فائدة من المشاجرة فى ساعة الوداع الأخيرة . فدخل غرفة النوم فزود ابنه بنظرة ثم خرج فنظر إلى وجه زوجته ثم إلى ساعته وقال: إن الوقت قد آن وإنه ذاهب على ألا يعود

ودار بلحظه فى أرجاء المنزل فبدا له غريباً كل ما فيه وأحس بأنه على أهبة مخاطرة عنيفة . ثم نزل مسرعاً وزوجته تنظر إليه ولا تنطق بحرف

وفى الصباح التالى ذهب إلى بيت لوسيلا فقال له الخادم بلهجة شديدة الدلالة على الفتور إن سيدته ليست بالمنزل فقال : « سأنتظرها » ثم هم بالدخول فقال له الخادم إن رجلاً آخر قد جاء . وناوله خطاباً فأدرك ألكسندر أن خليلته كانت عند قولها وأنه لم يكن بينها وبينه غد

وفض غلاف الـكتاب فوجد نصه هكذا : « يحزننى أن أعترف بأننى أخطأت يوم تخيرتك لحبى . ولكن من المعصوم من الخطأ ؟ وقد جاءنى خليل قديم وسيقيم معى ، وأرى الأوفق لمصالحى ولمصالحك ألا نتقابل مرة أخرى . وأرجو ألا تأسف فإن عندك ابنك وزوجتك وهما أولى بك . ولعل فى هذا الفراق خيراً »

قال ألكسندر : « لعل ! » . ثم نزل عن السلم وهو يسمعها تغنى داخل المنزل

واعتراه الدوار لـما سار فى الطريق ولم يعرف كيف يعود إلى مارى ولا كيف يبقى مخلصاً لها وحدها ويستغنى عن لوسيلا . نعم إن الأخيرة كالوردة الناضرة . ولكن الورد لا يبقى على نضارته وقد كانت مارى وردة أيضاً قبل أن يعتريها الذبول

ولما اقترب من مشرب جلس ليستريح مما اعتراه من الدوار وليشرب فنجاناً من القهوة . وفى أثناء شربه تذكر أن هذا اليوم هو عيد ميلاد ابنه الصغير

فوقف منتفضاً وأسرع إلى منزله وهو خجلان من عزمه قبل ساعة على هجر ماري وابنه هجراً أبدياً

ومر في طريقه ببائع لعب للأطفال فاشترى لابنه كثيراً منها واستأنف السير وهو يقول في نفسه : « ما كان أحمقني عند ما عزمت على التضحية بلذة الأبوة وبالحياة الزوجية في سبيل عاهر إن سرتني اللحظة فلكي تخونني في اللحظة المقبلة

ولما وصل إلى باب منزله اشتد به الدوار فخال أن أجراس كل الكنائس في المدينة تدق . فوقف ليملك روعه ثم مشى مبطئاً فرأى زوجته تسرع إليه وتقول : « هل جئت ؟ »

قال : « اليوم عيد ميلاده »

فقالت بصوت متلعثم : « نعم ولكن ... كنت تتكلم أثناء النوم وكنت أعرف كل عزم تعتزمه »

قال : « نعم واليوم أعود إليك إلى الأبد فأين الطفل ؟ » فقالت : « وهو نائم في غرفته بعد أن قضى عدة ساعات في البكاء »

فذهب إليه وأيقظه فصاح الطفل متهللاً ساعة رأى أباه : « هل داستك سيارة ؟ كانت تقول أمي إنك لن تعود . هل رجعت لتحضر عيد ميلادي ؟ »

واستمر الطفل يمزح وأبوه يقبله ويقول :

« الحمد لله ! إن من السخف أن نوازن الزوجة بالخليلة ! هذه تراد لراحة العمر وتلك للهو ساعة ... »

ع . ا

الغاية تبرر الواسطة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

استيقظت من النوم منشرح الصدر ، صافى النفس ... واتجهت نحو النافذة ، وأخذت أستنشق نسيم الربيع العليل ... ونظرت إلى الحديقة المزدهرة الوارفة ، وأخذت أسرح الطرف فى جمال الكون ، ثم رحت أذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، نشطاً خفيفاً ، وأخذت أصفر لحناً خافتاً ، ثم توجهت إلى الراديو وأدرته ، فسمعت المذيع يردد : « شمال ... يمين ... شمال ... يمين ... » ، نخلعت سترة (بجامتى) ، وانتظرت التعليمات الجديدة التى سيصدرها المذيع لأندمج معه فى الباقى من تمرينات الصباح الرياضية

— شمال ... يمين ... شمال ... يمين ... هب عال ... انتهت تمرينات هذا الصباح .

أقفلت الراديو بحنق ، وأنا أوجه إليه الكلام :

— لا بأس ، سأقوم ببعض التمرينات وحدى

استلقيت على الأرض ، ووضعت يدىّ تحت رأسى ، ورفعت رجلى إلى أعلى . وهنا دخلت زوجى الحجرة :

— ما شاء الله ... ما هذا ؟ هيا يا رجل إلى الشرفة لنتناول الشاى !

— أحضريه هنا

— خذ (بيجامتك) وهيا !

— قلت لك أحضريه هنا !

ولما كانت زوجى تعلم صلابة رأسى ، فأنها خرجت وعادت وفى يدها فنجان الشاى ، وقالت :

— قم ، وخذ الفنجان .

— لا .

— أتريد أن أقف هكذا ؟

— لا .

— أين أضع الفنجان ؟

وهنا دق الجرس الخارجى فتلفتت زوجى عن مكان تضع فيه الفنجان قبل أن تذهب لترى من الطارق ، فلم تجد أقرب من رجلىّ المرفوعتين وهرولت نحو الباب

— تفضل . تفضل . إنه هنا فى هذه الغرفة

— فى هذه الغرفة ؟ ترى من يكون ؟ حاولت أن أقوم ونظرت إلى الفنجان فرأيت البخار يتصاعد منه نخشيت أن أتحرك لئلا يسكب علىّ ذلك الشاى المغلى ؛ فاستسلمت لله وبقيت فى مكانى ووضعت أصبعى فى أذنى وأغمضت عينى حتى لا أسمع ضحكات السخرية ، ولا أرى ما سيرسم على وجه الزائر المحترم

فتحت نصف عينى فرأيت أخى يقهقه فأخرجت أصبعى من أذنى وزفرت زفير الاطمئنان

— حسبتك غريباً

— مذنب ؟

— لا والله

— ماذا فعلت حتى وجب عليك هذا العقاب ؟

— لا شيء . أقوم بتمرينات لإزالة السمنة فقط ...

— أية سمنة وأنت لا تزن أكثر من ٥٠ كيلو ؟

— والله لا أدرى

وتململت فى رقدتى ، وأشرت إلى أخى ليرفع الفنجان فقال :

— سأفعل

ثم رفع الفنجان وترك الطبق ، ورشف منه رشفة ، ثم وضعه ثانية فوق رجلي وقال :

— عندى خبر سار أريد أن أسزه إليك

— حسن . ارفع الفنجان لنتحادث

— لا . هكذا أحسن

فنظرت إلى زوجى مستعطفاً فهزت لى رأسها علامة النفى ، وانحنى أخى حتى أصبح فمه بالقرب من أذنى وأسر إلىّ بكلمة فصحت :

— أهنئك . ثم وجهت الكلام إلى زوجى :

— ألا تهنئينه ؟ ما هكذا تقابل الأنباء السارة

— على م ؟

— لن أقول لك حتى ترفعى هذا الفنجان اللعين

فتقدمت ومدت يدها إلى الفنجان وقالت وهى ترفعه :

— أمرى لله . قل

— إن علياً سيتزوج

— حقاً ؟

— هذا ما قاله لى

— ولكن ممن ؟

— آه ... لم تقل لى ممن يا على !

— من حسنية

— حسنية ! حسنية من ؟

— ابنة جيراننا فى شارع بين الجنان . أظنك تذكرها ؟

— آه !

فالتفتت زوجى إلى على وقالت :

— أهى جميلة ؟

— مدهشة

— ومتى ستتزوج ؟

— لم أحدد الوقت بعد

ثم التفتت إلى وقالت : فيم تفكر ؟

— لا شيء . لا شيء . لقد شعرت بجوع فقط

— إذن هيا لنتناول الإفطار

— هيا يا على

انتقلنا إلى الشرفة ودار الحديث بين زوجى وأخى عن حسنية وجمالها وكمالها وحسنها وأدبها ومشيتها وزيها ولم أشترك فى الحديث إلا بإيماء الرأس علامة الموافقة على كل ما يقولون . كنت حاضراً معهما بجسمى فقط . أما أفكارى فقد كانت تسبح فى ذكريات الماضى القريب يوم كانت حسنية تمرح وتلعب وتسهر وتفجر معنا أنا ومحمود . لقد هممت أكثر من مرة بأن أصيح : « لا يا على ، إن هذا الزواج لن يكون . إنها لا تصلح لك » . ولكنى خشيت أن أضطر لذكر التفاصيل . إن زوجى السكينة تعتقد أنى طفل كبير لا ماضى لى ، فكيف أذكر أمامها الآن أنى كسائر الناس لى ماض ، بل أمتاز عن سائر الناس بماض حافل زاخر بالمغامرات والفجور . إن غلطتى الكبرى هى أنى لم أذكر لزوجى بعد زفافنا أنى كسائر البشر لى ماض . ماذا كان يحدث لو أننى ذكرت لها كل شيء ثم أعقبت ذلك بقولى :

— كان هذا قبل أن أراك وقبل أن أتزوجك أما اليوم فإنى أدفن هذا الماضى للأبد

نعم لقد كانت غلطة كبرى ومضت فلا يجب أن أبكى على اللبن بعد إراقته كما يقول المثل الإنجليزى

سأنتظر إلى أن يستأذن أخى وأخرج معه وأقص عليه كل شىء، ولكن لا؛ إن هذا مما يزيد الطين بلة لأن أخى أرعن لا يتردد فى إفشاء قصتنا ، وسوف لا يمضى وقت طويل حتى تكون القصة قد بلغت زوجى مبالغاً فيها منمقة حواشيها فأفقد بذلك سمعتى الطيبة عنـد أخى وزوجتى . إذن لأبحث عن حل آخر يحفظ لى سمعتى ويمنع هذا الزواج الشائن

قام أخى مستأذناً وسلم علينا وانصرف فدخلت إلى حجرة مكتبى وغصت فى كرسى كبير ورحت أفكر فى حسنية والحل المنشود . وجدت نفسى أقلب صفحات الماضى فرأيت بعين خيالى حجرة استذكارى أيام كنت طالباً فى السنة النهائية بكلية التجارة ورأيت نفسى جالساً على كرسى بالقرب من الشرفة وفى يدى كتاب (الإفلاس) أطالع فيه . رفعت عينى عن الكتاب فرأيت فى البيت المقابل فتاة جالسة قبالتى تطالع فى كتاب، فلم أهتم بها أول الأمر، وتكررت جلستى وتكررت جلستها؛ وكنت إذا انتهيت من استذكارى انتهت من استذكارها، وإذا ابتدأتُ ابتدأتْ ، وإذا أضأت نور حجرتى أضاءت نور حجرتها، وإذا أطفأته أطفأته. وفى ذات ليلة استجمعت شجاعتى وأومأت لها برأسى مسلماً فأومأت لى برأسها، وتكرر الإيماء بالرأس والابتسام والتطلع نحوها بين الفينة والفينة

وفى صباح يوم حار أخذت قطعة الحديد الصغيرة التى أمرن بها عضلاتى وخرجت فى الشرفة لأقوم ببعض التمرينات فرأيت حسنية تظهر ثم تختفى ثم تعود وفى يدها مكنسة ثم قبضت على عصاها بيديها كما أقبض على قطعة الحديد وراحت تقلدنى فإذا رفعت قطعة الحديد إلى أعلى رفعت مكنستها إلى أعلى، وإذا مددت ذراعى مدت ذراعيها وإذا رفعت قطعة الحديد بيد واحدة رفعت مكنستها بيد واحدة وهكذا . وضعت قطعة الحديد على الأرض فوضعت مكنستها على الأرض . أخذت أملأ صدرى بالهواء وأخذت تمـلأ صدرها بالهواء . حككت رأسى بأظافرى فحكت رأسها بأظافرها . فقلت لنفسى : يا لها من فتاة لعوب

تركت الشرفة ودخلت لأحضر قميصى ثم عدت وأخذت ألبسه فى الشرفة فمدت الفتاة يدها إلى مشجب قريب وتناولت قميص أخيها وأخذت تلبسه؛ ربطت رباط رقبتى فربطت رباط رقبة أخيها. أحضرت سروال بذلتى وخلعت سروال (بيجامتى) وأخذت ألبسه فأحضرت سروال أخيها ولبسته فوق جلبابها. أحضرت سترتى وطربوشى فلبست سترة أخيها وطربوشه فبدت فى شكل مضحك ، فضحكت وضحكت، فأشرت لها هيا إلى النزول فهزت رأسها علامة النفى ورسمت بأصبعها نصف دائرة من اليمين إلى اليسار أى سأقابلك غداً فأشرت إليها «متى» فأشارت بأربع أصابع ثم وضعت السبابتين متقاطعتين علامة النصف ففهمت أنها ستقابلنى فى الرابعة والنصف ، فقبلت أناملى وبسطت كفى ونفخت فيها ليحمل النسيم لها القبلة فأطرقت برأسها وهرولت نحو الداخل فقلت لنفسى :

— يا لها من فتاة لعوب

تقابلنا وتكررت المقابلات وسهرنا وامتدت

بنا السهرات ولعبنا ولهونا وسكرنا بخمر القبلات ووسوس لنا الشيطان فشربنا المحرمات

وفى يوم من أيام الصيف وقفت حسنية فى حجرتها ووقفت فى الشرفة فأومأت إلى برأسها وأومأت إليها برأسى محيياً وأشارت بأصبعها إلى صدرها ثم راحت تحرك ذراعها الأيمن كما يحرك القطار ذراعه وتتحرك فى الغرفة جيئة وذهاباً ففهمت أنها تريد أن تخبرنى بسفرها فوضعت كفىّ متقابلين أمام صدرى وحركتهما إلى أن أصبح بطنهما إلى أعلى أى «إلى أين ؟» فأخذت تقلد من يسبح فى الماء بتحريك ذراعيها ومد رقبتها ففهمت أنها ستسافر إلى الأسكندرية، فأشرت لها ثانية إشارة أى مكان ؟ فوقفت تفكر قليلا ثم نظرت إلى اليمين وأشارت بأصبعها إلى قبة جامع قريب من منزلينا ثم هزت رأسها وصفرت وقفزت ورقصت علامة البشر والسرور ثم أشارت بأصبعها إلىّ ثم وضعته على صدغها أى «هل فهمت ؟» فأومأت لها برأسى « أى نعم » وعرفت من الجامع والقفز والرقص أنها ستسافر إلى سيدى بشر

ظهرت نتيجة الامتحان فحزمت أمتعتى وسافرت إلى الأسكندرية، وعلى وجه التحقيق إلى سيدى بشر. نزلت بمحطة سيدى جابر فى السابعة مساء ولم أفكر فى أن أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتى بل أسرعت إلى الكورنيش ، وكان يعج بالناس عجيجاً ورحت أتفرس فى وجوه المارة لعلى أعثر على حسنية . سرت إلى أن كلت قدماى وتعبت عيناى من كثرة الانتقال من وجه لآخر، فتركت الكورنيش وذهبت إلى بنسيون وضعت فيه أمتعتى واسترحت قليلاً ، وغيرت ملابسى وخرجت أستأنف البحث فى الملاهى المبعثرة على الكورنيش . دخلت كازينو الشاطبى ، وبيلافستا ، ولما لم أجدها توجهت إلى سيدى بشر وملاهيه ، دخلت الميزونيت والميامى وبحثت ونقبت ولكنى لم أعثر عليها . سرت على الكورنيش يائساً ، وعند بقعة هادئة مظلمة لمحت شابين يتعانقان فاقتربت منهما بدافع الفضول . نظرت إلى الشاب ونظر إلىّ وصاح : أهلاً . أهلاً . عدلى ومد إلى يده مصافحاً وقال : متى جئت إلى الأسكندرية ؟

— الآن فقط . كيف حالك يا محمود ؟

ثم التفت إلى الفتاة، وقلت لها بصوت هادىء:

— مساء الخير يا حسنية

فردت علىّ بإيماءة ؛ فقال محمود :

— أصدقاء ؟ لا لزوم لوساطتى فى التعارف إذن

— أظن ذلك

وسرنا على الكورنيش نحن الثلاثة ، وشهدت الأسكندرية وملاهيها وشواطئها وقواربها ومنتزهاتها وآثارها

***

تململت فى كرسى بحجرة المكتب ، وأخذت أتمتم : هذه هى حسنية التى يرغب أخى فى الزواج منها . إن هذا لن يكون ، سأبذل كل ما فى جهدى وسأتبع الطرق المشروعة وغير المشروعة لأمنع هذا الزواج . سأذهب إلى محمود لعلى أجد عنده مخرجاً !

نهضت ولبست ملابسى وتوجهت إلى محمود ، وفى الطريق خطر لى خاطر ، ولكنى ترددت فى تنفيذه ، وقام فى نفسى صراع بين الإقدام والإحجام ، وأخيراً وطنت العزم على تنفيذه ، ورحت أطمئن نفسى بأن الغاية تبرر الواسطة

طرقت الباب ، فسمعت صوتاً آتياً من بعيد يسأل عن الطارق :

— من ؟

— أنا عدلى

— أنا فى الحمام الآن ، ادفع زجاج الباب ، ثم أمدد يدك من بين القضبان الحديدية ، وافتح الباب

ففعلت ذلك ، وفتحت البـاب ، ودخلت ، وتوجهت نحو الحمام :

— محمود

— أفندم

— لى عندك حاجة ؟

— ما هى ؟ !

— سأنتظرك حتى تنتهى

— حسن

— اسمع !

— ماذا ؟ ألم تقل إنك ستنتظر

— ألا زلت تقابل حسنية ؟

— مالك ولهذا ؟ لقد تزوجت وأصبحت من عباد الله الصالحات

— أجب ودع الهذر . ألا زلت تقابل حسنية ؟

— أهزك الشوق ؟

— أوه . أجب !

ففتح محمود باب الحمام وأطل برأسه بعد أن رفع يده بالتحية العسكرية وقال :

— فى كل وقت يا أفندم

— حسن !

— أى حسن فى ذلك ؟

— إن أخى يرغب فى الزواج منها

— لا غرابة فى ذلك فهو « مقطف » كما كنا نسمى الرجال الخام

— دع عنك المجون الآن

— ماذا تريد منى أن أفعل ؟

— سأدفع لك ثمن تذكرتين لتدخل بهما أنت وحسنية إحدى دور السينما كما سأدفع لك ثمن تذكرتين لى ولأخى على أن تختار مقعدينا خلف مقعديكما مباشرة

وفتح باب الحمام وخرج محمود ومد يده وقال : « هات »

فمددتُ يدى فى جيبى وأخرجت ثلاثين قرشاً

— خذ . اختر المقاعد فى طرف الصالة واختر يوماً من الأيام الراكدة ـ الأربعاء مثلاً ـ فاهم ؟

— كل الفهم

* * *

دخل أخى حجرتى وقال : ألم تلبس بعد ؟ هل عدلت عن الذهاب إلى السينما ؟

— لا يا عزيزى

— الساعة السادسة والربع

— لا بأس ... إنى أحب أن أدخل السينما متأخراً كالناس العظام

— أوه ؛ ألا زلت « قنزوحاً »

لبست ملابسى وتوجهنا إلى السينما ودخلنا فى الظلام واحتللنا أماكننا . مال محمود على حسنية فلكزت أخى وأشرت له إليهما فهمس : «دعهما» فهمست « يا لك من عاشق لا تحب أن تفسد على العاشقين صفوة ساعاتهم . . . »

مال محمود عليها وطبع قبلة صامتة على خدها

فهمست لأخى : «يا للوقاحة ! إنه يقبلها»

— لعلها خطيبته

— خطيبته ؟ يقبلها هنا . إنها وقاحة

أضيئت الأنوار فى فترة الاستراحة، فتطلع أخى إليهما فشحب لونه ، وتغيرت هيأته ، وأخذ يشهق ويزفر بصوت مسموع ولم يستطع أن يخفى اضطرابه فسألته ما به ، فأجاب :

— لا شىء . . . تعال نخرج من هنا

خرجنا إلى الردهة الخارجية فكررت عليه السؤال فهمس « إنها حسنية »

— من هى ؟

— تلك التى كان يقبلها

— حسنية خطيبتك ؟

— لا ، ليست خطيبتى لقد كنت أعمى

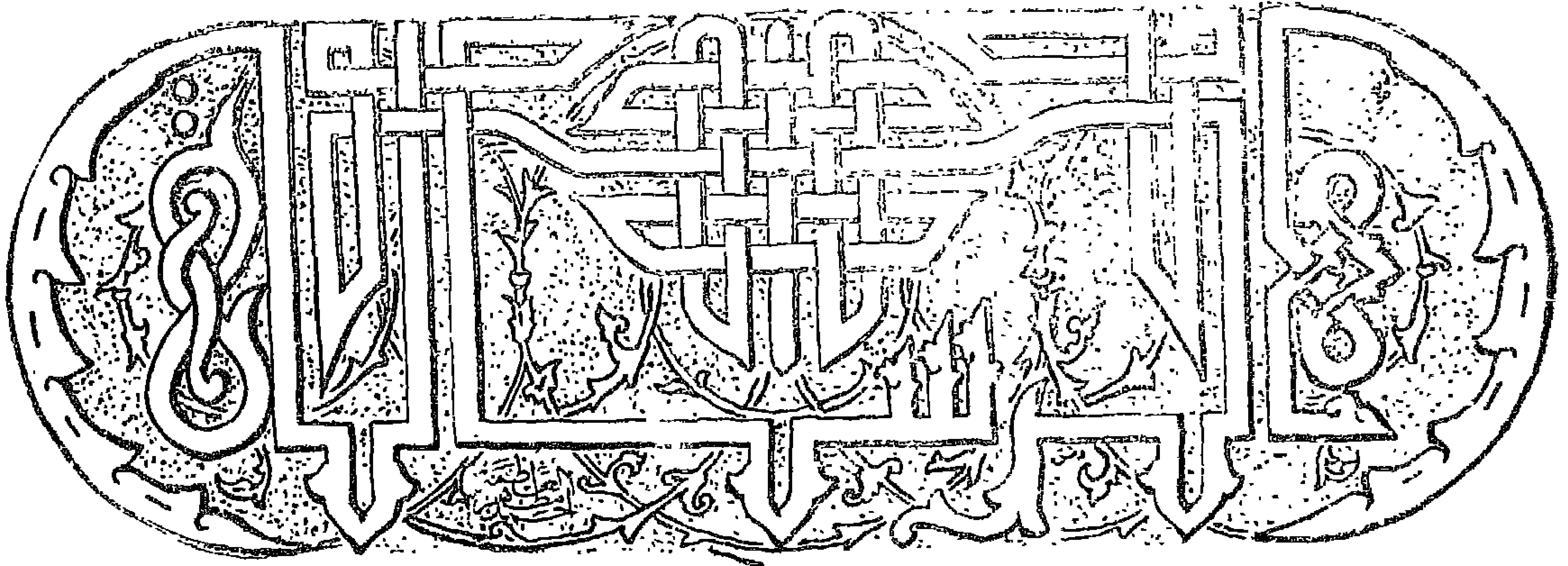
ورن الجرس فى الردهة لينبه الشاهدين إلى قرب استئناف العرض فجذبت أخى لنخرج فقال :

— لا، سأبقى إلى نهاية الحفلة وسأريها نفسى حتى لا تحاول أن تلاحقنى بعد الآن ، ثم أسرع نحو مقعدها ومر من أمامها ونظر إليها نظرة أودعها كل احتقاره وعاد إلى مكانه بجوارى

شعرت براحة، وغمرنى السرور، لأنى استطعت أن أحافظ على سمعتى الطيبة ، وأن أقطع علاقة أخى بها . ولما أضيئت الأنوار أسرع أخى بالخروج ، فالتفت إلى حسنية ومحمود ، ورفعت ذراعى ، ولوحت لها بيدى إشارة « الوداع إلى الأبد »

عبد الحميد جودة السحار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العـدد ٦٨ — ٤ شوال سنة ١٣٥٨ — ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد

إلى صديق ...

قلامـــة ظفر ...

أقصوصة

بقلم الأستاذ صديق شيبوب

تطالعني رسائلك في كل أسبوع حاملة أخبار تنقلك بين قرى لبنان ووصفك لجمال الطبيعة المنشور أمامك في سطور كثيرة التعاريج ، وصور مختلفة الألوان والأنواع ، وليس كالطبيعة غانية تستبدل غلائلها وترتدي في كل ساعة من ساعات النهار والليل ما يطابق جمالها . فهي في الصباح بيضاء كقلب العذراء التي لم تلم بها نظرة دنسة من نظرات الرجال ، ثم لا يلبث هـذا البياض أن يشع بهجة ويتقد حرارة كوجه حسناء أصابت مرماها وبلغت غايتها من الحب ... ولكن مالي أصف لك عن بعد بعين الخيال والذكرى ما تراه قيد نظرك حقيقة واقعة؟ فانعم بالأصيل يجرر على الجبل مطارف موشاة بوهج أحمر قان ، وبالليل يرخي سدوله كأنه جبار من مردة يضم بين ذراعيه حبيبة مثله جسما وغموضاً وهو ينثر على صدرها المظلم لآلئ نيرة بارعة

ما رأيت مرة هذه المطارف التي ترفل بها الطبيعة إلا ذكرت الصورة التي رسمها لها ابن الرومي في بيت من الشعر أرويه عفو الذاكرة الضعيفة ، ولعله :

لقد تبدت في رواء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

أخي ، إذا زرت مرة « سوق الغرب » وانتقلت منه إلى بلدة «عاليه» في الطريق الذي يعلوه الجبل من ناحية وينفسح أمامه المنظر من ناحية أخرى منحدراً إلى « بيروت » فالبحر ، ذلك الطريق الذي يمر منبسطاً على « عين السيدة » ثم لا يلبث أن يسير ملتوياً صعداً نحو عاليه ، فإذا أخذت ترقى معه قف عند المنعرج الثاني منه وتأمل هذا الصخر المظلم الذي يعلو الطريق كأنه بذل مرغماً جزءاً منه للسابلة ، قف هناك واذكر أن صديقك (...) قد فقد في مساء يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٥ نصف ظفر من وسطى أصابع يده اليمنى

أراك تبتسم وأنت تطالع هذا الكلام حتى لتحسبه لغواً ، ولعلك تتساءل ماذا يهمني الظفر المكسور وما قيمته . وقديماً قالت العرب للدلالة على تفاهة أمر من الأمور إنه لا يساوي قلامة ظفر. وكأنك تقول إنه ابتدأ يهذي ، لا شك أنه يطلب أن أقيم نصباً لظفره الصريع ... أو أن أعلق لوحاً في هذا المكان كالذي يضعونه عادة تذكيراً للناس بجلائل الحوادث وعظائم الأمور ، وأين قلامة ظفره من هذا ؟

عفا الله عنك يا أخي ! لم أبغ شيئاً مما تتخيله ، ولكنها ذكرى طيبة جالت في خاطري ، وحادث أفهمني كيف تجتمع اللذة والألم في نفس واحد ، فيتزاحمان ويتصارعان في قلب ضيق المسالك ضعيف القدر واسع الإحساس كبير الغايات

ولعل من الخير أن أبدأ الحديث من أوله

وصلت لبنان فى أواخر شهر يوليو من تلك السنة ، وكان أحدهم قد نصح لى أن أقصد هذه الناحية من الجبل فأقضى فيها شهراً أو نحو الشهر قبل أن أرقى إلى مصايفه المرتفعة

وقد كان . وحللت فى نزل هناك . وكان النزل إلى قسمين : قسم أصيل تحوط غرفه بهو واسع ، وقسم ملحق مؤلف من أربع غرف متلاصقة أمامها شرفة . فأفردت لى غرفة فى الملحق رجاء أن أنعم بالراحة التى كنت أنشدها وقتئذ بعيداً عن ضوضاء النزل وجلبة من فيه

وكنت فى صباح كل يوم أستيقظ مبكراً فأجلس فى الشرفة أتأمل شمس الصباح تداعب أشعتها اللجينية قمم الأشجار وتتكسر على صفحات البحر الممتد فى الأفق البعيد ممتزجاً به حتى لتخال البحر سماء والسماء بحراً ، أو كأنهما حبيبان قد ألفت بينهما لذة القبل الطويلة والهوى المتواصل

وكان أصحاب الغرف الأخرى ينضمون إلىّ فنتجاذب أحاديث بين الطيبة والمرة . وهنا يجب أن أحدثك عن هؤلاء الجيران الذى جمعتنى بهم الصدفة . وأعنى منهم شخصين كهلاً وفتاة

أما الكهل ففى نحو الخمسين من عمره مديد القامة ، ضخم الجسم فى شىء من الترهل، فى ظهره حدبة صغيرة ينبت منها رأس كبير . وكثيراً ما تساءلت وأنا أنظر إليه ، لأنه كان حرياً بالدراسة من الناحيتين الطبيعية والأخلاقية : أهو قبيح المنظر أم بين بين. فى عينيه الواسعتين جحوظ غريب يزداد بروزاً كلما نظر إلى امرأة ، لأنه كان يخيل لى أنه لا ينظر إلى أنثى إلا بعين الشهوة الجامحة ، فتتسع حدقتاه ويزداد جحوظ عينيه ويلمعان ببريق عجيب كأنه ينسى أمام السيدة التى يتحدث إليها كل شىء إلا أنه رجل يطارد أنثى ليقتنصها . ولعل أجدادنا من قبل التاريخ فى عصر الحجر أو غير عصر الحجر لم يكونوا غير هذا الرجل ، أو لعله واحد منهم أفلت من عهدهم العريق فى القدم وانحدر إلى عصرنا المتمدن الذى يحاول اقتناص الإناث بوسائل بعيدة عن هذه البهيمية الجامحة .

وأما الفتاة ، ففى منتصف العقد الثالث ، ممتلئة الجسم كنيزة ، ليس فيها رشاقة الغصن الأملود ، أو براعة الرمح الأهيف كما كانت العرب تصف جمال القوام ورقة الجسم ، فكأنها قد قدت من جذع شجرة بما فى جذوع الشجر من متانة واكتناز، سمراء اللون ، دقيقة العينين ، فيهما مزيج من سواد الليل وإبراق النجوم ، سوداء الشعر فاحمته .

كانت هذه الفتاة ، واسمها « جانيت » (وكنا ندعوها تمليحاً : الآنسة « نيت ») ، عاملة فى أحد المخازن الكبرى بالقاهرة ، وكانت تربط أسرتها بصاحب النزل روابط صداقة قديمة العهد فأرسلوها إليه لتقضى شهراً تستجم فيه من عناء العمل المضنى الذى تقوم به فتيات المخازن عندنا إما وقوفاً طول النهار على أقدامهن، أو سعياً لخدمة الحرفاء فى سبيل كسب زهيد .

وكانت أخلاقها كأخلاق أكثر العاملات ، تجمع بين النقيضين النعومة والخشونة ، والحياء والجرأة ، وطيبة القلب وقسوته ، والتبذل والتصون

سوف يطوف الحديث حول هذين الشخصين لذلك أقف الوصف عندهما مخافة أن يطول الشرح وتضيع معالم ما أقصه عليك

كنا نجتمع فى صباح كل يوم فى الشرفة التى ذكرتها لك . وكان الحديث ذا شجون كما يقولون ، وأكثره عن القاهرة ومصر . وكان « سليم » وهو اسم صاحبنا الكهل يعرض فى أحاديثه للأخلاق فى القاهرة ، ولعلنى نسيت أن أقول لك إنه من سكان العاصمة ومن أصحاب الأملاك الذين يعيشون بدخلهم . وكان يروى الأقاصيص عما صادفه فيها من مهاو للفضيلة ، فلا يلبث أن يقوم بينه وبين الفتاة خصام عنيف أحاول أن أفضه بالتى هى أحسن

وانتهى الأمر بأن تقاطع « سليم » و « نيت » ولكنهما ظلا يشهدان المجلس مع كل صباح ويتحدث الواحد إلى الآخر عن طريقى إذا صح هذا التعبير ، أى أنهما كانا يوجهان الحديث إلىّ بينما هو فى الحقيقة موجه من أحدهما للآخر

وصرت محيراً بينهما . وقلت لهما مرة إنى : أخشى أن تتشاتما عن طريقى أيضاً فتنصب شتائمكما علىّ ..

ولا أكتمك أني بعد عشرة أيام من إقامتى بالجبل ألفت « نيت » حتى صرت لا أرتاح إلا إلى مجلسها ، وصارت ترافقنى أينما انتقلت كجليس لذيذ طيب المعشر ، وكأنها أمنت جانبي فلم تستعمل معى غير سلاح الأنوثة ، وهو أفعل فى النفس والقلب من أى سلاح آخر

وكنت أدافع « نيت » عن نفسى متظاهراً بأنى أقيم علاقتى معها على أساس الصداقة . ولكن أنوثتها كانت تدلها على غير ذلك وتجعلها تحس من ضعفى ما تتسلح به ضدى لتحملنى على عمل ما تريد

وفى إحدى الليالى قالت لى « نيت » : هلم بنا نمض إلى عالية مع جماعة من الأصدقاء

قلت : أنت تعرفين أنى تعب لا أقوى على تسلق الطريق الصاعد وأخشى أن تنهزل صحتى

قالت : لست صديقاً صريحاً ، إنك لا تلبى لى طلباً مهما كان صغيراً

لا أذكر ماذا دار فى خاطرى وقتئذ ، ولكنى ضعفت أمامها وقلت : لك ما تريدين ، ولكن إذا شعرت بشىء من التعب فى الطريق ركبت أول سيارة تمر وانتظرتكم فى المقهى بعاليه

ورضيت « نيت » بهذا الشرط

كان القمر فى نصف اكتماله تداعب أشعته الفضية قمة الأشجار النابتة فى سفح الجبل فتضفى عليها ألواناً بين القاتمة والزاهية وتبرزها فى أشكال غريبة . وكانت أكوام الضباب تتسلق الجبل متريثة متمهلة تنشر الظلام أينما حلت كأنها تفصل هـذه المواضع عن الفضاء الواسع الممتد أمامنا طلوعاً ونزولاً وتحولها إلى حفر سحيقة مظلمة . فإذا وصل إلينا شىء من الضباب صرنا كأننا فى ظلام دامس واضطررنا للسير إلى جانب الطريق

وامتد بنا السير وأخذ الطريق يتسلق الجبل ولم ألبث أن شعرت بشىء من التعب فتوقفت عن المشى وقلت : أنتظر السيارة كما اشترطت

ورأيت فى عينى « نيت » إيماءة غضب

قال الجميع : لك ما تريد . سوف نلحق بك فى المقهى بعد لأى

ورأيت سيارة قادمة فأشرت إليها بالوقوف ، فوقفت ، وتأدبت مع الرفاق فسألتهم هل بينهم من يريد الركوب ، ولشد ما كانت دهشتى عند ما رأيت جميع السبعة يتسابقون إلى السيارة قبلى . قال سليم : « سأركب بجانب السائق » . وقالت « نيت » : « وأنا سأركب بالقرب منك » . وقال السائق : أرضى بأن أنقلكم جميعاً إلى أول المدينة فاجلسوا كما تريدون

كنت آخر من رقى السيارة ، وبينما أضع يدى على العامود الذى يفصل بين باب المقعد الذى بقرب السائق والباب الآخر إذا « نيت » تغلق الأول على بعض أصبعى ، فلم أشعر بألم ، ولكنى أحسست بأن جزءاً من ظفرى قد هوى إلى يدى اليسرى

لما خرجت من الصيدلية حيث ضمد جرحى كنت حانقاً على جميع الرفاق لأنهم ، بتهافتهم على ركوب السيارة بعد أن أظهروا رغبتهم فى السير على أقدامهم ، كانوا سبب جرحى وشعورى بالألم الفظيع الذى يحز فى يدى . فأخذت سيارة وعدت وحدى إلى النزل وتركتهم حيث كانوا

لم يزر الكرى عينى إلا غراراً لشدة الألم . وكنت كلما طال بى الأرق أزرت الغرفة لأطالع فى كتاب لعل اهتمامى بالقراءة يشغلنى عما أنا فيه . ولم يرعنى عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل إلا باب الغرفة يقرع قرعاً خفيفاً وصوت « نيت » ينادينى همساً بأن أفتح . ففتحت ، ودخلت . وكانت فى (بيجاما) زرقاء ذات خطوط بيض عريضة ، وقد انحسرت عن عنق فتان فى سمرته ، واستدار نهداها فى بروزها من تحت الغلالة الحريرية التى تكسوها

جلست « نيت » إلى طرف السرير تسألنى عن حالى وتعتذر عما بدر منها . وكان الكتاب الذى كنت أطالع فيه لا يزال إلى جانبى ، فارتمت بجسمها على السرير ، ومدت يدها لتتناوله ، فظهرت خطوط هذا الجسم البض مثيرة ، وأردت أن أساعدها فمددت يدى لأناولها الكتاب ، فالتقت يدى بيدها فإذا هى دافئة ناعمة ، وإذا يدها بيدى ، وإذا هى بالقرب منى ، وإذا هى بين ذراعى تحاول أن تنسينى بقبلاتها الحارة ما ينتابنى من ألم

آه يا صديقى كيف أصف لك ليلتى تلك بين ألم يحز فى جسمى ولذة تغشى نفسى . كانت كل حركة تقوم بها يدى لتطوق هذا الجسم الرخص الناعم الدافىء الذى لم يكن يكسوه غير الثوب الحريرى الذى ذكرته ، كانت كل حركة مبعث ألم ممض ولذة قوية وكانت « نيت » كلما طالعت فى وجهى ما يرسمه الألم من انقباض زادتنى إقبالاً ...

عند ما غادرت « نيت » الغرفة كان الليل يولى الأدبار أمام الفجر الطالع حاملاً إلى الطبيعة بشرى قرب بزوغ الشمس ، وكان القرويون قد هبوا من مضاجعهم ، وحمل الهواء أصوات تناديهم فى غدوهم إلى الكروم

***

لعلك تريد أن تعرف كيف انتهت علاقتى بهذه الفتاة . لا أدرى هل عملت وقتئذ بقول أبى الطيب « إن متلف الشىء غارمه ... » ولكنى فهمت بعد ذلك

أنها قصدت مؤاساتي عما أصابني بسببها

أما في اليومين التاليين فقد حاولت أن اتصل بها من جديد فكانت تعتذر بأعذار واهية

وفكرت أنه أصبح لكل واحد حقوق على رفيقه يجب أن يرعاها ، ولكني كنت واهماً . ولم أفهم ذلك إلا بعد لأي

راقبت « نيت » عن كثب أياماً معدودة ، وكان الخصام لا يزال على أشده بينها وبين سليم ، وكانا على عادتهما فى توجيه الحديث أحدهما إلى الآخر عن طريق . وجرى وقتئذ حادث عجيب حقاً لم أستطع تفسيره ولا أكتم عنك أنى لا أزال فى حيرة من فهمه

كنت قبيل ظهر أحد الأيام فى غرفتي أطالع الصحف التي كنت ترسلها إلى بين الفينة والفينة ، وكنت أسمع حركة فى الشرفة وصوت أقدام وهمس ألفاظ ، فلم يخامرنى شك فى هذا

ودق جرس الغداء فخرجت من غرفتي فرأيت سليماً يغادر غرفة « نيت » ، وهو يمسح بمنديله أثر الأحمر الذي خلفته شفتا الفتاة على شفتيه . ولا أصف لك انفعالى أو الطريقة التي سألته بهـا عما يفعل ، لأنى كنت قد فقدت صوابى ، وقد أعادتنى إلى الصواب نظرة تهكمية طالعتها فى عينيه الجاحظتين وقوله لى فى ابتسامة فظيعة « يا لك من أبله ... »

نعم كنت أبله ، لأنها هى الكلمة بعينها التى قالتها لى « نيت » عند ما سألتها ماذا كان يفعل سليم فى غرفتها قبل الغداء . « إنى أبله » لأنى لم أفهم شيئاً من نفسية هذه الفتاة اللعوب

وفى اليوم التالى حزمت أمتعتى وغادرت المنزل بين استغراب الجميع وتعجبهم، وفى طليعتهم «نيت» لأنها كانت أول من سألنى عن سبب انتقالى إلى مصيف آخر

ولم ألق هذه الفتاة بعد ذلك . وأنت تعرف أنى لم أسافر إلى القاهرة منذ سنين . ولعل أهم الأسباب التى كانت ولا تزال تمنعنى من السفر إليها خوفى من أن يقودنى « بلهى » إلى حيث تعمل « نيت »

***

هـذه يا صديقى حكاية ظفرى الذى فقدته فى الطريق الصاعد إلى عاليه من عين السيدة ، وإذا سألتك أن تذكرنى عند مرورك بهذا الطريق فلأنى أردت أن أدلك إلى ما يولده الألم واللذة من عنف فى نفوسنا خصوصاً إذا اقترنا بشىء من البله

« اسكندرية » صديق شيبوب

إنك لا تستطيع أن تضع حداً للحب

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« لقد أحبها ، ولكن هذا الحب قد أدى إلى ذلك العذاب الأليم ، فهل هو ملوم ؟ »

كنا فى أواخر الصيف وكنت فى الثامنة عشرة من عمرى عند ما قابلت هارى برنسون فى أحد المقاهى وشربنا معاً فنجانين من القهوة . وكان العام مجدباً شديد الغبار ، ضربت فيه المجاعة أطنابها فى هذه المنطقة الزراعية من روسيا حيث كنت أعيش مع أبى ، منذ ماتت أمى فى العام السابق ، على مزرعتنا المرهونة . وكنا فى حيرة لا ندرى كيف نقضى الشتاء إذا لم نضطر للاستجداء . ولم يكن هناك من عمل فى المنطقة يستطيع الإنسان أن يلتحق به ، وكان الضيق مستولياً على نفسى ولعل آثاره قد بدت على وجهى وقد لحظها هذا الشاب عند ما دخل من باب القهوة متمايلاً . وكان أسمر الوجه نحيل الجسم تدل ملابسه على أنها قديمة الاستعمال . ونظر الفتى إلىّ بعينيه الزرقاوين البراقتين نظرة الفاحص وقال :

— مرحى !

فهمهمت جواباً ومضيت فى شرب القهوة ناظراً إلى الصور الملصقة فوق المرآة ، ومضى الفتى يقول فى لهجة ودية مرحة :

— ألا تفكر فى رحلة إلى الجنوب بسيارتك فى هذا الأسبوع ؟ إنى مستعد لأن أدفع ثمن البنزين . فإن أمامى هناك عملاً فى جمع الفواكه وأود لو أستطيع الوصول إليه ، فهل عندك سيارة ؟

نعم . إن عندى بقايا سيارة ...

واستمر الفتى يقول إنه قد يجد لى أنا أيضاً عملاً إذا وافقت على الذهاب معه .

فلم أهتم بكلامه أول الأمر ، ولكنه لم يكد يمضى فى الحديث حتى انتهى بى الأمر إلى القبول . ولِمَ لا أذهب معه ؟ وليس لى من عمل فى منطقتنا بعد أن تلف المحصول ، فلا مخزون تجب العناية به وليس عندنا غير بقرة واحدة هى التى نحلبها ونعيش عليها . فإذا ذهبت معه استطعت أن أحصل على شىء من المال وهيأت لى فوق ذلك فرصة ناحية أخرى من نواحى العالم ، وقد يكون هذا الفرض خيراً من الأول

فقلت له آخر الأمر وقد صافحته معاهداً :

سأوصلك بسيارتى

وأخبرنى الفتى أن اسمه « هارى برنسون » وأجبته بأن اسمى « توم ريتشاردز » . واتفقنا على أن نبدأ رحلتنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثانى ، لتكون رحلتنا كلها نهاراً اتقاء لحوادث الطريق ولنصل مبكرين فنستطيع اختيار عمل فى بساتين الخوخ ...

ومن هنا عرفت « لندا هوارد » ، وكانت هى أيضاً تشتغل بجمع الفاكهة . وكان هارى قد قابلها فى السنة السابقة ، وهو الذى قدمنى لها .

وكانت واقفة فوق سلم تضع الخوخ الذهبي اللون فى سلة معها ، وكانت عيناها لطيفتين باهتتي الزرقة يظللهما غشاء من الحزن ، وكانت أكبر منى قليلاً فى السن ولكنى رأيتها أجمل شىء وقعت عليه عينى منذ وجدت فى هذه الحياة

ولما طلبت منها لأول مرة أن تخرج معى ترددت ثم قالت :

— أنا ... لعلك ياتوم لا تشغل نفسك بأمرى إذا أنا أخبرتك أننى أم طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها

والحق أننى أجفلت عند سماع هذه الكلمات ، فقد كان يبدو عليها أنها صغيرة جداً ، ولكن حتى علمى بأنها كانت متزوجة من قبل لم يخفف من رغبتى فى ملازمتها

وقلت لها إنها لتبدو أصغر من أن تكون زوجة قبل ثلاث سنوات، فترغرغت عيناها بالدموع وقالت:

— لقد كنت صغيرة جداً عند ما تزوجت ، ولم يوافق أحد على زواجنا ولكننا كنا عنيدين فتزوجنا بعيداً عن أهلنا . ولم يكن لدينا مال كثير ولكننا كنا سعيدين بحبنا . ثم ولدت « نانسى » وعلى أثر ولادتها مباشرة قتل زوجى فى حادث سيارة فكان كل إنسان يقول لى : « ألم نقل لك » ... فإن الحوادث من الأمور التى كانوا يتوقعونها من وراء زواجى على غير إرادتهم ، وهذا ما لم أستطع أن أفهم له معنى . لذلك أخذت نانسى وتركت القوم وكلامهم . ومن ذلك الحين وأنا أحصل على رزقنا بعملى

وكانت ليندا صغيرة الجسم تبدو عليها مظاهر الأنفة والاعتزاز بالكرامة ، وكانت مرتسمة على جبينها آثار ما لقيت فى الحياة من متاعب ، وهى مع ذلك لم تطلب العطف من أحد ولم تكن لترغب فى ذلك العطف

كانت الفتاة شريفة صادقة فى سلوكها معى ، فقد أخبرتنى منذ اللحظة الأولى بأمر ابنتها ولقد أحببتها من أجل ذلك . أحببتها حباً لم يكن ليخطر لى على بال أن أشعر فى حياتى بمثله لإنسان . ونسيت أننى لم أكن إلا مزارعاً فقيراً ، ليس لى غير مزرعة مرهونة وسيارة محطمة ، وأننى على بعد أميال عديدة من موطنى ... وقد أصبحت لا أشعر بشىء إلا أننى أحبها وأود أن أرعاها وأعنى بأمرها فنظرت إلى يدى الكبيرتين اللتين يخيل إلىّ أنهما قادرتان على أن تسحقا الصخر ، وقلت مندفعاً فى غير تفكير :

« أود أن تسمحى لى يا ليندا بأن أعنى بأمرك فأنا كبير الجسم قوى البنية قادر على العمل . وأنا أحبك ، فهلا تزوجت منى ؟ وأنا أعدك بأن أكون أباً لابنتك خيّراً »

أجنون هذا ؟ نعم . ولكنه جنون حلو لذيذ ! ولقد حاولت الفتاة أن تحاجنى وأن تقنعنى بأننى لا أقدر المسؤولية التى أحملها نفسى . وقالت إنها تعرف أننى صغير غير مجرب ، ولكننى لم أمكنها من الاستمرار فى الإدلاء بما لديها من حجج تحاول إقناعى بها باندفاعى فيما أنا مقدم عليه من غير تفكير ولم أستطع إلا أن أضمها مرة بين ساعدى وأن أقبلها . ولقد آمنت بأن ليس فى الوجود قوة تستطيع أن تزعزع عزمى على العناية بأمرها وحمايتها

وقالت ليندا :

— لا أستطيع الآن أن أعدك بالقبول يا توم

لأنني أريد أولاً أن ترى ابنتي نانسي .

وفى ذلك المساء أخذتنى إلى الغرفة التى تعيش فيها ، وكانت صاحبة البيت تعنى بأمر الطفلة الصغيرة عندما تكون أمها متغيبة فى عملها ، وكانت ليندا تساعد فى أعمال البيت مقابل الأجر الإضافى للعناية بابنتها ، ولما وصلنا إلى الباب الخارجى رأيت طفلة صغيرة ذهبية الشعر فى ثوب أزرق تلعب فى الحديقة الأمامية ، وكانت تصنع فطائر من الطين وقد أعدت كثيراً منها وضعتها الواحدة بجانب الأخرى لتجف فلما سمعت وقع خطواتنا أسرعت إلينا جارية ، وألقت بنفسها بين ساعدى أمها ، وكانت أشبه ما تكون بها ، ولكنها عندما رفعت عينيها ناظرة إلى وجدت لونهما أسود.

وشعرت كأن طعنة قد أصابت قلبى ، فقد ذكرت أنها ابنة رجل آخر ، رجل أسود العينين ، قد ضم ليندا بين ساعديه ، وقبلها ، وكاشفها بحبه ، فاستسلمت له . وما من شك فى أنها قد أحبته وإلا لما تزوجت منه أبداً ، فقد عرفت ليندا معرفة جيدة من هذه الناحية ... وفى هذه اللحظة القصيرة تولد بغض نانسى الصغيرة فى قلبى ، ولم يكن الأمر أن حبى لليندا قد ضعف ... ولكننى كرهت طفلتها ! لقد نفست عليها القبلات التى كانت تغمرها بها ليندا حبيبتى ، وإنك لتشعر من عطف هذه المرأة الصغيرة على ابنتها أنهـا تتخيل أن الشمس قد أشرقت ثم تجسمت فى شخص هذه الابنة الصغيرة .

وأشارت الطفلة بأصابعها الملوثة بالطين إلى الفطائر المصففة على الأرض وقالت لأمها :

— أنظرى يا أمى ، إنى أعمل لك فطائر الحب طوال النهار

فضحكت ليندا وقالت :

— يا لك من بطة غالية ، ولو أننا استطعنا أن نأكل هذه الفطائر لكان لنا من عملك مؤونة وافرة ...

وتعشيت تلك الليلة مع ليندا ونانسى ، ولم تتردد نانسى فى إبداء حبها لى ، وقد أصرت على أن أطعمها بملعقتها الصغيرة . ولقد صعب علىّ أن أثبت يدى فلا ترتجف تأثراً ، وأن أخفى ما لا بد أن يكون قد بدا على وجهى وفى صوتى من عوامل الغيرة . ولكننى بذلت جهداً جباراً فى تملك شعورى ، وقد رجوت فى نفسى أننى ربما استطعت إذا قبلت « ليندا » الزواج منى أن أحملها على أن تعهد بالطفلة إلى بعض أقاربها ، وخوفاً من أن تصبح نانسى حائلاً بيننا ألححت على ليندا فى أن تتزوج منى فى التو . فقالت آخر الأمر إنها تقبل ما أطلب منها إذا رضيت أنا أن أسمح لها بالاستمرار فى عملها الذى تكسب منها رزقها وقالت لى :

— إننا بعد أن ننتهى من هنا نستطيع أن نذهب إلى بترزدورب وفى مقدورنا هناك أن نقتصد وأن نبتاع بثمن رخيص ما نحتاج إليه من فاكهة وخضر . كذلك نستطيع أن نحصل هناك على مزرعة صغيرة وأن نعيش عيشة طيبة . وبيترزدورب مكان طيب بديع للإقامة

فقلت :

— أنا يا حبيبتى لا أريد لك أن تعملى بيدك ، فإننى أستطيع أن أعمل بدلاً منك وأن أوفر الحياة الطيبة لنا جميعاً

ولكنها كانت تريد أن تشتغل بيدها فلم يكن بد من أن أسلم لها بما أرادت ، وهكذا أصبحت

أستخلصها لنفسى النهار كله ، فقد كنا نقضى اليوم فى جمع الفاكهة من البستان الكبير جنباً إلى جنب نختلس القبلات من لحظة إلى أخرى ونحن متسلقان أغصان الشجر

وذهب هارى فى الحال إلى بستان آخر ، وكان كثير التجول والارتحال فلم أره قط بعد ذلك ، حتى لم أجد الفرصة التى أشكر له فيها ما هيأ لى من أسباب السعادة بإحضارى إلى هذا المكان الذى وجدت فيه المرأة التى أحببت والتى رفهت على الحياة

وأوشكت السنة أن تنتهى وكنا فى ختام موسم جمع الفاكهة ، وكان بعضها لا يزال عالقاً فى أعلى الشجر ، فبينما كانت ليندا متسلقة إحداها لقطف هذه الثمرات الأخيرة زلت قدمها وسقطت ، ولم يكن سقوطها على الحشائش اللينة التى لا خوف من السقوط عليها ، ولكن فوق جذع شجرة مقطوعة وكان الجذع بطبيعة الحال صلداً وقد نتأت منه أطراف حادة غير منتظمة تلقتها كأنها أصابع من الفولاذ ، فحملتها خفيفة عرجاء وجريت بها مسرعاً إلى العربة حيث أرقدناها فى لطف على بعض الألحفة ولكنها لم تفتح عينيها ، وأرسلنا فى طلب الطبيب فجاء وفحصها وقال إنها لم تمت ولكنه يخشى أن يكون ظهرها قد كسر

وخيل إلىّ فى الأيام القليلة التى تلت هذا الحادث أنى أعيش تحت ضغط كابوس مخيف. لقد رقدت ليندا فى المستشفى ضعيفة صفراء لا تقدر على أكثر من الهمس، ولما قبضت علىّ يدها الصغيرة بأصابعها الملوثة بالدم وأظافرها المكسورة كانت الكلمات الأولى التى همست بها إلىّ وأنا أنحنى عليها قولها : « توم ... حبيبى ... أرجوك أن تعنى بنانس وأن تحوطها بطيبتك وكرمك »

وكان الطبيب اسميث الذى يعالج ليندا طبيباً عاما غير مختص بفرع من الفروع ، وقد قال لى إنه إذا نجت امرأتى من الموت فليس هناك غير رجل واحد فى جوهانزبرج هو الذى قد يستطيع أن ينجيها بأن تعيش حياتها عرجاء عاجزة ، ولكن الإقبال على هذا الرجل شديد وهو يلح قبل أن يتولى العلاج فى أن يثق مقدماً بأنه سينال أجر عمله . واسم الرجل ليونارد وقد أعطانى سميث عنوانه

وقد اضطررت فى اليوم الذى ذهبت فيه لمقابلة هذا الطبيب أن آخذ نانسى معى ، لأن صاحبة البيت كانت مشغولة . ولم يكن شعورى حيال الطفلة قد تغير فى كثير أو قليل . فقد كنت لا أزال أبغضها على الرغم من أنها كانت فتاة عزيزة ظريفة ، وكنت أنفس عليها مشاركتها لى فى حب ليندا، ذلك الحب الذى كنت أريده خالصاً لنفسى من دون الناس. ولقد كانت ليندا أخبرتنى بأن أقاربها فقراء لا يستطيعون أن يؤوا نانسى حتى إذا هى رغبت فى مفارقتها

وفيما أنا والطفلة جالسان فى غرفة الاستقبال الكبيرة بدار الطبيب الذائع الصيت درجت نانسى إلى الشرفة وشرعت تلتقط من أصص الأزهار قطعاً من الطين تبرمها بين أصابعها . وقد نظرت إلى بعينيها السوداوين نظرة جدية وهى ترينى الفطائر الدقيقة التى صنعتها وزينتها بورق من أزهار الطبيب وقالت لى:

— فطائر الحب لأمى . . .

ولم يطاوعنى قلبى على إسكاتها بل لقد كنت فى الواقع غير متنبه لها ، فقد كنت كالرجل التائه ، لا أدرى من أين آتى بالمال الذى أدفع منه أجر عملية « ليندا »

وأخيراً حضر الخادم وأخبرنى أن الطبيب فى

انتظاري ، وكان الطبيب كهلاً صغير اللحية أزرق العينين جامد النظرات فى حدة ، يداه صغيرتان صناعان

وقال الرجل بعد أن قدمت له نفسي :

نعم أنا أعلم أن اسميث هو الذى أرسلك إلى هنا فأنت الرجل الذى حدثنى عنه . فقـد كسرت امرأتك ظهرها ، وإنى لأعتقد أنه يمكن شفاؤها من أن تعيش عرجاء ، ولـكن يجب أن تفهم أنها تحتاج إلى عملية جراحية وإلى قضاء أسابيع وأشهراً فى المستشفى ، وهذا كله يتطلب المال

فقلت :

سأحصل على المـال المطلوب يا دكتور بأية وسيلة كانت حتى ولو عصرته من الأرض الصلداء بيدى العاريتين . وكل ما أطلبه منك هو أن تهيء لى فرصة كسب هذا المال ، وأنا مستعد لعمل كل شيء يمكننى من غايتى

وإنى لأعرف أن الرجل كاد يرفض رجائى ، إذ كان ذلك متجلياً فى عينيه ، عند ما فتح الباب فى بطء وأطل منه وجه نانس المشرق الجميل

واتجهت الطفلة مباشرة إلى الطبيب ومدت إليه يدها بالهدية التى أعدتها لأمها وقالت :

انظر ! هذه فطيرة لطيفة ، فطيرة حب لذيذة خذ ذقها !

وتظاهرت بأنها تمض الفطيرة بأسنانها الصغيرة البيضاء ومدت بها يدها للطبيب ، فبدت الرقة فى عينيه عند ما نظر إليها

فسألنى :

هذه ابنتك الصغيرة ؟

وشمرت بدافع فى نفسى أغرانى بأن أجيب « بنعم »

ولعله قد خيل إلى أن الطبيب متى عرف أن الطفلة ابنتى وأننى أحبها كان ذلك من العوامل التى تغرينى بأن أكد فى العمل لأقتصد أجر علاج أمها

فضحك الرجل وحمل نانسى فأجلسها على ركبته ، وتظاهر بأنه يقضم قطعة من الفطيرة ، فقال وقد ضحكت نانسى من قوله ضحكة قلبية رقيقة :

مم . مم . مم ... إنها لذيذة

وكأن الرجل قد سحره جمال الطفلة فلم يستطع تحويل نظره عنها ، وعبث بأصابعه فى شعرها الذهبى الجميل وقال فى لطف :

إنى لأود أن تكون لى ابنة صغيرة مثلك !

ثم كأنه تذكر أنه قد نسينى ، فوقف بعد أن رفع الطفلة ووقفها على الأرض فى لطف وقال :

سأخبرك بما أنا صانع ... لقد أوصى لى بعض الناس منذ بضع سنوات بمنجم ذهب قد انتهى العمل فيه . فإذا أحببت أن تذهب إلى هناك وتحفر فيه ، فقد تحصل منه فى اليوم على بضع شلنات قد تكون كثيرة وقد تكون قليلة . وسنقتسم ما تستخرجه مناصفة، ومقابل ذلك أتولى علاج امرأتك، وهناك عشة قديمة ولـكن يكون مقامك هنا شائقاً ويبدو لى أنك رجل لا تهاب العمل

فقلت :

أنا لا أهاب شيئاً يا دكتور ، وكل ما أطلبه هو الفرصة

وشددت على يده بيد لعلها كانت قاسية ساحقة، فقد رأيت عينيه تغمزان تألماً ، وسحب يده مسرعاً وقدم لى ورقة وهو يقول :

هذه هى التعليمات التى ترشدك إلى المكان، وهو واقع على مسافة حوالى مائة ميل من جوهانسبرج فى بقعة موحشة من بقاع الأرض

وهكذا أصبحت أنا ونانسى من المدنين فى مناجم الذهب ، فلم يكن بد من أن أستصحبها معى إذ لم يكن فى وسعى أن أدفع أجر امرأة تقوم على العناية بها ، وقد طلبت منى ليندا أن آخذها معى إذ قالت فى صوتها الضعيف الرقيق :

إنها تحبك يا توم ولن تتعبك فى شىء فأحسن معاملتها .

ولقد بكيت وأنا أقبل ليندا مودعاً ، كذلك قبلتها نانسى ووعدتها بأن تصنع لها كثيراً من فطائر الحب ، وخرجت معى واثبة فى ملابسها القصيرة وحذائها المريح

وحملنا السيارة القديمة مؤونتنا ووضعت كرسى نانسى العالى — بعد أن نزعت أرجله — فوق السيارة ونانسى جالسة فيه مربوطة ، وتركنا الدار فى ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام الأخيرة من فصل الصيف ، وكانت نانسى تغنى وقد ملىء قلبى بالآمال الكبار فى شفاء حبيبتى ليندا، جلت مشيئة الله

لقد جهدت فى العمل أستخلص ذرات الذهب اللامعة من الصخور الصلدة القاسية ، ولم أحصل فى بضعة أيام على غير حبات قليلة لا يحس الإنسان حملها فى يده ، وبعد بضعة أيام أخر أصبح ما لدىّ كافياً لأن أشعر بثقلها فى كفى ، وكان يحدونى الأمل دائماً فى أن يصيب معولى جيباً من الأرض لم يفتح بعد أو عرقاً غاب عن أنظار المدنين، وكانت نانسى تقضى يومها لعبة مرحة تصنع فطائر الحب من الطين وتزينها بقطع دقيقة من الأحجار أو التوت الجاف أو ورق الشجر وكانت فى الليل تصفف فوق المائدة القائمة وسط عشتنا الصغيرة ما أنجزت عمله فى أثناء النهار ، وبدأ شعورى نحو الطفلة يتغير إلى نوع من الحسد فقد كانت طفلة جريئة شجاعة لا تشكو أبداً من سقطة أو كدمة ولا تطلب قبلة ولا ملاطفة كما تطلب الأطفال ولا تسأل معروفاً ، ولكننى كنت أنفس عليها ما تأكل من الطعام شاعراً بأن ذخيرتنا منه ستنتهى قريباً وعندئذ نضطر إلى العودة

ثم بدأت الليالى يشتد بردها ، ولولا نانسى لأطلت إقامتى ، ولكنها لم تقو على احتمال الجو ، واقترب الوقت الذى كان لا بد أن نغادر فيه المنجم

وكنت قد جمعت كمية من تبر الذهب وضمتها فى كيس صغير أخفيته فى صندوق الطعام داخل العشة ، لأن جيوبى كانت من القدم بحيث لا تحتمل ثقله إذا أنا حملته فيها ، ولعل هذه الكمية تقدر بعشرين جنيهاً أو لعلها تبلغ مائة من الجنيهات ، فلم أكن لأعلم شيئاً عن سعر الذهب ، على أن هذا المحصول كان عملاً ابتدائياً على كل حال ، وقد اعتزمت أن أقضى يوماً آخر فى البحث ثم نعود

وفى هذا اليوم الأخير لم أكد أعثر على شىء فلما بدأ الظلام يهبط اتخذت الطريق القصيرة الموصلة إلى العشة ، حتى إذا بلغت نهايتها ودرت وراء الأغصان الملتوية سمعت صوتاً خشناً يقول :

— أين أبوك أيتها الطفلة الصغيرة …

ثم سمعت صوت نانسى تجيب :

— لقد ذهب إلى المنجم …

فقال الرجل :

— م … م … ذهب يحفر عن الذهب … حسن فسننتظره ، وهل لديك شىء يؤكل ؟

فقالت الطفلة :

— فطير لذيذ .

ورأيت نانسى من وراء الأغصان تمد يدها بفطائرها الطين إلى أبشع رجلين رأيتهما فى حياتى ،

فقد كانت أمارات الشر والإجرام تطفح من وجهيهما وفي هذه اللحظة رآني أحدهما فانتزع مسدساً من بين طيات قميصه وصوبه نحوي وهو يقول :

— تقدم أيها المدن وأرني محصول يومك

فوقفت خاضعاً في حين فتشا جميع جيوبي وكل طية من طيات ملابسي ولكنهما لم يجدا شيئاً فدمدم الرجل :

— نتيجة سيئة . . وماذا علينا إذا فتشنا العشة ؟

وعلى حين فجأة رأيت كل شيء يحمر في نظري فضربته بقبضتي ، ثم شعرت بصدمة رصاصة في جبهتي ، وأحسست بأيد كبيرة قوية تخنقني من خلف ، ثم فقدت شعوري . فلما عاد إليّ صوابي وجدت نانسي جالسة إلى جانبي تربت على شعري بيديها الصغيرتين

وقالت :

— لقد ضربك هؤلاء الأشرار يا أبي ... إستيقظ يا أبي فقد ذهب هؤلاء الأشرار

فجلست مخبولاً ولكني ما كدت أذكر ما حدث حتى اندفعت إلى داخل العشة . لقد فتشوها فقد كان صندوق الطعام مقلوباً وكان الكيس ملقى في أحد الأركان فارغاً . لقد ضاع الذهب ، سرق ! وذهب شقائي كله سدى ! فأنا مضطر أن أعود خالي اليدين ولن يجرى الطبيب العملية لليندا وستبقى طوال حياتها عرجاء . فلعنت الحيـاة وسببت الوجود وانحطت نفسي آخر الأمر ، فاندفعت في البكاء وقد انطرحت فوق الأرض ... حيث أقبلت نانسي عليّ وديعة تقدم لي ما صنعت في يومها من فطائر لا تزال لينة غير جافة فصحت بها :

— ابعدي هذه الأشياء من هنا ... إنها قذرة لا تساوي شيئاً ... اطرحيها بعيداً ...

واختطفت الفطيرة من يدها وألقيتها بعيداً خارج العشة وسط الأغصان

ولا بد أن أكون قد نمت بعد ذلك نوماً عميقاً ، لأنني عند ما استيقظت كانت الشمس قد أشرقت وكنت أشعر بصداع شديد ، ولم يكن الجرح عميقاً ولكن شدة الصدمة هي التي أوقعتني

على أنني لم أجد لنانسي أثراً في أي مكان وذكرت الكلمات الخشنة التي خاطبتها بها في المساء فصحت :

— نانسي ... أين أنت ؟

ولكنني لم أسمع وقع خطواتها الصغيرة ولم أسمع صوتها الرقيق يقول « ها أنا ذي »

ماذا تكون الحال لو أن حادثاً قد أصاب نانسي وماذا تظن بي ليندا إذ ذاك ؟ وكيف أعمل إذا كانت كلماتي الخشنة هي التي دفعتها إلى الهرب من وجهي فمضت في الظلام بعيداً عن العشة وتاهت ؟

خرجت من العشة جارياً وسط الشمس المشرقة أصيح وأنادي مفتشاً بين الغصون المشتبكة ، وعلى حين فجأة شعرت بأن الثلج الذي تجمد حول قلبي قد ذاب وأدركت أنني أحب ابنة امرأتي ، فلم أحتمل فكرة أن يكون قد أصابها أي مكروه

لقد كان كل ما حدث نتيجة خطأي ، لقد كانت الطفلة تحاول أن ترضيني وترفه عني بكل ما لديها من وسيلة

كانت الأغصان المحيطة بالعشة كثيفة ، وقد فتشتها تفتيشاً دقيقاً ، وأنا أفكر في الأفاعي وفي صقيع الليلة الماضية ، وفي الأفاقين اللذين هاجماني واللذين يحتمل أن يكونا قد ابتعدا جداً كما يحتمل أن يكونا قد عادا باحثين عن شيء آخر وتكون الطفلة قد وقعت في أيديهما

ثم سمعت ما خيل إلى أنه صوت ملاك هابط من السماء، سمعت صوت نانسى موسيقياً حبيباً، قادماً من وراء صخرة قائمة أمام العشة وهى تقول :

— ها أنا ذى يا أبى... لقد وجدت الفطيرة ... ولكنها مكسرة قطعاً !

ورأيت نانسى جالسة على الصخرة وإلى جانبها فطيرتها المكسورة وقد كشف مكان الكسر عن ذرات من الذهب البراق ... ذهبى الذى ظننت أنه قد سرق . . . فسألتها :

— ما هذا الذى فى فطيرتك يا نانسى ومن أين أحضرته ؟

فقالت الطفلة :

— من صندوق الطعام ... فإن دقيق القمح يصلح فطيرة لذيذة لأمى ...

قلت :

— دقيق القمح . . . ولو أنك لم تأخذيه من الكيس لأخذه هؤلاء اللصوص ! يالك من طفلة عزيزة يا نانسى !

وحملت الطفلة فقبلتها فى وجهها وفى يدها وفى كل ما وصلت إليه شفتاى ... ولم ألبث أن شعرت فى نفسى بإحساس غريب فاندفعت فى البكاء

فقالت الطفلة :

— لا تبك يا أبى ... فستصنع نانسى فطيرة أخرى ...

وقد ظنت الطفلة العزيزة أنى أبكى على الفطيرة المكسورة فقلت وأنا أبكى وأقبل الفتاة فى لهفة شديدة:

— إنك لن تصنعى أبداً يا عزيزتى فطيرة مثل هذه ... فهى فطيرة لم يصنع قط أحد مثلها . ومن المحتمل ألا يصنع أحد مثلها أبداً »

ولممت الفطيرة المكسورة على حالها لتعطيها نانسى بيدها للطبيب عند ما نصل إلى جوهانسبرج ، وقد أدركت أن هذه القصة ستكون برهاناً صادقاً على ما عملت

تستطيع ليندا حبيبتى الآن أن تمشى بمساعدتى، وكان الذهب الذى حصلت عليه مائة جنيه حملتها نانسى العزيزة إلى الدكتور فى فطيرتها المكسورة ... وكان الطبيب قد عمل العملية لليندا وهى الآن فى دور النقاهة ...

وقال لى الطبيب مبتسماً :

— لقد كنت واثقاً أنك لن تخل بكلمتك لى

وقد برقت عيناه وبللتهما الدموع بعد أن سمع قصتى وقال :

— إن أى إنسان ليبذل حياته من أجل زوجة وطفلة مثل هاتين

لقد أصبحت نانسى الآن شابة تخطت سن صنع فطائر الطين ، ولكنها تفكر دائماً فى أشياء تعملها لأمها ولى . وعندنا الآن مزرعتنا الصغيرة فى بيترزدورب ونحن جميعاً سعداء ، وكلما نظرت إلى نانسى ووجهها الجميل ولطفها عجبت كيف لم أحبها دائماً مثل ما أحبها الآن . إنى لأحبها كما أحب ابنتى الحقيقية .. فهى عندى أغلى من كل شىء .. أغلى من الذهب . . . ولما كنت اعترفت لليندا فى استحياء والدموع فى عينى أننى كنت فى وقت من الأوقات لا أحب نانسى كانت تطوقنى بساعديها وتقول :

— لقد عرفت ذلك وكنت أشعر به . ولعل ذلك الألم الذى شعرت به يا عزيزى والذى أحسسته أنت طوال الصيف الماضى هو الذى دفعك الآن إلى أن تحبها هذا الحب وإلى أن تدرك كم هى عزيزة عجيبة

نعم ربما كانت هــذه هى الحقيقة . ولعل لنا فى الحياة خطة رسمتها يد واحد أعقل وأقدر منا جميعاً

عبد الحميد حمدى

البستان المسحور

للكاتب الايطالى بوكاتشو

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

ولو أن فريبول تعد بلداً بارداً ولكنه محبوب لجباله الجميلة التى تزينها الأنهار الشائقة التى تجرى فيها والينابيع التى ترويها

وكان فيما مضى بأودين، وهى إحدى مدن هذه المقاطعة، حسناء من النبلاء تدعى مدام ديانور وقد بنى بها رجل يدعى جلبير من كبار الأغنياء يعد قدوة للمؤدبين المحبوبين. فتنت محاسن وفضائل هذه العقيلة فتى من الأسر الشهيرة يسمى أنسالد جرنديس عرف بين قومه بالشهامة والحرية ؛ وقد عالج من أمد طويل كل الطرق التى يبذلها المحب الواله ولكنه لم يفلح. حتى أن الحسناء نفسها سئمت منه وتضايقت ورأت أن تقترح عليه اقتراحاً غريباً لا يمكن تنفيذه لتتخلص من إلحاحه ومضايقته، فقالت للمرأة الوسيطة: « إنك كثيراً ما أكدت لى حب أنسالد وقدمت إلىّ عدة هدايا رفضتها حتى لا يؤمل منى شيئاً فإن كان يحبنى حقا فليقدم لى البرهان الذى أطلبه فأكون له دون شك »

— ماذا تريدين يا سيدتى وماذا تبغين أن يعمل ؟

— يجب أن ينشىء لى حديقة غناء خارج المدينة وعلى مقربة منا، فى شهر يناير تكون نضرة مخضرة كاسية بأزهارها مثقلة بفاكهتها كأنها فى شهر مايو، وإن لم ينفذ رغبتى فلا يتعب نفسه ولا يرسلك أو يرسل غيرك، فإن لم يرعو واستمر فى مضايقتى فإنى أطلع زوجى وأهلى على كل ما أخفيته عنهم إلى الآن وبذلك أخلص منه بأحسن الطرق

وقد رأى فارسنا أن مثل هذا الطلب صعب التنفيذ وعلم أنه اقترح بمثابة وسيلة شريفة للتخلص منه. وقد فكر فى الوعد الساحر الذى تعهدت به فى حالة التنفيذ وتطلعت نفسه لمعرفة ما ينتج من ذلك، فصمم أن يبحث ويعالج كل الطرق لإرضائها مهما كلفته. طفق يبحث فى جميع أنحاء العالم عن فرد يساعده أو يرشده، إلى أن عثر أخيراً على رجل تعهد له أن ينفذ ما يطلب بواسطة السحر واتفق معه على مبلغ ضخم من المال، فظل ينتظر شهر يناير بفارغ الصبر

وفى نهاية الأمر وانتهاء أيام عيد الميلاد بينما كانت الأرض فى الخلوات مكسوة بالثلج قام الساحر بأعماله وأنشأ بستاناً ساحراً فى مرج قريب من المدينة يندر أن يشاهد مثاله، جمع بين نضرة الربيع وفاكهة الخريف وأجمل الأزهار. وما كاد يلمح إنسالد هذه العجائب حتى كاد يذهب عقله من الفرح والسرور وهرول إلى الحديقة ليقتطف أشهى الفاكهة وأجمل الأزهار ليرسلها إلى حبيبته، ودعاها لمشاهدة البستان الذى طلبته لتقتنع بحبه الذى أضنى فؤاده، ويذكرها بوعدها الذى أكدته بقسم

وحينما رأت الحسناء الأزهار والفاكهة التى أرسلها حبيبها وما سمعته من عجائب هذا البستان ندمت على ما فرط منها من ذاك الوعد، ثم تغلب حب التطلع على الندم واشتاقت لرؤية تلك الحديقة فاصطحبت بعض صاحباتها من الجيران وذهبن لرؤية تلك العجائب فأعجبت به أيما إعجاب. ثم عادت إلى دارها مهمومة حزينة مفكرة فيما يلزمها به هذا البستان.

ولما كان اضطرابها شديداً لم تستطع أن تكتمه . ولاحظ عليها زوجها هذا التأثر الشديد فسألها عن السبب ولكن الخجل ألجم فاها، ولما لم تجد مفراً من الاعتراف سردت له قصتها من أولها إلى آخرها فاستشاط الزوج غضباً عند سماعه هذه الوقائع ، ثم فكر قليلاً فرأى أن السبب الشريف الغاية هو الذي ورط عقيلته فاطمأن وسكن اضطرابه ثم قال لزوجه : « لا يليق بسيدة عاقلة شريفة أن تصغى إلى أحاديث المشاق لأن الإنسان يصل إلى القلب عن طريق الأذن والحب لا تقف دونه صعوبات ولا عقبات . ولقد اقترفت إذن جرمين الأول الإصغاء لحديث عاشق ، والثانى تعهدك له ، ورغبة فى الاطمئنان أريد أن تقوى بوعدك بأن تمنحي ما يرفضه غيرك فإنى أخشى إن لم ترضى إنسالد أن يكلف ساحره أن يعمل لنا شيئاً فظيعاً . فاذهبي إذن لتنجى عشيقك واعملي كل جهدك لإنقاذ شرفك ووعدك فإن استحال عليك ذلك فليسلم الجسم ولتثبت الإرادة القوية » . فبكت زوجه وقالت إنها لا تريد هذا التصريح ، ولكن بعلها قال لها لا بد من الطاعة

ولما طلع النهار ارتدت ديانور ثوباً عاديا من ثياب البيت ، واصطحبت خادمين وخادمة وذهبت إلى بيت إنسالد . دهش الرجل حينما أنبىء بهذه الزيارة ، فهب وقال للساحر: تعال أنظر من أى كنز مكننى فنك ، ثم سار أمام الحسناء ثم حياها بجميع مظاهر البشر والفرح ، ثم أدخلها فى غرفة فاخرة هى وحاشيتها ، ثم قال لها بعد فترة : « إذا كان الحب الذى حمله لك والذى سأحتفظ به مدى حياتى يستحق بعض الجزاء فطمأنى فؤادى بكلمة، إنها فرصة سعيدة دعتك إلىّ فى هذه الساعة ومع هذه الحاشية ؟

فأجابته والعبرات تنحدر من مآقيها :

— ليس الحب الذى يقودنى إليك ولا وعدى الذى أقسمت أن أبر به. وما أتيت إلا طوعاً لأمر زوجى الذى تأثر من كبير عنايتك وما سببه لك من التعب والألم حبك الأثيم وشرفه وشرفى ، فلذلك أمرنى أن أقابلك، فها أنا ذى بين يديك بأمر زوجى ومستعدة لأن أعمل كل ما يسرك

وإن كانت زيارة ديانور قد أدهشت أنسالد فإن حديثها قد زاده دهشاً وتعجباً ، ولقد تأثر من كرم زوجها ، فتبدل حبه عجباً ، فقال لها : « لا قدر الله ياسيدتى أن أكون عديم الوفاء قليل المروءة حتى أدنس شرف زوج رثى لآلامي وإنك تستطيعين إن أردت أن تمكثى كما تشائين واثقة بأنك ستكونين موضع احترامى كأختى ، وتخرجين وقتما تريدين على شريطة أن تبلغى زوجك اعترافى بحسن صنيعه الذى ترك أعظم الأثر فى سويداء قلبى وأن تؤكدى له بأنى سأكون له مدى حياتي أخاً وخادماً »

وعند سماع هذه الكلمات تهلل فؤاد ديانور بشراً وفرحاً ثم قالت : « إننى كنت أظن والألم يساورنى أنك تستهتر بالمروءة والأدب فتستغل موقفى الحرج المخذول ولكنى أرى والفرح ملء فؤادى أنى لم أحسن كرمك ومودتك . إننى لا أحدثك بحسن صنيعك فإنه يوازى تضحيتك وإنى لا أشك فى أن زوجى يقاسمك التضحية » وبعد انتهاء الحديث استأذنت وانصرفت مهرولة إلى زوجها وسردت له كل ما حصل

أراد أن ينقد الساحر أجره فرفض متأثراً من المثل الأعلى الذى شاهده بعينيه فقال: « واها لك ! لقد رأيت الزوج يضحى بشرفه وشاهدتك تضحى بحبك العنيف أفلا أستطيع أن أضحى بقليل من المال؟

فرجاه أن يأخذ جانباً من المبلغ ويترك الباقى ولكنه أصر على الرفض ثم هدم حديقته السحرية فى ثلاثة أيام واستأذن ثم سافر . أما أنسالد فقد استطاع أن يخمد جذوة حبه الأثيم الذى طالما أحرق فؤاده بلهيبه

محمد كامل حجاج

الخـــاطبة

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

« ألا تريدين فنجاناً آخر ؟ »

قالت ذلك مادلين وهى تقدم فنجاناً من الفضة مملوءاً بالشاى إلى السيدة مسز مونكاستر الجالسة إلى يسارها والمتلفعة بالفرو والحرير . فأجابتها : «شكراً ، ولقد كان بودى ولكنى لا أستطيع»

فأعادت مادلين فنجان الشاى إلى مكانه على المائدة وهى تنظر إلى صاحبتها نظرة رياء تريد أن تدل بها على العتاب . وظهر من رفض مونكاستر أن لحظة انصرافها قد آنت . وكانت صاحبة المنزل تأمل أن تستمر الزيارة إلى الساعة الخامسة حيث يأتى باسيلى . لكن هذا الأمل تجدد فى اللحظة التالية للرفض حيث ارتكنت الزائرة إلى ظهر المقعد وأسندت رأسها إليه وقالت : « إننى لن أشعر بالسعادة يا عزيزتى حتى أراك متزوجة »

قالت مادلين وقد تلقت هذه الجملة بدهشة : « أتزوج ! ولماذا ؟ » فقالت مونكاستر : « ولماذا لا تتزوجين ؟ إن فيك كل الصفات التى يجب أن تتوافر فى الزوجة . وأنت جميلة أيضاً والزمن ينقضى بسرعة فكم عمرك الآن ؟ هل هو ثلاثة وثلاثون أم أربعة وثلاثون ؟ »

لكن مادلين أصرت على موقفها الأول وقالت : « لكن لماذا يتزوج الإنسان إذا لم تدفعه رغبته ؟ إننى مثلاً لا أرغب فى الزواج »

قالت ذلك وهى تقول فى نفسها إنها كاذبة .

وقالت مونكاستر : « لكنك سترغبين على كل حال فى الزواج فإن كل امرأة ترغب فيه لأنه من الطبيعى أن تشعر بالحاجة إلى استقرار أمرها وتكوين منزل وإيجاد زوج »

ابتسمت مادلين ولم تجب . وشعرت بفقدان الصبر لأنه خيل لها أن فتح هذا الموضوع نكبة خصوصاً عند مجىء باسيلى فهو سيعتقد بلا ريب أن مونكاستر لا تتكلم إلا بناء على إيعاز من صاحبتها مادلين . ورأت أن خير وسيلة لإنهاء هذه المحادثة وحمل صاحبتها على الذهاب هى ألا تصغى إليها . فاتجهت بوجهها إلى الموقد وتركت الزائرة دون أن تصغى إليها

وكانت تقول فى نفسها بين لحظة ولحظة : « لقد طال حديثك المملول أيتها السيدة فقومى واذهبى »

لكن المرأة لم تذهب ولم تزل تلقى محاضرتها الطويلة فى فائدة الزواج فكانت مادلين تنظر إلى الساعة بين فترة وفترة . ورأت أنه لم يبق على موعد باسيلى غير ربع ساعة . وهو لا بد آت فى موعده لأنه لم يتعود إخلاف المواعيد

فأخذت تدبر وسيلة لتمنع تأثير كلامها فى نفسه ورأت أن خير طريق يؤدى إلى ذلك أن تعمد إلى السخرية والاستهزاء بأحاديثها إذا ما همت بفتح هذا الموضوع أمام باسيلى

وكانت السيدة فى هذه الأثناء لا تزال تتكلم

فتنبهت مادلين إلى قولها : « إننى أبذل الآن كل ما فى وسعى فى سبيل خدمتك »

قالت مادلين : « فى سبيل خدمتى ؟ »

فقالت : « نعم لأحصل لك على زوج »

فأحست مادلين فجأة بالخوف وسألت نفسها : « أليس من الممكن أن تكون هذه المرأة الفضولية قد فاتحت بعض الرجال فى أمر زواجى ؟ » وقالت فى نفسها : « إنها إذا كانت فعلت ذلك فإنها تحطم مستقبلى بهذا الفضول لأنه ليس هناك من يعتقد أنها تتكلم دون استشارتى »

وقالت مونكاستر : « وقد اخترت لك الرجل أيضاً » فشعرت مادلين برعشة تهز أوصالها وقالت : « وهل لى أن أسألك من هو ؟ »

فهزت مونكاستر رأسها وسبابة اليد اليمنى وقالت : « هذا ليس من شأنك فهو من شأنى وحدى ، وستعرفين عند ما ينتهى الاتفاق على كل شىء »

وكانت مادلين تخفى تحت ابتسامتها المتكلفة غضباً شديداً وتود لو تجد الجرأة الكافية لتحمل هذه العجوز فتلقى بها من النافذة

ولم يبق غير دقائق على مجىء باسيلى وستكون نتيجة سماعه لهذا الحديث أن يحتقر مادلين لاشتراكها على حسب اعتقاده فى مؤامرة مع هذه العجوز لتزويج نفسها من أى إنسان

لكن الأمر جاء على أحسن مما تظن فقبل موعد باسيلى بدقيقتين وقفت مونكاستر واستأذنت للذهاب فحمدت مادلين حظها ولم تشأ أن تفسد ذلك الحظ بإطالة لحظة السلام جرياً على عادة النساء بل شيعتها فى صمت إلى الباب وهى تتمنى ألا تعود

وقبل مجىء باسيلى أخذت مادلين تفكر فى علاقتها به . وبدا لها أنه فى العهد الأخير قد تغير شيئاً ما ، وسألت نفسها هل هذه الملاحظة مجرد وهم وخيال منها أم لها نصيب من الواقع ، وإذا كانت صحيحة فما هى علتها ؟

وجاء باسيلى فلما رآها قال : « لقد كانت عندك مسز مونكاستر وأحمد الله على انصرافها قبل مجيئى إننى تركت زمرتها ، ولم أعد أقابل جاك ولا أحداً من أصحابه »

فدهشت مادلين من هذه المفاجأة وقالت : « هل رأيتها وهى ذاهبة من هنا ؟ » فابتسم وقال : « كلا ولكننى أعرف كل مكان كانت فيه بما تتركه فى جوه من الرائحة العطرية التى احتكرتها لنفسها . خبرينى يا مادلين هل هى تستعمل هذا العطر لاعتقادها أنه لطيف أم لاعتقادها أن أصحابها يظنونه لطيفاً

فقالت مادلين : « أظن الأمر لا هذا ولا ذاك ولكنه مجرد عادة كما اعتادت اللون السنجابى لمعاطفها وهى لا تريد تغييره »

قال باسيلى : « لو أننى كنت ملكاً من ملوك بورجيا لأمرت بإعدام هذه المرأة وبتنفيذ الحكم فى الحال »

فقالت مادلين : « لكنك لو فعلت لأسفت على ذلك فى اليوم التالى »

قال : « نعم لقد كنت آسف عليه فى اليوم التالى ولكن إلى أمد وجيز . وتكون النتيجة الأخيرة . هى السرور لتخليص الناس من هذه

النكبة . ولولا أنت يا مادلين لسافرت من هذه المدينة من زمن طويل حتى لا أرى أحداً من هذه الزمرة »

رأت مادلين أن حدته في التكلم عن هذه السيدة حدة غير عادية وإنه لابد أن يكون لها سبب غير مجرد استثقالها

ثم قدمت له الشاى وسألته : هل هناك سبب خاص جعله ينفر منها هذا النفور ؟ فأجاب : كلا ، ولكنها تظهر لي ضرباً من الحنان والشفقة لو أنني أشعر بأني أستحقهما من الناس لاحتقرت نفسي .

قالت مادلين بلهجة تدل على عدم التروى : وهل قالت لك شيئاً يتعلق بي أو بنفسك ؟ فتغير وجه باسيلي فجأة وأطرق كأنه فوجىء بأمر ذي بال يستدعى التفكير . وقال بلهجة تدل على التكلف : لا ... إنها لم تقل شيئاً

وأدركت مادلين أنها بهذا السؤال قد وجهت نحو نفسها اتهام باسيلي بما كانت تخشى أن يتهمها به لو أنه سمع حديث السيدة ، لأن سؤالها يفهم منه أنها هي التي أوعزت لها بالكلام معه وأن كلامها معه كان اقتراحاً بالزواج منها .

وجلس باسيلي بحالة تدل على اضطراب الأعصاب وجلست مادلين كذلك . ودار الحديث على موضوعات أخرى ، وكلاهما يتكلف الحديث وهي تراقب وجهه فيؤلمها أن ترى فيه علائم الاحتقار . وحاولت عبثاً أن ترجع إلى موضوع الحديث الأول لأنه كان يتهرب منه

وكانت تسائل نفسها كيف تحمله على تصديقها وفي هذه الأثناء وقف باسيلي مستأذناً للذهاب فشعرت مادلين باليأس ، وأدركت أنها إن تركته الآن يذهب فلن يعود مرة أخرى

ووضعت يدها في يده لتصافحه ثم زالت مسحة فجأة عن ثغرها الواضح وقالت : « لقد كنت أخشى في لحظة مجيئك أن تفاجئني في أمر الزواج لتأثير مونتكاستر عليك »

فابتسم وقال : « وما يدريك أنها كلمتني ؟ »

قالت : « لأنها ألقت الآن عليّ محاضرة في ساعتين وقد فكرت في قتلها قبل أن تفكر أنت »

فقال وقد زالت سحابة الريبة من نفسه : « ربما أفاد كلام الفضوليين بالرغم مما يبعثه في النفس من المضايقة »

قالت : « أصحيح أنه أفاد .. ؟ إذن فمتى .. ؟ »

فقال : « يوم الأربعاء القادم »

عبد اللطيف النشار

من روائع الأدب المجرى

حزمة الرســـــائل

للكاتب المجرى بوراس جوكاى

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

اضطُر الدكتور ك ... — من أشهر جراحى بِست — فى ساعة مبكرة من ذات صباح أن يستقبل زائراً عجولاً . إذ قال الرجل للممرض وهو يتململ فى غرفة الانتظار إن فى التأخير عليه خطراً أى خطر ، وإنه يجب أن يقابل الطبيب توّا

فارتدى الطبيب فى عجلة ثوباً منزليًا ، ثم أذن للمريض أن يدخل عليه . ألفى (ك) نفسه فى حضرة رجل غريب ، يبدو من مظهره الأنيق أنه ينتمى إلى الطبقة الراقية ، وتتجلى فى وجهه الشاحب علائم آلام جسمانية عنيفة ، وكان يحمل ذراعه اليمنى فى رباط معلق بعنقه ، ومضت تنفلت من فه زفرات حرار بالرغم من احتيــاله على ضبط نفسه وكبت انفعاله . وسأل فى صوت ضعيف واهن :

— الدكتور ك ... ؟

— إنه اسمى يا سيدى

— لم أتشرف بعد بمعرفتك إذ أقيم بالريف ، ولكنى سمعت بك ، ولست أزعم أنى سعيد بعقد أواصر المعرفة بينى وبينك ، فزيارتى لك الآن غير لائقة ...

ولمـا رأى الطبيب أن ساق المريض لا تقويان على حمله ، دعاه إلى الجلوس

— إننى تعب مكدود ، لم تكتحل عيناى بالنوم منذ أسبوع . هناك شىء فى يدى اليمنى لست أدرى أهو بثرة أم خراج . كان الألم خفيفاً بادئ الأمر ، أما الآن فهو ألم شديد فى النهاية ، مستمر فى عذابه ، ينمو ويقسو يوماً عن يوم حتى لقد بلغ غايته . لم أعد أطيقه . لذا جئتك أضرع إليك أن تستأصل مكان الألم فقد يقودنى إلى الجنون لو تقضت ساعة أخرى

وحاول الدكتور أن يسرّى عن المريض بقوله إنه قد يستطيع إزالة الألم بالعلاج والأدهنة دون اللجوء إلى استعمال المبضع ؛ بيد أن الرجل قال صائحاً :

— لا ... لا يا سيدى الطبيب ، إن الأدهنة لا تستطيع شفائى . يجب استعمال المبضع ، لقــد جئتك لاستئصال ذلك الجزء الذى يسبب لى كل هذا الألم الـكبير

فطلب إليه الطبيب أن يكشف عن موضع الألم . فضغط المريض بأسنانه متوجعاً من شدة الألم ، وبكل حذر وعناية راح يحرر يده من الأربطة التى حولها

— أتوسل إليك ياسيدى الطبيب أن تصارحنى بحقيقة ما قد ترى . إن حالتى ولا ريب غريبــة ، ولكن أرجو ألا تهتم لذلك كثيراً

فأخذ الدكتور (ك) يسرى عن الرجل الغريب خوفه واضطرابه ، ولم يكن الطبيب ليكترث لانفعال مريضه وهو الذى خبر مثل هاته الحالات كثيراً ، بيد أنه ذهل ذهولاً كبيراً حينما تحررت اليــد من أربطتها . لم يكن فيها شىء غريب . لم يكن بها جرح

ولا كَدم ، كانت يداً كسائر الأيدى . فتركها الطبيب – لفرط ذهوله – تسقط من يده دون عمد منه ، فانفلتت من الغريب صرخة ألم شديدة ، ثم رفع الطرف المصاب بيده اليسرى مبيناً للطبيب أنه ما أتى بقصد المزاح وأنه حقا يعانى ألماً شديداً

– أين الجزء الموجع ؟

– هنا يا سيدى

قال الغريب ذلك مشيراً إلى نقطة فى ظهر يده حيث يتقاطع عرقان كبيران ، وارتعد جميع بدنه حينما لمسها الطبيب بطرف أصبعه لمسة خفيفة

– أتحس هنا الألم اللاهب ؟

– نعم فى قسوة وعنف

– أتشعر بألم حين أمسه بأصبعى ؟

لم يجب الرجل، وإنما امتلأت عيناه بالدمع. إلى هذا الحد كان يتألم

– عجباً ! لا أستطيع أن أرى فى ذلك الموضع شيئاً غريباً

– وأنا أيضاً . بيد أن ما أحسه من الألم جد فظيع ، حتى أنه يكاد يسوقنى أحياناً إلى ضرب رأسى فى الجدران والحوائط

ففحص الطبيب مكان الداء بالمجهر ثم هز رأسه :

– إن الجلد ملىء بالحياة ، وإن الدم ليجرى من تحته فى دورة منتظمة، وليس ثمة التهاب ولا خراج. إن هذا الجزء سليم كأى جزء آخر

– ولكنى أظن أنه أشد حمرة

– أين ؟

فأخذ الرجل الغريب من جيبه مفكرة أخرج منها قلماً من الرصاص ورسم فوق يده دائرة فى اتساع قطعة من فئة الستة بنسات وقال :

– هنا

فنظر الطبيب إلى وجه الزائر . لقد بدأ يعتقد أن بالرجل خبلاً

– لك أن تقيم هنا إن شئت ، وستبرأ بعد أيام قلائل

– لا أستطيع البقاء ... لا تحسب أننى مجنون ثم إنك لن تشفينى بتلك الوسيلة ، إن الدائرة التى رسمت بقلمى هى موضع الألم المبرح ، وقد جئتك لتقطعها ليس غير

– مستحيل

– ولِمَ ؟

– لأن يدك لا تحمل مرضاً ، لا أرى فى الموضع الذى أبنت أكثر مما أرى فى يدى أنا

– أراك تحسب أنى رجل مخبول ، أو أنى جئتك أسخر منك

ثم أخرج من مفكرته ورقة من فئة الألف فلورين وضعها على المكتب واستطرد يقول :

– والآن يا سيدى ، أحسبك لا تظن أنى أمزح . إن ما أطلب إليك القيام به ضرورى لازم ابتغاء شفائى . أرجوك أن تستأصل ذلك الجزء من يدى

– أكرر لك القول يا سيدى أنك لا تستطيع

– وإن عرضت علىّ كل كنوز الأرض – أن تحملنى على تشويه عضو من الجسم سليم ، أو على الأقل تحملنى على قطعه بمبضعى

– ولِمَ لا ؟

– لأن مثل ذلك العمل يجلب الشك فى مقدرتى كطبيب ويحط من سمعتى. سيقول كل امرىء إنك كنت رجلاً مضطرب العقل ، وإنى لم أكن أميناً باستغلال حالتك ؛ أو شقّ علىّ – لجهلى – تشخيص الداء ووصف الدواء

— حسن جداً. إذن سأطلب إليك صنيعاً ضئيلاً فى وسعى أن أجرى العملية لنفسى ، سأجريها بيدى اليسرى ، ولكن ذلك لا يهم ، فقط أرجو أن تتفضل وتعنى بالجرح عقب العملية

ذهل الطبيب حين رأى عزم الرجل من إصراره وحين ألقاه ينزع عنه معطفه ويحسر كُمّى قميصه ، ويستل بيسراه مبضعاً

وبعد ثانية واحدة كان السلاح قد أحدث فى الجلد ثغرة . فصرخ الطبيب :

— قف !

خشى أن يقطع المريض — أثناء ارتباكه — عرقاً هاماً

— ما دمت مُصرّاً على إجراء العملية ، فدعنى أقم بها. وأخذ المبضع وأمسك اليد المريضة بيسراه ورجا الرجل أن يدير عن المشهد رأسه خشية أن يؤثر فيه منظر الدم وهو ينهمل

— لا ضرورة ألبتة لذلك . على العكس . علىّ أنا أن أرشدك إلى حيث تقطع . ظل الرجل يرقب العملية فى برود شديد وجمود، مشيراً إلى حدود الموضع، حتى أن اليد المفتوحة لم ترتجف وهى مستقرة فى يد الطبيب يعمل فيها المبضع فى سرعة عنيفة . ولما أن أزيل الجزء الدائرى ، تنهد الرجل فى عمق كأنما أحس راحة عظيمة

— أما من شىء يؤلمك الآن ؟ فقال الغريب مبتسماً :

— لقد انتهى كله . زال الألم تماماً كما لو كان فارقنى مع الجزء المقطوع . وإذا قورن التعب الذى أحسه الآن من نزيف الدم بالألم الأول لكان كالنسيم الرطيب عقب لفحة من ريح جهنم . دعه ينزف ، إن نزيفه يجعلنى سعيداً جدّ سعيد

وجعل الرجل الغريب يرقب الدم فى لذة وهو ينصب من الجرح انصباباً . فاضطر الطبيب أن يلح عليه فى ربط الجرح إلحاحاً قاسياً

وفى أثناء ربط الجرح تغيرت ملامح وجهه . لم تعد تحمل علائم الحزن والألم . بل ارتسمت عليه علائم الراحة والاطمئنان . واختفت أمارات اليأس والاضطراب . ونمت أساريره عن الحياة ، وعاد إلى خديه لونهما ، وتحول الرجل السليم تحولاً كبيراً .

وعند ما علق يده بعنقه أمسك بيده الأخرى يد الدكتور وهزها فى حرارة وقال :

— آه ! شكراً يا سيدى الطبيب شكراً ! حقاً لقد شفيتنى من داء عضال ، وإن الهدية الزهيدة التى أقدم لك لن تتناسب بحال مع ما قمت لى من صنيع جلل . سأظل طوال حياتى أبحث عن طريق أستطيع معها أن أفى الدين الذى حملتنى

ولم يكن الطبيب ليصغى إلى قوله ؛ وأبى أن يستحل ألف الفلورين المستقرة فوق المكتب ، كذلك رفض الرجل الغريب أن يستعيدها ، فرجاه (عند ما لاحظ أنه مس كبرياء الطبيب) أن يكتتب بها لإحدى المصحات . ثم غادره ومضى

وبقى الرجل عدة أيام أخر فى منزله بالمدينة حتى يلتئم الجرح الذى فى يده . وفى تلك الأثناء استطاع الطبيب أن يلتمس لنفسه المعاذير لتصرفه إزاء رجل مثل مريضه واسع الاطلاع خيالى النزعة ، له فى سائر أسباب الحياة رأى صائب ... إزاء رجل كان إلى جانب ثرائه يشغل منصباً حكومياً كبيراً . وما بدا على الرجل أى داء آخر منذ أن بارحه داؤه الخفى . وعند ما اكتمل العلاج ، عاد الرجل من حيث أتى ، إلى مثواه بالريف

وفى ذات صباح بعد ثلاثة أسابيع ، وفى ساعة غير لائقة كالمرة الأولى ، أعلن الخادم ثانية قدوم المريض الغريب

دخل الرجل على الدكتور بذراعه معلقة بعنقه فكاد الطبيب ألا يعرفه لما أفعم وجهه من نوازع الألم المبرح الشديد. ولم ينتظر دعوته إلى الجلوس بل ترامى على أحد المقاعد غير قادر على ربط جأشه وضبط نفسه، وطفق يئن ويتأوه وهو يمد ذراعه الموجعة إلى الطبيب. فسأله ك . . . في ذهول :

— ماذا جرى ؟

فأجاب في صوت خافت بنبرات حزينة :

— لم نقطع إلى العمق الكافي. إنه يؤلمني أشد من ذي قبل. أكاد أتمزق من هول الألم، إن ذراعي متصلبة من شدته. ولم أرِدْ أن أزعجك كرة أخرى فتحملت الألم في صبر آملاً أن يصعد الألم الخفي رويداً رويداً إلى رأسي أو يهبط شيئاً فشيئاً إلى قلبي فيضع بذلك حداً لحياتي التعسة البائسة. بيد أن أملي قد خاب. لم يبرح الألم مكانه ولكن بوقع هائل مخيف. انظر إلى وجهي تر مقدار ما أعاني من وطأته

حقاً كانت بشرة الرجل في لون الشمع والعرق البارد ينضح جبينه. فحلّ الطبيب رباط اليد. كان مكان العملية حسن الالتئام. وقد تبدّى جلد جديد ولم يكن يُرى فيها شيء غريب وكان نبض المريض سريعاً دون ارتفاع في درجة الحرارة، وكل جزء في بدنه يرتجف ارتجافاً. قال الطبيب في دهشة :

— يا للعجب ! لم أر في حياتي مثل هذه الحالة !

— إنه فظيع . . . فظيع جداً يا دكتور. لا تحاول أن تجد لهذه الحال تعليلاً. إنما نجّني من هذا الألم المر الشديد. خذ سلاحك واقطع إلى مدى أعمق وأوسع. هذا فقط ما ينقذني

واضطر الطبيب إزاء توسلات مريضه أن يجري العملية من جديد، فراح يقطع في اللحم بمبضعه إلى مدى أعمق من ذي قبل. وللمرة الثانية رأى على ملامح مريضه علامات الراحة العجيبة لدى رؤيته الدم ينزف من الجرح. ولما أن التفّت اليد في الأربطة زايلت صفرة الموت الوجه وعاد اللون إلى الخدين. ولكن المريض لم يبتسم. في هذه المرة شكر الطبيب في حزن ومرارة

— أشكرك يا دكتور. لقد فارقني الألم مرة أخرى، وفي بضعة أيام سيندمل الجرح ومع ذلك فلا تدهش إذا عدت إليك قبل شهر واحد

— أوه يا سيدي المحترم ! إنزع من نفسك هذا الوهم

ووصف الطبيب هذه الحال الغريبة إلى كثير من زملائه. فمضى كلٌّ يدلي فيها برأي دون أن يهتدي إلى تعليل صائب لطبيعة المرض

وتدانت غاية الشهر. فترقب ك .. في قلق عودة هذه الشخصية الواهمة ولكن الشهر تقضّى ولم يأت الرجل

وتصرّمت بضعة أسابيع أخر، وفي النهاية تسلم الطبيب كتاباً من عليله، وكانت الكتابة دقيقة مضطربة، وعند ما نظر إلى التوقيع في ذيل الخطاب أدرك أن المريض هو الذي حرره بيده وتلك محتويات الكتاب :

— سيدي الطبيب. إنني لا أستطيع أن أدعك وعلم الطب في مهاوي الشك نحو المرض الغريب الذي سيقودني وشيكاً إلى القبر

وسأكشف لك هنا عن مصدر هذا الداء المخيف. لقد عاودني للمرة الثالثة في الأسبوع الفائت بيد أني لن أصارعه أبداً بعد ذلك، وإني الآن أكتب إليك بمعونة « حراقة » وضعتها على مكان الألم من يدي، وفي أثناء التهاب الحراقة لا أحس الألم الآخر. إنها تسبب ألماً طفيفاً إذا قورن بألم المرض اللاهب المستعر

كنت ما أزال رجلاً سعيداً منذ ستة شهور

أعيش بدخلى عيشة رخية ناعمة ، على صلة حسنة بكل إنسان ، أمتع نفسى بكل أسباب الحياة كما يفعل كل رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وقد تزوجت — عن حب كبير — منذ سنة بسيدة صغيرة جميلة ، ذات عقل ناضج ، وقلب طيب إلى أقصى حدود الطيبة ، وقد كانت تعمل كوصيفة خاصة للكونتيس التى تقيم بجوارى . وما كانت ذات مال وقد سلمتنى قلبها ، ليس اعترافاً بالجميل فحسب ، بل عن حب ساذج برىء ، وتصرمت ستة شهور ، كان كل يوم فيها أشهى وأجمل من أخيه الفائت ، وإذا اضطرتنى الظروف القواهر أن أترك مسقط رأسى وأبرح إلى بيست ليوم واحد ، لم تكن زوجى فى أثنائه تذوق طعم الراحة بل قد تقطع من الطريق فرسخين ابتغاء استقبالى ، وإذا حدث أن تأخرت تراها تقضى فى انتظار أوبتى ليلة طويلة حشوها التفكير والسهر ، وإذا أفلحت فى حملها على زيارة سيدتها السابقة — التى لم ينقص حبها لها شيئاً منذ زواجى بها — فلم يكن ثمة قوة تحملها على البقاء لديها أكثر من نصف يوم فحسب . بل قد تفسد على الآخرين مرحهم وبهجتهم بانقباضها لغيابى . بل بلغ من رقتها معى أنها كانت ترفض الرقص كيلا تسلم يدها رجلاً غريباً ، وما من شىء كان يسوءها أكثر من إشادتى بإخلاصها وترديدى لوفائها . على الجملة كانت زوجى كفتاة غضة الإهاب طاهرة ، لا تفكر إلاّ فىّ ، وتعترف لى بأحلامها الخالية من طيفى كأنها سيئات اكتسبتها

ولست أدرى أى شيطان مضى يهمس فى أذنى : وما يدريك لعل كل هذا نفاق ... آه يا سيدى ! إن الرجال مولعون بالتنقيب عن العذاب والألم إبان أقصى سعادتهم

وكان لزوجى مكتب حرصت على أن تغلق درجه بعناية تامة ، ولقد لاحظت ذلك كثيراً . لم تنس المفتاح مرة ، ولم تترك الدرج مفتوحاً مرة

وسنح فى ذهنى خاطر مُقِضّ ، أنشب مخالب الشك فى صدرى ، وبعث الاضطراب والجنون فى نفسى . ماذا تخفى ثمة ؟ لقد انقلبت وبى جنة وخبل . لم أعد أثق بطهارة وجهها ولا بصفاء نظراتها . لم أعد أومن بعواطفها الجياشة ولا بقبلاتها الحارة الثائرة . ماذا لو كان كل هذا رياء فى رياء ؟

وفى ذات صباح أقبلت الكونتس تدعو زوجى لقضاء شطر من اليوم فى بيتها . تمنعتْ وترددتْ ولكنى أفلحت بعد إلحاح فى حملها على قضاء اليوم معها . وكان يفصل البيتين بضع مراحل . وقد وعدتُ أن ألحق بها بعد ساعات قلائل

وما أن ابتعدت العربة قليلاً حتى جمعت كل مفاتيح البيت وشرعت أجربها على القفل وأفلحت بأحدها فى فتح الدرج . أحسست كمن يرتكب جريمته الأولى . كنت كالسارق فى محاولتى الكشف عن أسرار زوجى ، وارتعدت يداى وأنا أجذب الدرج إلىّ فى عناية وحرص . وقلبت محتوياته شيئاً فشيئاً حتى لا يتم تغيير نظامها عن عبث يد غريبة . وانقبض صدرى وأحسست كأن كابوساً يجثم على أنفاسى فيخنقنى خنقاً . وفجأة عثرت يدى بحزمة من رسائل كانت كأنها سيال من الكهرباء سرى من رأسى إلى قلبى فاشتد وجيبه وترادفت خفقاته . أوه ! كانت نوعاً من الرسائل يعرفها المرء بنظرة ... رسائل غرام . وكانت الحزمة يضمها شريط من الحرير الأحمر بجانبين فضيين

وعند ما لمست الشريط كرت على ذهنى الخواطر : أهل هذا معقول ؟ أيليق هذا برجل شريف

أن يختلس أسرار زوجة ؟ أسرار قد ترجع إلى يوم أن كانت فتاة صغيرة ؟ وهل يحق لى أن أحاسبها على تصرفات أتتها ولمّا تكن لى زوجة ؟ أيحق لى أن أغار من سلوكها فى وقت كنت فيه مجهولاً لديها ؟ من يستطيع أن يأخذ عليها هفوة أو لمحاً ؟ من ؟ حقاً لقد أجرمت أن ظننت بها الظنون . . . فعاد الشيطان إلى سمْعَيّ بهمسه . ولكن ماذا لو كانت الرسائل فى عهد لك فيه الحق كله فى الوقوف على كل تصرفاتها وأفكارها ، فى عهد قد تغار فيه من أحلامها ، فى عهد هى فيه ملك لك أنت وحدك .
وحللت الشريط ، لم يرنى أحد ، لم يكن هناك حتى مرآة أرى فيها حمرة الخجل تصبغ وجهى . فتحت رسالة ثم أخرى ، ثم قرأتها جمعاء حرفاً حرفاً

أوه ! كانت علىّ ساعة رهيبة

ماذا كان فى تلك الرسائل ؟ أدناً خيانة رأيت رجلاً يذهب ضحيتها . وكان كاتب الرسائل واحداً من أصدقائى . . . من أصدقائى الأعزة، والأسلوب الذى به كُتِبتْ ! أى عاطفة ! أى غرام ! وكم تحدث عن « كتمان السر » وكانت الرسائل جميعها فى عهد كنت فيه زوجها ، بل فى أرفع درجات السعادة الزوجية . من أين لى أن أصف لك شعورى آنذاك ؟ تصور أنت الأثر الذى يتركه سم زعاف فتاك . قرأت كل الكتب واحداً إثر واحد ثم حزمتها ثانية ولففت الشريط حولها ، ثم وضعتها مكانها وأغلقت الدرج

كنت أعرف أنها ستعود من لدن الكونتيس فى المساء إن لم ترنى ظهراً وقد فعلت . هبطت من المركبة فى سرعة وهرولت نحوى وأنا أنتظرها على الدَّرَج ، وقبلتنى فى رقة وفى حنان ، وبدت جد فرحة سعيدة لعودتها إلى جوارى ثانية ، ولم أسمع لما يعتمل فى نفسى من نوازع بالظهور على وجهى . وتجاذبنا الحديث ، وتناولنا العشاء معاً ، ثم ذهبنا إلى فراشنا بغية النوم. لم يغمض لى جفن تلك الليلة. ظللت سهران يقظان ، ورحت أترقب الساعات وأحصى الدقائق . ولما دقت الساعة ربع الساعة الأول بعد منتصف الليل ، نهضت ودخلت مخدعها. كان رأسها الصغير الجميل غارقاً فى الوسادة البيضاء كصورة ملاك نورانى بين السحب الناصعة البيضاء. يا للطبيعة الكاذبة ! أى شئ يطمئن تحت ستار تلك الطهارة الجمة ! كان لى عزم رجل مجنون أصر على شئ ، ترينُ علىّ فكرة رهيبة ، كان السم قد نخر روحى ، عزمت على قتلها وهى فى نومها !

ولأدع تفاصيل جرمى الشنيع . ماتت دون أن تبدى أية مقاومة فى هدوء كما يستسلم امرؤ للنوم . ما كانت تقاومنى أبداً فى شئ ، حتى حين قتلتها . نقطة واحدة من الدم سقطت على ظهر يدى (وأنت تعرف أين) ، ولم أزلها حتى اليوم التالى ، كانت قد تجمدت

وواريناها مثواها الأخير دون أن يرتاب أحد فى الأمر ، وقد كنت أعيش فى عزلة كاملة . ومن كان فى وسعه أن يكتشف أمرى ؟ لم يكن لها أبوان ولا ذوو قربى فيسألونى عن شئ ، وقد تعمدت أن أتباطأ فى إرسال بطاقات النعى حتى يفوت الموعدُ الأصدقاء والمعارف .

ولدى عودتى من المقبرة لم أشعر فى ضميرى بأى وخز ولا تقريع . كنت قاسياً حقاً ولكنها كانت أهلاً لكل قسوة . وما كنت سأمقتها ، بل كنت سأنساها ، إذ كان نادراً ما أذكرها . لم يحدث أن ارتكب امرؤ جريمة قتل بمثل هذا الضمير الخالى من الوخز والتبكيت .

وبلغ الكونتيس النبي ، وقد دبرت كل شيء تدبيراً حتى أنها هي أيضاً وصلت متأخرة ، وبدا عليها الحزن الصادق حين رأتني ، وقد كانت كلماتها تقطر — لست أدرى — رعباً أو إشفاقاً أو حزناً ، حتى أنني لم أدرك تماماً ماذا كانت تقول في عزائي !

هل كنت مصغياً إليها ؟ وهل كنت في حاجة إلى عزاء ؟ لم أكن حزيناً ولا آسفاً ! وأخيراً ، أخذتني من ذراعي بجرأة وقالت كأنما صوتها يتساقط من بين شفتيها : إنها مضطرة أن تفضي إلى بسر ، وإنها تعتمد على شرفي كرجل نبيل في كتمان هذا السر . قالت: إنها أعطت زوجتي حزمة من الرسائل لتحفظها لديها ، إذ أنها لم تستطع أن تخفيها في بيتها . وشعرت عدة مرات إبان حديثها بهزة تسري في كل كياني ، وسألتها وأنا أصطنع البرود عما تحوى هذه الرسائل ، فجفلت السيدة لهذا السؤال وقالت غاضبة :

— سيدي ! لقد كانت زوجك أكرم منك . حينما تعهدت بحفظ رسائلي لم تسألني قط عما تحتوى بل لقد وعدتني صادقة ألا تلقى عليها نظرة واحدة . وإني لعلى يقين أنها لم تقرأ منها سطراً واحداً . كان لها قلب نبيل ، كانت ولا ريب ستخجل من الحنث بوعودها التي قطعت ... فأجبتها :

— حسن جداً . ولكن كيف أعرف هذه الحزمة ؟

— يضمها شريط أحمر بجانبين فضيين .

— سأذهب أبحث عنها .

ثم أخذت مفاتيح زوجي وأنا أعلم يقيناً أين أجد الرسائل ، ولكني اصطنعت العثور عليها بعد جهد وسألتها وأنا أمد بها يدي إليها :

— أهذه هي ؟

— أجل ... أجل إنها هي ... أنظر ! إنها نفس العقدة التي عقدت . لم تمسسها يد أبداً

لم أجسر أن أرفع عيني في عينيها . خفت أن تقرأ فيهما أني حللت رباط الحزمة بل وأكثر من هذا غادرتها توا ... فهرولت إلى مركبتها ثم ابتعدت بها بعد قليل

وقد اختفت نقطة الدم ، ولم يكن ثمة دليل على وجود الألم ، ولكن أثر نقطة الدم كان يلسع كلسع سم زعاف قاتل . وكان هذا الألم يستفحل ويشتد ساعة بعد ساعة . وقد كنت أغفو أحياناً . بيد أن الألم لم يفارقني لحظة . ولم أبث أحداً شكوتي . وأي امرئ يصدق قصتي ؟ لقد لست بنفسك مقدار ماعانيت من عذاب ، ورأيت بعينيك كيف استرحت عقب إجراء كلٍّ من العمليتين ، ولكن سرعان ما كان الألم يعود عقب اندمال الجرح ... والآن ها هو ذا يفترسني للمرة الثالثة ، ولم يعد بي على احتماله طاقة ولا قوة ... سأكون ميتاً بعد ساعة من كتابة هذه السطور . شيء واحد يعزيني ، هو أنها انتقمت لنفسها هنا في الدنيا . وقد تصفح عني في السماء . إني لشاكر لك ما صنعته من أجلي ، عسى أن يثيبك الله عني خير الجزاء »

بعد ذلك ببضعة أيام كان المرء يرى في الصحف أن س ... أحد سراة المدينة المبرزين قد حطم رأسه برصاصة . وأشاع البعض أنه انتحر حزناً على زوجه ، واقترب البعض من الحقيقة بإشاعتهم أنه كان به داء أعيى نطس الأطباء فانتحر تخلصاً منه . أما الذين يعرفونه فقد قالوا إنه كان مصاباً بنوع من الجنون monomania وإن جرحه المؤيس لم يكن له وجود إلا في مخيلته

محمد عبد الفتاح محمد

اللصوص الثلاثة

عن الفرنسية

بقلم الأستاذ ع . ا

هذه قصة لصوص ثلاثة اشتركوا معاً مدة طويلة وسرقوا أناساً كثيرين ، وكان اسم أحدهم « ترافرس » ومع طول عشرته للصوص فقد كان أقل حذقاً لصناعته من زميليه . أما هذان الزميلان فهما أخوان تلقيا فن السرقة بالوراثة عن أبيهما الذى شنق من أجل أعماله السيئة ، وقد نبغا فى السرقة كل النبوغ . وكان اسم أحدهما « هايمت » واسم الآخر « بارات » وليس فى الإمكان المقارنة بين هذين الأخوين لأن كلاً منهما كان أكثر حذقاً من الآخر

ومر اللصوص الثلاثة بغابة، فلمح هايمت عش طائر بين فروع دوحة، فوقف فى ظل الدوحة ورمى العش بنظره الحاد فرأى فيه بيضاً رقد الطائر فوقه . فأراه لزميليه وقال : « يا زميلى، ليس باللص البارع من لم يستطع سرقة هذا البيض من تحت الطائر دون أن يشعر الطائر به »

فقال بارات : « ليس فى الدنيا من يستطيع ذلك »

قال هايمت : « سترى إذا نظرت إلىّ أن فى الدنيا من يستطيع ذلك »

ثم تسلق الدوحة بخفة عجيبة فلم يسمع له صوت ورفع القش بيد خفيفة وجر البيض من تحته دون أن يشعر الطائر به . ثم نزل فقال لزميليه : « هذا هو البيض لم تكسر منه واحدة »

قال بارات : « ليس فى الدنيا يد أخف من يدك ولكن إذا استطعت إعادة البيض إلى مكانه كنت أحذق اللصوص »

فقال : « سيعود البيض إلى مكانه فى العش دون أن تكسر منه بيضة »

ثم تسلق الدوحة غير ملتفت إلى زميليه لأنه كان ينظر إلى أعلى الشجرة دون أسفلها

وما كاد يصل إلى منتصف الدوحة حتى صعد بارات على أثره بمثل هذه الخفة فنزع سرواله ونزل دون أن يشعر به أخوه الذى استمر يصعد حتى أعاد البيض ثم نزل أيضاً، فلما رأى ترافرس خفة اللصين حزن على نفسه إذ عرف أنه لا يستطيع أن يعمل مثل هذا

وقال هايمت : « هل رأيتما يا صديقىّ خفة يدى ؟ إنه ليس فى الدنيا لص مثلى » فقال بارات : « نعم إن يدك خفيفة ولكن أين سروالك ؟ » فلما وجد أن أخاه سرقه قال : « لقد كنت أحسبنى أبرع لص، ولكن من يسرق اللص أبرع من الذى يسرق العصفور »

وقال ترافرس : « ليس فى الدنيا لص مثل بارات . ولكننى تبينت مما رأيته منكما أننى لست لصاً وأنى لا أصلح لهذه الحرفة وإن عالجتها سنوات، ولذلك أعلن الآن توبتى عنها وسأعود إلى مدينتى وأستسمح زوجتى فقد كنت أحمق حين تركتها لأكون لصاً »

ثم ودع ترافرس زميليه وعاد إلى قريته فوجد زوجته غير حاقدة عليه لطول غيبته بل رحبت به وتلقته بالسرور . وكذلك فرح به أصحابه وأعادوه

إلى مكانته الأولى وارتزق رزقاً ميسراً من عمل شريف

وقبيل العيد ذبح خنزيراً وعلقه بسقف المطبخ حتى يجف فيقدده ليبيعه ثم خرج من المنزل لعمل آخر . وفى أثناء غيبته دخل المنزل هايمت وبارات فوجدا زوجته ماريا وسألاها عنه فقالت إنه ذهب إلى السوق

ولكن اللصين بدلاً من أن يخرجا دارا يبصرها فى أنحاء المنزل فلم يتركا مكاناً إلا نظرا إليه . وعرف بارات مكان الخنزير المعلق فنبه إليه أخاه وقال : « إن ترافرس يخبأ اللحم هنا حتى لا نقاسمه إياه . ولكننا لن نتركه مهما اشتد حرصه عليه »

ثم استأذنا الزوجة وخرجا . ولما عاد ترافرس إلى المنزل قالت له ماريا : « لقد جاء اليوم إلى المنزل زائران خفت منهما خوفاً شديداً فقد رفضا إخبارى باسميهما وبسبب مجيئهما ونظرا إلى كل شىء فى المنزل . فقال : « لقد عرفتهما وهما لصان وسيسرقان الخنزير فلا يكن عندك شك فى ذلك ؛ وليتنى بعته فى يوم السبت الماضى »

قالت : « لا تخش يا زوجى العزيز ، ولنغير الخنزير حتى لا يعرفاه إذا عادا » ثم ناولته السكين فقطع الحبل الذى كان الخنزير معلقاً به إلى السقف ووضعه تحت آنية كبيرة فى موضع آخر من المنزل . ثم ذهبا إلى غرفة النوم ليستريحا

ولما مضت ساعات من الليل تسلق اللصان الخفيفا الحركة سطح المنزل ونقبا فيه فتحة بحجم الرحى بالقرب من الموضع الذى رأيا الخنزير معلقاً به . ولكن بارات لما لمس الحبل عرف أن الخنزير قد نقل وقال : « من الجهل أن يظن ترافرس أنه يخفيه عنا مدة طويلة

واستيقظ ترافرس من النوم فقال لزوجته : « إخال أنى أسمع حركة ، فانتظرى حتى أفتش المنزل وسأعود سريعاً » فقالت : « لا تتركنى وحدى »

ولكنه أبى ودار فى غرف المنزل غرفة فغرفة ثم خرج إلى الإسطبل ليرى هل سرقا البقرة

كل ذلك واللصان يراقبانه فلما رأياه يترك المنزل نزل بارات وقلد صوته وذهب إلى غرفة النوم فقال « أين يا زوجتى وضعنا الخنزير فإنى نسيت فى فترة النوم »

قالت : « كيف تنسى يا زوجى العزيز ؟ هو عندك تحت الإناء بجانب الموقد »

فخرج بارات وحمل الخنزير وذهب مع هايمت إلى الغابة ثم عاد ترافرس فقالت زوجته : « هل كنت لا تزال نائماً لما سألتنى عن مكان الخنزير ؟ »

قال : « كان الله فى عوننا ! متى سألتك ؟ »

فقالت : « الآن يا زوجى »

قال : « لقد ضاع الخنزير ولن نجده إلا إذا تمكنت من سرقته منهما لكنهما أحذق اللصوص »

وخرج ترافرس إلى الغابة فوجد « هايمت » يمشى غير حامل شيئاً وعرف أن بارات قد سبقه لأنه يحمل الخنزير ويريد أن يقضى دوره فى حمله مسرعاً، فأسرع وحاكى صوت هايمت وقال : « هات أحمل عنك يا أخى ريثما تستريح »

فظن بارات أن الذى يكلمه هو أخوه وأعطاه الخنزير ، وبعد أن مشى ترافرس مسافة عاد إلى منزله

ثم التقى هايمت وبارات فعرفا أن ترافرس خدعهما وسرق الخنزير، فأسرع هايمت فى العودة إلى منزل ترافرس متنكراً فى زى امرأة مقلداً صوت ماريا . ولما رأى ترافرس عائداً بالخنزير قال : « هل جئت به يا زوجى العزيز ؟ هاته واذهب أنت إلى غرفة النوم »

فظن ترافرس أن زوجته هى التى تكلمه ، وأعطاها الخنزير ، ولـكنه لما دخل غرفة النوم وجد زوجته، فتبع اللصين .

وكان هايمت قد عاد إلى الغابة ، فلما رآه تسلق شجرة قريبة وسمعهما يتناقشان فأنصت إليهما ، ثم وجدهما يوقدان النار ليطبخا الخنزير ، فانتظر حتى ابتعدا ليجمعا الحطب ، فنزل وسرق الخنزير وعاد به إلى منزله . فاستقبلته زوجته وقالت : « إنه لم تبق وسيلة إلا طبخ الخنزير وأكله حتى لا يعود اللصوص إلى السرقة . فوافقها على ذلك وطلبت إليه أن ينزل لينام ، وأوقدت النار لتطبخ الخنزير .

وفى هـذا الوقت كان الأخوان اللصان فى طريقهما إلى المـنزل فتسلقا الجدران وجلسا فوق السطح . وجاء بارات بعود طويل من أعواد الشجر عقف آخره وحدده فجعله كالسنارة « الشص » ، وأعده لاستعماله فى الوقت المناسب .

وقبيل الصباح تعبت ماريا فنامت بجانب الموقد وأنزل بارات عود الشجرة فجرّ به الخنزير من الوعاء، واستيقظ ترافرش على هذه الحركة فقام ووجد زوجته نائمة . وسمع صوتاً فوق السطح فأيقظها وصعد فوجد صاحبيه يأكلان. فصالحهما واحتكم معهما إلى زوجته فقسمت اللحم ثلاثة أثلاث له ثلث ولصاحبيه الثلثان

وقال ترافرس إنه تاب منذ زمن ولـكن ماضى عشرته للصوص قد أضره بعد طول العهد .

وكذلك معاشرة الأشرار تضر إن لم تكن عاجلاً فآجلاً .

ع . ا

العاشقة الصغيرة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم العشيري

كانت الشمس تودع الدنيا فى صمت حزين ، حينما كانت « تهانى » الطفلة التى لم تتجاوز بعد التاسعة من عمرها ، تسير على رود فى حديقة المنزل الكبيرة يتبعها كلبها الصغير

ووصلت الطفلة بعد قليل إلى مقعد ناء مختف بين الأشجار ، فجلست عليه وعندئذ التمعت فى عينيها الدعجاوين دمعتان لم تلبثا أن سقطتا على خديها

ونظرت إلى كلبها الصغير الجالس عند قدميها فى هدوء ، وهى تبسم بسمة فيها حزن الجدول جف ماؤه ، وأسى الزهرة ذبلت أوراقها ... ومرت لحظة ثم شرد بصرها ، وعلا السهوم وجهها الجميل الذى يبدو عليه شحوب عليل ، وشقاء ذليل

وظهرت فى رأسها تلك اللحظة صورة شاب وسيم سافر منذ وقت غير طويل إلى أسيوط حاملاً معه قلبها الصغير

وانثالت على ذهنها ذكريات وذكريات

ها هى ذي جالسة مع ذلك الشاب على أريكة تحادثه ويحادثها

ها هى ذى تمشى معه فى مماشى الحديقة ويدها فى يده

ها هى ذي تؤاكله والسرور باد عليها. ها هى ذى ترقص أمامه قائلة له : « أنظر ... إننى سأكون راقصة بارعة » . ها هى ذى تسقيه الماء من كوب فى يدها وعلى شفتيها بسمة سعيدة . ها هى ذي تباغته وترش الماء الثلج على وجهه فيجرى أمامها صائحاً مذعوراً . ها هى ذى ... ها هى ذى ..

وينقضى وقت مديد، والطفلة لاتزال تعيش فى ماضيها السعيد . ثم استفاقت بغتة لتلفظ بهذه الكلمات فى صوت خفيض كئيب شاك :

— لماذا لم تبق بجواري يا حامد لأظل سعيدة ؟

والتمعت فى عينيها دمعتان أخريان !

ما أقسى الشقاء الذى تشعر به هذا المساء !

وراح قلبها يدق بقوة وشدة ، وراحت تستمع إلى دقاته وقد وضعت خدها على كفها الصغيرة الناعمة

ولم تكن تتذكر شيئاً فى هذه اللحظة ، فلقد نسيت كل شيء

وأخذ الليل يقترب ، ولكنها لم تحس باقترابه إلا عند ما سمعت خادمتها العجوز « كعب الخير » تصيح قائلة :

— أين أنت يا تهانى ؟ هيا فقد أقبل الليل

ومسحت دموعها بسرعة ، وقامت تمشى على مهل يتبعها كلبها

— مالك يا ست تهاني ؟

قالتها الخادم حينما رأت حزن سيدتها الصغيرة ووجومها . فلم تجبها تهانى

— هل ضربك أحد ؟

— ...

— هل ضاع منك شيء ؟

— ...

— لماذا لا تجيبين يا سيدتى ؟

فالتفتت إليها تهانى وقالت فى غضب :

— اصمتى ... لا تتكلمى ...

فصمتت الخادم وقد بدا الدهش على وجهها

***

عجيب أمر هذه الطفلة . لقد كانت تحب ... تحب شاباً فى الثالثة والعشرين. فلنرجع إلى الوراء قليلاً

منذ عام ونصف عام مات والدا « تهانى » وخلفاها تعيش مع عمة لها بالقاهرة . وفى منزل تلك العمة ـ وهو المنزل الذى تقيم فيه تهانى الآن ـ عرفت هذه الطفلة حامداً قريبها الطالب بإحدى كليات الجامعة . وكان يقيم مع أمه فى أحد طوابقه

وأخذا يلتقيان . كانت تنطلق إليه كل مساء فتجلس معه تحادثه . وكان حامد يحبها حب الأخ الكبير للأخت الصغيرة . ولذلك لم يكن يكره أحاديثها ولا يملها

وعن أى شيء كانت تحدثه ؟

كانت تحدثه عن الدجاج والبط الذى تربيه عمتها فوق سطح المنزل . وعن « بوبى » كلبها المحبوب . وعن الدروس التى تتلقاها فى مدرستها . وعن « أبلة » خديجة مدرسة الحساب التى يسمونها «بالغولة» وعن أشياء أخرى كثيرة من هذا الضرب

وازداد حب حامد لتهانى فبدأ يحضر لها الحلوى والشكولاته . وفى كثير من الأحيان كان يؤاكلها ويسير معها فى حديقة المنزل . وفى كثير من الأحيان أيضاً كان يمازحها ويلاعبها

وابتدأت تهانى تحب حامداً حباً لا تعرفه الطفلة ... حب امرأة لرجل أعجبها وراقها . ولم تعد حينئذ تستطيع الابتعاد عنه

وأصبح حامد الأمل الذى يرف فى حياة تهانى ، والنور الذى ينير دنياها ، والفردوس الذى تهرع إليه كلما اشتاقت إلى الفراديس . وإنها لتشتاق إلى الفراديس دائماً ... دائماً ...

ومرت الأيام مسرعة . لا تعرف اللغوب ولا الونى وتخرج حامد فى كليته فأنشأ يبحث عن وظيفة يشغلها إلى أن عثر على وظيفة فى أسيوط

وراح حامد يتأهب للذهاب إلى أسيوط . وكان سعيداً فأنسته سعادته « تهانى » التى كادت تجن حينما علمت أنه سينأى عنها

وعرف الحزن طريقه إلى نفس العاشقة الصغيرة وأرمض الأسى فؤادها غير أنها تماسكت وصبرت ... ومضى يومان ، وفى اليوم الثالث أتاها حامد ليخبرها بعزمه على الرحيل إلى أسيوط بعد قليل

— وستتركنى هنا وحدى يا حامد ؟

— وحدك ؟! وهل نسيت عمتك وخادمتك « كعب الخير »

— ؟ ؟

— فلتكونى قوية يا عزيزتى

— لا أستطيع

— من أجلى . ومن أجل مستقبلى

— ولكن ... ولكن ...

وخنقها البكاء فلم تستطع أن تقول ما تريد أن تقول ، واقترب حامد منها وهو يقول :

— لا تبكى : وإلا أغضبتنى

فغيضت عبراتها بصعوبة . ولاذت بالصمت

ووضع حامد يده على كتفها وقال لها للمرة الثانية

— فلتكونى قوية يا عزيزتى

فرفعت تهانى بصرها إليه بعد هنيهة . وتشددت وهى تتمتم :

— حسن، سأكون قوية. هات خدك لأقبلك قبلة الوداع

وقبلته قبلة الوداع وهى تشعر بشىء يبكى فى أعماقها ويئن . . ومرت دقائق ثم . . ثم رحل حبيبها !

***

... فى صباح اليوم التالى استيقظت تهانى من نومها على عندلة بلبل ... وجلست على وساد سريرها وقد عاودتها أشجانها وآلامها .

وانقضى وقت قصير ، ثم دخلت عليها عمتها ، وهى امرأة نصف ليست بالجميلة ولكنها ليست بالدميمة .

— هل استيقظت يا تهانى ؟

— أجل يا عمتى .

— حسن ، قومى يا ابنتى لتستعدى للذهاب إلى المدرسة .

وخرجت العمة من غير أن ترى ما يبدو على تهانى من حزن وكآبة .

وانطلقت تهانى ذلك الصباح إلى مدرستها وهى تشعر بالوحدة والوحشة . وحينما انقلبت إلى منزلها فى المساء كان شعورها بالوحدة والوحشة يزداد ويزداد

وعزفت عن الطعام ، واجتوت الحياة ، ولزمت الحيرة نظراتها، وغشى الذهول بسماتها .

ودرجت الأيام ، وتهانى حزينة كئيبة أسوانة وفى ذات يوم سألتها عمتها :

— مالك يا تهانى ... إنك قد تغيرت كثيراً ؟

فبكت تهانى وأخبرت عمتها بأمرها ، أخبرتها به فى صراحة طفلة ساذجة. فاحتضنتها العمة ووضعت رأسها على كتفها ، ثم ربتت على ظهرها فى حنان وحدب .

— ولم لم تخبرينى بذلك من قبل ؟

— لم أكن أقدر !

— يا لك من مسكينة .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك الآن ؟ إن حامداً فى أسيوط ، ونحن فى القاهرة .

فلجت تهانى فى البكاء ولم تجب !

ومضى يوم مديد ثقيل. وفى اليوم الثانى مرضت العاشقة الصغيرة ، فلزمت سريرها تهذى بكلام لا يفهم منه إلا أنها تشتاق إلى الحبيب النازح النائى ... وخافت عمتها عليها ، فكتبت إلى حامد تصف له حالها وتطلب إليه أن يحضر . . .

وحضر حامد من غير إبطاء ، وما إن رأته تهانى حتى وثبت من سريرها وهرعت إليه فرحة لاهثة .

وحملها حامد على ذراعيه، فتعلقت بعنقه وأخذت تقبله وتقبله ... ثم تمتمت :

— حامد ... هل أنت حقاً الذى أرى أم ...

ولفرط فرحها لم تستطع أن تتم كلامها !

وأعادها حامد إلى سريرها وجلس بجوارها يحادثها . ونسيت تهانى آلامها ومرضها وهى تستمع إليه . وبدأ السرور يشيع فى وجهها ... ثم ... ثم بكت فجأة. بكت من شدة السعادة والتصقت بحبيبها وهى تنظر إليه من خلال دموعها نظرة كلها غبطة ، وعلى شفتيها بسمة تفيض بالهناء

— وستبقى بجوارى يا حامد أم سترحل ثانية ؟

فقال حامد وهو يربت على خدها بيده ، ناظراً إلى أهداب عينيها المخضلة بالدمع :

— لا يمكن أن أبقى هنا يا عزيزتى ، وإلا أضعت وظيفتى

فاكتأبت وغاضت بسمتها ، وهمت أن تتكلم ، غير أن حامداً سألها :

— هل يسرك أن أكون متعطلاً ؟

— كلا . وكيف يسرني أن تكون متعطلاً ؟

— إذن دعيني أعد إلى وظيفتي وعليك بالصبر

فأطرقت برأسها في صمت !

ورفعت رأسها فجأة بعد قليل . ثم طلبت منه أن يدني أذنه من فمها . فلما فعل همست فيها بصوت مرتبك لا يكاد يسمع ، وحمرة الخجل تصبغ وجهها

— هل تنوي أن تتزوج قريباً ؟

وفهم شيئاً فقال لها وهو يضحك :

— كلا . لن أتزوج قريباً لأنني أريد أن تكوني أنت زوجتي

وساد الصمت ... وبعد دقائق قالت تهاني لحامد وهي تنظر إلى حجرها :

— يمكنك الآن أن تعود إلى أسيوط

***

وعاد حامد إلى أسيوط . وعادت تهاني تقاسي آلام فراقه . غير أنها استطاعت أن تصبر على تلك الآلام هذه المرة

وبدأت العاشقة الصغيرة تحلم بمستقبل سعيد

ها هي ذي قد أصبحت زوجة لحامد ، ها هي ذي تعيش معه ، ها هي ذي تقبله في الصباح حينما يهم بالخروج من المنزل ، وفي المساء عند ما يرجع إليه ، ها هي ذي تطبخ له طعام « السبانخ » الذي يحبه ... ها هي ذي ... ها هي ذي ...

وأخذت تهاني تدعو الله أن يحقق حلمها . وكانت في كثير من الأحيان تضع كلبها الصغير على صدرها وتهمس في أذنه : « سوف تراني غداً أيها الكلب وقد أصبحت زوجة لحامد »

ولم تعد الطفلة تهتم بشيء كما تهتم بغدها وبما سيكون فيه من سعادات ولذاذات وأفراح . ولذلك امتلأت حياتها بالآمال والأحلام

وذاقت تهاني طعم السهاد مرات كثيرة ... ولكن أي سهاد هو هذا الذي ذاقت طعمه ؟ ! إنه السهاد الطويل القاسي الثقيل ... سهاد العاشقين .

وأدبرت أسابيع وأسابيع ... والطفلة صابرة لا تشكو ، قوية لا تضعف ... وفي يوم من الأيام شعرت برغبة شديدة ملحة في البكاء . فلجأت إلى ركن قصي بعيد من أركان حديقة المنزل ، وجلست تبكي بحرقة

ولكنها انقطعت عن البكاء بغتة وراحت تسأل نفسها : « لماذا تبكي ؟ » وذكرها هذا السؤال بشيء فعادت تبكي

وبللت الدموع خديها فمسحتها بكم ثوبها . وجاء إليها كلبها في تلك اللحظة ، فأمسكت به ، ووضعته على حجرها ، ثم مالت عليه تكلمه :

— إنني شقية يابوبي ، شقية جداً ، وقلبي يوشك أن يختنق أو يحترق . كم أحن إلى الراحة ! كم أحن إلى الراحة !

وصمتت لحظة ثم أردفت :

— لقد صبرت على شقائي طويلاً يا بوبي ... ويخيل إلي الآن أنني لن أستطيع أن أصبر أكثر من ذلك . إني لأود أن أجد حامداً بجواري هذه اللحظة لأشكو إليه حالي

ولكن هيهات أن تجد حامداً بجوارها . فحامد في أسيوط : وهي في القاهرة ، يالها من طفلة شقية يالها من عاشقة معذبة !

***

شيء واحد أسعد « تهاني » في تلك الأيام البائسة الأليمة ، ووضع في قلبها الشجي الأسوان

قليلاً من الطمأنينة والهدوء . وهو هذه الرسالة القصيرة التى أرسلها حامد مع كتاب بعث به إلى عمتها

« زوجتى العزيزة تهانى هانم ...

أقبلك ألف قبلة . وبعد فلتعلمى أنى لا أنساك ، وأنى مشتاق جداً إلى رؤيتك ... أملى أن تكونى سعيدة ، وتقبلى تحياتى الحارة

زوجك : حامد »

لقد كادت تجن من فرط الفرح حينما قرأت تلك الرسالة ، « فلتعلمى أنى لا أنساك وأنى مشتاق جداً إلى رؤيتك » . ما أجمل أن يقول لها حامد هذه الكلمات !

ووضعت تهانى رسالة حامد تحت وسادة سريرها بعد أن أشبعتها لثماً وتقبيلاً ، ثم أحضرت ورقة وقلماً وكتبت هذا الخطاب :

زوجى العزيز حامد أفندى

أقبلك مليون قبلة ، لا ألف قبلة فقط ... وبعد فقد وصلتنى رسالتك الرقيقة ، وسررت بها كثيراً وأحب الآن أن تعرف أن صورتك المحبوبة لا تفارق مخيلتى ، وإنى لأتمنى أن تعود إلى قريباً ، لأجالسك وأحادثك ، وأؤاكلك ، ولأرش الماء على وجهك .

زوجتك المشتاقة إليك جداً « تهانى »

وعزمت على أن ترسل هذا الخطاب إلى حامد ، من غير أن تعلم عمتها بذلك ... وقد فعلت ...

وفى اليوم الذى أرسلت فيه ذلك الخطاب ، جلست مع كلبها فى ركن حديقة المنزل البعيد ولأول مرة منذ مدة طويلة تكلمت فى سعادة :

« إنى سعيدة اليوم يا بوبى ، سعيدة جداً ، فقد بعث حامد إلىّ برسالة ، وبعثت إليه برسالة . هل تعلم أنى بدأت أحب الحياة ، وأستعذب آلام الحب ؟ ! »

* * *

وتولت ثلاثة أشهر والحبيب لا يبرح غائباً . وفى ذات يوم عادت تهانى من مدرستها . فلما رأتها خادمتها « كعب الخير » دنت منها وقالت لها وهى تبتسم :

— عندى لك يا سيدتى خبر سار

— ما هو ؟

— سيدى حامد قريبك سيقدم غداً إلى هنا ...

فألقت تهانى بكتبها وكراساتها على الأرض . وأخذت ترقص وتغنى وتصفق فى سرور وحبور . غير أنها كفت عن الرقص والغناء والتصفيق بغتة حينما سمعت خادمتها تتم كلامها قائلة :

— وسيقضى هنا ثلاثة أيام يعقد قرانه فى خلالها على قريبة له تقيم بالزمالك

يعقد قرانه على قريبة له تقيم بالزمالك ! . . .

وحملقت تهانى فى وجه كعب الخير وقد ظهرت عليها الدهشة . ثم هتفت فى صوت خافت متهافت :

— أحق ما تقولين ؟

— وهل تظنين أننى أكذب عليك ؟

قالتها الخادمة وهى تعجب من الدهش الذى يبدو على سيدتها الصغيرة ... فتولت تهانى من غير أن تنبس !

أفى مثل ومضة البرق يتحطم الأمل الذى كانت تعيش به !

أفى مثل طرفة العين يتهدم المستقبل الذى كانت لا تزال تبنيه !

يا لشقاء جدها ...

ودخلت غرفة نومها . وجلست على السرير وصدرها يعلو ويهبط بشدة وعنف وبصرها ذاهل حائر شارد . ثم سألت نفسها :

أهى تحلم ؟

وبسمت بسمة حزينة مرة : كلا إنها لا تحلم فقد عادت من مدرستها منذ قليل

وأحست أن الدنيا تظلم ، وأن الجو يمتلئ بضباب أسود قابض . وخيل إليها أن روحها قد سلبت منها ، وأنها لم تعد تحيا

وتقضت برهة ...

ها هى ذى تنهض عن سريرها وتخطو فى الغرفة بضع خطوات . أواه .. إنها لتكاد تقع على الأرض من شدة الإعياء الذى سببته لها الآلام التى هجمت عليها

ها هى ذى تقف ... آه ... إن أنة مذبوحة باكية تنساب من بين شفتيها المرتعشتين

ها هى ذى تفكر ... أوه ... لقد تألقت فى عينيها دمعة

وتقضت برهة أخرى

لقد رجعت المسكينة إلى سريرها ... فألقت بنفسها عليه . وراحت تجهش بالبكاء .

يا لها من طفلة شقية . يا لها من عاشقة معذبة !

***

... فى اليوم التالى قدم حامد . وحينما علمت تهانى بقدومه أسرعت بمبارحة المنزل من غير أن تراه أو يراها

لم بارحت المنزل ؟ ... وإلى أين ... ؟ ... لا يعلم أحد ... ومضى النهار دون أن تعود الطفلة إلى بيت عمتها . وفى ساعة متأخرة من الليل رآها بعض رجال الشرطة جالسة على إفريز شارع من شوارع القاهرة وهى تبكى وتنتحب !!! .

عبد الحليم العشيرى

مسرحية

الفـــاجرة القديسة

للكاتب الانجليزى أسكار وايلد

بقلم الأديب سامى أحمد الناقص

تعريف بالقصة

« أسكار وايلد من أكبر الكتاب الانجليز ، وله أربع مسرحيات صغيرة كتلك التى نترجمها له وبعض هذه القطع الصغيرة كتبه شعراً كتلك التى سماها « مأساة فلورنسية » والتى سنترجمها لقراء الرواية إن شاء الله . وقد كتب أوسكار قطعة مسرحية باللغة الفرنسية هى سالوما كتبها فى باريس بعد أن طرد من انجلترا لجريمة خلقية

ولأسكار وايلد غير المسرحيات عدة قصص قصيرة وأخرى كبيرة وبعض الأشعار والرسائل . والقطعة التى نترجمها له مثل سالوما فيها روح كتابات أناتول فرانس فى تاييس ، وبيير لويس فى أفروديت ، وما هى فى حد ذاتها إلا ملخص بسيط لرواية تاييس ، ففيها الراهب الذى ضل بعد أن هدى الراقصة الضالة ، وفيها نفس الجو الذى يحيط بتاييس »

المنظر : ركن فى أحد وديان طيبة ، إلى اليمين غار وضع أمامه صليب كبير ، وإلى اليسار كثبان رملية ، السماء لونها أزرق بينما الكثبان مكونة من رمل أحمر ، وقد انتثرت هنا وهناك على الكثبان أدغال من الشوك

* * *

الرجل الأول — من هى فإنها تخيفنى ؟ إنها تلبس ثوباً بنفسجيًّا وشعرها كالخيوط الذهبية ، أظنها ابنة الامبراطور فقد سمعت الملاحين يقولون : إن للامبراطور ابنــــة تلبس ثوباً بنفسجيًّا

الرجل الثانى — على صندلها أجنحة طيور وثوبها فى لون الذرة الأخضر . إنها عند ما تقف دون حراك تشبه عود الذرة فى الربيع وعندما تتحرك تشبه عوداً صغيراً من الذرة تطير. فوقه الصقور فيضطرب تحت خيالها ، وعلى ثوبها جواهر تشبه عدداً من الأقمار

الرجل الأول — بل تشبه الأقمار التى يراها الرائى فى الماء عند ما تهب الرياح فوق التلول

الرجل الثانى — أظنها إحدى الربات أتت من النوبة

الرجل الأول — بل أنا واثق من أنها ابنة الامبراطور ، فأظافرها ملونة بالحناء وكأنها أوراق ورد أحمر ، وقد أتت إلى هنا لتبكى أودنيس

الرجل الثانى — إنها واحدة من الربات ، ولكننى لا أدرى السبب الذى تركت من أجله معبدها ، لأن الأرباب لا يتركون معابدهم ، إذا ما خاطبتنا لا نجيبها فتتركنا وتسير فى طريقها

الرجل الأول — لن تخاطبنا لأنها ابنة الإمبراطور

ميرهينا — ألا يسكن هنا ذلك الناسك الجميل الشاب الذى لم ينظر إلى وجه امرأة ؟

الرجل الأول — حقًّا إن الناسك يقيم هنا

ميرهينا — لماذا لن ينظر إلى وجه امرأة ؟

الرجل الثانى — لا علم لنا بذلك . . .

ميرهينا — لماذا لا تنظران أنتما نفسا كما إلى ؟

الرجــل الأول — لأنك تتحلين بكثير من الأحجار اللامعة التى تغشى أبصارنا

الرجل الثانى — إن ذلك الذى ينظر إلى الشمس يصبح أعمى ، وأنت تتحلين بأشياء كثيرة البريق ، وليس من العقل أن ننظر إلى أشياء كثيرة اللمعان ، فكثير من كهان المعبد عمى يسيرون على هدى عبيدهم

ميرهينا — وأين يسكن ذلك الناسك الجميل الشاب الذى لن ينظر إلى وجه امرأة ؟ أيسكن منزلاً من القصب أم منزلاً من الحجر الأحمر ؟ أويرقد فى سفح التلول أم ينام على فراش من البردى ؟

الرجل الأول — إنه يسكن هذا الغار

ميرهينا — ما أعجبه مكاناً يصلح للسكنى !

الرجل الأول — فى غابر الأزمان كان يسكن فى الغار جواد له رأس إنسان ، فلما جاء الناسك صرخ الجواد وأخذ يبكى وينوح ثم خر بعيداً

الرجل الثانى — كلا ، بل كان يسكنه وحيد القرن الأبيض الذى عند ما رأى الناسك سجد له وعبده ، وقد رآه الكثيرون وهو يعبده

الرجل الأول — قد حادثت قوماً رأوه

الرجل الثانى — يقول البعض إنه كان حطاباً يعمل بأجر ولكن ربما كان ذلك خبراً كاذباً

ميرهينا — مَنْ تعبدان إذن من الآلهة ؟ أو لعلكما لا تعبدان إلهاً ؟ فهناك كثيرون ممن لا يعبدون أى إلـه كالفلاسفة ذوى اللحى والثياب الرمادية الذين لا يعبدون أحداً ، ولكنهم يتناقشون ويتجادلون فى الأروقة

الرجل الأول — إننا نعبد سبعة من الآلهة لن نذكر أسماءهم لأنه من الخطر الشديد أن نذكر أسماء آلهتنا التى نعبدها ، ولا يوجد فى العالم من يذكر أسماء آلهته ، حتى ولا الرهبان الذين يصلون للآلهة طول اليوم ويأكلون معهم من طعامهم يستطيعون أن ينادوهم بأسمائهم الحقيقية

ميرهينا — وأين هى تلك الآلهة التى تعبدونها ؟

الرجل الأول — إننا نخفيهم بين طيات ثيابنا ولا نريهم لأحد لأننا لو فعلنا ذلك وأظهرناهم للناس يتركوننا .

ميرهينا : وأين وجدتموهم ؟

الرجل الأول : أعطانا إياهم رجل من الذين يحنطون الموتى ، وجدهم فى قبر من القبور ، ولذلك نخدمه نحن منذ سبع سنين .

ميرهينا : إن الميت مخيف والموت يزعجنى كثيراً

الرجل الأول : ليس الموت إلـهاً ، وما هو إلا خادم للآلهة .

ميرهينا : إنه الإلـه الوحيد الذى أخافه ، هل رأيتما كثيراً من الآلهة ؟

الرجل الأول : نعم رأينا كثيراً منهم فالإنسان يراهم على الخصوص ليلاً حيث يمرون أمامه فى سرعة كبيرة ، وقد رأينا مرة بعض الآلهـة عند انبثاق الفجر يسيرون عبر أحد السهول .

ميرهينا : لقد سمعت مرة وأنا أسير خلال السوق سوفسطائياً يقول بأنه لا يوجد إلا إله واحد ، وقد قال ذلك أمام جمع كبير .

الرجل الأول : هذا ما لا يمكن أن يكون . فنحن قد رأينا الكثيرين من الآلهة بالرغم من أننا من العامة ولا خطر لنا ، وعندما أراهم أختفى فى دغل من الأدغال فلا يؤذوننى .

ميرهينا : خبرانى أيضاً عن ذلك الناسك الجميل الشاب . حدثانى عن الناسك الجميل الشاب الذى لن ينظر إلى وجه امرأة ، ما هى قصة حياته ؟ وأى نوع من الحياة يحياها ؟

الرجل الأول : إننا لا نفهمك .

ميرهينا : ما الذى يفعله ذلك الناسك الجميل الشاب ؟ أيبذر أم يحصد ؟ أيزرع حديقة أم يصيد السمك بالشباك ؟ هل ينسج الصوف على النول ؟ أم هل يضع يده على المحراث الخشبى ويسير وراء الثيران ؟

الرجل الثانى : إنه لا يفعل شيئاً لأنه رجل مقدس ، أما نحن فمن العامة ولا خطر لنا ولهـذا نعمل طول اليوم تحت لهيب الشمس ، وكثيراً ما تكون الأرض فى منتهى الصلابة .

ميرهينا — أتطعمه الطيور أم تقاسمه بنات آوى غنائمها ؟

الرجل الأول — إننا نحن الذين نحضر له الطعام كل مساء ، ولا نظن أن الطيور تطعمه

ميرهينا — ولماذا تطعمونه ؟ وأى فائدة تعود عليكم من هذا العمل ؟

الرجل الثانى — إنه رجل مقدس . وقد غاظ أحدَ الآلهة فجعل منه مجنوناً . وأظن أن الإله المغيظ هو القمر

ميرهينا — إذهبا وأخبراه أن هناك من أتت من الإسكندرية رغبة فى التحدث إليه

الرجل الأول : لا جرأة لنا على ذلك ، فإنه فى هذه الساعة يصلى لإلهه . فنرجو أن تسامحينا إذ لم نأتمر بأمرك

ميرهينا — أتخشيانه ؟

الرجل الأول — نعم نخشاه

ميرهينا — ولماذا ؟

الرجل الأول — لا نعلم لذلك سبباً

ميرهينا — وما اسمه ؟

الرجل الأول — إن الصوت الذى يخاطبه ليلاً فى الغار يناديه باسم هونوريوس ، وبهذا الاسم أيضاً ناداه البرص الثلاثة الذين مروا فى وقت ما من هذا المكان ، ولذلك نظن أن اسمه هونوريوس

ميرهينا — ولماذا ناداه الثلاثة الرجال البرص ؟

الرجل الأول — طمعاً فى أن يشفيهم

ميرهينا — وهل شفاهم ؟

الرجل الثانى — كلا ، لأنهم لم يصبحوا برصاً إلا لأنهم ارتكبوا إثماً ، وقد صارت وجوههم وأيديهم كالملح ، وكان أحدهم يلبس قناعاً من الصوف لأنه ابن ملك

ميرهينا — وما هو هذا الصوت الذى يخاطبه من كهفه أثناء الليل ؟

الرجل الأول — لا نعرف صوت مَنْ هذا ، ولكننا نحسبه صوت إلهه لأننا لا نرى أحداً يدخل الغار ولا يخرج منه

ميرهينا — هونوريوس

هونوريوس — (من الداخل) من ينادى هونوريوس ؟

ميرهينا — أخرج إلى يا هونوريوس إن حجرتى مسقوفة بخشب الأرز ومعطرة بالمر وعمد سريرى من الأرز وأستاره ذات لون أرجوانى وقد غطى بالأغطية الأرجوانية ، وله درجات من الفضة وهذه الأستار الأرجوانية مشدودة برمانات من الفضة بينما نثر على الدرجات الفضية الزعفران والمر

إن أحبابى يضمون أكاليل الورود حول أعمدة بيتى ويأتون إلىّ فى الليـل ومعهم عازفات الناى والقيثار ويتوددون إلى بالتفاح ويكتبون أسماءهم على عتبة بابى بالخمر

من أبعـد الأمكنة يأتى إلىّ العشاق والملوك حاملين هداياهم

وعند ما علم امبراطور بيزنطة بوجودى ترك حجرته ذات اللونين الأبيض والبنفسجى وأبحر فى الحال إلىّ دون أن يحمل عبيده المشاعل حتى لا يعلم أحد بحضوره . وعند ما سمع ملك قبرص بى أرسل إلى السفراء ، وقد أرسل إلىّ ملـكا ليبيا الأخوان هدايا من العنبر

وقد أعجب بي قيصر وأصبح عشيقي وجاءني ليلاً في محفته وقد بهت لونه ، وكان جسده كالعسل

وقتل أحد الأشراف نفسه في سبيلي ، بينما جلد حاكم سليسيا نفسه أمام جوادي وعبيدي ليسليني

ووضع ملك هيرابوليس الكاهن اللص السجاد في طريقي لأسير عليه

وفي بعض الأحايين أذهب إلى الملعب فيتصارع المصارعون تحت مقصورتي . وقد حدث مرة أن هزم أحد عشاقي فأشرت إليه أن يموت فصفق كل من في المسرح . وفي مرات أخرى أمر خلال الملعب فأرى الشبان يتصارعون أو يتسابقون وقد لمعت أجسامهم من الزيت المدهونة به وعلت جباههم ضفائر من الصفصاف الندى والآس ، وهم إذ يتصارعون يثبتون أقدامهم في الأرض الرملية بينما يتبعهم الرمل إذا ما تسابقوا وكأنه سحاب خفيف ، فذلك الذي أبتسم له من بينهم يترك رفاقه ويسير خلفي حتى منزلي . وفي أوقات أخرى أذهب إلى المرفأ لألاحظ التجار وهم يفرغون سفنهم بين ثيراني يبيع العباءات الحريرية والأقراط الزمردية ، ومسيلي يبيع العباءات المصنوعة من الصوف الرقيق والأقراط النحاسية ، فعند ما يرونني يقفون في مقدمات سفنهم وينادونني ، ولكنني لا أجيب لهم نداء بل أذهب إلى الحانات الصغيرة حيث الملاحون يشربون الخمر السوداء ويلعبون بالزهر فأجلس بينهم

وقد جعلت مرة من الأمير عبداً لي ومن عبده الثيراني سيداً لمدة شهر قمري كامل

ووضعت في إصبعه خاتماً منصوراً وجلبته إلى بيتي الذي يحوى عدة أشياء رائعة

إن رمال الصحراء تغطى شعرك والأشواك تمزق قدميك والشمس تشقق بشرتك ، فتعال معي يا هونوريوس وأنا أدثرك بثياب حريرية وأمسح جسدك بالمر وأسكب على شعرك الناردين ، تعال وسأدثرك بزهور الهيا كينث وأضع في فمك شهداً : الحب

هونوريوس — لا حب إلا حب الله

ميرهينا — من هو ذلك الذي يبلغ حبه مبلغ حب الرجال الفانين ؟

هونوريوس — إن ذلك الذي ترينه على الصليب يا ميرهينا قد ولدته عذراء وأحضر له ثلاثة من الملوك الحكماء الهدايا وأيقظ الرعاة النائمين على التلول ضوء هائل عظيم

كانت العرافات يعرفن بقدومه ، والغابات تتحدث عنه ، وقد ذكره داود وغيره من الأنبياء . لا حب يشبه حب الله ولا يدانيه ، بل لا يمكن أن يقارن به

إن الجسد دنس يا ميرهينا فليمنحك الله جسداً لا يعرف الدنس. وستسكنين في ملكوت السموات حيث ترين الله بشعره الذي يشبه الصوف الناعم وأقدامه النحاسية

ميرهينا — الجمال ...

هونوريوس — إن جمال الروح يتزايد حين يرى الله . لذلك يجب أن تكفرى يا ميرهينا عن خطاياك ، فقد أدخل اللص الذي صلب إلى جانبه الجنة (يخرج)

ميرهينا — ما أعجب هذا الكلام الذي قاله لي! وما أكبر الاحتقار الذي نظر إلى به ! لست أدرى لماذا حدثني بهذه الطريقة العجيبة

هونوريوس — لقد زالت الغشاوة عن عيني يا ميرهينا واستطعت أن أرى ما لم أكن أراه من

قبل ، خذيني إلى الإسكندرية ودعيني أتذوق الخطايا السبع

ميرهينا : لا تسخر مني يا هونوريوس ولا توجه إلى هذه الألفاظ المرة ، فقد ندمت على خطاياى ، وسأبحث عن غار فى هذه الصحارى لأعيش فيه أنا أيضاً حتى تتطهر روحى وتصبح حقيقة برؤية الله

هونوريوس : الشمس تغرب يا ميرهينا فهيا معى إلى الأسكندرية .

ميرهينا : لن أذهب إلى الأسكندرية !

هونوريوس : الوداع يا ميرهينا .

ميرهينا : الوداع يا هونوريوس ... لا ، لا ، لا تذهب !

... إنى ألعن جمالى لما فعل ، وألعن جسدى الشهى لأنه جلب الشر إليك ...

يا رب ، لقد جلبنى هذا الرجل إلى قدميك ، وأخبرنى عن قدوم المسيح إلى الأرض وعن مولده العجيب وعن موته أيضاً، وبسببه يا رب تكشفت لى

هونوريوس : إنك يا ميرهينا تتكلمين كالأطفال الذين لا علم لهم ، أطلقى يديك ، لماذا أتيت إلى هذا الوادى فى هذا الجمال ؟

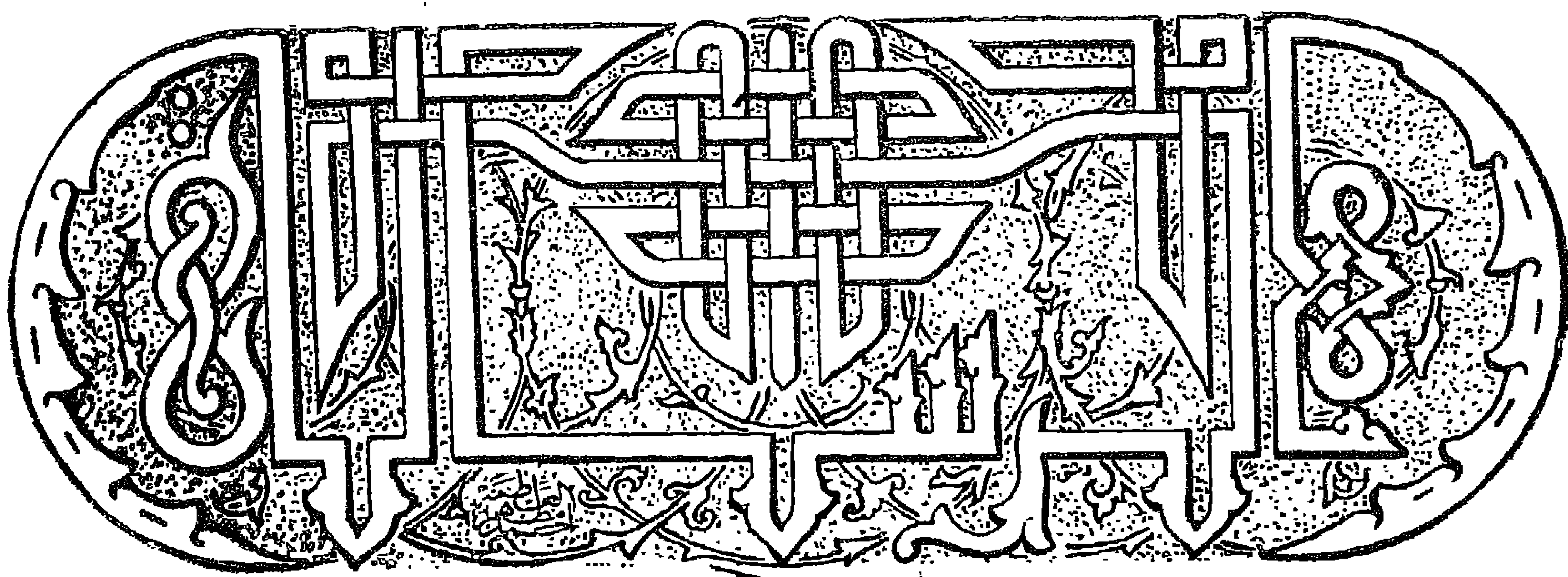
ميرهينا : إن الرب الذى تعبده هو الذى قادنى إلى هنا لأكفر عن سيئاتى وأعرفه .

هونوريوس : لماذا غررتنى بكلماتك ؟

ميرهينا : حتى ترى الخطيئة فى قناعها الملون ، وتلقى نظرة على الموت فى ثوب العار .

سامى أحمد الناقصى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية


الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

قرش	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العـدد ٦٩ — ٢٠ شوال سنة ١٣٥٨ — أول ديسمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد

لقد كنت أباً مستبداً

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« أكان تصرفه نتيجة حبه ابنته أم نتيجة غيرته من الرجل الذى أحبته ؟ »

***

الغيرة لعنة هائلة . وسل عن هذه الحقيقة أى إنسان ابتلى بما يبعث إلى النفس غول الغيرة « الأخضر العين » من الغصص والشكوك والعذاب، والغيرة على الشخص الذى نحبه رجلاً كان أو امرأة شىء غير مستحسن إلى حد ما . ولكن الشىء المقطوع بأنه لا مبرر له على الإطلاق هو الغيرة على ابن الإنسان من لحمه ودمه

وأنا عالم بهذه الحقيقة لأننى كنت أباً يغار على ابنته ، لقد كنت أحبها حباً جنونياً ، ولم أكن لأحتمل أن أرى رجلاً آخر ينظر إليها نظرة تنم عن الحب والرغبة ، بل حتى قبل هذا كنت أكره أن تبتعد عنى لتلهو بلعبها . وكان الألم يحز فى قلبى إذا رأيتها وهى طفلة تتسرب إلى ساعدى أحد الجيران الذين يحبونها وقد فتحهما مرحباً بها

ألا يرى القارئ أن هذا شىء كريه وغير طبيعى ؟ ولو كنت خيراً مما كنت بالفعل لحاربت هذا النقص فى نفسى وتغلبت عليه . فالأب الذى يحب ابنته حباً صادقاً يحب أكثر من كل شىء آخر أن تتمتع ابنته بكل ما خولتها طبيعة المرأة من حقوق . فتنعم بالحب والعطف من الرجل الذى اصطفته نفسها ... الرجل الذى لعلاقته بها معنى لا يمكن أن يكون لعلاقة أبيها بهـا على الإطلاق .

لقد كنت رجلاً صلب الإرادة كونت نفسى بنفسى وكنت أعيش فى « دربيشير » على مقربة من بلدة اسمها « دايك » وكان أبى مزارعاً ولكننى لم أحبب قط الكدح المستمر فى حياة الزراعة ، ولم أكن لأحتمل أن أرى التغير المفاجئ فى الجو من صقيع قارس إلى شمس محرقة أو مطر غزير يتلف عمل السنة كلها

ذهبت إلى « دايك » فى السنة التى تركت فيها المدرسة وحصلت على عمل كتابى عند تاجر من تجار الغلال والحبوب . فلم تمض خمس سنوات حتى امتلكت ذلك المتجر ، وأصبحت قياساً على مستوى الحياة فى « دايك » رجلاً غنياً ، وكنت رجلاً متكبراً شديد الإرادة ، تعودت أن أسلك الطريق التى تروقنى وأن أذهب إلى أبعد المدى للحصول على ما أرغب فى الحصول عليه

وكنت شديد الغرور بنفسى حتى حسبتنى قد عملت عملاً مدهشاً عند ما تزوجت من فتاة من إحدى المزارع المجاورة ولم أتزوج من إحدى فتيات البلدة التى أعيش فيها ، ولقد كانت « ونى نورفل » فتاة حلوة محبوبة ، لها عينان زرقاوان لطيفتان وشعر ذهبى جعد . وكانت وديعة رقيقة حتى لقد رضخت لى فى كل شىء. وليس من شك فى أن ذلك لم يكن بالأمر الصالح لى فقد زادنى استبداداً وتحكما وبعد زواجنا بأربعة أعوام رزقنا بابنتنا الصغيرة

« ميرا » وكانت ولادتها عسرة تألمت منها « ونى » أشد الألم ، وحذرنى الدكتور جريفن من أن أرزق بأطفال جدد . ولكننى لم أتعود أن أعمل بما يقدم لى من نصح . وكان من جراء ذلك أنه عند ما وضعت امرأتى بعد سنتين ولداً ثانياً ماتت هى والولد جميعاً

وأحضرت أختى « نانسى » لتسكن معى وتدير شئون بيتى . وكانت عزباء رفيعة الوجه ذات كفاية ومقدرة . وكان لها مال تستثمره فى العقار فكانت من الناحية المالية فى حال مرضية، ولكن كان يسرها أن يكون لها بيت، لذلك رغبت عن رضا فى إدارة شئون بيتى

ولم تحسن العلاقة قط بين أختى وبين « ميرا » فقد كانت « ميرا » مستقلة عنيدة ، وكانت ظريفة إلى أقصى حدود الظرف ، عيناها براقتان يضرب لونهما إلى الزرقة الداكنة ، وكان شعرها مجموعة من التجاعيد المصقولة

ولقد قلت إننى لم أكد أحب أن « ميرا » تنظر إلى أى إنسان آخر حتى عند ما كانت طفلة ، على أن الحنق بدأ يقتل نفسى عند ما وصلت ابنتى إلى السن التى تجذب إليها أنظار الفتيان الذين أخذوا يلتفون حولها

وفي الحق كان الشبان يتقاطرون أسراباً كاليدوروا حول ميرا كما يدور الفراش حول الضوء الساطع . فكنت إذا جئت البيت وجدتهم يغنون فى غرفة الجلوس أو جالسين فى الحديقة أو مشتغلين بصنع الحلويات فى المطبخ

لم يكن فى ذلك شيء أكثر من أنه تسلية بريئة سعيدة ، وكان من الواجب أن أشجعها وأرحب بها بدلاً مما كنت أبدى من جفاف، إذ كنت أظهر ، وإن لم أصرح ، عدم ارتياحى إلى هذه الاجتماعات . على أننى كنت دائماً ألبي جميع طلبات ميرا ، فلم يكن هناك ما يبرر حرمانها أن تتمتع بصحبة رفاقها من الشبان ، وما أشك فى أنها لم تسىء قط الظن فى شعورى حيال سلوكها

ووقعت « ميرا » آخر الأمر فى شرك الحب — وكان حباً جدياً عميقاً — وكان حبيبها ابن أحد المزارعين واسمه كريستوفر هاريسون ، وقد عرف أحدهما الآخر منذ أيام المدرسة . ولم أنكر فى نفسى وشعور الحسد يكتنفنى أنه فتى جميل واضح القسمات يدل تركيب فمه على القوة والحزم وله عينان براقتان يقظتان ...

وقد رأيته مرة فى البلدة فأقبل علىّ فى هدوء وسألنى إن كنت اسمح له أن يوصل « ميرا » إلى البيت فى سيارته فلم يسعنى إلا أن أوافق على طلبه .

وكانت الليلة مقمرة لطيفة ، ولم تكن المسافة بين البلدة والبيت بعيدة ، فراقبتهما وهما يستقلان سيارته القديمة المكسورة ، وعلى حين فجأة لحظت فى عينى « ميرا » نظرة وقعت من نفسى موقع الوخز بالحديد الملتهب ، نظرة امرأة يتجلى قلبها فى عينيها بادياً لرفيقها فاستقللت سيارتى وتبعتهما عن قرب حتى لا يغيبا عن عينى ، كأنما كنت أخشى أن يهربا إلى مكان بعيد ، ولكنهما قصدا إلى البيت مباشرة ودخلا إلى غرفة الجلوس يضحكان مبتهجين، وأدارا الفونغراف يستمعان إلى نغماته بينما كنت أتمشى فى الحديقة الخلفية أمام نوافذ الغرفة

ولم تلبث نانسى أن دعتنى للدخول إلى المطبخ حيث كانت جالسة وقالت لى فى لهجة عنيفة :

— أرجو ألا تكون ممتزما أن تسمح بزواج ميرا من هذا الفتى ابن المزارع ، إنها إن فعلت ذلك فلن أعطيها فلساً واحداً من ثروتى

فأجبتها فى شيء من الاعتراض وكأنما وجدت فى قولها ما ينعش آمال قلبى :

— إن مجرد زيارة فتاة زيارة عادية لا يعنى الرغبة فى الزواج

فقالت أختى :

— إنه يتردد على زيارتها منذ وقت طويل ، وفى نظرات أحدهما إلى الآخر معان بعيدة ما فى ذلك من شك . وإنى لأود أن أرسلها إلى الكلية حيث تتوافر لها فرص التعرف بشبان أغنياء من أبناء الأسر الكبيرة

ووافقت نانسى على ماقالته فيما يتصل بكريستوفر ، ولكننى لم أكن راغباً حتى فى أن تقابل « ميرا » أحداً من أبناء الأسر الكبيرة ، بل لم أكن ، فى الواقع ، أحب أن ترى أى إنسان على الإطلاق

لم أندهش إذن عند ما جاءنى « كريس » بعد بضع ليال فحيانى بتحية لطيفة على الطراز القديم وخطب إلىّ « ميرا » زوجاً له

فما سمعت قوله حتى أحسست أن الألم يحز فى قلبى حز السكين ، وشعرت كأن الغضب يتحرك فى نفسى . ولكننى حتى فى لحظة ألمى الجارح علمت أن الغضب لن يؤدى إلى نتيجة ما . فقلت فى هدوء :

— إنى لأحترمك يا بنى لمجيئك إلىّ كما يفعل الرجال تخطب إلىّ ابنتى فهل لى أن أسألك إن كنت تحبها ؟

فقال فى صوت هادئ مضطرب تبدو فيه نغمة الجد والشجاعة :

— من كل قلبى يا سيدى

فقلت :

— إذن إن كنت تحبها حقاً فيجب أن تفكر فى مصلحتها ورفاهيتها ، وأظنك ترى أن حياة زوج المزارع ليست بالحياة اللينة المريحة و ...

وقطع الفتى علىّ الحديث فى تحمس وقال :

— سأعد كل ما تتطلبه راحتها ورفاهتها فقد أعطانى أبى حقلاً من الشمير ، ووفاقاً لثمن الشمير الحالى سأحصل منه على مائة من الجنيهات صافية فى الخريف المقبل ، وقد وعدنى أبى بأن يعطينى ثلاثين فداناً من أرضه متى تزوجت . وإنى لأستطيع بمائة الجنيه أن أبنى داراً صغيرة جميلة وإنك لتعلم أننى نجار ماهر

واختفت غنة البهجة من صوت الفتى وتلاشت نظرة السعادة من عينيه لما رأى من سكوتى المتجهم

وقلت آخر الأمر فى لهجة رقيقة :

— إن هناك فارقاً يا « كريس » بين الحب وبين الحياة . فلقد كنت أنا نفسى أعيش فى مزرعة ـ وكذلك كانت تعيش معى فيها أم « ميرا » ولكننى أقول لك فى صراحة إننى كنت أرجو لابنتى حياة خيراً من هذه

فعلا الاصفرار وجهه عند ذلك وصاح صيحة اليائس :

— أعدك بأننى سأحرص الحرص كله على أن لا يكون هناك أى تقصير فى إعداد ما تحتاج إليه ميرا أو تطلبه

وكانت كلماته كأنها القسم المظيم

ومضيت أقول فى شيء من القسوة :

— نريد كلانا أن ننظر فيما يحقق سعادتها ، فإذا

كانت سعادتها الحقيقية منطوية فى زواجها منك فلن أمانع فى ذلك . وأود أن تكون على يقين من ذلك . لهذا يحسن أن تنتظر عامين

وقلت فى نفسى إن أمراً قد يحدث فى أثناء العامين ـ فقد تنساه « ميرا » وقلت فى نفسى أيضاً إننى حقيقة لا أحب لها أن تكون زوج مزارع ، ولكننى كنت أعلم من نفسى أننى لا أحب أن تصبح زوج أى إنسان على الإطلاق

وتكلمت فى اليوم التالى مع « ميرا » بمثل الأسلوب الذى تكلمت به مع كريستوفر ، فقلت إنه ليس من مصلحة الفتى أن يثقل عاتقه وهو لا يزال مبتدئاً بتبعات الزواج والبيت الجديد ... ودهشت أن وجدت « ميرا » على غير عادتها هادئة مفكرة ، وقالت لى آخر الأمر :

— إنك لتعلم يا أبى أنك كنت لى دائماً مدللاً لا ترفض لى طلباً ، وإنى لأعلم أنك تفكر فى خيرى عند ما ترى أن حياة المزارعين قاسية علىّ

وهنا اهتز صوتها بغنة سعادة لم أسمعها منها من قبل وقالت :

— ولكنك ترى أننى قد كبرت منذ أحببت « كريس » فأنا أود أن أعمل من أجله وأن أشاطره حياته ومتاعبه . فما أريد أن ألعب بعد الآن ، ولكننى أريد أن أعيش مع الرجل الذى أحب ، أقيم بيته وأحيطه بعنايتى وأرزق بأطفاله

فشعرت لجأة بأن جبهتى قد بردت وتصببت عرقاً ، وأدركت منزعجاً أننى أواجه أمراً أكبر مما قدرت بكثير ، فلم يكن هـذا الحب حب تعجل وطيش ، ولكنه حب عميق صادق قوى . وبقيت لحظة أسائل نفسى وعوامل الغيرة تتنازعنى : بأى حق أعارض إرادة الله ! وكدت فى لحظة أخرى أن أسلم بالهزيمة . فوا أسفا . . . لو أننى تملكت نفسى قبل أن أرتكب ذلك الخطأ القاسى الشنيع ! !

فبدلاً من أن أسلك طريق الحكمة محترماً إرادة الله قلت متحايلاً :

— إذا كان هذا هو شعورك يا عزيزتى « ميرا » إذن يجب أن تتزوجى منه

وكأن السعادة كائن حى فاضت به عيناها عند ما سمعت هذه الكلمات ... ثم مضيت أقول :

— ولكنك ترين أن عمتك « نانسى » معارضة فى هذا الأمر معارضة شديدة ، وهى تريد أن ترسلك إلى الكلية ، وتقول إنها لن تترك لك فلساً واحداً من ثروتها إذا أنت تزوجت من « كريس »

فضحكت « ميرا » ضحكة قصيرة وقالت :

— تستطيع أن تقول لعمتى « نانسى » أن توصى بجميع ثروتها لأول خنزير صغير تصادفه فى الطريق فما كان أمر هذه الثروة ليهمنى فى شىء على الإطلاق ... وما أظنك تحسبنى أترك المال يحول بينى وبين كريس ، ألست من رأيى فى هذا ؟

وعندئذ لعبت بورقتى الرابحة فقلت :

— سأقول لك يا « ميرا » شيئاً أكره أن أقوله ، فقد اقترضت خمسمائة جنيه من نانسى فى الخريف الماضى عند ما أتممت بناء الجناح الجديد فى البيت وهى تهددنى بأن تأخذها عن آخر بنس ، وأنا الآن فى أزمة مالية فإذا هى نفذت وعيدها خربتنى ، وهى تقصد إلى التنفيذ وأنت تعرفين أنها قصيرة التفكير غير حكيمة التصرف . فإذا أنت صبرت سنتين فقط وذهبت إلى الكلية كما تريدك على أن تفعلى لمدى العامين لا أكثر ، فإننى أعدك بأنك

إذا كنت بعد هذه المدة لا تزالين تحبين « كريس » فسيكون لك ما تريدين . وإنه ليجرح قلبي أن أسألك هذه التضحية يا « ميرا » ولكن في ذلك خدمة كبيرة لي ففي مقدوري أن أسدد دين نانسي في أثناء هذه الفترة

فبقيت ميرا صامتة لحظة طويلة ثم قالت آخر الأمر :

— سأفعل ذلك من أجلك يا أبي

وجرت الدموع من عينيها ولم تستطع أن تملك نفسها دون البكاء وتعلقت بي وكأنما قلبها يكاد ينفجر وقالت :

— إن سنتين تبدوان كأنهما الأبد

وشعرت مرة أخرى بوجوب الترفق مع ابنتي فقد كان حقاً أنني مدين لنانسي ببعض المال ، ولكن كان في مقدوري أن أحصل عليه من طريق أخرى . ولكنني لم أكد أستطيع احتمال فكرة هذا الزواج وكنت راغباً الرغبة كلها في أن أحول دونه بأية وسيلة من الوسائل ، حتى ولو أدى ذلك إلى أن أبعد عني ابنتي التي أعبدها

وجاء « كريس » إلى بيتنا ليودع « ميرا » في اليوم الذي حدد موعداً لسفرها ، فلما مررت بغرفة الجلوس سمعته يقول :

— جئت لأودعك ياحبيبتي فهل تسمحين لي ؟

ووقفت أرقبهما في هدوء ، وكانت ميرا متعلقه به ، وقد أسند وجهه الأبيض ، وقد ارتسمت عليه أمارات الألم ، إلى رأسها الجميل اللامع ، فلم يلبث أن أدار وجهها في رفق ، وقد اضطربت شفتاها حتى وهي تحاول أن تبتسم له ... وسألها في صوت أجش :

— أتخلصين لي دائماً ؟

فهزت رأسها إيجاباً ولم تنبس بكلمة واحدة ، فانحنى عليها وقبل الثغر الجميل المرتجف ، وضمها إلى إلى صدره في شدة كأنما يريد ألا تفلت من بين يديه

وابتعدت عن هذا المنظر ، وقد اهتزت يداي ، لأهدىء موجة الغضب التي طغت على نفسي ، فقد خيل إليّ أن أقتل « كريس » بيدي العاريتين

وكانت « ميرا » تكتب إلي كل أسبوع خطاباً تتصنع فيه الانشراح تصنعاً ، وكنت أدرك من خلال سطورها أنها تشعر بالوحدة ومرض القلب .

وكنت أرى « كريس » من حين إلى حين ، وقد رأيته أحد أيام الآحاد في الكنيسة تصحبه فتاة رائعة الجمال ، فقالت لي « نانسي » :

— يظهر أن حالة « كريس » على ما يرام فهل لا ترى ذلك ؟

ولقد علمت فيما بعد أن هذه الفتاة كانت ابنة عمه

وما أشك في أن « نانسي » قد كتبت إلى ميرا تخبرها بأمر هذه الفتاة . فقد لاحظت على أثر تلك المقابلة أن نغمة جديدة قد تسربت إلى خطابات ابنتي . فقد أصبحت كثيرة الكلام وأشد احتمالاً للظروف المحيطة بها . وقالت إنها قابلت طبيباً شاباً ، وذكرت في أحد خطاباتها أنها ذهبت معه إلى أحد المشارب العمومية وشربا معاً

ولقد فزعت لهذه الأخبار ، ولكنها لما استمرت تكتب عن ذلك الطبيب بالأسلوب العادي اعتقدت أن ما أردته قد حدث . فالظاهر أنها قد نسيت « كريس » .

ولم ألق بالاً إلى ما كان عليه « كريس » من جد في العمل وإخلاص وصبر جميل ، ولقد بدأ الفتى

بالفعل ينشىء بيته الجديد على أجمل وألطف ذوق لا يكون إلا لمحب صادق الحب

وحوالى نهاية السنة تلقيت رسالة برقية من الكلية تنبئنى بأن « ميرا » مريضة ، أو هى على الأصح ثائرة الأعصاب وأنها أعطيت أجازة للعودة إلى بيتها

وفى الوقت الذى تسلمنا فيه هذه الرسالة كانت ميرا قد استقلت القطار بالفعل . ولما استقبلتها أنا ونانسى على المحطة ، كادت ضربات قلبي تقف لما شهدت من منظر ابنتى ، لقد كان لوجهها بياض الموت ، وقد أحيطت عيناها بهالتين تنبئان عن الإعياء ، وقد وقفت مترنحة تكاد تفقد إحساسها

إذن كان هذا الذى أرى هو نتيجة قسوتى الماضية ، لقد انتزعتها من بين ساعدى الرجل الذى أحبته ، فعادت إلينا صفراء مريضة . لقد أخذناها إلى البيت مباشرة وأرقدناها فى فراشها . وأردت أن أرسل فى طلب الدكتور جريفن ، ولكن ميرا عارضت فى ذلك والدموع منهمرة من عينيها وكادت تفترسها نوبة عصبية ، وقالت :

— لا أريده ... أنا . أنا لا أريد أن أراه ... ليس بى من شىء غير تعب قليل فى القلب ... وكل ما أحتاج إليه هو أن أكون فى بيتى وأن ألجأ إلى الراحة والهدوء . . . وبعد ذلك أشفى تماماً ...

ورأيت آخر الأمر أن أهدئها فوافقت على عدم استدعاء الطبيب ، وتحسنت حال ميرا بضعة أيام . ثم حدث ذات مساء أن خرجنا بها فى السيارة للتروض فمررنا بالبيت الصغير الذى يبنيه « كريس » ولا أظن أن الفتى كان يعلم حتى بعودة ميرا ، أما هى فلم تذكره مرة واحدة . . . فلما رأت البيت سألت عن غير قصد :

— بيت من هذا ؟

فسلكت حلقى وقلت :

— هذا ... هذا بيت كريس

ثم أتممت الجملة متقطعة :

— وأظن أنه لا يزال يبنيه لك

فبدت فى عينى ميرا نظرة يأس مفاجئة وقالت :

— لى أنا ؟

ثم قالت فى صيحة كأنها خارجة من قلب مكلوم :

— ولكننى ظننت أن كريس قد تزوج

فسألتها فى لهجة غير المصدق :

— ماذا ؟

فاختنق صوتها وارتجفت يداها وهى تخرج من حافظة أوراقها قصاصة من إحدى الصحف وتقول :

— نعم ، نعم ، انظر ... انظر ... إن خبر زواجه مكتوب هنا فى الجريدة المحلية ، وقد أرسل لى بعضهم هذه القصاصة

وبالفعل كان فى نهر الأخبار من الصحيفة المحلية قطعة جاء فيها أن كريس هاريسون قد تزوج من الفتاة أميل ماسون فى اليوم الثلاثين من شهر ابريل فى كنيسة سنت دافيد الخ . . .

فضحكت ضحكة قصيرة وقلت :

— أوه . . . إن الذى تزوج هو كريستوفر هاريمان . فكل إنسان هنا يسميه كريس أيضاً ... ولقد أخطأت الجريدة فى ذكر اسمه الثانى

وبقيت ميرا لحظة تنظر أمامها وفى نظرتها أقسى معانى الأسى التى رأيتها فى حياتى . فلما نظرت إلىّ كانت عيناها كأنها قد نظرتا إلى السماء نظرة أخيرة ثم أحدقتا فى الظلام . . . وهمهمت باسم كريس فى صوت ينم عن اللهفة الموجعة واليأس . ثم فقدت وعيها ...

ولا بد أن يكون كريس قد سمع بعودة « ميرا » فإنه جاء إلى بيتنا فى اليوم التالى ليزورها ... ولكنها لم ترد مقابلته ... وعلى الرغم من أنه كان يزورنا فى كل يوم فإنها بقيت مصرة على عدم مقابلته

وما زالت مريضة صفراء اللون ضعيفة ... ولكنها لم تقبل أن يعودها الطبيب . وكلما أشرت إلى رغبتى فى استدعائه أصابتها نوبة عصبية ... واضطررت أن أخضع لإرادتها وألا أهتم بأمر صحتها. وكنت أشعر فى أعماق نفسى بالارتياح والسرور لما ظهر من نجاح خطتى فى التفريق بين ميرا وكريس

وحاولت عبثاً أن أعرف شيئاً من أمر علاقتها بالطبيب الذى خرجت معه عند ما كانت فى الكلية ملاحظاً أنه لم يكتب لها قط

وأخيراً جاءها خطاب ، يحتوى على خبر زواج ذلك الطبيب بإحدى فتيات المجتمع فى اليوم الخامس من شهر يونية بعد ثلاثة أسابيع فقط من عودة ميرا إلينا

فما قرأت هذا الخبر حتى استحال لون وجهها إلى شحوب الموت وهمت جالسة فى سريرها وقالت لاهثة :

— لقد وعدنى ... لقد وعدنى

ثم جرت خارجة من الغرفة صارخة

فلما أبديت رغبتى بعد ظهر ذلك اليوم فى دعوة الدكتور جريفن قالت فى صوت خافت مجهود :

— لا بأس ... غداً ! وإنى لأعدك بأن أراه إذا وعدتنى بشىء واحد ... هو أن تدعو كريس لمقابلتى على انفراد فى هذه الليلة ... وليس ما يدعو لأن تعلم عمتى نانسى بشىء من أمر هذه المقابلة

ولقد أردت أن أرفض ولكن اصفرار وجهها أزعجنى إلى مدى أبعد مما حاولت التظاهر به ... وعلى كل حال لم يعد بادياً عليها أنها لا تزال تحب كريس ... ولم يكن لى بد من أن أتخير بين صحتها وبين حبها ...

فقلت فى صوت مخشوشن :

— فليكن ما تريدين

فأشرق وجهها الجميل بنور باطنى ، وهمست وهى تضمنى فى شدة إلى قلبها :

— آه ... يا أبى ... إذا حدث لى أى شىء فاذكر أننى أحببتك دائماً أكثر من كل إنسان إلا كريس ... وإننى أفضل ألف مرة أن أموت على أن أدنس اسمك

لم أستطع أن أدرك ما كانت تعنيه بقولها ... ولكنى أظن أن ضميرى لا بد أن يكون قد تألم فى تلك اللحظة ... فقد شعرت بالخجل من حبها الشديد لى وثقتها الكبيرة بى ... وكدت أفرح فعلاً فى تلك الليلة بدعوتى كريس لمقابلتها

ولما عرضت عليه رغبتى فى زيارته بدا كأنه قد تبدل شخصاً آخر ، فقد أضاءت عيناه الوفيتان بنور العظمة الراسخة ، وكأن نحول الضنى الذى كان ملماً به قد زال عنه فى الحال. وكانت ميرا جالسة يحيط شعرها الذهبى الجميل رأسها بهالة تزيد فى روعة جمالها ... فلما دخل كريس إلى الغرفة ... رأيت فمها يرق وتضطرب شفتاها عند ما ضمها إليه وقبلها فى رقة بالغة

أقفلت الباب ورائى فى هدوء ... وقضيت بقية الليلة أسمع همهمة صوتيهما الخافتين وهما يتحدثان فى ثبات ... وفى الساعة الثانية عشرة فتح الباب على حين فجأة وانصرف « كريس »

وفى اليوم الثانى حضر الدكتور جريفن وكانت ميرا كأنها شبح الموت نفسه ، وكأن عينيها حفرتان تفيضان بماء الهول والجزع ، وقضى الطبيب فى غرفتها وقتاً طويلاً

فلما خرج تبعته إلى سيارته . . . وكان وجهه متجهماً عند ما قال لى فى تأن :

— لم أكن أحب ياجون أن أقول لك ماسأقول

فتولانى الجزع وصحت :

— ماذا بها ... أهو قلبها المريض ؟

فقال الرجل وهو يحول نظره عن مواجهتى :

— نعم ليس من شك فى أن قلبها ليس سليماً إلى الحد الكافى ... ولكن ... ولكن ... ليس هذا هو ما تشكو منه ... فإن « ميرا » ستصبح أماً بعد وقت ما

فوقفت مكانى وكأنما قد شلت من هول الصدمة التى أصابتنى . ولما بدأت الدنيا التى كانت تدور بى تستقر أمام عينى كان الدكتور جريفن قد ذهب ... فالتفت وصعدت الطريق الموصل إلى باب البيت ... وكنت أمشى كالشيخ الهدم المتقاص

وما أحب أن ألقى بمسؤولية ما حدث بعد ذلك على عاتق أحد غير نفسى . وإنى لأظن أنه لولا نانسى لتبينت مبلغ البشاعة التى انطوى عليها خطأى الماضى فلم أرد فى أعماق قلبي أن أعود لمخالفة مشيئة الله... فقد أردت أن أدافع عن ابنتى وأحميها وأعنى بأمرها

ولكن نانسى لم تكد تسمع الخبر حتى أصبحت كمن أصابه مس . لقد كانت نانسى شيخة لا تدرى شيئاً من أمر الحب والضعف الجسمانى . فلو أن أمر الحكم على « ميرا » راجع كله إليها إذن لكان لما فيه رأى أى رأى ...

ولقد قالت وصوتها يزداد ارتفاعاً كلمة بعد كلمة :

— أو بعد العناية التى أحطناها بها فى نشأتها يحدث هذا ؟ إذن كان خيراً لو تزوجت من ابن ذلك المزارع الذى لا يصلح لشىء !

ثم قالت وكأن صوتها تكتنفه ألواح من الجليد:

— لم يبق هناك غير شىء واحد هو أن نجد وسيلة للتخلص من أثر هذا العار

فقلت :

— ولكن فيما تريدين يا نانسى خطراً على ميرا . فماذا تكون الحال إذا أصابها شىء ؟...

فأجابت أختى عابسة فى لهجة حازمة :

— لن يحدث شىء ... فالشيطان يعنى دائماً بأمر نفسه ...

ولكن كل حاسة كريمة فى نفسى — ولا بد من أن يكون هناك أثر للشعور بالكرامة حتى فى نفس أسوأ الناس — حارب الفكرة كلها حرب يأس واستقتال ، وبدأت المعارضة بقولى :

— ولكن أين نذهب... ومن أين آتى بالمال ؟

فقاطعتنى نانسى بقولها :

— خير لك أن تفكر فى الفضيحة ، إذ يرى الناس « ميرا » وبين يديها طفل لا أب له !... اذهب إلى « رولنجز » وقابل مسز كوك فهى تعرف هناك رجلاً اختصاصياً فى هذا الأمر ، وستعطيك عنوانه . وسأدفع أنا الأجر

وهكذا صحبت ميرا فى سيارتى إلى « رولنجز » بعد ظهر ذلك اليوم . وفى الحق أننى لم أتبادل مع ابنتى أية كلمة بعد أن دخلت إلى غرفتها وقلت فى لهجة جافة :

— لقد جرى حديث بينى وبين الدكتور

جريفن ، فأعدى حقيبتك يا ميرا لأننا ذاهبان من هنا .

فقالت ميرا فى لهجة يمازجها الألم الصارخ :

— ولكن لم نذهب يا أبى ؟

فقلت :

— أظنك تعرفين السبب

ثم تركتها وانصرفت . . .

ولما مررنا فى طريقنا بالبيت الذى كان كريس مشتغلاً ببنائه شعرت بأنها قد تقلصت إلى جانبى على حين فجأة ، كأنما قد أصابها ألم أعظم من أن تقوى على احتماله . وأحدقت فى البيت وقد تبدى قلبها فى عينيها كمن ينظر إلى حبيب ميت

وإنه لما يغرينى الآن بعض الشيء أن أذكر ما كان من ترددى وتفكيرى فى إلغاء رحلتنا إلى رولنجز لما شهدت من كآبة اليأس التى بدت على وجه ميرا . وخطر لى لحظة أن أقف إلى جانبها فى محنتها ... كما أنا واثق أن أمها كانت تفعل لو كانت على قيد الحياة ...

ولكن الكبرياء تسربت إلى نفسى فسرقت قلبى ، وحال بينى وبين تنفيذ ما فكرت فيه ما ذكرت من غضب نانسى وآرائها القاسية . ولم أفكر فيما يكون من حياة حفيدى الذى لم يولد بعد

وقصدنا إلى بيت مسز كوك ... ثم قصدنا بعده ونحن ساكتان إلى الطبيب الذى أخذنا عنوانه منها . فقابلنا الطبيب غير مبتسم ولو أننى لحظت أثر الإعجاب المفاجئ الذى بدا على وجهه عند ما رأى جمال «ميرا» الباهت الضعيف

ولما فتح الرجل باب الغرفة الداخلية تنبهت جميع حواس ميرا على حين فجأة . . . وبدت على وجهها آثار العار واليأس والفزع مجتمعة ... فأجفلت متراجعة وصاحت فى صوت موجع :

— لا ... لا ...

ولكن الطبيب أمسك بساعدها فى قوة حتى إذا وصلت إلى الباب تلفتت إلىّ ، ولن أنسى فى حياتى نظرة الفزع والتوسل التى ارتسمت على وجهها الجميل الحزين عند ما سحبها الطبيب فى لطف إلى داخل الغرفة وأغلق الباب وراءها

وبعد بضع دقائق خرج الطبيب وحده . وقال : إنه تحدث تليفونياً مع الممرضة التى تساعده فى مثل هذه الحالات ... وطلب منى أن أذهب لقضاء الليلة فى أحد الفنادق وأعود إليه فى الصباح ، ثم أبدى رغبته فى أن أدفع له أجر العمل الذى هو مقدم عليه

وبعد أن تركت ابنتى العزيزة ، بين يدى ذلك الرجل الفاسيتين ، لتواجه وحدها أكبر مأساة تواجهها المرأة فى حياتها ، لم أذهب إلى الفندق

وبدلاً من ذلك مضيت أتجول فى الشوارع مكسور القلب حزيناً . وبدأت السماء تمطر ولكن قطرات الماء كانت تتساقط على كتفى المنحنيتين فلا أشعر بها ... لقد أرى نفسى فى ذلك الوقت على حقيقتى — رجلاً قاسى القلب ، متحكماً عنيداً ... أنانياً شرير الأنانية لأنه كان يخفيها وراء ستار من الشفقة المصطنعة

ولو لم يكن الطبيب قد بدأ عمله الآثم لكنت وقفته فى الحال . وقلت فى نفسى إن هذا الدرس أقسى وقعاً علىّ منه على « ميرا » ... على أننى سأحوله إلى صالحها على كل حال ، وسأمكنها من التمتع بحبها وبالحياة التى تريدها مهما كلفنى هذا الأمر من ثمن

ولما انتهى بى المطاف إلى الفندق كان أول ما عملته، ولو أن الليل كان قد انتصف، أن اتصلت بالطبيب تليفونياً

وكانت الممرضة هى التى ردت على ، وكان صوتها مضطرباً لاهثاً وهى تقول :

— يا لله لقد كنا نحاول البحث عنك ! ويحسن أن تحضر فى الحال . . . لماذا لم تقل لنا إن قلبها ضعيف ؟

لم أنتظر لأسمع أكثر من ذلك ، فقد استولى علىّ خبل الخوف فجريت إلى الشارع عارى الرأس لا أرتدى معطفى ، وكان الطبيب والممرضة يعالجان ابنتى المتجمدة فى عنف . والله وحده هو الذى يعلم مبلغ ما استولى على قلبى من الفزع عند ما رأيت ذلك الوجه الساكن الجميل

وتحرك جفناها على حين فجأة وانفتحا ، فابتسمت لى ابتسامة حلوة وقالت :

« مرحى يا أبى إنى لسعيدة بحضورك . . . لقد أردت أن أقول لك كل شىء . . . لقد خبرت كريس فى تلك الليلة بكل ما حدث ، وقد فهم ... وأريد منك أن تسامحنى أيضاً ... »

أهى التى تسألنى العفو ! بينما أنا الذى يجب أن أركع أمامها خجولاً ذليلاً ! أتسألنى العفو وأنا الذى حطمت حياتها بل وقتلتها ؟

ومضت تقول فى صوتها العذب الخافت :

« لقد حدث هذا بعد أن قرأت خبر زواج كريس فقد بدا لى أن لم يعد فى الوجود ما يهمنى ، وصحبنى الطبيب الذى كتبت لك عنه ، عدة مرات فى سيارته . وفى إحدى الليالى . . . وكنت شبه المجنونة من أثر التعاسة وانكسار القلب ... خرجنا فى جولة ، وكان يواسينى بما فى وسعه من لطف ، وأفرغت له كل ما فى نفسى وأطلعته على قصتى كلها . فوقف السيارة ناحية فى الطريق الخاوى ومضى فى مواساتى وملاطفتى بروح الأخوة الصادقة ، وكان داخل السيارة المقفلة دافئاً ، فسألنى أن أسند رأسى إلى صدره ، وأحاول النوم لتهدأ أعصابى . ونمت فعلاً لحظة قصيرة ، وعلى حين فجأة استيقظت ... و... و... »

واضطربت « ميرا » متشنجة وأمسكت يدى بشدة وقالت :

« آه ، يا أبى ... لقد جاهدت فى دفعه عنى ، ولكنه كان مجنوناً فى شهوته ، وكنت فى ضعفى حياله كالفأرة حيال القط . فبكيت وتوسلت إليه ... ولكن على غير طائل . . . وبعد برهة أوصلنى إلى الكلية ... وبدا عليه عندئذ أنه قد ندم على ما فعل وقال: إنه إذا حدث أى شىء فسيتزوجنى . ولكننى لما عدت إلى البيت وكتبت له ...كان ... ما عرفته أنت ... لقد تزوج من الفتاة الأخرى »

وتقطع صوتها ... وبدا فى عينيها الوديعتين وميض غير دنيوى ... ومدت يدها آخر الأمر لتسحب رأسى فتقبلنى قبلة الوداع الأخيرة ، وكانت قبلة المأساة الهائلة ... وكانت تلبس فى أصبعها خاتماً بفص ميلادها ، فلما مدت يدها صدم نتوء الخاتم جبهتى فجرحها ، ولكننى لم أشعر بشىء وهمست لى فى رقة : « قل لكريست إنى أحببته حتى اللحظة الأخيرة »

وزفرت زفرة خفيفة رقيقة كانت هى نفسها الأخير ...

وبعد لحظة أبعدونى عن فراشها . وبدا على الطبيب والممرضة أنهما أصيبا بضربة مفزعة، ولكننى

لم أشعر نحوها بشيء عن الشفقة ، لأنني أدركت أنه لو لم يكن هناك أناس من أمثالهم يعملون مثل عملهم للحصول على المال ، لبقيت ابنتي المحبوبة على قيد الحياة ... ولا يحسبن أحد أنني لم أدرك أنني كنت اللوم قبل أي إنسان آخر ... ولكن كان في المقدور أني أنفذ فكرتي الجنونية ... وعرفت على حين فجأة ما يجب على أن أفعل لأنقذ على الأقل حياة طائفة من الفتيات الأخريات من أن يصيبهن مثل ما أصاب ميرا ...

لقد أسرعت في طريقي إلى مركز البوليس ، وهناك اعترفت بكل ما حدث .

وما أحب أن أصف ما بدا في المحاكمة من فزع ومن حزن . ولقد حكم على الطبيب بالسجن خمس سنوات ، وكذلك سجنت الممرضة ، ولم أبال بما حدث لي ، فلقد كنت أعلم أن السجن خير جداً مما أستحق .

والآن أتمنى الموت ... ومع ذلك أخشاه ... لأنني لا أدري بماذا أجيب خالقي إذا سألني عن جريمة القتل التي اقترفتها ، نعم ، إن يدي ملطختان بدم ابنتي ، كما لو كنت أنا الذي قتلتها بنفسي .

لقد قتلتها بكبريائي وغيرتي وتحكمي ... وأنا الآن شيخ متهدم ... أعيش أنا ونانسي في وحشة كئيبة تعيسة . وحاولت ننسي مرة أن تتكلم عن « الجزاء العدل » ، ولكنني وقفتها بنظرة جمعت كل معاني الغضب والحقد ، فعقد لسانها في الحال ولم تنبس ... وإننا لنعيش صامتين لا نتحدث بشيء من ذلك الذي يفيض به قلبانا ...

وكريس ؟ إنه لا يخرج أبداً مع أية فتاة ... فقد مات قلبه هو أيضاً مع آخر نفس لفظته الفتاة التي أحبها . ولم يتمم قط بناء البيت الذي كان يعده لها . فما تم منه يقوم هناك مذكراً بالأحلام السعيدة التي لم تتحقق ، وبالأمل والإخلاص والحب وتلك العواطف التي وطئت تحت الأقدام إرضاء للغيرة الوحشة التي تملكت نفس أب أناني متعجرف .

وإني لأحمل في جبهتي آثار جرح أتحسسه من حين إلى حين ... فيذكرني بحنان تلك الطفلة التي مدت يدها لتعانقني في لحظتها الأخيرة وهي لا تدري بأنني المسؤول الأول عما أصابها !

على أن في قلبي جرحاً أكبر من جرح جبهتي خلفته السعادة الضائعة إلى الأبد ، والثقة التي قوبلت بالخيانة ، وما استولى على نفسي من يأس لا أمل وراءه ...

وقد يلتئم جرح جبهتي على مر السنين ... ولكن الموت وحده هو الذي يشفي جرح قلبي !

عبد الحميد حمدي

السكرتيرة المؤقتة

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ ع . ا

— ١ —

كانت علائم القلق بادية على وجه المستر جوفرى بلاك لأن تجاريبه القليلة فى استعمال الآلة الكاتبة « التايبرايتر » لم تمكنه من القيام بأعمال سكرتيرته الغائبة لمرضها . وكانت الخطابات التى يريد إرسالها اليوم هامة ومستعجلة فحاول مرات أن يكتبها بنفسه ولكن النتيجة كانت واحدة فى كل مرة ، وهى أن يخرج الورقة من الآلة الكاتبة ويمزقها ويلقى بها على الأرض . وأخيراً تناول التلفون وطلب رقماً ثم قال : « شركة سناردل ! أرجو أن تبعثوا إلى بسكرتيرة مؤقتة قادرة على استعمال الآلة الكاتبة مدة غياب سكرتيرتى »

ثم وضع السماعة وجلس منتظراً قدوم الكاتبة

وكانت الآنسة مورتون سكرتيرة هذا الرجل المالى منذ سنوات عديدة، قد أرسلت إليه فى الصباح أنها ستنقطع لمرض أصابها عدة أيام ؛ فدهش جوفرى وتضايق لأنه لم يلاحظ أى شىء بالأمس على صحتها . ولم يكن ليهمه شىء من أمرها سوى أدائها عمله . وكانت من هذه الوجهة موجبة لرضاه واقتناعه

وبعد مدة طويلة من الانتظار سمع طرقاً على باب مكتبه فأذن للطارق ففتح الباب ودخلت فتاة تسير على مهل وعليها ثوب وقبعة على آخر طراز فى الزى وعلى أحسن ما يكون من الأناقة ، فاسترعت نظره بجمالها وحسن هندامها ، وكان يهش لها ولكنه سرعان ما عاد إلى التقطيب وقال فى نفسه : « إنها ليست إلا واحدة من هؤلاء اللواتى لا يهمهن غير حضور الحفلات الراقصة ومعاقرة الخمر »

وقالت الفتاة وهى تنظر إلى بطاقة فى يدها :

« سعدت صباحاً . ألست المستر بلاك ؟ »

فقال : « بلى، وأظن شركة سناردل أرسلتك »

ثم أشار لها بالجلوس فقالت الفتاة وهى تجلس على المقعد الذى أشار إليه : « إننى آسفة لتأخرى فقد قضيت مدة طويلة فى البحث عن هذا المكان لأن العنوان الذى أعطى لى كان خطأ »

ثم ابتسمت ابتسامة تدل على اضطراب الأعصاب وقالت : « الأولى أن أبدأ فى العمل حالاً لمجيئى متأخرة »

فوقف المستر بلاك وقادها إلى غرفته فنزعت القبعة والمعطف . وأخذ يملى عليها الخطابات وهى تكتبها على الآلة الكاتبة

وكانت الآنسة بريندا فارلى تختلس النظرات إلى مخدومها الجديد . وقد كانت الصورة التى تتخيلها له قبل مجيئها أنه رجل أشيب الرأس على أنفه منظار سميك الزجاج ينظر إليها بعينيه الضعيفتين غير نظرة الاستحسان . وكانت مغتبطة فى أثناء استراقها النظرات بأنه ليس كما كانت تتخيله . فهو أنيق تبدو عليه علائم الظرف والرقة

وقال بعد أن فرغت من كتابة الخطاب الأول :

« هل لك معرفة بأعمال السماسرة ؟ »

فقالت : « كلا ولكنى أستطيع أن أفهم النقاط الأساسية من أعمالهم بعد أيام قليلة »

« قال : إذا تعذر عليك فهم أى شىء فى الخطابات المقبلة فإنى مستعد لإخبارك به »

ثم أخذ يملى عليها خطاباً ثانياً

وبعد أن فرغت من كتابة الخطابات أعطاها بياناً بالعنوانات وطلب إليها أن تكتب الظروف

وفى أثناء قيامها بهذا العمل كان يراجع الخطابات ويوقع عليها . وعلى حين فجأة طلبت إليه سكيناً لتصلح به الآلة الكاتبة لأن فى جزء منها قطعاً من فضلات الورق تمنعها عن الحركة

قال بلاك وهو يقدم إليها السكين : « إن هذه الآلة ضيقت أخلاقى قبل مجيئك ، وقد مزقت عدة أوراق فى أثناء محاولتى كتابة خطاب واحد »

فقالت : « إن عيبها بسيط أظننى أصلحته »

ثم قام المستر بلاك إلى مكتبه تاركاً للفتاة أعمالاً أخرى ، وأشعل غليونه وجلس مغتبطاً بأن أعمال مكتبه تسير الآن على خير نظام

لكن غياب سكرتيرته فجأة قد شغل خاطره لأنها اشتغلت عنده منذ ابتداء عمله ، وهى ملمة بكل ضروب العمل مثل إلمامه به . ولكن السكرتيرة الجديدة ستشغل جزءاً كبيراً من وقته فى تعليمها وتدريبها

وكان جوفرى بلاك فى الخامسة والثلاثين من عمره ولكن علمه بالنساء فى هذا العمر لم يزد على علمه بهن وهو فى الخامسة والعشرين

ولم يكن يهتم بهن كثيراً وإن كان لا يستطيع الاستغناء عنهن بتاتاً . وكان ينام بمكتبه إلا فى الأيام الأخيرة من كل أسبوع فيذهب إلى الريف حيث يقيم مع أمه .

— ٢ —

كان الأسبوع الثانى من المدة التى قضتها ريندا عند المستر بلاك أسبوعاً ميموناً لزيادة إيراده فيه وزيادة الإقبال على عمله . وكان يعلم أنه مدين بجزء كبير من هذه الزيادة لسكرتيرته الجديدة لحسن طلعتها ولنشاطها . وقد أدهشته سرعة تمكنها من العمل

وفى هذا الأسبوع وصل إليه خطاب من الآنسة مورتون تخبره فيه بأن طبيبها أمرها بعدم مزاولة العمل أسبوعين آخرين وأنها تأسف لما قد يترتب على غيابها من تأثر عمله . فرد عليها مؤكداً أن أعماله سائرة كما يريد بمساعدة سكرتيرته المؤقتة وأنه يرخص لها بكل أجازة تطلبها إلى أن يتم شفاؤها

ثم خطر له بعد إرساله هذا الرد خاطر فجائى فأضمره . ولما قابل سكرتيرته المؤقتة بعد ظهر هذا اليوم قال لها وهى تقدم إليه فنجاناً من الشاى : « إن سكرتيرتى أرسلت إلى اليوم بأنها مضطرة إلى الغياب أسبوعين آخرين فأرجو أن توافقى على البقاء بدلاً منها هذه المدة »

وكأن ريندا إلى هذا الحين لا تعلم أن للمستر بلاك سكرتيرة أخرى ولا أنها جاءت لتشتغل عنده بصفة مؤقتة ، فاختضب وجهها احمراراً وقالت : « إننى مسرورة كل السرور من وجودى هنا ولكن ... »

قال : « ولكن ماذا ؟ » فأجابت : « ولكن إذا كنت تستطيع استخدام غيرى فإنى أفضل ذلك »

ثم بدت عليها علائم التفكير ، وبدت فى الوقت نفسه على بلاك علائم الارتباك وقال : « لماذا ؟

ما الذى حملك على الظن بأنى أريد اختيار سواك ؟ »

قالت وقد سرها أن تراه مرتبكاً بهذه المناسبة :
« لا أعرف، ولكن الشاى يكاد يبرد »

ثم تركته وذهبت إلى غرفتها فملت ثغرها وعينيها ابتسامة سرور لأن اللهجة التى كان يتكلم بها بلاك عند ما عرضت عليه ترك خدمته كانت لهجة تشف عن الحب الذى ترجوه ؟

وكانت تسائل نفسها هل كفايتها وحدها هى السبب فى إعجابه بها

وتسرع فتجيب نفسها بأن لديها ميزات أخرى أكبر من ميزة الكفاية وقالت فى نفسها : « إذن فالمدة التى أقضيها عنده هى شهر واحد . إننى أشعر الآن بأنه عزيز »

ثم استأنفت عملها ، وفى هذا الوقت كان المستر بلاك ينظر إلى فنجان الشاى ، ويود ألا يشربه لأن شهيته كانت منصرفة عنه ولكنه كان يقول فى نفسه: لا بد من شرب الشاى حتى لا تظن أننى لم أستطب صنعه ثم تجرع منه جرعة على استكراه

وهنا دق جرس التلفون ، وقال بلاك بعد سماع ما ألقى إليه : « يوم الإثنين ؛ حسن جداً ! سأرتب أعمالى على ذلك » ثم ألقى السماعة وذهب إلى غرفة سكرتيرته فقال : « إننى سأسافر وأعود يوم الإثنين فمندك أجازة اليوم وغداً ، ولكن فى صباح السبت تحضرين ، وإذا طرأ عمل عام فإنى سأملى خطاباً على آلة « الديكتاتفون » هل تحسنين استعمال هذه الآلة الشيطانية ؟ »

قالت : « نعم وقد استعملتها كثيراً قبل الآن وإنى أشكرك على هذه الأجازة »

فقال بلاك : « إنك تستحقينها . أما هذه الآلة فطريقة استعمالها كطريقة استعمال الفونغراف وسأملى عليها ما أريد كتابته من الخطابات فأديريها يوم السبت »

وفى صباح السبت جاءت بريندا إلى المكتب فوجدت آلة الديكتاتفون وبها أسطوانة فعرفت أن بلاك جاء وأملى عليها رسالة وأدارت الآلة وجلست لتسمع وتكتب . وقد بدأ الخطاب إلى محل تجارى ، ولكن فى وسطه انقطع الصوت العادي ونطقت الآلة بصوت خافت كصوت الذاهل الذى يناجى نفسه « إننى لم أر أجمل من شعرها عندما تنعكس عليه أشعة الشمس ، ولكننى إلى الآن أتهيب من النظر إلى وجهها ولا أعرف لون عينيها أأزرق هو أم عسلى ؟ »

ثم عادت الآلة بعد ذلك إلى إتمام الخطاب التجارى

ضحكت بريندا وخفق قلبها خفوقاً غريباً من تخلل هذه الجملة للخطاب ووثقت من أن المستر بلاك كان شارد الذهن فنطق بهذه الجملة وهو لا يدرك أن الآلة ستسجلها عليه وقالت وهى تضحك : « إنها بلا ريب آلة شيطانية كما سماها »

وبعد أن أتمت العمل الذى كلفت به ذهبت

وفى صباح الإثنين جاء بلاك وسألها هل أرسلت الخطاب الذى أملاه على الديكتاتيفون فقالت : « نعم ولكننى أشك فى بضع كلمات منه . ولذلك أريد أن أستوثق منها »

ثم طلبت إليه أن يسمع صوت نفسه فى الآلة الكاتبة فاستغرب منها هذا الطلب ولكنه أجابها إليه

وجلس فأدارت الآلة وهو يضحك من إصرارها على ما تطلبه وهى تنظر إلى وجهه لترى ماذا يظهر عليه من التأثيرات ، فرأته يمتنع فجأة عن الضحك وتعلو وجهه حمرة الخجل فتركت الغرفة فى سكون

فأسكت الآلة وتبع بريندا فوجدها واقفة وظهرها إليه فناداها باسمها وقال : « إننى أريد أن أشرح لك الأمر »

لكن لسانه تلعثم فلم يعرف ماذا يقول بعد ذلك ونظرت إليه فقال : « إن فى الأمر غلطة وإننى لم أقصد أن تسجل الآلة هذه الجملة »

قالت الفتاة بصوت رقيق : « لكن هذا ليس هو البيان الذى أريده . ولكن من هى »

فقال وقد زاد ارتباكه : لا أريد أن تعرفى

قالت الفتاة وصوتها يتهدج : أظننى قد عرفت

وكان جوابها مزيجاً من الابتسام والبكاء . وعادت إلى الكلام فقالت :

— ولكن لِمَ لَمْ تطلب يد هذه الفتاة ؟

فأجابها بصوت خافت : لم أجرؤ على ذلك إلى الآن ...

فقالت بصوت غريب : ولماذا لا تحاول يا مستر بلاك ، فإنها قد لا تبدى أى اعتراض .

ثم رفعت وجهها وحدقت فيه فقال وهو يبتسم :

— إنهما زرقاوان . أتقبلين أن تكونى زوجتى أيتها العزيزة ؟

فقالت وهى تبتسم ابتسامة تنم على السعادة :

— نعم ، ولكن هل هذه الآلة شيطانية ؟

وسواء كان بلاك يرى أن الآلة شيطانية أو يراها غير ذلك ، فإن للشرح والتفسير أوقاتاً ، ولغيرها أوقات أخرى . وقد رأى بلاك أن هذه اللحظة من النوع الأخير .

ع . ا

الى حماة النيل

إنقـــاذ العلم

للكاتب الفرنسي « أوكتاف فوييه »

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

عند ما انتهى العشاء فى الليلة الفائتة تفرق جمعنا فى حديقة القصر ، نستروح نسيم الليل اللطيف السجسج ، العبق بأريج الزهور الفواحة ورائحة أصناف اللفافات الفاخرة . وأخذ جميع الضيوف يتسامرون فى همس كأنما هم يحرسون ألا يعكروا هدوء الليل المطمئن الرائع ... وكان الجو صاحياً جميلاً . وقد أترع القمر الساجى أرض الحديقة الزهراء بفيض من نوره الشعرى الساحر . وكان للبحيرة الصغيرة نصيب من نوره الفضى فانعكس عليها وتكسر ، فأمسى حبات من الماس تتألق على صدر كاعب مرمرى يترجرج ؛ وفى وسط البحيرة راحت بجعتان تسبحان فى هدوء جميل بثوبيهما الأبيضين الناصعين . وكان زميلى فى تلك الليلة الفائتة هو القومندان (ديبلى) وقد أخذنا نطرق شتى الموضوعات ونخوض مختلف الأحاديث ونحن نسير الهوينى بين البحيرة اللألاءة والأشجار الشم فى الطريق التى يجثم عليها خيال القصر المتيد . وبعد فترة صمت قصيرة قلت للسيد ديبلى :

— إن هذه الليلة الرائعة الجميلة لتذكرك ولاريب يا سيدى القومندان ببعض أحداث الحرب .

فتوقف عن المشى فجأة وقال :

— هل أوتيت ملكة قراءة الأفكار؟

— بل إني لا أكاد ألمس الحقائق إلا بجهد وصعوبة . ولكن لم هذا السؤال يا سيدى ؟

— لأنى كنت إبان سؤالك أحلق فى جو من ذكريات موقف صعب عند ما كنت فى الجيش . كانت ليلة كهذه الليلة فى صمتها وهدوئها لا فى جمالها وروعتها .

— أثمة ما يمنعك أن تقص على ما حدث ؟

فتردد قليلاً ثم تنفس بعنف وقال :

— أوه ! يا لله ! . . . أجل ... كنت آنذاك على مقربة من « متز » . فى تلك الليلة ، ليلة السابع والعشرين من أكتوبر ، أوفدنى القائد العام أن أقف إحدى فرقنا — لا يحضرنى رقمها الآن — وأبلغها بعض الأوامر الحربية . وكان علىّ بعد إذ أبلغت الأوامر أن أكر عائداً من حيث أتيت ، بيد أنى اضطررت أن أتريث قليلاً ريثما يستعيد جوادى بعض ما فقده بتأثير الجهد والتعب ، وكنا حينذاك نعسكر فى سهل منبسط فسيح على كثب من قرية « كولمبى » كما أذكر . وسكنت العواصف الهوج — التى كانت تهب فى تلك الأيام العصيبة — لبضع ساعات قلائل . وكان القمر يرسل أشعته الشاحبة على البرك والمستنقعات المتبثة فى تلك الأرض . وهنا يتفق خيالى وخيالك : هذه الجنة الفيحاء التى نسير فيها الآن تذكرنى من ناحية واحدة بالمستنقعات والبرك ، من ناحية القمر الزاهر بأشعته الساكرة الناعمة ، أما البجع الذى ترى فيذكرنى بفرقتى وهى ساكنة لا تتحرك

بأثوابها البيض النواصع ...

أقول توقفت الفرقة عن الهجوم شاهرين السلاح فى انتظار أوامر جديدة ، وقد أوقدوا ناراً أحاط بها بعض الضباط يتجاذبون أطراف الحديث فى همس وهم يتلفتون هنا وهنا حذر العدو . وسرت الشوائع منذ الليلة المنصرمة ، أن الجيش على وشك الهزيمة والتسليم ، وكان قائد الفرقة وهو كهل ذو شارب كث كبير ، يتفقد المكان بنفسه جيئة وذهوباً وهو ممسك بالأوامر التى بَلَّغْتُه . وأقبل علىّ بغتة ثم أمسكنى بعنف من ذراعى وقال بلهجة المستفز :

— كابتن ! إن لى حديثاً معك . لقد قدمتَ من لدن القيادة العامة ، ولا مرية أنك تعلم أكثر مما نعلم . هل ما يدور عن هزيمتنا صحيح ؟

— هذا ما تلوكه الألسنة يا سيدى . وهذا ما أعتقد أنا أيضاً

— أنت تعتقد ذلك ! كيف تصدق يا رجل مثل هذا الخبر الغريب ؟

ثم أطلق ذراعى فى عنف أيضاً ، وأنشأ يروح ويغدو فى عصبية واضطراب . ثم توقف ومضى يتفرس فى عينىّ وقال :

— وهل سنؤخذ أسرى فى يد العدو ؟

— يؤلمنى أن أقول ذلك يا سيدى الكولونيل وساد الصمت ثانية ، وبدا كأنما استغرق فى تفكير عميق . ثم رفع رأسه وقال بصوت غريب :

— وما هو مصير الأعلام ؟

— وما يدرينى يا سيدى الكولونيل ؟

فتركنى مرة أخرى وراح يذهب ويجىء بضع دقائق ، ثم اتجه نحو الجنود وصرخ قائلاً :

— العلم !

فتقدم نحوه حامل العلم فسلم الكولونيل العلم بيد وأشار بالأخرى إلى قارع الطبل أن يجمع الجنود . فدوى صوت الطبل

ورفع الكولونيل العلم فى الهواء وسار قدماً نحو النار حتى انتهى إليها . فخفض العلم ومس به الأرض ثم نظر إلى دائرة الضباط ونزع قبعته ، فحذا الجميع حذوه وظلوا صامتين كأن على رءوسهم الطير

وتردد الكولونيل قليلاً . وقد رأيت شفتيه ترتعدان ارتعادا ، وكانت عيناه تتوهجان كجمرتين صغيرتين من شدة الألم والعذاب ، وهو ينظر إلى قطعة القماش المقدسة رمز الوطن وعنوان الفخار بيد أنه عقد العزم أخيراً على ما نوى

وجثا على ركبتيه ، ووضع العلم فى النار ، فخرج لسان من اللهب من سرارة النيران فأبدى وجوه الضباط الشاحبة ودموع بعضهم المنبجسة الغزار ، وصاح الكولونيل :

— تفرقوا !

وللمرة الثانية دوّى صوت الطبل المبلل بماء المطر ، ثم وضع الكولونيل قبعته على رأسه وأقبل يسير نحوى متثاقلاً كمن يرزح تحت عبء السنين ثم قال بصوت أجش :

— كابتن ! إذا عدت إلى هناك ، وإنك لعائد ، فحدثهم بما رأيت . هيه ! أستودعك الله

فسمعتنى أقول له :

— أتسمح لى ياسيدى الكولونيل أن أعانقك ، فجذبنى إلى صدره بقوة ومضى يربت على ظهرى بيده ثم قال :

— آه يا بنى المسكين ! ... يا بنى المسكين !

وأدار السيد ديبلى عنى وجهه حينما فرغ من قصته ، فسمعت نشيجاً ، فأمسكت بذراعه فقال :

— آه إنك ولا ريب تدرك ما يكابد المرء من آلام فى مثل تلك اللحظات .

محمد عبد الفتاح محمد

تسلية زمار

للكاتب جورج ميريديث

بقلم الأديب شفيق ذهنى

لنترك جانباً نظم الحياة وأوضاعها الفاسدة . دعنا ننشق عبير الجزيرة المسحورة ، فثمة ترقد المروج الذهبية ، وثمة تجرى الجداول كالنضار ، وثمة يتراءى الذهب الوهاج على سوق أشجار الصنوبر والشمس تنحدر صوب الأرض مجتازة الحقول والأمواه

الشمس تنحدر صوب الأرض فتستقبلها الحقول والأمواه بصيحات كأنها رنين الذهب السبيك ، وإذ تنزغ من خدرها تسبقها بشائرها فتلمس أوراق البلوط والدلب وشجر الزان الزاهى الأخضر ، وسوق البلوط القانية تاركة آثاراً متلألئة على الشطئان المشوشبة حيث تميل كؤوس شجر الديجيتال وتتجول عساليج العوسج بين الحشائش الكثيفة المخضلة

ويستقر نفض الأشجار ، ومن ورائه تنبسط الأرض بظلالها الوارفة المديدة عبر أشجار الخلنج ، وعلى ذرى التلال ، حتى تضع الشمس أناملها الرقيقة الوردية ، وترقد حيال أبعد حدود السحابة الشرقية الصاعدة

ألا ما أعذب الخلوة البريئة فى الأحراج حين ينساب إليها الشعاع فى خفة ورشاقة ، فتنحرف الطفاوات عن الدروب والمسالك وهى تهتز وتتلون بارتجاف ظل الصنوبر القرمزى الدافق العبق ومهاد الطحالب الخفية والسرخس الزغبى

ويهبط ذيل السنجاب الرمادى حيناً ثم لا يلبث إلا قليلاً حتى يقفز ، وينطلق طير الغابة منبعثاً من أغوارها فى صمت ، وتتحرك الأشياء من سكون إلى سكون

وتبهج ومضات البهاء والرواء المنبعثين من عل ، ومن حول القلوب الرقيقة الحساسة ، فالغرب الملتهب ، والمرتفعات القرمزية تهمى بروعتها على الأشجار الملتفة

كل ذلك آية من آيات البهاء يبعثه الجمال العميق المقيم ، والنشوة العلوية التى لا تدين بالطاعة للمجد الناشر ذوائبه هناك ، فمن هذه النشوة يقفز الحمل الصغير وقد استخفه الطرب ، وتنتشى أرواح الرجال

اهبطى أيتها الشعاعات العظيمة ، وضمى الخليقة بين ذراعيك بنيرانك الفياضة ثم اذكرينا ، فأنت وأضواء الرذيلة المترفة الغارقة فى بحر لجى من النعيم التى تتقدم نحوك ، والمفاتن السماوية ، ما أنتن جميعاً إلا سادة وعبيد للقناعة التى تعتلج فى قراراتنا ، وتغور فى أعماقنا

لأن هذا مثوى السحر ومهبط وحيه ، فهنا يتقابل أمير الجزيرة وأميرتها بعيدين عن الشطئان المدوية الصاخبة ، وهنا يجلسان كالبلبلين العاشقين ، وفى العيون والآذان والأيدى يسكبان من روحيهما كنوزاً زاخرة لا تنفد

دورى ! أى عجلات الدنيا الطاحنة ، إن مواخر الجوارى وهى تنزلق على صفحات اليم فى هدوء ، والأنات التى خلقتها النظم وصاغتها للبشر ختمت

على قلوبهم فجعلتهم لا يفطنون لساعات الجذل الحقيقية ، فترتفع الحناجر مرددة شكاياتها للعالم ، ولكنك وا أسفاه لا تسمعين هنا

إنه يناديها باسمها لوسى ، وهى وقد تملكها الخفر رغم شجاعتها تناديه باسمه ريتشارد ، وهذان الاسمان هما مفتاحا الأنغام العجيبة التى تترنم بها الملائكة فى السماء

لوسى ! حبيبتى !

ريتشارد !

وهناك خارج نطاق الدنيا وعلى حدود الأحراج ينفخ الراعى الصغير لحواء الساهمة الحالمة فى مزماره البسيط .

إن آلة الحب الموسيقية جد قديمة وضعيفة ، وليس لها إلا أن تترنم بنغمة أو نغمتين ثم يحتويها الفناء ، ولكنك ترى الساحر الماكر يحرك أوتارها ويهزها أكثر مما تحتمل

لم يطرقا حديثاً آخر إلا لماماً ، إذ كان الفضاء الذى يحتويهما والضوء الذى يترامى عليهما ، أشبه بنور يتراقص فوق زبد الأمواج المصطفقة وهى تلمس إحساسها المتبادل ، ثم لا يلبث حتى ينشر ذوائبه ويتسع آنة أن ترتفع النغمات الجائحة ، فتتجاوب نفساها ، ويصاغ من أناتهما الحانية الرقيقة نغم واحد يرددانه

لربما أجاد الحب إيقاع أنغامه ، لأنه أشجى نفسيهما وأثارها ، فأمسيا متشوقين للهناءة المدخرة فى روحيهما كزاد طبيعى

لقد رنق مشاعر الرجال والنساء وصقلها ثم فتنهما بآلته الموسيقية ، فكأنما أسكرهما وأشاع النشوة فيهما بمزماره ، أو أثار كوامن فؤاديهما ببوقه ، أو لربما أدار لهما فرقة موسيقية كاملة طربا لها ، وهو لا يزال بعد الساحر الماكر

وتملكتهما نشوة ما بعدها نشوة ، فعبا من سلاف السعادة عبا ، مع أنها نغمات موسيقية أرضية مدوية ...

ثم غابا عن الشعور ، وتاها فى عالم مسجور ، فلم يدريا شيئاً عن كنه المباهج الأولى الفائقة الحد التى تنبجس من الحواس المرهفة عندما ترتفع النفس وتحلق الأرواح السامية فى وجد وشغف لتطوف متجردة غير منظورة ، حساسة لا حد لإحساسها

لقد وضع بين أيديهما غذاء سماويًا فأكلا منه وتزودا ، وطفقا يعبان من رحيق كبير الآلهة حتى ارتويا ... وهكذا جلسا إلى مائدة يزرى خبز الحب البسيط وماؤه عليها بأشهى المآدب وأحفلها بأطايب الآكال والأشربة

اسكب الحب ألحاناً من مزمارك أيها الراعى الصغير ، وأنت أيتها الملائكة النورانية انشرى أجنحتك وارفعى بالغناء أصواتك

لقد فاضت نفساهما بما يسمو على الفلسفة ، وبلغت فطرتاهما آماداً لا يدركها العلم ، إذ صيغا لجنات الخلد صوغاً

— إنها لنغمة سماوية ادخرها الله لى

هذا ما هتف به هاتف كل منهما وهما يتعانقان ، فلقد تعلقت خواطرهما بأهداب نسيج واحد من التآلف والتوائم ، ولكم أضناءا ما تصرم من سنين ، وصبغا مستقبل حياتهما برائع الألوان

— أنت لى كما أنا لك

— لقد خلق أحدنا للآخر

وما لبثا أن دار فى خلدهما أن ملائكة السماء منهمكة فى إعداد عشهما ، وأنها باذلة قصارى جهدها للتقريب بينهما

يا للنصر ! ويا للعجب ! ها هى ذى الملائكة الأبدية تنجح أخيراً فى ذلك بعد ما كابدته من نصب وآلام ، وبعد العقبات التى كانت تتزايد حيالها

— ها نحن ذان اللذان كتبا فى السماء كفرد واحد نجلس هنا

اعزف بنغماتك أيها الحب السعيد . . . اعزف واستمر فى عزفك لهذين العزيزين البريئين ، فلقد انحسر مد الألوان وجزرها عن السماء ، وتراجعت شمس النيران الغاربة من الغرب ، وقفزت الأنجم إلى الأمام وجلة وهى تنسحب أمام القمر الزاحف الذى يزيح عن كتفيه السحب الفضية المتتابعة بقدميه على ذرى الصنوبر وهو يرقب السماء

— لومى ! ألم تحلمى بلقائي أبداً ؟

— أواه يا ريتشارد ! لقد كنت رفيق هاتنى ونجوى خيالاتى

— وإنى كذلك .

وبدا القمر صغيراً كما لو كان يطل على الحبيبين فى الفردوس مستمراً فى رحلته السماوية الخالدة ؛ فما كان يحتويهما ليل ، إنما نهار منتقب مقنع ، إذ غض نصف السماء طرفه حياء ، فلا هو إلى الظلام أدنى ، ولا إلى النور أقرب ، ولكنه عرش سماوى جمع بين الاثنين .

— يا من أنت لى ، يا من أنت لى إلى الأبد رهينة ، اهمسى فى أذنى …

فسرعان ما يأتيه جوابها بصوت ملائكى ساحر :

— وأنت لى وحدى ؟

وتنتقل أشعة رقيقة شفيفة إلى مخبأ السرخس تحت حرج الصنوبر حيث يجلسان ، ويبحث عن الجواب فى عينيها وهى تتلفت صوبه هنيهة ، فترتجف عيناها ، ويختلج جفناها فى خفر ، وتطرق استحياء لأن روحها تبدو سافرة أمامه من خلال عينيها …

لومى ! زوجتى ! حياتى !

وينسج الليل خيوط ظلامه فى اتساق على غصون الصنوبر ، وتنتقل الأضواء الخفيفة وهى تطوف بهما مصغية إلى وجيبهما ، فتصمت شفتاهما ولا ينبسان

توقف لحظة عن العزف أيها الحب ! ألا لتعزف كيفما يحلو لك فإنك لن تستطيع التعبير عن قبلتهما الأولى ، فلا شىء يعدل عذوبتها ، ولا شىء يعدل قداستها …

أيتها الملائكة التى فى السماء ! أمام مزامير الجنة الفضية تضعين أصابعك على جميع النغمات التى لا يكون الحب إلا واحدة من نغماتها ، منها تسمعينه فيطرق أذنيك …

وهكذا يصمت الحب !

وهناك فى خارج نطاق الدنيا ، وعلى حدود الغابة يلقى الراعى الصغير الراضى عن نفسه نظرة على مزماره البسيط ، وينحرف كالطيف ، ثم يسير فى صمت وسكون ليتناول عشاءه !

الغابة صامتة ساكنة ، لا يسمع فيها صوت ولا نأمة ، اللهم إلا خشخشة أفرع الصنوبر وهى تهتز فى دوائر ودوائر تحت ضوء القمر …

(حدائق القبة) شفيق زهنى

العش الخـــالى

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

انتهى يوم العرس وسافرت آخر بنت كانت في الأسرة مع عريسها الجديد ، وذهب آخر فريق من المدعوين وهم يضحكون ويمرحون فرحاً بالعرس، وأصبح المنزل هادئاً هدوءاً فوق العادة كأنه خال . فالأب والأم وحدهما في منزلهما الكبير، وكان كل منهما يتجنب النظر إلى وجه الآخر وينظر إلى الموائد التي عليها بقايا الوليمة فمن زجاجات الشمبانيا إلى أطباق الفاكهة فأنواع الحلوى المختلفة

وقال الزوج لزوجته : « أليس بالمنزل غرفة لم يدخلها هؤلاء الضيوف ؟ » فقالت : « غرفة مكتبك »

قال : « تعالى نذهب إليها » ثم نظر إلى الساعة وقال : « جاء وقت العشاء فلنبدل ثيابنا للمائدة »

ثم أبدل وإياها ثيابهما ، وتذكر وهو خجلان أنه منذ سنوات كان ينتظر هذا اليوم يوم تتزوج بناته ويتركن له المنزل وأمهن معه

وقد كان يغار من بناته فقد كن يشغلنها عنه بمطالبهن الكثيرة ، ولم يجرؤ على الاعتراف حتى أمام نفسه بغيرته منهن، وإنما كان يشعر بذلك ويخجل من شعوره ، ولكى يكفر عن هذا الشعور كان يقوم بواجباته نحو أبنائه خير قيام فلم يهمل قط واحداً من هذه الواجبات ولكنه كان دائماً يشعر بتلك الغيرة من كل شيء يحول بينه وبين زوجته وقد ظل كذلك إلى هذا اليوم. ففى العام السالف تزوجت بنتاه (كاتلين) و(كلير) وفى بداية هذا العام تزوجت جيرالد واليوم تزوجت الأخيرة وهى فرانسين ، وقد كان يحبهن جميعاً ولكنهن كن عقبة في سبيله

واليوم لن تحدث بالمنزل الضجة التي كان يثيرها البنات وصواحبهن ، وكانت الأم تصرف كل وقتها في خدمتهن ومرضاتهن ، وزوجها لا يثق بأنهن السبب في ابتعادها عنه بل كان يخطر له في أكثر الأحيان أنها تجعلهن ستاراً لتختفي وراءه منه ، وكانت تفتنه بجمالها ويزيده شغفاً بها اشتغالها عنه ، وقد تزوج منها ولكنه لم يأنس بزواجها فقد كانت دائماً في حالة تشبه العزلة ، وكانت تهرب منه فلما رزق منها ببناته الأربع زاد ابتعادها عنه واستمرت حياتها الزوجية خمسة وعشرين عاماً وهو ينتظر، وكان ينظر إلى المرآة ويبتسم ابتسامة مرة حينما يذكر أنه تزوج منذ ربع قرن . وهو مع ذلك لا يتقدم إلى زوجته إلا كما يتقدم الشاب إلى فتاة صغيرة

وكان جميلاً قوى البنية، وكانت زوجته لا تزيد مع مرور الأيام إلا جمالاً . وكانت شجاعتها تزيد مع هذا الجمال

نظرت إليه الآن وقالت وهى تشير إلى زجاجات الخمر والأطباق التي على المائدة : « ما هذه الفوضى التي تركت لنا يا برانينو »

وكان هذا الاسم هو الذي ينادى به في الطفولة فنظر إليها وقال بهدوء : « إن اسمى هو جون»

فابتسمت أمام هذا التقريع الهادئ . وتناولت

معه طعام العشاء ؛ فقال وهو يتنهد تنهد الرضى : « منذ كم سنة لم نتعش وحدنا ؟ » فقالت : « منذ سنوات طويلة . مسكينة فرانسين ! لقد كان التعب الشديد بادياً عليها »

قال : « ولكن من أجمل المصادفات أنها تزوجت فى هذا التاريخ »

فقالت : « لماذا ؟ »

ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الزرقاوين فأجاب : « ألا تذكرين أن هذا هو تاريخ زواجنا ؟ »

قالت : « آه ! لقد تذكرت. إننى كنت ناسية »

فمض شفته وبدا عليه الغضب لنسيانها ذلك اليوم . ثم ملك روعه . وشعر بخيبه الأمل فى السعادة التى كان يرجوها لأن زوجته لا تشعر بمثل شعوره هذا. وذهبا إلى غرفة المكتب بعد العشاء وكانا يسمعان من الغرفة حركة الخدم وهم ينقلون ما على الموائد من الأطباق ، وكانت الزوجة واقفة بجانب النافذة تنظر فى الظلام إلى أعالى الأشجار وما عليها من أعشاش العصافير ، وإلى الممرات المظلمة فى الحديقة الجميلة التنسيق . وكان الزوج جالساً أمام مكتبه ، وقد أسند ذقنه بأصابعه

وكانت الزوجة تتذكر خلو المنزل من الموسيقى والغناء والضحك واللعب والحديث فقالت : « ألا يبدو المنزل كأنه غير مأهول ؟ »

فهز رأسه وعادت هى إلى الكلام فقالت : « أظن جيرالد ستأتى فى العام المقبل »

كانت دائماً تفكر فى بناتها ، ولم يستطع حملها على التفكير فيه فشعر الآن بخيبة أمله ، لأنه حتى فى هذا الوقت لم يستطع الوصول إلى قلبها . ولكنه سكت فلم يجبها وعادت إلى الكلام فقالت : « وأظن كلير تستطيع أن تأتى شهراً فى الخريف ... مسكينة فرانسين ! إننى أرجو لها السعادة »

عاد إليه شعوره بالغيرة من بناته ولكنه كتمه كعادته وسكت، فقالت : « لقد سمعت من بنت عمى دوليس فى الأسبوع الماضى - ولم أستطع إخبارك إلا بعد انتهاء العرس - سمعت أنها تدير الآن نادياً للفتيات فى جنوب لوندرا »

نخفق قلب جون وقال : « ثم ماذا ؟ »

قالت : « وقد اقترحت علىَّ أن أنضم إليها فهى فى أشد الحاجة للمساعدة . وقالت إننى سأكون منفردة هنا مستوحشة بسبب غيبة البنات وهى ترى أن أقيم معها وآتى إلى هنا يوماً فى الأسبوع . وأنت تتغيب عن المنزل طول النهار وفى إمكانك قضاء بقية الأسبوع فى غيبتى وحدك »

دارت الدنيا أمام عينيه وشعر بالذل . ولكن عزته المجروحة أبت إظهاره فقال : « افعلى ما ترينه »

قالت : « وإذا كنت تريدنى فإنى مستعدة لأداء واجبى »

فقال : « الواجب لا دخل له هنا »

قالت : « إننا سنقرر الرأى فى هذا الموضوع فيما بعد » . فرأى الزوج أن أى قرار خير من الشك وأن عليه أن يواجه الليلة ما لا بد من مواجهته فيما بعد . وهو يريدها ولكن على غير هذا الشرط فقال : « إننى أرى أن تقررى الرأى الآن »

فالتفتت ونظرت إليه فى صمت . ولكنه لم يطق أن ينظر إليها . وارتكن إلى ظهر الكرسى وكانت أمامه رزمة من الخطابات فأخذ يقلبها بصورة آلية ويقرأ العنوانات فأجابته : « سأذهب إلا إذا كنت فى حاجة إلىَّ »

فكان رده المختصر : « لست فى حاجة إليك » فتركت الغرفة فى الحال وتركته بين أنقاض أحلامه

وبعد أسبوع كان الزوج جالساً وحده . وكانت الزوجة قد ذهبت فى اليوم التالى للعرس إلى بنت عمها . وكانت نفس الزوج لا تزال متألمة من جرح عزتها . وشعر بالتعاسة لاعتقاده أنه كان من الحماقة أن يتركها تذهب دون أن يقاوم ، فهو يشعر بأن الحياة بدونها لا تطاق

وقف أمام النافذة التى وقفت أمامها منذ أسبوع وفكر فيها وفيما تعمله الآن . وكانت صورتها المكبرة على الحائط فقال فى نفسه : « ترى كيف حالتها الآن ؟ لعلها فى خطر ! »

وإنما أتى بهذه الكلمة إلى ذهنه أن أعصابه شديدة الاضطراب . ولم يكن يطيق النظر إلى صورتها

وكانت الغرفة مملوءة بصور أخرى لبناته فنظر إلى تلك الصور وهو يبتسم ابتسامة مرة وقال : إنها انتصرت على طول الخط ، وإننى هزمت على طول الخط كذلك .

ونظر إلى الساعة ، وكان الليل قد انتصف وتشبثت بذهنه فكرة الخطر ، وفكر فى مقدار المسافة التى يقطعها إذا أراد زيارتها ، ولكنه شعر بأن ذهابه فى مثل هذه الساعة ليسأل عن صحتها لا يمكن أن يكون إلا حماقة . واختصم فى ذهنه العقل مع الغريزة فكانت الأخيرة هى الغالبة .

وكان الكل قد ناموا ، ولكن فتحه مثوى السيارة (الجراج) لا يستغرق إلا دقائق ، ثم يخرج السيارة ويوقظ السائق ، فيخبره بأنه ذاهب إلى جنوب لوندرا ، وأنه ليس فى حاجة إليه .

وفعل ذلك ، واخترقت سيارته الطرق ، وهو يزيد فى السرعة قبل فوات الوقت . ولم يكن قد زار من قبل ذلك النادى الذى تقيم فيه زوجته ولكنه كان يعرف عنوانه ، وكانت الغريزة وحدها هى التى تقوده الآن . ثم تلاشى حكمها ، وتحكم العقل فأسند ظهره إلى الكرسى ، وأخذ يضحك من حماقته ، وهو يخترق الشوارع الخالية ... إلى أين يذهب ؟ لا إلى شىء !

وأخذ يدق الجرس ... فلو رآه أحد فى الطرق الخالية لخاله سكران !

ووصل إلى النادى ، فنزل من السيارة ونظر إلى النوافذ ، فلم ير إلا دخاناً يتصاعد . وأصغى فسمع أصواتاً تدل على وجود حريق فى النادى ، فوضع يده فى فمه ، وصفر ليدعو الجنود ، وأخذ يحاول كسر النافذة بالآلات التى يصلح بها السيارة . وفى الوقت الذى كان يصيح فيه باستدعاء المطافئ استطاع الدخول من الفتحة التى أوجدها فى النافذة فجرح رأسه ويداه ، وكاد الدخان يخنقه فتراجع حتى تمكن من وضع منديل فى فمه ، ثم دخل مقتحماً وأخذ يصيح « يا هيلين ! يا هيلين ! » فخرجت إليه سيدة قال لها : « إن المكان يحترق ! أين زوجتى ؟ »

قالت : « إنها نائمة فى الطابق الأعلى »

ثم صعدت معه وصاح باسمها فخرجت ودهشت وقالت : « لماذا جئت يا جون ؟ »

فقال : « اسرعى بقليل من الماء »

فأسرعت وعند عودتها تذكر أنه لم يشرح لها سبب مجيئه فقال : « النار فى البناء ! لا ينبغى أن نضيع الوقت » ثم وضع منديلاً مبلولاً آخر حول فمها وبل المنديل الذى حول فمه ونزل معها فى وسط

الدخان المتصاعد، فلما رآها يكاد يغمى عليها حملها بين يديه ، وكانت الحرارة شديدة حتى كاد يغمى عليه أيضاً ، وخرج بها من النافذة

* * *

كانت الساعة الثالثة صباحاً عند ما عاد الزوجان إلى منزلهما ولم يتبادلا إلا كلمات قليلة وكانت الزوجة شديدة الشحوب وقالت : « لقد جئت إلى هنا يوم العطلة السالفة . ولكنك لم تجيء فيه »

قال : « نعم هــذا هو الواجب عليّ في هذه الظروف »

قالت : « أي ظروف ؟ » فلم يجب . وقالت : « ما الذي جعلك تأتي في هذه الساعة وكيف علمت ؟ »

قال : « لا أعلم ولكن كان مستولياً عليّ شعور غريب بأنك في خطر فأتيت وأنا أعرف أن إطاعة هذا الشعور حماقة ، ولكني لم أستطع منع نفسي . وما كنت أصدق القصص التي من هذا القبيل وكنت أسمع صوتاً يقول لي إن زوجتك المحبوبة في خطر »

فسكتت مدة طويلة ثم قالت : « لم أكن أعلم أنك تحبني إلى هذا الحد »

قال : « إنني رجل محتجز يا عزيزتي وقد كنت أعتقد أنك تدركين حبي لك . ولكنني لم أكن أستطيع الوصول إليك لأنك تهربين مني »

فقالت : « نعم لأني خائفة »

قال : « خائفة ! ! من أي شيء ؟ »

فقالت : « خائفة من إظهار محبة أكبر من المنزلة التي وضعتني فيها . إن لي عزة نفس ولذلك كنت أجعل بناتي ساتراً حتى لا تراني »

قال : « وكيف عرفت المنزلة التي أضعك فيها »

فقالت : « عرفتها من ذهابك بعــد العشاء مباشرة إلى مكتبك كأنك لا تريد أن تكون معنا »

قال : « إنني كنت أفعل لأني لا أريد أن أرى صواحب بناتي ولا تلك الضجة التي تحول بيني وبينك »

فقالت: «وكيف لا تسر عند ما أكلك عن بناتنا؟»

قال : « كيف عرفت ذلك ؟ »

فقالت : « إنك خير من يقوم بواجبات الأب . ولكني عرفت ذلك من ملاحظتي ما يبدو على وجهك أثناء الحديث عنهن . وفي يوم الأربعاء الماضي أردت أن أمتحن شعورك وكان خطاب بنت عمي قد وصل إلي . ولكنني لم أعره عناية . وقد جربتك بالتكلم عنه وقلت في نفسي إنك إذا سمحت بذهابي فإن ذلك سيسحق قلبي . وأنا لم أكن أريد الذهاب إلى بنت عمي »

فقطب حاجبيه وقال : « إنك تذكرت عزة نفسك ولم تتذكري عزة نفسي وقولك دلني على أنك تريدين الذهاب . وقد كنت في غيابك تعساً للغاية » ثم وقف فجأة وقال : « لقد كنا مغفلين »

وتناول كفها بين كفيه وقال: « أظنني وجدت نفسك بعد هذه السنوات ولن أتركك تفلتين بعد الآن»

فقالت هامسة : « إنني أحبك كما لم أحب أحداً في الوجود »

ثم وضع ثغره فوق شعرها الناعم اللامع وقال: « لك أن تتكلمي عن بناتنا الآن فطالما كنت تتخذينهن ساتراً بيني وبينك ، فإني لا أغار منهن »

فابتسمت وقالت : « لقد أدركت نفسك أيها الطفل الكبير »

عبد اللطيف النشار

قصة سعد وسعاد

نبـــل الحب (*)

أقصوصة شرقية

بقلم الأستاذ مراد الكردانى

المنظر الأول

« معاوية أمير المؤمنين فى مجلس له فى رواق مكشوف يتشرف على الطريق ، واليوم قيظ ، والريح راكدة ، والأرض تغلى من الوهج ... يبدو شيخ يدلف من بعيد نحو القصر ... »

معاوية : (لجلسائه) — أما والله إن هذا الفَيْح جهنم ، كأن قد فتحت أبوابها ... هل خلق الله أشقى ممن يضطر إلى الحركة فى مثل هذا الوقت ! أنظروا ... هذا رجل يحجِلُ من حر التراب ، كأنما يخطو على نار !

أحدهم — لعله لاجئ يقصد ساحة أمير المؤمنين أو يبغى نصره .

معاوية — والله لئن كان نفر إلينا فى لُماسة لقضيناها ، وإن أفحش الظلم لَلذى يَؤُزُّ صاحبه أن يخرج فى مثل هذا اليوم الحَمْت المصيب — ويلٌ لمن بغى عليه — إنه ليتخلَّج فى مشيه كأن له شهراً يمشى (ثم قال لغلامه) يا غلام !

الغلام : لبيك أمير المؤمنين !

معاوية — لا تحجب دونى الساعة أحداً .

الرجل : (وقد بلغ منه الاعياء والتعب والحر) — النصفة يا معاوية ، أنصفنى ، وخذ لى من عاملك وابن عمك مروان ، ظلمنى ، وغصبنى أهلى ، وصيَّرنى سخرية بنى عذرة !

معاوية : (وقد أخرجه الحر عن حلمه) — لحى الله ابن الحكم. يبغى، وفى المدينة[1] ! والله لئن كان لأمثلَن به مُثْلةً تذهب فى العرب . هات أمرك يا تميمى .

الرجل : (وقد هدأ واستراح) نصر الله أمير المؤمنين ومكن لأمره ... كانت ظلي وسكنى وكنت بها قرير العين ، مطمئن الروح قانعاً ، أمضي إلى شأنى ، ونورها يحدونى . وإنها لتملأ قلبي وعينى وأفقى . فليس لدىَّ فى الدنيا سواها . ثم جاءت — يا أمير المؤمنين — أيام عجاف أذهبت الطارف والتليد حتى هنْتُ ، وذلّت نفسى ، وأنكرنى الصحب والخلصاء؛ ثم نفقت ناقة كانت آخر ما عندى فبقيتُ لا أملكُ شيئاً ، وضاقتْ سبيلى ، وأطبق علىَّ البلاء وتضاعف حين أتى أبوها — وهو عمى — فجذها منى ، وحرمنى إياها ، وأنا أحوج ما أكون إلى برها وحنانها

كانت — يا أمير المؤمنين — إشراقاً إلهيّاً

(*) لهج الناس بعظمة التضحية التى ضحاها الملك إدوارد ، وادوارد ملك وابن ملك ، شب ونما فى عز الملك ، وأبهة العرش. فلم تفقده تضحيته سوى تاجه . وهو بعد أمير ثرى محبوب ! فما بالهم وهذه فتاة عربية فقيرة لا تمتلئ كفها . حتى من قوت يومها ، يعرض لها الملك والتاج ، فتأباها إبقاء على سلام قلبها ، وصفاء روحها ، تعدلها بجلال الخلافة ، وأبهة الملك !

(١) والمدينة يومئذ مركز علىّ وحزبه

يجلو عن ذهنى ظلمة اليأس والفقر والحاجة . جاء هذا الشيطان فحجب شماعه عنى . كنتُ معها فى محنة واحدة مخففة بقربها ، فبتُّ بعدها فى محنتين ثقيلتين من بُعْدها : محنةِ فقرى وجوعى ، ومحنة السبيل التى عُمِّيت علىَّ والْتَوَتْ ، بعد أن ذهب عنى ضياؤها

ولما جئت مروان أشكو أباها وسمعنى أمر أن تحضر مجلس الخصومة . فلما أشرقت ألقى الشيطان فى أمنيَّته فجار وخلَّط ، وبدَّلنا — ثلاثتنا — الجزاء . فآثرنى أنا بالسجن بدل أبيها . وبذل له المال وهو الملء الموسع ، وكنت به أحق وأحوج . ثم فجمها بقربه وفجعنى ببينها ... !

ولقد خرجت من مجلس قضائه إلى السجن فلبثت فيه حتى سوَّى الأمر لنفسه وفق ما يهوى . ثم جىء بى إليه فقال : طلق سعاد . قلت : لا . فأعاد فقلت : لا . فسامنى غلمانه سوء العذاب حتى شارفتُ . ثم ثم زادنى . ثم زادنى . فلم أر خلاصاً إلا أن أفعل . فأرسلتها كلة من أَسَلَةِ لسانى على كرهى لأنجو بجسدى. ونجوت. ولكن إلى السجن ثانياً حتى تمتدَّ فتقبتَّ أسبابها منى. ثم جئتك — يا أمير المؤمنين — راجياً وبك مستجيراً

معاوية — لقد والله جئتنى يا أخا العرب بحديث عجب . ولقد أثم ابن الحكم واجترأ وظلم . ويل للدين من سدنته . تتلوى الحيل فى أدمغتهم فيتفقهون بها ، ولكن على رأى بطونهم وشهواتهم . ثم يستعدون باسم الدين على حرم الدين ، ويبغون على حقوق المسلمين . (ثم قال لغلامه) — ... إدع كاتبى يا غلام . فإذا حضر فأرسل أنت فى طلب نصر والكميت ومُرهما أن يتجهزا ... أسمعت ؟

الغلام — أمر أمير المومنين

(ينصرف الغلام لينفذ أمر الخليفة)

معاوية : (لكاتبه) — أما بعد ، فإن الله بيَّن الحلال وبين الحرام وفرقهما وحَدَّهما ؛ فويل لمن بدل وغير وطمس ... وإن المنحة بالرغم غصبٌ مقنَّع . فهما مترادفان تفسرهما كلةٌ من صميم القلب لا من طرف اللسان . فاتق الله فى حق عبده ، واربأ بنفسك أن تكون مُثْلة سيئة فتحمل وزرك ووزر من شايعك إلى يوم القيامة يوم الحق الصريح ... والسلام

(ينطلق نصر والكميت إلى المدينة برسالة معاوية ثم يعودان)

المنظر الثانى

« معاوية فى مجلسه وحوله خاصته »

معاوية (لنصر والكميت) — جئتما ؟

الكميت — أصلح الله الأمير وأقام ملكه . لقد رجع ابن عمك وفاء ، فسرحها وأشهدنا

نصر — ولقد أقر على نفسه فى هذا الكتاب

معاوية : (يبتسم) — إن مروان لكالحية الزرقاء تموت وشباتها تلدغ . لقد ذكر جمال سعاد . فبالغ وأشاد ، كأنه يستعذينى عليها ، ويريدها لى ، ويغرينى بها فلا يبلغها صاحبها على أى حال . ويل له ما أهون كيده !

(يأمر بسعاد أن تحضر . فيبهر لحسنها ، ويتمناها ، ثم يجاذبها الحديث فتقع من قلبه . ويفعل فيه جمالها وعقلها وكمالها)

معاوية : (للأعرابى متلطفاً) — يا أخى كيف عهدك بصاحبتك . أو ما تزال ذاكرها ؟

الرجل (وقد تنبأ) — بلى والله يا أمير المؤمنين ماسلاها القلب . ولا عنها شغل (ثم قال فى صوت مرتعش)

— واشوقا يا سعاد إلى الفم الحلو الرشوف بات يرويني رحيقه (ثم يبكى) سعاد . إلىَّ يا سعاد . فو الله إنى لواهب بشيرى بك نصف عمرى . و...

معاوية (وقد شاع فيه اليأس) — أقصر . أقصر . بل إنى لواهبك أنا ثلاثاً نهداً أبكاراً ، كل واحدة منهن رعبوبة غانية فى يمينها ألف دينار . ثم أنا بعد ذلك مقربك منى ومُجْرٍ عليك رزقاً ، ومالاً وفيراً على أن تدعها

الرجل : (في رقة وذلة) استجرت بعدلك من جَوْرِ مروان . فبمن أستجير من جورك ؟ (ثم قال في رجاء وحزم) والله يا أمير المؤمنين لو بدلْتنى منها الخلافة فى جلالها وعزها ، بل وملك الدنيا ، ما رغبت فيها . ولا عدلتُ سواها .

أبى القلب إلا حب سعدى وبُغِّضَتْ
إلى نساء ما بهن عيوب
وما هو إلا أن أراها فجاءة
فأبهتُ حتى لا أكاد أجيب(١)

معاوية : إن مروان طلقها . وأنت قبلُ طلقتها وإنها لسيدة أمرها . وإنا مخيِّروها . فهل أمنت رأيها ؟

الرجل : (فى يقين) افعل !

معاوية : (يحضر سعاد ويخاطبها في رقة) يا سعاد . أينا أحب إليك ، وآثر عندك ؟ : أمير المؤمنين فى عزه وجاهه ، وجلال ملكه ، وهذه الدنيا العريضة التى شهدت وعاينت ، أم مروان فى ظلمه وجوره ، أم هذا الأعرابى فى جوعه وفقره

سعاد — أدام الله عز أمير المؤمنين وثبت ملكه أترانى أمنت فى جوارك وعزك من حادثات الدنيا ومن نزوات الزمان ؟ ألا والله إن المال عارية ، ومالىَ كفه من الدنيا كمالئها من الماء ، ولقد كانت لى معه صحبة جميلة ، وأيامُ عِذاب ، وإن الحب متاع الروح . وإنى لصاحبته ما سلوته ولا غدرته . وإنى — وأمرى فى يدى — لواهبته نفسى وروحى ، فما أملك لهما بعد اليوم رجعاً

معاوية (فى عجب وطرب ونشوة) — مرحى . مرحى . تلك دنيا — يا سعاد — لا نعرفها . سموت بنا إليها . خُذى صاحبك ، وخذى لكما عشرين ألف درهم . ولنرتدَّ نحن على دنيانا ، دنيا الصراع والكفاح ، وتنازع الشهوات والأهواء .

مراد الكردانى

(١) الشعر للمجنون ولبلى بدل سعدى . ويروى « ما لهن ذنوب » .

ليـــلة الذكرى

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب محمد محمود الليثى

توقف برهة عند مدخل الميدان ، ثم نظر حوله محاولا أن يعرف أين وصل ... كان قد ضرب على غير هدى لساعات طويلة ، حتى قادته قدماه إلى ذلك الحى النائى ... ولعله قد وصل إلى إحدى الضواحى دون أن يدرى ...

وفى جوف الليل البهيم ، انبعث صوت المؤذن من جامع قريب يدعو إلى صلاة الفجر فغمغم لنفسه فى ذهول :

— ها قد قارب الليل الانتهاء ...

ثم أخرج ساعته من جيبه بحركة آلية ، ولكنه نسى أن ينظر إليها ... ماذا يفعل الآن ... أين يذهب؟

كانت السماء تمطر منذ ساعة رذاذاً قارساً تدفعه الريح بشدة إلى وجه ذلك الشارد . فشعر بجسمه يرتجف برداً ، فرفع بنيقة معطفه ، ثم استأنف سيره المضطرب المتعثر ، إذ أنه كان قد سار طول الليل ، فكانت ساقاه المتعبتان تختذلانه

وفى نهاية الشارع لمح لوحة ... « بنسيون دى روز » ... فدفع الباب ، ودخل يترنح

فحص صاحب (البنسيون) اليونانى بركن عينيه ذلك النازل المريب ولم تفته ملاحظة التقاطيع الشابة القوية رغم الشيب الذى علا عارضيه ، والملابس السوداء المتقنة التفصيل برغم المطر الذى بللها ، والحذاء الأنيق الملطخ بوحل الطريق

— أعندك غرفة خالية ؟

— نعم ياسيدى ... عشرون قرشاً الليلة ... هل لك فى ملء تلك البيانات من فضلك ؟ ... إنها أوامر البوليس كما تعلم ...

فجرت يد الرجل فى عصبية تملأ فراغ الدفتر الضخم ... إبراهيم كامل ... اثنان وثلاثون سنة ... جراح ... ثم ألقى بالنقود على الخوان وتبع اليونانى صاعداً السلم الضيق إلى غرفة بالدور الأول ، كان كل أثاثها عبارة عن سرير خشبى تغطيه ملاءة قذرة ، وكرسى ، وحمالة يعلوها طست صغير ووعاء ماء بجانب نافذة بدون ستائر

لم ير الرجل شيئاً من هذا كله ، بل ألقى بنفسه على الفراش بكامل ملابسه فى حالة يرثى لها من التعب والقنوط ، ثم أغلق عينيه وتذكر مديحة ... مديحة المعبودة ...

كانت تلك ليلة الذكرى الثانية ، ففى مثلها ، منذ سنتين ، كان ذاهباً إلى عيادته ، وأطلت زوجته ورفيقة صباه مديحة من النافذة لتودعه ، كعادتها فى كل صباح ؛ ففقدت توازنها ، وتلقفها الفضاء ... وتمثل له المنظر الرهيب عندما احتضن جثتها الهشمة فى يأس وجنون ، كما ظل يتمثل له فى كل ليلة من الليالى التى تلت ذلك اليوم المشئوم !

كانت ليالى ساهدة ، عبارة عن عذاب مقيم ، تمر عليه الساعة تلو الساعة ، وهو يتقلب فى فراشه من ركن إلى ركن ، ولكن عبثاً كان يحاول النوم حتى لجأ أخيراً إلى المخدرات علها تعطيه من آن لآخر هدنة قصيرة يغيب فيها عن كل ما حوله ، ولم يلبث

أن أدمن عليها وأخذت هى تحطم أعصابه شيئاً فشيئاً

وبالرغم من ذلك ، فقد تمكن من إدارة عيادته الناجحة لبضعة شهور، حيث انغمس فى عمله بحمية أقلقت مساعده وصديقه أمين أو « بمبو » كما كان يدعوه إعزازاً ، فكان هذا الأخير ينصحه برفق قائلاً

— لن تستطيع المداومة على هذا المجهود الجنونى يا ابرهيم ... رفقاً بنفسك !

فكان يجيبه متنهداً :

— وماذا أفعل إذا كنت لا أكف عن التفكير فى ... فى نفسى ... إلا عندما أنهمك فى عملياتى !

وصدق حدس بمبو، إذ لم يلبث ابرهيم أن لاحظ أن يده بدأت تفقد شيئاً من خفتها ، وأصبح يشعر بشىء من الرهبة أمام العمليات الصعبة ... بل بلغ به الحال أن كان يشعر أحياناً برعشة تتملك جسده ، فكان مساعده المخلص عندئذ يتناول المبضع من يده فى رفق ليستأنف العملية ...

وحدث ذات يوم أن اعتراه دوار شديد ، فحمله مساعدوه إلى خارج الغرفة ، وعندها فهم أن كل شىء قد انتهى بالنسبة إليه ، ولم يفتأ يكرر :

— لقد انتهى كل شىء .. إننى رجل مفروغ منه ! ...

لبث بعدها يأتى كل يوم إلى العيادة كعادته ويرتدى معطفه الأبيض، ثم يتجه إلى غرفة العمليات ولكنه لا يلبث أن ينكص على عقبيه دون أن يجرؤ على الدخول .

***

ولما استحال عليه مزاولة مهنته ، حاول أن يجد بعض السلوى فى السفر والتجوال. فوقف فى الأقصر يتأمل عظمة آثارها ، وجلس إلى صخور شاطىء الإسكندرية يتأمل مياه البحر اللانهائية ، وشرب من ينابيع جبل لبنان المثلجة ، وانزلق فوق ثلوج سويسرا ، واندمج فى حياة باريس ولندن الصاخبة ، ولكن السأم والذكريات الممضة لم تبرح ذاكرته المعذبة ، ومنظر الجثة الدامية بين ذراعيه يتراءى له فى كل لحظة فيمحو ما عداها من المناظر ...

وأخيراً ، لجأ إلى الوحدة ، وقبع فى عقر داره ، رافضاً أن يزور أو يُزار ، مستلقياً على أحد المقاعد ، يفكر فى صمت ، ويدخن بدون انقطاع ... وكان بمبو هو الوحيد المسموح له بزيارته ، فكان يحاول عبثاً أن يرفه عن نفسه أو أن يبعث فى روحه المضناة شيئاً من العزاء ، كما كان يحدث له أحياناً أن يخرج إلى الطريق ، عند هبوط الليل فيذرع الأرصفة على غير هدى ، نهبة لأفكاره السوداء ...

لم يعد يقاوم ... ولم يعد يحاول أن يجد حلاً لمشكلة حياته المحطمة ... بل أخذت فكرة الانتحار تتسلط على تفكيره رويداً رويداً ، حتى كانت الليلة التى نحن بصددها ، ليلة الذكرى ، إذ حزم أمره على وضع حد لذلك الجحيم المستعر ، فخرج ، وترك قدميه تقودانه إلى تلك الغرفة ، فى ذلك (البنسيون) النائى ، على ذلك الفراش اللين ، حيث اعتزم أن يرقد ... الرقدة الأخيرة ...

مد يده إلى جيبه ، وأخرج أنبوبة دواء منوم ، وتأمل الأقراص البيضاء برهة فى ضوء الفجر الباهت الذى كان ينساب من النافذة ... لم يكن عليه سوى أن يسقطها الواحد تلو الآخر فى قدح من الماء ، ويشرب ، فينتهى كل شىء ، بسرعة وبساطة ...

قام وتوجه إلى إناء الماء ، فلم يتمالك ، رغم تشتت ذهنه ، أن تراجع اشمئزازاً ، إذ وجد الماء آسناً ،

يعلوه ريم قذر ، فتلفت حوله ، وبدا له ما لم يكن قد لاحظه من قبل ، من قذارة الغرفة وحقارتها ، فاندفع هابطاً الدرج ، وخرج مسرعاً لا يلوى على شيء ، حتى صادف موقفاً لسيارات التاكسى ، استقل إحداها إلى منزله

كان قد عدل عن فكرة الأقراص المنومة ، وأخذ يفكر فى سيارته الخاصة ، سيارة ممتازة سريعة كان قد اشتراها أثناء إحدى محاولاته اليائسة فى سبيل النسيان ولم يلبث أن تركها جانباً ...

***

حياه البواب عند وصوله إلى المنزل

— صباح الخير يا سيدى ... لقد استيقظت سعادتك مبكراً اليوم

— نعم يا عثمان ... إذ جاءنى نداء مستعجل

وبعد لحظات انطلق بالسيارة القوية يبتسم للفكرة الجديدة التى تفتق عنها ذهنه ... منحنى حاد فى طريق زراعى ، انحراف فى القيادة، ثم ارتطام بشجرة ... ولن يشك أحد فى الأمر ، ولن يلحق باسمه أى عار ...

اجتازت السيارة حدود القاهرة ، وانسابت فى طريق زراعى يمتد بين الحقول المنبسطة تحت ضباب الفجر الخفيف ، تدوى آلتها فى طنين مخيف ، وقد جلس هو إلى عجلة القيادة شارد النظرات ، ولكنه كان كلما واجهه المنحنى المنشود ، قامت يداه وقدماه تحت تأثير الغريزة بالحركات اللازمة لتفادى الكارثة . كان يريد أن يمتع نفسه بلذة القيادة السريعة بعض الوقت قبل أن يعجل بالنهاية

مر ببضع قرى ، ثم بمدينة ، لعلها بنها ، لم يكن يدرى ، ما زالت جميعها نائمة وهو فى سرعته الجنونية والوادى منبسط أمامه ، متشابه المناظر ، عندما لمح فجأة شبحاً منتصباً فى وسط الطريق يلوح له بذراعه ، فضغط على (الفرامل) بسرعة البرق، فكان ذلك فى الوقت المناسب ، إذ دارت السيارة حول نفسها بعنف ، وكادت تودى بالرجل ، ثم توقفت أخيراً على حافة الطريق ، فسارع القروى إليها

— ماذا تريد ؟ ...

— أرجو المعذرة يا سيدى البك ، ولكنى سمعت صوت المحرك من بعيد ، فلوحت لك ، آملا أن تسمح سعادتك بنقلى إلى المدينة المجاورة كى أستدعى الطبيب . إن طفلى يا سعادة البك فى أشد حالات المرض ... على وشك الاختناق ... وقد قالت سيدتى ابنة صاحب العزبة التى سارعت إلى نجدتنا حفظها الله ، إن حالته خطرة جداً ...

ظل ابراهيم صامتاً برهة ، يمتع حواسه بذلك السكون الشامل ، الذى كان له أطيب التأثير فى أعصابه المتوترة بعد ضجيج السيارة المزعج ، وشعر بنسيم الصباح الهادىء يرطب حرارة جبينه المحموم، فملأ رئتيه بلذة، ثم التفت إلى محدثه

— لقد سمعتك تقول إن طفلك على وشك الاختناق ، هل تعنى بهذا أنه يتنفس بصعوبة ؟ ...

— نعم يا سيدى ... إن زحيره يسمع من خارج المنزل ...

— هل يعلو وجهه شيء من الزرقة ؟

— نعم يا سيدى ... كانت خفيفة فى مبدأ الأمر ، ثم أخذت تشتد قتامة بمرور الوقت

فصمت ابراهيم برهة أخرى مفكراً ، بينما انبثق نور الفجر على الحقول من الشرق ، فحياه صياح بعض الديكة

— وأين منزلك هذا ؟

— هناك يا سيدى البك ، وراء تلك الأشجار فى عزبة توفيق بك رضا ، إذ أننى شيخ خفرائه

— إننى طبيب، فقدنى إليه ...

فعبرا الطريق مسرعين ، والفلاح يبتهل فى سره حتى وصلا إلى المنزل ، حيث وجد الدكتور ابراهيم امرأة جالسة وعلى ذراعيها طفل صغير تغطيه ملاءة بيضاء ، فاتجه نحوها مباشرة ، وانحنى يفحص الوجه المحتقن ، ثم هز رأسه بيأس ... كان الطفل قد بدأ يحشرج

— دفتريا يا دكتور ... أليس كذلك ؟ . . .

— بلى . . . وفى المرحلة الأخيرة أيضاً . . .

— لقد تبينت ذلك لأول وهلة ولذا أرسلت الرجل لاستدعاء الطبيب . . . وكم أحسنت صنعاً بالإسراع فى المجيء يا دكتور . . .

وعندها فقط انتبه ابراهيم إلى ذلك الصوت اللائكى الذى كان يخاطبه ، لقد ذكره بصوت آخر ... صوت عزيز لديه ... ألفه منذ صباه ... فرفع رأسه بحدة ونظر إلى مصدره . . . يا لله . . . لقد ظن نفسه فى حلم . . .

رأى فى ضوء مصباح البترول الخافت شابة : ابنة توفيق بك التى تحدث عنها القروى بدون شك واقفة بجانب الأم ، كملاك الرحمة ، وقد شمرت عن ذراعيها حتى المرفقين ، ترتدى ثوباً بسيطاً تغطيه فوطة بيضاء ، ولكن وجهها . . . ذلك الوجه الصبوح . . . وتلك العينين الحالمتين . . . وذلك السمو الروحى . . . كان التشابه مدهشاً حقاً . . .

وعادت الذكرى الرهيبة تعصف بنفس ابراهيم فضم قبضتيه فى عنف ، حتى يتمكن من السيطرة على أعصابه الثائرة ووقف ارتجاف يديه ، ثم قال :

— هل لى أن أسأل ماذا كنت تفعلين يا آنسة فى تلك الملابس ؟ . . .

— أوه . . . كنت أحاول أن أضغط الأغشية المتورمة بالحلق بعيداً بعضها عن بعض حتى تأتى النجدة، لأن الطفل كان على وشك الموت (ثم ابتسمت عند ما رأته يفغر فاه ، واستطردت ببساطة) إننى طالبة طب ، وقد أتيت هنا لأقضى الشطر الأخير من إجازة العيد فى العزبة . . . هل هناك أمل يا دكتور ؟ . . .

— لن ينقذ المسكين سوى عملية جراحية سريعة ...

ثم كرر لنفسه فى يأس ... نعم ... عملية جراحية سريعة .. وتأمل يديه المهتزتين بقلق ، ثم جال ببصره بين الأب الصامت المتجلد ، والأم الوالهة ، وتوقف برهة أمام النداء المنبعث من عينيها المتوسلتين ، ثم تأمل الفتاة الباسمة أمامه ، واستقرت عيناه أخيراً على الوجه المحتقن الداكن ، وشعر بالخجل من نفسه ، وذهب عنه كل تردد ، فأسرع يعدو إلى السيارة ، حيث وجد حقيبة الأدوات التى تعود أن يتركها فيها دائماً ، وعند ما عاد وجد الفتاة وقد بسطت فوطتها فوق منضدة بالغرفة ، مددت عليها المريض الصغير ، ثم ساد الغرفة صمت رهيب كانت أنامل ابراهيم تعمل أثناءه بمهارة فى حلق الطفل ، ففتحت وسط الأغشية المتورمة التى كانت تسده منفذاً أدخل فيه أنبوبة المطاط ، فنفذ الهواء إلى الرئتين

ولما حملا الطفل أخيراً إلى فراشه ، ومالا فوقه

ينصتان ، سمعا تنفسه ينتظم ، وسرعان ما استغرق فى نوم هادئ عميق ، فتقابلت عيناهما فى صمت

* * *

غسل إبراهيم يديه بالمطهر ، ثم أخذ يصفف أدواته فى الحقيبة متأهباً للرحيل ، بينما كان يفكر فى تصاريف القدر العجيبة ... خرج لينهى حياته فتقوده قدماه إلى حيث ينتزع حياة من براثن الموت

— مستحيل أن أدعك ترحل هكذا يادكتور

— إبراهيم ... إبراهيم كامل ...

— تشرفنا ... إسمى ناهد ... ناهد رضا ... كنت أقول إنه من المحال أن أدعك ترحل هكذا يا دكتور ابراهيم ... إن الفيلا لا تبعد عن هنا سوى مسيرة خمس دقائق فيجب أن تأتى معى لتصيب قسطاً من الراحة إذ أنك تبدو متعباً للغاية ...

نعم . . . كان متعباً للغاية لدرجة أنه لم يتمكن حتى من الاعتراض ، فسارت أمامه باسمة لترشده إلى الطريق ، وفيما كان يتبعها جعل يتأمل مشيتها الرشيقة وقوامها المستقيم وشعرها الفاحم الجميل ، وينصت إلى الأنشودة التى كانت تترنم بها فى صوت خافت ، واختلجه شعور غريب لذيذ ، شعور بأن شمس ذلك اليوم قد حملت إليه مع أشعتها الدافئة الحل المنشود ، وأن مشكلة حياته قد انحلت عقدتها وأنه استيقظ من كابوس طويل مزعج ، فساد روحه هدوء غريب لم يشعر به منذ أربعة وعشرين شهراً ...

* * *

توقفت ناهد عند أحد المنحنيات فوسع إبرهيم من خطواته حتى لحق بها ، فقالت :

— كم أنا سعيدة يا دكتور ... سعيدة لأنك أنقذت حياة ذلك الطفل المسكين ... ولأن الصباح مشرق باسم ... تأمل تلك الخضرة كم هى فتانة ! ! إن الطبيعة يا دكتور ابراهيم تنفر من الموت ومن الظلام ...

فابتسم إبراهيم مؤمناً ، ثم استأنفا السير جنباً إلى جنب حتى وصلا إلى الفيلا ، وفيما كانت تدفع الباب قالت :

— كم أتعشق مهنة الطب . . . ويا لها من سعادة عنـد ما يتمكن المرء من إنقاذ حياة آخر كما فعلت أنت فجر اليوم ...

فتأملها إبراهيم للمرة الثانية مبتسماً ، ثم فتح فاه ليتكلم ولكن التعب كان قد أخذ منه كل مأخذ ، ففر لونه وترنح إعياء ، وكاد يسقط لو لم تتداركه ناهد التى تمكنت بمساعدة أحد الخدم من إسناده وإدخاله غرفة الضيوف حيث استلقى على الفراش ، وبينما كانت ناهد تبسط الغطاء فوقه تناول يدها الرقيقة فى يده ورفع إليها عينيه وتمتم بصوت خافت

— ناهد ... ابقى بجانبى ... دائماً أبداً ... واسهرى علىّ ...

لم تكن ناهد تعرف عن هذا الغريب سوى أنه تعس شقى ... وأنه بحاجة إليها . . . وأنها ... تهواه ، ولكن يحسبها ذلك ، فلم تسحب يدها ، بل ترقرقت دمعة فى عينيها الصافيتين ، ومرت بيدها الأخرى على جبينه الملتهب بينما راح هو لأول مرة منذ أمد طويل فى سبات عميق لم تتخلله الرؤيا المزعجة

محمد محمود الليثى

من القصص الرمزي

زوجا غرام ...

للقصصي الدانمركي « أندرسون »

بقلم الأديب كمال الحريري

كانتا جارتين أليفتين فى علبة من علب لعب الأطفال : دوامّة وكرة . فقالت الدوّامة لصاحبتها الكرة ذات يوم :

— لم لا نكون خطيبين محبين ما دام علينا أن نمضى حياتنا فى مكان واحد ؟

ولكن الكرة التى خلعوا عليها ثوباً رائعاً قشيباً من الحرير المتموج الخالص ، لم تكلف نفسها عناء إجابة صاحبتها الدوامة

وفى الغد ارتأى الطفل الذى تخصه هذه اللعب أن يصبغ الدوامة بلونين من حمرة وصفرة ، فما كانت الدوامة تدور على بلاط الدار إلا تموجت ألوانها أبدع تموج وآخذه للبصر . حينئذ قالت لجارتها الكرة :

— انظرى إلىّ الآن ما عساك قائلة فىّ ؟ ألا نعقد خطبتنا ونتزوج ؟ أنت تقفزين وتنطين وأنا أرقص وأدو . ومن يستطيع لعمرى أن يسعد أكثر منا ؟ قالت الكرة فى صلف :

— يا للحمقاء أتظنين ذلك ؟ إذاً فأنت تجهلين ياصاحبتى المسكينة أن والدى كانا سليلى نعمة ولابسى دمقس وحرير ؟ وأنى لست من الأكر العادية المبتدولة وإنما أصلى ينحدر من بلاد أسبانيا . قالت الدوامة :

— هذا حسن ولكن لا تنسى أنى أنا أيضاً أمريكية الأصل لأنى مخروطة من فاخر شجر « الكابلى » الأحمر البديع ، وأن مبدعى إن هو إلا عمدة المدينة بنفسه ، وهو فى ساعات لهوه وفراغه يتسلى بتدوير لعب عديدة ذات حركات ورقصات مختلفة ولكن أنا وحدى الأثيرة لديه

قالت الكرة وقد قالت من كبريائها :

— أحقا ما تقولينه ؟ أجابت الدوامة :

— لأحْرَمْ من استقبال أدنى ضربة من ضربات السوط ولأتعرَّ عن أى خيط يلف حول جسمى للدوران والفتل ، إن كنت كاذبة أو مدعية . قالت الكرة :

— إنك لحاذقة فى تثمين نفسك ورفع شأنك ولكن الخطبة التى تعرضينها علىّ مستحيلة : ذلك مخطوبة لطير « السنونو » وفى كل مرة أحلق فيها فى الهواء يبرز لى « السنونو » رأسه الجميل خارج عشه ، ويظهر لى كثيراً من الشوق والميل . وأنا منذ ذلك الحين عقدت النية على أن أمنحه يدى. وعلى هذا فنحن الآن نصفا خطيبين ، ولذلك لا أستطيع الإصغاء إلى حديث خطبتك لى ، ولكنى برغم هذا أرانى متأثرة بنبل عاطفتك وأعدك أنى لن أنسى أبداً ما أبديته نحوى من ميل ومحبة . فتنهدت الدوامة حزينة وقالت :

— هذا بعض شىء من الكرم واللطف ولا شك ، ولكنه ويا للأسف لن يكفى لتهدئة هيامى أو لتعزية آلامى . وكان هذا الحوار بين الكرة والدوامة آخر حوار تبادلتاه

وفى الغد تناول الصبى الكرة وأطلقها فى الهواء فطارت مثل عصفور رشيق ، وغابت عن نظر الدوامة لحظة ثم رجعت إلى الأرض كى تعلو فى الهواء ثانية وفى كل مرة تمس فيها الأرض كانت تتراقص تراقصاً رشيقاً يدنيها من عش السنونو ، وفى القفزة التاسعة اختفت الكرة عن عين الصبى فلم ير لها أثراً

فتش الصبي وبحث في كل محل وموضع ولكن لا أثر لها ولا عين. لقد توارت عن العيون. وأرسلت الدوامة تنهدة حارة واجدة فقالت :

— إني لأعرف أين هي الآن هي في عش السنونو عشيقها الأثير ، إنهما خطيبان عاشقان

وكانت الدوامة تشعر نحو الكرة بحب عنيف وشوق هزّاز بعد اختفائها وتواريها عنها

أن تكون الكرة الحبيبة خطيبة هانئة وزوجة سعيدة لطير السنونو — ذلك ما كان يرمض حشاها ويضاعف أساها ، ومع هذا فقد استأنفت الدوامة بعد هذا الفراق والبعد حياة الرقص والدوران ولكن كانت دائمة التفكر والتذكر للكرة الراحلة التي كانت تحتل من مملكة خيالها شيئاً فشيئاً مركزاً قدسياً ممتازاً من السحر والجمال ثم تحول هذا الحنين إلى الكرة مع الزمن إلى وجد دفين وهوى مبرح

لم تكن الدوامة في ميعة صباها؛ غير أنهم في ذات يوم لونوها بنقوش بديعة وزخارف مذهبة وفضية وحمراء وصفراء وخضراء وزرقاء، فبدت في حلة موّاجة الألوان لم ترتدها في عمرها : تمتع العين بالبريق الألق وتطرب الأذن بالخرخزة الموسيقية ولكن آه ... لو استطاعت عين الكرة النازحة أن تتملى الآن من بريقها وزخرفها. إذن لتيمها حبها وفتنتها محاسنها

وذات يوم بينا الدوامة في دورة من دوراتها الراقصة ، عثرت بحصاة في رقصها أقفزتها إلى بعيد فأغمي عليها هناك وانطرحت دون أن تراها عين أو يواسيها أحد. فتبشواعنها في كل موطن وتقبوا في كل مكان، حتى يئسوا من وجودها ولم يعثروا عليها، وإذاً فأين هي ؟ ... هي مع الأسف في علبة القمامة بين أكداس التراب القذر والأوساخ المفنة

قالت الدوامة في حسرة : والهفتاه على أواني الزاهية وأصباغي اللمّاعة ، أو قدّر عليّ أن أقضي العمر سجينة في هذه القمامة الوبيئة المنتنة ؟

ونظرت الدوّامة فيما حولها فأبصرت بالقرب منها فضلات من خضار « السلاطة » ثم شاهدت شيئاً مدوراً صغيراً حسبته تفاحة فاسدة . ولقد كان ما رأته كرة هرمة أمضت سنواتها الأولى في رطوبة البالوعة القذر ومائها النتن ثم انتقلت منها إلى علبة القمامة. فكان مجرد لمسها يقزز النفس ويلوث اليدين بالوباءة والقذر . قالت هذه الكرة الهرمة الكريهة وقد أبصرت الدوامة المذهبة بقربها :

— حمداً لك يا ربي فقد مننت عليّ بأخت من جنسي وطرازي أستطيع معها أن أستطيب الحديث الحلو منذ الآن . ثم التفتت إلى الدوامة فقالت :

— لا تنظري الآن إلى رثاثة حالي وكراهة منظري . فقد كنت كرة رائعة الحسن ، انحدرت من سلالة الأكر الإسبانية الممتازة بالرشاقة والأناقة ودلّ الرقص الحار ؛ ولكن صبياً طائشاً هو الذي لوث أديمي حين ألقاني من يده الرعناء في البالوعة . ولقد كنت سابقاً على وشك أن أتزوج فرخاً جميلاً من فراخ السنونو حين ألقتني يده في هذا المكان الذي لبثت فيه ، وفي البالوعة قبله خمس سنين . فوالهفتاه على جمالي الذاهب ورشاقتي الضائعة . لشد ما نفخت جسمي البديع النحيف رطوبة البالوعة فشوهت جسمي الجميل وصيرتني صورة للدمامة والقذارة !

لم تقل الدوامة كلمة لأن ذكرى غرامها القديم كانت تتمثل أمام ذهنها . يا للعجب ! هل كانت تتوقع أن يكون هذا المصير المخجل الكريه مصير تلك الكرة الفخورة المتكبرة التي كانت تجن لها بين ضلوعها أحر الهيام وأصدق الوجد في عهود شبابها الغرير المرح !

وأقبلت الخادم فتناولت صندوق القمامة وألقت محتوياته في الشارع . وحين أبصرت الدوامة بين القذر حملتها إلى الأطفال كي يلعبوا بها من جديد . أما الكرة الهرمة الكريهة فقد ظلت في كفن من قذر ووسخ الشارع ...

كمال الحريري

سر المعلم كورني

للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه

بقلم الأديب عبد الغني العطري

تعريف بالقصة

يمكننا أن نقول دون غلو أو مبالغة إن كتاب رسائل من طاحونتي لدوديه هو أحسن ما أنتجه على الاطلاق . واسمع ماقاله شارلي سارولا في مقدمة هذا الكتاب

« إن فن القصة فن فرنسي ، وليس ثمة منطقة في فرنسه أنتجت قصاصين مجيدين كما أنتجته بلدة التروبادوريين ، وليس بين القصاصين البروفانسيين شبيه لألفونس دوديه ؛ وليس بين أقاصيص دوديه ما يفوق رسائل من طاحونتي »

وأنا أقول إنه ليس بين أقاصيص رسائل من طاحونتي أحسن ولا أروع من : « معزة السيد سوغان » و « العجوزان » و « نائب الوالي في القرية » و « سر المعلم كورني » ...

فرانسيت مامال نافخ في المزمار عجوز ، كان يأتي لقضاء السهرة عندي من آن لآخر . وبينما كان ذات مساء يحتسي أكواب الخمرة المعتقة قص عليّ مأساة قروية قصيرة ، حدثت منذ عشرين عاماً وكانت طاحونتي من اللواتي شهدنها

وقصة الرجل الساذج هذا أثرت فيّ تأثيراً بليغاً وسأحاول ما استطعت أن أقصها عليكم كما سمعتها

تصوروا يا قرائي الأعزاء أنكم جالسون قبالة إبريق من الخمر المعطر ، وأن الذي يحدثكم هو هذا العجوز النافخ في مزماره :

إن بلدتنا يا سيدي لم تكن مجدبة أبداً كما هي اليوم . لقد كانت تقوم فيما مضى بتجارة واسعة في الطّحانة ؛ ومن مسافة عشرة فراسخ كان سوّاقو الحمير يأتوننا بحنطتهم لنطحنها لهم . وكانت الهضاب المحيطة بالقرية مغطاة بمطاحن الهواء ، وحيثما تلفت المرء يمنة أو يسرة لم يكن ليرى إلا أجنحة تدور باتجاه الريح الشمالية مغطية أشجار الصنوبر ، وجوعاً كثيرة من صغار الحمير محملة بأكياس الحنطة تصعد بها تارة وتهبط أخرى . وهكذا دواليك طيلة الطريق ، وكان من الممتع سماع صوت السياط من علٍ مدى الأسبوع ، وطقطقة النسيج ، وأصوات مساعدي أصحاب المطاحن وهم يحثون حيواناتهم على الإسراع . وفي أيام الآحاد كنا نذهب إلى المطاحن وحداناً وجماعات ، وهناك في تلك المرتفعات كان الطحانون يرشفون الخمر المعطرة . أما أزواج أصحاب المطاحن فقد كن جميلات فاتنات كما لو كن أزواجاً لملوك ، تزينهن مناديل أعناقهن المصنوعة من الخرم(١) وصلبانهن الذهبية . أما أنا فقد كنت آتي بمزماري ويظلون هم يرقصون الفرندول(٢) حتى يقبل الليل بحلكته . وهذه الطواحين أتراها ؟ لقد كانت مصدر غنى وسعادة بلدتنا

ولكن أسس — لسوء الطالع — بعض فرنسيي باريس مطحنة تدور بواسطة البخار على طريق (تاراسكون)

(١) الدنتيلا

(٢) رقصة « بروفنسية » وبها يمسك الراقصون بعضهم بأيدي بعض ويرقصون على خط مستقيم

والناس راغبون فى الجديد ، ميالون إليه لأنهم يجدون فيه لذة ، وفى نفوسهم إليه رغبة ، وهكذا اعتاد الناس منذ ذاك الحين إرسال بُرّهم إلى مطاحن البخار

أما مطاحن الهواء المسكينة فقد ظلت بلا عمل ، ولقد حاولت بعدئذ المقاومة فناضلت وصمدت ؛ ولكن الغلبة كانت للبخار . ثم أفلست واضطرت كلها إلى إغلاق أبوابها الواحدة بعد الأخرى ؛ فلم يكن يُرى بعد ذاك تلك الحمير الصغيرة تأتى وتروح، وأزواج أصحاب مطاحن الهواء الجميلات بعن صلبانهن الذهبية ... فلا خمر عنب معطرة ، ولا رقصات الفرندول الجميلة . أما ريح الشمال فقد هبت كثيراً ! ولكن ... أجنحة تلك المطاحن ظلت جامدة لا تتحرك ولا تدور ...

ثم جاء يوم أزالت به مديرية البلدة كل هاتيك الخرائب من أصلها ، وزرعت مكانها الكروم وأشجار الزيتون

إلا أنه بالرغم من كل ما حدث ظلت واحدة فى وسط تلك الخرائب الزائلة ، صمدت لأحداث الزمان ، وتقلبات الدهر ، ظلت أجنحتها تدور بهمة ونشاط على ربوتها ؛ وذاك رغم أنف أصحاب مطاحن البخار . كانت هذه مطحنة المعلم كورنى ، وهى نفسها التى نقضى بها سهرتنا الآن

***

كان المعلم كورنى طحاناً عجوزاً قضى ستين عاماً من حياته بين الطحين . ولقد صيره إنشاء مطاحن البخار مجنوناً أو كالمجنون . ولقد شوهد مدة ثمانية أيام يركض فى القرية داعياً الناس إليه ، صائحاً بهم بكل ما أوتى من قوة حنجرة ، وارتفاع صوت :

إنهم يريدون أن يسموا الناس بطحين مطاحن البخار وكان يقول :

— حذار أن تذهبوا إليهم، إن أولئك اللصوص يريدون أن يصنعوا الخبز فيستعينوا على ذلك بالبخار الذى هو من عمل الشيطان ! بينما أنا أستعين بالرياح — والرياح الشمالية فحسب — التى هى من أنفاس الخالق عز وجل .

ولقد سمع إذ ذاك كثيراً من الكلام فى مديح مطاحن الريح وإطرائها ؛ ولكن إلى جانب ذلك لم يعمل أحد بنصحه .

ثم توارى كورنى عن الأنظار بقوة إرادته ، غاضباً ، حانقاً ، وظل وحده فى طاحونته كحيوان متوحش ؛ ولم يشأ أن يكون قربه أحد ، حتى ولا حفيدته « فيفيت » البالغة من العمر خمسة عشر ربيعاً ، والتى منذ فقدت والديها لم يبق لها من قريب سوى هذا الجد .

ولقد اضطرت هذه الصغيرة المسكينة إلى كسب القوت بكد اليمين ، وعرق الجبين ، فكانت تكترى تارة لتسوق الحمير المحملة ، ولتقودها فى الطريق ؛ وتارة للعمل فى أيام الحصاد أو لغيرهما من الأعمال .

ولقد كان جدها مولعاً بها كل الولع محباً لها كل الحب ؛ وعند ما يلج به الشوق إليها والحنين ، كان يقطع المسافات البعيدة ، فى حر الظهيرة، مشياً على الأقدام، باحثاً عنها خلف الأعمال، حيث تشتغل. وعند ما يكون إلى جانبها ، كان يحملق فيها أبداً — وقد يقضى الساعات الطويلة كذلك — وهو يذرف الدموع

وكان سكان البلدة يحسبون أن هذا العجوز لم يدفع بحفيدته إلى تيار العمل ، ومعترك الحياة ، إلا بخلاً منه وتقتيراً

وما كان هذا الظن ليشرفه ، كما لم يكن يشرفه القذف بحفيدته من مزرعة إلى أخرى ؛ معرضة خلال ذلك إلى فظاظة البعض ، وإلى شقاء الطفولة وبؤسها

وكان من العار كله على من كانت له شهرة المعلم كورنى وصيته ، والذى ظل حتى ذاك الوقت محترم الجانب موفور الكرامة ؛ أن يقطع الطرقات الطويلة حافى القدمين ممزق القلنسوة والثياب كنورى أصيل

وعند ما كنا نراه فى أيام الآحاد يحضر القداس فى حالته الرثة تلك كان الخجل يساورنا منه نحن الـكهول ، ولقد كان المسكين يحس ذلك جيداً ، إذ لم يكن يجرؤ على الجلوس على المقاعد المصنوعة ، بل كان دوماً يظل فى أقصى الكنيسة بالقرب من الجرن المقدس مع الفقراء والمساكين

ولقد كان فى حياة كورنى أشياء غير مجلوّة ، منها أن أحداً لم يعد يرسل إليه بُرّه ليطحنه ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت أجنحة طاحونه تدور أبداً كما كانت قبلاً . وفى المساء كان القرويون يلقونه فى الطريق ، وهو يدفع أمامه حماره المحمل بأكياس الطحين الكبيرة ، فيلقون عليه تحية المساء ويسألونه عن طاحونه :

— كيف حال المطحنة ، أما تزال بخير ؟

فيجيبهم العجوز بجد وحزم :

— بخير دائماً يا أولادى ! حمداً لله وشكراً على أن العمل لا ينقصنا

فإذا ما سُئل عمن يأتيه بقمحه ، زوى ما بين حاجبيه ووضع سبابته بشكل عمودى أمام شفتيه اللتين استدارتا وأجاب بثبات وعزم :

— صه ! . . . إنى أعمل للتصدير إلى الخارج

ولم يكن فى المستطاع استدراجه للتصريح بأكثر من هذا .

أما أن يطأ المرء عتبة طاحونته فهذا أمر غير معقول ولا يجب التفكير فيه أبداً ، حتى أن حفيدته فيفيت نفسها لم تطأها قدماها قط .

وكنت إذا ما مررت بها وجدت بابها مغلقاً وأجنحتها الغليظة تدور ، دون ما توقف أو تمهل ، وحماراً كبيراً يعلف شيئاً من العشب ، وسنوراً كبيراً ، ولـكنه هزيل ونحيل ، راح يعرض جسمه لأشعة الشمس ، وهو جالس على حاشية النافذة ، ويرسل من ناظريه نظرات خبيثة ماكرة .

كل هذا مما يشمرك بالغموض فى حياة المعلم كورنى ويستثير فى الناس الفضول ، وحب الاستطلاع ؛ وكل امرىء كان يتكهن ويعمل فكره لإظهار هذا السر واكتشافه ، وكان الشائع بين الجميع أن فى هذه المطحنة أكياساً من الدنانير ، أكثر مما فيها من أكياس الطحين .

* * *

ولقد كشف كر الغداة ومر العشى ، اللثام عن كل ماخفى من هذا السر ، وهاكم كيف كان ذلك :

بينما كنت ذات يوم أسلّى نفسى بالنفخ فى مزمارى ، شعرت بأن ابنى البكر و « فيفيت » الفتاة قد تحابا وصارا عشيقين . والحق يقال أنى لم أغضب لهذا الحادث ؛ لأن اسم كورنى كان لا يزال شريفاً ومحترماً عندنا ، ومن ثم هذه « العصفورة ! » الجميلة « فيفيت » كان يلذ لى أن أتصورها وهى تتهادى بطلعتها البهية فى دارى

وبما أن الفرصة كانت تسنح لعاشقينا بالاختلاء أحياناً فقد خشيت أن يحدث بينهما ما لا تحمد مغبته ؛ لذا آليت على نفسى أن أنهى الأمر حالاً . فذهبت إلى الطاحون كى أتحدث إلى الرجل العجوز فى هذا الأمر

يا له من عجوز ساحر! ترى بأية صورة استقبلني؟ إنه من غير الممكن أن يكره على فتح باب طاحونته لأحد ... ! لقد أخبرته من شق القفل بالدافع الهام الذى حدا بي لمقابلته والحضور إليه . وبينما أنا أفعل ذلك وألح عليه بمقابلتى كان السنور الخبيث الهزيل يموء فوق رأسى كشيطان رجيم

ولم يمكّننى العجوز من إتمام كلامى بل صاح فى وجهى بصورة تخلو من الأدب والذوق ، وأمرني أن أعود إلى مزماري ،قال إنى إذا كنت عجلان إلى هذا الحد فى تزويج ابنى فما علىّ سوى أن أبحث له عن فتاة من بنات أصحاب مطاحن البخار

ثقوا أن الدم قد فار فى عروق لسماع كلمات شائنة كهذه ، ولكنى كتمت غيظى وثورة غضبى وززقت ساعتئذ عقلاً واسعاً وحلماً كثيراً ، وتركت هذا العجوز المعتوه فى طاحونته وعدت أدراجى لأروى للعاشقين الصغيرين خيبة أملى ومسعاى . أما هذان الحملان الوديعان فلم يصدقانى وطلبا إلىّ بلطف وظرف أن أسمح لهما بالذهاب معاً إلى الطاحون ليتحدثا إلى الجد العجوز فى هذا الشأن . فلم أقو على الرفض ولم أجد له سبباً

ها إن العاشقين الصغيرين قد ذهبا ، وبينما كان يسلكان سبيلهما السوى إلى الطاحون كان المعلم كورنى يغادرها لأمر

لقد وجدا الباب محكم الإغلاق والقفل ، غير أن العجوز المسكين عند خروجه نسى السلم خارج الطاحون . وخطر للعاشقين إذ ذاك اغتنام الفرصة النادرة السنوح بأن يدخلا من النافذة ويكحلا عيونهما بالنظر إلى هذه الطاحون الذائعة الصيت

شىء لا ندّ له ولا مثيل ! .. غرفة الرحى كانت فارغة ... من كل شىء ، وليس فيها أكياس قمح ، حتى ولا حبة واحدة ، ولا أثر لغبار الطحين على الجدران ، ولا على نسيج العنكبوت الكثيف . وعدا ذلك لم يكن المرء ليشعر برائحة البُرّ الزكية الحارة التى تنتشر منه عقب طحنه والتى تنبعث عادة فى كافة المطاحن . وكان محور الرحى مغطى بطبقة من الغبار الكثيف ، والسنور الكبير الهزيل يرقد فى الأعلى

أما القسم الأسفل فقد كانت تبدو عليه أيضاً أمارات البؤس والهجر : سرير أكل الدهر عليه وشرب ، وبضع خرق ومزق ، وكسرة خبزموضوعة على إحدى درجات السلم ؛ وأخيراً فى أحد الأركان ثلاثة أو أربعة أكياس مثقوبة من جوانبها يتساقط منها المضرم(١) وشىء من قطع الجبس

هـذا هو سر كورنى الكئيب ، الذى حرص على إخفائه ، وكانت هذه الفضلات من جبس الجدران الخربة هى التى « ينزهها » صباح مساء فى أكياس ضخمة ليصون بها سمعة طاحونته من التلوث وشرفها من الدنس والعار فيوهم الناس بذلك أن رحاه تعمل وتشتغل .

يا للرحى المسكينة ! ويا لكورنى البائس المسكين إن أصحاب مطاحن البخار قد نزعوا من نفسكما منذ زمن بعيد آخر أمل لكما فى العمل . إن أجنحة رحاه تدور دائماً ، ولكن الرحى كانت تدور على ... على نفسها !

ولقد عاد إلىّ العاشقان والدموع تترقرق فى مآقيهما ، فقصا على ما رأياه ، ولقد شعرت إذ ذاك أن قلبى يكاد ينفطر أسى ولوعة لمصاب هذا العجوز وفى الحال أسرعت إلى الجيران فقصصت عليهم

(١) تراب يشبه الجبس

الخبر بإيجاز ، وعزمنا عزماً أكيداً على إرسال كل ما فى بيوتنا من حنطة إلى طاحون المعلم كورنى بأسرع وقت . ولقد عزمنا ونفذنا عزمنا لساعته ، فقامت القرية بأسرها تسعى إلى رابية المعلم كورنى وهى تسوق أمامها الحمير المحملة بالحنطة ... الحنطة الحقيقية !

وهناك كان باب المطحنة مفتوحاً على مصراعيه وأمام الباب كان كورنى جالساً على كيس جبس ، وهو ينتحب ويذرف الدمع السخين، ورأسه بين يديه . لقد شعر المسكين بأن أحداً دخل مطحنته خلال غيبته واكتشف سره الحزين . وكان يقول :

— يا لى من شقى تاعس ! لم يبق أمامى الآن سوى أن أموت ، لقد فضح سرى ، واكتشف أمرى ، وتلوث شرف مطحنتى

ثم شهق شهقة كادت نفسه تتصدع لهولها ، وأخذ ينادى طاحونه بأعذب الأسماء وأرقها ويناجيها كأنها إنسان ينطق

وفى هذه الآونة وصلت الحمير التى كانت تتقدمنا إليه . وأخذنا جميعاً نصيح به ونناديه بكل ما أوتينا من قوة حنجرة وارتفاع صوت ، كما كنا نفعل فى أيام مطاحن الهواء :

— أى صاحب الطاحون ! أى معلم كورنى !

وها هى ذى الأكياس الضخمة تتكدس ، بعضها فوق بعض أمام باب المطحنة ، والقمح الأصهب الجيد يتناثر على الأرض من كل ناحية وصوب .

وفتح المعلم كورنى إذ ذاك عينيه الكبيرتين وتناول فى راحة يده العارية الأشاجع(١) شيئاً من القمح وقال وقد امتزج ضحكه بدموعه :

يا إلهى ! ... إنه قمح حقاً ! قمح جيد ! دعونى بربكم أمتع ناظرى برؤيته جيداً

ثم مال إلينا بوجهه وقال :

— لقد كنت واثقاً من أنكم ستعودون إلىّ ، إن أصحاب مطاحن البخار لصوص بأجمعهم

وأردنا أن نحمله على الذهاب معنا إلى القرية للاحتفال به ، ولكنه أبى ذلك وقال :

— كلا يا أولادى لا أريد ... يجب علىّ أن « أطعم » مطحنتى قبل كل شىء ، أذكروا أنه مر عليها أمد طويل لم تضع خلاله شيئاً تحت «ضرسها!»

وأخذت الدموع تترقرق فى مآقينا جميعاً لمرأى هذا العجوز المسكين الذى كان يميل يمنة ويسرة وهو يفرغ أكياس الحنطة مما فيها ويراقب الرحى وهى تدور كل ذلك بينما كان الحب ينسحق ، وغبار الطحين الناعم يتطاير فيملأ جو المطحنة ويصل إلى سقفها .

ولعل من الإنصاف لأنفسنا أن أقول : إنه منذ ذاك اليوم لم ندع الشغل ينقص هذا العجوز أبداً

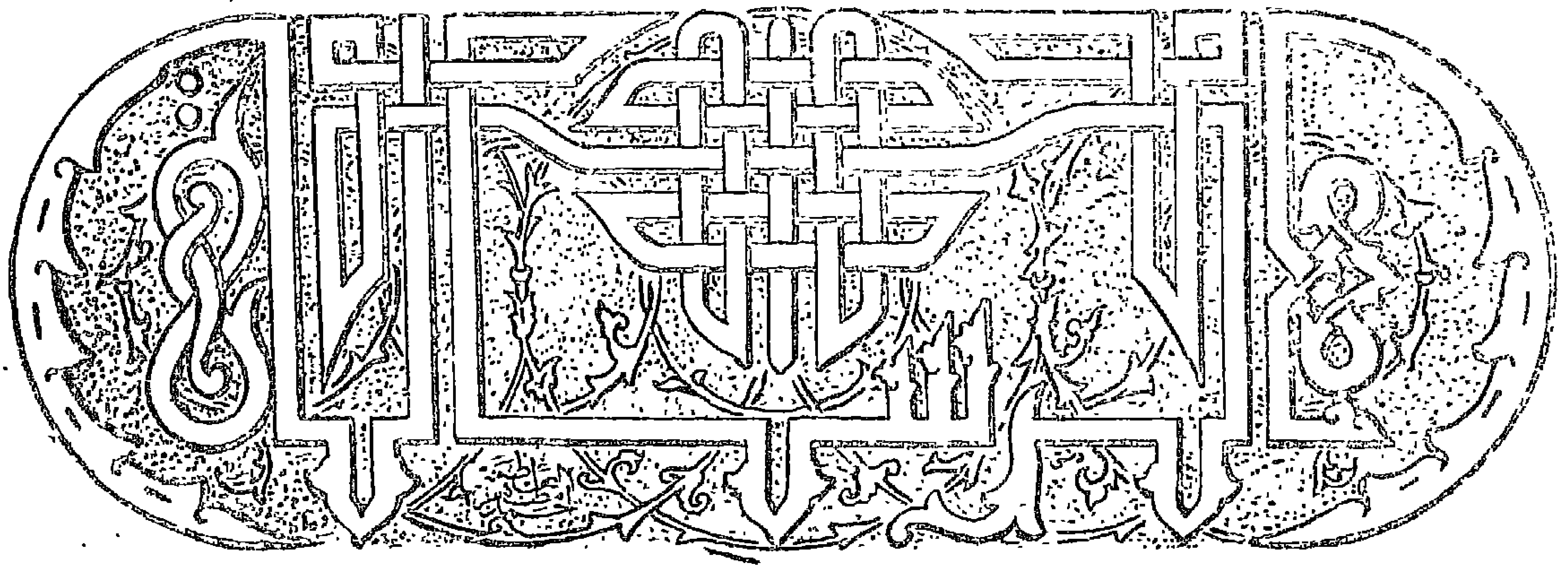
ثم ... مات المعلم كورنى ذات صباح وأمسكت أجنحة آخر مطحنة للريح عن الدوران ، ولكن ... إلى الأبد ... إلى النهاية ... فى هذه المرة . لقد مات كورنى ولم يخلفه أحد . وماذا تريد يا سيدى ؟ إن لكل شىء نهاية ، وإن كل حال مصيره إلى الزوال ولا مفر ، ولكن يجب أن تعتقد أن زمن مطاحن الهواء قد انقضى كما انقضت أيام العربات الكبيرة ، وأيام المجالس النيابية ، وأيام السترات ذات الأزاهير الكبيرة(١)

(دمشق) عبد الغنى العطرى

(١) أصول الأصابع

(١) Jaquette à grande fleur ضرب من الثياب كان الرجال يرتدونها فى فرنسة فى الزمن الغابر

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية


الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

واشتراكها الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العـدد ٧٠ — ٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٨ — ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد

ثورة العاجز

[قصة حصلت على جائزة ٢٠٠ جنيه]

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« ماذا كنت تعمل لو أنك كنت أبا أو أما لهذه الفتاة التى وقعت فريسة لوحش أجنبى ؟ »

***

لو أنك ممن كانوا ، قبل اثنتى عشرة سنة ، يقرأون الصحف التى تصدر فى بلدتنا الاسكتلاندية ، لما كان لك بد من أن تقرأ قصة « ألك فوربس » ، فقد كان « ألك » رجلاً ذائع الصيت فى المنطقة ، وقد اكتنف الغموض قصته التى استرعت أنظار الناس إليها

ولكنت قرأت أن « ألك فوربس » الذى يملك فى البلدة حانوتاً لبيع الحديد ، ويملك فى المقاطعة كثيراً من العقار قد استدرجه رجل مجهول إلى مزرعة مهجورة معروفة باسم « مزرعة ميزور » وضربه ضرباً مبرحاً تركه بين الحياة والموت

وتتلخص هذه القصة فى أن مستر فوربس لم يكد يغلق باب حانوته فى المساء حتى أقبل عليه رجل لا يعرفه وقال له إنه راغب فى ابتياع قطعة أرض من أملاكه واقعة فى طرف البلدة وسأله أيستطيع أن يرافقه لمعاينتها ، فأجاب فوربس طلبه واستقل معه سيارته فانطلقت بهما حتى إذا بلغا قطعة الأرض المقصودة دهش فوربس إذ رأى السيارة تجتازها مسرعة لا تقف ، وقد أشار سائقها فى كلمات مبهمة إلى قطعة أرض أخرى ، واستمر فى طريقه حتى بلغا مزرعة ميزور القديمة التى تبعد حوالى أربعة أميال من البلدة على طريق قليلة الاستعمال

وهناك وقف الرجل الغريب السيارة وأمر مستر فوربس أن ينزل منها ثم انهال عليه بالضرب العنيف ، ثم استقل المعتدى سيارته منصرفاً تاركاً وراءه الرجل فاقد الوعى دامياً

وفى ساعة متأخرة من المساء تلقى الدكتور مونتروز ، وهو الطبيب الوحيد فى البلدة ، رسالة تليفونية من سيدة لم تذكر اسمها ، أبلغته فيها أن حادثاً قد وقع فى « مزرعة ميزور » وطلبت منه أن يذهب فى الحال لإسعاف المصاب

وقد ارتاب الطبيب فى الخبر ولكنه لم يجرؤ على إغفال الطلب ، فاستقل سيارته إلى مكان الحادث وهناك دهش إذ رأى صديقه الرجل الطيب فوربس ملقى على الأرض أقرب إلى الموت منه إلى الحياة

وأسرع الطبيب فى نقل صديقه المصاب إلى مستشفى قريب إذ لم يكن لينقذ حياته غير أمهر الجراحين ، ولما غادر المستشفى بعد حوالى ثلاثة أشهر كان يحمل إلى يمينه ساعداً تكاد تكون مشلولة .

وفى أسرع وقت ممكن سأل البوليس مستر فوربس عن معلوماته فى هذه الجريمة فأصر على القول بأنه لا يعرف ضاربه وأنه لم يره قط من قبل ، وأنه لا يعرف سبباً يدعو إلى هذا الاعتداء . ولم يستطع أن يصف المعتدى إلا وصفاً غامضاً لأن الساعة كانت

منتصف السابعة عند ما أغلق حانوته وكان الغسق قد هبط فعلاً

والظاهر أن إنساناً ما لم ير « فوربس » فى السيارة مع المعتدى عليه ، لأن بلدتنا صغيرة ومنتصف الساعة السابعة هو الوقت الذى تجلس فيه أغلب العائلات عادة على مائدة العشاء الأول . ولم يستطع البوليس أن يهتدى إلى معرفة الجانى لفقدان كل أثر يدل عليه ، ووجد نفسه حيال قضية غامضة

ولو أنك تابعت قراءة الصحف لعلمت أنه لم يمض على شفاء مستر فوربس بضعة أسابيع حتى باع ممتلكاته فى المقاطعة كما باع حانوته وسافر هو وزوجه إلى جنوب انجلترا . وقد تحدثت الصحف كثيراً فى أمر رحيله وعلقت فى لهجة العطف على ما أصبح فى حكم الواقع من أنه لن يسترد صحته كاملة من جراء الضرب العنيف الذى أصيب به

وفى الحق أن الإنسان كان يجد فى بعض نواحى هذه التعليقات من حين إلى حين ما يشير إلى الحقيقة المعروفة من أن مستر فوربس كان رجلاً عالى السمعة محترماً فى منطقته ، مقدماً فى كنيسته ، وكان أمين صندوق جمعية التجار ورئيس نادى الروتارى ، وكان من أكبر أعضاء نادى الصيد ومعضديه ومن أشد المتحمسين الرياضيين

وكثرت الإشاعات والتكهنات حول ما حدث لمستر فوربس ، وقليل من الناس من ذهب فى تكهنه إلى افتراضات خالكة ، ولكن أهل البلدة على الإجمال كانوا فى حيرة من الأمر ، وإلى هذا اليوم لا يزال بعضهم يعيد ذكرى هذا الحادث مقرونة بالدهشة ...

وليس فى العالم ـ عدا مستر فوربس نفسه ـ غير ثلاثة يعلمون حقيقة هذا الحادث ، وأنا واحد من هؤلاء الثلاثة ، وسأروى هنا القسم الذى لم يتكهن به أحد ولم يذكره إنسان قط

ولقد ظننت أول الأمر أن شفتى ستبقيان أبداً مطبقتين فلا تنفرجان عن كلمة فى هذا الحادث . ولكن حدث من عهد قريب أن قرأت امرأتى قصة حادثة مروعة فى ليفربول فأغرتنى بالكلام ، لأن خيراً كبيراً قد يتحقق من رواية قصة « إلك فوربس » على حقيقتها

فأنا أروى هذه القصة لأن كثيراً من أمثالها يحدث فى هذه الأيام ، وإني لأعتقد أن كثيرات من البنات يوسمن بوصمة العار طوال حياتهن أو يصبن بجروح فظيعة فى نفوسهن لا يستطعن أبداً طمس آثارها ...

لهذا سأروى الحادث الفظيع الذى نكبت به أسرتنا ، وسأقص كيف كان لسلامة عقل امرأتى الكاملة وحكمتها الفضل فى أن تستطيع فتاة صغيرة استئناف الذهاب إلى مدرستها غير متعرضة للنظرات المتطفلة ولا للأسئلة والتعليقات المحرجة ، بل وقد استطاعت فيما بعد أن تتزوج وتذهب إلى زوجها ، وليس فى عينيها ما ينم عن العار . ومع ذلك فقد عوقب المجرم الفاسق أقسى العقاب على جريمته

نشأت أنا وامرأتى « فلورنس بيكر » فى هذه الناحية التى استقرت فيها حياتنا فيما بعد ، وبدأنا معيشتنا الزوجية فى مزرعة أبى على مسافة ثلاثة أميال من المدينة على التقريب . ويشق المزرعة نهير عرف بما يصطاد فيه من سمك اللوت . ومزرعتى — التى آلت إلىّ بعد موت أبى — واقعة على رأس

النهير بما يشبه النور . وعلى الرغم من أن الناس كان يصطادون على مقربة من أرضنا فإنه كان من النادر أن يصل أحدهم إلى المزرعة ، إذ علموا أننى لم أكد أبيح الصيد فيها . كذلك كان القسم الذى يجرى من النهر فى مزرعتنا قصيراً جداً

وكان قد مضى علينا فى حياتنا الزوجية خمس سنوات اعتقدنا فى نهايتها أن العناية الإلهية قد حرمتنا نعمة الأولاد عندما رزقنا بابنتنا الأولى

وكادت امرأتى تموت عند الوضع ، وقال لها الطبيب إنه يجب ألا ترزق بأطفال أبداً . لهذا كان شعورنا نحو جين أو جينى كما سميت فيما بعد شعوراً غريباً على نوع ما

وإنى لأظن وإن كنت أباها الذى يتحيز لابنته أنها كانت حقاً طفلة بديعة . وعلى الرغم من أنها كانت طفلة قوية البنية فإنها لم تمل قط إلى السمن بل كانت دائماً رشيقة الجسم رقيقة ، مستطيلة الوجه قليلاً زرقاء العينين ضاحكتهما . ولما كانت طفلة كان شعرها شديد الميل إلى البياض ، وتحول لونه تدريجاً حتى إذا بلغت الحادية عشرة كان قد أصبح أصفر قاتماً يتدلى فى حلقات على كتفيها

ولعله غير خليق بى أن أبعد عن موضوعى لأسترسل فى هذا الوصف الذى لا علاقة له بالقصة الأصلية . على أن جينى كانت فتاة مملوءة حياة ولطفاً فكانت شمس حياتى وحياة أمها

وكانت امرأتى فلورنس سباحة ماهرة ولم تكن ابنتها غير طفلة عند ما علمتها السباحة . وبعد فترة من الزمن بنيت لها حوضاً للسباحة على النهير بعيداً قليلاً عن الطريق العام تحميه فروع الشجر الكثيفة فكانت عادتهما التى لا يحيدان عنها أن يقضيا هناك جميع أمسيات أيام الصيف سابحتين غاطستين لاعبتين فى الماء ما تشاءان أو مستلقيتين على الشاطئ غافيتين أو مراقبتين سمك اللوت

وفى الصيف الذى وقع فيه الحادث الذى أرويه هنا كانت امرأتى قد أصيبت فى ركبتها ولم تكن لتستطيع السير إلا متوكأة على عكازين . لذلك لم تكن تستطيع أن تصحب جينى إلى البركة فكانت جينى تذهب وحيدة ، وكانت ترى كل يوم على التقريب وهى تسير بعد الظهر متجهة إلى الحوض حاملة رداء السباحة الأحمر القصير على ساعدها

وكانت تخلع ملابسها على الشاطئ بجوار الحوض وتلبس ثوب السباحة وتغطى جدائلها بطاقية من المطاط ثم تقفز إلى الماء

وفى مساء يوم من الأيام الأخيرة فى شهر أغسطس كنت جالساً فى الحديقة الخلفية عند ما وقفت سيارة خارج باب هذه الحديقة ، فلما نظرت رأيت سائقها هو مستر « الك فوربس » بائع الحديد ، ولم تكن علاقتى به تتجاوز علاقة البائع بالمشترى العادى ، ولكننا تكلمنا فترة فى المحصول وفى شؤون البلاد على وجه العموم كما يتحدث الرجال عادة . ثم سألنى ألدى مانع من أن أسمح له بالصيد فى منطقة النهير الواقعة فى أرضى داخل السور . فدهشت قليلاً لأنه كان معروفاً للناس جميعاً أننى لا أسمح لأحد بالصيد فى هذه المنطقة . فقلت فى أدب :

— إنى لآسف يا مستر فوربس لأن هذه المنطقة هى الوحيدة التى نصطاد فيها ، وجميع أفراد الأسرة يحبون الصيد ، لذلك أحتفظ بها لنا خاصة

فقال الرجل فى لهجة المؤمن على كلامى المقتنع بجوابى :

— فهمت . . . على أننى كنت ماراً من هنا وظننت أن لا ضرر فى السؤال

ورأيت عينيه تحدقان فى الحقل فلما تتبعت نظراته رأيت جينى تحمل لباس سباحتها عارية الرأس وضاءة فى الشمس تسير متخطرة تقصد إلى حمامها اليومى . فسألنى الرجل :

— أهذه ابنتك الصغيرة ؟

فأجبته :

— نعم هذه هى جينى ، فهى تذهب للسباحة هناك ، وهذا سبب آخر من الأسباب التى تحملنى على عدم السماح للصيادين بالذهاب إلى هذه المنطقة . وامرأتى وجينى تحبان السباحة ولا يمكنهما أن يذهبا ويعودا فى حرية مطلقة إذا كان الصيادون يغشون المكان ويعكرون عليهما صفوهما

فقال :

— لا شك فى أنك على حق ، والآن فلأذهب فقد كان خطر لى أننى أستطيع أن أصطاد فى هذه المنطقة لعلى أظفر بشىء من السمك

وأسرع الرجل إلى سيارته فاستقلها ومضى ، ولم يلبث أن غاب عن نظرى وراء منعطف الطريق . وفى تلك الليلة رويت ما حدث ونحن جالسون على مائدة العشاء فنظرت إلى جينى فى دهشة وقالت فى لهجة ساخطة :

— ولكنى واثقة يا أبى من أنه كان يصطاد ، لأننى عند ما عدت إلى البيت عدت من الطريق العام وكانت سيارته واقفة على مقربة من النهير ، ولكنى لم أره فى أى مكان

وكان من الطبيعى أن يضايقنى ما سمعت بعض الشىء لذلك صممت على أننى فى أول مرة أذهب إلى البلد أقصد إلى حانوت مستر فوربس لأفهمه أننى أعد عمله تحايلاً غير لائق

ولست أذكر بأى شىء كنت مشتغلاً فى اليوم التالى ولعلى كنت أتسكع من مكان إلى مكان غير قادر على عمل أى شىء لأن اليوم كان شديد الحرارة . فلما عدت إلى البيت فى منتصف الساعة الخامسة لأشرب قليلاً من ماء الشعير المبرد الذى كانت فلورنس تعده غالباً فى الأيام الحارة . وكانت فلورنس جالسة فى الشرفة مسندة ساقها المعصوبة إلى كرسى صغير واضعة عكازها إلى جانبها مشتغلة بنوع من الحياكة فجلست على السلم وشربت قليلاً من الشعير وبدأنا نتحدث

وبعد برهة سألتنى فى أية ساعة نحن فلما نظرت إلى ساعتى وجدتها قد بلغت الخامسة فأجفلت امرأتى وقالت :

— الساعة الخامسة ! يا الله . . . ترى ما الذى أخر جينى عن العودة حتى الساعة ، فقد ذهبت إلى البركة منذ الساعة الثانية

فقلت فى بساطة :

— لعلها منهمكة فى جمع بعض الأزهار البرية

ولم يبد على أحدنا شىء من القلق أو الاضطراب فقد كنا نعلم أن فتاتنا تحب الخلاء وأنها تستطيع دائماً أن تجد وسيلة لتسلية نفسها

وتحدثنا فترة أخرى قصيرة ثم إذا امرأتى تصيح جافلة مرتاعة :

— ما هذا؟ ها هى ذى جينى فانظر إليها ! وما من شك فى أنها قد أصيبت بأذى ما . آه يا مالك ماذا أصابها ؟

فوثبت واقفاً على قدمى ونظرت إلى حيث كانت

امرأتي تنظر، وهناك رأيت ابنتي الصغيرة تجر نفسها في بطء وسط المرعى . ولم أستطع أن أتبين الحقيقة ، ولكني حتى مع بعد المسافة قد توكدت أن ضراً قد أصابها ، فجريت صوبها . وقبل أن أصل إليها بمسافة بعيدة تبين لي أنها عارية عن جميع ملابسها . وقد سقطت عدة مرات قبل أن أدنو منها، ولا أظن أنها حتى قد رأتني فقد كان رأسها مائلاً على صدرها

ولست أدري ما الذي تخيلته وأنا أجري في المرعى الذي بدا لي على حين فجأة أنه قد اتسع أميالاً عديدة ، وكل ما أذكره أنني عند ما ضممتها بين ساعدي سمعتها تلفظ بعبارات متقطعة تنم عن القهر والأسى ووجدت جسمها دامياً يحمل آثار العنف

ولم يظهر أنها قد شعرت بوجودي قبل أن أحملها وعندئذ قالت في صوت خافت : « آه يا أبي ! » ثم فقدت شعورها فقداناً تاماً

واتكأت امرأتي على عكازها وأقبلت علينا . وكادت هي أيضاً تفقد صوابها ويغمى عليها عند ما وقع نظرها على الطفلة المنكوبة ، ولكنها تماسكت في الحال ودرجت وراءنا بأسرع ما تستطيع وأنا حامل الفتاة بين ساعدي عائد بها إلى البيت . واشتركنا في غسل جسم جيني الصغير ثم استعنت بالعقاقير على إفاقتها . وخلال هذا الوقت كانت أعيننا الهالمة تنبئنا عن حقيقة ما حدث . فقد وقعت ابنتنا العزيزة التي لا تكاد تتجاوز سن الطفولة فريسة بين يدي وحش آدمي

ولست أدري ماذا قلنا ولكنني أذكر أن وجهينا كانا متجهمين ونحن نعالج ابنتنا المسكينة . وأعلم أن شهوة القتل قد تملكت قلبي ، ولن أنسى ذلك المعنى الذي تجلى في عينيها عند ما عاد إليها صوابها .

فقد نظرت إلينا نظرة فيها من أمارات الرعب مايعجز اللسان عن وصفه ــ فاللهم لا تحكم علي بأن أرى هذه النظرة في عين أي مخلوق بعد الآن ــ لقد كانت نظرة هول ويأس قاتل . ثم وقع نظرها على وجه أمها فاندفعت في البكاء .

وحاولت أن تنهض من فراشها وتضرب بيديها الصغيرتين وهي تصيح مرددة هذه الكلمات :

— بالله لا تفعل . . . أرجوك ألا تفعل . . . آه يا أبي أين أنت ؟

فشرعنا نلاطفها في كلمات رقيقة حتى استطعنا أن نهدئ من روعها ، ولكنها لم تلبث أن هبت جالسة في سريرها وعاودت الصياح والبكاء . ولم نسألها عن شيء ولم نحاول أن نستخلص منها شيئاً . فقد كانت الفكرة الغالبة علينا هي أن نحملها على النوم ، لعلها بعد أن تستيقظ يكون أثر الرعب قد زال من عينيها . حتى إذا توكدنا آخر الأمر أنها قد استغرقت في النوم تسللنا من الغرفة في هدوء

وقلت لامرأتي متجهماً :

— والآن سأذهب لأخطر البوليس وأدعو الطبيب .

فوضعت فلورنس يدها على ساعدي وقالت :

— انتظر

فنظرت إليها مندهشاً من تفكيرها في الانتظار حتى ولو لحظة واحدة . ولكنها مضت تقول :

— انتظر يا « ماك » إذ يجب أن نبحث هذا الأمر بيننا

فقلت في خشونة :

— ليس هناك ما نبحثه أو نتحدث فيه. فأبلغ البوليس والجيران ثم نبحث في كل مكان حتى نجد

الجرم الأثيم فإذا ما وضعت يدى عليه قتلته

فقالت فلورنس مرة أخرى فى صوت خافت حتى لا توقظ جينى :

— انتظر يا « ماك » ! وقل لى ألا ترى أنك لا تستطيع أن تفعل ذلك ؟ فكر فيما يصيب جينى من جراء ما تريد أن تفعل . فهى لن تستطيع تحمل عواقبه ، وأول واجب علينا أن نفكر فى مستقبلها

فصحت وقد تملصت من قبضتها :

— أتريدين أن أترك هذه الجريمة تمر دون أن يعاقب المجرم ؟

فصاحت وقد تمثلت عواطفها الثائرة فى صيحتها :

— أنا لا أبالى بالعقاب ، ولا أبالى بأى شىء غير جينى . إنك لن تفعل ذلك فتؤذيها به . فهى لن تنسى هذا الحادث الفظيع إذا عرف الناس به ، فسيشير إليها كل إنسان باعتبارها ضحية اعتداء شرير ، وستنشر الصحف كلها الخبر ، وسيلازمها العار طوال حياتها ... ألا فلتصدقنى يا « ماك » ، فإنى أعرف ما أقول ! فقد كنت أذهب إلى المدرسة فى وقت من الأوقات مع فتاة أصيبت بمثل هذا الحادث . وثق يا « ماك » أن تلك الفتاة قد عاشت عيشة فظيعة مروعة أعواماً عديدة بعد وقوع الحادث ! لا يا « ماك » إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك . فمن أجل جينى يجب أن نعالج هذا الأمر فى هدوء وتريث

فصحت صيحة عنيفة ناسياً طفلتى النائمة :

— وأنا أقول إن هذا الأمر لن يمر فى هدوء ! فإننى لن أستطيع أن أنام بعد الآن وهذا الوحش مطلق السراح يتنقل من مكان إلى مكان

فصاحت امرأتى غاضبة :

— ومن ذا يهمه إن كنت تنام أو لا تنام ؟ ومن ذا يهمه ما تفكر فيه أو تفعله أو تقوله ؟ ومن ذا يهمه أمر هذا الوحش الذى اعتدى على ابنتك إن كان يحوم حول هذا المكان أو ذاك ؟ إنى أطلب منك ذلك من أجل ابنتى ... إنى لن أسمح بتدمير حياتها لأنه لا ينبغى أن تروى قصة عارها للعالم ، فتصبح وكل إنسان يتهامس عليها وينظر إليها نظرة التطفل

وقفت أنا وامرأتى شاحبى اللون ثائرين يتحدى أحدنا الآخر للمرة الوحيدة فى حياتنا الزوجية . ثم أعادت لنا هدوءنا أنة خارجة من غرفة النوم . فقد كانت جينى تبكى وتحدث نفسها فى نومها . وأظن أن الكلمات القليلة التى سمعتها منها إذ ذاك قد حملتنى على أن أتبين لأول مرة أن فيما تقوله امرأتى شيئاً من الصواب

وكانت جينى تقول وهى نائمة فى أنين موجع :

— أبى ... أبى ... لا تترك أحداً يؤذينى

وبينما أنا جالس أربت على يدها الصغيرة تبين لى مبلغ الأذى الذى يلازمها طوال حياتها إذا عرف الناس قصتها ، وظهرت لى فظاعة ذلك لو حدث . فلن يهم الناس أنها كانت فريسة بريئة . فالأمر هو ما قالت فلورنس ، ستلازمها القصة طوال حياتها وسيتهامس الناس عليها ، ويتفكهون بحديثها . وقد يؤدى عملى إلى سحق حياتها إلى الأبد ، ويحتمل ألا يقبل أى رجل التزوج منها ، إذا نشرت الصحف قصتها ، وهو ما لا بد من حدوثه إذا عرفت القصة وتحدث بها الناس

ولما تسللنا أنا وفلورنس من الغرفة مرة ثانية طوقتها بساعدى وقلت فى تلطف :

— إنك على حق فأنا لا أستطيع أن أسبب لجينى مثل هذا الأمر

وكاد يغمى على فلورنس من فرط ارتياحها، فلما حملتها إلى غرفة نومنا راعنى ما رأيت من شحوب لونها وأمارات المرض التى بدت عليها

وإذا كنا قد عددنا تلك الليلة فظيعة فقد كان الأسبوع الذى تلاها أفظع منها ألف مرة . فقد بقيت جينى فاقدة الرشد مرتفعة الحرارة فترة من ذلك الأسبوع . وفى إحدى الليالى رجوت فلورنس فى أن تسمح لى بدعوة الدكتور مونتروز ، مصراً على القول بأن الأطباء لا يفشون أسرار مرضاهم ، فثارت علىّ ثورة اللبؤة تدافع عن أشبالها ، وقالت :

— قد لا يفشى بعض الأطباء أسرار مرضاهم ولكن هل تضمن لحظة واحدة أن الدكتور مونتروز يمكن أن يحتفظ بهذا السر لنفسه ؟ إنه سيجرى إلى بيته فيخبر به امرأته ، ومن المحتمل أن تنشر هى هذا الخبر فى كل مكان . فأرجو يا « ماك » ألا تدعوه وانتظر حتى صباح الغد ، فإذا لم تتحسن حالة جينى فسأطلب منك دعوة أحد الأطباء

وكانت امرأتى تقول هذا الكلام فى لهجة الرجاء وقد بدا عليها أثر التعب والألم

وفى صباح اليوم التالى بدأ التحسن فى صحة جينى ، واطرد التحسن يوماً بعد يوم ، ولكنها لازمت فراشها شهراً كاملاً قبل أن نستطيع حتى حملها لنجلسها على كرسى فى الشرفة ونسندها بالوسائد وكنا فى الوقت نفسه نجيب الجيران والأصدقاء ، القليلين الذين زارونا فى تلك الفترة التى كنا نعيش فيها فى شبه عزلة ، بأن جينى قد أصيبت بالتهاب فى الغدد ، وأن الإصابة كانت شديدة لذلك طال الوقت قبل تماثلها للشفاء

ولم نكن فى أثناء هذه الفترة قد سألنا الطفلة عما حدث لها ولكننا استطعنا أن نفهم مما كانت تهذى بها فى نومها وفى أثناء النوبات التى كانت تصيبها أن ما تصورنا أنه أصابها كان هو الحقيقة الكاملة . والظاهر أنها كانت قد انتهت من حمامها وبدأت ترتدى ملابسها عندما هاجمها المجرم وافترسها وقد قضيت أنا وامرأتى ساعات طويلة مرعبة نتلظى بنار الألم من جراء هذا الحادث الذى بقى حياً فى أحلام ابنتنا . ولكننا لم نستطع فى أثناء ذلك الوقت كله أن نقف على أى أثر يدل على الفاعل ولم نستطع كذلك أن نقرر إذا كان واحداً ممن تعرفهم الفتاة . .

ولم نكن نتركها وحدها عندما تكون مستيقظة بل كنا نلازمها على الدوام ، حتى إذا أصبحت قادرة على الإصغاء شرعنا نقرأ لها قطعاً من الأدب والشعر الذى كانت تحبه ، وكنا نتحدث معها فى أمور طفيفة لا تشغل بالها ، وهكذا كنا نشغل فكرها بنوع ما من التفكير طوال ساعات يقظتها

واستردت الفتاة حالها الطبيعية تدريجاً وبدأت تستيقظ هادئة وقد زال أثر الرعب من نظراتها ، وعند ما رنت ضحكتها اللطيفة ذات يوم عند سماعها قطعة فكاهية كنت أقرأها ، دعوت فلورنس لتجلس معها وخرجت مسرعاً من الغرفة لأجفف دموعى

ثم خرجت جينى معى بعد ظهر أحد الأيام لنجمع البيض من المخزن ، وكان ذلك بعد الحادث بشهرين على التقريب ، وقد شعرت بشىء من السعادة عند ما رأيت لون الحياة يعود تدريجاً إلى وجنتى ابنتى النحيلتين

ولما اقتربنا من بيت الدجاج مررنا بمجرفة جديدة للدريس كنت قد اشتريتها فى أثناء مرض جينى .

فصاحت الفتاة بصوت مبتهج :

— ها قد اشتريت مجرفة جديدة ! الحق أنها لطيفة فمن أين اشتريتها ؟

فقلت فى غير اكتراث :

— من فوربس

فلم تكد تسمع جوابى حتى ضغطت يدها يدى متشنجة، فلما نظرت إليها فى قلق مفاجئ أزعجنى أن أرى وجهها وقد علاه شحوب الموت ، وقد ترنحت حتى ليخيل إلى أنها ستسقط على الأرض ، فركعت فى الحال على ركبتى بجوارها وطوقتها بساعدى وقلت فى ترفق ولطف :

— ماذا أصابك يابنيتى ؟ أتستطيعين أن تخبرى أباك ما هنالك ؟

فمالت لحظة مستندة إلى كتفى ثم رفعت رأسها ونظرت إلى، واطمأننت عند ما رأيت عينيها تستردان حيويتهما ... وقد قالت فى هدوء :

— نعم أريد أن أقول لك يا أبى ، فلقد كان هو مستر فوربس

واضطربت قليلاً عند ما ذكرت اسم الرجل ، وأطبقت عينيها فى شدة كما لو كانت تريد أن تتقى رؤية حلم مخيف

ولما كان الأمر غريباً كما يبدو فإننى لم أستطع أن أفكر فيما عساها قصدت بقولها . فلم يكن مما يصدقه العقل أن يرتكب « ألك فوربس » مثل هذه الجريمة الوحشية ... نعم كان ذلك مستحيلاً فى نظرى . فسألتها فى هدوء :

— أو أنت واثقة يا جينى ؟

فأجابت وهى لا تزال مغمضة عينيها :

— نعم يا أبى

فسألتها فى لطف :

— أتحبين أن تخبرينى بما حدث ؟ خبرينى مرة واحدة يا جينى وأنا أعدك ألا تتحدث عنها بعد ذلك أبداً

ونظرت إلى نظرة أجرت الدمع من عينى وقالت :

— لقد كنت أسبح ثم خلعت لباس السباحة ووضعته فى الشمس ليجف وجلست محتضنة ركبتى أنظر إلى السمك ... وفى هذه اللحظة حضر الرجل وكان يحجب وجهه بقناع أسود فلم أعرفه

وكان صوتها ثابتا ولكننى استطعت أن أحكم من الحال المحزنة التى ضغطت بها يدى على مبلغ ما كانت تكلفها هذه الكلمات من العذاب ومضت تقول :

— وبعد لحظة انزاح القناع عن وجهه ، وكان قد بدأ يبتعد عنى ، فعرفته ولكننى لا أظن أنه عرف أننى رأيته ... ولقد صحت أناديك يا أبى ولكنه ضربنى

فجهدت فى تملك شعورى وفى الاحتفاظ بصوتى ثابتاً غير مرتجف وقلت :

— حسن يا بنيتى . وكفى فما أريد أن تحدثينى بشىء بعد ذلك

ولقد أردت أن أصيح وأثور لأنفس على صورة ما عن الشعور المكتوم فى نفسى ... ثم وجهت الحديث وجهة أخرى فقلت :

— هل علمت أن بروكى قد اشترى عجلاً صغيراً ؟ ألا فلنذهب إليه ونتفق على تسميته

وفى تلك الليلة انتظرت حتى نامت جينى وأخبرت فلورنس بما علمت

فقالت امرأتى مندهشة :

— فوربس .. ما أظنك تقصد ألك فوربس ؟

فقلت فى هدوء :

هذا هو الذى قالته جينى، وإنى لأعلم أنها قالت الحقيقة

ثم قصصت على امرأتى جميع ما سمعت من الفتاة فبكت الأم المحزونة على ابنتها

وجلست أنا وامرأتى نتصور ما يمكن أن يكون قد حدث . فاعتقدنا أن فوربس قد وقف فى اليوم الذى تحدث إلىّ فيه ورآها وهى ذاهبة إلى بركة السباحة ، ثم تسلل بين الغصون وراقبها ؛ ولعله فكر فى الاعتداء عليها فى تلك الليلة نفسها . ثم جاء فى اليوم التالى عن عمد وسبق إصرار ، وإلا فلماذا أحضر معه القناع الأسود ؟ وعند ما جلست جينى هناك على الشاطئ محتضنة ركبتيها فى براءة وطهر ناظرة إلى سمك اللوت فى البركة ، افترسها ذلك الافتراس الوحشى

وطال حديثى أنا وزوجتى فى تلك الليلة مجتهدين أن نقرر ما يجب علينا عمله ، فقد كنا متفقين على أنه لا بد من عمل شىء ما . إذ يجب ألا يترك فوربس طليقاً إذ من المحتمل أن يعتدى على فتيات أخريات بريئات . كذلك يجب أن يغادر هذه النواحى كلها . فقد علمنا أن جينى لن تعود إلى حالتها الطبيعية مادام هذا الرجل يحوم فى أرجاء المقاطعة . ومع ذلك لم يخطر لنا ببال أن نخبر إنساناً ما بما حدث ، بل كنا متفقين على أن ما يعمل يجب أن يعمل بطريق خاصة وبأسلوب لا يحمل أحداً على أن يدرك أن لنا علاقة به . وذلك حرصاً على مصلحة جينى

فاقترحت أن أحمل البندقية وأذهب إليه فى بيته فأقتله كما يقتل الكلاب فإنه هو لم يكن غير كلب حقير ولكن فلورنس هزت رأسها وقالت فى صراحة :

— وإذن تصبح قاتلاً ، فلا تكون خيراً منه . ولن يكون أب جينى قاتلاً

وهكذا اتفقنا آخر الأمر على معاقبته بالضرب . ولقد كنت أكبره فى السن بعدة سنوات ، ولعلى لم أكن فى مثل قوته الجسمية ، ولكن لم يخطر لنا قط أن هذا قد يكون داعياً إلى فشلى فيما اعتزمت

وألحت فلورنس على فى أمر واحد إذ قالت :

— احمله على الاعتراف يا ماك قبل أن تنتهيا من المعركة ، فأنا واثقة من أن جينى تعرف ما تقول ولكن يجب أن نعرف نحن

ولقد كان تصرفى بالفعل خيراً حتى مما اتفقنا عليه ، فلقد كان الغسق قد هبط عند ما وصلت إلى حانوت فوربس فى مساء أحد الأيام ، وكان هو يغلق الحانوت ولم يكن فى الطرقات إنسان .

ففتحت باب سيارتى وقلت له :

— ألديك بضع دقائق تصحبنى فيها إلى أرض كروكر ، فإنى أفكر فى ابتياع قطعة أرض هنا فى البلدة وأريد أن أعاين تلك الأرض

ولا أظن أنه تردد مطلقاً ، وما من شك فى أنه كان واثقاً من زمن طويل بأن جينى لم تعرفه يوم اعتدى عليها ، فقد ذهبنا إلى حانوته عدة مرات بعد ذلك الحادث

فأجابنى مرحباً :

— نعم بلا شك ، فإنه ليسرنى أن أصحبك إلى هناك ، وهل تفكر فى نقل مسكنك إلى البلدة ؟

فاجتهدت فى ضبط عواطفى وجاوبته جواباً طبيعياً ومضينا بالسيارة ، وفى أثناء اتجاهنا إلى أرض كروكر تظاهرت على حين فجاة بأنى أفكر فى أرض « ميزور » فسألته أيوافق على الذهاب إليها

أولاً وبعد ذلك نستطيع أن نقارن بين القطعتين فيما يتصل بمساحتيهما . فوافق على رأيي موافقة تامة ، ولقد استطعت أن أحبس عواطفي حتى أننا كنا نتحدث حديثاً عادياً . على أنني لم ألبث أن تبينت أنني لا أكاد أفهم ما يقول ، ولم أعد أعرف ما يقول فقد كان رأسي ثائراً وكنت أسرع بالسيارة أكثر مما قصدت

وإني لأظن الآن أنه قبل أن نصل إلى أرض « ميزور » بمسافة طويلة قد أدرك أن هناك شيئاً غير عادي لأنه هو أيضاً قد لزم الصمت . وعند ما وقفنا آخر الأمر أمام الأرض لاحظت أنه تلمس الباب قليلاً قبل أن يستطيع فتحه ، فدرت حول العربة وجئت إليه ، وإذا لم يكن قد أدرك شيئاً من قبل فقد أدرك الآن مما كان بادياً على وجهي ، فإنه وإن يكن الظلام قد بدأ يهبط سريعاً فقد رأيت أن لون وجهه قد استحال إلى لون وجوه الأموات ، وقد تراجع داخل السيارة واجفاً قبل أن يغادرها . وقال في لهجة مضطربة :

— ماذا تريد ؟

فقلت وقد دهشت لما بدا من ثبات كلاتي في حين كان قلبي يدق دقاً عنيفاً وكان رأسي كأنه يلتهب ناراً :

— لا أريد إلا أن تعلم أنني أعرف من هو الكلب القذر الذي اعتدى على ابنتي الصغيرة ، لذلك سأضربك شر ضرب أصيب به إنسان من قبل . وإني لأقصد أن أتركك عاجزاً عن الاعتداء على أية فتاة أخرى ، وأن أحملك على مغادرة هذا القسم من البلاد

فصاح قائلاً إنني مجنون، وحمل عليّ حملة وحشية ، فاستولى عليّ فرح جنوني إذ لم تعد بي من حاجة لأن أنتظر ثانية واحدة ، وإن لم يبق هناك ما يمكن أن يصدني عنه ، فإني أستطيع أن أضربه وألكمه وأثب عليه وأن أنفس عن النبض الذي ملأ نفسي ولقد تفوقت عليه منذ اللحظة الأولى وإن يكن قاتل بحماسة الذي يدافع دفاع المجنون . ولكنه كان آخر الأمر يدافع عن حياته ، ولكني كنت أدافع عن جيني وعن كل فتاة مثلها عاجزة عن الدفاع عن نفسها.

وبعد لحظة سقط على الأرض رافعاً يده يحمي بها رأسه وهو يعوي كبعض الحيوان ، فقلت :

— أتريد أن تقول إن ما قلته لك هو الحقيقة ؟

ولعله ظن أنه إذا قرر الحقيقة فسأتركه فقد بدأ يتكلم في لهجة متقطعة مضطربة تتزاحم كلماته وهو يحاول إخراجها من بين شفتيه فقال :

— نعم هذه هي الحقيقة ! ولست أدري لماذا فعلت ما فعلت، لقد كنت في غير صوابي . فاتركني وشأني يا مستر ماك ، وسأغادر المنطقة ، وأبتعد عنها في الحال . فأرجو أن تتركني

فسألته :

— أتذكر كيف توسلت إليك ابنتي الصغيرة طالبة الرحمة

ثم انهلت عليه من جديد بالضرب القاسي ، وأخيراً توقفت عن الضرب ، وقد رقد الرجل كتلة جامدة وقد التوت إحدى ساعديه في عنف تحت جسمه ، وكان الدم يسيل منه . ووقفت لحظة مترنحاً أتنفس في صعوبة ، ثم انحنيت فوقه وتوكدت أن قلبه لا يزال ينبض

وكانت إحدى عيني قد ورمت وانطبق الجفنان انطباقاً تاماً ، وقد أصيب وجهي وشفتاي بجروح

أخذ الدم يسيل منها . فعدت إلى البيت بأسرع ما استطعت وهناك وجدت فلورنس فى انتظارى ، فلما رأتنى صاحت :

— حمداً لله إذ عدت سالماً

ولما دخلت جينى غرفتى فى صباح اليوم التالى اصفر وجهها لما شهدت من حالى ، فأجلستها فلورنس على السرير بجوارى وروت لها ما حدث، فبدا على وجهها الجمود والثبات .

وقد قالت لها أمها فى لطف :

— لم يكن بد من أن يفعل أبوك ذلك يا جينى لا لأن الرجل يجب أن يعاقب فقط ، ولكن لكى تفهمى أيضاً أنه وحشى وأنه لا يجب حتى أن يعيش فى هذا العالم حيث يعيش الرجال الأطهار المحترمون أمثال أبيك . فإذا أنت ذكرت هذا الحادث فاذكرى أن ليس فى الوجود كثيرون من أمثال مستر فوربس وأن الرجال الذين ستعرفينهم والذين قد يتزوج أحدهم منك آخر الأمر هم من الأطهار مثل أبيك

وذهبت جينى إلى المدرسة نصف السنة الباقى وكانت سعيدة بين صاحباتها السعادة كلها .

وجهدنا فى أن ننسيها ما حدث ، وأن نعيدها إلى حالتها الطبيعية، ولم يكن الحادث قد انتهى بحال من الأحوال ... ففى السنة التالية كانت فلورنس تذهب وحدها إلى البركة كل يوم مدى ثلاثة أسابيع بينما كانت جينى تلازم البيت ، وقد بدا على وجهها جمود غريب ... وكانت فلورنس كلما عادت بعد الاستحمام وصفت منظر البركة فى صورة بديعة ... وأخيراً عندما كانت تتأهب للذهاب فى أحد الأيام كعادتها قالت جينى فى استحياء :

— أظن أنه يحسن أن أذهب معك اليوم .

وفى وقت قصير ، بدأت الفتاة تنعم بحماماتها كما كانت من قبل ، ولكن فلورنس أخبرتنى أنها لم تكن تخلع ملابسها على الشاطئ كما كانت تفعل قبل الحادث ، فقد كانت تتسلل داخل الأغصان ، وتغير ملابسها بأسرع ما تستطيع .

وبقيت مدة طويلة لا تدخل الحانوت الذى كان فوربس يملكه فى الماضى ، بل كانت تنتظر فى السيارة إذا أرادت منه شيئاً ، وكان الذى يتولى أمر ذلك الحانوت فتى أنيساً أحمر الشعر محباً للأطفال ، وكان إذا حضرت خرج إليها وتحدث معها ، وبعد فترة من الزمن أنست الدخول إلى الحانوت واللعب مع الفتى مرحة مبتهجة ، بل وكانت تبقى هناك أحياناً بينما كنت أنا وأمها نذهب إلى مكان آخر . وهذا الفتى نفسه الذى كنا نسميه « ساندى » قد أصبح فيما بعد زوجها !

ولاحظنا أن هناك بعض الذكريات التى لم تستطع جينى أن تنساها مدى أعوام طويلة، ولكننا لم نكن لنشير إليها ولو بطريق غير مباشرة ، وبدا على الفتاة أنها تعيش مبتهجة سعيدة .

وكما قلت من قبل قد ترك فوربس البلدة عندما استطاع أن يتحرك ويسافر ، يحمل ساعداً مشلولة عن كل حركة ، وقد تحطمت صحته حتى أن الدكتور مونتروز قال لى مرة إنه يخشى ألا يعود فوربس أبداً رجلاً سليم الجسم قادراً على العمل . ومضى الطبيب يقول :

— أتدرى يا ماك أننى أظن أن هناك شيئاً أكثر مما رواه لى فوربس فيما يتصل بالحادث الذى وقع له . فما من شك فى أنه يعرف سبب ذلك الحادث فقد حدث فى أحد الأيام بينما كان فى المستشفى وكانت

حالته سيئة أن أخذ يصيح : « لا تضربني ! فأنا لا أدري لماذا فعلت ذلك . وإني لن أمسها مرة أخرى » ، والحق أني لأود أن أعرف ماذا فعل .

وفي الليلة التي سبقت زواج جيني خرجت معها في رياضة على الأقدام ثم جلسنا على كتلة من الخشب نتبادل الحديث . فقالت على حين فجأة :

— أتظن يا أبي أنه يحسن بي أن أخبر ساندي بقصة مستر فوربس ؟

فسألتها :

— ألم تخبريه ؟

فقالت :

— لا ... وقد يصعب عليك أن تصدق ذلك يا أبي ولكنني لم أفكر في الأمر عندما خطبني . وبقيت فترة طويلة لا أفكر في ذلك . ولكنني فكرت فيه أخيراً وظننت ...

وهنا تقطع حديثها وبكت فأحنيت رأسي وبكيت أنا أيضاً . فهل يمكنك أيها القارئ أن تتصور شعوري عند ما أخبرتني أنها لم تفكر من قبل في الأمر زماناً طويلاً ؟

وقد قلت لها في حذر :

— أظن أنه من الخير ألا تخبريه . فسيحزنه الأمر ويجرحه إلى حد بعيد ، ولن يزيدك ذلك سعادة . وما أستطيع أبداً أن أرى أية فائدة في قول أشياء لا تؤدي إلا إلى جرح بعض الناس

فتنهدت الفتاة تنهداً طويلاً . وصاحت :

— آه . . . إني لمسرورة إذ ترى هذا الرأي . فإني لم أرغب في أن أخبره ، ولكنني ظننت أنني قد أكون عندئذ جبانة

ثم مضت تقول :

— أليس غريباً أنني استطعت أن أنسى هذا الأمر نسياناً تاماً على هذه الصورة ؟ وأظن أن السبب في ذلك هو أن إنساناً ما غيرنا لم يسمع بالخبر . فليس هناك ما أخشاه من أي إنسان أجنبي ، وأنت وأمي لم تتحدثا به قط . وهل تدري أنني إذا قرأت الآن في الصحف عن أمر كهذا وجدت أن الأمر جد فظيع ، وأنني لم أكن لأحتمل الحياة لو أن الناس عرفوا بما حدث

فقلت في صوت أجش :

— يمكنك أن تشكري لأمك فضلها في الطريق التي عولج بها الأمر كله ، فلو أن الأمر ترك لي لما وفقت في علاجه بمثل هذه الحكمة . وأظن أنك أنت وأنا مدينان لها بكل ما يمكن أن نتمتع به من سعادة

عبد الحميد حمدي

بائعة البنفسج

للكاتب الفرنسي هنري بوردو

بقلم الأستاذ صلاح الدين كامل

— الجو صحو اليوم . هيا بنا نعود سيراً على الأقدام ، فى ذلك نوع من الرياضة وقلما نقوم الآن بشىء منها

اقترح ذلك صديقى الروائى الكبير بيير لجنيير ثم نادى سائق سيارته فأمره بالانصراف . وقد كان هذا عقب تناول العشاء فى أحد المطاعم حيث اجتمع فريق من الأدباء المعروفين يتندرون بذكر العقبات التى صادفتهم فى خطواتهم الأولى

ولدى خروجنا من المطعم أنا وصديقى بيير ، وكنا قد تأخرنا عن زملائنا ، اعترضتنا فتاة صغيرة تبيع البنفسج ، مقدمة لنا باقاتها الناضرة ، ملحة أشد الإلحاح فى أن نشترى من بضاعتها ... كانت فتاة هزيلة شاحبة محمرة الأنف والعينين ، ترتدى ملابس خفيفة لا تكفى لحمايتها من البرد . ولقد ذكرت حين رؤيتها قول فرنسوا كوبيه فى إحدى قصائده الرائعة ، يصف هذا الفريق من الفتيات التعسات : « أولئك اللائى يعتن من الشتاء وهن يقدمن الربيع للناس ! »

وقد استثارت تلك الفتاة شفقتنا . أحسسنا بميل شديد إلى التصدق عليها ، وخاصة فى وقت قد امتلأت فيه بطوننا بعد عشاء فاخر . إلا أنه كانت هناك عقبة تعترض تنفيذ تلك الرغبة الشريفة . كان علينا أن نفتح معاطفنا وسترنا ، وهى حركة مضجرة ثقيلة على النفس . ولقد كان الخياطون فيما مضى يساعدون على الإحسان بأن يعملوا للمعاطف جيوباً صغيرة من الخارج توضع فيها العملة القليلة القيمة من الفضة والبرنز ، فكان يسهل على الإنسان إخراج هذه النقود دون مشقة . أما الآن فبكل أسف لم يعد هذا الجيب الصغير يتفق مع « المودة » فحذف ؛ وليست رغبة الإحسان قوية فى النفوس بحيث تدفع الإنسان لكى يفك أزرار ملابسه باحثاً عن كيس نقوده فيفتحه وبعد ذلك يقفله ويعيده إلى مكانه ثم يزرر ملابسه ثانياً .

— بخمسين سنتيماً فقط باقة البنفسج الجميلة

لم تكن تلك الفتاة المسكينة لتفهم أن المسألة ليست مسألة نقود وإنما يحتاج الأمر إلى حركة أو سلسلة حركات مقلقة ، فاستمرت فى عرضها مخفضة الثمن :

— بعشرين سنتيماً ! ... بعشرة سنتيمات !

ولقد كان المنظر الذى رأيته بعد ذلك مما أدهشنى أنا أعرف بيير لجنيير من زمن وأعرف فيه منتهى الكسل . فهو فيما عدا عمله وهو جالس إلى مكتبه لا يطيق شيئاً يكلفه أقل مشقة أو عناء . ولذا كان عجيباً حقاً أن يقف على الطوار فيخلع قفازه ويفك أزرار معطفه وسترته ثم يخرج كيس نقوده فيأخذ منه جنيهاً يضعه فى يد تلك البائعة الصغيرة !

قالت الفتاة فى مسكنة : « ولكن ليس معى لأعطيك الباقى يا سيدى ! »

— لا أريد منك باقياً

فنظرت إليه مشدوهة ثم قالت بعد أن بلعت ريقها :

— وهل تريد السلة كلها يا سيدى ؟

— كلا ، كلا ، باقة واحدة

— اختر يا سيدى الباقة التى تروقك

وما بعدنا بضع خطوات حتى تذكرت الفتاة أن الدهش قد أذهلها فلم تشكر لمن أحسن إليها ، فلحقت بنا وألقت بقية البنفسج تحت أقدامنا وهى تهمهم : « شكراً يا سيدى ، شكراً يا سيدى ، سأذهب الآن لتناول الطعام ! » ثم أطلقت لساقيها الريح . لقد فرغت من عملها اليومى وفرغت منه على أحسن حال

والتفت إلىّ صديقى بيير يفسر لى سرّ تلك النزوة ، فقال :

— لا تدهش لهذا السخاء ، إنه دين كان علىّ أن أؤديه

— دين ؟ !

— نعم . فيما مضى ، كان لبائعة زهور صغيرة مثل هذه تماماً الفضل كل الفضل فى إنقاذى من فتور الهمة واليأس . ألا يساوى ذلك أكثر من عشرين فرنكا ؟ لقد تذكرت ذلك منذ لحظة ونحن فى المطعم نتحدث عما صادفنا فى خطواتنا الأولى من عقبات . وكان من حظ هذه الفتاة أن انتفعت من وراء تلك الذكرى

وبطبيعة الحال سألته الإيضاح فلم يتأخر، قال:

— كان ذلك منذ سنوات لست أذكر عددها بالضبط . كنت قد انتهيت من كتابة أول مؤلفاتى . لا تسأل عن اسم هذا الكتاب فإنه لحسن الحظ لم يظهر قط ، ولو أنى كنت أعتقد فى حينها أنه كتاب نموذجى ! وقد اعتنيت بكتابة نسخة منه بنفسى بخط واضح ، إذ فى ذلك الوقت طبعاً لم يكن عندى من النقود ما يسمح باستئجار نساخ . نسيت أن أقول لك إن أسرتى كانت قد تخلت عنى لسخطها على اشتغالى بصناعة الأدب ، وإن الجميع كانوا يأملون أن أعود صاغراً حين ترغمنى الحاجة . ولقد صرفت خلال العمل فى إتمام كتابى هذا كل ما كان مدخراً لدى تقريباً ؛ ولكنى كنت مطمئناً إلى أن تلك الصحائف التى تعبت فى تحريرها سوف تفتح أمامى أبواب الشهرة والثروة على مصراعيها ! حملت الكتاب ونفسى مفعمة بالثقة إلى أكبر ناشر كان معروفاً فى ذلك الوقت . . . إلا أنه — ويا للخيبة المرة — رده إلى بعد قليل مع سيل من الانتقادات القاسية . فى تلك اللحظة تمنيت لو أتيح لى أن أخنق هـذا الناشر خنقاً ، إذ لم أفهم فى حينها قيمة ما أبداه من ثاقب الآراء كما لم أقدّر عطفه وتشجيعه الذى دفعه لقراءة روايتى قراءة سريعة وإعطائى درساً فى التأليف القصصىّ ! . . . سألنى بصوته الخشن : « كم عمرك ؟ » أجبت : « ثلاث وعشرون سنة » فعلّق على ذلك بقوله : « إن الإنسان لا يكتب روايات قيّمة قبل سنّ الثلاثين . وعند بلوغك هـذه السن سوف تكتب شيئاً يقرأ » وقد استمر فى حديثه موجهاً إلىّ كثيراً من النصائح الثمينة التى اكتسبها من تجاربه ، بينما كنت بينى وبين نفسى أسخط عليه وألمنه ... لقد كنت آخذ كلامه على اعتباره هجواً لا نصحاً ! إن الإنسان فى سن الثالثة والعشرين يعتبر ابن الثلاثين رجلاً عجوزاً أو نصف عجوز ، يتصوّر أنه فى مثل هـذه

السنّ المتقدمة سوف يكون شهيراً قد ذاع اسمه بما أخرج من كتب رائجة ! وبطبيعة الحال سحبت روايتي وقدمتها إلى ناشر آخر . ولقد أبقاها هذا الناشر عنده ستة أشهر ثم ردها معتذراً في كلمات رقيقة : « أنت شخص ذو مواهب ، مواهب من الطبقة الأولى ، ولكن هناك أسباباً خاصة تعوق طبع روايتك في الوقت الحاضر . ونخشى أن يطول انتظارك قبل أن تسمح الظروف بطبعها » قلت أحدّث نفسي: « ها هم أولاء أناس ذوو أدب ورقة وذوق فني ، أي خسارة أن تقف الظروف دون قيامهم بطبع كتابي ؟ » وعند ما عدت إلى غرفتي أقلّب أوراق مؤلفي الثمين ، تبين لي بجلاء أن هؤلاء القوم الظرفاء المقدّرين لمواهبي لم يفتحوا الكتاب ! وقصدت إلى دار نشر ثالثة أقل مرتبة من الدارين الأوليين ، فكان نصيبي الفشل أيضاً . وبعد ذلك بدأت الطواف بالناشرين واحداً بعد واحد ! وفي خلال ذلك الوقت كنت أعطي دروساً في قواعد اللغة والتاريخ حتى أقوم بأود حياتي ، ولو أني كنت محتفظاً للآداب بكل قلبي باذلاً في سبيلها جلّ وقتي وجهدي . ولقد صادفت فشلاً إثر فشل ، ولكني تحملت ذلك بصبر وجلد .. إلى أن كانت آخر مرة إذ صدمت صدمة مخجلة مزرية بعثت إلى نفسي الكلال واليأس ! كنت قد ذهبت بكتابي إلى أحد ناشري الدرجة الثالثة فصرّح لي بعد تصفحه بأنه يرفض إخراجه حتى ولو تكفلت أنا بمصاريف الطبع ، وقد خرجت من هذه الزيارة وكنت أعتبرها ملاذي الأخير مطعوناً في كبريائي وثقتي بنفسي، وهو ما لا غنى عنه لأديب يريد أن ينتج ويخلق . أحسست بنفسي خائر الهمة أفكر في الهرب من الميدان والانزواء في أحد بلاد الريف حيث أشتغل في عمل عادي يضمن لي العيش في هدوء ، وبينا أنا أسير في الطريق على غير هدى ، قادتني قدماي إلى هذا المكان أمام المطعم الذي تعشينا فيه الليلة ، وإذا ببائعة بنفسج صغيرة مثل تلك الفتاة التي صادفناها الآن تضع تحت أنفي باقة من باقاتها ، فأنهرها رافضاً الشراء . إلا أني بحركة آلية لا أدري علتها قد تتبعتها بنظري ، فإذا بها تعرض بضاعتها على آخر ثم آخر دون جدوى ، وإذا بي أجد تسلية في مراقبتها ! كم مرة يجب أن تعرض بنفسجها في سبيل عشرة السنتيمات التي سوف تحصل عليها ؟ ! تتقدم لهذا ثم لذاك ولا أحد يقف أو يسمع لها ... الكل يسيرون مسرعين ، إذ الكل ذاهبون لتناول العشاء ... بينا هي قد تكون جائعة أحوج ما تكون إلى الطعام، ومع ذلك فهي مثابرة على عرض زهورها دون ما ملل أو كلال وفوق هذا فلكيلا تنفّر منها المشترين ، تجدها تبتسم محاولة أن تكسب وجهها المكتئب الحزين تعبير رقة ودعة ، وانتهيت إلى أني أخذت أعد المرات التي يقابل عرضها فيها بالرفض، أتعرف إلى أي عدد وصلت؟

— ثلاثين أم أربعين !

— كلا ، بل مائتين وخمسين ! وعند ما أقول مائتين وخمسين فإني أعني أن الواحد والخمسين بعد المائتين كان إياي ، إذ عدت إلى الفتاة فأخذت منها باقة وأعطيتها خمسين سنتيماً ، وثق بأن هذا المبلغ كان أكثر بالنسبة لي وقتئذ من الجنيه الذي دفعته الآن . كان مبلغاً جسيماً ، ولكنها كانت تستحقه. لقد محت ما كان قد خيّم على نفسي من اليأس ، وعنها تلقيت درساً في المثابرة كان له في حياتي أثر بعيد

صلاح الدين كامل

هفـــوة

للكاتب الروسي الكبير أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ فيصل عبد الله

كانت « ناتالى » الشابة الحسناء تحدّث زوجها بحماس بعيد عودتها من (يالطة) عما شاهدته من المباهج والطرف فى زيارتهـا شبه جزيرة القرم ، وهما يتناولان الغداء سوية ... وكان زوجها ينصت لما ترويه مغتبطاً مسروراً ، إلا أنه كان يقطع صمته بين حين وآخر ، سائلاً زوجه سؤالاً سخيفاً عن « دنيا التتر » وعن المعيشة فيها ، وما يقال عن غلاء أسبابها ، فكانت تجيبه أن هذا القول لا يخلو من الغلو والخيال أحياناً ، إذ أنها وزميلتها (يوليا بتروفنا) كانتا تشغلان غرفتين مترفتين مريحتين لقاء بضعة روبلات قد تبلغ العشرين فى اليوم ، إلا أن كل هذا يتوقف على تصرف الإنسان فى قضاء رغباته ، فمثلاً إن اصطحاب الإنسان جواداً ودليلاً عند صعوده الجبال ، لما يكلّف من المال الكثير ، وعلى ذكر الجبال تسرف « ناتالى » فى وصفها وإطراء مفاتنها ، ثم تحاول أن تصوّر لزوجها تلك الروعة التى تملك لبّ الإنسان وهو يسرّح الطرف فى تلك الجبال ...

— لكم هى شاهقة خلابة ... تصوّر أيها العزيز جبالاً شاهقات تكاد أن تنطح السماء إنها لأعلى كثيراً من أبراج الكنائس بآلاف من المرات ... لكم هى فتانة إذ يتوّج الثلج الأبيض قممها ، وتحيط بسفوحها أشجار الصنوبر التى تحاول أن تنافس الجبال طولاً وامتداداً فى الفضاء ... كما أن الأحجار البرّاقة المصقولة والحصى الناعمة الدقيقة مبعثرة على سفوحها ... منثورة حواليها ... آه ... لكم أود لو أشبع رغبة نفسى التى تلحّ بى دائماً إلى تذكّر تلك المشاهد الشعرية الفاتنة ، والتفكير فيها

فيقول لها زوجها : وهؤلاء التتر ... إنك لم تحدثينى عنهم شيئاً ... إن لهم فى حياتهم لفضائح وفظائع مزريات ، أجل ، فلقد قرأت هكذا عنهم فى الصحف عند غيابك ... فهلا يا (ناتالى) شهدت منها شيئاً ؟ ...

فيشحب وجهها ... وتعلوه سحابة نفـور واشمئزاز ... ثم تهز كتفها فى سخرية وهى تقول :

— إنهم ليسوا إلا تتراً بسطاء ، ليس فيهم مما يجلب البصر ويسترعى الاهتمام ، أجل ، إننى أعرف عنهم هذا ، وإن لم أدن منهم يوماً ... إنك لتعلم أيها العزيز أنى لم أنس كرهى بعد لهؤلاء التتر والشراكس واليونان .

لقد لوّح لى بعض هؤلاء من الأدلاء ، ولكننى لم أعر تلويحهم لى بعض التفات ، ولم أحفل بهم .

— ولكن المشاع أن كلا منهم زير نساء ، أو (دون جوان) .

— قد يكون هذا ... إنما لا تنس يا عزيزى أن هنالك من لا أخلاق لهن . وكأنما كرت بها الذكرى إلى أمر مخز أو حادث مزر ... فشحب

وجهها بغتة وصمتت فجأة، ثم عادت بعد صمت تقول :

— فاسيشكا ، إن العالم لا يخلو ممن فقدن الحياء والكرامة ، ووطئن الشرف بأقدام الطيش والرعونة يا لله ، ما أشنع فضائحهن وأزرى مخازيهن ... إنما العجب أيها العزيز أنهن سيدات يُنسبن إلى أرقى الطبقات وأرفع الأسر ، سيدات تعرفهن المجتمعات خير معرفة ، وفيهن لآلئ تضيء ، وكواكب تبرق وتتوهج ... يا له من أمر فظيع ! لم أكن لأتصوره من قبل . . . : خذ يا عزيزى مثالاً لهن ، تصور سيدة تتناسى من هى ومن تكون ، وتتعامى عن شرفها وكرامتها ! ... آه يا فاسيشكا ، لست أرغب عن التحدث عن أمثال هذه الفظائع ، ولكن مع هذا ... تصور يا عزيزى سيدة رفيعة الحسب ، سامية المنزلة ، كزميلتى فى سفرتى « يوليا بتروفنا » إن لها — كما تعلم — لبعلاً كريماً يمتهن الطب وطفلين جميلين، سيدة تعرفها المجتمعات الراقية والمحافل الرفيعة ، وتعلم أنها طالما أبدت نفسها كقديسة طاهرة ... فإذا بها فجأة ... ماذا ؟ ! ... أيمكن أن يصدق هذا ؟ آه . يا عزيزى ... إن ما أخبرك به لهو سر غير قمين بك أن تذيعه أو تبوح به لأحد . أتقسم لى على هذا ؟ ...

— طبعاً ... طبعاً ... ولكن ما الذى جرى ؟

— إننى لا أملك فى هذا غير الثقة بك ، ثم طرحت شوكتها جانباً من الصحاف، وقالت هامسة :

« لقد كان يوماً مشرقاً دافئاً ، امتطت فيه « يوليا بتروفنا » ودليل لها جواداً يقصدان الجبال ، أما أنا فقد كنت على مقربة منهما فإذا بها فجأة ، تضع يدها على صدرها ، ويبدو عليها الإغماء والإعياء . . . إنه أمر فظيع ، لقد أحاط دليلها خصرها بذراعيه ، ولولا ذلك لصرعت أرضاً ، فأسرعت إليها ودليلى وسألتها فى جزع وفزع شديدين عما حل بها ... فقالت ...

— أكاد أختنق ... إننى أحتضر ... فعرضت عليها العودة من حيث جئنا ، فأبت ذلك محتجة بعدم قدرتها على العودة وبعجزها عن السير ، وبأنها قد تفقد الحياة إن خطت خطوة واحدة ... ثم زجتنا وألحت علينا — أنا ودليلى سليمان — أن نعود إلى المدينة لنحضر لها ما اعتادت تناوله من الأدوية »

فقاطعها زوجها :

— مهلاً ... إنك لتهرفين ... لقد قلت منذ لحظات إنك لم تريهم إلا عن بعد ، ولكنك الآن تذكرين أحدهم، ذلك الذى تدعينه سليمان ... دليلك ...

— ألا تترك سوء ظنك جانباً ؟ إنك لا تعدم سبباً للوم ... إننى لا أطيق هذا .. إنه أمر فظيع لا يصدر إلا عن أحمق غيور

— لست بسيء الظن بك فأبحث عما يمهد لى لومك وعذلك ، ولكنك تكذبيننى فيما تقولين ، فإذا كنت قد اصطحبت أحد هؤلاء التتر يوماً فى ارتيادك الجبال ، فلِمَ تنكرين هذا أولاً ثم تعترفين به أخيراً ؟

— حقاً إنه لأمر فظيع ... أو تغار من سليمان ؟! أم حسبت أنه من المستطاع أن أرتاد الجبال دون ما دليل يدلنى على أقوم السبل وأبهج المسالك ... لكم أود لو أراك تقصد الجبال وحدك دون ما دليل أو قائد ، إذا كنت يا عزيزى تجهل أموراً فلا ترجم بالغيب فتتحدث عنها كأن عندك الخبر اليقين ... إن الإنسان هناك ... ليس بإمكانه أن يجول قليلاً أو طويلاً .. دون ما دليل يشير إليه بالمسالك السهلة المأمونة ...

— يبدو لى ذلك !

— أرجو ألا تفرط فى سخريتك وتهكمك . احتفظ بهما لنفسك ... إننى لست (بوليا) ... إننى وإن لم أسايرها فى مسلكها وأحذ حذوها من قبل فأزعم أننى قديسة طاهرة الذيل ... مصونة ... فلن أجاريها أخيراً ولم أجارها من قبل ... إذ أنسى أو أتناسى نفسى وكرامتى ... إننى لم أسمح قط لسليمان أن يتعدى ما وضعت له ورسمت ... لقد كان « محمد قول » يجالس (بوليا) فى غرفتها النهار كله. أما أنا فقد كنت أصرخ بسليمان إذا ما أزفت الساعة الحادية عشر مساء :

— هيه سليمان ... هيا أيها الأحمق اعزب عن وجهى سريعاً ... فكان يذهب مطيعاً ما أقول . وإذا ما تذمر من قلة الأجر ـ مثلاً ـ كنت أصرخ به أن يسكت فيسكت ، ثم ينظر إلى بعينيه السوداوين ومحياه التترى الوسيم الوديع مستعطفاً ذليلاً ... لقد كان بسيطاً ساذجاً ... يا له من تترى ظريف !

فيتمتم زوجها قائلاً : أستطيع أن أتصور هذا!

— ما هذا يا فاسيشكا ... إنها لفظاعة منك . إننى أفهم ما يدور بخلدك ويطوف بذهنك ، إنما أنت مخطئ فى ظنونك ... إننى أؤكد لك أننى لم أسمح له يوماً بأن يجتاز حدوده الموضوعة، فمثلاً إذا ما قصدنا الجبال ذات يوم أو إذا ما عن لنا أن نمتع النفس برؤية شلال (أوشالنسو) كنت أصرخ به :

— سليمان ، هيا ... هيا امتطى جوادى خلق أسامع أنت ما أقول . . . فكان المسكين يجيبنى إلى ذلك بخفة ورشاقة . . . لقد كنت أقول له حتى فى أقرب المواقف التى كانت تمر بنا إلى ما نقرأ فى القصص والروايات ! : لا تنس يا سليمان أنك لست إلا تترياً بسيطاً أما أنا فزوج مشير . . . ها . ها

وضحكت ساخرة ، ثم قالت : إننى لا أعرف خيراً من المزاح البسيط يقتل الملل الذى يتخلل الحياة الزوجية ، أما أن يفهم المرء ذلك على أنه أمر جدى فذلك ما لا أفهمه وإنها لفظاعة ... ولنعد ليوليا ، لقد استبدت بها الغيرة يوماً وسبتها . . . آه لكم هو أمر مخز ذلك الذى أقدمت عليه . أقول لقد سبتها الغيرة يوماً كانت فيه غائبة عن البيت ، فجاء دليلها (محمد قول) فدعوته إلى غرفتى لكى ينتظر (بوليا) فيها حتى تجىء، فتحدثنا فى أمور شتى وتناولنا من الحديث ما يلذ ويطيب ، وإنهم كما لا أظنك تجهله لقوم ظرفاء ، فأنسانى ظرفه أشباح المساء المدبرة ، حتى عادت (بوليا) فرأت دليلها عندى فى غرفتى فملكها الغيظ وشاع فيها الحقد الذميم فانهالت علينا — أنا ودليلها محمد قول — بالسباب المقذع والشتم الفظيع ... وأى شتم هو .. ثم تمادت فى غيها وغيظها فاستعانت باللكم والصفع تنهال بها علينا حتى شفت غليلها وابتردت من حمى غيرتها أو كادت .. إنه لأمر فظيع أيمكن أن تتصور هذا يا فاسيشكا ؟

أما فاسيشكا فقد قطب جبينه وشمل محياه العبوس ... ثم أخذ يقطع الغرفة جيئة ورواحاً يفكر ويفكر ... ثم قال وقد انضحت على ثغره بسمة سخرية واحتقار :

— يا لها من سفرة سعيدة وأيام ناعمة هنيئة قضيتها هناك ...

— إنه لأمر فظيع . . . إنها لحماقة منك لا تغتفر .. إننى لأدرك ما تذهب إليه .. فما كنت يوماً بخال من هواجسك وظنونك ، إن أفكارك السخيفة الآثمة لم تزل بعد تستبد بلبك وتملأ ذهنك ...

كلا . . . لست بمحدثتك عن شىء بعد اليوم

(بغداد) فيصل عبد الله

هكذا الحب ! . . .

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عزيز منصور

انصرم فصل الصيف بطوله الممل ، وتبعه فصل الخريف ، ولما نزل نحن الأربعة : « ماري وبوب » ثم « بيتر وأنا » دائبين على الخروج سوية . أما اليوم وقد مضى على تعطيل (الجامعة) يومان ، فإنني وبيتر واقفان عند مسجل العقود ، نشرف على الاحتفال الذي به سيصبح « بوب وماري » زوجين . وإنا لنشعر بأن قلبينا على وشك الانفجار ، لأن الحظ لم يجعلنا مثلهما :

من فوق شعر ماري الفاحم تلاقت نظرتي بعيني بيتر لحظة ، ثم تحولت واستقرت على وجه مسجل العقود ، ذي الوجه العجوز الذي مشت عليه يد السنين بتجعدات وخطوط عميقة .

— لقد أصبحتما زوجين !.

هذا ما افترت عنه شفتا مسجل العقود المضطربتان ، وعقب ذلك هدوء دام لحظة ، ثم التفت ذراع (بوب) حول خصر (ماري) وأطبقت على شفتيها القرمزيتين شفتاه ... وانتهى كل شيء !

خرجنا إلى الشارع ... إلى حيث سيارة بوب الفارهة في الانتظار ، وعلى الرغم مما كان يخالجني من الإحساسات ، فقد ملت إلى ماري وضممتها إلى صدري قائلة : وداعاً (مسز كولنس) ... إحرصي أن تكوني سعيدة !

أعان ماري (بوب) على الصعود إلى السيارة ، ووقفنا لحظة نرقب السيارة — حتى ابتلعتها منعطفات الطريق — بأعين حالمة ! ...

— هيا بنا يا عزيزتي ! نطق بيتر بهذه الكلمات بهدوء ، ولكن الانفعال الكامن فيها لم يخف علي ... نفس الانفعال الذي طغى على مشاعري !

أقبلنا على سيارة بيتر القديمة ، ذات المقعدين ؛ ولما استوينا داخلها نظر إلي بيتر — وهو يسوق — محاولاً أن يضحك قائلاً :

— أنا حزين جداً ، إذ لا أجد لي أباً غنياً يمضدني بماله !

فأجبته بقلة اكتراث :

— آه ... إن هذا ليس من الإنصاف والعدالة. إن قلبي ليذوب غماً حين أتطلع إلى «ماري وبوب»، فأرى النعيم يحتويهما ، ثم أنظر إلينا فأجدني وإياك في فقر مدقع ! ... هما تزوجا ، أما نحن ؟ ... ربما مرت شهور ، بل سنوات قبل أن نقدر حتى على التفكير في الزواج ، وإذاً ، فإننا لفي أقصى درجات القنوط في حبنا هذا !

***

كان بيتر يتيما ولو كان قادراً على مجرد الحصول على نفقات الجامعة لدخلها ! ثم إنني لم أكن قادرة على مساعدته ، فإن ما أرسله لي « داد » يكاد بالجهد الجهيد يفي بحاجاتي الضرورية ، ولذلك لم يكن إلى تحقيق أمله من سبيل ، وكان خير ما نتعلل به هو

ابتهالنا أن تتمخض لنا الأيام عن معجزة حاملة السعادة فى طياتها !

فى الليلة التالية كان أروع لقاء عرفنا. فهنالك على بعد ميلين من المدينة بمحاذاة النهر وقف بيتر سيارته الصغيرة على حافة الماء ، وجلسنا ننظر إلى الأفق البعيد !

كانت ليلة ساكنة تجلت الروعة فيها بأبهى المعانى ! فقد كانت أسلاك القمر اللجينية المنسكبة تتخلل الأشجار الملتفة ؛ أما النسيم فكان عليلاً ، ممعناً فى مداعبة تلك الأغصان المجردة عن أوراقها !

قال بيتر : أتذكرين ليلة تلاقينا للمرة الأولى يا كارول ؟ ... لحوظته بيدى وأجبت :

— نعم يابوب لازالت ذكراها عالقة بفكرى. لقد كانت أروع ليلة فى حياتى ! ... نعم لقد كان الوقت ربيعاً وكنت أخاصر « تيد هولواى » فى رقصة « اعذرنى » فى إحدى الحفلات حين أتيت وأخذتنى منه ... ثم لم يعد مجرى حياتى كما كان قبلاً !

صاح بيتر وقد ضمنى إلى صدره :

— كارول ... أيتها الغالية ... هكذا أحبك ، وانهال على شعرى لثماً وتقبيلاً ! وهو يقول : عزيزتى، عزيزتى! يجب أن نبقى هكذا، أليس كذلك؟

— نعم يا بيتر فإنك منيتى الفريدة ... وأنت حاجتى الماسة ! ... وازدادت يداه ضغطاً على جسمى وشفتاه شدة فى لثمى ...

— كارول ! ما أطول هذه السنة ، أنواصل تدمير زهرة شبابنا ، ترى متى نذوق السعادة ! ؟

لم أجب فعاد يقول : كارول لا تغضبى ، أتحبيننى؟

— نعم يا بيتر ... أحبك أكثر من أى شئ آخر ... !

— إذن تعالى معى يا كارول ليلة الغد ... تعالى لنرحل إلى مكان سحيق ولن نعدم مكاناً صغيراً يأوينا، وإنى لمقسم لك أنك سوف لا تندمين قط !

فأجبته كمن فقد صوابه :

— آه يا بيتر ... دعنى أفكر ... أمهلنى قليلاً ... آه ... نعم يا بيتر أنا أعدك ، سأذهب معك ؟

* * *

أيقظنى أول خيط من النور نفذ إلى غرفتى فى صباح اليوم التالى ، فلبثت جالسة أسترجع ما مر بى من حوادث اليوم السابق ...

ما شعور فتاة تفكر فى يوم عرسها القريب ؟! حرارة والتهاب ممزوجان ببعض الخوف ، واهتزاز فى كل عضو من أعضاء الجسم ؛ وهذا نفس ما حل بى ولو أننى كنتُ معتقدة بأن حفلة زواجنا لن تقام !

لقد وضعت اليوم حياتى ومستقبلى فى قبضة بيتر ، وكنت إذا خطر ذلك على بالى اشتدت ضربات قلبى ، وتلاحق تنفسى ، مع أن قلبى لم تكن فيه ذرة واحدة من الخوف من جانب بيتر

كان حبى لبيتر جارفاً ، وكان يبادلنى نفس الحب فلماذا لا تكون مراسيم زواجنا رائعة كحبنا ؟ ! هذا ما ظللت أفكر فيه

نهضت من فراشى وقصدت النافذة ، وما ألقيت على السماء نظرة حتى أحسست بقشعريرة تسرى فى بدنى ! لقد كان اللون الرمادى لون السماء فى ذلك اليوم ، وكانت الغيوم الشبيهة بالثلج متكدسة على أبعاد مختلفة فى الجو ، أما الشمس ، فلم يكن يبدو من أشعتها أثر !

انثنيت لارتداء ملابسى ، فأخذت أنتقى الملابس

الخضراء اللائمة لطوق الفرو الذى يعشقه بيتر . ثم أقبلت أخطر أمام المرآة وأصلح هيئتى ، وأنا أعجب لأننى قد اكتسبت هيئة من على أهبة الزواج !

خرجتُ لأستقل القطار إلى « نيوبرى » حيث بيتر فى انتظارى، ومن حسن حظى أن أدركت القطار قبل سفره بدقائق وجيزة فكان علىّ أن أنتظر بضع دقائق فى المحطة ، وكنتُ أشعر أن هذه السفرة إلى « نيوبرى » ستكون أطول مرحلة أقطعها فى حياتى !

وأخيراً ... هدأت حركة القطار ووقفت عرباته فنزلت أسير بهدوء، وما كدت أقطع بضع خطوات حتى لاح لى بيتر مقبلاً نحوى بخطى واسعة والبشر باد على محياه ، أما أنا فكان ما صرفته من جهد فى مجيئى وما بذلته لمقاومة الأفكار المتباينة المتوالية على فكرى قد جعلنى شبه مريضة واهية القوى !

قال بيتر :

— لقد تخيّلتُ أن هذا القطار اللعين سوف لا يصل إلى هنا أبداً . . . قال هذا وهو يلتقط حقيبة ملابسى بإحدى يديه ويلف الأخرى حول ذراعى ، وبعد قليل أردف : لقد بدا لى أننى منتظر سنين قبل مجيئك يا عزيزتى

وفجأة زال صداعى فهدأ قلبى وزال منه ما كان يلاحقه من شك ، فافتر ثغرى عن ابتسامة طرب لها بيتر ، وقال وهو يأخذ بيدى إلى سيارة صغيرة مغلقة واقفة بجانب الرصيف :

— هذه سيارة « دكس » ، لقد استعرتها منه لنقضى بها حاجاتنا . فسألته :

— أين نحن ذاهبان ؟

— إلى قرية فى « دارتمور » لى معرفة بها ، وهى تبعد عنا قرابة مائة وخمسين ميلاً ، وإننى لأتنبأ بأنك ستتعلقين بها متى رأيتها !

امتطينا السيارة الصغيرة ، وأخذت الأميال تنطوى وذهبت أفكارى تسبح فى أودية الخيال وتدور حول ما أنا مقدمة عليه من مغامرة مجهولة العواقب، فكنت أنقبض تارة لحماقتى وأبسم أخرى معللة نفسى بأن لا حياة بلا مغامرات !

كان الإعياء قد ذهب بشهيتنا فواصلنا السير دون توقف ، وحين جاوزت الساعة الثانية بعد الظهر أشرفنا على فندق صغير جذاب مطل على الطريق

شعرنا بشدة انخفاض الحرارة عند نزولنا من السيارة ، إذ أخذ الهواء القارس يقرسنا بشدة ، ولكن سرعان ما دبت الحرارة فى عروقنا عند دخولنا الفندق الدافئ . انهمكنا فى الأكل بتوانٍ . . . وبعد انتهائنا ألفينا الساعة مشرفة على الثالثة والنصف فهرعنا إلى السيارة وواصلنا السير

ازداد الظلام حلوكة ، وغدت السماء كالقار فى السواد ، وكان الرعد المتواصل مما يدخل الرهبة فى القلوب !

قال بيتر بصوت لطيف لتهدئة روعى :

ربما نزل بعض البَرَد . . .

ثم أردف :

ولكن بلوغنا الهدف سيكون قبل أن يتراكم

بلغت الساعة السادسة ولما نزل أمامنا أميال عدة دون غايتنا وأخذ الصقيع ينزل بشدة والسماء شديدة العتمة ... والطرق التى أخذنا نسير فيها ذلك الوقت ضيقة ملتوية مما جعل مواصلة السير من الصعوبة بمكان! ولكن على الرغم من كل ذلك تشبثنا بأهداب الجرأة فواصلنا سفرنا حتى صاح بيتر بعد لحظة :

— أنقف هنا ياعزيزتى ؟ إنها آخرمدينة تفصلنا عن القرية التى نقصدها . فأجبته بثبات : لنواصل السير فأنا لست خائفة !

دب البرد بين مفاصلي واعترى التشنج جسمى، وتخدرت جميع أعضائى لطول الرحلة ، ولـكننى لم أفه بكلمة واحدة تفضح ما أنا فيه من سوء، فقد كنت أرى بيتر جاداً فى السير بغية وصول دارتمور ولم أكن أريد أن أخذله

عدا التعب والتأخير فى السفر ماذا يمكن أن أخافه ؟ ؟ قطعنا عشرة أميال أخرى قبل أن أعرف الجواب على سؤالى هذا ! فقد أخذت أرمق بقلق تلك القطع الثلجية المنهمرة خلال الزوبعة الرهيبة ، وبدأت أشعر بأن هنالك شيئاً يخشى منه ! وبملاصقتى لبيتر شعرت بأنه يحس نفس ما أحسه ، وذلك من جراء تصلب أعضائه وتجهم وجهه

لم تكن عاصفة اعتيادية تلك التى داهمتنا فى سفرنا ففى خلال خمس الدقائق التالية تحولت إلى زوبعة عنيفة وأضحى صفير الرياح يعلو دوى آلات السيارة وكانت القطع الثلجية تصيب زجاج السيارة بشدة حتى لقد غدت جميع نوافذها قطعة من ثلج ! ولم تستطع آلة التنظيف الأمامية إزالة الثلج إلا عن مسافة جد قليلة مقابل عجلة القيادة فقط

انحنيت قليلاً مصوبة نظرى إلى الطريق فى خلال تلك المسافة المزال منها الثلج ، فأبصرت بالطريق قد اندرست معالمه لما تراكم عليه من ناصع الثلج ، ولم تكن عين الناظر قادرة على اختراق الظلام الدامس أكثر من خمس أقدام ، فانثنيت إلى بيتر قائلة :

— بيتر ! من الخير لنا أن نقف !

فأجاب بتقطيب :

— أتقولين الآن هذا ؟ لو كانت هذه رغبتك لفعلنا قبل الآن ... أما ونحن فى هذا المركز الحرج لا يسعنا إلا أن نواصل السير لعلنا نعثر على بيت أو « جاراج »

لم تزحف السيارة بنا سوى أقدام قليلة حتى بدأ الخوف الـكامن فى قلبي يتضخم ويوحى إلى بنزول كارثة عظيمة ! أخذت بعين الخيال أبصر بسيارتنا مارقة كالأعمى ، وعلى حين غرة تركد فى أحد الأخاديد وحينئذ ماذا سيحل بأجسادنا ! ؟ ستقذف ولا شك بقوة هائلة إلى جب من الجليد المتراكم وتسد السيارة علينا سبل النجاة حتى تجمد منا الدماء وتخمد الروح !

ولما انتبهت إلى نفسى وجدت الدم يتفجر من شفتى وكان ذلك من جراء إطباق أسنانى عليهما لأكتم صرخة هائلة كادت أن تفلت لما أوحته لى تخيلاتى !

وأخيراً ... أوقف بيتر السيارة وضغط على المصوت طويلاً ثم قال :

— إنما فعلت ذلك لـكيما يفزع من يسمعه لنجدتنا ، ثم دفع باب السيارة بقوة وألقى بنفسه إلى الخارج على صفحة الجليد اللامع ... وبعد قليل هب واقفاً واندفع يردد هاتين الـكلمتين : هالو ، هالو ... وكان صدى صوته يطرق سمى وكأنه آت من مكان سحيق !

***

كان الهواء يندفع بقوة نحوى ، وقطع البرد المتناثرة تلسع وجهى لسمات السوط فصرخت بهلع : بيتر ...! هيا إلى الداخل يا عزيزى . فسمت صوته بعد لحظة قائلاً : كارول حبيبتى هأنذا آتياً ... ولما

وصلني طوقني بذراعيه وهو يقول : ما أشد كآبتي على هذه الورطة التي زججتك بها أيتها العزيزة … ليتنا لم نأت !

أحسست بوجهه وهو يلثمني كأنه قطعة من ثلج ولكن شفتيه كانتا تشمان حرارة … ومرت لحظة ونحن متشبثان بعضنا ببعض في يأس قاتل !

تنهدت من أعماق نفسي قائلة : بيتر أيها العزيز سنتضامن حتى النهاية وسناقي الخطوب بثغر باسم . وأخذت أحلم بأن حبي لبيتر يفوق أي شيء في العالم !

قطع بيتر تلك النشوة السحرية التي غمرتنا بقوله : يجب علينا الآن مواصلة السير …

ما سارت السيارة قليلاً حتى حدثت المعجزة !

هنالك … خلال الضباب الأبيض الذي كان يلوح أمامنا ، بدأ نور ضئيل متأرجح ، وبكل صعوبة قدرنا على سماع صوت خافت يقول : من … من هناك ؟ ثم لم يلبث أن تعالى ، وفي الوقت الذي وقف بيتر السيارة تبلج الظلام عن شبح رجل حامل مصباحاً …

وقف الرجل يرمقنا لحظة ، ثم استدار وأومأ لنا بمصباحه أن نتبع !

فقال بيتر وهو يكاد يرقص فرحاً : كارول … لقد نجونا ، فلله الشكر !

— نعم ، شكراً لك يا رب … ربما لم نكن نستحق هذا العطف ولكنك أشفقت علينا وأنقذتنا فشكراً لك !

أخرجت هذه الكلمات من قلب مفعم بالإيمان ونفسي مغمورة بنشوة النجاة

كان ملجؤنا بيتاً صغيراً مطلاً على الشارع ، قادنا إليه المنقذ ، وإذ وصلنا وقفنا السيارة وأخذنا نجر منها أجسامنا إلى الخارج جراً . ومن خلال الباب المفتوح الذي وقف الرجل ، ذو المصباح ، بجانبه ، نفذنا إلى الداخل

أحسست برئتيّ سليمتين حادتين ، فتهالكت على الكرسي الكبير غارقة في خواطري ، وإذا بيتر ينحني علي قائلاً : أحالتك رديئة ؟ فأجابته محاولة الابتسام : كلا يا عزيزي إنني بخير

كان الرجل واقفاً بقربنا وقد أولى الباب ظهره ، وكان المصباح لا يزال يتدلى من إحدى يديه ، أما عيناه فكانتا تتطلعان نحونا بفزع ورعب ، صاح بنا بصوت أجش :

— من أين قدمتما أيها الغريبان ؟ أمسكت بيد بيتر بقوة وطفقت أفكر في أن هنالك بلا شك بعض الالتباس ، ذكر بيتر للرجل اسم آخر مدينة مررنا بها ، فقال الرجل :

— هل رمقت عيناك شخصاً قادماً إلينا ؟ فأجاب بيتر باستغراب :

— هل من شيء خطأ أيها الرجل ؟ لست بقادر على إفادتك بالجواب !

— حسبتك الطبيب … لقد بقيت في انتظاره حتى ساعة متأخرة …

— الطبيب ؟ قالها بيتر بدهشة ، فأومأ الرجل بعينيه وهو ينقلهما إلى الباب خلفنا قائلاً : هي زوجتي ، إنها … إنها حامل ونحن بأمس الحاجة إلى طبيب !

لم يكن الرجل أكبر من بيتر سناً ، ولقد كان للتغضنات البادية في وجهه ، ومظاهر الآلام المتجلية عليها ، أعمق الأثر في قلبي وأشد الحزن ! سألت الرجل :

— هل هى وحيدة ؟

— كلا ، ليست وحيدة فإن أمها لا تفارقها لحظة ، ولـكننا فى حاجة إلى حضور الطبيب مسرعاً فإنها على وشك الوضع

— آه . إن ذلك لمحزن حقاً ! قلت ذلك بصوت شبيه بالصراخ . فنظر الرجل إلىّ وكأنه يرانى للمرة الأولى ! ثم التفت إلى بيتر قائلاً :

— هل تملك فى سيارتك من البنزين كمية كافية ؟

— نعم .

— إذاً ، دع زوجتك تذهب هناك — مشيراً إلى ما وراء الباب — لـكى تدفأ بالنار . أما أنت فإنك ستقلنى إلى المدينة !

— إلى المدينة ؟ ! انفجر بيتر غاضباً ... عمّ تتكلم يا رجل ؟

فأجاب الرجل بصرامة وإصرار :

— يجب على أن أحضر الطبيب .

فأجابه بيتر وهو يهتز :

هل جننت ؟ ... إن المدينة على مدى عشرة أميال من هنا ، وليس بإمكاننا الوصول إليها فى هذه العاصفة مطلقاً !

— ولـكن ذلك ليس مستحيلاً ! ... سنصلها بسلام ، فإن معرفتى بكل شبر من الطريق لكفيلة بذلك ! ...

أعقب هذا الـكلام فترة صمت كان تنفسى خلالها محبوساً ، وإذا بيتر يواجهنى بنظرة دلت على الحيرة والالتماس ، فحملقت فى وجهه ، وقلت بصوت كان إلى الهمس أقرب منه إلى الـكلام :

— يجب أن تذهب !

— وأنت ؟

— أنا ؟ . . . أنا سأكون فى أتم صحة !

فأمسكنى وضمنى إلى صدره وهو يقول :

— لا تقلقى إذا ما تأخرت قليلاً فإن الأقدار التى أسعفتنا فى محنتنا تلك ستسعفنا ثانية فى هذه المرحلة ! ثم التفت إلى الرجل قائلاً :

— سنذهب إلى المدينة ... أنا أعدك بذلك !

وكأن الرجل كان يتوقع هذه النتيجة إذ سرعان ما قال :

— أسرع أيها الشاب فالوقت أثمن من أن نقضيه فى الـكلام !

ولبثت ممسكة رأسى بيدىّ وأنا ناظرة إليهما حتى ابتلعهما ظلام الطريق !

وبعدئذ ... أحسستُ بجفاف فى شفتى منعنى عن الـكلام ، أما قلبى فكانت ضرباته المنيفة شاهدة على ما كان يخالجنى من الهلع والشك !

وبينا أنا فى تلك الحال إذا بباب يفتح بجانبى ، وإذا بامرأة طويلة الجسم كئيبة المظهر تبدو منه ... وكان منظرها مما جلب لى الاطمئنان فأخذت أتنفس عميقاً وأحسست ببعض الارتياح . قالت المرأة :

— أظنه الطبيب ذلك الذى كان هنا ؟

— كلا ... لم يكن الطبيب ... أنا ... أنا مسز اندروود ، ولقد صاحب ابنك زوجى لدعوة الطبيب ونصحا لى بالبقاء هنا فى الانتظار

— حسن ، خير لك أن تأتى إلى الغرفة الأخرى فهى أدفأ

تبعتها بهدوء إلى الغرفة الأخرى وكانت غرفة جلوس صغيرة الحجم قذرة ذات أثاث مبعثر ولـكنها ساخنة لـكثرة ما كان يشتعل من أخشاب ضخمة فى إحدى زواياها

قلتُ للمرأة بلهجة صادقة :

— حقاً ، لقد أمضنى مرض ابنتكم فهل من شيء أقوم به ؟

فأجابت وهى تمرر أصابعها خلال شعرها :

— كلا ... نحن فى حاجة إلى الطبيب ! إن لى بشئون التمريض والولادة إلماماً لا بأس به ، ولكن هذه الحال ما أشد اختلافها عما تعلمته !

وفجأة قطع علينا الكلام أنينٌ خافت متقطع .. أنين جمد الدم فى عروقى !

والتفتت المرأة إلىّ على عجل وقالت :

— معذرة ! ... وولجتْ باباً على يمينها

ألقيت نظرة خاطفة على غرفة النوم، تلك الغرفة التى دخلتها المرأة الآن ، وحبست تنفسى بقوة حتى انطبق الباب ثانية فحجب الداخل عن نظرى

وجه نحيل ناصع البياض شبيه بوجه المحتضر ، وكمية من الشعر الفاحم تكدست هناك فوق الوسادة بنت لا تكبرنى سناً كانت هناك فى حالة من الألم لم أرها فى حياتى قط . فوجدتنى أهمس قائلة :

— آه يا رب ! ساعدها .. وساعد بيتر كذلك

***

كانت ساعة المنضدة تشير إلى الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة . ألا ما أطول ما سيستغرقونه فى البحث عن الطبيب ، وما أطول ما سننتظر نحن على هذه الحال !

تهالكت على الكرسى وأنا أتجلد على محنتى .. وكانت الساعة تواصل ضرباتها الخافتة، وبالتدريج شرد فكرى ثانية إلى تينك اليدين العاريتين الناحلتين !

الساعة الثامنة والربع ... الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعون ... التاسعة

خيل إلى أن جلستى ستطول إلى الأبد لا أرى سوى تلك الساعة المجنونة مواصلة ضرباتها ... لا أشعر بغير ذلك الفزع والألم ... ولا أسمع سوى تلك التنهدات الموجعة وذلك الأنين المتقطع الخفيف الصادر من الغرفة الثانية !

ذهبت بأفكارى إلى حيث بيتر وذلك الزوج الصغير القانط وهما يقودان السيارة فى هذا الليل الحالك وهذه الزوبعة الجارفة ؟ ألا يزالان فى السيارة إلى الآن ؟ ! ألا يمكن أن يكونا قد ترديا فى إحدى الحفر فأطبقت السيارة عليهما واستحال عليهما الخروج ؟!

ومئات من هذه الأفكار أخذت تتهافت إلى إلى فكاد يصيبنى منها الخبال . ولكننى أخيراً عزمت على إبعادها عنى فاندفعت نحو الغرفة ، وكان همى أن أجد ما أفعله الآن ... شيئاً يمكننى أن أمد يدى بالمساعدة فيه ولو قليلاً ! وكان ما ينبعث من الغرفة المجاورة أصواتاً قليلة جدا ... وقد طرق سمعى مرة أنة محزنة خافتة تندت لها عيناى بالدموع !

جاوزت الساعة العاشرة بقليل عند ما رجعت المرأة إلى غرفة الجلوس ثانية بوجه شاحب وجسم متقوس دل على ما كانت تعانيه من النصب والكآبة. أقبلت على قائلة :

— هل لك أن تسخنى نزراً من الماء ... ؟ ولكن لا ... املأى كل آنية يمكنك العثور عليها!

— آه ... نعم ! وهرعتُ إلى الغرفة السفلى

مغتبطة بهذا العمل الذي كنت أتوق إليه !

— يمكنك أن تعدّي قليلاً من القهوة أيضاً .

قالت المرأة هذا وقد تبعتني إلى الباب ، ثم أردفت : سيكون الرجال في حاجة ماسة إليها عند رجوعهم !

أجبتها بجرأة : عند رجوعهم ؟ أو تعتقدين حقاً أنهم سيعودون ؟

فأجابت ببساطة :

— لا شيء يحول دون رجوع توم !

أحسست بشجاعتي الواهيــة تنتعش للهجة التوكيدية التي بدت في كلامها ، وانهزم بعض ما كان حائماً حولي من أفكار سود ! ولكن هذه الشجاعة المنتعشة أشرفت على التضعضع والزوال مراراً قبل أن يبلغ انتظارنا نهايته !

امتد عقربا الساعة يشيران إلى انقضاء عشرين دقيقة بعد الثانية عشرة ، وفي هــذه اللحظة دار مصراعا الباب بعنف واندفع إلى الداخل ثلاثة رجال كان كل منهم أشبه بتل جليدي صغير ! وكان الإعياء بادياً عليهم بأجلى مظاهره لما قطعوه من بعد المسافة !

اندفعوا إلى الداخل بترنح . ولما تمالكت صوابي أخذت أصرخ :

— بيتر ! ... آه يا بيتر ! وفي لحظة غدوت بين ذراعيه !

جلست وبيتر حول النار ، أما الطبيب وتوم فقد ذهبا إلى الغرفة المغلقة ... سألني بيتر بصوت خافت :

— هل هي في خير ؟

— لا أعلم ... هي هادئة جداً وأخشى أن تكون ... فقاطعني بيتر بعنف :

— كلا ، لا يمكن أن تكون ... إن شيئاً من ذلك لا يمكن أن يحدث لتلك الصغيرة ! ورأيت يديه تتصلبان ، وكان في نظراته تعبيرات شتى لم أر مثلها قبلاً ! وعاد يقول بهمس : هكذا الحب ! ... إنه حب خليق بالتبجيل ... كارول ! أنت تعلمين ما يكنه لك قلبي من حب وإخلاص ، ولكن ... ولكنني هذه الليلة اطلعت على حب لم أر له في حياتي مثلاً !

صرخت بقوة :

— بيتر ! ماذا تعني ... ؟

ولكنه واصل كلامه قائلاً :

— آه يا كارول ... تمنيت لو كنت معي لترى « توم » وما قام به . لقد قطعت القسم الأكبر من الطريق الموصل إلى المدينة تحت إرشاداته ... وانتعل الأرض الجليدية بقية الطريق لكي ينظف بيديه زجاج السيارة الأمامي ، وكان من جراء ذلك أن أصيبت إحدى يديه بالبرد الشديد ، ولكنه لم يضع أي وقت لإسعافها ! ذلك ما قام به توم ! وإنه ليدل على عظم حبه لزوجته وتفانيه لها حتى لقد كاد يضحي بنفسه في سبيلها . ألا ما أروع هذا الحب !

وما انتهى بيتر إلى هذا الحد من كلامه حتى طوقته بذراعي هامسة :

— آه يا بيتر ... يا عزيزي !

وكان التعب الشديد قد أخذ منه كل مأخذ فألقى برأسه على صدري ولبثت ممسكة به كالطفل ، وفي هذه اللحظة أدركت حقيقة الحب وقدسه !

رفع بيتر رأسه ونظر إلىّ لحظة ثم قال :

— كارول ! سنرجع إلى البيت غداً ! لقد ركبنا متن الشطط بسفرنا هذا فعلينا أن نتلافاه ... علينا أن نعود إلى مدينتنا ... ويجب أن نعمل ... وننتظر ، ثم بعد أيام سنكون زوجين وسط احتفال كبير يليق بك ، فإنك بهذا أحق مما كنا ننوى فعله ! ...

— بيتر ... حبيبى بيتر !

قلت ذلك بنعومة متناهية ، وكان قلبى يرقص من فرط السرور ، وعندما رجع إلى أذنى صدى كلماتى كانت شفتاه قد أطبقتا على شفتىّ ، ويداه ممسكتين يدى بقوة ... وجسمه ملتصقاً بجسمى . وأخذ يغمرنى بالقبلات ، وبعد لحظة ، أخذ كل منا يرمق صاحبه بغبطة وجذل !

انفتح باب الغرفة المجاورة واندفع توم خارجاً بقوة ، وقال بصوت ظهرت منه رنة الفوز والسرور معاً :

لقد ربحنا ... والشاهد على ذلك طفلى الصغير !

وفى نشوة تلك اللحظة تطلعت عيناى إلى المستقبل القريب ... إلى اليوم الذى يدوى فيه صوت بيتر بمثل هذه الجملة ، وفى عينيه بريق شبيه بالبريق المنبعث من عينى توم !

ناصر عزيز منصور

ثلاثة على منضدة

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان الحديث فى قاعة التدخين دائراً حول المفاريت والجن . وقد اختلفت الآراء فمن مصدق بهذا الموضوع مثل تصديق الأطفال ومن مستنكر لذلك . وكان فى المتحدثين من يقول إن التكذيب كفر، ويستشهد بما جاء فى الكتب المقدسة عن الجن والمفاريت . وقال : « وفضلاً عن ذلك فإن البحارة قد رأوا المفاريت بأنفسهم أثناء رحلاتهم فى البحار وليس بينكم من لم يسمع رواية أحدهم عما شاهده من هذا القبيل »

وكان أحد السامعين ملازماً للصمت منذ ابتداء الحديث فلما وصل القول إلى هذه النقطة قال : « أنصح لكم بألا تصدقوا ما يقوله البحارة فإنهم بعد أسفارهم الطويلة يجدون أنفسهم مضطرين إلى التحدث بأى شىء ، وإن أصحابهم يستاءون إذا وجدوهم ملازمين للصمت

قال غير المصدق لأحاديث الجن : « هل رأيت أنت شيئاً من ذلك ؟ » : فأجابه : « لقد قضيت فى البحر ثلاثين عاماً فلم أشاهد غير حادثة واحدة من هذه الحوادث غير السارة . ولم تكن هذه الحادثة فى البحر ولكنها فى قرية انكليزية

قال : «وما هى ؟» فأجاب وهو يشعل غليونه : « لقد كنت شاباً صغيراً عند عودتى من أول رحلة رحلتها إلى الصين . وكان أهلى غير موجودين فى المدينة فذهبت إلى قرية قريبة لأكون فى ضيافة عمى . ولكننى وجدت عمى قد سافر أيضاً إلى فرنسا وسيعود بعد يومين فعزمت على أن أقيم - حتى يعود - فى فندق صغير بالقرية

«وانقضى يومان، الأول على مايرام، ولكننى فى الليل أحسست بالسأم من الوحدة لأنه لم يكن فى الفندق ضيف غيرى فقررت أن أقضى اليوم التالى سائراً فى الخلوات طلباً للرياضة وتجديد المناظر . وكان الجو بارداً فى اليوم التالى ولكن السماء صافية . فمشيت بين الحقول ومررت فى طريقى بعدد من القرى شكلها مبهج فلما جاء وقت الغداء تناولت قطعة من الخبز والجبن واستأنفت السير فلما أردت العودة بعد ذلك وجدت نفسى قد ضللت الطريق ووجدت أمامى طرقاً متعددة فسلكتها واحداً بعد واحد . ولكننى كنت أجدها دائماً مفضية إلى البرك والمستنقعات . وفى أثناء سيرى بدأ الضباب يتكاثف ثم زاد فجأة فاستعصى علىّ المسير على نظام ، ولكننى ظللت أمشى حتى الساعة الرابعة على أمل أن ألتقى ببعض الرعيان أو الفلاحين . ولكننى فى النهاية رأيت كوخاً يضىء فى نافذته مصباح فعرتنى رعشة لا أعرف سببها . ومشيت نحو الكوخ

وفى طريقى إليه قابلنى رجل فسألته عن اسم المكان فأجابنى . وسألته عن المسافة بينه وبين قريتى فقال إنها خمسة عشر ميلاً فانزعجت ثم شكرته ويممت نحو الكوخ فنادانى ونصح لى بألاّ أذهب إليه

قلت : « لماذا ؟ »

فقال لأن به مخلوقاً أشبه بالمجانين منه بالعقلاء ويكاد الإنسان لا يعرف هل هو إنسان أو حيوان لشدة مابه من التشويه »

ولكننى كنت أشعر ببرد شديد وبتعب أشد فلم يسعنى إلا مخالفة نصيحته وذهبت نحو الكوخ ، وقرعت الباب فانطفأ المصباح الذى فى النافذة ، ثم خرجت امرأة كأنها هيكل عظمى وكان فى صوتها وفى مشيتها ما يدل على أنها فى حالة عصبية وسألتنى من أنا وماذا أريد »

قلت : إننى ضللت الطريق ، وإننى من قرية (أشفيل) ... وسألتها : هل أستطيع أن أستريح بذلك الكوخ ؟

فكادت تغلق الباب فى وجهى لولا أن ظهر عند ذلك رجل مسن طويل القامة عريض الكتفين وأجاب ببطء : « إن قرية أشفيل تبعد عن هنا خمسة عشر ميلاً »

قلت : « إننى أكون شاكراً لك لو دللتنى على الطريق إلى أقرب قرية »

فلم يجبنى ولكنه تبادل النظرات مع المرأة فأشارت إشارة تدل على الموافقة فقال : « إن أقرب قرية تبعد عن هنا ثلاثة أميال فإذا سمحت لى برافقتك إليها فإنى مستعد »

فترددت وقد كان شكل هذا الرجل وامرأته غريباً وقلت : « شكراً لك ولكن ... » . فقال : « أدخل إذن ! أغلق الباب يا حنة »

وللحال وجدت نفسى داخل المنزل ووجدت الباب مغلقاً وقام بروعى أنى وقعت فى المصيدة

وقالت المرأة لزوجها : « إن العشاء قد أعد »

فاستأذننى الرجل فى مغادرة الغرفة فأحنيت رأسى . وبعد لحظة وجدت نفسى منفرداً فى غرفة مظلمة ، وسمعت فى الغرفة المجاورة أصوات ثلاثة يتكلمون وهم الرجل وامرأته وثالث

وعاد الرجل بعد قليل فنظر إلى نظرته الغريبة وقال : « سيكون على مائدة العشاء ثلاثة غيرك أنا وزوجتى وابنى . وأظنك لا تهتم بأن يكون عشاؤنا فى الظلام لأن ابنى مصاب بعينيه »

قلت : « لا بأس »

ولكن شعرت بازدياد الخوف . وفى هذه الأثناء دخلت المرأة ونظرت إلى نظرة المتلصص ووضعت طبقاً كان فى يدها على المائدة ثم ذهبت وعادت بطائرين مشويين . وقال لى الرجل : « قلما حضر طعامنا غريب . وقلما اتفق لنا وجود إنسان لدينا فنحن مسرورون بك »

ثم خرج وعاد معه مخلوق مشوه فأجلسه على المنضدة وبدأنا نأكل وقد كان الليل بارداً وشهيتى قابلة للطعام فأكلت رغم صعوبة تناول الطعام فى الظلام وسألنى المشوه بصوت عجيب : « هل أنت غريب فى هذه الجهة ؟ »

فقلت : نعم . وتجملت بكلمة عن حسن الحظ الذى قادنى إلى هذا التعارف فقال : « لقد نسيت الخمر يا أبى »

قام الرجل ونظرت فى أثناء غيابه فرأيت أمامى عينين تسطعان فى الظلام كأعين القطط هما عينا ذلك المخلوق الذى يقولون إنه مصاب بعينيه ، وغاب صاحب

المنزل واشتد اضطراب أعصابي من النظر إلى وجه هذا المخلوق فوقفت واضعاً يدى وراء ظهرى وزاد من رهبتى أنه كان فى طرف الغرفة موقد تندلع منه ألسنة نار زرقاء وتحدث ريحاً كريهة

— ٢ —

ومضت دقائق فى صمت ثم فتح الباب ودخل الرجل فمشى كالآلة نحو المنضدة فوضع عليها زجاجتين وقال : « يكفى هـذا الظلام » ثم أشعل عدداً من الثقاب فوجدت وجه المخلوق الذى كان يؤا كلنى وجه ذئب لا يختلف عن الذئاب شيئاً وفوق جلده وبر كوبر الكلاب والذئاب ، وعينيه شديدتى السطوع. فبدت لى الحقيقة لأول مرة وعرفت أنى فى بيت من بيوت الجن. وقال لى الرجل: «هذا هو ابنى واليوم عيد ميلاده . وقد أردنا أن نجعلك صديقاً بهذه المناسبة فلم نمسك بسوء »

فأحسست أن الدم ينضب من جسمى وشعرت ببرد مضاعف . وقدم لى الجنى كأساً من الخمر فشربت وشرب . وقام الولد الذئبى والمرأة . وما زلت أشرب مع صاحب المنزل ، وكان كلما شرب كأساً زاد طول قامته وزاد خوفى منه[1] . وكان الليل مسرعاً ، ونحن نتحدث فى شؤون شتى حتى دقت الساعة الثانية عشرة ، وكان طول الرجل قد بلغ السقف وهو جالس وقال : « لقد آن وقت النوم »

ثم ترك لى الغرفة وأشار إلى فراشى بجانبه فحمدت حسن حظى لمفارقته إياى . ولما صرت وحدى أسرعت إلى الباب . ولم أزل أنهب الأرض جرياً حتى عدت إلى قريتى فى الصباح .

(١) ذكرنا هذا بقول الأخطل :

وكأس مثل عين الديك صرف ... تنسى الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا ... بغير الماء حاول أن يطولا

أســـد + نمر = ؟!

قصة أمريكية

بقلم الأستاذ محمد عصمة

أشعل الجوّاب المشهور والصياد البارع (هارى لاندون) لفافته الضخمة وقال :

— إن مغامراتى كثيرة جداً ...

ثم تنحنح وتفرس فى وجوه الحاضرين ليرى مبلغ انتباههم لحديثه . ثم استطرد :

— ومن حسن حظى أننى نجوتُ من كل ما أحاطنى من الأخطار الجسيمة ، ولعلكم تتساءلون أيها السادة : هل كنتُ جباناً رعديداً أم شجاعاً صنديداً ... أليس كذلك ؟

لقد حدث ذات يوم أن اعتقلنى الهنود الحمر ، وأنتم تعلمون كراهيتهم ومقتهم للجنس الأبيض . تصوروا أننى قضيتُ ليلة سجيناً فى أحد أكواخهم بينما كانوا يرقصون مهللين حول النار استعداداً لإعدامى فى الغد الباكر ، وفى الصباح ساقونى إلى الغابة باحتفال مهيب حضره كل أفراد القبيلة وهموا بتمزيقى شر ممزق ، ولولا إسراع أصدقائى لنجدتى بينادقهم بعد أن بحثوا عنى طيلة الليل ، لأصبحتُ أثراً بعد عين ... ولكنت الآن فى عداد الأموات . وربما تعجبون إذا قلت لكم إن كل ذلك حدث دون أن أضيع رباطة جأشى

وفى مرة أخرى بينما كنت أخترق غابة كثيفة مشتبكة الأغصان ، وإذ بأفعى هائلة تسقط علىّ من دوحة عظيمة ... ولم أجزع أيضاً

وكثيراً ما وقفت أمام الموت وجهاً لوجه دون أن يخطر الخوف لى على بال .

أجل يا سادتى ! هذا هو الواقع وجميع معارفى وأصحابى يعلمون ما أنا عليه من البسالة ومتانة القلب فى مواقع الصيد ومعارك القنص ، ولا يمكننى إحصاء مواقفى التى أبديت فيها من ضروب الشجاعة ما يعجز عنه غيرى من الزملاء . ولكن هـذا لا يمنعنى من سرد حادثة وقعت لى إبان الشباب وكادت تقضى على حياتى أو تذهب بعقلى — على الأقل — من شدة الرعب

وصمت الرجل فجأة وغاص فى لجج من الأفكار وكان ينظر حينئذ إلى مكان قصى كأنه يريد سبر غور السنين البعيدة الخالية بعينيه الزرقاوين ثم شرع يدخن وينفث الدخان إلى فوق ، وكانت الحانة غاصة بالشاربين ، وكنت تسمع بين الفينة والفينة رنين الكؤوس وضجيج السكارى وتضاحيك الغوانى إلا أن السكون شمل المكان وأنصت الجميع كأن على رؤوسهم الطير واشرأبت الأعناق لسماع حديث السائح ، وبدأ القوم ينتظرون القصة بشغف وشوق

وسئم أحد الحاضرين هـذا الصمت الطويل ولم يتمالك نفسه فجعل يستحث المحدث قائلاً :

— أتتكرم يا مستر (لاندون) وتقص علينا ما جرى لك ؟

رفع السائح رأسه وتفرس فى الوجوه من جديد كمن كان ينتظر هذا السؤال ، ثم بدأ حديثه ببطء وبصوت هادئ :

— كنت إذ ذاك ضمن حدود (نوادا) وكنت

أشتغل فى معمل ورق عظيم الشأن . وفى أحد الأيام صدر منى تقصير تافه جداً أدى إلى طردى وحرمانى من العمل . وكنت لا أملك شروى نقير وظللت أجوس الشوارع والأزقة متسولاً حيناً ، أو باحثاً عن عمل مهما ضؤل شأنه . وكنت حينئذ فى شرخ الصبا متين البنية مفتول الساعد . بيد أننى يتيم الأم والأب ، عديم الأقارب والأصدقاء ؛ ولم يكن لى من معين سوى نفسى فكأننى خلقت لأتحمل مصائب الحياة وأرزاء القدر والتمست العمل أياماً وليالى عديدة فذهب تعبى هباء وسعيى سدى

جبت بلاداً جمة فى طلب الرزق ولكن وا أسفاه دون جدوى

وأخيراً ساقنى القدر إلى بلدة صغيرة تدعى (فرجينيا) وهنالك قابلت رجلاً يدير ملعباً عظيماً للحيوانات . وعرضت عليه أمرى فلم يأبه لى ولم يعن بمصيرى فى اليوم الأول

وكانت حفلات هذا الملعب المتنقل مدهشة للغاية وتدر على صاحبها الأموال الطائلة . ويحوى الملعب أندر الحيوانات وأعجب المخلوقات وأجمل الألعاب

وفى اليوم التالى ؛ قصدت المدير فى غرفة عمله وكان على غير ما عهدته بالأمس فهو شاحب اللون مشوش اللب ، يفكر ... ويفكر ...

سألته ما به ، فأبى الكلام . ثم ألححت عليه بالسؤال فنطق بالحقيقة

وكان همه الوحيد إيجاد رجل شجاع متين الأعصاب ليعهد إليه بلعبة خطرة . وزعم أن نمر الملعب مات بصورة فجائية ، وأبدع الألعاب التى يطرب لها الجمهور صراع ذلك النمر مع أسد كبير.

وعرض على المدير أن ألبس جلد النمر المسلوخ وأقابل الأسد فى قفصه أمام المتفرجين، وذلك مقابل دولار واحد عن كل حفلة . ودولار واحد حينئذ كان مبلغاً لا يستهان به وخصوصاً بالنسبة لما أنا عليه من الفقر والاحتياج ... ولكن ... كيف أضحى بحياتى فى سبيل دولار ؟

وأظن أن المدير شعر بما يجول فى خاطرى فجمل يطمئننى :

— لا تخف يا صاح ... إن أسدنا مسنّ وبليد الحركة وضعيف البصر وليس بإمكانه أن يحول رأسه نحوك . وأنا على يقين بنجاتك منه ونجاحك فى التمثيل ... لا تخش شيئاً يا بنى ... وعدا ذلك سنطعمه أكثر مما يجب ... إياك والخوف فليس عليك من بأس ، وإلا أفسدت الحفلة ... هيا بنا للعمل !

وبمثل هذه الكلمات أغرانى ونزع الخوف من قلبى انتزاعاً ، فدب الأمل فى نفسى ورضيت بهذا العمل الشاق . فاقتادنى المدير فوراً إلى إحدى غرف الملعب ، وهنالك تسلمنى فئة من الرجال وكنت ساعتئذ فاقد الإرادة تماماً أسير كالخراف المعدة للذبح فأدخلونى فى جلد نمر وشرعوا يخيطون جوانبه بمهارة فائقة تدعو للعجب ، وكأنهم اعتادوا هذا العمل . وخلال دقائق معدودة تحولت من بشر إلى حيوان مفترس شديد البطش . وبعد ذلك قادونى إلى قفص حديدى كبير رأيت فى إحدى

زواياه أسداً هائلاً يغط فى نوم عميق

وكان الملعب يعج بالألوف من أهالى (فرجينيا) وقد خدعوا بمظهرى المزيف إذلم أكد أظهر أمامهم حتى علا ضجيجهم وهتافهم. وقد بلغ الهياج والتصفيق منتهاه، ولكن قلبى كان طافحاً بالرعب والفزع، وجسمى يضطرب كالريشة فى مهب الرياح. فجعلت أنظر من خلال ثقبى العينين إلى الأسد الهادئ الرزين، فرأيته لم يبال بحضورى، فسررت فى نفسى غاية السرور ... إلا أن الأمر ويا للأسف لم يدم طويلاً، فقد شعر سلطان الوحوش بوجود خصم له فرفع رأسه وحرك جسمه الكبير بتثاقل، ثم تثاءب أما أنا ... فقد أسندت رأسى إلى قضبان القفص الحديدى خشية الوقوع على الأرض فاقد الرشد. ونظرت حولى كمن يطلب المساعدة والنجدة. وأيقنت أنى هالك لا محالة، وقد حيل بينى وبين الفرار، وكان الخوف قد بلغ منى أشده ... يا لهول الموقف!

وعلى حين غرة، نهض الأسد الجبار بسكون وحدق فىّ بعينيه الملوثتين شراسة ووحشية ... يا له من مخلوق جليل! ...

لقد بدأ يقترب منى خطوة فخطوة ... أردت أن أصرخ وأستنجد، وأنى لى الصراخ وقد بُح صوتى، واقشعر بدنى، واغتسل جسمى بالعرق البارد ... عرق الموت ... وبدأت صور الماضى وذكرياته تمر أمامى بسرعة هائلة ... فعجبت لربع قرن تمضى فى بضعة ثوان لا يتجاوز عددها الأصابع

وأخيراً، استسلمت للقضاء والقدر، وتركت نفسى لقمة سائغة لهذا الوحش الكاسر، وأدركت أننى سأذهب ضحية من ضحايا الفقر والبؤس!

أخذ الحيوان يتمرغ على الأرض، ويزأر بصوت عال مزعج، وكان يضرب خشب القفص بمخالبه ويسعى للوصول إلىّ شيئاً فشيئاً كأنه يريد إرهاق وتعذيبى وقتلى قبل العراك بمشيته الوئيدة ...

أقعيتُ منكس الرأس أبتهل إلى الله أن يقينى شر هذا الحيوان المفترس ... إلا أن الجمهور بدأ يصرخ بأعلى صوته، ويتلهف لرؤية المعركة الحاسمة! وفى النهاية ظهر العزم فى عينى الأسد ...

ها هو ذا قد دنا منى، وأصبح على قيد خطوة وأنا ... وأنا ... لا أجرؤ أن أحرك ساكناً ... لقد مس رأسى بأنفه ... يكاد أن يذيبنى بحرارة أنفاسه — الآن — سيقضى على حياتى بضربة واحدة، أجل بضربة واحدة ... وأنا ...

وفى هذه اللحظة سمعت صوتاً إنسانياً صادراً من الأسد:

— صه يا أحمق ... هل أعطاك ذاك المدير اللعين كما أعطانى دولاراً أم أكثر؟

«دمشق» محمد عصمت

الراقصة

أقصوصة مصرية

للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

حدثني أحد الأصدقاء قال :

رأيتها صغيرة ساذجة يعلو وجهها اصفرار لا يمحو من جمالها شيئاً ، إذ كان الصغر وكانت السذاجة تغمران قلب من يراها بعطف وحب عجيبين، وسمعت حديثها في صوت له رنين كبير ، ولكنه يغتفر لها لأن كلماتها تخرج من بين ثنايا فتاة صغيرة ساذجة تتبسم ، فكلما تكلمت مَلُح كلامها لأنه يمر من هذه الثنايا العِـذاب

هذا أثر النظرة الأولى وأثر اللقاء الأول ، ولكنني لم أدر مما أصابني حين ذاك إلا أن عاطفة مسّت قلبي ولم تحوّم حوله إلا قليلاً ، ثم مضت في سبيلها وغابت وقتاً طويلاً ، ولم أدر أن القدر يخبأ لي وراء هذه النظرة ألماً طويلاً

***

التقينا ذات مرة في سواد الليل الأخير على غير موعد ننتظر عربة تمر بنا إلى الحيّ الذي نسكنه ، فدنوت منها ودنت مني ، فسألتها : ماذا تأخر بك عن البيت إلى هذا الوقت ؟ فسمعت إجابتها في صوت سكرى مجهودة . فعرفت بعض أمرها وأحببت أن أرى بقيته ؛ ولكني ناديت سائق عربة مرت وحملت صاحبتي إلى جانبي ثم عدت أسائلها

قالت وهي لا تدري : إنها شهوات النفس وشهوات البطن قد دفعتني إلى أن أتعلم الرقص خفية وأرقص خفية لأن أهلي لا يرضون وديني لا يبيح، والشبان يهيئون لي مراقص مختبئة أراقصهم فيها فأشبع شهواتهم وأشبع شهوتي ولا أنسى أجري؛ ولكنني الليلة محزونة فإنني لم أحظ بأجر وفير ، لأن الذين راقصوني الليلة ليس فيهم راقص جديد . قلت لها : ولكنك تشغلين النهار في عمل شريف ! قالت : ولكنه ذو أجر زهيد وأنا أحتاج إلى ملبس وطعام وحياة تتناسب وما أنا عليه من جمال . فقلت في نفسي : « ويل لمن سلط الله عليه شهوته » وقلت لها : وإلى متى ترتمين بين أيدي هؤلاء العابثين؟ وماذا يكون من أمرك لو عرف أبوك ؟ ولم أشأ أن أسألها عن علاقتها بالله لأنها قطعتها . وقلت لها وقد غمرني الحنـان والعطف عليها : ولم لا تبحثين عن زوج شريف يغنيك عن عمل النهار وشقوة الليل وأنت لا تزالين في جمال يغري الطالبين . فتنهدت وقالت : ومن لي به ؟ فقلت لها وقد غلبت عليّ عاطفة الرحمة : الله لك . قالت : وهل يستجيب ؟ قلت : نعم وقبل أن تسأليه فهـل ترضينني زوجاً ؟ فأفاقت من سكرتهـا وابتسمت أساريرها وقالت : أحق ما تقول ؟ قلت : نعم ، فصدقيني ولا ترتابي . وكان لها العذر في أن ترتاب وألا تصدق ، لأنها تعودت أن تسمع

فى مراقصها الأكاذيب . ثم وصلنا إلى الحىّ الذى نسكنه فأخذتُ بيدها إلى بيتها وانفلت أنا إلى بيتى ونحن على موعد لتحقيق الآمال !

* * *

قالت لى ذات مرة وأنا خطيبها : أمن حق الزوج أن يحرم امرأته لبس جلباب قصير ؟ وهل من حقه أن يمنعها من أن تطل من الشبابيك ؟ وهل من حقه أن يصهرها بنيران المطبخ كل يوم ؟ وهل من حقه أن يمنعها عن زيارات صاحباتها إلا إذا صحبها ... وقالت وقالت .. فقلت لها: الزواج أجمل من ذلك وأعلى . إن الزواج سعادة روحية، إنه سكون ومحبة دائمة مستقرة وأولاد إذا جاد الله بهم نسى الزوجان بهم نفسيهما . فقالت : أفٍّ من السكون ومن وجهين متراثيين ليس هناك غيرهما عشرين عاماً أو خمسين ، ومن صخب الأولاد وضجيجهم فقلت فى نفسى إنها لا تزال راقصة تنفر من الشرف وتأوى إلى زوايا التلف التى يضحك لها فيها الشيطان

* * *

أما أنا فدست قلبى حين رأيته يعطف فى غير موضع عطف ، وأما هى فظلت مضطربة تزن الأمور بعين جائرة وكف ظالمة حتى اطمأنت إلى الحياة التى تحياها ، فهى تشبع شهوتها وبطنها وكفها وتلهى أهلها عنها بأكثر أجرها الذى تتقاضاه فى النهار ، وهم بمالها فى فرح وبما يصلهم من أخبار استقامتها فى رضا ، وظلت هى تتقلب كل ليلة فى يد عابث جديد كما تتقلب السلعة المكشوفة فى أيدى المشترين فتذهب بهجتها وينطفىء لمعانها ، ولم تزل تنحدر شيئاً فشيئاً حتى فقدت قلبها وانطفأت عيناها وبلغت حافة الهوة التى تردت فيها سالفاتها ففقدت عملها الشريف بالنهار وخلصت حين ضاقت بها الدنيا للرقص العلنى فى الليل ، وهكذا كان

* * *

رقصت فى العلن بعد السر ، ورقصت وحدها لأن الشبان يأنفون أن يراقصوا فتاة قد اشتهرت باحتراف الرقص ، وتلقفتها أيدى طبقة من المبتذلين أدنى من طبقة أصحابها السابقين ، ومضت مع الزمن بلا عقل ولا قلب لا تدرى فرقاً بين رجل ورجل ، وشرف وخسة ، وكلما مر بها الزمن انهدت قواها وثقلت خفتها وغاض جمالها. فلما نفدت محاسنها عفت عنها المراقص العلنية أيضاً فطردها الليل كما طردها النهار وتلمست جوانب الرحمة فى جوانب الناس فلم تجد فبكت وشعرت بأنها نسيت شيئاً كان كفيلاً بإسعادها إلى الأبد هو القناعة والإيمان

* * *

أماتت قلبها فأماتها الناس من ذكراهم وبرىء أهلها ولم يعد لها من أقاربها قريب ولا من أصحابها حبيب ، ودارت هائمة على وجهها فى الطرقات حتى عثرت بى فى حديقة ذات مرة وحولى صبيان يلعبون فعرفتنى وما عرفتها ، فقالت حين وقفت بى : أهؤلاء أولادك يا سيدى ؟ قلت : نعم . قالت : وأين أمهم ؟ قلت : تعد لهم الطعام فى البيت . قالت :

ألا تصحبهم خارج البيت ؟ قلت : لا ... ثم سألت وألحفت ؛ فحدقت النظر فى هذه الملحة فعرفتها ... ولكنها كانت فى جلباب رث ... وكمها طويل ، وليس لها زوج ولا أولاد ولا بيت ولا مفتاح باب ، وليس لها أهل ولا أصحاب ولا مال ، وليس لها شرف تمضى به فى الناس ولا قوة تعينها حتى تتبع خطوات الشيطان ... وحين شعرت بأنى عرفتها بكت ولكنه بكاء لا يستدر عطفاً ولا يخلق أملاً

* * *

قلت لصاحبي : أو تألم أنت لها ؟ قال: لا، إنها لا تستحق الرحمة . قلت له : إنها إن لم تكن تستحق الرحمة حين بطرت فإنها تستحقها حين بكت

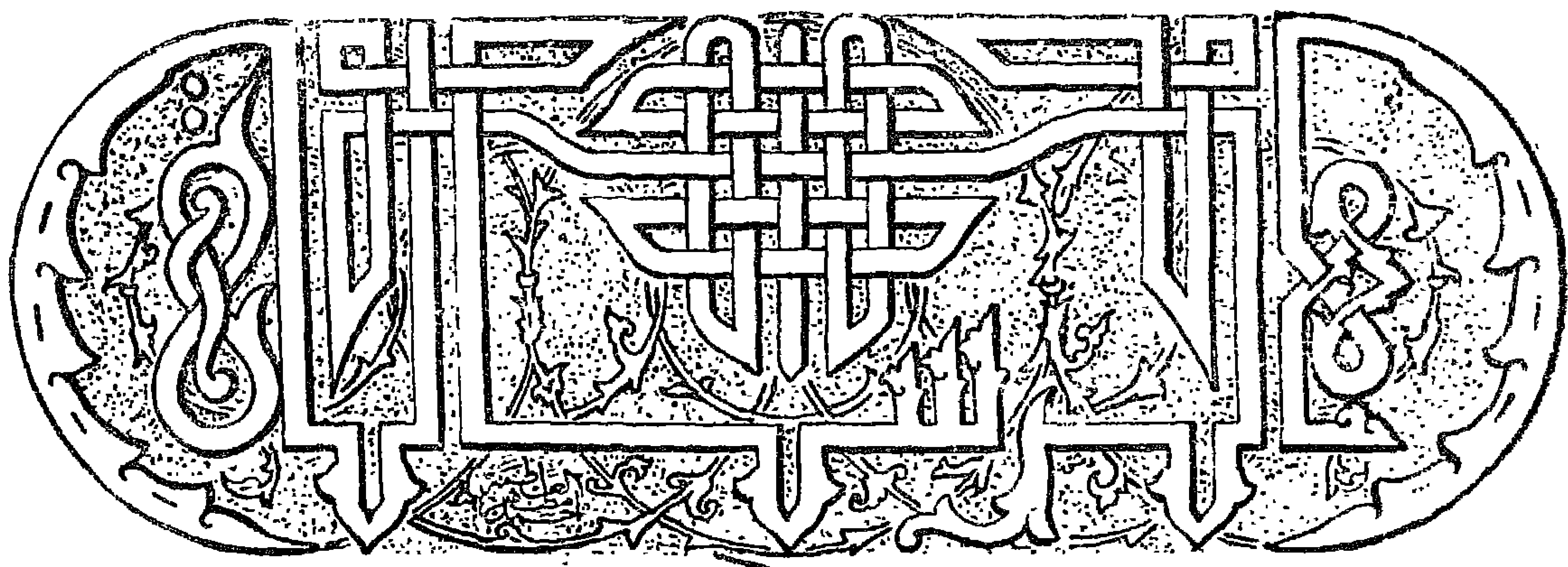
فصمت صاحبي ودمعت عيناه فعلمت من صمته وبكائه ما لم يفصه على فى قصتها، فقد أخفى عنى حديثاً لعله حديث الحب ، بل هو الحب أشملته هى فى قلبه ولم تطفئه، فرضيت حيناً ثم شقيت، وشقى هو حيناً ثم رضى ، فلم أشأ أن أثير ذكرياته فقلت له : لقد لقى كلٌ منكما جزاءه فلا تغضب عليها واسأل لها عفو الله .

(الاسكندرية) عبد العزيز سيد الأهل

فهرس السنة الثالثة من الرواية



(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

رجى مايساوى جنيها مصريا، وللبلاد العربية بخصم